إحسان النص   خليل هنداوي   عمر يحيى

الرائد

في الأدب العربي

للصف الخامس الإعدادي بفروعه الثلاثة : الأدبي والعلمي والنسوي

الطبعة الأولى

المطبعة الهاشمية بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن المنهاج الحديث الذي أقرته وزارة المعارف السورية لمادة الأدب العربي قد ربط بين درس الأدب وبين النصوص الأدبية ربطاً وثيقاً ، وجعل هذا الدرس يقوم على تحليل النصوص الأدبية وتفهّمها وتذوقها وعلى معرفة الأدباء من خلال آثارهم . ولا ريب أن هذا المنهاج يغاير، في روحه ومادته ، المنهاج القديم الذي كان لايعنى بدراسة النص قدر عنايته بدراسة الأديب ، وكثيراً ما كان الطالب لايدرس من الأديب إلا تاريخ حياته وما قيل في أدبه دون أن يكلف نفسه عناء الاتصال بآثار الأديب وتذوقها .

وقد جرى جلّ الكتب التي كانت تؤلف في الأدب العربي وتاريخه على هذا النحو من الدراسة الأدبية الناقصة ، فكانت تترجم للأديب وتعدد ألقابه وسبب تلقيبه بها وتورد طائفة من أخباره وتذكر ما قاله النقاد فيه مدحاً أو ذماً ثم تورد جملة من أشعاره المستحسنة ، وقد تشير الى مواضع الحسن في شعره إشارة عامة مبهمة لاتستند الى تذوق أدبي ولا الى تعمق فني .

وغنيّ عن البيان أن الغاية من دراسة الأدب وتاريخه أبعد من تعيين سني الولادة والوفاة وإيراد طائفة من الأخبار والأشعار ، فإن تاريخ أدبٍ ما هو وصف حياة هذا الفن وصفاً يتوخى رصد العوامل المختلفة التي أثرت في هذا الأدب ، واستخلاص القوانين التي تسيّره وتوجّهه . وليست الغاية من وضع مادة الأدب في مناهج التعليم تلقين الطلاب مجموعة من التواريخ والأخبار التي لاغناء فيها ، بل الغاية منه تكوين ملكة الطالب الأدبية وتنمية ذوقه الفني وتعويده تفهم النصوص الأدبية وتذوقها تذوقاً صحيحاً وتبين مافيها من مواطن القوة أو الضعف ، والجمال أو القبح . ولا ريب أن تزويد الطالب بطائفة مختارة من الآثار الأدبية مما يعين على تنمية الذوق الأدبي ولكن لابد من أن يكون متفهماً لهذه الآثار خير تفهم ، متذوقاً لها أدق تذوق، والدراسة الصحيحة للأدب لاتقوم إلا على هذه الأصول التي تنزل فن الأدب في مكانه بين الفنون الجميلة .

وقد سبقنا الغربيون الى انتهاج الطرق القويمة المجدية في تدريس مادة الأدب وفي تأليف

الكتب لهذه الغاية . وحين أقرت وزارة المعارف السورية في مناهجها جعل دراسة الأدب قائمة على النصوص احتاج الطلاب الى كتاب مدرسي يتضمن مجموعة من النصوص الأدبية ، مدروسة دراسة أدبية وافية ، مضافاً اليها الابحاث العامة التي لاغنى عنها لتفهم الأدب في عصوره المختلفة. وقد لمسنا إبان تدريسنا لمادة الأدب مايلقاه الطلاب من العناء في دراسة الأدب على هذا النحو الجاد وافتقارهم الشديد الى كتاب ينقذهم من التخبط في دراسة الأدب ويوضح لهم سبيلها ويرشدهم الى أصولها .

كل ذلك حفزنا الى تأليف هذا الكتاب ، وقد أوردنا فيه جملة صالحة من النصوص الادبية ، وجرينا على تحليل هذه النصوص تحليلاً أدبياً مفصلاً تارة ، موجزاً تارة أخرى ، وتركنا للطالب مجالاً لدراسة نصوص أخرى مماثلة اكتفينا بشرحها لغوياً . ولم نورد من حياة الاديب وأخباره إلا ما يلقي ضوءاً على فنه ويعين على تفهم آثاره وتذوقها ؛ وأضفنا الى النصوص جملة من الابحاث والدراسات العامة التي تعين أيضاً على دراسة الادب في كل عصر دراسة جيدة .

وقد سلكنا في تحليل النصوص الأدبية طريقة أوجزناها في توطئتنا للكتاب . ولسنا ندعي أنها خير الطرق في التحليل الأدبي ولكن حسبنا أنها طريقة مدرسية وعلمية ، تلم بعناصر الدراسة الأدبية ؛ وأساليب الدراسة بعد ذلك كثيرة متغايرة يذهب فيها الدارسون والنقاد شتى المذاهب . وقد حرصنا على أن نذكر آخر كل بحث أبرز المصادر التي يعتمد عليها في هذا البحث ، ليرجع اليها من شاء زيادة في البحث والانتفاع .

وقد رأينا أن نتوزع مباحث هذا الكتاب فوضع الاستاذ احسان النص القسم الخاص بالعصر الجاهلي وعصر صدر الاسلام وعصر بني أمية وألف الاستاذ خليل هنداوي والاستاذ عمر يحيى القسم الخاص بالنثر في العصر العباسي .

هذا ولا نزعم أننا ، إذ نقدم هذا الكتاب لقراء العربية ، نقدمه كاملا مبرءاً من كل مايوجب النقد ، فانما هي محاولة أولى لتطبيق الأساليب العلمية في الدراسة الأدبية نرجو أن تتلوها محاولات وخطوة أولى نمهد بها الطريق تقفوها خطوات ، ومن الله نستمد العون والتوفيق .

المؤلفون

١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م

منهاج الأدب العربي للصف الخامس الإعدادي

الفرع الأدبي

الأدب وتاريخه . نشأة اللغة العربية . مزاياها وخصائصها (بايجاز)

العصر الجاهلي : كلمة موجزة عن البيئة الجغرافية والحياة العامة (الاجتماعية والسياسية والدينية ...) واثر ذلك كله في اللغة والأدب .

الشعر ورواته . الامثال والحكم (نماذج موجزة) . المفاخر والمكارم (مختارات من شعر عمرو ابن كلثوم وعنترة وذي الاصبع العدواني) .

مختارات من شعر امرىء القيس في وصف آماله وشجونه وطموحه .

النابغة الذبياني . ترجمته ودراسة شعره في المدح والاعتذار والوصف .

النثر : نماذج موجزة من النثر الجاهلي .

خصائص الأدب الجاهلي .

عصر صدر الاسلام وبني امية : كلمة موجزة عن الحياة الاجتماعية والاخلاقية والدينية والثقافية والسياسية . اثر الاسلام في اللغة والأدب . اثر الخلافة الاموية .

القرآن الكريم واثره في الأدب (نماذج للدراسة)

الحديث الشريف « « «

الخطابة . ارتقاؤها في هذا العصر . دراسة نماذج من الوصايا ومن خطب الخلفاء والقواد (علي . الحجاج . ابو حمزة الخارجي) .

الكتابة . نماذج من كتب الرسول والخلفاء . عبدالحميد الكاتب ، آثاره ودراسة نماذج منها .

الشعر . المفاخر والمكارم (دراسة مختارات من شعر حسان وميمية معن بن اوس وغيرهما) .

الخنساء . دراسة نماذج من شعرها . عينية ابي ذؤيب الهذلي وبائية مالك بن الريب .

دراسة مختارات من مدح الحطيئة وهجائه وقصصه .

الغزل . دراسة مختارات من شعر عمر بن ابي ربيعة وجميل والصمة القشيري .
النقائض . فكرة عنها مع دراسة نماذج مختارة .
الشعر السياسي والديني . (دراسة مختارات من شعر جرير والاخطل وابن قيس الرقيات والكميت والطرماح) .
الفرزدق . ترجمته ودراسة شعره في الفخر والوصف .
خصائص الادب في هذا العصر .
العصر العباسي . اشهر اطواره . الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية ، والثقافات الاجنبية والنقل منها .
اثر ذلك كله في اللغة والادب .
النثر . الخطابة في هذا العصر . دراسة نماذج من خطب المنصور او داود بن علي .
الكتابة . آثار ابن المقفع . دراسة نماذج منها وبيان خصائصها .
الجاحظ . ترجمته ودراسة نماذج من آثاره وبيان خصائصها .
نماذج من (الامتاع والمؤانسة) لابي حيان .
دراسة نماذج من مقامات الهمذاني .
« « « الحريري .
دراسة نماذج من كتاب (المدهش) لابن الجوزي .
التوقيعات . دراسة نماذج من الكتابة العلمية (في ضبط الحديث او السير او تقويم البلدان او الفلسفة او غير ذلك) خصائص الكتابة في مختلف اطوار هذا العصر .
ملاحظة – يتوسع الاستاذ في دراسة موضوعين تحددها وزارة المعارف في كل عامين مرة .

* * *

الفرع العلمي

كلمة موجزة عن الأدب وتاريخه .

العصر الجاهلي . كلمة موجزة عن البيئة الجغرافية والحياة العامة واثر ذلك في الأدب .

الشعر . الحكم والامثال . دراسة مختارات من شعر طرفة .

المفاخر والمكارم دراسة مختارات من شعر عنترة .

الوصف . دراسة نماذج من شعر النابغة .

عصر صدر الاسلام وبني امية . كلمة موجزة عن الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية والسياسية واثر الاسلام والخلافة الأموية في اللغة والأدب .

القرآن الكريم . دراسة نماذج وخاصة في وصف الكون وظواهر الطبيعة .

الحديث دراسة نماذج مختارة .

الخطابة . ارتقاؤها . دراسة نماذج من الخطب والوصايا (علي والحجاج وابو حمزة الخارجي) .

الرسائل . دراسة نماذج مختارة من رسائل الخلفاء وعبدالحميد الكاتب .

الشعر . نماذج من مدح حسان وهجاء الحطيئة وقصصه .

دراسة مختارات من غزل عمر ، ومدح جرير ، وفخر الفرزدق ووصف الأخطل .

اجمال في خصائص الأدب في هذا العصر .

العصر العباسي . أشهر أطواره . كلمة موجزة عن الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية واثر ذلك كله في اللغة والأدب .

الثقافات الأجنبية . النقل والنقلة .

النثر . دراسة نماذج من خطب المنصور أو داود بن علي .

التوقيعات .

دراسة نماذج من كتابة ابن المقفع وبيان خصائصها .

دراسة نماذج من كتابة الجاحظ وخاصة في كتاب الحيوان وبيان خصائصها .

دراسة المقامة المضيرية للهمذاني .

« « الدينارية للحريري .

« نماذج من كتاب « الحيدة » لعبدالعزيز بن يحي او من كتاب آخر من كتب الجدل والكلام ذات الصبغة الأدبية ومن كتاب « الإحياء » للغزالي.

دراسة نماذج من « مروج الذهب » للمسعودي ، و « أحسن التقاسيم » للمقدسي » و « رحلة الامام الشافعي » .

دراسة نماذج من « الإمتاع والمؤانسة » لأبي حيان ، ومن « رسائل اخوان الصفا » او « السيرة الفلسفية » للرازي .

دراسة نماذج من مقدمة « الشعر والشعراء » لابن قتيبة .

الفرع الفسوي

الأدب وتاريخه (كلمة موجزة) . اللغة العربية وخصائصها .

العصر الجاهلي . كلمة موجزة عن البيئة الجغرافية والحياة الاجتماعية والاخلاقية والدينية والسياسية
والثقافية ، واثر ذلك كله في اللغة والأدب

الشعر . الامثال والحكم (دراسة نماذج موجزة) .

المفاخر والمكارم (دراسة مختارات من شعر عمرو بن كلثوم وعنترة) .

دراسة مختارات من شعر النساء في الجاهلية ودراسة بعضها .

النابغة الذبياني . دراسة نماذج موجزة من شعره .

اجمال في خصائص الادب الجاهلي .

عصر صدر الاسلام وبني امية . كلمة موجزة عن الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية والسياسية . اثر
الاسلام في اللغة والأدب . أثر الخلافة الأموية

القرآن الكريم . نماذج تدرس دراسة ادبية .

الحديث الشريف « « «

الخطابة . ارتقاؤها . دراسة نماذج من خطب علي والحجاج وغزالة الحرورية ومن كلام عائشة وأسماء .

الكتابة . دراسة نماذج من كتب الخلفاء ورسائل عبدالحميد .

الشعر . المفاخر والمكارم (دراسة مختارات من شعر حسان)

الخنساء . ترجمتها ودراسة شعرها .

يائية مالك بن الريب .

دراسة مختارات من هجاء الحطيئة وقصصه .

الغزل العفيف (دراسة مختارات من شعر كثيّر) .

دراسة نماذج من فخر الفرزدق ، ومدح الاخطل ، ورثاء جرير .

الشعر السياسي والديني (مختارات من شعر ابن قيس الرقيات والكميت والطرمّاح) .

ليلى الأخيلية . ترجمتها ودراسة نماذج من شعرها .

خصائص الأدب في هذا العصر .

العصر العباسي . أشهر أطواره . الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية . اثر الثقافات الاجنبية والنقـــل منها .

أثر ذلك كله في اللغة والأدب .

النثر . نماذج من كتابة ابن المقفع في « كليلة ودمنة » وغيرها .

الجاحظ . ترجمته ودراسة نماذج من كتاباته وخصائصها .

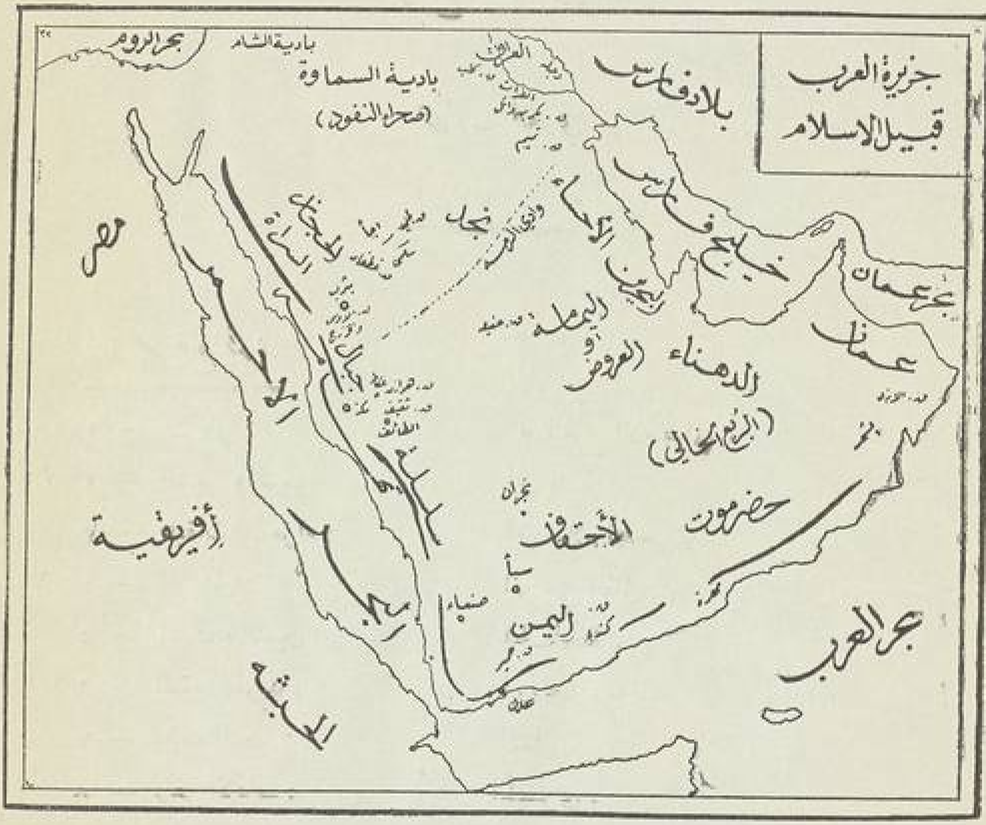
دراسة المقامة المضيرية للهمذاني . خصائص المقامة .

دراسة المقامة الدينارية للحريري . خصائص المقامة .

دراسة نماذج من كلام أعلام النساء في هذا العصر (كمحاورة أم جعفر بن يحيي للرشيد وما يشبهها) .

التوقيعـات

خصائص الكتابة في مختلف اطوار العصر العباسي .


جزيرة العرب
قبيل الإسلام
بحر الروم
بادية الشام
بادية السماوة
(صحراء النفود)
بلاد فارس
خليج فارس
بحر عمان
عمان
نجد
الدهناء
(الربع الخالي)
حضرموت
الأحقاف
نجران
صنعاء
اليمن
بحر العرب
مصر
أفريقية
الحبشة

مراجع عامة لدراسة

الأدب العربي

أ) مراجع قديمة

١ — الأغاني :	ابو الفرج الاصفهاني .
٢ — الشعر والشعراء :	ابن قتيبة .
٣ — طبقات الشعراء :	ابن سلام الجمحي .
٤ — الأمالي :	ابو علي القالي .
٥ — البيان والتبيين :	الجاحظ .
٦ — العقد الفريد :	ابن عبد ربه .
٧ — يتيمة الدهر :	الثعالبي .
٨ — زهر الآداب :	الحصري .
٩ — وفيات الأعيان :	ابن خلكان .
١٠ — مجمع الأمثال :	الميداني .
١١ — معجم البلدان :	ياقوت الحموي .
١٢ — المثل السائر :	ضياء الدين بن الأثير .
١٣ — صبح الأعشى :	القلقشندي .

١٤ ــ نهاية الأرب	النويري .
١٥ ــ معالم الكتابة	ابن شيت القرشي .
١٦ ــ الكامل	أبو العباس المبرد .
١٧ ــ العمدة	ابن رشيق .
١٨ ــ خزانة الأدب	البغدادي .
١٩ ــ نقد النثر	قدامه ابن جعفر .
٢٠ ــ نقد الشعر	ـــ ـــ ـــ

ب) مراجع حديثة

٢١ ــ دائرة المعارف الاسلامية	جماعة من المستشرقين (ترجم منها حتى نهاية حرف التاء)
٢٢ ــ دائرة المعارف	البستاني .
٢٣ ــ تاريخ آداب اللغة العربية	جرجي زيدان
٢٤ ــ الوسيط في الأدب العربي	أحمد الاسكندري ومصطفى عناني .
٢٥ ــ تاريخ الأدب العربي	أحمد حسن الزيات .
٢٦ ــ المفصل في تاريخ الأدب العربي	أحمد أمين ، علي الجارم ، أحمد الاسكندري
٢٧ ــ الوجيز ـــ ـــ ـــ ـــ	أحمد ضيف ، عبد العزيز البشري
٢٨ ــ أدباء العرب	بطرس البستاني
٢٩ ــ شعراء النصرانية	لويس شيخو
٣٠ ــ الادب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي	محمد هاشم عطيه
٣١ ــ في الأدب الجاهلي	طه حسين
٣٢ ــ النثر الفني في القرن الرابع	زكي مبارك
٣٣ ــ رسائل البلغاء	محمد كرد علي
٣٤ ــ امراء البيان	ـــ ـــ ـــ

٣٥ — الأدب العربي في عصر صدر الاسلام وبني أمية — محمود مصطفى
٣٦ — جمهرة خطب العرب — أحمد زكي صفوة
٣٧ — جمهرة رسائل العرب — « « «
٣٨ — الفن ومذاهبه في النثر العربي — شوقي ضيف
٣٩ — « « في الشعر العربي — « «
٤٠ — بلاغة العرب في الأندلس — أحمد ضيف
٤١ — الأسلوب — أحمد الشائب
٤٢ — C. Huart - Histoire de littérature Arabe
٤٣ — Lanson. L'Art de la Prose
٤٤ — Nicholson. Literary History of the Arabs.

كلمة موجزة
في تحليل النصوص الأدبية

تقوم دراسة النص الادبي على امرين : أولهما معرفة جو هذا النص، وثانيهما دراسة النص نفسه.

١ — اما معرفة جو النص فنريد بها الالمام بكل ما يحيط بالنص ويعين على تفهمه ، كمعرفة مكان النص ، وزمانه وقائله والمناسبة التي قيل فيها ، وبعبارة اخرى نريد بهـا الالمام بالبيئة المادية والمعنوية التي وجد فيها هذا النص ، وقد اصبح من المقرر اليوم لدى النقاد ان فهم الأثر الأدبي فهماً صحيحاً انما يقوم على وصل هذا الاثر بالبيئة التي وجد فيها . فاذا اردنا مثلا ان ندرس قصيدة لامرىء القيس كان لا مندوحة لنا من معرفة العصر الذي قيلت فيه القصيدة والحياة العامة في هذا العصر : الاجتماعية والسياسية والدينية والاقتصادية والفكرية ، ثم دراسة حيـاة امرئ القيس وميوله وأخلاقه ، ثم نلم بالمناسبة التي قيلت فيها القصيدة وزمانها ومكانها ، فعلى ضوء كل هذا نستطيع أن نفهم القصيدة فهماً جيداً وان نتذوقها بما يقارب تذوق معاصري امرئ القيس لها .

٢ — فاذا ما فرغنا من معرفة ما حول النص انتقلنا الى دراسة النص نفسه ، وهذه الدراسة تقوم كذلك على امرين :

أ — دراسة لغوية نحوية فنشرح مفردات النص وجمله شرحاً لغوياً ، ونحوياً اذا اقتضى الامر ، ونراعي في هذا الشرح مقصد القائل ومعنى المفردات والتراكيب كما كان يفهم في عصره لا كما نفهمه نحن في عصرنا ، ولا بحسب ما تذكره نصوص المعجمات ايضاً . ويعين على تتبع المعنى الاصلي استقراء آثار الأديب واستخلاص المعنى من هذه الآثار جميعها ، لأن لكل اديب معجماً خاصاً به ولكل لفظ مدلولاً خاصاً لا يشاركه فيه غيره . فاذا اردنا مثلاً ان نفهم معنى لفظ في القرآن الكريم تتبعنا ورود هذا اللفظ في جميع الآيات لندرك المعنى المراد في تلك الآية .

وهذا الشرح اللغوي النحوي كثيراً ما يوضع في ذيل الصفحة تسهيلاً للدراسة .

ب - دراسة ادبية ترمي الى تبين الخصائص الفنية للاثر الادبي ، وتلاحظ في الدراسة الأدبية الأمور التالية :

١ - أقسام النص بحسب الأفكار العامة الواردة فيه ، ثم ننظر في افكار النص التابعة للأفكار العامة ، ونتبين صلة هذه الافكار ببيئة الأديب .

٢ - العاطفة . فغاية الاديب والفنان بصورة عامة ان يعبر عن عاطفة احسها وأن ينقل الينا هذا الاحساس ، فنبحث اذن عن العاطفة التي يعبر عنها النص الأدبي ، وعن الاحساس الذي أراد الأديب نقله الى القارىء .

٣ - الأسلوب . لدراسة الاسلوب ننظر في الفاظ النص وكونها قريبة المعنى او غريبة حوشية ، جزلة أو لينة ، الى غير ذلك ، وننظر في جرسها الموسيقي وفي ائتلاف حروفها أو تنافرها .

ثم ننظر في الجمل والتراكيب من الناحية الموسيقية والتصويرية وصلتها بنفسية القائل وبيئته ، وفي قوتها أو ضعفها .

ثم ننظر في الصور الخيالية والتعابير المجازية التي أوردها الأديب ، والصور البيانية التي أتى بها (التشبيه ، الاستعارة ، الكناية) وأثرها في النص .

فاذا فرغنا من تحليل النص على هذا النحو وطولبنا ببيان رأينا فيه كان معنى ذلك ان ننقد هذا النص ، فلئن كانت غاية التحليل الأدبي هي الوصف فغاية النقد الأدبي هي الحكم ، وغالباً ما تكون الدراسة الأدبية مشتملة على الوصف والحكم معاً ، فنتساءل عن مدى صلة النص بعصره ، وهل كان الأديب مبتكراً في ما أورده من أفكار أو أنه كان مقلداً مقتبساً ، وهل أجاد الاقتباس والباس الافكار المستعارة حلة جديدة ، وما قيمة أفكاره ، وهل وفق في التعبير عما أحسه من المشاعر والعواطف وفي نقل هذه الاحساسات الى نفس القارىء ، وهل كان صادقاً في عاطفته أو متكلفاً وهل وفق الاديب في اختيار ألفاظه وجمله الملائمة للفكرة ثم ما هي قيمة الأديب في تصويره لعصره وبيئته . وما هي منزلته من أدبه ومن الآداب الاخرى ، وهل أدبه من النوع العالمي الخالد الذي يتذوق في كل عصر وكل قطر ، الى غير ذلك من الاحكام التي تدخل في باب النقد .

وبهذا تتم دراسة النص دراسة ادبية .

الأدب وتاريخ الأدب

لما كان لكل لفظ حياته الخاصة ، شأن الكائنات الحية ، فإن مدلوله يتغير تغيراً مستمراً يساير تغير البيئات واختلاف العصور . فلننظر في لفظ « أدب » لنتتبع ما طرأ على مدلوله من التغيّر إبان العصور المختلفة .

ولو كنّا نملك معاجم تاريخية للألفاظ لسهل علينا تأريخ حياة هذا اللفظ ، ولكن هذه المعاجم لا وجود لها عندنا ، فضلاً عن أن النصوص التي يرجع اليها قد فقد معظمها ، فلا مفر لنا من الفرض الى جانب الاعتماد على النصوص .

وحين التمس الباحثون اصل هذا اللفظ اضطربت مذاهبهم ، فالمستشرق الايطالي « نلّينو » يشتقه من (الدَأب) أي العادة ، وجمعها (أدآب) ، ويرى أنه لما كثر استعمال هذا الجمع عراه القلب المكاني فانتقل الى (آداب) ، ويسوق أمثلة لذلك لفظي (بِئْر) و (رِئْم) فقد جمعا أولاً على (أبآر) و (أرآم) ثم عراهما القلب فتحولا الى (آبار) و (آرام) . ويقول بعد : « وكثر استعمال الآداب جمعاً للدأب حتى نسي العرب أصل هذا الجمع وما كان فيه من قلب وخيّل اليهم أنه جمع لا قلب فيه فأخذوا منه مفرده (أدباً) لا (دأباً) ، وجرى استعمال هذه الكلمة بمعنى العادة ، ثم انتقل من هذا المعنى الطبيعي القديم الى معانيه الأخرى المختلفة . »

وفرض الاستاذ نلينو فيه بُعد ، وليس بين معني الأدب والدأب — أي العادة — ما يقوّي هذا الفرض .

وجنح جماعة الى ان هذا اللفظ مأخوذ من (الأَدْب) بمعنى الدعاء ، وليس ثمة ما يؤيد هذا الرأي أيضاً .

ومما انتهى اليه الباحثون ان لفظ أدَب لم يرد في نص جاهلي يُطمأن اليه كما أنه لم يرد في القرآن الكريم . وقد روى أبو علي القالي في أماليه حديثاً لعتبة بن ربيعة — أبي هند ، ام معاوية — حين خطب أبو سفيان بن حرب هنداً ، وكانت شرطت على أبيها ألاّ يزوجها من أحد حتى يصفه لها من غير أن يسميه ، فجاء في حديثه لها عن ابي سفيان قوله : « يؤدب أهله ولا يؤدبونه » ، وكان مما

أجابت به أباها قولها : «وسآخذه بأدب البعل مع لزوم قبتي وقلة تلفتي . » . وهذا النص جاهلي الا أننا لا نستطيع الاطمئنان اليه شأن أكثر النثر الذي وصلنا عن العصر الجاهلي .

ويرجح الاستاذ جورجي زيدان ان يكون هذا اللفظ قد دخل العربية واللغات السامية من لغة الشومريين الذين قطنوا جنوبي العراق منذ أقدم العصور ، لأن هذا اللفظ لا وجود له في كل اللغات السامية . ومعناه عند الشومريين (انسان) ثم تحول في اللغات السامية الى (آدم) بمعنى انسان ، وانتقل الى العربية دالا على كريم الخلال وحميد الخصال . وهذا الفرض يفتقر ، كسائر الفروض السابقة ، الى ما يؤيده .

أما الدكتور طه حسين فإنه يفترض فرضاً آخر ، وهو أن هذا اللفظ قد دخل لغة قريش إبّان العصر الأموي من احدى اللغات العربية التي قضت عليها لغة القرآن ، بدليل أن لفظ ادب لم يعرف قبل العصر الأموي حين اطلق على المعلمين لفظ « المؤدبين » فيقول بعد كلام له : « فاذا لم نجد مادة الأدب في لغة قريش ، ولا في العبرانية ، ولا في السريانية ، فليس ما يمنع أن تكون هذه الكلمة قد دخلت في لغة قريش ابّان العصر الأموي ، انتقلت اليها من احدى اللغات العربية التي ضاعت . »

والحق أن هذه المادة لم ترد في القرآن ، الا انها وردت في جملة من الاحاديث والخطب والاشعار الاسلامية ، ولو اننا لا نثق بصحتها جميعا ؛ فيروى ان علياً قال للرسول (ص) : يارسول الله ، نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم اكثره ، فقال الرسول : أدبني ربي فأحسن تأديبي وربّيت في بني سعد » . فالأدب هنا يرادف معنى التعليم . وروى عبدالله بن مسعود ان النبي عليه السلام قال : « إن هذا القرآن مأدبة الله في الارض ، فتعلموا من مأدبته » ، أي ان القرآن يجمع الآداب التي يدعو اليها الله تعالى ، فهو هنا بمعنى الاخلاق الحميدة والسجايا الفاضلة .

وروى أبو تمام في حماسته شعراً لسالم بن وابصة الاسلامي ، منه قوله :

اذا شئت ان تدعى كريماً مكرّماً ادیباً ، ظريفاً ، عاقلاً ، ماجداً ، حرّا

اذا ما أنت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالاً لزلّته عذرا

وروى ابن منظور في اللسان – مادة ادب – لمزاحم العقيلي قوله يصف الابل :

وهنّ يُصَرّفْنَ النوى بين عالجٍ ونجران تصريفَ الأديبِ المذلّلِ

ومعناها في الحالين : التهذيب ، والرياضة ، ثم نجد ابن منظور يقول في مادة (ادب) :

«... سمي ادباً لأنه يأدب الناس الى المحامد وينهاهم عن المقابح . وأصل الأدب الدعاء ومنه قيل للصنيع يدعى اليه الناس مدعاة ومأدبة» . وبمعنى الدعاء ورد هذا اللفظ في بعض اشعار الجاهليين ، كما في قول طرفة :

نحن في المشتاةِ ندعو الجَفَلى — لا ترى الآدِبَ فينا يَنْتَقِرْ

فالآدب هنا بمعنى الداعي الى الطعام ، وبهذا المعنى قال علي في حديث له : «أما اخواننا بنو امية فقادة أدبة» .

لهذه النصوص كلها رجح المستشرق غولد سيهر في دائرة المعارف الاسلامية – مادة ادب – ان هذا اللفظ كان معروفاً في الجاهلية بمعنى الخلق الكريم والتهذيب . والحق ان فقدان النصوص لا ينهض دليلاً على عدم وجود اللفظ نفسه ، ولا سيما انه لم يصلنا من نصوص العصر الجاهلي الا النزر اليسير .

فلما كان العصر الأموي شاع لفظ «المؤدب» ، وهو ذلك الرجل الذي كان يعلّم ابناء الخليفة والأسر الرفيعة ما كان مأثوراً في ذلك العصر من الشعر والأخبار وسير العرب وأيامهم ، وكل ما كان يتصل بهذه الثقافة التي كانت الطبقة المستنيرة تحرص على الالمام بها . وواضح ان بين معنى التهذيب الخلقي وبين معنى التعليم صلة قوية . فنلاحظ اذن ان معنى الأدب الذي يطلق على مأثور الشعر والنثر قد عرف في العصر الأموي ، والنصوص الأموية تدل على أن هذا اللفظ صار يطلق على هذين المعنيين ، أي :

١ – المعنى التهذيبي وهو رياضة النفس على الاخلاق الحميدة والسجايا الفاضلة والشيم الكريمة . ومن هذا القبيل ما روي عن زياد بن ابيه في خطبته البتراء : «فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم» ؛ وجاء في بعض خطب الحجاج قوله : «أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمُنّ» . ومن هذا ايضاً قول بعض الفزاريين :

أُكْنيه حين أُناديه لأُكرمَه — ولا أُلَقِّبُه ، والسوءة اللقبُ

كذاك أُدبتُ حتى صار من خُلُقي — أني وجدتُ مِلاكُ الشيمة الأدبُ

٢ – المعنى التعليمي وكان يراد بالتعليم عصرئذ رواية الشعر والنثر وما يتصل بهما من اخبار وأنساب وأمثال ونوادر . وافترق معنى المؤدب عن معنى الشاعر والكاتب ، وعرف من المؤدبين في ذلك العصر أمثال أبي معبد الجهني وعامر الشعبي ، وكانا يؤدبان أولاد عبدالملك بن مروان ،

وصالح بن كيسان مؤدب أبناء عمر بن عبدالعزيز ، والجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد . وقد روي عن عمر بن عبدالعزيز قوله لمؤدبه : « كيف كانت طاعتي إياك وأنت تؤدّبني ؟ قال : أحسن طاعة ، قال : فأطعني الآن كما كنت اطيعك » .

وما لبث هذا المعنى التعليمي ان اتسع في العصر العباسي ، وظل المعنى التهذيبي معروفاً وعليه كان يدور كتابا ابن المقفع « الأدب الكبير » و « الأدب الصغير » . وحين اتسعت العلوم في العصر العباسي صار لفظ الأدب يدل على مأثور النظم والنثر وما يتصل بهما من علوم العربية . الا أن هذه العلوم سرعان ما استقلت بنفسها وصار للفظ الأدب مدلول جديد غير مأثور الشعر والنثر الذي ظل معروفاً ، وهذا المدلول الجديد كان يرادف معنى (معرفة) ، فما كانوا يميزون في ذلك العهد تمييزاً دقيقاً بين معاني (علم) و (فن) و (ادب) و (معرفة) فكانت الآداب هي المعارف أو العلوم أو الفنون ، وهذا ما نتبينه مثلاً في كلام الحسن بن سهل حين يعدد الآداب العشرة ، جامعاً فيها بين الرياضة والعلوم والفنون والآداب . وبمعنى المعرفة التي تعني الكاتب ألف ابن قتيبة كتاب « ادب الكاتب » والصولي كتاب « ادب الكتاب » وبالمعنى التهذيبي ألف أبو العباس السرخسي كتاب « ادب النفس » .

وأما النحو والصرف والبلاغة والعروض فقد استقلت عن الأدب وصارت تعرف بعلوم العربية وما لبث معنى المعرفة الذي اخذ يطلق على الأدب في العصر العباسي أن زال بعد تحدد مفاهيم كل من العلوم والفنون والآداب ، وبقي لفظ الأدب حتى اليوم يطلق على « مأثور الشعر والنثر » .

ولكن العصر الحاضر أخرج لنا مشكلة جديدة هي مشكلة تحديد هذا الشعر وهذا النثر الداخلين في نطاق الأدب .

فما هو هذا المأثور من الشعر والنثر ، وما هو حد الأدب ؟

أما التعريف الجامع المانع ــ كما يقول المناطقة ــ فقد انصرف عنه الباحثون ولجأوا الى التعريف الوصفي ؛ وذلك لأنه يتعذر تحديد الأدب تحديداً منطقياً ، وصعوبة هذا التحديد ترجع الى الخلاف بين النقاد في تصور الأدب وفهمه من جهة ، والى عدم تميز الحدود تميزاً بيّناً في المعنويات ، كالجمال والخيال والحب . فكذلك نرى ان الذين تعرضوا لتحديد الأدب ذهبوا في ذلك مذاهب متباينة فمنهم من وسع مدلوله توسيعاً أدخل فيه أكثر فنون النثر ، ومنهم من ضيقه حتى أخرج منه بعض ما في حيزه .

ولعل خير ما نعرف به الأدب أنه « فن من الفنون الجميلة أداته الألفاظ » . وهنا لا بد لنا من

تعريف الفن فنقول أن الفن هو « التعبير الممتاز عن التجارب الانسانية » ، ونريد بالتجارب الانسانية مشاعر الانسان واحساساته وانفعالاته وأخيلته ، فالفنون الجميلة كلها تعبر عن احساس المرء بما يحيط به ، ولكن وسائل التعبير عن هذا الاحساس تختلف باختلاف الفنون ، فأداة فن الرسم هي الألوان والخطوط ، وأداة الموسيقى الألحان ، وأداة النحت الحجر والخشب ، وأداة الأدب الألفاظ.

وليس لرجل الفن من غاية يتوخاها غير أن يعبر عن احساسه أولاً ثم ان يشاركه الناس هذا الاحساس ، أي أن ينقل الينا هذا الاحساس الذي استشعره ، فالحاجة الى التعبير ، والى المشاركة هي قوام الفن وعليها مداره .

تاريخ الأدب

ليس تاريخ الأدب سرداً لتواريخ واستعراضاً لأحداث ، وانما هو وصف لحياة الفن الأدبي إبان عصر أو عصور ، يتوخى استخلاص القوانين التي سيرت هذا الفن ، وتبين العوامل المختلفة التي أثرت فيه ، وبيان طوابع هذا الفن وآثاره ، وما أصابه من انحطاط أو رقي .

يقول الناقد الفرنسي لانسون في هذا الصدد : « إن تاريخ الأدب جزء من تاريخ الحضارة ، فالأدب الفرنسي مظهر لحياتنا القومية نجد في سجله الطويل الفني كل تيارات الأفكار والمشاعر التي امتدت الى الاحداث السياسية والاجتماعية أو تركزت في النظم ، بل ونجد فيه كل هذه الحياة النفسية الدفينة التي لم تستطع ، بما فيها من آلام وأحلام ، أن تتحقق عملاً » .

ولتاريخ الأدب ما للتاريخ العام من الفائدة ، فإن رصدنا لتطور الادب في الماضي ومعرفة مؤثراته وآثاره تهيء لنا استخلاص نواميس للحياة الأدبية نفيد منها في توجيه هذه الحياة ، كما تهيء لنا أن نفهم روح هذا الأدب وروح الأمة التي أنشأته وعقليتها ، وتمدنا بطائفة من التجارب الانسانية نضيفها الى تجاربنا الخاصة .

عصور الأدب

جرت عادة المؤرخين المحدثين على تقسيم تاريخ الأدب العربي الى أعصر ، واتخذوا الأحداث السياسية مقياساً لتقسيم الأدب الى هذه العصور ، اسوة بما صنعه الأفرنج ، فجعلوا عصور الأدب العربي على النحو التالي :

١) العصر الجاهلي : يمتد من منتصف القرن الخامس الميلادي تقريباً وينتهي بمجيء الاسلام.

٢) العصر الاسلامي : ويبتدىء بقيام الدولة الاسلامية وينتهي بمقتل علي وقيام دولة بني أمية سنة ٤٠ هـ .

٣) العصر الأموي : ويمتد من سنة ٤٠ هـ حتى سقوط الدولة الأموية وقيام دولة العباسيين سنة ١٣٢ هـ .

٤) العصر العباسي : ويمتد من سنة ١٣٢ هـ حتى سنة ٦٥٦ هـ وهذا العصر ينقسم الى أطوار أربعة :

الأول – من ١٣٢ هـ الى ٢٣٢ هـ ، وهي السنة التي ولي فيها المتوكل .

الثاني – ٢٣٢ الى ٣٣٤ هـ ، وهي السنة التي دخل فيها الديلم بغداد في بدء خلافة المطيع .

الثالث – من ٣٣٤ الى ٤٤٧ هـ ، وهي السنة التي استولى فيها السلاجقة على بغداد .

الرابع – من ٤٤٧ الى ٦٥٦ هـ ، وهي السنة التي سقطت فيها بغداد في أيدي التتر .

٥) العصر الأندلسي : ويمتد من سنة ١٣٨ هـ الى سنة ٨٩٧ هـ وهو طوران :

الأول – طور الدولة الأموية ١٣٨ – ٤٢٨ هـ

الثاني – طور ملوك الطوائف ٤٢٨ – ٨٩٧ هـ

٦) عصر الدول المتتابعة : ويمتد من سنة ٦٥٦ – ١٢٢٠ هـ وهي السنة التي قامت فيها الاسرة العلوية في مصر .

٧) عصر النهضة الحديثة : ويمتد من سنة ١٢٧٠ هـ حتى العصر الحاضر .

* * *

قسم مؤرخو الأدب العربي أعصر الأدب اذن على أساس الاحداث السياسية، مع ان الحوادث السياسية ليست المؤثر الوحيد في حياة الأدب ، لأن الأدب نتيجة عوامل شتى سياسية واجتماعية واقتصادية وغيرها ، فكيف صح إفراد الحوادث السياسية وحدها بالتأثير وتقسيم عصور الأدب الى أعصر سياسية ؟

ثم أن المؤرخين حين أرخوا أدب الأندلس جعلوه عصراً مستقلاً لما لمسوه من أوجه التباين بين الأدب الأندلسي والأدب المشرقي ومرد هذا التباين في النتاج الأدبي الى تباين البيئات التي انتجت هذا الأدب ، واختلاف الأدب باختلاف البيئة امر لاحظه الباحثون منذ القدم وتوسع فيه المحدثون توسعاً كان من نتيجته ان صارت دراسة البيئة سابقة لدراسة الأدب ، فكيف صح لمؤرخي الأدب اذن ان يغفلوا الفروق الاقليمية بين أدب الأمم الاسلامية المختلفة ، ابان عصور

الأدب العربي الطويلة الأمد ؟ فالأدب العباسي مثلاً لم يكن واحداً في العراق والشام ومصر والمغرب على الرغم من الصلات الواشجة التي كانت تقرب بين الأدب العربي في مختلف هذه البيئات فضلاً عن أن تسميته بالأدب العباسي لا يتفق والواقع التاريخي لأن الدولة العباسية لم تستطع بسط ظلها فوق بقاع المملكة الاسلامية الا فترة قصيرة من الزمن ؛ فسرعان ما قامت في اطراف هذه المملكة دويلات مستقلة اعترف بعضها بالخليفة العباسي اعترافاً اسمياً .

وهكذا نجد أن تقسيم العصور الأدبية على هذا النحو يخالف الواقع التاريخي والواقع الأدبي وكان من الحق تقسيم الأدب الى عصور بحسب الظواهر الأدبية التي تميز عصراً من عصر ، ولكن لصعوبة هذا التقسيم وتبسيطاً لدراسة الأدب العربي الطويل العمر ينبغي أن تقسم دراسة الأدب على أساس القرون منذ قيام الدولة الاسلامية ، فيقال : الأدب العربي في القرن الأول أو القرن الثاني وهلم جرا ، ثم تلاحظ مع ذلك الفروق الاقليمية ، مع اعتبارنا الأدب العربي وحدة تنتظم كل النتاج الأدبي الذي ظهر في مختلف بقاع المملكة الاسلامية ، ولا يصح ابداً النظر الى آداب الأقطار العربية على أنها آداب متغايرة لأن الصلات بين هذه الآداب قوية وثيقة ، فيقال مثلا : الأدب العربي في مصر في القرن الثاني ، وعلى هذا النحو تكون دراسة الأدب قد اقيمت على اساس من الواقع التاريخي والدقة العلمية .

مراجع لبحث الأدب وتاريخ الأدب

١ – في الأدب الجاهلي ص ١٧ وما بعدها .

٢ – اصول النقد الأدبي احمد الشائب ص ١ وما بعدها .

٣ – تاريخ آداب اللغة العربية جرجي زيدان ص ١٢ ج ١

٤ – في أصول الأدب احمد حسن الزيات ص ٩

٥ – الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي عطيه ص ٣

٦ – لسان العرب لابن منظور مادة (ادب) .

٧ – دروس في تاريخ آداب اللغة العربية معروف الرصافي ص ٣

٨ – قواعد النقد الأدبي لاسل آبر كرمي ، تعريب محمد عوض محمد ص ١٤

٩ – دائرة المعارف الاسلامية ، غولد سيهر – مادة ادب .

١٠ – منهج البحث في الأدب ، لانسون ، تعريب محمد مندور ص ١٩

١١ – في الأدب المصري ، أمين الخولي ص ٩١ وما بعدها .

* * *

اللغة العربية

اللغة العربية احدى اللغات التي اطلق عليها العالم شلوتسر Schlozer اسم « اللغات السامية » معتمداً على جدول أنساب النبي نوح المذكور في التوراة . ومن هذه اللغات أيضاً : البابلية ـ الآشورية والعبرية ، والآرامية (ومنها السريانية) ، والكنعانية ، والحبشية ، وقد انقرض جل هذه اللغات.

ويختلف المؤرخون في موطن اللغات السامية الأُول اختلافهم في موطن الأُمم السامية الاول ويميل جمهورهم الى ان مهد هذه الأمم كان في أرض بابل ، في العراق ، ومن ثم انتشروا في شتى الانحاء.

وكذلك يختلفون في أي هذه اللغات أقرب الى السامية الأُم ، ويرى المستشرق أولسهوزن Olshausen أنها العربية ؛ وربما كان لانعزال الامة العربية في جزيرتها التي تحف بها الصحاري والبحار ما يقوّي هذا الرأي ، لا سيما وان علماء اللغات قد وجدوا في اللغة العربية عناصر قديمة جداً تمت الى السامية الأم ، ولكننا لانستطيع اعتبار هذا الرأي يقيناً علمياً ثابتاً لعدم توافر الأدلة .

أ ـ نشأتها

نشأت اللغة العربية ، كما نشأت سائر اللغات التي عرفتها أمم العالم ، من طريق الاشارة ومحاكاة أصوات الطبيعة والحيوان . ثم عملت فيها عوامل النمو والتطور حتى نضجت واكتملت .

وقد عرض لغويو العرب الأقدمون الى نشأة اللغة العربية وافترقوا في ذلك مذهبين : أولهما يقول بأن اللغة توقيف والهام من الله ، ولأصحاب هذا المذهب أدلة يحتجون بها منها قوله تعالى : « وعلّم آدمَ الاسماء كلها » فالأسماء عندهم معناها اللغة ، ومنها قوله تعالى أيضاً « ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » ومنها انها لو كانت اصطلاحية لاحتيج في التخاطب بها الى اصطلاح آخر يبين المراد منها فنقع في الدور .

ومن الآخذين بهذا المذهب ابو الحسن الأشعري وأحمد بن فارس في كتابه « الصاحبي في فقه اللغة » وهو أول باب في كتابه .

والمذهب الثاني يقول ان اللغة اصطلاح وتواطؤ . وفي كتاب الخصائص لابن جني كلام بهذا

الصدد يقول في أوله : « هذا موضوع محوج الى فضل تأمل ، غير ان أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف ... وذلك بان يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً فيحتاجوا الى الإبانة عن الاشياء المعلومات . فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظاً اذا ذكر عرف به مسماه ليمتاز عن غيره ، وليستغنى بذكره عن احضاره الى مرآة العين . » إلا أن ابن جني كان متأرجحاً بين القول بالتوقيف والقول بالاصطلاح . وفي ثنايا كلامه يشير الى رأي ثالث يتفق مع اقوال علماء اللغات اليوم فيقول : « وذهب بعضهم الى ان اصل اللغات كلها انما هو من الاصوات المسموعة ، كدوي الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبي ، ونحو ذلك . ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد » وقد استحسن ابن جني هذا الرأي وصوبه .

هذا هو رأي لغويي العرب القدامى في نشأة اللغة العربية ، وابحاث علماء اللغات اليوم انتهت الى ان اللغة كائن حي خاضع لقوانين النشوء والنمو ، فهي ليست توقيفا ووحيا كما انهـا ليست اصطلاحا وتواطؤاً بالمعنى الذي فهمه ابن جني واصحابه ، وانما هي اصطلاح طبيعي ينشأ عن محاكاة اصوات الطبيعة والحيوان ، فإذا ما نشأت اللغة تضافرت عوامل شتى لنموها وتطورهـا حتى تبلغ مرحلة النضج ، وقد لا تكون البيئة ملائمة لحياة لغة من اللغات فيؤول امرها الى الاندثار والانقراض .

ب — عوامل نموها

لم تبلغ اللغة العربية مرحلة النضج الا بعد ان تضافرت على إنمائها وتوسيعها وتطورها عوامل عدة نذكر منها :

١ — التفئيم (أي زيادة حرف أو أكثر في صدر الكلمة أو وسطهـا أو نهايتها) وهذه اول مرحلة من مراحل نمو اللغة ، فالأصول الاولى للغة العرب ولسائر اللغات اصول ثنائية — على نقيض ما يذهب اليه لغويو العرب القدماء من أنها ثلاثية — ثم زيد في هذا الأصل الثنائي حرف أو أكثر في أول الكلمة أو وسطها ، أو آخرها للدلالة على معان متفرعة من المعنى الاصلي . مثال للزيادة في الوسط : من الاصل الثنائي (لم) نجد : لدم ، لطم ، لثم ، لم ، لكم الخ ... وكلها تدل على الضرب الا ان كلا منها يدل على نوع منه . مثال للزيادة في الآخر : قط ، قطع ، قطف ، قطل ، قطم فكلها لانواع مختلفة من القطع . مثال للزيادة في الاول : أله ، بله ، ، تله ، دله ، عله ، وله ؛ فكلها تدل على معنى التحير والجزع .

ولعض لغويي العرب القدماء ، كابن جني والزمخشري ، لفتات الى ما يقوم بين الالفاظ من الاشتراك في المعنى حين تشترك في حروفها أو تتشابه .

٢ً – القلب المكاني : ويراد به التقديم والتأخير في أحرف الكلمة الواحدة ، وهو أمر طبيعي في كل اللغات وتجده واضحاً في لغتنا العامية في نحو : معلقة وملعقة . ومن أمثلته في اللغة العربية جبذ وجذب ، وصاقعة وصاعقة ، ورجل شائك السلاح وشاكي السلاح . وقد يختلف المعنى مع القلب وقد لا يختلف .

٣ً – الابدال : وهو وضع حرف مكان آخر . وأمثلته كثيرة في لغة العرب . نحو قولهم : الوأل والوعل والوغل بمعنى الملجوء ، ونحو : أراق الماء وهراقه ، وماء السنور وماغ .

٤ً – النحت : وهو صوغ كلمة من كلمتين أو أكثر نحو : عبشمي وعبقسي ، أي منسوب الى عبد شمس وعبد قيس ونحو بسمل (إذا قال بسم الله) ، وحوقل (قال لا حول ولا قوة إلا بالله) وسبحل (قال سبحان الله) ، وحسبل (قال حسبي الله) ، ومنها العنعنة (عن فلان عن فلان) والقلقلة (قال فلان قال) .

٥ – التعريب : أخذت اللغة العربية منذ أقدم الأزمان ألفاظاً كثيرة من لغات الأمم المجاورة ، على رغم انعزالها النسبي ، وفي شعر الجاهليين ، والاعشى خاصة ، وفي القرآن الكريم طائفة كبيرة من الألفاظ المعربة نحو : استبرق ، وجهنم ، وزنجبيل ، وطوبى ، وكافور الخ ... ولا تنفرد اللغة العربية بالأخذ عن اللغات الاخرى بل هو أمر تشترك فيه اللغات جميعاً ، وينجم من اتصال الأمم بعضها ببعض من طريق المجاورة أو التجارة أو الحرب .

٦ – الاشتقاق : اللغة العربية من اللغات الاشتقاقية والاشتقاق هو أهم العوامل في نمو اللغة واتساعها ، وهو أداة المجامع اللغوية حين تقصد الى وضع مصطلحات جديدة او تعريب الفاظ دخيلة .

٧ – الاصطلاح : أضيف الى اللغة العربية طائفة كبيرة من المصطلحات لعل من أقدمها تلك المصطلحات التي جاء بها الاسلام كلفظ الاسلام نفسه والصلاة ، والزكاة ، والكفر ، والصيام ، والنفاق وغيرها من الألفاظ التي أوجد لها الاسلام معاني جديدة غير معانيها الاولى .

٨ – المجاز : لا تحتفظ الكلمة بمعناها الأصلي بل سرعان ما يكسبها الاستعمال معاني اخرى مجازية تتصل بالمعنى الاصلي بصلات أبرزها المشابهة . وإذا شاع استعمال المعنى المجازي لغرض من الأغراض صار بمثابة الحقيقة ، لا سيما إذا لاحظنا أن أكثر الألفاظ كان يدل في أول نشوئه على المعاني المادية ثم صار يدل على المعنويات كلفظ العقل مثلاً فانه من عقل البعير أي ربطه ، وكلفظ الرحم بمعنى القرابة ثم الرحمة فيها من رحم المرأة ، وقد ضاعت الأصول الأولى لكثير من الألفاظ ولم تبق إلا المعاني المشتقة منها .

٥ — خصائصها

يذكر اللغويون خصائص تمتاز بها اللغة العربية ، فهي تمتاز من اللغات السامية باشتمالها على عناصر جد قديمة تمت الى السامية الأم ، وانها أقرب اللغات السامية من الاصل ، اذا صح رأي أولسهوزن ، وأنها اكثر مرونة وتصرفاً من اخواتها .

ويذكرون من خصائصها التي تمتاز بها من اللغات الاخرى اشتمالها على الاعراب . والواقع ان بعض اللغات القديمة عرف الإعراب ، ولا تزال تعرفه من اللغات الحاضرة الحبشية والالمانية ، ويذكرون من خصائصها أيضا دقة التعبير ، فقد استوعب العرب كل ما أحاط بهم فأطلقوا عليه اسما يميزه . كأنواع الرياح والسحاب والمطر والحيوان ونحو ذلك . والحق ان العرب قد استوعبوا ما أحاط بهم كل الاستيعاب ، ولكن لا ينبغي أن ننسى ، من جانب آخر ، أن بيئة العرب كانت قليلة التنوع ، فهذه الدقة محدودة في نطاق ضيق ، حتى لقد اضطر العرب منذ الاسلام ان يعربوا كثيراً من الالفاظ التي لا عهد لهم بمسمياتها .

ويذكرون من خصائصها أيضا خصب المفردات ، وكثرة المترادفات ، ووجود الالفاظ المتضادة (التي تحتمل معنيين متضادين) والجموع المتعددة وسبب هذا كله توزع الامة العربية الى قبائل شتى لكل منها لهجتها ولغتها ، فلما توحدت اللغة فيما بعد كثرت فيها المفردات المترادفة والاضداد والجموع ثم ان كثيراً من هذه الالفاظ المترادفة كان في الاصل صفات ثم جرى مجرى الاسماء كأغلب أسماء السيف والأسد والناقة والداهية .

وبعد ، هل هذه المترادفات والجموع الكثيرة ثروة لغوية يعتز بها ؟ الحق ان اللغة اذا ارتقت استغنت عن المترادفات وأصبح لكل لفظ فيها مدلوله الخاص الذي لا يشاركه فيه أي لفظ آخر ، ونحن نستطيع الاستغناء عن كثير من هذه المترادفات التي لا طائل تحتها ولا غناء فيها وقد الغيت في الاستعمال منذ عهد بعيد وبقيت صوراً جامدة في كتب اللغة والمعاجم كما نستطيع الاستغناء عن كثير من الجموع التي تعقد اللغة أكثر مما تبسطها .

والظاهرة الحقيقية التي نجدها في اللغة العربية اليوم انها تكاد تكون أقل اللغات تطوراً على ممر العصور واكثرها اشتمالا على اصول اللغات البدائية . فما زالت لغتنا اليوم تقارب في الفاظها وتراكيبها اللغة التي نزل بها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنا ، ومرد هذا الى انها لغة القرآن ، والقرآن فضلا عن كونه كتاب المسلمين الاقدس ، هو كتاب العربية الاول ، ونموذج رائع معجز

البلاغة والبيان . كل ذلك جعل لغة القرآن تصبح قدوة الكتاب ورائد الأدباء في كل عصر مما حال دون أن يلم باللغة العربية كبير تطور كذاك الذي أصاب سائر اللغات العالمية ، ومما باعد بين لغتنا الفصحى المتبلورة ولغاتنا العامية المتطورة .

د – أطوارها

ليس من اليسير تتبع الأطوار التي مرت بها اللغة العربية لأننا لا نملك نقوشاً ونصوصاً نعتمد عليها في هذا التتبع وتنتهي بنا الى نتائج يقينية . وقد لاحظ أسلافنا منذ العصور الأولى اختلافاً واضحاً بين لغة سكان شمال الجزيرة العربية أو لغة عدنان ، ولغة سكان جنوب الجزيرة أو لغة قحطان . فنقل ابن سلام عن أبي عمرو بن العلاء قوله : « ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا » . وأورد ابن فارس في كتاب « الصاحبي » زعم قوم من العرب أن العرب العاربة لم تعرف نحواً ولا إعراباً ولا رفعاً ولا نصباً ولا همزاً ، وأورد في هذا المجال قصة عن وفود زيد بن عبد الله بن دارم على بعض ملوك حمير « فألفاه في متصيّد له على جبل مشرف ، فسلم عليه وانتسب له ، فقال له الملك : ثب ، أي اجلس . وظن الرجل أنه أمره بالوثوب من الجبل فقال : لتجدني أيها الملك مطواعاً . ثم وثب من الجبل فهلك . فقال الملك : ما شأنه ؟ فخبروه بقصته وغلطه في الكلمة . فقال : أما انه ليست عندنا عربيت ، من دخل ظفارِ حمّر . وظفار المدينة التي كان بها ... أراد من دخل ظفار فليتعلم الحميرية . »

من هذه الأحاديث وأمثالها يتبين لنا أن العرب أدركوا فرق ما بين لغة عرب الشمال وعرب الجنوب . وهم يزعمون من جانب آخر ان اللغة العربية الخالصة إنما نشأت في بني قحطان ، وهم العرب العاربة ، ثم تعلم اسماعيل هذه اللغة وعلمها أبناءه العدنانيين ، فلغة عرب الشمال مأخوذة اذن ، في الأصل ، من لغة عرب الجنوب .

أما أن العدنانيين أخذوا لغتهم عن القحطانيين فهذا مما لا دليل عليه ولا نقطع به ، ولكن البحث قد أثبت هذا الخلاف الذي لاحظه العرب بين لغة أهل الشمال ولغة أهل الجنوب ، فقد عثر على نصوص بها نقوش باللغة الحميرية لا تدع مجالاً للشك في مخالفتها للغة العدنانيين في ألفاظها وقواعد نحوها.

ولا يرى ولفنسون ، في كتابه « تاريخ اللغات السامية » ، وجوب التفريق تماماً بين اللهجات الشمالية واللهجات الجنوبية ، لأنه – فيما يقول – ليس تقسيماً جغرافياً صحيحاً ، ولا تاريخياً دقيقاً ، فليست هناك حدود واضحة تفصل شمال الجزيرة عن جنوبها ، وتبين لنا من أين والى أين كانت منطقة انتشار القسم الجنوبي من اللغة العربية ، ومن أين والى أين سادت اللهجات الشمالية من العربية » ويرى ، حلاً لهذا الأمر ، ان تقسم اللهجات العربية الى بائدة وباقية ، ثم يضيف : « ان اللغة

العربية الموجودة الآن مزيج من لهجات كثيرة مختلفة اختلط بعضها ببعض وامتزج امتزاجاً شديداً حتى صار لغة واحدة بعد أن فني أصحاب اللهجات وبادوا » .

وقد استطاع المحدثون أن يكونوا فكرة غير بينة عن اللهجات العربية البائدة المنسوبة الى بني لحيان ، وثمود ، ومعين ، اعتماداً على النقوش اللحيانية والثمودية والصفوية (نسبة الى ناحية الصفاه من الشام) ، والمعينية (نسبة الى قبائل معين التي كان وطنها الأول بلاد معين في أقصى اليمن) .

وقد يكون رأي ولفنسون في عدم التفريق التام بين اللهجات الشمالية واللهجات الجنوبية صائباً لأن القبائل العربية كانت غير منعزلة انعزالاً تاماً بعضها عن بعض ، وكان ثم تأثر متبادل بين لغات هذه القبائل كما كانت اللغة العربية تتأثر بلغة الأقوام المجاورة لها كالحبشية والعبرية والفارسية والرومية ، إلا ان الخلاف بين هذه اللهجات الشمالية والجنوبية لامجال للشك فيه . ثم يرى ولفنسون رأي القائلين بأن اللهجات الشمالية أخذت ، قبيل الاسلام ، تتمتع بسيطرة ونفوذ على سائر لهجات الجزيرة ، في حين أخذت لهجات بلاد اليمن تتدهور وتضمحل حتى كادت تفنى في أواخر القرن السادس الميلادي . وكان مما أعان على سيادة لهجات الشمال التدهور الاقتصادي والسياسي الذي ألم ببلاد اليمن ، وانتقال التجارة الى أيدي قريش . فمنذ ذلك الحين أخذت لغة المدنانيين تتمتع بسلطان بعيد على لغات الجزيرة ، ولم يكن هذا السلطان للغة قريش وحدها كما يتوهم بعض مؤرخي الادب ، وأخذت اللهجات العربية تتقارب وتتداخل ، وأعان على هذا التقارب عوامل شتى أبرزها اجتماع العرب في مكة لقضاء مناسك الحج ، واجتماعهم في الاسواق والمواسم التي كانت صبغتها تجارية وأدبية معاً . وكان أكثرها بالحجاز حاضرة التجارة ، كسوق عكاظ قرب الطائف ، وذي المجاز ومجنة قرب مكة . فلا جرم تسود لغة الشماليين وتتقارب اللهجات العربية .

ولكن توحد اللغة العربية لم يكن متاحاً إلا بتوحد الأمة العربية ، وهذا ماحدث فعلا بظهور الاسلام ونزول القرآن بلغة قريش ، فقد تمت بنزوله سيطرة لغة الشماليين ، وقريش خاصة ، على سائر اللهجات العربية التي أخذت بالانقراض . والقرآن هو الذي ضم شتات اللهجات العربية في لغة قريش ، إلا أنه ظلت بعض اللهجات القوية حية بعد الاسلام كلغة تميم ، ثم تكونت من لغة قريش ومما بقي حياً من اللهجات العربية ، ومن الألفاظ الدخيلة المعربة ، هذه اللغة العربية التي تضمها معاجمنا والتي نسميها العربية الفصحى .

مصادر لبحث اللغة العربية

١ – المزهر – السيوطي
٢ – الصاحبي في فقه اللغة – احمد بن فارس
٣ – علم اللغة وفقه اللغة – علي عبدالواحد
٤ – نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها – انستاس الكرملي
٥ – الخصائص – ابن جني
٦ – تاريخ اللغات السامية – اسرائيل ولفنسون
٧ – في الأدب الجاهلي – طه حسين

* * *

العرب

أ – لمحة جغرافية

مهد الأدب العربي هو جزيرة العرب . وهي ، وان لم تكن جزيرة بالمعنى الجغرافي الصحيح، الا ان احاطتها شمالاً بالأنهار والصحاري قد عزلتها عن البلاد فغدت كأنها جزيرة حقيقية . وهي في الجنوب الغربي من آسيا ، يحدها من الشرق خليج فارس ، ومن الجنوب بحر عمان والمحيط الهندي وغرباً بحر القلزم أو البحر الأحمر وشمالا نهر الفرات وبادية الشام . وهي تقع بين درجتي ٣٢ و ١٢ من العرض الشمالي ، وبين درجتي ٥٩ و ٣٣ من الطول الشرقي .

وقد اعتاد العرب تقسيم جزيرتهم الى أقسام خمسة :

الأول – الحجاز وهو يطلق على سلسلة جبال السراة في غرب الجزيرة ، وهذه السلسلة تمتد من ايلة (العقبة) شمالا حتى بلاد اليمن جنوبا . وقالوا أنه سمي حجازاً لأنه يحجز بين تهامة غربا ونجد شرقا . والحجاز قطر فقير يتخلله كثير من الأودية كوادي القرى ، وإقليمه بوجه عام شديد الحرارة ، الا في الطائف فإنه معتدل ، وسكانه منهم من استقر في المدن والقرى ومنهم بدو رحل .

أشهر مدن الحجاز مكة ، وأهميتها تجارية لوقوعها على الطريق التجاري الذي يصل بلاد اليمن بشمال جزيرة العرب وبلاد الشام ثم يثرب (المدينة المنورة) ثم الطائف ، وفيها كثير من اشجار الفاكهة وفي شمال يثرب جبل أحد ، وفي الشمال الشرقي منها جبلا أجأ وسلمى .

الثاني – تهامة أو الغور ، وهو القسم المنخفض غرب الحجاز وقيل أنهم سموه تهامة لشدة حره .

الثالث – نجد . وهو القسم المرتفع شرق الحجاز . ويمتد شرقا حتى البحرين ، وشمالا حتى بادية السماوة ، وجنوبا حتى العروض وفيه بعض الواحات الصالحة للزراعة ، وهو أصح بلاد الجزيرة هواءً ويعد موطن الشعر الجاهلي القوي الفصيح .

الرابع – اليمامة أو العروض . وسمي بالعروض ، فيما يقولون ، لاعتراضه بين نجد واليمن ، وفيه بعض الأودية .

الخامس — اليمن : وكان لفظ اليمن يطلق على كل الجزء الجنوبي من جزيرة العرب ، فكانت تضم أقاليم اليمن ، وحضرموت ، ومَهرة ، والشِحر ، وعُمان . عُرفت اليمن منذ القديم بالخصب والغنى ، وكانوا يسمونها « بلاد العرب السعيدة » . وكان سكان اليمن يعيشون عيشة حضر واستقرار . وقد جاء ذكرها في القرآن الكريم أكثر من مرة ، فجاء في وصفها قوله تعالى :

« لقَدْ كانَ لِسَبأٍ في مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ، جَنَّتانِ عَنْ يَمينٍ وَشِمالٍ ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ واشْكُروا لَهُ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُور » . (سبأ ، آ ١٤)

وسبب هذا الخصب الذي عرفت به اليمن وقوعها في مهب الرياح الموسمية ولهذا كان جوها معتدلاً . وأشهر مدن اليمن صنعاء ، مقر ملوك اليمن القدماء ، ومأرب ، مسكن سبأ ، ونجران ، وعدن .

الى جانب هذه الأقسام الخمسة تشتمل جزيرة العرب على صحارى وحرّات ، وأشهر الصحارى اثنتان :

الأولى — الصحراء المسماة « بادية الشام » (واسمها اليوم صحراء النفود) ، وهي في شمال الجزيرة ، ذات رمال لينة تغوص فيها الأقدام ، قليلة الآبار والعيون ، كثيرة الكثبان والوهاد . ينبت فيها غبّ المطر بعض الكلأ الذي ينتجعه البدو شتاءً ، ويرحلون صيفاً الى المناطق المجاورة.

الثانية — الصحراء الكائنة في الجنوب . وقد سمت العرب أجزاءها أسماءً كثيرة . فالقسم الذي بين شرقي اليمن وحضرموت يسمى « صيهدا » ، والذي بين شمال حضرموت وشرقها يسمى « الأحقاف » ، والذي في شمال مهرة يدعى « الدَهناء » . ويطلق اليوم على كل هذه الأقسام اسم « الرُبع الخالي » .

وأما الحرّات — وهي أراض ذوات حجارة سود نخرة تخلفت عن مقذوفات بركانية — فتمتد من شرق حوران حتى المدينة . وتقع المدينة نفسها بين حرّتين .

وأما المياه في جزيرة العرب فقليلة . بعضها آبار تجتمع فيها مياه الأمطار ، وبعضها وديان يجري فيها الماء حين هطول المطر ، وحول هذه الوديان كان يكثر التقاتل بين قبائل العرب ، ومن أشهر وديان الجزيرة وادي « الدهناء » ببادية البصرة موطن قبيلة تميم ، وهو يمر بمواطن كثيرة من القبائل كأسد وغطفان ويسمى بأسماء متعددة . ومن وديان اليمن وادي « مَوْر » ، ويتجه الى البحر . وفضلاً عن الآبار والمياه ثمة مياه تدعى الأحساء (جمع حسي) ، وهي أراض منبسطة يستنقع فيها الماء ، فاذا انخفضت أرضها فهي رياض وقيعان . وكل هذه المياه لا تكفي الجزيرة فالجدب يسود بقاعها .

جو الجزيرة بوجه عام جو صحراوي ، فهي تعتبر جزءاً من سلسلة صحاري آسيا وافريقية ، فهي شديدة الحرارة نهاراً شديدة البرد ليلا ، ولكن هذا الجو يختلف من منطقة الى أخرى ، فجو تهامة شديد الحرارة لانخفاضها ، وجو نجد أقرب الى الاعتدال . وفي الجبال يشتد البرد ليلا والحرارة نهاراً . أما جو اليمن فمعتدل لوقوعه في مهب الرياح الموسمية ويكثر فيها المطر إبان هبوبها .

وعلى الرغم من وقوع الجزيرة العربية بين ثلاثة بحار فان أمطارها قليلة لضيق البحرين المجاورين لها من جهة ، ولارتفاع الضغط في قلب الجزيرة من جهة أخرى .

وأحسن رياحها الرياح الشرقية المسماة بالصَّبا التي طالما تغنى الشعراء بذكرها ، وعلى عكسها الرياح الجنوبية المعروفة بالسَّموم التي أكثروا من ذمّها .

والجزيرة العربية فقيرة بنباتها ، اذا استثنينا اليمن الخصبة ، فيزرع في المناطق التي يتساقط فيها المطر بعض الحبوب ، وينمو في الواحات اللوز وقصب السكر والبطيخ ، وتكثر في الطائف أشجار الفاكهة . وفيما عدا ذلك لاينبت إلا الكلأ والبلح . أما في اليمن فان كثرة الأمطار من جهة وارتفاع الحرارة فيها من جهة أخرى ، أتاحا زراعة كثير من النباتات والأشجار فيها .

حيوان الجزيرة الأول الإبل ، وفيها بعض الخيل والشاء والبقر والحمر الوحشية والغزلان . وفي الأطراف كانت تعيش بعض الحيوانات المفترسة .

* * *

ب — لمحة تاريخية

ما هو أصل كلمة (عرب) ؟ لم يتفق المؤرخون على رأي بهذا الصدد فقال بعضهم أن المراد بها سكان الغرب لأن العرب كانوا ينزلون غربي الفرات . واستظهر ولفنسون أن كلمة عرب كانت تطلق على نوع خاص من القبائل كان يسكن البادية ويعيش عيشة تنقل وارتحال متتبعاً مساقط الغيث ومنابت الكلأ ، وأن التفريق بين كلمتي « عربي » و « أعرابي » لم يظهر إلا قبيل الاسلام . أما قبل ذلك فكانت كلتاهما تدل على سكان البادية . ويسوق لذلك أدلة منها أن كلمة عرب كانت مستعملة في اللغة العبرية القديمة لتدل على أهل العَرَبَة ـ أي الصحراء ـ في حين كان لأهل المدن والقرى أسماء أخرى وردت في كتب اليهود القديمة . ومنها أن كلمة « عبري » تؤدي نفس المعنى الذي تؤديه كلمة « عربي » ، لأن العبريين كانوا أيضاً قبائل رحلاً ، وكان هذا الاسم يطلق على بني اسرائيل وعلى غيرهم من القبائل الرحل التي كانت في جهات طور سينا وبادية سوريا وفلسطين ، وأن كلاً من

لفظي عبري وعربي مشتق من أصل واحد هو «عبر»، وقد وقع في لفظ عبري قلب مكاني فتحولت الى عربي. ورأي ونفنسون هذا لايعدو كونه فرضاً لا ينتهي بنا الى اليقين.

ومهما يكن أصل لفظ عرب فالمؤرخون يتفقون على أن الأمة العربية هي إحدى الأمم السامية. ويختلفون بعدُ في المهد الأول لهذه الأمة السامية، أهو بلاد أرمينية أم بلاد مابين النهرين أم غيرهما. ولا نكاد نعرف شيئا واضحا عن العرب قبل انتشارهم في جزيرة العرب، وجل الأخبار التي وصلتنا عن العرب الأقدمين مصدرها القرآن الكريم.

وقد ألف مؤرخو العرب تقسيم العرب الى أقسام ثلاثة: بائدة، وعاربة، ومستعربة.

فالعرب البائدة هي هذه التي وصلنا نتف من أخبارها من طريق القرآن الكريم والحديث الشريف وبعض النقوش، فيعدون منها قبائل «عاد» وكان مقرها الأحقاف، «وثمود» وكان موطنها بالحجر – مدائن صالح – ووادى القرى – بين الحجاز والشام – و «طسم» و «جديس»، وكانتا تسكنان اليمامة عهد ملوك الطوائف من الفرس، و «العمالقة»، وقد سكنوا أول أمرهم اليمن وأسسوا فيها الدولة المعينية، ثم انحدروا الى الشام ويثرب ومكة، ويجعلون من العمالقة ملوك الهكسوس الذين فتحوا مصر، ويدخل بعض المؤرخين «الحورابيين» في قائمة العرب البائدة وهو زعم لايدعمه دليل غير ماوجدوه من المشابهة الضعيفة بين اللغة العربية ولغة الحورابيين.

وقد تحدث القرآن عن هذه القبائل البائدة ذاكراً ماحل بها من دمار وانقراض كقوله تعالى في سورة الفجر: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ، وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ».

والعرب العاربة هم بنو قحطان، ويقولون إنهم نزحوا من شواطىء الفرات الى اليمن ثم انتشروا في البلاد العربية، وإنما سموا عاربة لأنهم العرب الخُلَّص. وقد أسسوا دولتين لهم في بلاد اليمن: أولاهما قبل الميلاد بحوالي ثمانية قرون وهي دولة سبأ التي قامت على أنقاض الدولة المعينية التي أسسها العمالقة، وكانت لها حضارة تجارية وزراعية كان من آثارها بناء سد مأرب الذي كان يستفاد منه في الري، ولما تطاولت الأزمان على هذا السد تصدع وفاضت المياه على ماحوله من القرى والمزارع فأتلفتها. فكان من ذلك هذه الهجرة الى أراضي الجزيرة الشمالية التي تحدث عنها المؤرخون. فأما خراب سد مأرب وقصة سيل العرم فقد أثبتهما البحث وحدد العالم سيديو ذلك بعام ١٢٠ ق.م؛ وجاء ذكر هذا السيل في القرآن الكريم في قوله تعالى: «لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ

آيَةٌ ، جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ . »

وأما الهجرة الى شمال جزيرة العرب فكان من نتيجتها قيام دولتي الغساسنة في الشام والمناذرة في الحيرة ، ولكننا لانستطيع الاطمئنان الى هذه القصة المروية في تواريخ العرب عن هجرة عمران بن عمرو ورهطه وعن توزع القبائل المهاجرة في الشمال .

والدولة الثانية التي أسسها عرب الجنوب هي دولة حمير التي قامت على أنقاض دولة سبأ وامتد ظلها حوالي ستة قرون (من سنة ١١٥ ق . م الى سنة ٥٣٥ ب . م) وهي دولة التبابعة ، ولم تصلنا عنها إلا أخبار مضطربة متناقضة ، وقد ظلت قائمة حتى استولى عليها الأحباش بتحريض جستنيان ، قيصر الروم ، انتصاراً للمسيحية المضطهدة ، وبغية تأمين الطريق التجاري بين الروم من جهة والهند وإفريقية من جهة أخرى ، وظل الأحباش يحكمون هذه البلاد حتى أزعجهم منها الفرس الذين حكموها حتى فتحها المسلمون .

أشهر قبائل قحطان : حمير وكهلان ، ومن حمير قبيلة قضاعة ومنها تفرعت قبائل عذرة وكلب وتنوخ وغيرها ، ومن كهلان تفرعت قبائل همدان وعاملة وجذام والأزد وكندة ولخم ومذحج وطيء وخثعم والأشعر ، ومن الأزد تفرعت قبيلتا الأوس والخزرج اللتان استقرتا في يثرب وعرفتا فيما بعد (بالأنصار) ، وخزاعة التي هاجرت الى مكة ، وغسان (ومنها دولة الغساسنة في الشام) . وقد لاتكون هذه الانساب صحيحة في جملتها إلا أنه كان لها أثر بعيد في حياة الأمة العربية .

والعرب المستعربة هم بنو عدنان ، وينتهي نسبهم فيما يروي النسابون الى اسماعيل بن ابراهيم الذي نزل مكة وصاهر قبيلة جرهم التي كانت فيها ، ثم كان من نسله نزار بن معد بن عدنان ، ومن نزار تفرعت قبائل إياد وأنمار وربيعة ومضر ، ومن ربيعة قبيلتا بكر وتغلب المشهورتان ، وتفرع عن مضر اليأس بن مضر ، وقيس عيلان بن مضر ، ومن أشهر بطون قيس عيلان سُلَيم وغطفان (وهي تتفرع الى عبس وذبيان) وهوازن (وتتفرع الى ثقيف وجشم وعامر بن صعصعة الخ ..)

ومن أشهر بطون اليأس بن مضر كنانة (ومنها قريش) وأسد وتميم . (راجع جداول الانساب العدنانية والقحطانية في آخر هذا البحث) .

وقد سمي هؤلاء بالمستعربة لأنهم ليسوا العرب الخلص . ولم تكن لغة اسماعيل العربية بل كانت

العبرانية أو الكلدانية ، ثم يزعمون أنه نسي لسان قومه وتكلم العربية ثم علمها للعدنانيين بعده ، وان شكنا في صحة هذه الانساب لا يحول دون تقديرنا لأثرها القوي في حياة العرب .

* * *

مراجع لبحث العرب

١ — فجر الاسلام ج١ — أحمد أمين

٢ — العرب — فيليب حتي

٣ — دائرة المعارف الاسلامية — مادة عرب

٤ — صفة جزيرة العرب — الهمداني

٥ — تاريخ الرسل والملوك — ابن جرير الطبري

٦ — تاريخ اللغات السامية — اسرائيل ولفنسون

٧ — أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار — الأزرقي

٨ — العقد الفريد ، باب اليتيمة — ابن عبد ربه

٩ — سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب — البغدادي

١٠— C. de Perceval : Essai sur l'Histoire des Arabes.

١١— C. Huart : Histoire des Arabes

الحياة العامة في العصر الجاهلي

١ – الحياة الاقتصادية :

ان معرفة طبيعة بلاد العرب الجغرافية تحدد لنا صورة للحياة الاقتصادية فيها . فهذه البلاد الفقيرة بمياهها وأمطارها لا يمكن أن تنشأ فيها حياة زراعية خصبة ، باستثناء اليمن ، ولذلك انصرف معظم العرب عن الزراعة ولم يعن بها الا بعض سكان المدن والقرى ، أما البدو فكانوا ينظرون اليها نظرة احتقار . وفقدان الحياة الزراعية كان عاملا في فقدان حياة الاستقرار في الجزيرة العربية ، فكان أغلب العرب بدواً رحلا يتسقطون مواقع القطر ومنابت الكلأ لأنعامهم ، ثم يرتحلون عنها صيفاً الى المناطق المجاورة . ومن هنا ندرك ما كان لموارد المياه ومواقع الغيث من شأن كبير في حياة العرب الاقتصادية ، فلا جرم يكثر حولها القتال ولاغرو ان تكون من أعظم أسباب الحروب بين القبائل العربية .

وهذه البيئة التي لم تسمح بنشوء حياة زراعية خصبة لم تكن ملائمة أيضا لقيام حياة صناعية راقية . ومن أوائل الشروط التي تتطلبها الحياة الصناعية الاستقرار والمواد الأولية ، وكلاهما كان مفقوداً في ذلك العهد ، فلم يعرف العرب حياة صناعية راقية وكان البدو يحتقرون الصناعة احتقارهم للزراعة ، فلذلك كان العدنانيون يعيّرون أهل اليمن بأنهم كانوا بين « دابغ جلد وناسج برد » . ونتبين احتقار العرب للصناعة من قول عمرو بن كلثوم يعير النعمان بن المنذر بأمه سلمى ، لأنها كانت ابنة صائغ :

لحا الله أدنانا الى اللؤم زلفة وألأمَنا خالاً ، وأعجزنا أبا

وأجدرنا أن ينفخ الكير خالُه يَصُوغ القروط والشنوف بيَثْرِبا

وفي العصر الأموي نجد جريراً يعيّر الفرزدق بأن أحد أجداده كان قينا ـ أي حداداً ـ كقوله له :

كأنك يابن القين واهب سيفه لأعدائه والحربُ تغلي قدُورها

اذا لم يكن الأقيون مجاشع   حماة عن الأحساب ضاعت ثغورها

وكانوا يرجعون في أعمال البناء الى عمال من الروم أو الفرس ، كما نعلم من قصة بناء الكعبة ، وبناء الخورنق للنعمان . ونجد اشارة لذلك في شعر الجاهليين كما في قول طرفة يصف ناقته :

كقنطرة الرومي أقسم ربها   لَتُكْتَنَفَنْ حتى تُشاد بقرمد

أما أهل اليمن فقد كانت لهم حياة زراعية راقية كما كانت لهم معرفة بالصناعة ، لأن بيئتهم كانت مواتية لازدهار هاتين الحياتين ، وليس أدل على رقي حياتهم الزراعية من بنائهم سد مأرب ، وقد رأينا المدنانيين يعيّرونهم بأنهم كانوا أهل صناعة ينسجون البرود ويدبغون الجلود ، واليهم تنسب صناعة السيوف والدروع والرماح ، كالدروع السلوقية (نسبة الى سلوق وهي قرية باليمن) والرماح اليزنية (نسبة الى يزن وهو واد باليمن) .

وكما كان لليمن نصيب في الحياة الزراعية والحياة الصناعية فقد كان لها ايضا حظ من الحياة التجارية الراقية ، لأن بلاد اليمن كانت ، لموقعها ، صلة الوصل بين افريقية والهند من جهة وبين بلاد الشام والروم من جهة أخرى . ولكن انحطاط الحياة الاقتصادية في اليمن فيما بعد وتخرب سدودهم وزوال ملكهم ، كل ذلك أدى الى نقل الزعامة التجارية من أيدي اليمنيين الى يد قريش وسكان الحيرة ، فكانت للنعمان نوق تدعى اللطائم تحمل حاصلات الهند والفرس الى بلاد العرب ، وكانت قريش في مكة تقوم بمهمة الوسيط في نقل التجارة بين بلاد اليمن جنوبا وبلاد الشام والروم شمالا ، وكانت لها رحلتان : إحداهما للشام صيفا والثانية لليمن شتاء . وقد تحدث القرآن عن هاتين الرحلتين في قوله تعالى : « لإيلافِ قُرَيْشٍ ، إيلافِهِمْ رِحلَةَ الشِّتاءِ والصَّيفِ »

وقد أحسن أهل مكة الانتفاع من موقع بلدتهم التجاري الممتاز ووطدوا هذا المركز بوسائل كثيرة تدل على بعد نظرهم ومهارتهم . منها أنهم قاوموا نشاط الشعراء وازدهار الشعر في مكة ، لأن الشعراء كانوا يسببون بتفاخرهم كثيراً من الحروب والفتن ، والحروب لاتلائم ازدهار التجارة . ومنها أنهم ، كي يعملوا على نشر السلام والأمن في ربوعهم، تحالفوا مع القبائل المجاورة لهم ، وجعلوا مكة وما حولها أرضاً حراما لايجوز فيها القتال والغزو ، وأوجدوا أشهراً حرما لايجوز فيها القتال هي (ذو القعدة وذو الحجة والمحرم وصفر) فاذا ماحدثت حرب خلال هذه الأشهر أو في المناطق الحرام دعيت « حرب الفجار » ، وهي حروب أربع اضطرت اليها قريش اضطراراً وكانت بين قيس وكنانة . وأوجدت قريش ، لهذه الغاية أيضا ، حلفاً أسمته « حلف الفضول » كان بمثابة محكمة عليا لقريش تفصل في المنازعات وتحول دون نشوب الفتن .

كذلك أوجدت قريش ، لتنشيط تجارتها وترويجها ، أسواقا تجارية لعبت دوراً كبيراً في حياة الأدب الجاهلي وفي تهذيب اللغة العربية كعكاظ وذي المجاز ومجنة . كما أنها سمحت لقبائل العرب بأن تضع في البيت الحرام أصنامها لتحج إليها . هذا المركز التجاري الذي كان لقريش هو الذي حملها على مقاومة الدعوة الاسلامية أشد مقاومة ، وقد رأينا الرسول يبدأ مهاجمته لقريش بمهاجمة قوافلها التجارية ، وحين خشيت قريش زوال مركزها التجاري سارعت الى اعتناق الاسلام .

وكان من اثر نشاط التجارة في مكة أن نشأت فيها طبقتان : إحداهما موسرة مترفة والثانية فقيرة مستضعفة ، وجاء الاسلام فأخذ بناصر المستضعفين وهاجم الطبقة الثرية الغنية التي كانت تتكالب على جمع المال بشتى الوسائل ، وكل ذلك قد صوره القرآن خير تصوير .

ولم يكن للعرب نقود خاصة يتعاملون بها في تجارتهم وإنما كانوا يتعاملون بنقود الفرس والروم أو كانوا يلجأون إلى تبادل السلع . وقد رأينا ان التجارة كانت في يد الحضر ولا سيما قريش ، اما البدو فلم يكن حظهم من التجارة بأكثر من حظهم من الزراعة والصناعة ، وكانوا ربما استعملوا في حراسة القوافل التجارية . فاذا لم يكن لهم نصيب لا من التجارة ولا من الزراعة ولا من الصناعة فعلى أي أمر كان مدار حياتهم إذن ؟ .

على الماشية ولا سيما الابل ، فهي الثروة الكبرى في جزيرة العرب .

فالناقة كانت مطيتهم في أسفارهم ووسيلة تعاملهم : بها تدفع دية القتيل ، ومهر المرأة ، وربح الميسر ، وكانت ثروة الرجل تقدر بعدد إبله ، وبها كان العربي يسلي همومه . وكان يشرب لبنها ويصنع من وبرها ثيابه وبيته ، ويأكل لحمها ، ويصنع من جلدها الأخفاف والقرب والسيور ، ويوقد بعرها ، وربما تطيب ببولها وادهن به . وكان يصنع من دمها وشعرها بعض الأطعمة كالعلهز ويتخذ من عظامها ألواحاً يكتب عليها ويصنع منها بعض الأدوات . ومن هذا نتبين ما كان للناقة من كبير الشأن في حياة العربي ، فلا غرو أن يكثر من ذكرها في شعره وأن يتغزل بها تغزله بالمرأة ، ولا غرو إذن أن تمتلىء معاجمنا بالألفاظ المتصلة بالناقة وأن يستمد الشاعر العربي منها صوره وأمثاله وتشبيهاته .

وأما الخيل ، فكانت مطية أهل اليسار وأداة الغزو الأولى ، وقد عني العرب بأنسابها وأوصافها عناية كبيرة .

والوسيلة التي كان يلجأ إليها العرب ليعيشوا ، ولا سيما في أوقات الجدب والقحط ، هي الغزو . فما كان الغزو ضرباً من اللهو أو نوعاً من اللصوصية ، بل كان بحكم شروط البيئة العربية القاسية

وضعاً متعارفاً عليه لا كتساب الرزق ، فضلا عن كونه سجية من سجايا البطولة تفرضها حياة الصحراء ولذلك نجد العرب جميعاً يقرون الغزو ويفخرون به ، بل نجدهم يحتقرون القبيلة المستضعفة العاجزة عن الغزو ، فنرى ان قريط بن أنيف ، الشاعر الجاهلي ، يهجو قبيلته « بلعنبر » لعجزها عن استخلاص إبله فيقول من ابيات :

لو كنتُ من مازنٍ لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذُهل بن شيبانا

لكنّ قومي،وان كانوا ذوي عدد ، ليسوا من الشر في شيء وان هانا

وكان الغزو يؤدي لا الى الحصول على الغنائم والسبايا فحسب بل الى انقاص عدد الافراد المحتاجين الى القوت ايضا ، على ان الغزو ما كان يؤثر في اخلاق العربي القائمة على الجود والاجارة والوفاء وغيرها من الخصال التي طالما فخر بها الشعراء .

هذه الحياة الاقتصادية ، لما فيها من شظف وقسوة ، عودت العربي حياة الصبر والتقشف والاحتمال ، فطعامه يقتصر على اللبن والتمر ولحم الماشية ، وغايته ان يحصل على الاسودين: التمر والماء ، قال الشاعر :

الأسودان ابرءا عظامي الماء والتمر دوا أسقامي

وهذه الحياة القاسية ألجأت العربي الى أن ينتفع من كل مايجده في بيئته ، وقد رأيناه يكاد لا يدع شيئا من الناقة الا انتفع به ، وكان يأكل التمر ويصنع منه الخمر ويجرش نواه فيطعمه الابل أو يجعل من النوى وقوداً وكان ربما ألجأه الجوع الى أكل الميتة أو أكل الضب واليربوع من حيوان الصحراء .

٢ — الحياة الاجتماعية والخلقية

كان العرب فريقين : البدو والحضر ، وكان الحضر قلة .

وكانت حياة البدو قائمة على انتجاع منابت الكلأ لماشيتهم فاذا انقطع الغيث ارتحلوا عنها ،فلم تكن حياتهم حياة استقرار فلذلك ابتعدوا عن الزراعة والصناعة والتجارة ونظروا الى كل ذلك نظرة احتقار ، كما قدمنا ، وكانوا يعيشون على ما تنتجه انعامهم وعلى الغزو . ويمثل لنا صورة من حياتهم قول الشاعر القطامي في العصر الاسلامي :

فمن تكن الحضارةُ أعجبته فأيّ رجالِ باديةٍ ترانا

وكنّ اذا أغرن على قبيلٍ فأعوزهنّ سلب حيث كانا
أغرنَ من الضباب على حلالٍ وضبّة ، انه من حان حانا
وأحياناً على بكرٍ أخينا ، اذا مالم نجد إلا أخانا

كانت الحياة القبلية هي السائدة . وكان للقبيلة نظامها الداخلي الذي ينظم علاقة الافراد بعضهم ببعض وتوزيع الغنائم ونحو ذلك ، وكان لها ايضا نظامها الخارجي الذي ينظم صلتها بالقبائل الاخرى ، ولا بد لأفراد القبيلة من الخضوع لنظمها وإلا خلعوا منها وطردوا ، وهؤلاء هم الذين عرفوا بالخلعاء والصعاليك ، وكان النزاع شديداً بين القبائل التي تصل بينها روابط القربى لتزاحمهم على موارد الماء ومنابت الكلأ ، ولتنازعهم الرياسة والشرف (كالحروب التي جرت بين بكر وتغلب ، وبين عبس وذبيان) ، وكان الفرد جزءاً من قبيلته مندمجا فيها ، ينتصر لها ظالمة أو مظلومة :

وهل أنا إلا من غُزيَّة إن غوت غويت وان ترشد غزية أرشد

أو كما قال قريط بن أنيف :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

فالشعور القبلي كان سائداً دون الشعور القومي الشامل ، لأن الوحدة السياسية والاجتماعية كانت متركزة في القبيلة ، فلما وحدهم الاسلام وفتحوا بلاد الاعاجم اخذوا يشعرون بقوميتهم العربية ويتعصبون لها .

ولم يكن افراد القبيلة طبقة واحدة . فكان منهم الاحرار ، وهم افراد القبيلة الأقحاح ، وعليهم المعوّل في الغزو والدفاع عن القبيلة ، وكان منهم الأرقاء الذين يعهد اليهم بالاعمال التي يترفع عنها الاحرار ، نتبين هذا مما يروى لنا عن عنترة العبسي ، وكان عبداً لأبيه ، من قوله حين طلب اليه المشاركة في القتال : ان العبد لا يحسن الكر والفر وانما يحسن الحلاب والصر . وكان منهم الموالي وهم اللاجئون الى حماية القبيلة من افراد القبائل الاخرى .

وأما الحضر فكانوا يحيون حياة استقرار في المدن والقرى كمكة ويثرب والطائف في الحجاز وصنعاء ونجران في اليمن . وقد هيأت لهم هذه الحياة نظاما اجتماعيا وسياسيا كما هيأت لهم رقيا اقتصاديا وهذبت أخلاقهم فكانوا ادمث خلقاً من الأعراب .

وكانت المرأة تشارك الرجل في اعماله : تحتطب وتجلب الماء وتحلب الماشية وتنسج الثياب وربما

شاركت في الغزو . ولكنها لم تكن في منزلة الرجل لأنها أضعف منه في اكتساب الرزق ولعجزها عن القتال ، ومنزلتها كانت تختلف باختلاف القبائل . وكانت لبعض النساء شخصية قوية جعلتها تشارك في مجالس الرجال . ولا نعرف للعرب حدوداً واضحة للزواج والطلاق ، إلا ان تعدد الزوجات كان شائعا ، وكان ثمة طرق للاتصال بالنساء غير الزواج المشروع ، وكانوا يحرمون أنواعاً من الاتصالات كزواج البنت والاخت والعمة والخالة .

وقد حدا الفقر ببعض قبائل أسد وتميم على وأد بناتها ، فلما جاء الاسلام حارب هذه العادة الذميمة في قوله تعالى : « وَلاتقتلوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إملاقٍ ، نحنُ نرزُقُهمْ وإيّاكُمْ » ووصفهم بقوله : « وإذا بُشِّرَ أحدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وَجهُهُ مُسْوَدًّا وَهوَ كَظيم ، يتوارى مِنَ القَوْمِ مِنْ سوءِ ما بُشِّرَ بهِ ، أيُمسِكُهُ على هُونٍ أمْ يدُسُّهُ في التّرابِ ، ألا ساء ما يحكُمون » .

وكان من العرب من افتدى عدداً من الموءودات كصعصعة جد الفرزدق ، وقد قال فيه مفتخراً :

وجدّي الذي منع الوائدات وأحيي الوئيد فلم يوأدِ

وكان ثم عادات متفشية بين قبائل العرب كالميسر وشرب الخمر وقد نهى عنها الاسلام : « يسألونَكَ عنِ الخمرِ والمَيْسِرِ قلْ فيهِما إثمٌ كبيرٌ ومَنافعُ للنّاسِ وإثمُهما أكبرُ مِنْ نفعِهما » وكانت لهم مثل وفضائل يتغنى الشعراء بذكرها ، وتفاخر بها القبائل ، وكان ظهورها صدى للبيئة العربية وذلك كالكرم وقرى الضيف ، وكانا نتيجة لحياة الاسفار والتنقل في الصحراء وأساسها المعاملة بالمثل . ومن سجاياهم المروءة في الدفاع عن القبيلة وحماية الجار واكرامه من هذا قول يزيد السكوني يمدح بني شيبان :

إني حمدت بني شيبانَ اذ خمدتْ نيرانُ قومي وفيهم شُبّت النارُ
ومِن تكرُّمهم في المحلِ أنهمُ لا يعلمُ الجارُ فيهم أنه الجارُ
حتى يكون عزيزاً من نفوسهم أو أن يبين جميعا وهو مُختار

ومن فضائلهم أيضا الوفاء بالعهد ، ونعلم قصة السموأل ، وقصة هانىء بن مسعود الشيباني الذي عرّض قومه لمحاربة الفرس في وقعة ذي قار المشهورة حماية لأدرع النعمان بن المنذر . ومن سجاياهم أيضا الشجاعة في القتال ، والعصبية العمياء للقبيلة التي توجب على كل ان ينصر أخاه ظالما أومظلوما

وأن يثأر لقبيلته ممن اعتدى عليها . ومن صفات العربي سرعة الانفعال فهو يثور لأتفه كلمة ، ولهذا كانت تقوم المنازعات بين القبائل لأبسط الأسباب ، وتسيل الدماء لأهون الدوافع ، ولهذا أيضا كان الحلم خصلة نادرة يستحق صاحبها الثناء والمدح . ومن صفاته أيضا شدة الاعتزاز بالنفس فلا يرى لغيره عليه مزية ولا فضلا ، وكل هـــذه السجايا والعادات والصفات قد صورها الشعر الجاهلي خير تصوير .

٣ – الحياة السياسية

لم تكن في الجزيرة العربية حياة سياسية ثابتة الأصول لفقدان الاستقرار ، وكانت الوحدة السياسية تتركز في القبيلة وكان زعيم القبيلة ملكا غير متوج في قبيلته يطيعه أفرادها طاعة عمياء فيغضبون لغضبه ويرضون لرضاه . وكانت زعامته تقوم على الشجاعة ، أو التقدم في السن ، أو الغنى ، أو كثرة البنين . والقبيلة تمنحه امتيازات خاصة في توزيع الغنائم والاسلاب ذكرها أحد الشعراء مخاطبا بسطام بن قيس زعيم بني شيبان :

لك المرباعُ فيها والصفايا وحُكمك والنشيطة والفضُولُ (١)

ولم تكن القبيلة تخضع لسيادة ملك أو لحكم قبيلة اخرى ، الا المستضعفة منها ، والا القبائل المجاورة للملوك فإنها كانت تخضع لهم خضوعا اسميا .

وقد قامت في جنوب جزيرة العرب دولتا سبأ وحمير ، وعلى أثر سقوط الدولة الحميرية استولى الأحباش على اليمن وظلوا فيها حتى انتزعها الفرس منهم ، وظل الفرس يحكمون اليمن حتى فتحها الاسلام في عهد بازان .

وأسس عرب الجنوب الذين هاجروا الى الشمال دولتين لهم : احداهما بالشام وهي دولة الغساسنة ، والثانية بالحيرة وهي دولة المناذرة . وتاريخ هاتين الدولتين مضطرب في كتب العرب . وقد حاول المستشرقون ، ولا سيما نولدكه ودوبرسفال ، ان يلقوا شيئا من الضوء على تاريخهما اعتماداً على النصوص والنقوش وعلى تواريخ الروم والفرس . وقد انتهوا الى أن دولة الغساسنة قامت في اكناف دمشق أواخر القرن الخامس الميلادي وزالت بفتح المسلمين لبلاد الشام . وكان أول امرائها الأقوياء الحارث بن جبلة الذي عاصر الامبراطور الروماني جوستنيان . وقد حل الغسانيون في بلاد الشام

---

(١) المرباع : ربع الغنيمة . الصفي : ما يصطفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة . النشيطة : ما أصابه الرئيس في الطريق . الفضول : ما زاد من الغنيمة مما لا تصح قسمته .

محل الضجاعمة وكانت غاية الروم من إقامة هذه الإمارة حماية حدودهم من غارات القبائل العربية وإقامة حاجز بينهم وبين اعدائهم الفرس ، ولما فتح الفرس بلاد الشام عام ٦١٣ م ضعف شأن الغساسنة ثم عادت الى الظهور حين نجح هرقل في استرداد الشام من الفرس عام ٦٢٩ م . وكان من امرائها الاخيرين جبلة بن الأيهم الذي أسلم في عهد عمر بن الخطاب ثم ارتدّ وتنصّر .

أما دولة المناذرة اللخميين فقد قامت في العراق اواخر القرن الثالث الميلادي ، وكان مقرها بالحيرة ـ وهو لفظ سرياني معناه الحصن ـ وتقع على ضفة الفرات الغربية (على بعد ثلاثة اميال من المكان الذي بنيت فيه الكوفة) . وكانت هذه الإمارة خاضعة لسلطان الفرس وقد اوجدوها للغاية التي حفزت الروم على إقامة دولة الغساسنة . ولذلك كانت هاتان الإمارتان تسيران وفقاً لمشيئة دولتي الروم والفرس ، ومن لم ينل من امرائهما رضى الدولة ذات النفوذ أقيل أو سجن أو قتل . وكان من أشهر ملوك المناذرة أبو قابوس النعمان بن المنذر (٥٨٥ ـ ٦١٣ م) وقد غضب عليه كسرى فلجأ الى قبيلة بني شيبان البكرية ثم نشبت من جراء ذلك وقعة ذي قار بين بني بكر واحلافهم وبين الفرس عام ٦١٤ وانتصر فيها العرب . وكان آخر ولاتهم المنذر بن النعمان الذي ظل واليا على الحيرة حتى فتحها خالد بن الوليد في عهد أبي بكر عام ٦٣٢ م .

كانت صلة هاتين الامارتين صلة عداوة وقتال لخضوعهما لسيطرة دولتي الفرس والروم المتعاديتين . ومن أشهر الأيام التي كانت بينهما يوم عين أُباغ ويوم حليمة وكان النصر فيهما حليف الغسانيين .

ولم تكن المنافسة بين هاتين الإمارتين منافسة حربية فحسب ، بل كانت منافسة ادبية ايضا ، فكانت كل منهما حريصة على استجلاب الشعراء وتقريبهم ليقوموا لها بأسباب الدعاوة . ومن أشهر الشعراء الذين كانوا يترددون على امراء الدولتين : النابغة الذبياني وحسان بن ثابت ، وكانت بين حسان وبين الغساسنة صلة قرابة لأنهما من الأزد وفيهم يقول :

لله در عصابة نادمتها ... يوماً بجلّق في الزمان الأوّل
اولاد جفنة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المفضل

وفيهم قال النابغة أيضا في بعض مدائحه لهم :

وثقت له بالنصر اذ قيل قدغزت ... كتائب من غسان غير اشائب
اذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم ... عصائب طير تهتدي بعصائب

وكانت اماديحه فيهم سبب غضب النعمان بن المنذر عليه . وكانت هاتان الدولتان على شيء من الحضارة والحياة المترفة لمجاورتهما لدولتي الروم والفرس .

وفضلا عن هاتين الامارتين قامت في نجد امارة كندة ردحا من الزمن وقد تولاها اجداد امرىء القيس وكان آخرهم حجرا ابا امرىء القيس ، الذي قتلته بنو أسد وحاول ابنه الثأر له .

أما في مكة فلم تقم دولة منظمة وانما عرفت نوعا من التنظيم السياسي غايته رعاية مصالح قريش التجارية . ويذكر مؤرخو العرب انه كان يلي أمر مكة جرهم الثانية من قحطان ، وهي التي صاهرها اسماعيل وتعلم منها العربية . ثم تغلبت قبيلة خزاعة اليمنية على جرهم وما زالت تلي امر مكة حتى تغلبت عليها قريش العدنانية بزعامة قصي بن كلاب . وكان ثمة وظائف تتولاها قريش كسقاية الحجيج حين ورودهم مكة ، ورفادتهم - أي اطعامهم - ، والحجابة ، أي القيام على شؤون الكعبة . ولا ريب أن هذه الامور كانت تعود على قريش بفوائد مادية ولذلك نشأت في مكة طبقة سرية مترفة هي التي حاربها الرسول حين قام بنشر الدعوة الاسلامية .

٤ — الحياة العقلية

لا ينبغي لنا أن نلتمس مظاهر الحياة العقلية عند الجاهليين في العلوم والفلسفة ، فما كان للعرب قبل الاسلام حظ من العلم والفلسفة بمعناها الصحيح ، لأن حياة البداوة وعدم الاستقرار لا تسمحان بارتقاء العلوم . ولعل بلاد اليمن وامارتي الغساسنة والمناذرة كانت على قسط من الحضارة العقلية ، فكان لها المام بشؤون الري والعمارة والطب والحساب ، ولا ريب أنها تأثرت بالحضارتين : الفارسية والرومية . أما عرب الجزيرة فقد اتجهت عنايتهم الى مظاهر الحياة العقلية التي لا تمت الى العلم كاللغة والشعر والامثال والقصص والاخبار . ولئن كانت علومهم بدائية ساذجة فإن معارفهم اللغوية والأدبية كانت على جانب من الرقي والنضج .

لم يكن العصر الجاهلي يتيح نشوء حياة عقلية راقية ، وما عرفه العرب من العلوم انما كان جملة من المعارف التي كانت وليدة الحاجة وبنت التجربة . فقد احتاجوا أن يعرفوا شيئا عن النجوم ومسالكها ومواقعها ليهتدوا بها في أسفارهم ، وربما اخذوا بعض معرفتهم بالنجوم عن الصابئة ، عبدة الكواكب وهم من الكلدانيين ، ولذلك نجد تقاربا بين اللغتين : العربية والكلدانية في اسماء البروج والكواكب ، وقد اشتهر من قبائل العرب بعلم النجوم بنو حارثة بن كعب وبنو مرة .

واحتاجوا أيضا ان يعرفوا شيئا عن الأنواء والجو والرياح والسحب ليعرفوا اوقات نزول المطر ومواطن نزوله . ويروون عن استدلالهم بالرياح واشكال السحب قصصا غريبة تدل ، ان صحت ،

على مبلغ ما وصلوا اليه من الدقة وقوة الملاحظة . وأشعار الجاهليين مليئة بأوصاف السحب والرياح والامطار وقد اطلقوا عليها اسماء تحيط بكل نوع منهـــا . وفي فقه اللغة للثعالبي باب مستقل في الآثار العلوية .

واحتاجوا أيضاً أن يلموا بشيء من الطب والبيطرة . ومن أمثالهم في ذلك : آخر الدواء الكي. ولكن معرفتهم بالطب كانت معرفة بدائية تقوم على الكي والعقّارات المتخذة من النباتات ، وعلى اصطناع الرق والتمائم . يقول ابن خلدون : « وللبادية من اهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الاشخاص ، متوارثة عن مشايخ الحي وعجائزه ، وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعي . » ونجد في أشعار الجاهليين ما يدلنا على بعض عاداتهم في معـالجة المرضى فكانوا مثلا يضعون الحلي في يدي الملدوغ كي لا ينام فيسري فيه السم ، يقول النابغة :

فبت كأني ساورتني ضئيلة   من الرقش في أنيابها السُم ناقعُ

يُسهّدُ من ليل التمام سليمُها   لحلي النساء في يديه قعاقعُ

وكانوا يعالجون الحول بادامة النظر الى حجر الرحي . ومن معتقداتهم الباطلة في العلاج ان المجروح اذا شرب فاضت نفسه ، وان المرأة اذا ذعرت حتى برد قلبها سقوها ماءً حاراً ، وعرف من اطبائهم ابن حذيم فقالوا : أطب من ابن حذيم ، والحارث بن كلدة الذي ارتحل الى بلاد فارس وتعلم فيها الطب وقد مات سنة ١٣ للهجرة .

ولما كان للدواب في حياتهم شأن كبير فقد عنوا بمعرفة ادوائها وعلاجها فكانوا مثلا يطلون الإبل الجربى بالقطران ، واشتهر من بياطرهم العاص بن وائل .

واحتاجوا أن يعرفوا شيئا عن الاستدلال بالآثار والهيئات وبلغوا في ذلك مبلغا عجيبا . وقد سموا الاستدلال بهيئة الشخص وأعضائه على أخلاقه وصفاته « علم الفراسة » ، وسموا الاستدلال بآثار الأقدام على أصحابها « علم القيافة » ، وتروى عن معرفتهم بذلك قصصٌ ليست كلها من نسج الخيال حتى كانوا يميزون بين أثر الرجل وأثر المرأة وأثر الأعمى وأثر البصير ، واشتهر من القافة بنو لهب ، وبنو مدلج الناقة . قال الشاعر يذكر معرفة بني لهب بالزجر :

خَبير بنو لِهبٍ فلا تك مُلغياً   مقالةَ لِهبيٍّ اذا الطيرُ مرَّت

والزجر هو الاستدلال بأصوات الحيوان وحركاته على مجرى الحوادث ، كأنْ يرمي الرجل الطير بحصاة ، فإن طار ميامنة تفاءل به وان طار مياسرة تطيّر منه . والزجر من هذه المعتقدات

الباطلة التي تشيع بين الأمم البدائية وفي عقول العامة ، ومن هذه المعتقدات عند العرب ايضا « الكهانة » و « العرافة » ونقصد الى استطلاع الغيب . وقد عرف من العرب طائفة اختصت بهذه المعارف وهم الكهان والعرافون ، وكان العرب يلجأون اليهم لاستشارتهم قبل أن يقبلوا على امضاء امر كسفر أو زواج أو حرب كما كانوا يلجأون اليهم لشفائهم من امراضهم وعللهم . ومن اشهر كهانهم سطيح الذئبي ، وشق أنمار ، وسلمى الهمدانية ، وطريفة الخير . ومن عرافيهم عراف نجد السعدي ، وعراف اليمامة رباح بن عجلة ، وفيهما يقول عروة بن حزام :

جعلتُ لعرّافِ اليمامةِ حكمَه   وعرّافِ نجدٍ ان هما شفياني

ولكن من العرب من لم يعبأ بهذه الاباطيل كلبيد القائل :

لعمرك ما تدري الطوارقُ بالحصى   ولا زاجراتُ الطيرِ ما الله صانعُ

وكان للعرب الى جانب معارفهم هذه معرفة ببعض الصناعات التي كانوا يحتاجونها كصناعة ادوات القتال والدباغة والنسيج وقد اشتهر بها عرب اليمن .

نرى مما تقدم ان معارف العرب في الجاهلية منها معتقدات باطلة تشيع في الامم البدائية، ومنها معارف تجريبية ساذجة ولّدتها الحاجة وهي لا تبلغ مرتبة العلوم الراقية .

٥ — الحياة الدينية

لم يكن في الجزيرة دين واحد ينتظم العرب قبيل ظهور الاسلام ، فكانت تتوزعهم الوثنية والنصرانية واليهودية والحنيفية والصابئة ، أي كان هذا العصر عصر اضطراب ديني وقلق روحي وذلك مما مهد لظهور الاسلام وسرعة انتشاره .

ولم تكن الوثنية عند العرب مثلها عند الامم الأخرى فإنها ما كانت تعد مراسيم وعادات لا تؤخذ بكثير من الجد ولا يصاحبها شعور ديني عميق ولعل الوثنية تخلفت عن دين توحيدي قديم بدليل أنهم كانوا يعتقدون بوجود اله خالق قادر على الرزق : وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ » (العنكبوت)

وكانوا اذا سئلوا عن عبادتهم للأوثان قالوا : « وما نعبدُهم الا ليقرِّبونا الى الله زُلْفَى » ، ولهذا وجدنا العرب كثيراً ما كانوا يحتقرون أصنامهم ، كالذي روي لنا من ضرب امرىء القيس الأزلام في وجه ذي الخلصة ومن انه كان لحنيفة صنم من التمر فاصابتها مسغبة فأكلته ، وسواء

أصحت هذه القصص أم لم تصح فانها تدل على أن العاطفة الدينية لم تكن قوية عند الوثنيين .

ولم يكن هناك شكل موحد للأصنام فقد كان لكل قبيلة صنمها الخاص من الحجر أو الخشب أو غيرها ، واشتهر من اصنامهم « ود » وهو في هيأة رجل متقلد سيفاً ، متنكب قوساً ، وبين يديه حربة ، ولعله رمز به الى الحرب ، وكان لقبيلة عذرة اليمنية ، ومنها « سواع » وكان لقبيلة هذيل . ومنها « يغوث » وكان لقبيلة مذحج . ومنها « يعوق » لقبيلة همدان . ومنها « نسر » لحمير . وقد جاء ذكر هذه الأصنام في قوله تعالى: « وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا » .

ومن أوثانهم المشهورة (الأوثان غير مصورة كالأصنام) « مناة » بين مكة والمدينة، ويظهر أنها كانت تدل على إله القضاء والموت كما يدل عليه لفظ (مناتا) في الآرامية و (منا) في العبرية و (المنية) في العربية . ومنها « العزّى » وكانت شجرة بوادي نخلة . ومنها « اللات » بالطائف وهي صخرة مربعة كان يقوم عليها سدنة من بني ثقيف . ويستظهر بعض المستشرقين أن لفظ « الله » تحريف للفظ (اللات) الآرامي. ومنها « ذو الخلصة » ، وكان مروة بيضاء يسمونها الكعبة اليمانية وكان لقبيلة خثعم .وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الأوثان في اكثر من موضع كقوله في سورة النجم « أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى » .

وكانت الكعبة من المواطن المقدسة عند الوثنيين يفدون إليها للحج في مواسم معينة ، وكان حولها أصنام كثيرة لمختلف القبائل أعظمها « هبل » وهو تمثال لانسان مصنوع من العقيق. وهناك قصة تروى عن دخول الأوثان الى مكة على يد عمرو بن لحي الخزاعي لا نعلم نصيبها من الصحة الا اننا نلاحظ أمرين : أولهما أن هذه الأصنام والأوثان ينسب معظمها الى عرب اليمن ، من استوطن منهم في الجنوب ومن نزح منهم الى الشمال . وحتى دخول الوثنية الى الكعبة ينسب الى خزاعة اليمنية . وقد كانت هناك كعبات أخر ، على ما يظهر ، في جنوب جزيرة العرب . كل ذلك يسمح لنا بأن نرجح ان الوثنية كانت منتشرة بين القحطانيين اكثر من انتشارها بين العدنانيين ، وأن انتشارها في الشمال كان على يد اليمنيين النازحين من الجنوب ، وأن العدنانيين كان اكثرهم على دين ابراهيم الذي أخذ بالاضمحلال شيئاً فشيئاً وكان من بقاياه هؤلاء المعروفون بالحنيفيين .

والأمر الثاني ان الشعر الجاهلي يكاد يكون خلواً من الاشارة الى الوثنية في حين أن القرآن حافل بذكر أصنام العرب وأوثانهم . ومرد هذا الى ان الرواة قد أبادوا اكثر الشعر الوثني من جهة

ومن جهة أخرى الى ماذكرناه من أن الوثنية لم تكن قوية في بني عدنان وهم الذين ينسب اليهم اكثر ما وصلنا من الشعر الجاهلي .

وكان الوثنيون يذبحون الذبائح ويقدمون القرابين لأوثانهم ، يقول النابغة :

فلا لَعَمْرُ الَّذي مَسَّحْتُ كَعْبَتَهُ وما هُريقَ على الأنصابِ من جَسَدِ

وكانت لهم طرق خاصة في توزيع لحوم القرابين كما كانت لهم أسماء خاصة بأنواع القرابين ، كالبحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحامي(1) ، واليها أشار الله تعالى بقوله :

« ما جَعَلَ اللهُ مِن بَحيرةٍ ولا سائِبَةٍ ولا وَصيلَةٍ ولا حامٍ . »

وكان الوثنيون يستقسمون عند أصنامهم بالأزلام ، وهي سهام كانوا يكتبون على بعضها لفظ الآمر وعلى بعضها الآخر لفظ الناهي ، فاذا أراد الرجل سفراً أو اعتزم أمراً استقسم بهذه الأزلام فان خرج الناهي عدل عن بغيته وإن خرج الآمر مضى على وجهته . وقد حرمها الاسلام مع الأوثان قال تعالى : « إنَّما الخَمْرُ والمَيْسِرُ والأنْصابُ والأزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فاجْتَنِبوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

كان جماعة من العرب ينظرون إلى هذه الأوثان نظرة إنكار واستهجان وهم الذين حافظوا على ديانة ابراهيم ـ او كانوا متأثرين بالديانتين المسيحية واليهودية ـ وعرفوا بالحنيفية . كان منهم ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل ، وعثمان بن الحويرث ، وعبيد الله بن جحش . وقد أطلق القرآن على ابراهيم لفظ الحنيف في قوله : « ما كانَ إبراهيمُ يهوديّاً ولا نَصْرانيّاً ولكنْ كانَ حَنيفاً مُسْلِماً وما كانَ مِنَ المُشْرِكين . » ولكننا لانعلم على وجه اليقين ما المقصود من لفظ (حنيف) .

وإلى جانب الوثنية انتشرت اليهودية في جزيرة العرب قبل الاسلام بقرون وكانت أشهر مواطنها : يثرب وفدك وتيماء وخيبر وبعض مناطق اليمن .

وكذلك انتشرت المسيحية وأهم موطن لها نجران في اليمن وكانت الحيرة ، موطن المناذرة ،

---

1) البحيرة : الناقة تشق اذنها فلا يركب ظهرها ولا يجز وبرها ولا يشرب لبنها الا ضيف أو تهمل لآلهتهم. السائبة : هي التي ينذر الرجل ان يسيبها اذا برىء من علته أو أدرك أمراً يطلبه. الوصيلة : هي التي تهمل ويسيب معها اخوها لانهما ولدا في بطن واحد . الحامي : الفحل الذي نتج له عشر اناث متتابعات فيحمى ظهره فلا يركب .

على المذهب النسطوري ، والشام ، مقر الغساسنة ، على المذهب اليعقوبي . ولكن المسيحية لم تنتشر انتشاراً واسعاً في جزيرة العرب لأنها لم تكن تلائم نفسية العرب ، ومن القبائل التي دانت بها تغلب وبطون من طيء .

وانتشرت في بلاد اليمن عبادة الكواكب والنجوم ، وأتباعها هم المعروفون بالصابئة ، وكان مقرهم حرّان من بلاد الشام .

وكان ثم فريق من العرب لايعرف له إلـهاً ولا ديناً واضحاً وهم الدهرية القائلون : ما يهلكنا إلا الدهر . وهكذا نرى أنه لم تكن في جزيرة العرب ديانة واحدة تنتظم القبائل العربية جميعها .

* * *

أثر الحياة العامة في اللغة والأدب

وخصائص الأدب الجاهلي

بين الحياة العامة التي رسمنا خطوطها وبين اللغة والأدب اللذين نشآ في هذه البيئة صلة قوية واشجة لأن اللغة والأدب هما وليدا البيئة .

كان لتوزع العرب الى قبائل متفرقة أن وجد في اللغة العربية ماسموه باللهجات ، ويذكرون منها جعجعة قضاعة ـ جعل الياء جيماً بعد العين نحو : الراعج بدلاً من الراعي ـ وفحفحة هذيل ـ جعل الحاء عيناً نحو : العسن بدلاً من الحسن ـ وعنعنة تميم ـ ابدال العين من الهمزة المبدوء بها نحو : عن بدلاً من ان ـ وكشكشة أسد ـ ابدال الشين من كاف الخطاب للمؤنث مثل : عليش بدلاً من عليك ، او هي زيادة شين بعد الكاف المكسورة نحو عليكش ـ وغيرها من اللهجات . ولا يقتصر الخلاف بين اللهجات على ابدال الحروف بعضها من بعض بل له وجوه أخرى كاختلافهم في الحركات ، فتميم واكثر العرب تكسر حرف المضارعة وقريش تفتحه ، وكاختلافهم في الاعراب فان ما الحجازية تنصب الخبر والتميمية ترفعه فتقول : ما أنت قادما ، وما أنت قادم . ومن وجوه الخلاف ايضا أن من العرب من يلزم المثنى الالف ، وهي لغة بني الحارث ابن كعب ، يقول شاعرهم :

تزوّد منا بين أذناه ضربة   دعته الى هابي التراب عقيمِ

الى غير ذلك من وجوه الخلاف بين لهجات العرب .

وكان الاتصال بين القبائل العربية في المواسم والأسواق يخفف من أثر هذه اللهجات، فلما نزل القرآن بلغة قريش سادت هذه اللغة على سائر اللهجات العربية ولكنها لم تستطع محوها محواً تاما .

وأمر آخر أنتجه افتراق العرب الى قبائل هو كثرة المترادفات والجموع وهي التي جعلت لمعاجمنا هذه الضخامة المدهشة ، لأن هذه المعاجم لم تجمع لغة قريش فحسب بل ضمت كل ما انتهى إليها من لغات العرب على الرغم من اندثار قسم كبير منها ، فالمدية والسكين مثلاً اسمان لمسمى واحد ولكن الأولى يمنية والأخرى مضرية . وهكذا في في اكثر المترادفات . وقد أشرنا قبل الى أن كثيراً من المترادفات كان في الأصل صفات ثم جرى مجرى الأسماء .

وأثر ثالث من آثار الحياة العامة هو أن ضيق نطاق الأفق العربي وعدم تنوع البيئة العربية جعلا العرب يصرفون هممهم الى وضع مسميات لأدق الأمور في بيئتهم ، فوضعوا أسماء لأعضاء الناقة وانواع الإبل واوصافها وسيرها وصوتها وكل مايتصل بها ، وهكذا في سائر ما كانوا يشاهدونه في بيئتهم من جماد ونبات وحيوان .

ولا شك ان كل مايذكر من خصائص اللغة العربية مرده الى البيئة التي وجدت فيها هذه اللغة.

وأما الأدب فكان أدب الصحراء المترامية الأطراف ، والسماء الصافية الأديم . كان ادبا بدويا كالبيئة البدوية التي نشأ فيها ، لاتعقيد فيه ولا غموض ولا إغراق في الصنعة والتكلف ، ولا مبالغات بعيدة ، ولا صور متعمقة . فكل أولئك امور لم يعرفها الأدب العربي إلا بعد ان تعقدت الحياة في المجتمع العربي ، وإلا بعد ان اتسع افق الأدب العربي وتحضر وتنوعت بيئته .

كان الأدب العربي في العصر الجاهلي ساذجا في افكاره سذاجة العقلية العربية نفسها في ذلك العصر ، فلا ينبغي لنا ان نلتمس فيه العمق وان نستخرج منه الفلسفة . وكان متشابهاً في صوره واخيلته ، محدودها ، لتشابه مشاهد الجزيرة العربية وعدم تنوعها؛ فالناقة تشبه بالبقرة الوحشية ، والمرأة بالظبي ، والرجل الحليم بالجبل ، والشجاع بالأسد ، ونحو ذلك من الصور القريبة المنتزعة من البيئة الجاهلية . وائن ظهر شيء من التنوع في بعض شعرهم فانما نجد ذلك في اشعار الذين ترددوا على اطراف جزيرة العرب والممالك التي كانت فيها كبعض مانجده في شعر الأعشى والنابغة الذبياني وحسان بن ثابت .

وقد بينا ما كان للناقة من شأن كبير في حياة العربي ، وهذا ما جعل الشاعر الجاهلي يستمد اكثر صوره وتشبيهاته ومعانيه من الناقة وهذا ماجعله ايضا يكثر من وصفها في قصائده . فقطرات المزن محاكي حنينها حنين الابل :

تحِنُّ بأجوازِ الفلا قَطَراتُه   كما حنَّ نيبٌ بعضُهنَّ الى بعضِ

والطعن يشبه دفع الناقة ببولها :

بضربٍ يُزيلُ الهامَ عن سكناتِه   وطعنٍ كما يزاخ الجمال الضواربِ

واسراع الرجال الى الموت كاسراع الجمال المصاعب :

إذا استنزلوا عنهنَّ للطعن ارقلوا   إلى الموت إرقال الجمال المصاعبِ

والقوس تشبه ذراع البكر :

والقوس فيها وترٌ عُرُدٌ   مثل ذراعِ البكر أو أشدُّ

الى آخر هذه الأوصاف والتشبيهات .

وكانت العاطفة صادقة في الغالب تأتلف مع الحياة البدوية الساذجة ، وكذلك الشأن في طرق التعبير لم يكن فيها تعقد ولا التواء كالذي نشاهده في الأدب العربي منذ العصر العباسي . ولكن لا ينبغي لنا ان نظن ان العربي كان يؤدي افكاره دائماً بالألفاظ الحقيقية دون المجازية ، فلم تكن الحياة الادبية اذ ذاك في عهد طفولتها الذي تشيع فيه الحقيقة دون المجاز وانما كانت الحياة الادبية قد جاوزت هذا الحد واتجهت نحو النضج ، فشاعت التعابير المجازية في الأدب ، وكان العربي قلما يعبر عن الأشياء بأسمائها الحقيقية بل يذكرها بأوصافها او يكنّي عنها . واكثر الصور البيانية استفاضة في الشعر الجاهلي التشبيه والكناية .

وكما كان لهذه البيئة أثرها في طابع الأدب كان لها أثرها أيضاً في فنونه وأغراضه . فحياة الرحلة الدائمة هي التي أوجبت ذكر الأطلال في مطالع القصائد ، ومايتصل بهذه الرحلة من مفارقة الأحباب أوجب ذكر الفراق والغزل والنسيب ، فضلاً عن أن الغزل فن طبيعي في الأدب . وما كان للناقة من الشأن الكبير في حياة البدوي جعله يكثر من ذكرها في شعره ، كما قدمنا . وكثرة الحروب والوقائع بين القبائل العربية ملأت شعر الجاهليين بشعر الحماسة والحرب ، لاسيما وان الفرد كان مندمجاً في القبيلة كل الاندماج ، فكان الشاعر يفخر بقبيلته ويدافع عنها وينافح القبائل الأخرى ، فإن تخلى الشاعر عن قبيلته ظهر في شعره أثر الفردية وهذا مانجده في أشعار الصعاليك . والعصبية العنيفة للقبيلة ، وكون القبيلة هي الوحدة السياسية والاجتماعية جعلا مدار الشعر الجاهلي على الفخر بالقبيلة وتعداد مناقبها وهجاء أعدائها . والخصال التي فرضتها حياة الصحراء على العربي ، كالكرم والمروءة والشجاعة والوفاء وغيرها ، هي التي نجد الشاعر الجاهلي يمدحها ويفخر بها ويحث عليها .

وهكذا نرى ان الأدب الجاهلي ، في طوابعه وفنونه واغراضه ومعانيه كان صدى للبيئة المادية والمعنوية التي نشأ فيها .

* * *

مراجع لبحث الحياة العامة في العصر الجاهلي

١ ــ المصادر العامة ذوات الأرقام : ٣١ ، ٢١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤

٢ ــ تاريخ الرسل والملوك : ابن جرير الطبري

٣ ــ تاريخ الأمم الاسلامية : محمد الخضري

٤ ــ العرب قبل الاسلام : جرجي زيدان

٥ ــ فجر الاسلام : احمد أمين

٦ ــ العرب : فيليب حتي

٧ ــ القرآن الكريم

٨ ــ الحماسة : ابو تمام

٩ ــ الأصنام : ابن الكلبي

١٠ ــ مقدمة تاريخ ابن خلدون

الشعر في العصر الجاهلي

تعريف الشعر

قدّمنا ان الأدب هو « فن من الفنون الجميلة اداته الألفاظ » وأن الفن هو « التعبير الممتاز عن التجارب الانسانية » ،واوردنا بكلمة (تجارب) مايحسه الانسان من مشاعر وانفعالات ازاء مشاهد الكون . وهذا الأدب انقسم لدى جميع الامم انقساماً طبيعياً الى أدب منظوم وأدب منثور أو الى شعر ونثر . ولكن ماهو حد الشعر . وبمَ يمتاز من النثر ؟

يعرّف قدامة بن جعفر الشعر بقوله إنه « قول موزون مُقفّى يدل على معنى » ، واذن فهو لايختلف عن النثر الا في اشتماله على الوزن والقافية . وعرّف ابن خلدون معنى الشعر تعريفاً مقارباً فقال : « الشعر هو الكلام المبني على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به » ، فهو يضيف الى الوزن والقافية اعتماده على الخيال وجريانه وفق أساليب معينة ، واستقلال كل بيت بمعناه .

ولكن من العرب من لاحظ في الشعر شيئاً آخر غير الوزن والقافية . فقد نقلوا عن بعضهم قوله حين سئل عن الشعر : « الشعر شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا » ، ورووا ان حسان ابن ثابت سمع ابنه يصف زنبوراً بقوله : « كأنه مُلْتَفٌ في بُردي حِبَرة » فقال : شعر ورب الكعبة . وسيرة الرسول تحدثنا بأن المشركين أطلقوا عليه لفظ شاعر وعلى القرآن لفظ الشعر . فهذا الكلام ونحوه لايدل على ان العرب لم يشترطوا في الشعر الوزن والقافيه ، ولكن على انهم كانوا يجدون في الشعر شيئاً آخر غيرهما ، شيئاً آخر دفعهم الى اطلاق لفظ الشعر ـ تجوزاً ـ على بعض ضروب النثر .

والحق ان الشعر ، في جميع آداب العالم ، يعتمد على أمر آخر غير الوزن والقافية ، ولو انه اقتصر عليهما لكان كل نظم شعراً فيدخل فيه المنظومات العلمية كألفية ابن مالك مثلاً . فالشعر

يرمي الى التأثير في النفس وتحريك المشاعر لا الى ايراد الحقائق العلمية والنظريات العقلية، ولذلك لم يصلح لكل الاغراض التي يصلح لها النثر . واذا اشترك الشعر وضرب من النثر في التأثير النفسي فلا يكون بينهما من الفرق حينئذ الا الوزن الشعري . فما هي الخصائص التي تجعل الشعر ذا تأثير خاص في النفس ؟

اولى هذه الخصائص التي تميز الشعر من النثر ان الشعر مطيته الخيال ومهارة الشاعر هي في أن يستثير خيالنا ويحرك مشاعرنا بان يصب معانيه في صور خيالية جميلة . فالشاعر لا يقول لنا مثلا أنه يعيش في دنياه منكود الطالع تعاكسه الاقدار ولكنه يصور لنا ذلك تصويراً خيالياً فيقول نحو قول ابن الرومي :

الى الله اشكو سخف دهري فانه يعابثني ، مذ كنت ، غير مطايبي
أبى ان يغيث الأرض حتى اذا ارتمت برحلي أتاها بالغيوث السواكب
سقى الأرض من أجلي فأضحت مزلة تمايل صاحيها تمايل شارب

وكلما قل حظ الشاعر من الخيال كان شعره الى النثر أقرب . وكلما اعتمد النثر على الخيال اقترب من الشعر. واعتماد الشعر على الخيال هو الذي دفع الشعراء الى ايثار التعابير المجازية على الحقيقية والى الاكثار من الصور البيانية كالتشبيه والاستعارة والكناية .ولهذا أيضاً قال القدماء ان اجمل الشعر أكذبه ، وقال البحتري حين أقحم بعضهم المنطق في الشعر :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغني عن صدقه كذبه

ومن خصائص الشعر أيضاً انه يصطنع لغة خاصة والفاظاً مخصوصة ،فلا ريب أن الألفاظ تتفاوت في قيمتها الموسيقية وفي وقعها على الاذن وفي تأثيرها في النفس ،والشاعر يتخير من الالفاظ اوقعها في النفس واعذبها في النطق . ومن هنا نجد كتب الادب عند الغربيين تميز بين الالفاظ الشعرية والالفاظ غير الشعرية . ونجد أيضاً ان شعراء العرب يتجنبون استعمال الالفاظ التي لا تصلح للشعر ونجد عبد الملك بن مروان يأخذ على جرير استعماله لفظ « بوزع » في الشعر لأنه يفسده ولا يصلح للغزل .

والخاصة الاخيرة في الشعر هي القالب الشعري أو الوزن. وهذه الاوزان تختلف من امة الى اخرى فمنها مايتخذ مقياسه المقاطع ، كما في الشعر الغربي ، ومنها مايتخذ مقياسه الحركات والسكنات التي تنتظم منها التفاعيل ، كما في الشعر العربي . والوزن الشعري ، بما فيه من إيقاع يضيف الى الشعر

تأثيراً موسيقياً لا نجده في النثر . ويتبين لنا ذلك حين ننثر بيتاً من الابيات أو نترجمه من لغة الى اخرى فانه يفقد كثيراً من جمال وقعه في النفس ، فلو قال أحدهم : اذا تطاول علينا الملك الجبار فانا نهاجمه بسيوفنا ، لم يكن لقوله هذا من الوقع ما لقول بشار :

اذا الملك الجبار صعّر خدّه مَشَينا اليه بالسيوف نعاتبُه

فالوزن اذن خاصة من خصائص الشعر الاصيلة وبدونها لا يسمى شعراً . وقد شاع في العصور الاخيرة الاستغناء عن الوزن في اشعار بعض الغربيين ومن حذا حذوهم من شعراء العرب، زاعمين ان الوزن ليس لازماً للشعر ، ولكن هذه النزعة لم تلق كبير تأييد . وقد نجد في بعض النثر خيالاً قوياً واسلوباً شعريا ولكنا لا نسمي هذا النثر شعراً لخلوه من الوزن ، ولنسمه اذا شئنا نثراً شعريا أو شعراً منثوراً ولكنه ليس شعراً على كل حال .

وفي الشعر العربي ، فضلا عن الوزن ، قافية ينتهي بها البيت وتلتزم في جميع ابيات القصيدة ولهذه القافية ايضا وقعها الموسيقي ولكنا لا نرى وجوب التزامها في القصيدة كلها ، كما جرى عليه القدماء ، فللشاعر ان ينتقل في القصيدة الواحدة من قافية الى اخرى لئلا يضيق عليه مجال القول ، شريطة مراعاة التناسب بين قوافي القصيدة الوحيدة ، وكذلك حين نقول بالتزام الوزن في الشعر لانوجب التقيد بأوزان العرب القدماء المحدودة بالبحور الستة عشر المعروفة فالشاعر يستطيع اختيار الوزن الذي يجده ملائما لغرضه ، وقد اوجد الشعراء المجددون أوزانا محدثة كثيرة كما أنهم لم يلزموا أنفسهم بوحدة القافية في القصيدة .

نشأته

ليس من اليسير تتبع مولد الشعر ونشأته لاننا لم ندرك الشعر في مراحل طفولته بل ادركناه وهو على حظ يعتد به من الرقي والازدهار . ولكننا نستطيع ان نؤرخ نشأته على ضوء طبيعته وماهيته ، ذلك ان نشأة الشعر مسايرة لنشأة سائر الفنون الجميلة وهي قد وجدت مع الانسان منذ اقدم عصوره لان حاجة الانسان الى التعبير عن شعوره الفائض حاجة غريزية تولد بولادته وتوجد بوجوده . وهكذا خط الانسان الاول صوراً على الاحجار والصخور وصنع تماثيل من الطين والحجر واطلق حنجرته بغناء ساذج مبهم ، وهكذا ايضا قال الشعر ليتغنى به مشاعره المبهمة وأحاسيسه الغامضة فصدر عنه الشعر فطريا كما يصدر التغريد فطريا عن الاطيار . وقد نشأت هذه الفنون بدائية ساذجة وما زالت ترتقي وتتطور على ممر العصور حتى ادركها التاريخ وقد اخذت بنصيب واف من الرقي والنضج .

ودارسو الأدب مختلفون في أيهما اسبق وجوداً : الشعر أو النثر . ويكاد جمهورهم يجمع على ان الشعر سابق في وجوده على النثر الفني ، لأن هذا النثر الذي نعده من الأدب يصدر بعد التأمل الفكري والنظر العقلي، وهما لا يتوفران في الأمة الا بعد ان تخطو خطوات في مضمار الرقي والتحضر ، في حين ان الشعر ينبثق عن الشعور الفطري الذي يوجد في الامة منذ وجودها وكذلك اجمع رأي النقاد على ان نشأة الشعر كانت مرتبطة بنشأة الغناء ، والانسان الأول منذ تغنى شعوره اخذ يترنم بالفاظ مبهمة ، وكان الفم هو الأداة الموسيقية الأولى ، ثم صار يضع بدل الألفاظ المبهمة كلمات ذات معنى تناسب في لفظها الوزن الغنائي وهكذا نشأت الأوزان الشعرية الأولى . ولذلك وجدنا الشعراء الأقدمين يتغنون باشعارهم ، فرووا ان هوميروس كان يغني شعره ، وكذلك كانت نشأة الشعر العربي ملازمة للغناء ، ويذكرون أن الأعشى كان ايضاً يتغنى بأشعاره ، ويقول حسان .

تغنّ بالشعر إمّا كنت قائله ان الغناء لهذا الشعر مضمار

وربما استمدوا من هذا قولهم : انشد الشاعر قصيدة ، والانشاد ضرب من الغناء .

اقسام :

يقسم الغربيون شعرهم اقساماً ثلاثة : قصصي وغنائي وتمثيلي وقد تأثر الغربيون في تقسيمهم هذا بالأدب اليوناني القديم الذي منه نهلت جل الآداب الاوربية .

فالشعر القصصي Poésie épique من أقدم الآداب التي عرفتها الأمم ، والشاعر في هـــذا الضرب من الشعر يقوم بمهمة الراوية فيسرد الحوادث والوقائع بشكل قصصي ، وهو يتغنى عواطف وافكار الاشخاص الذين يتحدث بلسانهم ولا يتغنى عواطفه الخاصة ، ولهذا فالشعر القصصي موضوعي لا ذاتي . وفي الغالب يدور الشعر القصصي حول قصة واقعية تتناقلهـا الأفواه على مر الأجيال وينالها اثناءها كثير من التحريف والتبديل ، ثم يتاح لها شاعر ينظمها ملحمة واحدة . ومن الشعر القصصي ما يدور حول الموضوعات الدينية ومنه ما يتناول حياة الأبطـال ولا بد ان يخالط هذا الشعر كثير من الأساطير والأحداث الخارقة .

والشعر القصصي منه ما تكون قصصه صغيرة تتناول موضوعاً واحداً ، ومنه ما تكون قصصه طويلة تؤرخ حياة امة وتروي قصص ابطالها ابان حقبة من الدهر ، وهذا الضرب يعرف بالملحمة Epopée ، ومنه الياذة هوميروس عند اليونان ، وإنيادة فيرجيل عند الرومان . ومهابهارتا عند الهنود ، والشاهنامه عند الفرس . ويظهر ان الساميين لم يعرفوا الملاحم لأسباب لا مجال لتبيانها

هنـا ، والشعر القصصي الذي عرفه العرب هو الشعر الذي يتحدث عن وقائع العرب وأيامهم في الجاهلية ولا يمكن ان نعده من الملاحم .

والشعر الغنائي Poésie lyrique هو الشعر الذي يتغنى فيه الشاعر عواطفـه ومشاعره الذاتية ، ولا يظهر هذا الضرب عادة إلا حينما يشعر أفراد الأمة بشخصيتهم. وكلمة غنائي مشتقة من أن هذا الضرب من الشعر كان يصاحبه عند اليونان عزف على القيثارة . ثم اريد بهذا النوع كل الشعر الخارج عن الشعر القصصي والشعر التمثيلي والذي يعبر فيه الشاعر عن خوالج نفسه . ويكاد يكون الشعر العربي القديم كله من هـذا النوع لأن الشاعر العربي كان يتغنى عواطفه وعواطف قبيلته التي يندمج فيها تمام الاندماج . وهذا الشعر ينقسم الى أبواب كثيرة منها الفخر والمدح والهجاء والرثاء والنسيب والوصف .

أما في الشعر التمثيلي Poésie dramatique فلا يكتفي القارىء بالسماع ، بل هو يمتع نظره بمشاهدة الحوادث التي يرويها الشاعر . وقد عرف اليونان هذا النوع واشتهروا به وعنهم أخـذه الغربيون . أما العرب فلم يعرفوا في القديم الشعر التمثيلي بمعناه الصحيح بل عرفوا نوعاً مقارباً له هو الشعر الحواري ولكن هذا الشعر مروي على لسان الشاعر ، وفي الغالب يكون الشاعر مندمجاً في الحوار كهذا الحوار الذي نجده مثلا في أشعار امرىء القيس وعمر ابن أبي ربيعة . ومن هذا القبيل أيضاً الشعر القصصي الذي يروي فيه الشاعر قصة ذات مغزى يحض بها على الكرم أو الوفاء أو غيرها من الخصال . ولكن هذا الشعر في الواقع الى الغنائي أقرب منه الى التمثيلي . أما الشعر التمثيلي بمعناه الصحيح فقد عرفه العرب حين ترجموا آثار اليونان ولكنهم لم يفهموه حق الفهم ولم يسيغوه ، ثم عرفه العرب مرة اخرى في عصر النهضة الحديثة حين وقفوا على الآداب الغربية ولكنه مازال بعيداً عن النضج والاكتمال .

* * *

الشعر الجاهلي

نشأته وتطوره وازدهاره

لا شك أن الشعر العربي لا يختلف في نشأته، عن سائر الشعر الذي عرفه العالم لأن مصدر ذلك كله واحد. وقد قدمنا أن نشأة الشعر ارتبطت بالغناء منذ أقدم العصور، ولكننا لا نستطيع تتبع المراحل الأولى لنشأة الشعر العربي ولا رصد تطوره رصداً يقينياً لأن التاريخ لم يسجل لنا إلا شعراً عربياً بعيداً كل البعد عن مراحل الطفولة، فلايسعنا إذن أن نأخذ بفروض بعض مؤرخي الأدب العربي من الغربيين مثل كليمان هوار ونيكلسون ومن تابعهم من الشرقيين الذين يفترضون أن السجع هو مبدأ الشعر العربي ثم تلاه الرجز الذي كانت تحدا به الابل ثم سائر البحور العربية، فكل هذه فروض لانجدلها سنداً تاريخياً يجعلها بمرتبة الحقيقة العلمية، هذا مع تسليمنا بان الرجز من أقدم بحور الشعر العربي وأقربها الى حياة البدوي اليومية فهو يستعمله في حداء إبله حين يضرب في البيداء كما يستعمله حين يرد الآبار ممتاحاً، وكانت الاعرابيات يستعملنه في ترقيص أولادهن. ونضيف الى ذلك أننا نكاد نجزم بان البحور القصيرة والمجزوءة والمشطورة هي أقدم البحور العربية وجوداً، لأن من سنن الطبيعة التدرج من البسيط الى المعقد.

ما هو مبدأ الشعر الجاهلي إذن؟

إننا حين نتحدث عن الشعر في العصر الجاهلي لانريد من ذلك اننا نؤرخ كل الشعر الذي سبق ظهور الاسلام، فالشعر الجاهلي الذي انتهى الينا والذي نطمئن الى صحته يرجع اقدمه الى النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي، وكل العهد الجاهلي الذي ندرسه يمتد زهاء مائة وخمسين عاماً فقط. وأما ما يروى من الشعر العربي على لسان الأنبياء والعرب الذين وجدوا قبل ذلك، مما نجد بعضاً منه في سيرة ابن إسحاق، فكل ذلك شعر منحول موضوع، ولا يغرب عن بالنا أن الشعر الجاهلي قد انتقل الينا بطريق الرواية الشفهية، لأن الكتابة لم تكن معروفة عهدئذ، وهذا ما أفسح المجال لأن يلم بالشعر الجاهلي كثير من التحريف والتبديل فضلاً عن التزيد والوضع المقصودين.

وحين ندرس الشعر الجاهلي فإننا لاندرس شعراً بدائيا لم يزل يحبو في مهده ، بل نجد انفسنا امام شعر قد اخذ بحظ وافٍ من النضج اللغوي والرقي الفني ونظرة واحدة الى الشعر الجاهلي تنبئنا بأن عصوراً وأجيالا قد مرت عليه منذ نشأته ، ارتقت إبانها لغته وأسلوبه، وكثرت أغراضه وفنونه ، وتعددت بحوره وأوزانه ، وصارت له اصول واضحة ينتهجها الشعراء ؛ حتى لنجد الشعراء الجاهليين المتأخرين يرون ان من سبقهم من الشعراء قد اخذوا عليهم منافذ القول ولم يدعوا لهم مجالاً للابتكار ، فيقول امرؤ القيس :

عُوجا على الطَّلل المحيل لعلَّنا نبكي الديار كما بكى ابن خِذام

وابن حذام هذا شاعر لانعرف عنه الا اسمه ؛ بل ان اسمه ايضا مختلف فيه فهو ابن حذام او ابن خذام او ابن حمام ... (انظر خزانة الادب للبغدادي ج ٤ : ٢٨٣) .

ويرى عنترة ان الشعراء قد وقفوا قبله على الاطلال ووصفوها حتى لم يتركوا لغيرهم مقالا :

هل غادر الشعراء من متردَّم أم هل عرفت الدار بعد توهُّم

وكذلك يرى زهير بن ابي سلمى ان الشعراء قبله قد اتوا على كل المعاني فهو ومعاصروه انما يرددون معانيهم :

ما أرانا نقول الا معاراً او معاداً من قولنا مكرورا

وهكذا نرى ان الشعر الجاهلي الذي ندرسه هو في عهد جد متأخر عن عهد الطفولة الاولى وعليه فلا يسعنا ان نأخذ بأقوال مؤرخي العرب القدماء الذين يريدون أن يحددوا مبدأ الاصول الشعرية كلها فيما انتهى الينا من اشعار الجاهليين ، فيزعمون انا أن اول من قصد القصائد هو المهلهل ابن ربيعة ، وأن أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى هو امرؤ القيس في قوله : قفا نبك، وانه أول من قيد الأوابد ، يقول الجاحظ : « اما الشعر فحديث الميلاد ، صغير السن، اول من نهج سبيله وسهل الطرق اليه امرؤ القيس بن حجر ، ومهلهل بن ربيعة»(١) فكل هذه الاحكام الظنية لايمكن الاخذ بها ، وغاية مانستطيع معرفته على التقريب هو تقدم شاعر جاهلي على شاعر جاهلي آخر في الزمن.

وكذلك لايسعنا ان نأخذ بأقوال مؤرخي الأدب هؤلاء حين يتحدثون الينا عن تنقل الشعر في القبائل منذ أقدم عصوره . فهذا الخط البياني لتطور الشعر الجاهلي وتنقله بين القبائل يعتمد على ان كلاً من هذه القبائل قد نبغ فيها شعراء في عهد من العهود ، ولكن ذلك لايدل على انتقال الشعر

١- الحيوان ج ١ : ٢٧

من قبيلة الى اخرى لأن القبائل كلها عرفت الشعر منذ وجودها والمؤرخون ينقلون هذا الكلام عن ابن سلام في كتابه « طبقات الشعراء » فهو يزعم لنا ان الشعر بدأ في الجاهلية في قبيلة ربيعة واشتهر من شعرائها مهلهل والمرقشان الاكبر والاصغر وطرفة بن العبد وعمرو بن قميئة والمتلمس. ثم تحول الى قبيلة قيس ومن شعرائها النابغتان الذبياني والجعدي وزهير بن أبي سلمى وغيرهم ثم استقر الشعر في تميم فكان منهم اوس بن حجر .

ومما لاريب فيه ان الشعر الجاهلي نهض قبيل الاسلام نهضة ملحوظة وكان مما أعان على هذه النهضة الأدبية النهضة السياسية في شمال الجزيرة وما حفلت به جزيرة العرب آنئذ من كثرة الاحداث والوقائع بين القبائل العربية ، وقيام الأسواق الأدبية في الحجاز وغيرها . فظهر في هذه الآونة عدد كبير من الشعراء خطوا بالشعر الجاهلي خطوات سريعة في مضمار الرقي والنضج .

وهنا أيضاً نحب ان نشير الى هذه الاسطورة الشائعة عند مؤرخي الادب العربي، حتى المحدثين منهم ، والتي تصور لنا ان العرب كانوا كلهم شعراء ، وكانوا كلهم يروونه وجلهم يقرضونه عفو البديهة وفيض الخاطر » ، فمها تتوافر للعرب من الدواعي الشعرية كدقة حسهم وسرعة تأثرهم وما في لغتهم من المميزات الشعرية وما في طبيعتهم من صفاء وانفساح يفتقان القرائح الشعرية. كل ذلك لايجعل من العرب امة شاعرة كلها ، يفيض عنها الشعر كما يفيض الماء من منبعه ، لاتعاني في دوقه جهداً ولا مشقة . ولا أدل على بطلان هذا المزعم من تلك الألقاب التي كانوا يطلقونها على شعرائهم دالة على مدى عنايتهم بشعرهم وتنقيحهم له ، كالمرقش والمحبّر والمتنخل ونحوهم ، واشعارهم تدل على مدى مايلقونه من الجهد في نظم قصائدهم ، يقول الحطيئة :

الشعر صعب وطويل سُلّمُه اذا ارتقى فيه الذي لايعلمُهْ
زلّت به الى الحضيض قدمُه يريد ان يُعربَه فيعجمُه

ولا ادل على ذلك أيضاً من تلك المنزلة التي كانت للشاعر عندهم حتى كانت القبيلة ، اذا نبغ فيها شاعر ، وفدت عليها القبائل الاخرى مهنئة ، وكان الشاعر يستطيع بشعره ان يهجو القبيلة فلا يرتفع لها ذكر أو يمدحها فتصبح في عداد أشرف القبائل وأنبهها ذكراً (انظر العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٢٦ و ص ٤٩) . صحيح ان الشعراء كانوا يتفاوتون في عنايتهم بشعرهم ومقدار تنقيحهم له حتى عرف المنقحون للشعر منهم باسم « عبيد الشعر » وكان هناك فئة اخرى من الشعراء كانت عنايتهم

بشعرهم اقل واعتمادهم على الطبع اكثر ولكن هذا لا يعني انهم كانوا يقرضون الشعر عفو البديهة وفيض الخاطر ، كما لا يعني ان العرب كان جلهم شعراء .

ابواب

قدمنا ان الشعر العربي لم يعرف من اقسام الشعر الثلاثة إلا الغنائي ، وان هذا الشعر الغنائي ينقسم الى ابواب كثيرة اشهرها الحماسة والفخر والنسيب والمديح والهجاء والرثاء والوصف والحكم ، ونحن موجزون القول في كل من هذه الأبواب .

الحماسة

يراد بشعر الحماسة الشعر الذي يقال في التحريض على القتال ، والدعوة الى الأخذ بالثأر ، والفخر بشجاعة القبيلة وقوتها وعددها . وعلى الجملة يراد به كل الشعر المتصل بالقوة وبحياة القتال والحرب . وإذ كانت الحياة في العصر الجاهلي تقوم على عنصر القوة ، وعلى القتال المتصل بين القبائل فلا غرو ان يكون معظم الشعر الجاهلي شعراً حماسيا . ولهذا وجدنا ابا تمام يصنف كتابا في اشعار العرب يسميه « الحماسة » ويحتل هذا الباب الشطر الاكبر من كتابه .

الفخر

باب الفخر في الواقع هو جزء من باب الحماسة لأن الشاعر لايفخر غالباً إلا بشجاعة قبيلته وقوتها وانتصارها على اعدائها كما يفخر بقوته وشجاعته . ولكن الشاعر أيضا يفخر بأمور أخرى منها الكرم والمروءة ونبل المحتد والحلم وطيب الشمائل والرزانة ورجاحة العقل والوفاء بالعهد وغير ذلك من الفضائل التي كان العربي يفاخر بها . ومن شعراء الجاهلية الذين اكثروا من الفخر طرفة وامرؤ القيس وعنترة وعمرو بن كلثوم .

الهجاء

من الأبواب التي قويت في العصر الجاهلي الهجاء وهو ملازم للفخر في الغالب ، فالشاعر الجاهلي حين يفاخر بقبيلته لابد له من هجاء القبائل الاخرى المناهضة لها ، واذا فخر بشعره هجا الشعراء الآخرين . وكان الهجاء الجاهلي يدور حول الحط من شأن المهجو وتجريده من الفضائل التي كان الجاهليون يعتزون بها ولا سيما الشجاعة والكرم . أما الهجاء القائم على نهش الأعراض والأفحاش والسب فكان قليلاً في هذا العصر وقد قوي في العصر الأموي . وكذلك

الهجاء التهكمي القائم على الاضحاك من المهجو لم يشع إلا قليلاً في هذا العصر وقد ازدهر منذ العصر العباسي على يد بشار بن برد وابن الرومي وغيرهما .

وأشهر من عرف بالهجاء في العصر الجاهلي الحطيئة . وهو من مخضرمي الجاهلية والاسلام .

المديح

لم يشع مديح الملوك والرؤساء في العصر الجاهلي في شيوعه في العصرين الأموي والعباسي ، لأن الشاعر في الجاهلية كان لسان قبيلته لايمدح سواها . ومع ذلك فقد وجدت طائفة من الشعراء كانت تفد على الملوك والأمراء رغبة في جوائزهم وعطاياهم وأشهرهم الأعشى والنابغة الذبياني وحسان بن ثابت . وكان زهير بن أبي سلمى منقطعاً الى هرم بن سنان يمدحه وينال عطاياه . واذا مدح الشاعر الجاهلي فانه يضفي على الممدوح صفات الكرم والشجاعة والنبل والحلم وغير ذلك من الفضائل . ومنذ أواخر العصر الجاهلي أصبح المديح تجارة يستدر بها الشاعر الأموال وظلت صبغة التكسب غالبة على المديح طوال عصور الشعر الأخرى .

الرثاء

كان العرب يرثون أبطالهم الذين يسقطون صرعى في ساحات القتال كما كانوا يرثون أقرباءهم وزعماءهم وأشرافهم فيعددون مناقبهم وينوهون بمآثرهم وفضائلهم ويظهرون التوجع والأسى لفقدهم وكثيراً ما كان الرثاء يمزج بالحكمة والتحدث عن صروف الدهر ونوائب الزمن . وقد اشتهر بالرثاء من شعراء الجاهلية ، الخنساء ، وهي مخضرمة ، ومتمم بن نويرة ودريد بن الصمة .

الغزل والنسيب

الغزل فن طبيعي في الشعر لأنه استجابة لعاطفة انسانية طبيعية هي عاطفة الحب ، ولذلك فاننا نجده مستفيضاً في الشعر في كل عصر ، وثمة فرق بين الغزل وبين النسيب . فالنسيب هو التشبيب بالمرأة ووصف محاسنها وذكر أخلاقها دون أن يصاحب هذا الوصف شعور بالحب ورغبة في الموصوف ، فان صاحبه هذا الشعور فهو الغزل ، فكأنما الغزل هو الناحية العملية للنسيب ، وقد نبه القدماء على هذا الفارق بينهما(١) وأهمية هذا التفريق أننا نجد شعراء اشتهروا بالنسيب دون أن يكونوا هم أنفسهم من الغزلين ، لأنه أصبح من مستلزمات القصيدة ابتداؤها بالنسيب ، وهؤلاء الشعراء هم جل شعراء

(١) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص ٧٣ ، والعمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١١٠

الجاهلية في حين اننا نجد طائفة اخرى قليلة كانوا غزلين حقاً كامرىء القيس وعنترة . ولم يرتق فن الغزل الا في العصر الاموي .

ولما كانت حياة العربي قائمة على التنقل والارتحال فقد كثر في النسيب ذكر اطلال الديار والرسوم العافية كما أكثر الشعراء من ذكر الفراق والبين والرحيل والحنين ، وظل وصف الاطلال مستبداً بمطالع القصائد الى عصور متأخرة على الرغم من ان العرب لم يعودوا فيما بعد أهل خيام وقطان صحراء .

الوصف

لانستطيع ان نقول إن الوصف كان غرضاً مستقلاً من اغراض الشعراء الجاهليين لان الوصف لم يكن من الموضوعات الاصيلة عندهم بل كانوا يوردونه عَرَضاً في قصائدهم . وكانوا يتناولون في وصفهم الطبيعة المحيطة بهم فيصفون السماء والماء والسحاب والمطر والرياح والشمس والصحراء والليل والجبال ونحو ذلك مما تشتمل عليه طبيعتهم المحدودة ، كما كانوا يصفون مافي طبيعتهم من انواع الحيوان ولاسيما الابل والخيل ، ويصفون انواع مآكلهم ومشربهم وملبسهم . ولعدم تنوع مشاهد طبيعتهم فقد اضطر الشعراء الى انتزاع اوجه الشبه من مناظرها المحدودة واستطاعوا أن يبلغوا في ذلك مبلغاً بعيداً من الدقة . ولكننا قد لانسيغ كل هذه التشبيهات اليوم لان طبيعتنا الفسيحة الواسعة تعيننا على تخير صور ادق وأقرب الى الذوق الحضري . وقد اشتهر من الشعراء في الوصف الاعشى في وصف الخمر وطُفَيل الغنوي وامرؤ القيس وابو دؤاد في وصف الخيل وطرفة وأوس بن حجر وكعب بن زهير في وصف الابل والشماخ بن ضرار في وصف الحمر الوحشية والقسي .

الادب والحكمة

كانت تعرض للشاعر الجاهلي امور من دنياه تضطره الى التأمل والتفكير فكانوا يلخصون نظرتهم الى الحياة في اشعارهم ، وقد يتوجهون الى قومهم بالنصح والارشاد ويلخصون لهم الحقائق التي اهتدوا اليها باعمال الفكر . ومن هذا الشعر كانت تستخلص امثال وحكم يتناقلها جيل عن جيل . واشهر من عرف بالحكم والامثال في شعره زهير بن ابي سلمى وطرفة بن العبد وأمية بن أبي الصلت والافوه الاودي . وتتصف حكم الجاهليين بأنها في الغالب منتزعة من تجاربهم اليومية ومستمدة من تأملهم في شؤون حياتهم وليست مستمدة من الفكر المحض والتأمل الفلسفي المجرد .

هذه هي ابواب الشعر الجاهلي واما خصائص هذا الشعر فقد لخصناها في حديثنا عن اثر الحياة الجاهلية العامة في اللغة والادب .

* * *

القصيدة الجاهلية - المعلقات

اذا طالعنا اية قصيدة من قصائد الجاهليين وجدنا انها تتناول موضوعات مختلفة وقلما نعثر على قصيدة تتناول موضوعاً واحداً . ذلك ان الشاعر الجاهلي كان في بادىء الامر يقول كل ماتجيش به نفسه في ابيات قليلة ثم كثرت الابيات وقصّدت القصائد وصار للقصيدة تقاليد خاصة ، فالشاعر الجاهلي يبدأ قصيدته في الغالب بذكر الاطلال والديار ثم ينتقل الى النسيب ومنه الى موضوع القصيدة وهو اما المدح او الفخر او الهجاء او الرثاء . واذا كان غرض الشاعر المدح فانه يصف طريقه الذي سلكه للوصول الى ممدوحه وينتقل الى وصف مطيته في هذا السفر ، وهي الناقة او الفرس . وربما اتخذ من وصف الناقة ذريعة لوصف حمار الوحش وصراعه مع كلاب القانص .

فموضوع القصيدة الجاهلية ، فيما يبدو لنا ، هو المدح او الفخر او الهجاء او الرثاء ، وما عدا ذلك فانما هو مقدمات للموضوع الاصلي . فان كان الشاعر الجاهلي ميالاً الى النسيب أكثر منه في مطالع قصائده ، وان كان ذا موهبة وصفية أطال وصف الطريق وما يعرض له فيه من مشاهد الطبيعة ، وأطال في وصف مطيته واتخذ من وصف الناقة جسراً يصل منه الى وصف حمار الوحش.

هذه الاصول استمرت في العصر الاموي واتخذت طابعاً اثبت لان الشعراء في العصر الاموي كانوا يحاكون النماذج التامة للشعر الجاهلي . فلما كان العصر العباسي قام بعض الشعراء المولّدين كبشار وابي نواس وابي تمام بمحاولة لتجديد الشعر والتخلص من قوالبه القديمة ، فيرى ابو نواس ان الخمر اجدر بالوصف من الاطلال وذكر المحبوب :

لاتبك ليلى ولا تطرب الى هندِ ... واشرب على الورد من حمراء كالورد

ويضيق المتنبي بهذا النسيب الذي تصدر به قصائد المديح :

اذا كان مدحٌ فالنسيب المقدَّمُ ... أكلُّ بليغٍ قال شعراً متيَّمُ

ومع ذلك كان هؤلاء الشعراء يضطرون الى التزام اصول القدماء حين يتعرضون لمدح الخلفاء

والولاة . وكان من أدباء العصر العباسي من حض على اتباع اساليب القدماء وحذّر معاصريه من الخروج عن مذاهبهم كابن قتيبة (المقدمة ص ١٤)

المعلقات — . حين جمع الرواة الشعر الجاهلي كانوا يختارون جملة من القصائد يضعون لها عنواناً خاصا كالجمهرات والمفضّليات والمفضّليات ، ونحو ذلك . واشهر القصائد الجاهلية ، «المعلّقات» وهي من اختيار حمّاد الراوية ، وانما سمّاها كذلك لانها جديرة بأن تعلق في الذهن لجمالها او لانها كالسموط التي تعلق في الجيد . واما ما ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد وتابعه فيه جمهرة من مؤرخي الأدب كابن رشيق، من ان سبب هذه التسمية تعليقها على استار الكعبة فلا صحة له ، قال: « وقد بلغ من كلف العرب به (اي بالشعر) وتفضيلها له ان عمدت الى سبع قصائد خيّرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة ، وعلقتها في أستار الكعبة ، فمنه يقال مذهبة امرئ القيس ومذهبة زهير . والمذهبات سبع وقد يقال لها المعلّقات » (١) . وقد انكر ماذهب اليه صاحب العقد مؤرخ معاصر له هو ابو جعفر النحاس (المتوفي سنة ٣٣٨ ﻫ) فقال في شرحه المعلقات : « واختلفوا في جمع هذه القصائد السبع ، وقيل إن العرب كان اكثرهم يجتمع بعكاظ ويتناشدون الاشعار فإذا استحسن الملك قصيدة قال : علقوها وأثبتوها في خزائني . فأما قول من قال انها علقت في الكعبة فــلا يعرفه احد من الرواة . وأصح ما قيل في هذا ان حماداً لما رأى زهد الناس في الشعر جمع هذه السبع وحضّهم عليها وقال لهم : هذه هي المشهورات ، فسميت القصائد المشهورة . »

وكما اختلفوا في سبب تسميتها بالمعلّقات اختلفوا في عددها وفي أصحابها ، فمنهم من يجعلهم سبعة وهو الأشهر ، ومنهم من يجعلهم ثمانيــة ، ومنهم من يجعلهم عشرة وهم : امرؤ القيس ، النــابغة الذبياني ، زهير بن إبي سلمى ، طرفة بن العبد ، لبيد بن ربيعة ، الحارث بن حلزة ، الاعشى، عبيد ابن الابرص ، عنترة العبسي ، عمرو بن كلثوم .

* * *

رواية الشعر الجاهلي وانتحاله

انتقل الشعر الجاهلي بطريق الرواية الشفهية ، لان الكتابة لم تكن شائعــة في ذلك العصر ، فكان الشاعر الجاهلي اذا اشتهر اتخذ له راوية يحفظ اشعاره ويرويهــا ويذيعها بين النــاس ، فكان

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٩٣

الراوية بمثابة ديوان الشاعر يحفظ شعره من الضياع ، وكان راوية الشاعر في الغالب تلميذاً له يأخذ عنه طريقته في نظم الشعر ، فيروى لنا ان زهير بن أبي سلمى كان راوية خاله اوس بن حجر، وكان كعب بن زهير راوية ابيه ، وكان الحطيئة راوية كعب ، وكان هدبة بن الخشرم راوية الحطيئة ، وكان جميل راوية هدبة ، وكان كثير عزّة راوية جميل (١) . وقد ظل الشعر ينتقل عن طريق الرواة حتى عرفت الكتابة وشاع التدوين .

ولما جاء العصر الاموي وقامت الفتوح قتل كثير من رواة الشعر وضاع كثير من الشعر الجاهلي ، يقول ابن سلام : « وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم ، ومنتهى حكمهم ، به يأخذون واليه يصيرون ... فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهيت عن الشعر وروايته . فلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح ، واطمأنت العرب بالامصار راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا الى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب . فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا اقل ذلك وذهب عنهم منه اكثره . وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه اشعار الفحول وما مدح فيه هو وأهل بيته ، فصار ذلك الى بني مروان او ما صار منه . قال يونس بن حبيب : قال ابو عمرو بن العلاء : ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير .» (٢)

ومنذ العصر الاسلامي وجدت طائفة من الرواة لا عمل لها الا جمع الاشعار وحفظها وروايتها واتخذت ذلك مهنة لها ، والى هؤلاء الرواة نحن مدينون بما وصلنا من اشعار العرب ، وقد اشتهر منهم في العصرين الاموي والعباسي حماد وخلف الاحمر وابو عمرو الشيباني وقتادة بن دعامة السدوسي وابو عمرو بن العلاء والاصمعي والمفضّل الضبّي .

بيد ان هؤلاء لم يكونوا كلهم ذوي امانة في روايتهم فاشتهر بعضهم بانتحال الشعر واضافته الى الجاهليين ولا سيما حماد وخلف الاحمر ، وكان كلاهما سكيراً فاسقاً ماجناً فاسد الدين ، ويزعمون ان خلفاً هو الذي وضع لامية العرب على الشنفرى .

وكان الذي حمل الرواة على انتحال الشعر انه صار تجارة رابحة في العصرين الاموي والعباسي وصار الناس يتوافدون على الرواة ليأخذوا عنهم اشعار العرب فأخذ الرواة يصنعون الاشعار ينحلونها الجاهليين ، وكانوا يصنعون الاشعار ايضاً تلبية لرغبات الاحزاب السياسية والفرق الدينية

---

(١) الاغاني ج ٧ ص ٧٨ ، (٢) طبقات الشعراء ص ١٦ .

لاحتياج هذه الاحزاب الى ما يدعم مبدأها ، وكانوا كذلك ينتحلون الشعر ارضاء لعلماء العربية الذين احتاجوا الى اشعار العرب ليؤيدوا بها مذاهبهم واقوالهم ، وكان لابد للرواة ايضامن اطراف الخلفاء والولاة بالأشعار والقصص ، فكل هذه الدوافع حملت الرواة على انتحال الشعر ونسبته الى الجاهليين . وقد اشار ابن سلام الى انتحال الشعر وفصل طه حسين القول فيه في كتابه «في الادب الجاهلي» . لهذا كله لابد لنا من ان نكون حذرين حين ندرس الشعر الجاهلي ، وان نتخير منه ما نطمئن الى صحته وعدم انتحاله .

نماذج من الشعر الجاهلي

١ – الأمثال والحكم

طرفة بن العبد

قال من معلقته التي مطلعها :

لِخَوْلَةَ أَطْلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ   تَلُوحُ كَبَاقِي الوَشْمِ فِي ظَاهِرِ اليَدِ

* * *

١ – أَلا أَيُّهذا الزاجِرِي أَحْضُرَ الوَغى   وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذاتِ، هَلْ أَنْتَ مُخْلِدي ؟

٢ – فإنْ كُنْتَ لا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتي   فَدَعْني أُبادِرْها بِما مَلَكَتْ يَدي

٣ – وَلَوْلا ثَلاثٌ هُنَّ مِنْ عِيشَةِ الفَتى ،   وَجَدِّكَ ، لَمْ أَحْفِلْ مَتى قامَ عُوَّدي

الشرح اللغوي .(١) الزاجر : الرادع والناهي . أحضر : اذا نصبت فعلى تقدير (أن) محذوفة وهو مذهب الكوفيين ، والرفع مذهب البصريين . الوغى : الحرب ، وفي الأصل الصوت والجلبة .

(٢) تسطيع : لغة في تستطيع . المنية : الموت . أبادرها : أسبقها ، يريد : اذا لم تستطع ان تدفع عني الموت فدعني اسبق مجيئه بانفاق ما ملكت يدي .

(٣) وجدك : الواو للقسم . الجد بالفتح ، الحظ والبخت ، وأبو الأب وأبو الأم ، وبالكسر الاجتهاد ، وضد الهزل ، والقسم هنا بالحظ والبخت ، ونرى من الجائز ان يكون قسمه بأبي الأب لأنهم كانوا يحلفون بالأهل فيقولون : وأبيك ، وأخيك ، الخ ... لم أحفل : لم أعبأ ولم أبال . العود : ج . عائد وهو الزائر في المرض . يريد انه لولا امور ثلاثة بها قوام الحياة لم أعبأ متى انصرف عني الزائرون يائسين من شفائي اي لم أعبأ بالموت ، وهذا التعبير من انواع الكناية .

٤ - فمنهنّ سبقي العاذلاتِ بشربةٍ كُميتٍ متى ما تُعلَ بالماء تُزبِدِ

٥ - وكرّي، إذا نادى المُضافُ، مُحنّباً كسيدِ الغضى ذي السورةِ المتورِّدِ

٦ - وتقصيرُ يومِ الدَّجنِ، والدَّجنُ مُعجِبٌ ببهكنةٍ تحتَ الطِّرافِ المُعمَّدِ

٧ - كريمٌ يُروِّي نفسَه في حياتِهِ ستعلمُ، إن متنا غداً، أيُّنا الصَّدي

---

(٤) سبقي : المصدر هنا مضاف الى فاعله والعاذلات مفعولة . العاذلات : ج عاذلة ، من عذل اي لام . كميت : صفة لما لونه احمر يخالطه سواد وتوصف بها الخمر . تعلى : (هنا) تمزج . يريد : ان اولى اللذات التي يعيش لها هي مباكرة شرب الخمر قبل انتباه العواذل .

(٥) الكر : العطف ، مصدر مفعوله (محنباً) . المضاف : المستجير واللاجىء والمذعور . المحنب : صفة للفرس الذي اصابه التحنيب وهو انحناء في وظيفتي الفرس وصلبها ، وتروى ايضاً : المجنب ، والتجنيب انحناء في رجلي الفرس ، وكلاهما صفة مستحبة في الخيل . السيد : الذئب . الغضى ضرب من شجر الأثل خشبه من أجود الخشب وأصلبه وواحدته غضاة . (وقد جمله صاحب القاموس والمصباح من اليائي ، واثبته بعض شراح المعلقات بالالف) ومنه يقال ارض غضياء اي كثيرة الغضى واليه تنسب الذئاب فيقال : ذئب غضى . السورة : السطوة والشدة . المتورد : وارد الماء . يريد : ان اللذة الثانية التي اعيش لها هي القتال ، فإذا ما ناداني المستجير عطفت فرساً محنباً يسرع اسراع الذئب القوي الى ورود الماء . ويروى بدلاً من (ذي السورة) : نبهته .

(٦) الدجن : الغيم المطبق والمطر الكثير ، جمعه دجون . البهكنة : الشابة الغضة الحسنة الخلق الطراف : الخباء . المعمد : المرفوع على العمد . يريد ان لذتي الثالثة في الحياة هي تقصير يوم الغيم بمعاشرتي امرأة حسناء تحت خباء معمد ، وقد وصف اليوم بأنه غائم ممطر اما لأنه لايستطيع فيه مغادرة الخباء وإما لأن الاتصال بالنساء يحتاج الى استتار فيختار له يوم الغيم ووصف النهار بالقصر لأن اليوم يقصر حين السرور ويطول حين الهم ومنه قول النابغة :

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

(٧) الصدي : العطشان والاسم الصدى . يريد ، انه كريم يمتع نفسه باللذات فإذا ادركه أجله لم يندم على مافاته من نعيم الدنيا . وهذا البيت يجعله بعض الرواة بيتين هما :

كريمٌ يروّي نفسه في حياته مخافة شرب في الممات مصرَّد

فذرني أروّي هامتي في حياتها ستعلم إن متنا غدا اينا الصدي

٨ـ أرى قبرَ نحّامٍ بخيلٍ بمالهِ كقبرِ غويٍّ في البطالةِ مُفْسِدِ

٩ـ ترى جُثْوتينِ منْ ترابٍ عليهما صفائحُ صُمٌّ منْ صفيحٍ منضَّدِ

١٠ـ أرى الموتَ يعتامُ الكرامَ ويصطفي عقيلةَ مالِ الفاحشِ المُتشدِّدِ

١١ـ أرى الموتَ أعداد النفوسِ ولا أرى بعيداً غداً ، ما أقربَ اليومَ منْ غدِ !

١٢ـ أرى العيشَ كنزاً ناقصاً كلَّ ليلةٍ ، وما تنقصُ الأيامُ والدهرُ ينفدِ

١٣ـ لعمرُكَ إنّ الموتَ ، ما أخطأ الفتى ، لكالطِّوَلِ المُرخى ، وثِنياهُ باليدِ

---

(٨) النحام : الحريص على جمع المال . الغوي : الغاوي ، الضال من الغي والغواية . البطالة : اضاعة الوقت وخسرانه . يريد : لافرق بعد الموت بين قبر البخيل الذي انفق حياته في جمع الاموال وبين قبر المبذر المتلاف الذي يبدد ماله في سبيل ملذاته ولهوه ، فلا ينفع المرء ماله بعد موته .

(٩) الجثوة : الكومة وجمعها جثي . الصفائح : حجارة عراض رقاق . الصم : الصلبة . منضد : رصف بعضه فوق بعض . هذا البيت تأكيد لمعنى البيت الأول وهو ما يسميه البلاغيون بالترشيح.

(١٠) يعتام : يختار . العقيلة : من كل شيء أنفسه . الفاحش : البخيل المتشدد . يريد هنا ايضاً ان الموت لايفرق بين البخيل والكريم فلا يغني عن البخيل ماله .

(١١) أعداد : ج . عِد ، بالكسر ، الماء الدائم الجريان . هذا البيت تأكيد لمعنى البيت السابق، فالموت مورد لابد لكل امرىء من ورده مهما طال عليه الأمد .

(١٢) ما : هنا ، موصولة ، ينفد : يفرغ ويفنى . يريد ان الحياة مثل كنز يتناقص كل يوم . وان الذي تنقصه الأيام لابد له من ان ينفد ويفرغ .

(١٣) لعمرك : من صيغ القسم ، وعمر في القسم مفتوحة العين . وهي مبتدأ خبره واجب الحذف تقديره : قسمي . ما : هنا ، مصدرية ظرفية اي مدة اغفاله للفتى . الطول والطيل : حبل يرخى للدابة لترعى . ثنياه : طرفاه . يشبه طرفة الموت بالحبل الذي يرخى للدابة يشده الراعي متى شاء وكذلك الموت لابد من مجيئه مهما تطل حياة المرء .

١٤ـ وظُلمُ ذَوي القُربى أشدُّ مَضاضَةً على المَرْءِ من وَقعِ الحُسامِ المُهنَّدِ
١٥ـ ستُبْدي لكَ الأيامُ ما كُنتَ جاهِلاً ويأتيكَ بالأخبارِ مَن لَم تُزَوِّدِ
١٦ـ وَيأتيكَ بِالأخبارِ مَن لَم تَبِعْ لَهُ بَتاتاً ولَم تَضرِبْ له وقْتَ موْعِدِ

* * *

---

(١٤) مضّه الحزن وأمضّه بلغ من قلبه واثر في نفسه والمضاضة : الايجاع والايلام . الحسام المهنّد : السيف المنسوب للهند ، ويقال له الهندواني ايضاً . يتشكى طرفة ظلم ابن عمه مالك له الذي كان لا يمنحه مايطلبه من المال ، ويرى ان ظلم قريبه له اشد تأثيراً في نفسه من السيف القاطع .

(١٥) لم تزوّد : لم تعطه زوادة ليسافر فيحمل اليك الاخبار . اي ان ما أقوله لك هو الحق وستنبئك الايام بصوابه وستقف على الاخبار دون ان تكلف نفسك السعي وراءها .

(١٦) باع : اشترى ،من الاضداد . البتات : كساء المسافر والزاد . وهذا البيت تأكيد للبيت السابق . اي يأتيك بالاخبار من لم تشتر له زاداً وكساءً ليسافر في طلبها.

دراسة القصيدة

١ – جو النص

صاحب النص

قائل هذه القصيدة هو عمرو بن العبد الذي ينتهي نسبه الى قبيلة بكر بن وائل الربعية ، وقد اشتهر بلقبه : طَرَفة ، وكذلك كان اكثر الشعراء الجاهليين يشتهرون بألقابهم . كانت قبيلة بكر تنزل البحرين التي كان سلطان المناذرة في الحيرة يمتد ظله اليها . وقد ولد طرفة في اسرة يكتنفها الشعر من كل جانب ، فكان عمه المرقش الاصغر ابن اخي المرقش الاكبر ، وهما شاعران مشهوران ، وكان خاله المتلمس بن جرير شاعراً ايضاً ، وكان لطرفة اخت شاعرة تدعى الخرنق . فلا غرو ان يظهر نبوغ طرفة الشعري مبكراً ، فيروون انه وهو غلام انتقد خاله المتلمس حين سمعه يسم الجمل بسمة « الصيعرية » ، وهي لاتكون الا في الناقة فقال له : « قد استنوق الجمل » .

واول الاحداث التي كان لها اثر في حياة طرفة وفي شعره موت ابيه عنه وهو صغير تاركاً له امه « وردة » ، واخوة صغاراً ، فيأبى اعمامه ان يقسموا ماله فيجري لسانه بباكورة شعره تذمراً من ظلم اقربائه له :

ماتنظُرون بحق وردةَ فيكمُ ،   صَغُرَ البَنُونَ ورَهطُ وردةَ غُيَّبُ
قد يبعثُ الأمرَ العظيمَ صغيرُهُ   حتى تظلَّ له الدماءُ تَصبَّبُ
والظُّلم فرَّقَ بينَ حيَّي وائلٍ :   بَكرٌ تُساقيها المنايا تَغلِبُ

ومنذ ان شب طرفه انصرف الى حياة اللهو والمجون ينفق فيها ما ورثه عن ابيه من المال ، وهذا ما حمل أعمامه على منع المال عنه والانحاء باللوم والتعنيف عليه ، وكان يرد على لومهم هذا بقوله انه يريد أن يتمتع باللذات قبل ان يدركه الاجل المحتوم ، وظل منصرفاً الى اللهو حتى نبذته قبيلته :

وما زالَ تَشرابي الخمورَ ولذَّتي ... وبيعي وإنفاقي طَريفي ومُتلدي
إلى أنْ تحامتْني العشيرةُ كلُّها ... وأُفردتُ إفرادَ البعيرِ المعبَّدِ

وكان له من شرف نسبه ما جرأه على هجاء ذويه وغير ذويه ، وكان ربما اضطر الى مغادرة قبيلته والتطواف في انحاء الجزيرة ثم يعود الى قبيلته آخر الأمر .

ويظهر انه اتصل بعد ذلك ببلاط عمرو بن هند في الحيرة ثم قتل او مات حوالي سنة ٥٧٠ الميلاد وله من العمر عشرون ونيف فيما يستدل من قول اخته الخرنق في رثائه :

عددنا له ستاً وعشرين حِجَّةً ... فلما توفّاها استوى سيداً ضخما
فُجعنا به ، لمّا رجَونا إيابَهُ ... على خيرِ حالٍ ، لاوليداً ولاقحما

اما ما يذكره مؤرخو الأدب من قصته مع اخيه معبد ثم من اتصاله هو وخاله المتلمس بالامير قابوس واخيه عمرو بن هند ، وما كان من هجاء طرفة زوج اخته عمرو بن بشر وهجائه عمرو بن هند وتلك القصة المنمقة الطويلة التي يرويها ابو الفرج الاصفهاني في كلامه على المتلمس (ج ٢١) عن مقتل طرفة وهرب المتلمس ، كل ذلك مما لانستطيع الاطمئنان الى صحته ونرجح انه من افتعال الرواة .

وقد ذهب لويس شيخو في شعراء النصرانية الى ان طرفة كان نصرانياً لأن امه كانت نصرانية وضبيعة رهط ابيه نصرانية ولاتصاله بملك الحيرة النصراني ، ولكن المستشرق سلفسون الذي درس طرفة رجح انه كان وثنياً ، ونرى أنه من الجائز ان يكون طرفة منتسباً الى المسيحية انتساباً اسمياً ولكن شعره لايدل على انه كان مسيحياً بل على أنه كان واقفاً على افكار مسيحية لم يرتضها لأنه كان لايؤمن بالخلود والبعث .

المناسبة ، الزمان ، المكان

هذه الأبيات هي القسم الأخير من معلقة طرفة التي يجاوز عدد ابياتها المائة ، وان في طولها وفي تعدد موضوعاتها ما يحمل على الظن انها لم تسلم من عبث الرواة . والمؤرخون يقولون في بيان مناسبتها ان طرفة رعى ابلاً لأخيه معبد ثم أضاعها باهماله فلما عنفه اخوه وعده ان يردها بشعره ثم قال معلقته هذه التي مدح فيها بعض اقربائه فدفعوا اليه عدداً كبيراً من الابل فأعاد الى اخيه إبله

ولكن في هذه القصة ايضاً آثار الوضع ، وكل ما نستطيع استخلاصه من ابياته هذه انه قالها في معرض التذمر من ظلم اقربائه إياه، رادّاً على تعنيفهم له لتبذيره، مبيناً فلسفته المادية في الحياة .

٢ – التحليل الأدبي

اقسام النص وافكاره العامة

هذا القسم الذي ندرسه من المعلقة يدخل في باب الحكم والامثال ، ولكنها ليست حكم شيخ محنك بل حكم فتى لم ير في الحياة إلا مجالاً لانتهاب المتع والملذات وطرفة في هذه الابيات يلخص فلسفته في الحياة ، فهو يرى ان الغاية من الحياة هي اللذة ، وبما ان الموت لامفر منه مهما طالت الحياة وبما ان الخلود محال ، اذن فليسبق منيته بإنفاق ما يملكه على ملذاته (البيتان الاول والثاني)، وهذه الملذات التي يعيش لها طرفة ثلاث : شرب الخمر ، وخوض الوغى ، ومعاشرة النساء (الابيات ٣ الى ٦) وبعد ان بين نظرته الى الحياة اخذ يحتج لها ويدعم آراءه بالتصوير الحسي ويعرض خلاصة تجاربه، فهو يرى من الخير ، والموت لابد منه ، ان يموت ريان لاظمآن . والموت سوف يسوي بين البخلاء الحراص على جمع المال ، وبين الكرام المسرفين في الانفاق والتمتع (٧ الى ١٠) ومهما تطل حياة المرء فمصيره الى الموت (١١ – ١٣) . ثم يشكو ظلم ذوي قرباه لمنعهم المال عنه (١٤) وينهي ابياته بقوله ان الايام سوف تبرهن على صحة آرائه وصواب نظرته (١٥ ، ١٦) .

العاطفة

ابيات طرفة هذه تشيع فيها عاطفة اليأس والحزن والتذمّر والميل الى انتهاب الملاذ والمتع ، وهذه العواطف تبين مدى الاضطراب النفسي والقلق الروحي اللذين كانت تعانيهما كثرة المفكرين في اواخر العصر الجاهلي . فطرفة يائس من حياته هذه التي سيضع الموت حداً ابدياً لها ، فلمَ إذن يحرص على جمع المال ولمَ اذن لايمتع نفسه بما تشتهي . هو وحزين لما يجده من اعراض قومه عنه وانكارهم لمسلكه ، حزين لعدم تمكنه من التمتع بالحياة كما يهوى ، متذمر من سوء معاملة ذوي قرباه له .

الاسلوب

الفاظ طرفة في هذه الابيات سهلة ، بينة المعنى ، لاتحوجنا كثيراً الى مراجعة المعاجم ، ومرد هذه السهولة الى ان الالفاظ تبع للافكار ، وهذه الافكار التي جاء بها طرفه لاتحتاج الى العويص

والحوشي من الالفاظ ، ولذلك نجد طرفة في أول معلقته ، حين يصف الناقة ، يكثر من الحوشي والغريب ، ولا حاجة بنا الى القول مع طه حسين إن غرابة الالفاظ في اول المعلقة دليل على انتحال هذا القسم منها . وربما كان لربعية طرفة اثر ايضاً فيما نجده من سهولة شعره . والفاظ طرفة على سهولة فهمها جزلة المبنى ، قد أحسن اختيارها وانزالها في مواضعها من الجمل . وتراكيبه قوية لاهلهلة فيها ولا ركاكة ولذلك عد طرفة من اوائل شعراء الجاهلية .

واما اثر الخيال في هذه الأبيات فيتجلى في الاكثار من الصور البيانية ، ولا سيما التشبيه والكناية . والتشبيه هو الفن الجاهلي الأصيل واولى مراحل التعبير البلاغي وابسط الصور البيانية ولذلك كان اكثرها شيوعاً في اشعار الجاهليين . وهكذا نجد طرفة يصطنع التشبيه كي يؤثر في نفوس سامعيه فيأخذوا بآرائه ، فيشبه فرسه بذئب الغضا ، والعيش بالكنز ، والموت بالمنهل الذي لابد من ورده ، وبالحبل الذي يرخى للدابة . ونجده يكني عن الموت بقوله : لم احفل متى قام عودي ، وعن عدم التكليف بقوله : من لم تزود ، ومن لم تبع له بتاتاً . والكناية ايضاً كانت فاشية في الشعر الجاهلي وهي تترجم عن ميل الشاعر الجاهلي الى عدم اللجوء الى التعبير المباشر ، الا مضطراً ، والى عدم تسمية الاشياء بأسمائها ، على نقيض الشائع عند مؤرخي الأدب العربي ، ولهذ نجد الشاعر العربي يكاد لايذكر اسم الفرس والناقة والسيف وغيرها في شعره بل يذكرها بصفاتها .

ونلاحظ بعد ذلك ان طرفة كان يأتي المعنى الواحد بأكثر من صورة واحدة ، مما يدل على خصب مخيلته . ونلاحظ ايضاً ان هذه الصور جميعها مادية حسية منتزعة من بيئة الشاعر ذاتها ، وتلك سمة عامة لكل صور الجاهليين ، فهي تتصل بالمحسوس وبالبيئة المادية وثيق الاتصال ، فالموت كحبل الدابة وكالمورد والعيش كالكنز ، وهلم جرا . وهذه الصور قليلة التكلف ، بعيدة عن التعسف والالتواء ، بعيدة عن الغلو والاغراق ، شأن اكثر الشعر الجاهلي .

قيمة الأبيات ومنزلة الشاعر

لأبيات طرفة هذه قيمتها من حيث انها تصور لنا نفسية طرفة المضطربة اليائسة خير تصوير ، وتصور لنا البيئة التي كان يعيش فيها وتأثرها بالأفكار المسيحية . وكان طرفة صادقاً كل الصدق في تعبيره عن آرائه ونظرته الى الحياة .

ولانريد ان نناقش افكار طرفة من حيث صوابها او خطؤها ، ولكننا نريد ان نبين طبيعة الحكم التي اتى بها . فالحكمة في العصر الجاهلي لم تكن وليدة النظر العميق والتفكير المجرد والتأمل الفلسفي وانما كانت وليدة تجارب الحياة واحداثها . ولهذا كانت هذه الحكم تتفاوت في تقديرها للحياة

وشؤونها ، ولهذا ايضاً كانت مرآة صادقة لطبيعة النفس الجاهلية وما جبلت عليه من شيم وخلائق.

فحكم طرفة هي اذن حكم فتى في العشرين اصاب شيئاً من مال غدا ينفقه في وجوه اللذة واللهو، وقد علمته التجارب ان الخلود في الحياة امر لا ينال ، فمن الخير اذن ان ينفق حياته لاهياً عابثاً قبل ان تدركه منيته . فما قيمة حكمه من الناحية الفلسفية والخلقية ؟

الحق اننا نغالي اذا اطلقنا على هذه الحكم لفظ الفلسفة بمعناها اليوم ، لانها ، كما بينا ، بنت التجارب ومرآة لاحداث الحياة ، فهي ،مع مافيها من اصابة الرأي، وليدة النظر القريب والتفكير الساذج ، ولم تكن العقلية العربية في ذلك العصر تلائم نشوء حياة فلسفية وفكرية ناضجة . وليست نظرة طرفة الى الحياة مادية كلها ، فهو حريص على الحياة وعلى المتع ولكنه لايتوانى عن خوض الوغى والدفاع عن اللائذ به لانه يجد في خوض الوغى لذة ، ولا يعنيه بعد ذلك ان يموت في ساحة القتال او حتف أنفه . ونحن اذا اعجبنا بهذه الحكم فلانها تنبع من حياة الشاعر ولانها تصور نفسه ادق تصوير ، على نقيض تلك الحكم الجافة التي نجدها عند بعض الشعراء الآخرين ، كأبي العتاهية مثلاً ، والتي يظهر فيها التكلف والنفاق والبعد عن نفس قائلها .

هذه الميزات التي وجدناها في شعر طرفة هي التي جعلت القدماء يقدمونه ويعجبون به ، وقد جعله ابن قتيبة اجود الشعراء طويلة ، ووضعه ابن سلام في الطبقة الرابعة من الشعراء وجعله عبد القادر البغدادي اشعر الشعراء بعد امريء القيس . وعلى الجملة فإن طرفة كان من مقدمي الشعراء في العصر الجاهلي .

* * *

مصادر لدراسة طرفة

١ — الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص ٤٩ ، مصر .

٢ — طبقات الشعراء لابن سلام ، ص ٤٩ ، مصر .

٣ — الاغاني للاصفهاني ج ٢١ ، طبعة ليدن ص ١٩٢ وما بعدها . في الكلام على المتلمس .

٤ — خزانة الادب للبغدادي ج ٢ ، ص ٣٦٢ ، طبعه السلفية .

٥ — شرح ديوان طرفة للأعلم الشنتمري ، طبع شالون .

٦ — شعراء النصرانية ، لويس شيخو ، ص ٢٩٨ ، بيروت .

٧ — في الأدب الجاهلي ، طه حسين ، ص ٢٤٧ .

٨ – الروائع ، فؤاد افرام البستاني ، ج : ٢٤ .
٩ – معلقة طرفة بن العبد، عبد القادر المغربي، محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩٢٥.
١٠ – Perron, Lettre sur les poètes Tarafa et Al-Moutalammis-Journal Asiatique 3e série, t. xl (1841)
١١ – C. de Perceval, Essai sur l'His'oire des Arabes, T.2 , P. 343.
١٢ – Max Seligsohn, Dîwân de Tarafa

مراجع عامة للمعلقات

١ – شرح القصائد العشر : للتبريزي طبعة ليال – كلكوتا
٢ – شرح المعلقات السبع : للزوزني
٣ – رجال المعلقات العشر : مصطفى الغلاييني
٤ – مقدمة الالياذة : سليمان البستاني
٥ – جمهرة اشعار العرب : ابو زيد القرشي

زهير بن أبي سُلمى

من معلقته التي مطلعها :

أمِنْ أُمِّ أوْفى دِمنةٌ لم تَكَلَّمِ | بِحَوْمانَةِ الدرّاجِ فالمُتَثَلَّمِ

* * *

١ – سَئِمْتُ تَكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِشْ | ثمانينَ حَوْلاً ، لا أبالَكَ ، يَسأَمِ
٢ – رَأيْتُ المَنايا خَبْطَ عَشْواءَ مَنْ تُصِبْ | تُمِتْهُ ، ومَنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فيَهْرَمِ
٣ – وأعلَمُ ما في اليَوْمِ والأمسِ قَبْلَهُ | ولكِنَّني عَنْ عِلْمِ ما في غَدٍ عَمِ

---

(١) التكاليف : المشقات والشدائد ومفرده تكلفة . الحول : العام. لا أبالك : يخاطب زهير نفسه بهذه العبارة الجافية ، وكان العرب يستعملونها دون ان يقصدوا بها معناها الحقيقي، ولاشك أنه كان يراد بها الذم والتعنيف في اول الامر ثم استعملت حشواً في الكلام او لمجرد التنبيه . والنحويون يجعلون اللام في (لك) زائدة والتقدير : لا أباك لأن الاسماء الخمسة لاتعرب بالحروف الامع الاضافة وخبرها محذوف تقديره : موجود .

(٢) الخبط : الضرب والسير على غير هدى . العشواء : مؤنث الأعشى ، من عشا يعشو عشواً والعشا سوء البصر ، وعشواء صفة للناقة التي لاتبصر أمامها وتخبط على غير هدى . شبه الموت بالناقة التي تطأ على غير بصيرة فمن أصابته المنية على غير قصد مات ومن لم تصبه عُمِّر .

(٣) عمٍ : أعمى ، يقول انه عالم بما مر به بالأمس واليوم ولكنه جاهل بما سيأتي به الغد.

٤ – وَمَنْ لا يُصانِعْ في أُمورٍ كَثيرَةٍ يُضَرَّسْ بِأَنْيابٍ ويوطَأْ بِمَنْسِمِ
٥ – وَمَنْ يَكُ ذا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بِفَضْلِهِ عَلى قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عَنْهُ ويُذْمَمِ
٦ – وَمَنْ يَجْعَلِ المَعْروفَ مِنْ دونِ عِرْضِهِ يَفِرْهُ، وَمَنْ لا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ
٧ – وَمَنْ لا يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ يُهَدَّمْ، وَمَنْ لا يَظْلِمِ النّاسَ يُظْلَمِ
٨ – وَمَنْ هابَ أَسْبابَ المَنايا يَنَلْنَهُ وَلَوْ نالَ أَسْبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ
٩ – وَمَنْ يَعْصِ أَطْرافَ الزِّجاجِ فَإِنَّهُ يُطيعُ العَوالِي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ

---

(٤) لم يصانع : لم يدار ولم يجامل . يضرس : يعض بالضرس او يمضغ . يوطأ : يداس . المنسم: خف البعير وهو بمنزلة السنبك للفرس . يريد : ان من لم يدار الناس في كثير من الامور هاجمه الناس وأذلوه .

(٥) يقول : اذا كان المرء قادراً على الاحسان الى قومه ولم يفعل استغنوا عنه وذموه .

(٦) العرض : موضع الذم والمدح من الانسان . من دون عرضه : اي وقاية وحماية له . يفره : يجعله وافراً اي سالماً مصوناً من الذم . يقول : ان من يبذل المال وقاية لعرضه فقد وقاه من الذم ، ومن لايدفع عن نفسه الشتم بالبذل وحسن السيرة شتمه الناس .

(٧) ذاد يذود : دافع وكفّ . الحوض ، في الأصل : مجتمع الماء ، ويريد به هنا كل مايتصل بالرجل من مال ونساء ، فإذا لم يكف الناس عن ورود حوضه هدموا حوضه ، اي اذا لم يحم عرضه وماله استباحها الناس ، واذا كان ضعيفاً عاجزاً ركبه الناس وظلموه .

(٨) أسباب المنايا : الحروب وكل مايفضي الى التهلكة . اسباب السماء : نواحيها ووجوهها . يريد ان من فر من المنية ادركته ولو حاول الصعود الى السماء فراراً منها .

(٩) الزجاج : ج . زُجّ : الحديد المركب في أسفل الرمح . العوالي : ج ، عالية : طرف الرمح الذي يطعن به . اللهذم : السنان القاطع . قالوا ان القوم كانوا يستقبلون العدو ، اذا ارادوا الصلح ، بأزجة الرماح ، فإن أجابوهم الى الصلح لم يقتتلوا وإلاّ قلبوا عليهم الأسنّة وقاتلوهم . يريد: من أبى الصلح ذللته الحرب ومن رفض القبول بالأمر الصغير صار الى الأمر الكبير ، ومن لم يذعن للسان اذعن للحسام .

١٠- وَمَنْ يُوفِ لا يُذْمَمْ وَمَنْ يُفْضِ قَلْبُهُ إِلَى مُطْمَئِنِّ البِرِّ لا يَتَجَمْجَمِ

١١- وَمَنْ يَغْتَرِبْ يَحْسَبْ عَدُوّاً صَدِيقَهُ وَمَنْ لا يُكَرِّمْ نَفْسَهُ لا يُكَرَّمِ

١٢- وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

* * *

---

(١٠) وفى وأوفى بمعنى واحد . اي من لم يف بوعده تعرض للذم . أفضى : اهتدى وانقاد وانتهى . المطمئن : المستقر الثابت . البر : الخير والاحسان والصدق والصلاح ويريد بمطمئن البر : البر المطمئن في القلب . يتجمجم : يضطرب ويتردد ، يريد من اطمئن البر في قلبه اقدم على اموره غير متردد ولا مضطرب ، لاكمن استقر الغدر في قلبه فهو ابداً متردد مضطرب .

(١١) يريد : من اغترب ونزل في غير قومه حسب الاعداء اصدقاء لأنه لم يجربهم فيعرفهم . ومن لايعرف لنفسه قدرها لم يعرف الناس قدره .

(١٢) الخليقة : الطبيعة والسجية والخُلق ، سيئاً كان او حسناً . يريد : مهما حاول المرء ان يخفي على الناس خلقه فإنهم يعرفونه والتطبع لايخفي الطبع .

(ملاحظة) يروي التبريزي بعد هذا البيت ابياتاً اربعة ليست لزهير على الأصح ، ولذلك لم يروها غيره من الشراح ، كالأعلم والخطيب .

دراسة الأبيات

١ — جو النص

صاحب النص

هو زهير بن ابي سُلمى من قبيلة مزينة المضرية ، وقد اصهر ابوه الى قبيلة غطفان التي كانت تنزل بجوار مزينه ، فارتحل اليهم وأقام بينهم هو وأهله . فنشأ زهير في قبيلة اخواله ، في بيت يكتنفه الشعر من كل جانب ، فكان زوج أمه اوس بن حجر شاعراً وخاله بشامة بن الغدير شاعراً . وقد تتلمذ زهير عليهما وكان راوية لأوس ، وكان ابوه شاعراً ايضاً وكانت أختاه سلمى والخنساء شاعرتين ثم اتصل الشعر في ولده حتى قالوا انه لم يتصل الشعر في ولد احد من الفحول في الجاهلية ما اتصل في ولد زهير ، فقد كان ابناه كعب وبجير شاعرين ، وكان حفيده عقبة بن كعب شاعراً ، "وكان لعقبة ابن يقال له العوام و كان شاعراً كذلك" ، ولاريب انه كان لهذه الاصالة الشعرية في اسرة زهير اثر في نبوغه ، كما كان لتتلمذه على اوس بن حجر اثر في عنايته بشعره وتنقيحه له حتى اشتهر بالحوليات .

وكان زهير منقطعاً الى هرم بن سنان المري (الذبياني) يمدحه وينال جوائزه حتى زعموا ان هرماً أقسم ألاّ يمدحه زهير الا أعطاه ، ولا يسأله إلا أعطاه ، ولا يسلم عليه إلا أعطاه ، عبداً أو وليدة أو فرساً . فاستحيا زهير من كثرة ما كان يقبل منه ، فكان إذا رآه في محفل قال : « عموا صباحاً غير هرم ، وخيركم استثنيت . » .

وكان يمدح أيضاً مع هرم الحارث بن عوف المرّي ، لاحتمالهما ديات القتلى إثر حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ، وبذلك تم الصلح بين الحيين . والى ذلك يشير زهير في معلقته بقوله :

تَدارَكْتُما عبساً وذُبيانَ بعدَمَا ... تَفانَوْا ودَقّوا بينهم عِطْرَ مَنْشَمِ

وكانت لزهير مدائح ايضاً في سنان بن ابي حارثة ، ابي هرم ، وفي حصن بن حـذيفة بن بدر الفزاري سيد غطفان .

وكانت لزهير في قومه منزلة الحكيم العاقل ، والمشير الناصح ، وهذا ماحمل ابن قتيبة على القول إنه كان يتأله ويتعفف في شعره ، وإنه كان مؤمناً بالبعث ، مستدلاً بقوله :

فلا تكتمنّ الله مافي نفوسكم ليخفى ، ومهما يُكتم اللهَ يعلم

يُؤخرْ فيوضعْ في كتابٍ فيُدّخر ليوم الحسابِ ، أو يُعجّل فينْقم

واراد لويس شيخو ان يستنتج من قوله هذا ومن غيره ان زهيراً كان نصرانياً ، ويبدو لنا ان هذين البيتين منحولان قد اضافها الرواة الى زهير الحكيم فيما أضافوا الى حكماء العصر الجاهلي وشعرائه من افكار اسلامية .

وهم يزيدون على هذين البيتين قصة ينسبونها الى زهير فيزعمون انه رأى في آخر عمره في منامه ان آتياً اتاه فحمله الى السماء حتى كاد يمسها بيده ، ثم تركه فهوى الى الارض . فلما احتضر قص رؤياه على ولده كعب ثم قال : « اني لا أشك انه كائن من خبر السماء بعدي شيء ، فإن كان فتمسكوا به وسارعوا اليه ، ثم توفي قبل المبعث بسنة . » ، ورووا هذه القصة على نحو آخر ، وعلى كل لاتخرج عن كونها احدى هذه القصص التي وضعها الرواة لتتنبأ بمبعث محمد عليه السلام .

ونحن لانستطيع تحديد سنة وفاة زهير بالضبط ولكن من الثابت ان زهيراً عمّر طويلاً بدليل قوله في معلقته :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبالك ، يسأم

ويذكر ابو الفرج الاصفهاني حديثاً عن النبي انه نظر الى زهير بن ابي سلمى وله مائة سنة فقال : « اللهم اعذني من شيطانه » ، فما لاك بيتاً حتى مات . والأرجح انه مات قبيل بعثة النبي ، كما ذكر البغدادي ، اي حوالي سنة ٦١٠ ميلادية ، لافي سنة ٦٣١ كما ذكر بعض المؤرخين .

المناسبة - الزمان - المكان

هذه الأبيات هي القسم الأخير من معلقة زهير المشهورة وهي على البحر الطويل وعدد ابياتها تسعة وخمسون بيتاً ، والدافع الى نظم هذه المعلقة مشار اليه في ابياتها ، فإنها قيلت على اثر حرب داحس والغبراء بين قبيلتي عبس وذبيان الغطفانيتين .

ويذكرون من سبب هذه الحرب انه كانت لقيس بن زهير ، سيد بني عبس ، فرس يقال له « داحس » ، وكان لحمل بن بدر ، سيد بني فزارة الذبيانية ، حجرة يقال لها « الغبراء » . فتراهن

زعما القبيلتين على الفرسين أيهما يكون له السبق . فلما كان يوم السبق أكمن حمل بن بدر في بعض الطريق فتياناً ، وامرهم إن أقبل داحس سابقاً ان يردوه عن الغاية . فكان ذلك . فثارت بنو عبس ونشبت الحرب بين القبيلتين وكثرت القتلى حتى قام العقلاء يسعون بالصلح بينهما ، وكان منهم هرم ابن سنان والحارث بن عوف . وقد اتفق على ان يتحمل هذان المصلحان ديات القتلى الذين لم يثأرلهم فزعموا انها بلغت ثلاثة آلاف بعير تحملاها في ثلاث سنين ، وتم بذلك الصلح .

وفي كتاب الاغاني (ج ١٠ — ص : ٢٩٤) قصة طويلة عن زواج الحارث بن عوف من ابنة اوس بن حارثة ، وكيف اضطرته الى الاصلاح بين عبس وذبيان ، واثر التزيّد فيها واضح .

ثم ان رجلا من بني ذبيان يقال له حُصَين بن ضمضم المرّي كان أقسم ان يقتل رجلاً من بني عبس ، لأن ورد بن حابس العبسي كان قتل اخاه هرم بن ضمضم قبل الصلح ، ولم يطلع احداً على قسمه ، فنزل رجل من بني عبس بحصين بن ضمضم فقتله هذا براً بقسمه ، فهاج بنو عبس وارادوا قتل الحارث ، فدفع اليهم مائة من الابل ، دية قتيلهم ، وعادوا الى الصلح . وعلى اثر هذا قال زهير معلقته في مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف ، وفي تنفير القبيلتين من الحرب التي كادت تفنيهما .

وقد حدد الباحثون تاريخ انتهاء حرب داحس والغبراء بين السنتين ٦٠٨ ، و ٦١٠ للميلاد .

٢ التحليل الادبي

الاقسام والافكار العامة

كان زهير يسلك في حياته سلوك المتزنين الهادئين المتدلين ، يؤثر حياة المسالمة والوئام على حياة القتال والتخاصم ، يمقت الهجاء والقدح ويثني على دعاة السلم . ولعل هذه الطبيعة لم تكن لكثير من الجاهليين ، ولعل ايضاً لمقام زهير في غير قبيلته اثراً في جنوحه الى حياة السلم . وعلى كل فقد كانت حكمه مرآة لحياته المسالمة الوادعة .

ولكنه اذا دعا للسلم فلم يكن يدعو الى الاستخذاء والخنوع ، فقد علمته التجارب ان من لا يظلم الناس يظلم ، وان من طبيعة قبائل العرب القوية ان تستعلي على القبائل المستضعفة .

وقد قال زهير حكمه التي نحن بصددها وهو ابن ثمانين ، فهي اذن حكم شيخ مجرب زاهد في متع الحياة ، وقد عرك الحياة وعجم عودها ، فحنكته التجارب وخبر طباع الجاهليين واخلاقهم . وقد انتهت به تجاربه الكثيرة الى ان معرفة ما يأتي به الغيب امر لا سبيل اليه ، والى انه ليس ثمة قانون ينظم اعمار الناس ، والى ان من تعود الاستقامة والصراحة في كل شؤونه حري ان يلقى

عناءً كثيراً في حياته، ومن الخير له ان يأخذ الناس بشيء من المصانعة والمداراة . وعلمته التجارب ايضاً ، ألا سبيل الى صون العرض الا بالبذل والجود ، وان اتقاء الشر بالشر احجى ، والا منجاة من المنايا مهما طال بالمرء عمره ومهما حاول الفرار منها ، وان من لم يخضع للسان اخضعه حد السنان، وان من اطمئن الخير في نفسه امضى اموره غير متردد ، وأن من يصادق الاغراب لم يميز صديقه من عدوه ، وان المرء يعجز عن اخفاء خلائقه وطباعه ولا بد للناس من ان يقفوا عليها .

هذه هي جملة الأفكار التي اوردها زهير في ابياته وهي كلها تدخل في باب الحكم والامثال .

العاطفة

يظهر لنا من البيت الأول ان زهيراً قد سئم الحياة ومشاقها بعد ان بلغ الثمانين ، ومن بلغ هذه السن حقيق به ان يسأم الحياة وان يزهد في متعها وملاذها . وحقيق به ايضاً ان يحب السلم وان يدعو الى الصلح والى الوئام والى المصانعة ،وما الى ذلك من العواطف السلمية التي تجيش بها نفوس المصلحين والحكماء والشيوخ المجربين . ولكنه لا يدعـــو الى الاستكانة والخنوع لأنهما ليسا من شيم العربي .

الأسلوب

ان الصفات التي تتوافر في الشعر المضري ، كجزالة اللفظ ، ومتانة التراكيب ، ونحوهما، نجدها واضحة في شعر زهير . هذا مع سهولة اللفظ وبعده عن الغرابة ، وتلك صفة عرفها القدماء لزهير ، فقدمه عمر بن الخطاب ، فيما روي لنا ، لأنه «لا يتبع حوشي الكلام ، ولا يعاظل من المنطق ولا يقول الا ما يعرف ، ولا يمتدح الرجل الا بما يكون فيه» .

وصفة اخرى عرفها القدماء لزهير هي تأنيه في نظم الشعر ، وتنقيحه له ، حتى سموا قصائده المطولة بالحوليات (من الحول اي السنة) وزعموا انه كان يصنعها في اربعة اشهر ، ويهذبها في اربعة اشهر ، ويعرضها على أخصائه في اربعة اشهر ، وهذه الاسطورة تنبئنا بما عرف به زهير من اناة وتريث في شعره ، يتفقان وما عرف به من رزانة واناة في جميع شؤونه .

واذا ذكرنا ان زهيراً كان راوية لأوس بن حجر ، زوج امه ، وان اوساً هذا كان ايضاً ممن يبذلون جهداً في تنقيح اشعارهم وتهذيبها ، وان الحطيئة، راوية زهير وابنه، كان ايضاً ممن يرون ان « خير الشعر الحولي المنقح المحكك » ، اذا ذكرنا كل هذا ادركنا لم اطلق الاصمعي على هؤلاء

الشعراء واتباعهم لفظ « عبيد الشعر » ، لأنهم لم يذهبوا في شعرهم مذهب المطبوعين (١) واليهم ايضا يشير الجاحظ في البيان والتبيين بقوله : « ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتاً وزمناً طويلاً ، يردد فيها نظره ، ويقلب فيها رأيه ، اتهاماً لعقله ، وتتبعاً على نفسه فيجعل عقله ذماماً على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقاً على أدبه ، وإحرازاً لما خوله الله من نعمته . وكانوا يسمون تلك القصائد « الحوليات » و « المقلدات » و « المنقحات » و « المحكمات » ليصير قائلها فحلاً خنذيذاً ، وشاعراً مفلقاً . » (ج ٢ : ٢١) ولكن هؤلاء لم يعرفوا فقط بتنقيحهم شعرهم وتهذيبهم له ، وانما عرفوا ايضاً بخصلة اخرى هي شدة اعتمادهم على الحواس في ابراز معانيهم . ومع ان الشعر الجاهلي كله يستمد صوره وتشبيهاته من المحسوس إلا أن هؤلاء كانوا اكثر اعتماداً على الحاسة ، واكثر عناية بالتصوير ودقة الوصف ، وقد لا نجد في ابيات زهير التي ندرسها مصداق هذا القول ، ولكننا لو درسنا معلقته جملة لأدركنا ان زهيراً وصّاف بارع كل البارع ، ولا سيما في تصوير الحرب بتلك الصور الحسية المنفرة القوية .

ولا تخلو ابيات زهير التي ندرسها من الصور البيانية ، فهو يشبه المنية بالناقة العشواء ، ويستعير التضريس بالأنياب والوطء بالمنسم لمعنى التذليل . ويكني بقوله : ومن يعص اطراف الزجاج ... الخ البيت ، عن وقوع المرء في الامر الكبير اذا رفض الامر الصغير ، وهذه الصور كلها كما نرى منتزعة من البيئة البدوية الخالصة .

قيمة الابيات ومنزلة الشاعر

حكم زهير ، كما اتضح لنا ، حكم شيخ مجرب خبر الحياة واحداثها وزهد في المتع والملاذ ، وليست حكم فتى كطرفة يستقبل الحياة بعرامة الشباب ونزوة الفتوة ويقبل على ملاذ الحياة ومتعها ليعب منها قدر وسعه . وزهير في حكمه انما يسن لقومه دستوراً اجتماعياً ينتهجونه ويدعوهم فيه الى ايثار السلم واتخاذ المصانعة ، دون ان يستكينوا او يقبلوا الظلم ، ويمدهم بجملة من النصائح التي استمدها من تجارب حياته الطويلة ، لا من التأمل الفلسفي المجرد ، شأنها شأن سائر حكم الجاهليين . وقد لاحظنا انها تتتابع متلاحقة دون ان تجمع بينها فكرة موحدة كالتي وجدناها في حكم طرفة ، ولذلك من اليسير ان نغير في ترتيب ابياتها دون ان نخل بمعناها العام ، فهي نظرات عامة الى الحياة يغلب عليها طابع السذاجة ، وحكم طرفة اكثر تلاحماً وانسجاماً بعضها مع بعض .

---

(١) البيان والتبين للجاحظ ج ٢ : ٢٥ .

والميزات الشعرية التي يتحلى بها زهير جعلت القدماء يقدمونه ويضعونه في المرتبة الأولى من شعراء الجاهلية ، وقد اتفقوا على تقديم زهير وامرئ القيس والنابغة الذبياني على سائر الجاهليين ولكنهم اختلفوا في تقديم احد الثلاثة على صاحبيه . وقال ابن سلام : « من قدم زهيراً احتج بأنه كان احسنهم شعراً ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعاني في قليل من الألفاظ، وأشدهم مبالغة في المدح . وأكثرهم امثالاً في شعره . » . ولاريب ان زهيراً كان مجلياً في الوصف والمدح والحكم .

مصادر

١ – شرح ديوان زهير بن ابي سلمى لثعلب ط . دار الكتب

٢ – معلقة زهير شرح النحاس طبعة Hausheer ، برلين .

أو شرح الأنباري . طبعة Rescher .

٣ – الاغاني ج . (١٠) ص: ٢٨٨ ، ط . دار الكتب .

٤ – شعراء النصرانية ، لويس شيخو .

٥ – خزانة الأدب ، عبد القادر البغدادي ، ج ١ : ٣٧٥

٦ – دواوين الشعراء الستة الجاهليين . ط .لندن

٧ – دائرة المعارف الاسلامية . مادة « زهير »

والمراجع العامة ذوات الارقام : ٢ ، ٣ ، ٢٣ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤

* * *

٢ – المفاخر والمكارم

عمرو بن كلثوم

من معلقته التي مطلعها :

أَلا هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاَصْبَحِينا ولا تُبْقِي خُمورَ الأَنْدَرِينا

* * *

١ – أَبا هِنْدٍ ، فَلا تَعْجَلْ عَلَيْنا وأَنظِرْنا نُخَبِّرْكَ اليَقِينا

٢ – بِأَنَّا نُورِدُ الرّاياتِ بِيضاً ، ونُصْدِرُهُنَّ حُمراً قَدْ رَوِينا

٣ – وأَيّامٍ لنا غُرٍّ ، طِوالٍ ، عَصَيْنا المَلْكَ فيها أَنْ نَدِينا

---

(١) ابا هند : يريد به عمرو بن هند اميرالحيرة فكنّاه. أنظرنا : امهلنا .

(٢) نورد : نحضر . وفي الاصل اورد الإبل وغيرها : احضرها المورد لتشرب، ثم استعملت لمطلق الإحضار . الرايات : ج راية وهي العلم الخاص بالحرب . نصدرهن : نرجعهن ، وأصلها الرجاع الماشية من المورد وهي ضد الايراد . روين : شربن حتى ارتوين . يريد : نورد راياتنا الحروب بيضاً ثم نرجعها منها حمراً لارتوائها بدماء الابطال

(٣) أيام : بمعنى وقائع وحروب . غر : ج أغر : مشهور واصله من الغرة وهي بياض في جبهة الفرس يميزه . ندين : نخضع ونستكين . يريد : نخبرك بوقائع لنا مشاهير أبينا ان نستكين فيها للملوك وهو يشير الى الوقائع التي كانت بين قومه ، تغلب ، وبين المناذرة .

٤ – متى نَنقلْ إلى قومٍ رَحانا ... يكونوا في اللقاء لهـا طَحينا

٥ – نُطاعِنُ ما تَراخى النّاسُ عنّا ... ونَضرِبُ بالسُّيوفِ إذا غُشينا

٦ – كأنّ سيوفَنا ، فينا وفيهم ، ... مَخاريقٌ بأيدي لاعبينا

٧ كأنّ ثيابنا ، منّا ومنهم ... خُضِبْنَ بأرْجُوانٍ أوْ طُلِيا

٨ – بأيِّ مشيئةٍ ، عمرو بنَ هندٍ ، ... نكونُ لِقَيلِكُمْ فيها قَطينـا

٩ – بأيِّ مشيئةٍ ، عمرو بنَ هندٍ ... نُطيعُ بنا الوُشاةَ وتَزْدَرينـا

١٠ – تُهدِّدُنا وتُوعِدُنا ، رُوَيداً ... متى كُنّا لأمِّكَ مَقْتَوينـا

---

(٤) الرحى : حجر الطاحون وقد استعارها للحرب ولما استعار الرحى للحرب استعار الطحين للقتلى ، وهذا مايعرف عند البلاغيين بمراعاة النظير . يريد : متى حاربنا قوماً أبدناهم .

(٥) نطاعن : اي نطعن بالرماح . تراخى : تباعد . غشينا : أتينا : يريد : نحن نجيد استعمال السلاح فاذا ما ابتعد عنا الناس طاعناهم برماحنا ، فاذا اقتربوا منا قاتلناهم بسيوفنا .

(٦) مخاريق : ج . مخراق وهو المنديل يلف ويضرب به ، او السيف من الخشب يلعب به الصبيان يصف الشاعر قومه واعداءهم بالاقدام ، فكلاهما كان يحسن استعمال السيوف كأنها المخاريق بأيدي اللاعبين .

(٧) خضبن : صبغن . الارجوان : صبغ احمر . ان الدماء التي كانت تسيل من الفريقين ضرجت ثيابهم فكأنها صبغت بالارجوان .

(٨) القيل : الملك الخاضع لملك فوقه والجمع أقيال ، وكانت على الاكثر تطلق على ملوك حمير . القطين : الاماء والخدم مفردة قاطن . يريد : كيف تطمع ياعمرو بن هند ان نكون خدماً اذلاء لمن وليت علينا ولم يظهر منا ضعف يطمعك فينا .

(٩) تزدرينا : تمتهننا وتحتقرنا . يريد ما الذي دفعك الى هذه المشيئة الباطلة اذ خدعت بقول الوشاة الذين حرضوك علينا فأردت اذلالنا .

(١٠) رويداً : مهلاً ، وهي مصدر من أرود الرجل في سيره ارواداً : تمهل . قتا : الملوك يقتوهم قتواً ومقتى : أحسن خدمتهم . والمقتوي : خادم الملوك والجمع مقتوون بحذف ياء النسبة ، ومقاتيه . كيف تسوغ لك نفسك تهديدنا وانت تعلم مكانتنا وعزنا وعجزك عن البطش بنا .

١١ - فإنَّ قناتنا يا عمروُ أعيتْ على الأعداء قبلكَ أن تلينا

١٢ - متى نَعْقِدْ قرينتنا بحبلٍ تَجُذَّ الحبلَ أو تقِصِ القرينا

١٣ - علينا البيضُ واليلَبُ اليماني، وأسيافٌ يَقُمْنَ وينحنينا

١٤ - علينا كلُّ سابغةٍ دلاصٍ ترى، فوقَ النطاقِ، لها غضونا

١٥ - إذا وُضِعتْ عن الأبطالِ يوماً رأيتَ لها جلودَ القومِ جُونا

١٦ - كأنَّ غضونَهنَّ متونُ غُدْرٍ تُصفِّقُها الرياحُ إذا جرَينا

---

(١١) القناة : قصبة الرمح ، والعرب يستعيرونها للعز والاباء . أعيت : أعجزت وامتنعت . يريد : ان الاعداء قبلك لم يستطيعوا اخضاعنا واذلالنا والنيل من عزنا ومنعتنا .

(١٢) القرينة : الناقة تقرن الى غيرها . تجذّ : تقطع وهي مجزومة جواباً لمتى . ويجوز في ذالها المضعّفة الفتح والكسر والضم ، لأن فاء الفعل مرفوعة ، فإن كانت مفتوحة او مكسورة جاز الفتح والكسر فقط . تقص : مضارع وقص العنق اي دقها ، وحركت الصاد بالكسر لالتقاء الساكنين . يريد : متى قرنا ناقتنا بأخرى قطعت الحبل او كسرت عنق القرين ، اي اذا قرنا الى قوم في قتال قهرناهم ، والبيت كناية عن عزهم ومنعتهم وقوتهم في الحروب .

(١٣) البيض : ج . بيضة : الخوذة . اليلب : درع من جلد تلبس على الأغلب تحت الخوذة . يريد : وكنا نلبس الدروع وفوقها البيض ، وبايدينا اسياف يقومن وينحنين لطول الضراب بها .

(١٤) السابغة : الدرع الطويلة التامة ، وهي في الاصل صفة الدرع محمودة ثم جرت مجرى الاسم لاشتهارها . دلاص : صفة الدرع الملساء اللينة البراقة . النطاق : المنطقة تشد الى الوسط . غضون : ج . غضن وهي الاثناء ، وذلك لسعتها وسبوغها .

(١٥) وضعت : خلعت . الجون : ج . جَوْن ، بفتح الجيم : الاسود . يريد : اذا خلع الابطال يوماً هذه الدروع بدت جلودهم سوداً من صدأ الحديد لطول لبسهم إياها .

(١٦) الغضون : تجعدات الدروع وأثناؤها . المتون : ج . متن : الظهر وصفحة الماء . الغدْر : مخفف غدُر ، بضم الدال ، ج . غدير . تصفقها : تضربها . يشبه غضون الدرع الواسعة بالتجعدات التي تظهر على صفحة الغدران اذا ضربتها الرياح في جريها .

١٧ – وقد عَلِمَ ٱلقبائِلُ مِنْ معدّ ، إذا قُبَبٌ بِأبْطحِها بُنِينا ،

١٨ – بأنّا ٱلمطعِمونَ ، إذا قدَرْنا ، وأنّا ٱلمُهلِكونَ إذا ٱبْتُلِينا ،

١٩ – وأنّا ٱلمانِعونَ لِما أرَدْنا ، وأنّا ٱلنازِلونَ بحيثُ شِينا ،

٢٠ – وأنّا ٱلتارِكونَ ، إذا سَخِطْنا وأنّا الآخِذونَ ، إذا رَضِينا ،

٢١ – ونَشرَبُ إنْ أرَدْنا ٱلماءَ صَفْواً ويَشرَبُ غيرُنا كَدِراً وطِينا .

٢٢ – إذا ما ٱلمَلْكُ سامَ ٱلنّاسَ خَسْفاً أبَيْنا أنْ نُقِرَّ ٱلذُّلَّ فِينا

---

(١٧) القبائل من معد : المنسوبة الى معد بن عدنان . القبب : الخيام العظيمة . الأبطح والبطحاء في الأصل : مسيل واسع فيه دقاق الحصى والجمع أباطح وبطاح وبطائح ، ويريد به هنا ابطح مكة الذي كانت تجتمع فيه العرب في المواسم .

(١٨) قدرنا : طبخنا في القدور . ابتلينا : جربنا . هذا البيت والابيات الثلاثة بعده متصلة بالبيت السابق ، ان القبائل العدنانية ، اذا اجتمعت في بطحاء مكة ، تعلم انا كرام نقري الضيوف وشجعان نهلك من يقاتلنا .

(١٩) شينا : اصلها شئنا فلينت الهمزة للشعر . يريد : نحن نحمي مانشاء فيحمى وننزل حيث شئنا من الأمكنة . وهذا دليل على منعة القبيلة وقوتها ، لأنه ليست كل قبيلة تستطيع النزول حيث شاءت من موارد الجزيرة .

(٢٠) نحن نترك مانسخط عليه ونأخذ مانرضاه ، اي نفعل مانشاء .

(٢١) نحن نرد الماء اول الواردين ، لأننا سادة ، فنشرب صفوه وندع لغيرنا الماء العكر والطين. نحن نأخذ من كل شيء أفضله وندع لغيرنا ارذله .

(٢٢) المَلْك باسكان اللام ، لغة في المَلِك . سامه الأمر : كلفه إياه وألزله به وأكثر مايستعمل في الظلم . الخسف : الذل . يريد : اذا اكره الملك ، ويريد به ملك الحيرة ، الناس على مافيه ذلهم أبينا نحن اقرار الذل فينا .

٢٣ – مَـلأْنا ٱلْبَرَّ حتى ضاقَ عنّا ، وظَهْرَ ٱلبحرِ نَمْلَأُهُ سَفِينا

٢٤ – إذا بَلَغَ ٱلفِطامَ لنا صَبِيٌّ تَخِرُّ لهُ ٱلجَبابِرُ ساجِدِينا

* * *

---

(٢٣) يفخر بعدد قبيلته ، فقد ملأت البر حتى ضاق عنها ، وملأت ظهر البحر بالسفن، والسفين : ج . سفينة . ولاشك ان قبيلة تغلب كانت تعرف الملاحة لقرب منازلها من خليج فارس ومن الفرات .

(٢٤) الجبابر : ج . جبار . في هذا البيت مبالغة شديدة اذ جعل اشراف القبائل الاخرى يحنون هاماتهم لصبيان تغلب ، دلالة على شرفهم ومنزلتهم .

* * *

دراسة الأبيات

١ — جو النص

صاحب النص

صاحب هذه الابيات عمرو بن كلثوم من قبيلة تغلب الربعية . كان ابوه من سادات تغلب وامه ليلى ابنة المهلهل ، فنشأ شريفاً مسوّداً يدافع عن قومه بلسانه وحسامه ، شديد التهور ، كثير الاعتداد بنفسه وبقبيلته وقد زعموا انا نه ساد قبيلته وهو ابن خمس عشرة . وكانت لتغلب منزلة عظيمة في الجاهلية لأنها كانت من اشد القبائل مراساً وامنعها جانباً ، حتى قيل : « لو ابطأ الاسلام لأكلت بنو تغلب الناس » ، وكانت منازل تغلب في الجاهلية مجاورة لمنازل المناذرة في الحيرة ، فكانت تقوم بينها وقائع يضطر بنو تغلب على اثرهـا الى النزوح الى الشام ثم يعودون الى الجزيرة . وقد عاصر عمرو ابن كلثوم ثلاثة من ملوك الحيرة كما يتبين من شعره وهم : عمرو بن هند (٥٥٤ — ٥٧٠م)، واخوه المنذر الرابع (٥٧٠ — ٥٨٠) ، والنعمان بن المنذر الرابع (٥٨٠ — ٦٠٢) .

ويذكر الرواة ان ابن كلثوم قتل عمرو بن هند ، في قصة مشهورة نشير اليها في كلامنا على مناسبة الابيات ، على أن تاريخ المناذرة غامض مضطرب ليس فيه اشارة الى مقتل ابن هند على يد عمرو بن كلثوم ، كما أنه ليس فيه ما يناقض ذلك ، وشعر ابن كلثوم نفسه ليس فيه مايدل على قتله ملك الحيرة الا ان الشعراء فيما بعد اشاروا الى هذا الحادث فيقول الأخطل التغلبي مفاخراً جريراً :

أبني كُليبٍ ، ان عميّ اللذا … قتلا الملوك وفككا الأغلالا

ويقول الفرزدق ايضاً يرد على جرير في هجائه الأخطل :

قومٌ هم قتلوا ابنَ هندٍ عنوةً … عمراً وهم قسَطوا على النعمانِ

ويقول أفنون صريم التغلبي :

لعمرُكَ ما عمرو بن هند وقد دعا　　لتخدُمَ ليلى أمَّهُ بموفَّق

فقام ابنُ كلثومٍ الى السيفِ مصلتاً　　فأمسك من ندمانه بالمخنَّق

وجلّله عمرو على الرأس ضربةً　　بذي شُطَبٍ صافي الحديدة، رونق

ولاندري إن كان ابن كلثوم قد قتل ابن هند حقاً ام انها قصة مفتعلة بعد الاسلام اريد بها تعظيم مكانة تغلب وعلى كل يبدو إن صلة عمرو بن كلثوم بالمناذرة كانت في اكثر الاحيان صلة نزاع وخصومة وانه كان دائم الهجاء لهم، ويروي له ابو الفرج هجاءً في النعمان بن المنذر منه قوله يعيره:

لحا الله أدنانا الى اللؤم زُلفة　　وألأمنا خالاً وأعجزنا أبا

وأجدرنا أن ينفخ الكير خاله　　يصوغ القُروط والشنوف بيثربا

ويذكر صاحب الاغاني ان عمرو بن كلثوم قد عاش حتى اتت عليه خمسون ومائة سنة، ويروي له وصية اوصى بها اولاده قبل وفاته، ولانشك في أنها منتحلة وقد يكون ابن كلثوم عمرَّ طويلاً ولكننا لانستطيع معرفة عمره ولا تحديد سنة وفاته على التدقيق، وكل مانستطيع معرفته انه عاش في القرن السادس الميلادي ومات قبيل البعثة.

المناسبة، الزمان، المكان

الابيات التي ندرسها مختارة من معلقة عمرو بن كلثوم المشهورة وقد زعم بعضهم انها كانت تبلغ الف بيت، ويظهر ان التغلبيين قد جعلوا منها ملحمة تشيد بمفاخر قبيلتهم فأضافوا اليها أبياتاً كثيرة.

وهم يروون قصة طويلة ابيان الدافع الى نظم هذه المعلقة نرويها نقلا عن الاغاني قال: «ان عمرو بن هند قال ذات يوم لندمائه: هل تعلمون احداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمي؟ فقالوا: نعم. أم عمرو بن كلثوم. قال ولم؟ قالوا: لان اباها مهلهل بن ربيعة، وعمها كليب اعز العرب، وبعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب، وابنها عمرو وهو سيد قومه. فأرسل عمرو بن هند الى عمرو ابن كلثوم يستزيره ويسأله ان يزير أمَّه أمَّه. فأقبل عمرو من الجزيرة الى الحيرة في جماعة بني تغلب وأقبلت ليلى بنت مهلهل في ظُعُن من بني تغلب. وأمر عمرو بن هند برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات، وأرسل الى وجوه اهل مملكته فحضروا في وجوه بني تغلب. فدخل عمرو بن كلثوم على

عمرو بن هند في رواقه ، ودخلت ليلى وهند في قبة من جانب الرواق ... وقد كان عمرو بن هند أمر أمه ان تنحي الخدم اذا دعا بالطرف وتستخدم ليلى . فدعا عمرو بمائدة ثم دعا بالطرف. فقالت هند: ناوليني ياليلى ذلك الطبق . فقالت ليلى : لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها . فأعادت عليها وألحّت فصاحت ليلى : واذلاه ! يالتغلب ! فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه ، ونظر اليه عمرو بن هند فعرف الشر في وجهه ، فوثب عمرو بن كلثوم الى سيف لعمرو بن هند معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره ، فضرب به رأس عمرو بن هند ، ونادى في بني تغلب ، فانتهبوا مافي الرواق وساقوا نجائبه ، وساروا نحو الجزيرة . في ذلك يقول عمرو بن كلثوم :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا

وكان قام بها خطيباً بسوق عكاظ وقام بها في موسم مكة . » (ج ١١ ص: ٥٣)

هذه هي القصة التي يجعلونها سبب قول ابن كلثوم معلقته ، وقد قدمنا انا لانستطيع الجزم بصحة هذه القصة او بطلانها ، ولكنا اميل الى الاعتقاد باختلاقها ، لاسيما وانه ليس في المعلقة ما يشير الى قتل عمرو بن هند ولو صح انه قالها على اثر مقتله لما أغفل ذكر ذلك في معلقته ، بل ليس في جميع الشعر القليل الذي وصلنا لابن كلثوم مايشير الى مقتل عمرو بن هند .

ولو أنا نظرنا في المعلقة نفسها لتبينا منها ان هذه المعلقة قيلت خطاباً لعمرو بن هند وجواباً على ازدرائه لتغلب وتهديده لها ، وهجاءً لقبيلة بكر ، عدوة تغلب اللدود ، فلا يبعد اذن ان يكون ابن كلثوم قد قال هذه المعلقة او جانباً منها ، في مناسبة اخرى اشار اليها صاحب الأغاني في كلامه على الحارث بن حلزة ، بروايات مختلفة (ج ١١ : ٤٢) وخلاصتها ان قبيلتي بكر وتغلب كانت بينها وقائع كثيرة حتى اصلح بينها عمرو بن هند او المنذر بن ماء السماء ، واخذ من الحيين رهناً ضماناً للصلح ، فهلك التغلبيون لسموم اصابتهم او لغير ذلك فطالب بنو تغلب بكراً بديات قتلاهم ، فأبت فاحتكموا الى عمرو بن هند ، فأنشد الحارث بن حلزة معلقته في الدفاع عن بكر والفخر بها ، قالها ارتجالاً فيما يزعم الرواة ، فأعجب عمرو بن هند بقصيدة الحارث ومال الى بكر ؛ فقام عمرو بن كلثوم فارتجل معلقته هذه .

والقصة ايضاً عليها آثار التكلف والراجح عندنا ان لهذا الحادث اصلاً تاريخياً وان ابن كلثوم قال شطراً من معلقته بصدده والشطر الآخر قيل في مناسبة اخرى .

٢ – التحليل الأدبي

الأقسام والأفكار العامة

من البين ان الفكرة العامة التي تدور حولها الأبيات هي الفخر وهو الغرض الأساسي من المعلقة التي بدأها بوصف الخمر فالغزل فلما فرغ منها انتقل الى غرضه وهو الفخر . فلا نجد في ابياته هذه المنتزعة من معلقته اقساماً واضحة يقفو بعضها بعضاً ، شأن اغلب الشعر الجاهلي ، ولذلك من اليسير احياناً التقديم والتأخير في الابيات دون ان يكون لهذا التغيير اثر في معناها العام .

وهو اذا فخر فإنما يفخر بقبيلته ، على عادة الشاعر الجاهلي ، ويكاد ابن كلثوم لايتحدث عن نفسه لأنه كان شديد التعصب لقبيلته ، لاسيما وانه كان سيدها ومقولها. واذا فخر بتغلب عدد مآثرها وفضلها على سائر القبائل العربية ونسب اليها كل الفضائل التي كان الجاهليون يفاخرون بها ، ولاسيما الشجاعة في القتال وقوة البطش ، والمنعة والشرف وعلو المنزلة ونبل المحتد والكرم وقرى الضيف. وفي ثنايا فخره كان يتحدى عمرو بن هند ويتعالى عليه ويظهر عجبه من ازدرائه قبيلته ومحاولته اذلالها وهو يعلم ماهي عليه من العز والمنعة .

العاطفة

ليس من شك في ان عمرو بن كلثوم كان سريع الانفعال ، شديد التأثر ، لايكاد احد ينال من قبيلته بكلمة سوء حتى يثور ثائره ويرد على مهاجمه رداً عنيفاً قوياً . وهذه العاطفة القوية العارمة تشيع في ابياته كلها وتفيض عليها حياة وقوة ، وهي التي دفعت بابن كلثوم الى الاتيان بهذه المبالغات المغرقة كالتي نجدها في بيته الأخير ، لان شدة التأثر تطغى على المنطق والاتزان ، ولهذا كان فخر ابن كلثوم مطبوعاً بالطابع العاطفي الذي لايخضع لسلطان العقل .

ولم يخف ابن كلثوم في ابياته هذه تذمره واستياءه من عمرو بن هند الذي يحاول الانتقاص من قدر تغلب واذلالها ، ولكن هذا التذمر لايعبر عنه الشاعر تعبيرا مباشراً بل علينا ان نفهمه نحن من خلال ابياته .

الاسلوب

ان من يقرأ ابيات ابن كلثوم هذه لايلقى عناءً في فهم الفاظها ومعانيها لقربهـــا من لغة مضر

وسهولتها ، وهذا ماحمل بعض مؤرخي الادب المحدثين على الشك في اكثر ابيات المعلقة (طه حسين، في الادب الجاهلي) . واسلوب القصيدة واضح السهولة كأكثر الشعر الربعي . حتى لكأننا نقرأ نثراً لاشعراً ، ولكن الجزالة واضحة ايضاً في بعض الأبيات (الأبيات الاولى مثلا) .

وفي هذه القصيدة نجد خصائص خطابية تدل على ان الشاعر قد اعد هذه القصيدة لتلقى في محفل عام ، كهذا التكرار الذي نلاحظه في بعض الابيات ، وهو اما تكرار لمطلع البيت (البيتان: ٦ و ٧ والبيتان ١٣ و ١٤) واما تكرار للشطر الاول من البيت : (٨ و ٩) .والغرض من التكرار التأثير في نفس المخاطب . ومن هذه الخصائص المبالغة الشديدة التي نكاد ننكرها في اشعار الجاهليين (البيتان ٢٣ و ٢٤) ومنها التعداد للفضائل (الابيات : ١٨ و ١٩ و ٢٠) ،ومن هذه الخصائص ايضا ما أشرنا اليه من قوة العاطفة وسهولة الاسلوب ، وهي خصائص نجدها ايضاً في شعر المهلهل جد ابن كلثوم ، ولاشك ان شاعرنا كان متأثراً به في اسلوبه الشعري تأثراً بعيداً .

ولانحتاج الى القول بأن الطابع المميز للقصيدة هو طابع العجلة والتسرع في نظم الشعر ، فليس ابن كلثوم ممن يعنون بتهذيب شعرهم والتأني في اصداره ولعله لو أخذ نفسه بشيء من الروية لحذف ماجاء به من المعاني المكررة والابيات المهلهلة النسج ، والمبالغات الساذجة وهي التي تحمل على الظن بأن ايدي العابثين قد امتدت الى هذه القصيدة واضافت اليها كثيراً من الابيات المهلهة التي لاتوافق في نسجها سائر ابيات القصيدة المتينة التراكيب ، الجزلة الالفاظ .

وقد اعتمد ابن كلثوم احياناً على التصوير الحسي والتعبير المجازي فجاء بالطباق والمقابلة (الابيات : ٢ ، ٥ ، ٢١) والتشبيه (الابيات : ٦ ، ٧ ، ١٦) والاستعارة (الابيات : ٤ ، ١١ ، ٢١) وغيرها من الصور الحسية المنتزعة من بيئة الشاعر ، وهذه البيئة ليست بيئة الصحراء فقط بل بيئة الساحل والبحر ايضا :

ملأْنا البحر حتى ضاق عنا   وظهر البحر نملأه سفينا

قيمة الأبيات ومنزلة الشاعر

لم تنل قصيدة من الحظوة والذيوع مالاقته قصيدة ابن كلثوم هذه ، فقد غدت ملحمة قبيلة تغلب لاتزال ترويها في كل مناسبة حتى هجاهم بذلك بعض بني بكر بقوله :

ألهى بني تغلبٍ عن كل مكرمةٍ   قصيدةٌ قالها عمروُ بن كلثوم

يرووُنها ابداً ، مذ كان أوّلُهم يالَلرجالِ لشعرٍ غيرِ مسؤومِ

وقال المفضل الضبي : « لله در عمرو بن كلثوم لو انه رغب فيما رغب فيه أصحابه من كثرة الشعر ، ولكن واحدته اجود من مائتهم » وروي عن عيسى بن عمر قوله : « لو وضعت اشعار العرب في كفة وقصيدة عمرو بن كلثوم في كفة ، لمالت بأكثرها . » والحق ان لمعلقة ابن كلثوم قيمة تاريخية فضلا عن قيمتها الادبية التي اضفاها عليها سهولة الاسلوب ، وموسيقى الالفاظ وهي مثال صادق للشعر الغنائي الجاهلي .

* * *

مصادر

١ – الاغاني للاصفهاني . ١١ : ٢٠ (ط . دار الكتب)

٢ – خزانة الأدب للبغدادي . ٣ : ١٦٤ (ط . السلفية)

٣ – شعراء النصرانية ص ١٩٧

٤ – ديوان شعر عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة ، فريتس كرنكو ، بيروت

فضلا عن المراجع العامة للشعر الجاهلي والمعلقات .

عنترة العبسي

من معلقته التي مطلعها :

هل غادر الشعراء من متردَّمِ   أم هل عرفتَ الدار بعدَ توهُّمِ

* * *

١ – أثني عليَّ بما علمتِ فإنني   سمحٌ مخالقتي إذا لم أُظلَمِ
٢ – فإذا ظُلِمتُ فإنَّ ظلمِي باسِلٌ   مرٌّ مذاقتُه كطعمِ العلقمِ
٣ – فاذا شرِبتُ فإنني مُستهلِكٌ   مالي ، وعِرضي وافِرٌ لم يُكلَمِ

---

(١) أثني علي : يخاطب عنترة ابنة عمه عبلة . المخالقة : الخُلق ومخالطة الناس . يريد : اثني علي يا ابنة العم بما تعلمينه من محامدي ومناقبي فإني حسن المعاشرة اذا لم يهضم حقي .

(٢) باسل : كريه ، شديد ، ورجل باسل : شجاع . العلقم : الحنظل وكل نبات مر . يتم عنترة معنى البيت السابق فيقول إنه اذا ظلم يقابل الظلم بظلم كريه شديد مر كطعم الحنظل .

(٣) مستهلك : مستنفد ، مهلك . وافر : تام ، مَصُون . يكلم : يُجرح . اذا شربت الخمر ، وشربها من السجايا التي يفاخر بها الجاهليون ، فاني أنفق مالي في الجود ولكني لاأشين عرضي كما يفعل المستهترون بشرب الخمر . والواو ، قبل عرضي ، واو الحال .

٤ - وإذا صحوتُ فما أقصِّرُ عن ندًى وكما علمتِ شمائلي وتكرُّمي
٥ - هلّا سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالكٍ إن كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي
٦ - إذ لا أزالُ على رِحالةِ سابحٍ نهدٍ ، تعاورهُ الكماةُ ، مُكلَّمِ
٧ - طوراً يُجرَّدُ للطِّعانِ وتارةً يأوي إلى حصدِ القسيِّ عرمرمِ
٨ - يُخبِرْكِ من شهِدَ الوقيعةَ أنني أغشى الوغى وأعِفُّ عند المغنمِ

---

(٤) الندى : الجود . الشمائل : الخلائق والسجايا مفردها شمال . يستدرك عنترة معنى البيت السابق ، فهو ليس كريماً في حال السكر والشرب فقط بل كريم ايضاً في حال الصحو . وشمائلي هي كما تعلمين كلها محمودة كريمة .

(٥) هلّا : اداة تحضيض وترغيب ، وعند اكثر النحاة انها مع الماضي لمعنى اللوم . الخيل : هنا بمعنى راكبي الخيل اي الفرسان . ابنة مالك : عبلة . يرى التبريزي ان في البيت تقديماً وتأخيراً واصل البيت : هلّا سألت الخيل بما لم تعلمي ، يا ابنة مالك ، ان كنت جاهلة . لأنه لاغناء في قوله (بما لم تعلمي) على الترتيب الأول لأن من الطبيعي ان يجهل المرء ما لا يعلمه .

(٦) الرحاله : سرج من جلود الشاء يتخذ للجري الشديد . السابح : نعت للفرس السريع استغني به عن ذكر الاسم (الفرس) . النهد : نعت للفرس الجسيم القوي . تعاوره : اصلها تتعاوره: تتداوله وتتناوبه الكماة بالطعن . الكماة : ج كمي : الفارس الشاكي السلاح . يريد : هلّا سألت الفرسان عن حالي وانا على سرج فرس سريع قوي يتناوب الابطال طعنه وانخانه بالجراح .

(٧) يجرّد للطعان : اي ابرز به من صفوف الجيش لبراز الأعداء . الحصد من القسي والحبال والدروع: المحكم الصنع، الشديد الفتل . القسي : ج . قوس، على غير القياس . عرمرم: كثير. يريد : تارة ابارز على فرسي الفرسان وتارة أنضم به الى جيش محكم القسي كثير العدد . وهذا البيت وسابقه معترضان بين البيتين الخامس والثامن .

(٨) يخبرك : مجزوم لأنه جواب هلّا . الوقيعة : المعركة . أغشى : اقتحم . الوغى : الحرب . أعف : اترفع . يريد : اذا سألت الفرسان عن حالي اخبرك من شهد وقائعي اني اقتحم ساحة المعركة غير هيّاب ولكنني لا اقاتل في سبيل الغنيمة بل اترفع عنها

٩ - ومُدَجَّجٍ كَرِهَ الكُماةُ نِزالَهُ لا مُمْعِنٍ هرباً ولا مُستَسْلِمِ

١٠ - جادتْ لهُ كفّي بعاجلِ طعنةٍ بمثقَّفٍ صدقِ القَناةِ مقوَّمِ

١١ - فشككتُ بالرُّمحِ الأصمِّ ثيابَه ليسَ الكريمُ على القَنا بمحرَّمِ

١٢ - فتركتُهُ جزرَ السِّباعِ ينُشْنَهُ ما بينَ قُلّةِ رأسِهِ والمِعصَمِ

١٣ - لمّا رأيتُ القومَ أقبلَ جمعُهُمْ يتذامرُونَ ، كررْتُ غيرَ مُذَمَّمِ

---

(٩) المدجج : نعت للمقاتل التام السلاح . امعن الفرس : تباعد في عدوه ، والرجل في الأمر أبعد وبالغ . يريد : ورب بطل تام السلاح خشي الابطال منازلته ، ليس هو ممن يفرون من المعركة ولا ممن يستسلمون . يصف عنترة منازله بالاقدام والشجاعة تعظيماً لانتصاره عليه .

(١٠) بعاجل طعنة : أراد بطعنة عاجلة ، فقدم الصفة على الموصوف ثم أضافها اليه وهذا كثير في كلام العرب وفي شعر عنترة . المثقف : صفة للرمح المقوّم . صدق : صلب . القناة : قصبة الرمح . مقوّم : قد أقيم اعوجاجه ، والرمح يمدح اذا كان مثقفاً مقوماً . هذا البيت جواب لرب المقدرة بعد الواو في (ومدجج) ، يريد : هذا البطل المخيف رميته بطعنة عاجلة من رمح مثقف صلب القناة .

(١١) الأصم : الصلب القوي . يريد : هذا البطل المقدام المدجج بالسلاح طعنته طعنة برمحي نفذت من ثيابه واخترقت جسمه . ثم يردف ذلك بقول يخرجه مخرج المثل وهو ان البطل الكريم الشريف ليس محرماً على القنا اي ان اقدامه ومهارته لايحولان دون إصابته وقتله .

(١٢) جزر : ج . جزرة ، وهي قطع اللحم المذبوحة تأكلها السباع . وفي الأصل الجزرة : الشاة المعدة للذبح . السباع : كل مفترس من الحيوان مطلقاً ، مفرده سبع . ينشنه : النوش : التناول . القلة : من كل شيء أعلاه . المعصم : موضع السوار من الزند . يريد فصيرت هذا البطل طعمة للسباع يتناولنه وينهشنه ، وليس المراد بقوله : مابين قلة رأسه والمعصم ، التحديد وانما اراد ان السباع تتناول جثته وتفترسها . ويروى هذا الشطر ايضاً : يقضمن حسن بنانه والمعصم .

(١٣) يتذامرون : يحض بعضهم بعضاً على القتال . مذمم : مذموم . يريد : لما رأيت قومي مقبلين يحض بعضهم بعضاً على القتال كررت معهم غير مستحق الذم . ومن عادة عنترة ان يظهر نفسه بمظهر الحامي للقبيلة ويظهر قومه بمظهر اللائذين به .

١٤ - يَدْعُونَ: عنترَ، والرِّماحُ كأنَّها أشطانُ بئرٍ في لَبانِ الأدْهَمِ
١٥ - ما زِلتُ أرميهِم بثُغرةِ نحرِهِ ولَبانِهِ حتى تَسربَلَ بالدَّمِ
١٦ - فازْوَرَّ من وَقعِ القَنا بلَبانِهِ وشكا إليَّ بعَبرةٍ وتَحَمْحُمِ
١٧ - لو كانَ يدري ما المحاورةُ اشتكى ولَكانَ، لو عَلِمَ الكلامَ، مُكَلِّمي
١٨ - ولقد شفى نفسي وأبرأ سُقمَها قِيلُ الفوارسِ: وَيكَ عنترَ، أقدِمِ
١٩ - والخَيلُ تَقتَحِمُ الخَبارَ عَوابِساً مِن بينِ شَيظَمةٍ، وأجرَدَ شَيظَمِ

---

(١٤) عنتر: هنا في موضع النداء اي ياعنتر، ولذا جاز حذف التاء من عنترة وهو مايسمى بالترخيم. اشطان: ج. شطن: الحبل الطويل. اللبان: صدر الفرس. الأدهم: الاسود نعت للفرس كأن قومي يدعونني ورماح الاعداء تنثال على صدر فرسي كأنها، لكثرتها وطولها، حبال البئر.

(١٥) ثغرة النحر: نقرته، والنحر: العنق وسمي كذلك لأنه موضع نحر الدابة. تسربل: تضرج حتى صار الدم له بمثابة السربال. مازلت اقتحم صفوف الاعداء بصدر فرسي حتى تسربل بالدم لكثرة ماأصابه من الجروح.

(١٦) ازورّ: مال. التحمحم: صهيل الفرس فيه شبه الحنين ليرق صاحبه له. ان وقع الرماح في صدر فرسي جعله يميل ويشكو الي مايلقاه منها بعبرته وحمحمته.

(١٧) هذا البيت تتمة لسابقه، فإن فرسه لايستطيع الشكوى بغير العبرة والتحمحم ولو أطاق الكلام لفعل.

١٨) القيل: القول. ويك: يقول النحاة انها اداة تستعمل للتعجب والتنبيه مركبة من (وي) مع كاف الخطاب. عنتر: منادى مرخم بحذف ياء النداء. يريد: ان مما يثلج صدري ويذهب سقمي ان تعوّل عليّ عشيرتي فتلتجىء اليّ في الحروب وتناديني كرّ ياعنترة على الاعداء.

(١٩) الخبار: الارض اللينة المسترخية. وفي المثل: من تجنب الخبار أمن العثار. ورواية أبي زيد القرشي: الغبار، وهو انسب للمعنى. الشيظم: الطويل الفتي من الخيل والانثى شيظمة. الاجرد: من الخيل: القصير الشعر والسبّاق. الواو في أول هذا البيت للحال، يريد: ان سروري باستصراخ قومي لي هو حين تكون الخيل مقتحمة الارض اللينة، وهي كالحة الوجوه لما نالها من الاعياء والكلوم، وكلها خيل طوال فتية سباقة، اي هو يسر باستصراخ قومه له أبان احتدام الوقائع.

٢- ذُلُلٌ رِكابي حيثُ شِئتُ مُشايِعي قَلْبي ، وأحفِزُهُ بِرَأيٍ مُبْرَمِ

* * *

---

(٢٠) ذلل : ج . ذلول : سهلة الانقياد ريضة . الرِكاب : الإبل واحدتها راحله على غير لفظها وجمعها ركائب . مشايعي : من المشايعة وهي المتابعة والمسايرة . احفزه : ادفعه وأسوقه . مبرم : محكم
يريد : ان إبلي تنقاد لي حيثما وجهتها وانا امضي محتفظاً بشجاعتي المؤيدة برأيي المحكم .

* * *

دراسة الأبيات

١ – جو النص

صاحب النص

هو عنترة بن شداد (١) الذي ينتهي نسبه الى عبس فغطفان فقيس . امه أمة حبشية يقال لها زبيبة ، سباها ابوه في بعض الغارات ، فولدت له عنترة فجاء اسود اللون ، أفلح (مشقوق الشفة السفلى) . وقد عُدّ ، لسواده ، من أغربة العرب (ج . غراب) لأن السواد لم يكن شائعاً في العرب ، وعدّوا منهم ، غير عنترة ، خُفاف بن نُدبة والسُلَيك بن السُلَكة ، وكلهم من الشعراء الفتّاك في الجاهلية .

وكان من عادة العرب استرقاق اولاد الاماء ، فنشأ عنترة عبداً لأبيه يرعى إبله ، يحتقره افراد عشيرته لأنه عبد ، ويأبون ان يشاطروه مايحصلون عليه من الأسلاب في غزواتهم ، ويلقبونه بابن السوداء ، فحز ذلك في نفسه . وكان محباً لعبلة ، ابنة عمه مالك ، ولكن دمامة خلقه ووضاعة نسبه كانتا تجعلانه غير جدير بها . فرأى ان خير مايمحو به دمامة شكله وهجنة نسبه ان يكون فارساً مقداماً فينال شرف الدفاع عن قبيلته وتعلو منزلته ويصبح جديراً بابنة عمه ويظفر بحريته .

وقد نال حريته فعلاً بفضل استبساله في الدفاع عن قومه فيذكر لنا ابو الفرج في الأغاني ان بعض احياء العرب اغاروا على بني عبس فأوقعوا فيهم واستاقوا إبلاً ، فلحقهم العبسيون ، وعنترة معهم ، فقاتلوهم وأبلى عنترة بلاءً حسناً في قتالهم فأعتقه أبوه وادّعاه . (ج ٨ : ٢٣٩)

وقد اشار عنترة في شعره اكثر من مرة الى ان له من شجاعته وبطولته مايغنيه عن شرف النسبة ، كقوله :

انّي امرؤ من خير عبس منصباً ... شطري ، وأحمي سائري بالمُنصُلِ

---

(١) هذا هو القول المشهور وبعضهم يجعله ابن عمرو بن شداد او ان شداداً عمه ونسب اليه .

واذا الكتيبةُ أحجمت وتلاحظت ... أُلفيتُ خيراً من مُعِمٍّ مُخْوِلِ

وقد انفق عنترة حياته في الحروب والغزوات ، واشترك في حرب داحس والغبراء التي قامت بين عبس وذبيان (انظر ص ٨٤) وقتل فيها ضمضماً المري والى ذلك يشير في آخر معلقته بقوله:

ولقد خشيتُ بأن أموتَ ولم تدُرْ ... في الحربِ دائرةٌ على ابنَيْ ضمضمِ

وكان ، دون ريب ، فارساً مغواراً وبطلاً شجاعاً رفع رأس قبيلته عالياً ، ولكن شجاعته لم تصل الى حد التهور ، كما تصورها القصص ، وقد نُقل عن الهيثم بن عدي أنه « قيل لعنترة : أنت اشجع الفرسان وأشدها ؟ قال : لا . قيل : فبماذا شاع لك هذا في الناس ؟ قال : كنت أُقدم اذا رأيت الاقدام عزماً ، وأحجم اذارأيت الاحجام حزماً ، ولا أدخل إلا موضعاً أرى لي منه مخرجاً ، وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه فأقتله . »

وكان عنترة ، الى شجاعته ، طيب الشمائل ، حسن الخالقة ، عفيفاً ، كريماً . وكان شعره يدور كله حول الفخر بشجاعته وكرم اخلاقه والتغزل بابنة عمه .

اما سنة ولادته ووفاته فلا يسعنا تحديدها على وجه الدقة ، شأنه في ذلك شأن اغلب الجاهليين ، ولكن اغلب الروايات تدل على انه كان من المعمرين ، وانه توفي ـ او قتل ـ قبيل الاسلام ، بعد حرب داحس والغبراء التي اشترك فيها والتي انتهت حوالي سنة ٦١٠ م .

والروايات مختلفة في كيفية موته ، فأبو عبيدة يروي ان رجلا من نبهان يدعى وزر بن جابر رماه بسهم فقتله بعد أن أسن ، ويروي ايضاً انه خرج في طلب دين له بعد ان أسن وعجز فأصابته ريح وقتلته ، واما ابو عمرو الشيباني فيروي انه قتل على اثر غزوة مع عبس غزا فيها طيئاً فانهزمت عبس فخر عن فرسه وعجز عن امتطائه لكبره فدخل دغلا فأبصره ربيئة طيء فقتله .

هذا عنترة ، كما يصوره التاريخ وكما يصوره شعره ، وهذا مجمل مانعرفه عن حياته ، ولكن عنترة صار فيما بعد بطلاً لقصة عرفت « بسيرة عنتر » وقد صور فيها بصورة بطل من ابطال الاساطير ، وأضيفت اليه قصص البطولة الخارقة التي تجعله يستقبل الجيوش ، وحده ، غير هيّاب فيتغلب عليها ويبيدها ، ويتعرض لاخطار المهالك ويخرج منها سالماً . ولم تقتصر السيرة على اختراع الوقائع والاحداث واضافتها الى عنترة بل اضافت اليه ايضاً كثيراً من الشعر المهلهل الركيك الذي اختلط بالصحيح من شعره .

ولم يعرف من هو واضع سيرة عنترة ويرجح انها ليست من وضع مؤلف واحد ، وذكروا من

اسباب وضعها ان ريبة حدثت في بلاط الخليفة العزيز بالله الفاطمي (٩٧٥ - ٩٩٦ م) لهج بها الناس كثيراً فأشار الخليفة على رجل يدعى يوسف بن اسماعيل المصري بوضع قصة تشغل الناس عن حادثة القصر ، فوضع لهم قصة عنتر هذه فشغل بها الناس .

المناسبة - الزمان - المكان

هذه الابيات مختارة من معلقة عنترة التي يبلغ عدد ابياتها زهاء الثمانين ، ولشراح المعلقات كلام في بيان السبب الذي دعا عنترة الى نظم هذه المعلقة ، خلاصته انه كان في مجلس ، بعد ان اعترف به أبوه وأعتقه فسابه رجل من بني عبس وعيره بسواده وسواد أمه وفاخره بشعره فأجابه عنترة انه اكرم منه واشجع واحكم وقال له آخر كلامه: « وإنيّ لأحتضرُ البأس ، وأوفي المغنم ، وأعف عند المسألة ، وأجودُ بما ملكتْ يدي ، وأفصل الخُطة الصّماء ، وأما الشعر فستعلم .»

ثم أنشأ معلقته ، وكان لايقول قبل ذلك الا البيتين او الثلاثة .

هذا هو مجمل كلام الشراح في الدافع الى نظم المعلقة ، ويبدو لنا ان هذا الكلام المنسوب الى عنترة مفتعل مختلق ، وقولهم ان معلقته كانت اول شعر قاله ظاهر البطلان لأن معلقته تدل على انه نظمها بعد حرب داحس والغبراء ، اي قبل وفاته بسنوات ، فلا يعقل ان يكون قد بدأ نظم القصائد في اواخر حياته ، ويبدو لنا ايضاً ان الذي حمل عنترة على نظم مطولته هذه هو عين الدافع الذي حمله على نظم اكثر شعره ، الا وهو التغزل بعبلة والتغني بمناقبه ومحامده ، لان الشعر كان لدى عنترة وسيلة للتنويه بمآثره والافتخار بشجاعته وسجاياه .

---

٢ التحليل الادبي

الاقسام والافكار العامة

هذه الابيات التي ندرسها هي نموذج للفخر عند عنترة ، وهو في الغالب يوجه خطابه لعبلة التي كان يود التقرب اليها بمناقبه وشجاعته حين فاته شرف النسبة وجمال الهيئة (١-٤)

فإذا فخر فإنما يفخر بحسن معاشرته ، اذا لم يظلم ، وبجوده في حالتي الشرب والصحو ، ولكنه لايلبث ان ينصرف الى الفخر بشجاعته وحسن بلائه في الحروب ويطيل في وصف مواقعه وكيف

كان يجندل الكماة ويصرع الفرسان ويقتحم بجواده صفوف العدى . فإذا فرغ من ذلك لم يخف سروره لكونه ملاذ القبيلة وحامي ذمارها ، وهو الهجين ابن السوداء .(٥-٢٠)

ولعلنا لاحظنا ان عنترة لم يفخر بشاعريته ، وذلك امر نلاحظه في اكثر شعره ، فالشعر عنده كما قدمنا ، وسيلة لاغاية ، وسيلة للتغني بسجاياه الحميدة وشجاعته واقدامه . فعنترة كان يرى نفسه فارساً اكثر منه شاعراً . ونلاحظ اخيراً ان عنترة لم يفخر في ابياته هذه بقبيلته ، عبس ، وهو على الجملة ، قليل الفخر بها في شعره واكثر فخره في نفسه ، على نقيض مانجده عند شعراء الفخر الآخرين ، كعمرو بن كلثوم ، مثلا ، وسبب هذا انه انما يفخر بنفسه لأنه كان يود ان يرفع من منزلته ومكانته في قبيلته ، لاأن يفاخر بقبيلته .

العاطفة

نتبين من قراءة ابيات عنترة هذه شدة اعتزازه بنفسه واعتداده بها ، ولاريب ان احتقارقبيلته له لما هو عليه من سواد اللون ووضاعة الأم قدولد في نفسه شعوراً بالنقص ، وان اعتداده بنفسه كان بمثابة رد فعل لهذا الشعور ، ولهذا وجدناه يعبر عن سروره البالغ حين تستنجد به عشيرته :

ولقد شفى نفسي وابرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر ، اقدم

الأسلوب

يمتاز شعر عنترة بسهولة الفاظه مع جزالتها ، وبما في هذه الالفاظ من نغمة موسيقية مستعذبة الوقع ، وقد أضاف الى موسيقى الالفاظ وجمال التراكيب في ابياته هذه نغمة موسيقية اخرى تشيع في ابياته جملة ومرجعها الى بحر الكامل الذي كان عنترة شديد الكلف به ، وهو بحر يصلح للتغني والترنم كل الصلاح .

وقد لاحظنا ان عنترة يتوجه بخطابه الى عبلة ، فإذا خاطبها اكثر من استعمال لفظ تعلمين : أثني عليّ بما علمت ، وكما علمت شمائلي وتكرمي ، ان كنت جاهلة بما لم تعلمي .

وقد أتاح لعنترة انصرافه الى فن الحماسة والمفاخرة أن يكون في ذلك مبتدعاً لكثير من المعاني والصور ، وان يفتن في ابراز شجاعته وتصويرها ، فتارة يصور ما ألمّ بفرسه من كثرة الجروح فهو « نهد ، تعاوره الكماة ، مكلم » ، وهو يزور من وقع رماح العدو في صدره ونحره حتى يشكو الى صاحبه مايلقاه منها بعبرته وحمحمته ، ولو أنه أطاق كلاماً لفعل ، وتارة يتحدث عن الفرسان

الذين يقاتلهم فيبالغ في تصوير شجاعتهم وقوتهم مبالغة منه في تعظيم انتصاره عليهم ، لأن الانتصار السهل لاينيل صاحبه عظيم الفخر والمجد .

وخصب خيال عنترة يظهر من جانب آخر ، في الصور البيانية التي جاء بها في ابياته هذه، ونحب ان نحيل على الابيات الأولى من معلقة عنترة في وصف روضة حيث يقول :

جادتْ عليها كلُّ عينٍ ثَرةٍ ... فتركْنَ كلَّ قرارة كالدرهمِ
سحاً وتسكاباً فكلُّ عشيةٍ ... يجري عليها الماءُ لم يتصرمِ
وخلا الذُبابُ بها فليس ببارحٍ ... غرِداً كفعل الشاربِ المترنمِ
هزِجاً يحكُّ ذراعَه بذراعه ... قدح المُكِبِّ على الزِّناد الأجذمِ

فإن فيها تصويراً بديعاً مبتكراً لايحتاج الى بيان ، وقد ابدى الجاحظ اعجابه الشديد بوصف عنترة الذباب وتشبيهه بالأجذم المقطوع اليد . وفي الأبيات التي ندرسها نجد لعنترة جملة من الصور البيانية المستمدة من البيئة البدوية ، فالظلم مر كالحنظل ، والرماح كأنها اشطان البئر ، وفرسه قد تسربل بالدم لكثرة مانا له من الكلوم والطعنات . وربما كان عنترة غير موفق تماماً في تشبيه الرماح بحبال البئر من حيث طولها وكثرتها ، لأن لفظ « حبل » يوحي الى ذهننا بمعاني اللين والاسترخاء والانثناء ، وهي لاشك غير ممدوحة في الرماح ، التي يتوخى فيها الصلابة والاستقامة ، فتشبيه عنترة جزئي لايلم بالصورة في جملتها ، وكذلك اكثر صور الجاهليين تعوزها الدقة الفنية ، ولكن للجاهليين في ذلك عذرهم لما قدمنا من فقر بيئتهم وعدم تنوعها ، ولابد لهم من انتزاع تشبيهاتهم من موضوعاتها المحدودة .

قيمة الابيات ومنزلة الشاعر

أعجب القدماء بمعلقة عنترة فوصفها ابن سلام بأنها « نادرة » ووضع عنترة في شعراء الطبقة السادسة مع عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة .

وقال ابن رشيق في العمدة إن عنترة « أتى في هذه القصيدة بما لم يسبقه اليه متقدم، ولا نازعه إياه متأخر . » ورووا عن الرسول قوله ، وقد أنشد بيتاً له : « ماوُصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلاّ عنترة » . والحق ان عنترة كان مبتكراً في فخره ، مبتكراً في وصفه ، موفقاً في الجمع

بين صفتي الشاعر والفارس ، ويأتي في المرتبة الأولى بين شعراء الفخر في الجاهلية .

* * *

مصادر

١ – الأغاني ج ٨ : ٢٣٧ ، طبع دار الكتب .

٢ – شعراء النصرانية ص : ٧٩٤ .

٣ – شرح معلقة عنترة ، الأنباري .

٤ – خزانة الأدب ، البغدادي ، ج ١ : ١٢٥ ، ط السلفية .

٥ – ديوان عنترة . ط . ابن الورد Ahlwardt

٦ – ابو الفوارس : فريد ابو حديد .

٧ – de Slane, Antara - J. As. Mai 1838

٨ – A. Perron, Lettre sur Antar. J As. Décembre 1840

فضلاً عن المراجع العامة ذوات الارقام : ٢ ، ٣ ، ٢١ ، ٤٢ .

ذو الإصبع العدواني

من قصيدته التي مطلعها :

يا من لقلبٍ شديدِ الهمّ محزونِ   أمسى تذكّر ريّا أمّ هارونِ

* * *

١ - ولي ابنُ عمٍّ على ما كانَ من خُلُقٍ   مختلفانِ ، فأقليهِ ويقليني

٢ - أزرى بنا أنّنا شالَتْ نعامتُنا   فخالني دونه بل خِلتُه دُوني

٣ - لاهِ ابنُ عمِّكَ ، لا أفضلتَ في حسبٍ   شيئاً ولا أنتَ ديّاني فتخزُوني

(١) أقليه : أبغضه ، والقِلى : البغض . يريد : اني وابن عمي مختلفان في سجايانا وخلقنا ولذا فأنا اكرهه وهو يكرهني . ويحتمل ان يريد بالخلق هنا المعاشرة فيقول نحن مختلفان على رغم مابيننا من اواصر القربى والمعاشرة .

(٢) أزرى : حط من قدرنا وأنزل بنا الهوان . شالت نعامتنا : يقال : شالت الناقة بذنبها اي رفعته ؛ والشَوْل : الماء القليل ، والخفيف . ويستعمل العرب تعبير : شالت نعامته بمعنى خفّ وبمعنى غضب ثم هدأ ، وشالت نعامة القوم : خفّت منازلهم منهم و تفرقوا ، وهو المراد هنا . يريد : لقد ازرى بنا الدهر وتفرقت كلمتنا فصار يراني دونه منزلة واراه دوني .

(٣) لاه : يقولون ان اصلها لله ، ثم حذفت لام الجر . أفضلت : زدت . الديّان : القائم بالأمر والسائس والقاضي . تخزوني : من خزاه يخزوه خزواً : ساسه وقهره وملكه . يريد : ليس لك فضل علي في النسب ولا انت القائم بأمري فتسوسني وتقضي في امري .

٤ – ولا تقوتُ عيالي يومَ مسغبةٍ ولا بنفسكَ في العزّاءِ تكفيني

٥ – ولي ابنُ عمٍّ لوانَّ الناسَ في كَبِدي لظلّ مُحتجزاً بالنَّبْلِ يرمِيني

٦ – ياعمرُو إنْ لاتدعْ شتمي ومَنقصتي أضرِبْكَ حتى تقولَ الهامةُ اسقُوني

٧ – كلُّ امرِئٍ صائرٌ يوماً لشيمتهِ وإنْ تخلّقَ أخلاقاً إلى حينِ

٨ – إني، لعمرُكَ، ما بابي بذي غلَقٍ عن الصديقِ، ولا خيري بممنُونِ

٩ – ولا لساني على الأدنى بمُنطلقٍ بالمُنكراتِ، ولا فتكي بمأمونِ

---

(٤) تقوت : تقدم القوت، تطعم . العيال : ج عيّل : من تتكفل بهم وتعولهم . المسغبة : المجاعة . العزّاء : السنة الشديدة . يتم معنى البيت السابق فيقول إنك لست ذا فضل علي فلا تقوت عيالي اذا ألمت بنا مجاعة ولا تقدم لمعونتي زمن الشدة .

(٥) المحتجز : الشادّ مئزره على وسطه ، كناية عن التهيؤ للأمر والاستعداد له . النبل: ج نَبلة: السهام . محتجزاً بالنبل : قد شد السهام الى وسطه . يريد : ان ابن عمي هذا لشدة كرهه لي ، لو ان الناس كلهم كانوا في كبدي لما توانى عن رميي بالنبال للقضاء علي ولو قضي على جميع الناس معي .

(٦) المنقصة : الانتقاص والذم . الهامة : طائر من طيور الليل يعرف ايضاً بالصدى ، وكان العرب يعتقدون ان روح القتيل الذي لم يؤخذ بثأره تصير هامة تزقو عند قبره وتصيح : اسقوني ، اسقوني ، حتى يدرك بثأره . وهي خرافة اوجدها العرب ليحرضوا على الثأر لقتلاهم . وهي هنا كناية عن القتل ، يقول : اذا لم تكف ياعمرو عن شتمي وانتقاصي اضربك حتى تموت فيذهب دمك هدراً .

(٧) الشيمة : السجيّة والخليقة . يريد : ان المرء ، مهما يحاول التخلق بغير طبيعته ، لابد من ان يعرف ، وهذا البيت بمعنى بيت زهير :

ومهما تكن عند امرىءٍ من خليقةٍ وإن خالها تخفى على الناس تعلم

(٨) لعمرك : قسماً بحياتك (انظر طرفة ، البيت ١٣) . الغلق : مايغلق به الباب . ممنون : مقطوع . ومنه في القرآن : لهم اجرٌ غير ممنون . يفخر الشاعر هنا بكرمه فيقول ان بابي مفتوح ابداً للصديق وان جودي متصل .

(٩) الأدنى : ذو القربى . المنكرات : الفاحش من القول . يفاخر الشاعر بأنه عفيف اللسان لايتناول ذوي قرباه بفاحش القول ، ويفاخر ايضاً بأنه غير مأمون البطش .

١٠ - لا يُخرِجُ القسرُ مني غيرَ مأبيةٍ	ولا ألينُ لِمَنْ لا يبتغي ليني

١١ - وأنتمُ معشرٌ زيدٌ على مائةٍ	فأجمعوا أمرَكُمْ شتى فكيدوني

١٢ - فإنْ علِمتمْ سبيلَ الرُّشدِ فانطلقوا	وإن جهلتمْ سبيلَ الرُّشدِ فأتُوني

١٣ - ماذا عليَّ، وإنْ كنتمْ ذوي رَحمي	ألاّ أحبكُمُ إذْ لمْ تُحبّوني

١٤ - لو تشربونَ دمي لمْ يروَ شاربُكمْ	ولا دِماؤكمُ جمعاً تَرُوّيني

١٥ - اللهُ يعلمُني واللهُ يعلمُكمْ	واللهُ يجزيكمُ عنيّ ويجزيني

١٦ - وكنتُ أعطيكُمُ مالي وأمنحُكمْ	وُدّي، على مُثبَتٍ في الصدْرِ مكنونِ .

١٧ - واللهِ لو كرِهتْ كفّي مُصاحبتي	لقلْتُ، إذ كرِهتْ قربي لها، بيني

* * *

---

(١٠) القسر : الإكراه والقهر . المأبية : الإباء والامتناع . يريد : اذا اريد اكراهي على أمر كان جوابي الإباء والامتناع وانا لا ألين لمن يريد اخذي بالعنف والقسر .

(١١) زَيد : زيادة . شتى : متفرقين . وفي رواية : « كُلاً » . يظهر ان خصوم الشاعر من ذوي قرباه كانوا كثيرين فهو يقول لهم : اجمعوا امركم المتفرق وحاولوا ان تكيدوا لي فان تفلحوا.

(١٢) اذا عرفتم سبيل الرشاد والهداية فاسلكوه والا تعالوا الي ارشدكم اليه .

(١٣) ماذا عليّ : اي ضير علي . ذوي رحمي : ذوي قرباي . يريد : لاضير عليّ الا احبكم ، ولو كنتم ذوي قرباي ، مادمتم تضمرون لي الحقد والكراهية .

(١٤) يروى : يرتوي . يعبر ذو الاصبع في هذا البيت عن شدة الكراهية التي تقوم بينه وبين اقربائه فلو انهم شربوا دمه لم يشف غليلهم ، وهو ايضاً لايرويه ان يشرب دماءهم جميعاً .

(١٥) يريد الله عالم بما في نفوسكم وبما في نفسي وسيجزي كلاً بما يستحق .

(١٦) الود ، مثلثة الواو : الحب والمودة . مكنون : مستتر ، كامن . كنت امنحكم مالي ومودتي مع علمي بما تكنه الصدور من المقت والبغض .

(١٧) بيني : فارقيني ، من البين : الفراق . يمثل الشاعر لشدة أنفته وعزة نفسه بقوله : إن كفه لو كرهت مصاحبته لاستغنى عنها وفارقها ، اي بترها .

صاحب النص ، مناسبة

صاحب هذه الأبيات هو حُرثان بن الحارث بن مُحرِّث الذي ينتهي نسبه الى عَدْوان فقيس عيلان . ولقب بذي الإصبع ، فيما يقال ، لأن حية نهسته في إصبعه . كان من فرسان قومه وشعرائهم وذوي الرأي فيهم .

وكانت قبيلة عدوان التي ينتسب اليها ذو الإصبع في عداد القبائل المنيعة الجانب ، الوافرة العديد ، فيروي الاصمعي انها نزلت على ماء فأحصوا فيها سبعين الف غلام أغْرَل (لم يختتن) ، ثم أغار حي منهم على حي آخر ، وأبوا قبول الديات ، فكان ذلك مبدأ حرب بعضهم بعضاً حتى تفانوا. ويظهر ان ذا الإصبع كان موقفه من هذه الحرب موقف الناصح الحكيم المحذِّر من سوء العقبى ولكنهم لم يصيخوا لمشورته ففني معظمهم فرثاهم ذو الأصبع بقصائد عدة من احداها قوله :

عذيرَ الحيِّ من عدوا — ن كانوا حيَّة الأرضِ
بغى بعضُهم بعضاً فلم يُبقوا على بعضِ

وكان لذي الإصبع ، فيما يروي ابو عمرو ، ابن عم يُعاديه « فكان يتدسَّسُ الى مكارهه ويمشي به الى أعدائه ويؤلب عليه ويسعى بينه وبين بني عمِّه ويبغيه عندهم شرّاً . » ، ولذلك كان ذو الإصبع يخاطب ابن عمه هذا بكثير من القصائد ، يهجوه فيها ويلومه ، كقوله فيه :

ولي ابنُ عمٍّ لا يزا — ل اليَّ منكرُهُ دسيسا
دبَّتْ له فأحسَّ ، بَعْـ ـد البُرْءِ من سقمٍ ، رسيسا

ويظهر ان الابيات التي ندرسها مقولة ايضاً في ابن عمه هذا ، كما يتضح من بعض ابياتها ، واسم ابن عمه عمرو كما يستدل من قوله له :

يا عمرو إلاّ تدعْ شتمي ومنقصتي — أضربك حتى تقول الهامة : اسقوني

وعليه لايسعنا الأخذ بما ذكره ابو عمرو من ان ذا الاصبع قال قصيدته هذه في مرير بن جابر الذي أبى قبول الدية في قتيل قومه وكان سبب قتال بني عدوان بعضهم بعضاً وتفانيهم (الا اذا فرضنا ان تصحيفاً طرأ على لفظ عمرو فانتقل الى مرير) .

وقد اورد له صاحب الاغاني قصة مع بناته الاربع حين اراد تزويجهن ، وهي قصة ظاهرة الانتحال . ثم يروي لنا ان ذا الاصبع عُمِّرَ حتى خَرِفَ وأهتر ، وانه كان كريماً يفرق ماله في الناس حتى لامه اصهاره وأخذوا على يده ، وانه لما حضرته الوفاة أوصى ابنه أُسَيْدا وصيةلاندري مبلغها من الصحة ويقول في آخرها ابياتاً اولها :

أأُسَيد إن مالاً ملكـ — تَ فسِر به سيراً جميلاً

هذا جل مانعلمه من حياة ذي الاصبع العدواني وأخباره ومناسبة ابياته .

نظرة ادبية

يفاخر ذو الاصبع العدواني ، في ابياته هذه ، ابن عمه الذي كان دائم الكيد له والحط من شأنه . فهو اذن لايفاخر ابن عمه بقبيلته وإنما يفاخره بخصاله الحميدة ومناقبه ومآثره ، فهو جواد لايغلق بابه دون الصديق ، وهو عفيف اللسان لاينطلق لسانه بالقول المنكر في ذوي قرباه ، وهو أبيّ النفس لايرتضي الهوان والمذلة ، وهو سديد الرأي يحتكم اليه ويؤخذ بمشورته .

في اسلوب ذي الاصبع جزالة ولكنها لاتسمو الى جزالة الشعر المضري الرفيع ، بل اننا نلمس في بعض تراكيبه لوناً من الضعف والاسفاف ينحدر بشعره الى مرتبة لغة المحادثة كقوله :

الله يعلمني والله يعلمكم — والله يجزيكم عني ويجزيني

ولو رجعنا الى كامل قصيدته (أمالي القالي ١ : ٢٥٥) لوجدنا له ابياتاً تكاد تكون اسلامية في افكارها مما نرجح معه ان قصيدة ذي الاصبع لم تنج من الانتحال .

وفي اسلوب ذي الاصبع بعض صور بيانية لاتخلو من جمال كالاستعارة في قوله : شالت نعامتنا ، والكناية في قوله : أضربك حتى تقول الهامة اسقوني . وقد اتكأ في ابياته هذه على الطباق والمقابلة كما في قوله :

فإن علمتم سبيل الرشد فانطلقوا — وان جهلتم سبيل الرشد فأتوني

وذو الاصبع ، على الجملة ، ليس من الشعراء المجلّين في العصر الجاهلي .

* * *

مصادر

١ — الأغاني جـ ٣ : ٨٩ . دار الكتب
٢ — الشعر والشعراء ص : ٢٧٠ . التجارية .
٣ — خزانة الأدب جـ ٢ : ٤٠٨
٤ — شعراء النصرانية ص : ٦٢٥

* * *

امرؤ القيس

(مختارات في وصف آماله وشجونه وطموحه)

من قصيدته التي اولها :

سَمَا بِكَ شوقٌ بعدما كان أقصرا   وحلَّتْ سُلَيمى بطنَ قوٍّ فعرْعَرا

* * *

١– تذكَّرْتُ أهلي الصالحين وقد أتَتْ   على خَمَلَى خُوصُ الرِّكابِ وأَوْجَرا

٢– فلما بدَتْ حَوْرانُ والآلُ دونَها ،   نظَرْتَ فلم تَنْظُرْ بعينَيْكَ منظَرا

---

(١) خملى وأوجر : موضعان . الخوص : الغائرة العيون والمفرد أخوص وخوصاء . الركاب : الابل واحدتها راحلة ، تذكرت أهلي بعد مفارقتي إياهم وقد بلغت إبلي الغائرة العيون خملى وأوجر. والالف في اوجر ضرورة شعرية لان الكلمة ممنوعة من الصرف للعلمية ووزن أفعل .

(٢) الآل : السراب . والآل ايضا الجبل . دونها : قبلها . لما بدت حوران لنا ، والسراب – او الجبل – قبلها نظرت اليها فلم تتبين منها شيئاً ، اما لبعدها واما لحيلولة الجبل دون ذلك ، او لان مارأيته كان سراباً خادعاً . وربما اراد انه نظر خلفه ليلقي نظرة على بلاده التي فارقها فلم ير شيئاً. والسراب ظاهرة ضوئية تبدو في المناطق الحارة ومرجعها الى ان الاشياء البعيدة تولد صورة معكوسة كما لو كانت تنعكس على صفحة الماء ، وذلك يحدث خاصة في الاراضي الفسيحة الرملية، كالصحراوات حين تشتد الحرارة نهاراً فتخف الكثافة في الطبقة الجوية التي تلامس الارض وحينئذ فالاشياء الكائنة في الافق تنكسر عدة انكسارات لاختلاف الكثافة فترى هذه الاشياء مقلوبة فيخيل للرائي انه على مقربة من ماء .

٣— تَقطَّعُ أسبابُ اللُّبانَةِ والهوى عَشيَّةَ جاوَزْنا حَماةَ فشَيْزَرا
٤— فَدَعْ ذا وسَلِّ الهمَّ عنكَ بجسرَةٍ ذَمُولٍ، إذا صامَ النّهارُ وهجَّرا
٥— تُقطِّعُ غِيطانًا كأنَّ مُتونَها، إذا أظْهَرَتْ، تُكْسَى مُلاءً مُنَشَّرا
٦— كأنَّ صَليلَ المَرْوِ حين تُشِذُّه صَليلُ زُيُوفٍ يُنْتَقَدْنَ بِعبقَرا
٧— عليها فتًى لم تَحمِلِ الأرضُ مِثلَهُ أبرَّ بميثاقٍ وأوْفى وأصبَرا
٨— ولو شاءَ كانَ الغزْوُ من أرْضِ حِميَرٍ ولكنَّهُ عمْداً إلى الرُّومِ أنْفَرا

---

(٣) الأسباب : الحبال واحدها سبب ، وهي مستعارة هنا لمعنى الرجاء والأمل . الأبانة: الحاجة والوطر . شيزر : قرية قرب المعرة في الشمال من بلاد الشام . لقد انقطع كل رجاء لنا بالمودة وخلفنا وراءنا حاجاتنا واشواقنا وهوانا حين جاوزنا حماة فشيزر .

(٤) الجسرة : الناقة القوية على السير ، الذمول من النوق : اللينة السير فلا تسرع ولا تبطئ . صام النهار : انتصف وقامت الظهيرة . هجر . اشتد حره وقت الهاجرة ، وهي منتصف النهار . دع ذكر الهوى وسلّ همومك بامتطائك ناقة قوية يتراخى سيرها حين يشتد الحر في الهاجرة . ومن عادة الشاعر الجاهلي ان يروح عن نفسه بركوبه ناقته ولذا كثر ورود هذه العبارة في شعره .

(٥) الغيطان : ج غوط وهو المطمئن من الارض . متونها : ظهورها . أظهرت : دخلت في الظهيرة . يريد : ان ضياء الشمس المنبسط فوق هذه الغيطان يبدو كالملاءات البيض المبسوطة.

(٦) المرو : الحجارة . تشذه : تفرقه وتنحيه من طريقها . الزيوف : الدراهم الزائفة . نقد الدراهم : ميّز جيدها من بهرجها . عبقر : موضع كان العرب يعتقدون انه مباءة للجن ، وكان ينسب اليه الوشي الجيد ثم نسبوا اليه كل ما هو جيد . ويظهر انه كان سوقاً للتبادل تكثر فيه الصيارف. شبه امرؤ القيس صليل الحجارة بصليل النقد الزائف .

(٧) عليها : اي على الناقة . فتى : يريد نفسه . ابر : اوفى . الميثاق : العهد . يفاخر بنفسه فيقول ان على ناقته فتى ليس على وجه الارض فتى مثله وفاءً بالعهد وصبراً .

(٨) حمير : يريد بها قبائل اليمن . أنفر : طلب النفير والنصرة . يريد انه لو شاء لغزا بني اسد بجموع من اليمن ولكنه آثر ان يغزوهم بجموع من الروم .

٩- بكى صاحبي لمّا رأى الدّرْبَ دونَهُ ... وأيقنَ أنّا لاحقانِ بقيصرا

١٠- فقلتُ له: لا تبكِ عينُكَ، إنّما ... نُحاوِلُ مُلْكاً أو نموتَ فنُعذَرا

١١- وإنّي زعيمٌ، إنْ رجعتُ مُملَّكاً ... بسيرٍ ترى منه الفُرانِقَ أزْوَرا

١٢- على لاحِبٍ لا يُهتَدى بمنارِهِ ... إذا سافَهُ العَوْدُ النُّباطيُّ جرْجَرا

١٣- على كلِّ مقصوصِ الذُّنابى مُعاوِدٍ ... بَريدَ السُّرى باللّيلِ مِنْ خيلِ بَرْبَرا

١٤- أقبَّ كَسِرْحانِ الغَضى مُتَمطِّرٍ ... ترى الماءَ من أعطافِهِ قد تحدَّرا

---

(٩) صاحبي: يريد به عمرو بن قميئة اليشكري؛ وهو شاعر معروف قيل انه رافق امرأ القيس في رحلته ومات إبانها. بكى صاحبي حين ادرك اننا انتوينا السفر الى بلاد الروم للاستنجاد بقيصر.

(١٠) فقلت له لا تبك لأنني في طلب ملكي المسلوب فإما ان ادركه وأما ان أبيد دونه فأعذر، و (أو) هنا هي الناصبة بأن مقدرة بعدها، فهي بمعنى (الى) او (إلا).

(١١) زعيم: كفيل، ان رجعت مملكاً: ان عاد لي ملكي بعد هذه الرحله. الفرانق: الدليل. الأزور: الذي يميل الى جانبه اذا اشتد السير. يعد امرؤ القيس صديقه بأنه اذا ضمن له قيصر عودة ملكه فسيرجع مسرعاً اسراعاً يميل بالدليل عن ناقته.

(١٢) اللاحب: الطريق. لايهتدى بمناره: ليس له منار يهتدى به. سافه يسوفه: شمّه. العود: الجمل المسن. النباطي: منسوب الى النبط. جرجر: رغا وضج، قوله: على لاحب، متعلق بسير في البيت السابق، اي بسير سريع في طريق ما ألف اجتيازه حتى ان الجمل المسن الذي خبر الطرق لكثرة ترحاله اذا شم هذا الطريق رغا انكاراً وخوفاً.

(١٣) على كل مقصوص الذنابى: متعلق ايضاً بسير. مقصوص الذنابى: الخيل المقصوصة الذيل وهي خيل البريد، ولم يذكر كلمة الخيل اجتزاءً بالصفة عن الموصوف. معاود بريد السرى: الذي اعتاد السير ليلاً. بربر: قبيله اشتهرت بالقيام على خيل البريد. سوف نعود مع تطين هذه الجياد السريعة.

(١٤) أقب: ضامر. السرحان: الذئب. الغضى: شجر تنسب اليه الذئاب الخبيثة (انظر شرح البيت الخامس من قصيدة طرفة). متمطر: صفة للفرس المسرع. الماء: (هنا) العرق. أعطافه ج عطف: جوانبه. تحدّر: تصبّب. يصف هذا الجواد بأنه ضامر كذئب الغضى، مسرع يتصبب منه العرق لسرعة جريه.

١٥ – لقد أنكرتني بعلبكُّ وأهلها ... ولاَبنُ جُرَيج في قُرى حِمص أنكرا

١٦ – نَشيمُ بروقَ المُزْنِ أينَ مَصابُهُ ... ولا شيءَ يَشفي منك يا ابنة عفزرا

١٧ – من القاصراتِ الطرفِ لو دبَّ مُحوِلٌ ... من الذرّ فوقَ الإتبِ منها لأثَّرا

١٨ – إذا قلتُ: هذا صاحبٌ قد رضيتُهُ ... وقرّتْ بهِ العينانِ بُدِّلتُ آخرا

١٩ – كذلك جَدّي ما أُصاحِبُ صاحباً ... من الناسِ إلاّ خانني وتغيّرا

٢٠ – وكنّا أُناساً قبلَ غزوةِ قرملٍ ... وَرِثنا الغِنى والمجدَ أكبرَ أكبرا

---

(١٥) يريد: انكرني أهل بعلبك ولم يعرفوا قدري وكذلك ابن جريج هذا. ويظهر ان امرأ القيس كان يتوقع ان يستقبل استقبالاً حافلاً في الاماكن التي يجوز بها.

(١٦) شام البرق: نظر اليه ليعرف اين يمطر. بروق المزن: البروق التي يصاحبها المطر. مصابه: موقعه والضمير فيه عائد على المزن. يريد: ننظر الى البرق لنعرف اين يصوب مطره فلعله يقع في ديار من نحب، ولكن هذا ايضاً لايشفيه من وجده الى ابنة عفزر التي يهواها.

(١٧) القاصرة الطرف: من لاتنظر الى غير بعلها. المحول: الذي حال عليه الحول. الذر: صغير النمل. الاتب: القميص. يريد: ان جسمها من النعومة بحيث يؤثر فيه دبيب صغار النمل، والبيت فيه كناية.

(١٨) قرت عينه: مأخوذة من القرّ وهو البرد لأن العين اذا بردت فذلك كناية عن السرور لأنها تسخن في البكاء، او هي مأخوذة من قرّ بمعنى هدأ وسكن. ويراد بها السرور.

(١٩) الجَد: الحظ. يشكو امرؤ القيس في هذا البيت وسابقه من سوء جده فهو كلما صاحب صاحباً يرتضيه لايلبث ان يفارقه او يخون موِدته.

(٢٠) قرمل: احد أقيال حمير باليمن. وكان امرؤ القيس قصده لينصره على بني أسد الذين قتلوا أباه فأمده بأخلاط من العرب وشذاذ القبائل. اكبر اكبر: كبيراً عن كبير وكابراً عن كابر. نحن قوم اشراف توارثنا الغنى والمجد قبل غزوة قرمل كابراً عن كابر.

* * *

دراسة الأبيات

١ – جو النص

صاحب النص

قائل هذه القصيدة هو امرؤ القيس ، حندج بن حجر الكندي ، قبيلته كندة قبيلة يمانية هاجرت الى الشمال وأنشأ جده ، آكل المرار ، إمارة بنجد اضمحلت في عهد خلفائه ، وكان حجر ، ابو امرئ القيس ، مملكاً على بني أسد في نجد ، وكان يفرض عليهم إتاوة في كل سنة ، فامتنعوا من دفعها في بعض السنين ، فنكل بهم شر تنكيل ، مما أوغر صدرهم عليه ودفعهم الى الفتك به .

وكان امرؤ القيس ينفق وقته في الشراب واللهو ومعاشرة النساء ، صنيع أبناء الملوك ، ولم يكن ابوه راضياً عن سيرته هذه العابثة ، فلما أتى امرأ القيس نعي ابيه قام للاخذ بثأره ، على سنة العرب ، فنصره جماعة من أقاربه ومن شذاذ القبائل ثم تخلوا عنه ، وطارده اعداؤه واستعانوا بكسرى . ويظهر انه كانت لامرئ القيس صلة وثيقة بالروم نتبينها من شعره ومما رواه مؤرخو الروم ، فكان طبيعياً أن يلجأ الى الامبراطور يوستنيانوس في القسطنطينية يستنجد به لاسترداد ملكه ، ولا يبعد ان يكون الامبراطور هو الذي استدعاه عملاً بنصيحة الحارث بن أبي شمر الغساني والي بادية الشام ، فيما يذكر بعض المؤرخين ، ليستعين به على المناذرة في الحيرة وعلى الفرس . فارتحل الى القسطنطينية حوالي عام ٥٣٠ م ويروي مؤرخو الروم انه استعمل على الشام وعلى القبائل التي تعيش على الحدود ، وانه لقب بلقب « فيلارق » اي الوالي . ولكنه توفي في أنقرة فيما بين عامي ٥٣٠ و ٥٤٠ ، في أثناء رحيله لتولي منصبه هذا . ويروي المؤرخ الروماني نونوز أنه أصيب بالجدري وكان سبب وفاته .

حاك العرب حول حياة امرئ القيس اساطير كثيرة منها اسطورة الحلة المسمومة التي يزعمون ان قيصر ارسلها اليه لانه شبب بابنته ولذا لقبه العرب بلقب « ذي القروح » ولعل منشأ هذه القروح مرض الجدري الذي أصابه . وكذلك أضاف اليه الرواة كثيراً من الاشعار مما دفع بعض

المستشرقين الى القول إن اشعار امرئ القيس لم تصلنا في وزنها الاصلي ، وخالفهم في ذلك آخرون منهم سير تشارلز ليال S. C. Lyall وأنكر الدكتور طه حسين أغلب الشعر المنسوب اليه ورجح انه افتعل في الاسلام للاشادة بقبيلة كندة، ورأيه لايخلو من غلو .

مناسبة النص ، الزمان ، المكان

فتك بنو أسد ، وهم من عرب الشمال بحجر ، ابي امرئ القيس الكندي اليمني ، الذي كان اميراً عليهم ، فهب ابنه امرؤ القيس الاخذ بثاره واستنجد بقبيلة اخواله : تغلب وبقبائل اخرى، فأعانوه حيناً ثم تخلوا عنه . وطارده اعداؤه فلجأ الى القيصر يوستنيانوس في القسطنطينية يطلب منه العون والنجدة ، ورافقه في رحلته هذه الشاعر عمرو بن قميئة اليشكري وقيل انه مات اثناءها . ويظهر من القصيدة ان امرأ القيس قالها وهو في ضواحي حلب ، حوالي عام ٥٣٠ م ، وهي السنة التي يذكر مؤرخو الروم ان امرأ القيس وصل فيها الى القسطنطينية .

٢ — التحليل الادبي

الاقسام والافكار العامة

من العسير ان نجد في هذه القصيدة ، وغيرها من القصائد الجاهليـة ، اقساماً واضحة متميزة ، ولم تكن هناك فكرة عن وحدة الموضوع في القصيدة ، بل على العكس كانت تقاليد القصيدة تقضي بالجمع بين موضوعات متعددة فيها (انظر ماقلناه عن الشعر الجاهلي) . وهناك سبب آخر لفقدان الترتيب المنطقي في القصيدة الجاهلية هو اننا لانطمئن الى ان الشعر الجاهلي قد وصلنا مرتباً على النحو الذي جاء به الشاعر ، ويدلنا على ذلك اختلاف ترتيب الابيات باختلاف الروايات .

في هذه الابيات التي ندرسها نجد امرأ القيس يعبر اولاً عن شوقه الى أهـله وحنينه الى ديار الوطن ، ثم ينتقل الى وصف الناقة والطريق والفخر بنفسه . ثم يحاور صاحبه ويعده بالاسراع في العودة بعد استرجاعه الملك فيصف له طريق العودة والخيل التي ستحملهما . ثم يتذمر الشاعر من انكار اهل بعلبك وحمص له ، وينهي ابياته بإظهار حنينه الى ابنة عفزر وبالشكوى من تغير خلانه وسوء جده وبالفخر بقومه . (والابيات الثلاثة الاخيرة تذكرها بعض الروايات في اول القصيدة لا آخرهـا) .

العاطفة

من الواضح ان العاطفة المهيمنة على هذه الابيات هي اولاً عاطفة الحنين والشوق الى الأهل والديار ، هذه العاطفة القوية المشبوبة في نفس كل عربي والتي تراوده كلما نزح عن دياره . وما وصف الاطلال في مطالع القصائد الا صورة لهذا الحنين العارم الذي تجيش به نفس العربي نحو وطنه ودياره . وهذا الحنين لاينفرد به الشاعر بل يشاطره فيه صاحبه الذي رافقه في رحلته والذي لم يملك نفسه من البكاء حين أيقن أنهما متجهان الى قيصر .

وامرؤ القيس في هذه الأبيات مهموم حزين لمقتل أبيه وضياع ملكه ، وهو يلجأ الى ناقته ليسلي بها همومه ويروح بها عن نفسه ، وكان يخفف من حزنه يقينه باسترداد ملكه بمعونة قيصر . وأبياته تشف عما يكنه في نفسه من آمال وما يجيش في صدره من مطامح .

الأسلوب

ينسب أدباء العرب الى امرئ القيس اوليات اسلوبية سبق اليها وكان فيها رائد شعراء الجاهلية كقولهم: هو اول من وقف واستوقف وبكى واستبكى وذلك في قوله : قفانبك . ومع تسليمنا بكثرة ورود هذه العبارة في شعره لايمكننا ان نقطع بأنه اول من سبق اليها لما قدمناه في كلامنا على الشعر الجاهلي وقدمه .

واذا نظرنا في الفاظ القصيدة تبينا سهولتها وقربها من اللغة القرشية ، وهذا ماحمل بعض المستشرقين وبعض ادبائنا على الشك في صحة شعر امرئ القيس ، لأنه كان يمني الاصل ، ولأن لغة اليمن كانت تغاير لغة شمال الجزيرة العربية . ولكن الباحثين ذهبوا ايضا الى ان لغة ادبية واحدة او متقاربة كانت سائدة في الجزيرة العربية حوالي منتصف القرن السادس الميلادي ، مع عدم تسليمنا بان شعر امرئ القيس واكثر الشعر الجاهلي لم يصلنا سالماً من التحريف والانتحال .

فالالفاظ في جملتها سهلة بعيدة عن الغرابة ، وما بدا منها عويصاً فمرده الى بعدنا عن عصر امرئ القيس ، والحكم بسهولة الالفاظ او غرابتها ينبغي ان يقاس بمقياس العصر الذي وجدت فيه لا بمقياس عصرنا ، وربما لم يلائم ذوقنا لفظ « ابنة عفزر » في موضع الغزل ، لان الغزل يحتاج الى الفاظ رقيقة ذات وقع مستعذب في السمع .

وكذلك التراكيب لانرى فيها تعقيداً يشوه المعنى او يجعله غامضاً . وهذه السهولة في الألفاظ ،

وهذا الوضوح في التراكيب ، مما يمتاز به اسلوب امريء القيس .

فاذا نظرنا في الصور البيانية وجدنا التشبيه يحتل المقام الأول فيها . وتعزى الى امرىءالقيس ابتكارات في التشبيه كان الشعراء بعده عالة عليه فيها ، فيما يذكر مؤرخو الأدب ، وذلك كتشبيهه عدو الخيل بتقييد الأوابد . وفي هذه القصيدة طائفة من التشابيه في الأبيات الخامس والسادس والرابع عشر ، فهو يشبهمتون الأرض وقد انتشرت فوقها اشعة الشمس وقت الظهيرة بملاءات بيض فرشت فوقها ، ويشبه صليل الحجارة التي تقذفها قوائم الناقة بصليل النقود الزائفة ، ثم يشبه فرسه بالذئب الضاري في ضموره وسرعته . وهذه التشبيهات كلها منتزعةمن البيئة العربيةالفقيرةبصورها، الرتيبة بمشاهدها ، فلا ينبغي لنا ان نطالب الشاعر الجاهلي بأن يكون اكثر دقة في تشبيهاته لأنه في الواقع كان دقيقاً في اختيارهـــا بقدر ماتسمح له بيئته . وما نلاحظه من سذاجة في التشبيه احياناً مرده الى بساطة الحياة الجاهلية نفسها والى سذاجة العقلية العربية ، وقد قدمنا ان التشبيه اولى مراحل الافتنان في التعبير وأبسط الصور البيانية .

وهناك صور بيانية اخرى اوردها الشاعر كقوله : تقطع أسباب اللبانة والهوى (تجسيم = استعارة مكنية) ، بسير ترى منهالفرانق أزورا (كناية عن شدة السرعة) . على لاحب ...البيت (كناية عن ان الطريق مخوف) ، على كل مقصوص الذنابى (كناية عن انهامن خيل البريدالسريعة)، من القاصرات الطرف (كناية عن ان هـــذه المرأة محتشمة وفية) ، لو دب محول من الذر فوق الإتب منها لأثر (كناية عن شدة نعومة جسدها) ، ...

ولا تخلو معانيه من بعض المبالغات ، لاسيما وان امرأ القيس كان شديد الاعتداد بنفسه ولذلك يقول : عليها فتى لم تحمل الأرض مثله . واستفاضة الصور البيانية فيشعر امرىء القيس تنبئنا بأنه كان ذا مخيلة خصبة فياضة بالصور ، قديرة على الابتكار والابداع . وكل هذه الخصائص طبعت اسلوب امرىء القيس بطابع خاص يمتاز به من سائر الشعراء الجاهليين .

قيمة الأبيات ومنزلة الشاعر

ينسب مؤرخو الأدب العربي الى امرىء القيس اوليات اشرنا اليها ، فيقولون انه « اول من وقف واستوقف وبكى واستبكى » وذلك كله بقوله : قفا نبك ، ونجدهفي مطلع معلقته :

قِفَانَبْكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ　　بسقط اللوى بين الدَّخولِ فحومَلِ

وانه اول من قيد الأوابد ، اي الوحوش ، بقوله :

وقد أغتدي والطيرُ في وُكُناتِها ... بمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأوابِدِ ، هيكلِ

وعدَّد ابن سلاَّم مبتدعات امرئ القيس فقال : « فاحتج لامرئ القيس من يقدمه فقال : ليس أنه قال مالم يقولوا ولكنه سبق العرب الى أشياء ابتدعها استحسنتها العرب واتبعته فيها الشعراء، منها استيقاف صحبه ، والبكاء في الديار ،ورقة النسيب ، وقرب المأخذ، وشبه النساء بالظباء والبيض، وشبه الخيل بالعقبان والعصي وقيد الأوابد ، وأجاد في التشبيه ، وفصل بين النسيب وبين المعنى ، وكان أحسن طبقته تشبيهاً .. »[1].

وهذه الميزات نجدها مستفيضة حقاً في شعر امرئ القيس ، ولا ندري أكان السابق اليها او انه حاكى فيها ، او في بعضها ، من سبقه من الشعراء الذين لم تنته الينا اشعارهم ، ومن ابياته التي درسناها نتبين ما كان عليه من دقة الوصف وجمال التصوير وسعة الخيال ورقة الاسلوب ، وشدة العناية بالصور البيانية ، ولا سيما التشبيه والكناية . واذ كانت بيئة امرئ القيس تجمع بين البداوة والحضارة فقد تلون شعره بألوان مختلفة ، فمن صوره الحضرية في هذه الابيات قوله : ان دبيب صغار النمل فوق قميص فتاته يؤثر في جسدها . وابياته هذه تصور لنا البيئة التي كان يعيش فيها خير تصوير .

وفضلا عما وقفنا عليه في ابيات امرئ القيس هذه من ميزاته فانه كان الى ذلك رائد الشعراء المتغزلين في الجاهلية ، وكان غزله لايخلو من تعهر ، وقد اوجد نوعاً من القصص الغزلي عرف به وتبعه فيه الشعراء بعده ، ولكنه لم يبلغ فيه مابلغه عمر بن ابي ربيعة في العصر الاسلامي .

كل هذه الميزات دفعت النقاد الى وضع امرئ القيس في الطبقة الاولى من شعراء الجاهلية مع النابغة الذبياني وزهير والاعشى ، ولكنهم اختلفوا في ايهم يقدم على أصحابه ويظهر ان نقاد البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس ونقاد الكوفة يقدمون الاعشى ، اما نقاد الحجاز فكانوا يقدمون زهيراً والنابغة .

* * *

(١) طبقات الشعراء ص : ٢٦ .

نموذج للدراسة من شعر امرىء القيس

قال يتحدث عن آماله ولذّاته في الحياه :

١ أَصْبَحْتُ وَدَّعْتُ ٱلصِّبَا غيرَ أنني　　أُراقِبُ خَلَّاتٍ من ٱلعَيْشِ أَرْبَعا
٢ - فمِنْهُنَّ قَوْلِي لِلنَّدَامَى تَرَفَّقُوا　　يُدَاجُونَ نَشَّاجًا مِنَ ٱلخَمْرِ مُتْرَعا
٣ - ومِنْهُنَّ رَكْضُ ٱلخَيْلِ تَرْجُمُ بِالقَنَا　　يُبَادِرْنَ سِرْبًا آمِنًا أَنْ يُفَزَّعا
٤ - ومِنْهُنَّ نَصُّ ٱلعِيسِ، واللَّيْلُ شَامِلٌ　　يَيَمَّمْنَ مَجْهُولًا مِنَ الأَرْضِ بَلْقَعا
٥ - خَوَارِجَ مِن بَرِّيَّةٍ نَحوَ قَرْيَةٍ　　يُجَدِّدْنَ وَصْلًا أو يُرَجِّيْنَ مَطْمَعا

---

(١) ودعت الصبا : ودعت ايام الشباب وكبرت عن التصابي . أراقب : انتظر . خلات : ج خلّة وهي الحاجة والخصلة . لقد فارقت ايام الصبا ولكني اعيش مترقباً اموراً اربعة .

(٢) الندامي : ج نديم ، صحبة الشراب . ترفقوا : لاتسرفوا (في شرب الخمر) . يداجون: يسايرون ويدارون . وربما اريد بها انهم يشربون في الدجى . نشاج : صفة للزق اذا غلت فيه الخمر . المترع : المليء . اولى الخلال التي اعيش لها شرب الخمر مع ندامى يداجون زقاً مترعاً قد غلى مافيه من الخمر .

(٣) ركض الفرس : استحثاثه للعدو . الرجم : القذف . وفرس مرجم : يرجم الأرض بحوافره . القنا : الرماح . السرب : القطيع من البقر او الظباء . اللذة الثانية اتي اراقبها هي الصيد على ظهر خيل تفاجىء بها القطيع الآمن من الفزع فترميه بالرماح .

(٤) نص الراكب ناقته : حملها على الاسراع في السير . العيس : الابل ، ج أعيس وعيساء، وهي في الأصل صفة للنوق التي يخالط بياضها شقرة . يمّم : قصد . البلقع : القفر ، يريد : ثالث اللذات التي اعيش لها ركوب العيس في الليل الشامل الظلام والضرب في الاراضي القفر المجهولة .

(٥) البرّية : الفضاء القفر والجمع براري . يريد انه يخرج على هذه الابل قاصداً المناطق الآهلة، وغايته تجديد وصل حبيب او الوقوع على مغنم .

٦ – ومنهن سوف الخود قد بلها الندى		تراقب منظوم التمائم ، مرضعا

٧ – يعز عليها ريبتي ويسوؤها		بكاه فتثني الجيد أن يتضوعا

٨ – بعثت إليها والنجوم ضواجع		حذاراً عليها أن تهب فتسمعا

٩ – فجاءت قطوف المشي هيابة السرى		يدافع ركناها كواعب أربعا

١٠ – يزججنها مشي النزيف وقد جرى		صباب الكرى في مخها فتقطعا

* * *

(٦) السوف : الشم . الخود : الشابة الغضة الناعمة والجمع خود . التمائم : ج تميمة وهي مايعلق في عنق الطفل من خرز ونحوه دفعاً للعين . المرضع : الرضيع . من لذاتي شم الشابة الناعمة صباحاً قد بلها الندى وهي تنظر الى رضيعها الذي نظمت التمائم في عنقه . ويقصد بذلك ان لذته الرابعة هي معاشرة النساء .

(٧) الريبة : الشك والارتياب . الجيد : العنق . تضوع الصبي : تضور من البكاء . يعز على هذه الشابة ان ارتاب بحبها لي ويسوؤها بكاء طفلها فتلتفت نحوه خيفة ان يبكي فيفضحها بكاؤه .

(٨) الضاجع : صفة للنجم المائل المغيب . الحذار : الحذر . تهب : تنهض من مرقدها . ارسلت في طلبها حين مالت النجوم الى المغيب ، قبيل الفجر ، خيفة ان تهب من مرقدها فيسمعها من حولها .

(٩) القطوف : المتقاربة الخطى . السرى : السير ليلاً . ركناها : جانباها . كواعب : ج كاعب وهي صفة للفتاة المرتفعة الثدي . جاءته متمهلة تمشي محاذرة ، خائفة من المشي ليلاً ، والى جانبيها اربع فتيات كواعب .

(١٠) زججاه : دفعه دفعاً خفيفاً . النزيف : الثمل المخمور . صباب الكرى : بقية النعاس . كانت تمشي ، لما بها من اثر النعاس ، مشية السكران المخمور وصواحبها يدفعنها دفعاً رفيقاً .

وفي القصيدة بعد هذا اربعة ابيات تمثل ناحية التهور في غزل امرىء القيس .

مصادر

١ – المصادر العامة للشعر الجاهلي والمعلقات.

٢ – ديوان امرئ القيس طبع دوسلان ، باريس ١٨٣٧ ، او شرح البطليوسي على ديوان امرئ القيس ، طبع القاهرة . او شرح ديوان امرئ القيس للسندوبي، القاهرة١٩٣٦. وكذلك في دواوين الشعراء الستة الجاهليين .

طبع ابن الورد Ahlwardt ، لندن ١٨٧٠ .

٣ – الاغاني ج ٩ : ٧٧ ، طبعة دار الكتب.

٤ – خزانة الادب للبغدادي . ج ١ : ٢٩٩ ، طبع السلفية .

٥ – مزدكية امرئ القيس ، لويس شيخو ، مجلة المشرق ج ٨ سنة ١٩٠٥ .

٦ – دين امرئ القيس : انستاس الكرملي ، مجلة المشرق ، ج ٨ سنة ١٩٠٥ .

٧ – الملك الضليل : فريد ابو حديد .

٨ – امرؤ القيس : سليم الجندي . (سلسلة عمدة الادب) .

٩ – مقدمة الالياذة ، سليمان البستاني ، مصر ١٩٠٤.

١٠ – Perron : Femmes Arabes P. 91

النابغة الذبياني

(نماذج في المدح والاعتذار والوصف)

ترجمته

اسم النابغة الذبياني زياد بن معاوية ، والنابغة لقبه ، وهناك روايات عديدة لتفسير لقبه هذا ، ولا طائل وراء هذا البحث . عاش النابغة في النصف الأخير من القرن السادس ومات قبيل البعثة ، ولا يمكن معرفة سنة ولادته او وفاته على وجه الدقة ، شأن اكثر الجاهليين ، ويستظهر دوپرسفال ان ولادته كانت عام ٥٣٥ م . ويحدد لويس شيخو وفاته بسنة ٦٠٤ م ، وليس ثمة مايجعلنا نجزم بصحة هذين التاريخين .

ينتسب النابغة الى قبيلة ذبيان فغطفان فقيس عيلان ، ولانعرف الشيء الكثير عن حياته قبل اتصاله بالمناذرة والغساسنة ، ويزعم ابو الفرج الأصفهاني وابن قتيبة انه احد الأشراف الذين غض الشعر من شأنهم ، وليس هناك مايؤيد هذا الزعم ، ولوصح انه كان من اشراف قومه لما غض الشعر منه لأنه لم يمدح الا الملوك .

كانت تقوم في ذلك العهد على تخوم البلاد العربية إمارتان عربيتان : امارة الحيرة الخاضعة لنفوذ الفرس وكان يتولاها المناذرة اللخميون ، وإمارة غسان الخاضعة لنفوذ الروم في الشام ، وكان يتولاها الغساسنة الأزديون ، وكلا الغساسنة والمناذرة من عرب الجنوب الذين هاجروا الى الشمال .

وكان بين الغساسنة والمناذرة وقائع متصلة يثيرها الروم والفرس ، ومن اشهرها يوم حليمة ويوم عين أباغ ، وكانا لبني غسان على المناذرة . وكانت بعض قبائل العرب تشترك في وقائع هاتين الإمارتين ، او تستفيد من هذه المداوة فتغير على ارض احداهما ثم تلجأ الى اراضي الامارة الاخرى وقد لاقى النابغة عناءً كثيراً من جراء هذا العدوان لأن قبيلته واحلافها كانوا كثيراً ما يغيرون على مناطق الغساسنة فيضطر الى الشفاعة بهم لاستنقاذهم من الأسر .

أما صلة النابغة بالإمارتين فلا نتبينها واضحة قبل اتصاله بأبي قابوس النعمان بن المنذر (الذي امتدت امارته من سنة ٥٨٠ الى ٦٠٢ م على التقريب) . ولكن مما لاريب فيه ان النابغة اتصل قبل ذلك بكل من الغساسنة والمناذرة كما يستدل من ديوانه ، كقوله مثلا مخاطباً النعمان في بعض اعتذارياته:

ولكنني كنتُ امرءاً لي جانبٌ   من الأرضِ فيهِ مستراد ومذهبُ

ملوكٌ وإخوان اذا ما أتيتهم   أحكمُ في أموالِهم وأُقرّبُ

ويبدو أن النابغة ، على الرغم من انقطاعه الى النعمان بن المنذر ، كان يتردد على الغساسنة في الشام يمدحهم وينال جوائزهم ، ولاشك ان النعمان ما كان ليرضى عن اتصال شاعره باعدائه ومدحه إياهم ، وكان الشعراء الذين ينفسون على النابغة منزلته عند النعمان يهتبلون الفرص ليكيدوا للنابغة ويوغروا صدر النعمان عليه بالوشايات الكاذبة ، وكان من هؤلاء الوشاة مرة بن سعد بن قريع بن عوف واليه يشير النابغة بقوله في بعض اعتذارياته :

لعَمري ، وما عمري عليّ بهينٍ   لقد نطقت بُطلاً عليّ الأقارع

وربما حمل هؤلاء الشعراء على النابغة شعراً في هجاء النعمان وفي وصف المتجردة ، زوجه ، مما جعل النعمان ينقم على شاعره ويتوعده ، ويبلغ النبأ النابغة فيرسل القصيدة تلو القصيدة في تكذيب هذه الوشاية .

على هذا النحو نتصور اتصال النابغة بالنعمان بن المنذر ، وهذا مانستدل له من دراسة ديوانه ، اما هذه القصص المطولة التي ترويها كتب الأدب عن هذه الصلة وعن المتجردة وعن سيف مرة ابن سعد فكلها من نسج الخيال واختلاق الرواة .

وقد انقطع النابغة الى الغساسنة بعد غضب النعمان عليه فاتصل اول الامر بعمرو بن الحارث ، وكان متصلاً بابيه قبله بدليل قوله في بعض مدائحه :

عليّ لعمرو نعمةٌ بعد نعمة   لوالده ليست بذات عقارب

ولما توفي عمرو (حوالي سنة ٥٩٧) اتصل النابغة بخليفته النعمان السادس ، وفي عهده كثرت إغارة قوم النابغة واحلافهم على اراضي الغسانيين ، فكان النابغة يضطر الى الشفاعة لهم مرة بعد مرة ثم قتل النعمان السادس في بعض غزواته (حوالي سنة ٦٠٠) ورثاه النابغة ، ثم عاد بعد ذلك الى بلاط النعمان بن المنذر في الحيرة بعد ان رضي هذا عنه وقبل اعتذاره . وتروي اقاصيص كثيرة حول

هذه العودة واكثرها مما لايوثق به ، وزعموا ان النابغة رجع الى النعمان حين بلغه انه عليل لا يرجى

وفي اثناء اقامة النابغة لدى الغساسنة اجتمع بحسان بن ثابت الذي كان كثير التردد على اقربائه بني غسان ، ولكن ما ينسبه المؤرخون الى حسان من تفضيله النابغة على نفسه حين اجتمع به هناك اوفي بلاط المناذرة ، كله من افتعال الرواة ، لما نعلمه من شدة اعتداد حسان بشعره واعتزازه بنفسه.

لم تطل إقامة النابغة عند النعمان لان كسرى نقم على واليه وانفذ جيشاً في طلبه وظفر به بعد حين وقتله حوالي سنة ٦٠٢ م . ولذلك لانجد للنابغة شعراً يشير الى عودته ورضى النعمان عنه . ولاتبين اخبار النابغة واضحة بعد ذلك وإنما نعلم أنه توفي بعد أن أسن وكانت وفاته قبيل البعثة النبوية .

وفي اثناء اقامة النابغة في بلاط الغساسنة والمناذرة كان يتردد على المواسم والاسواق فتضرب له قبة من أدم في سوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه اشعارها ويحكم بينهم ، وممن احتكم اليه حسان بن ثابت والخنساء .

المديح والوصف

قال يمدح عمرو بن الحارث الغسّاني

١ - كِليني لِهَمٍّ ، يا أُمَيْمَةَ ، ناصِبِ   ولَيْلٍ أُقاسيهِ بَطيءِ ٱلكواكِبِ

٢ - تَطاوَلَ حتى قُلْتُ ليسَ بمُنْقَضٍ   ولَيس ٱلذي يَرعى ٱلنُّجومَ بآيِبِ

٣ - وصَدْرٍ أَراحَ الليلُ عازِبَ هَمِّهِ   تَضاعَفَ فيهِ ٱلحُزْنُ مِنْ كُلِّ جانِبِ

٤ - عليَّ لِعَمْرٍو نِعْمَةٌ ، بعدَ نِعْمَةٍ   لِوالِدِهِ لَيْسَتْ بِذاتِ عَقارِبِ

---

(١) كليني : دعيني ، من وكَلَه يكله . يا أميمةَ : كان الحق أن يقول : يا أميمةُ ، بالبناء على الضم ، لأنه منادى مفرد علم ، ولكن الرواية جاءت بالفتح ، ويخرّجها النحاة على نية الترخيم . ناصب : متعب . بطيء الكواكب : كناية عن طوله . دعيني يا أميمة لهم متعب وليل طويل ، ولا يطول الليل على المرء الا اذا كان محزوناً مهموماً .

(٢) يرعى النجوم : يرقبها . آيب : عائد . منقض : منته . طال هذا الليل علي حتى ظننت انه لن ينتهي ، وان الذي يرقب النجوم منتظراً انصرام الليل لن يعود .

(٣) أراح : ردّ ، أرجع ، من أراح الرجل إبله اذا عاد بها عشية . عازب : ناءٍ ، بعيد . (وصدر) معطوفة على (ليل) في البيت الاول اي دعيني لهم وليل وصدر حمل الليل اليه ما كان نائياً من همومه وقد تكاثرت عليه الهموم . والهموم تراود المرء ليلاً حين يخلو الى نفسه فاذا جاء النهار واختلط بالناس سلا عنها .

(٤) عمرو : هو عمرو بن الحارث ، ووالده هو الحارث السادس . ليست بذات عقارب : لا يكدّرها مَنّ . يقر النابغة بفضل عمرو بن الحارث وأبيه عليه وما أفاضاه عليه من نعم لا يشوبها المنّ .

٥ - وَثِقْتُ لهُ بالنَّصْرِ إذْ قِيلَ قدْ غزَتْ   كتائبُ مِنْ غسّانَ غيرُ أشائبِ

٦ - إذا ما غزَوْا بالجيْشِ حلَّقَ فوقَهُمْ   عصائبُ طيْرٍ تهتدي بعصائبِ

٧ - تراهنَّ خلفَ القوْمِ ، خُزْراً عيونُها   جُلوسَ الشُّيوخِ في ثيابِ المرانبِ

٨ — جوانحَ ، قدْ أيْقنَّ أنَّ قبيلَهُ   إذا ما التقى الجمْعانِ ، أوّلُ غالبِ

٩ — لهُنَّ عليْهمْ عادةٌ قدْ عرَفْنَها   إذا عُرِضَ الخطّيُّ فوقَ الكواثبِ

١ - على عارفاتٍ للطِّعانِ ، عوابسٍ   بهِنَّ كُلومٌ بينَ دامٍ وجالبِ

---

(٥) كتائب : ج كتيبة وهي الفرقة من الجيش . أشائب : ج أُشابة وهي الاخلاط والفل : أشب يأشِب اي مزج وخلط . يتحدث النابغة هنا عن وقائع الغساسنة مع اعدائهم المناذره ، وكان النصر حليف الغساسنة في اكثر هذه الوقائع ، فيقول انه حين سمع ان كتائب من اقحاح بني غسان قد غزت اعداءها أيقن لها بالنصر .

(٦) عصائب : ج عصابة وهي الجماعة . اذا نهضوا للغزو حلقت فوقهم اسراب من الجوارح لتأكل من لحوم القتلى .

(٧) الخزر : ج أخزر وهو الضيّق العين او الذي ينظر بمؤخر عينه . المرانب : أكسية من جلود الأرنب او من غيرها ؛ يقال : كساء مرنباني اي بلون الأرنب وكساء مَرْنب ومُؤَرنب خلط وبره بغزله . شبه الجوارح التي تحلق فوق الجيش ، وقد حددت نظرها وضيقته لترى من بعيد وتهيأت للانقضاض ، بشيوخ عليهم الاكسية والفراء وقد انكمشوا من البرد .

(٨) جوانح : متحفزات للانقضاض والوقوع .

(٩) الخطّي : صفة للرمح ، اي منسوب الى الخط ، وهو مرفأ للسفن في البحرين تباع فيه الرماح . الكواثب : ج كاثبة وهي اعلى ظهر الفرس . يقول : هذه الجوارح اعتادت ان ترى الظفر في جانب بني غسان ، فتلحق بهم لتغتذي بجثث اعدائهم ، فاذا ماعرضت الرماح بين الكواثب أيقنت بأنها ستقع على رزق وفر من لحوم الاعداء .

(١٠) عارفات للطعان : كناية عن الخيل التي خاضت كثيراً من المواقع . عوابس : كوالح . الكلوم : الجروح : ج كلم . الجالب : اليابس من الجراح وهو ضد الدامي . هذه الخيول المجربة بها جروح يابسة خلفتها الوقائع الماضية التي شهدتها وبها جروح أخرى حديثة مازالت دامية .

١١ – إذا استنزلوا عنهنّ للطعن أرقلوا   إلى الموت إرقالَ الجمالِ المصاعبِ

١٢ – فهم يتساقون المنيّةَ بينهم   بأيديهم بيضٌ رقاقُ المضاربِ

١٣ – يطيرُ فضاضاً بينها كلُّ قونسٍ   ويتبعها منهم فراشُ الحواجبِ

١٤ – ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سيوفَهم   بهنّ فلولٌ من قراعِ الكتائبِ

١٥ – تقدُّ السلوقيَّ المضاعفَ نسجُهُ   وتوقدُ بالصفّاحِ نارَ الحباحبِ

١٦ – بضربٍ يزيلُ الهامَ عن سكناتِهِ   وطعنٍ كإيزاغِ المخاضِ الضواربِ

(١١) أرقلوا : اسرعوا ، والإرقال ضرب من سير النوق. المصاعب : ج مُصْعَب وهو الفحل من الجمال . اذا نزلوا عن هذه الخيول للطعان اسرعوا الى البراز والى لقاء الموت اسراع الفحول من النـــوق .

(١٢) البيض : نعت للسيوف . المضارب : ج مضْرِب وهو حد السيف . ويتساقون المنيـة استعارة يريد : انهم كانوا يقتتلون ، وفي ايديهم سيوف بأترة رقاق المضارب .

(١٣) الفضاض : ما انفضّ وتشظّى . القونس : أعلى الخوذة . الفراش ، ج فَراشة : العظم الرقيق . والضمير في (بينها) عائد على البيض . يقول : ان هذه السيوف كانت تقطع الخوذ فتتطاير شظاياها وقوانسها وتقطع معها العظام الرقاق التي تحت الحواجب .

(١٤) الفلول ، ج فَلّ : الثلوم . هذا البيت يستشهد به البلاغيون على ضرب من البديع يسمونه المدح بما يشبه الذم ، فحين قال لا عيب فيهم غير ، نتوقع ان يأتي بعدها بصفة ذم ولكنه اتى بصفة مدح هي ان سيوفهم قد تثلمت وفلّت لكثرة الضراب بها .

(١٥) تقد : تقطع ، السلوقي : صفة الدرع المصنوع في سَلوق ، وهي قرية باليمن او في اطراف أرمينية اشتهرت بالدروع والكلاب ، وربما كانت النسبة الى سلقية في بلاد الروم فهو نسب على غير القيـاس . المضاعف : ما نسج حلقتين . الصفّاح : الحجارة العراض الملس . الحباحب : اليراع ، وهـو ذباب يضيء بالليل . يريد : ان السيف قد قطع الدرع ثم الفارس ثم الفرس حتى بلـــغ الارض فارتطم بالصفّاح فقدح فيها الشرر ، وهذا من مبالغات الجاهليين النادرة .

(١٦) الهام ، تذكر وتؤنث ، ج هامة : الرأس . سكناته : مستقره . الإيزاغ : دفع النـاقة ببولها . المخاض : النوق الحوامل ، مفرده خَلِفة ، من غير لفظة . الضوارب : التي تضرب بأرجلها ←

١٧ - لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم   من الجود ، والأحلام غير عوازب

١٨ - رقاق النعال ، طيب حجزاتهم   يحيون بالريحان يوم السباسب

١٩ - تحييهم بيض الولائد بينهم   وأكسية الإضريج فوق المشاجب

٢٠ - ولا يحسبون الخير لا شر بعده   ولا يحسبون الشر ضربة لازب

شبه سرعة الطعن وانبثاق الدم بسرعة دفع الناقة الحامل ببولها ، والناقة اذا كانت حاملاً كان دفعها بالبول سريعاً .

(١٧) الشيمة : السجية . الأحلام : العقول ج ، حلم . عوازب : نائية ، اي ان طبيعتهم الكرم وعقولهم تسدد خطاهم فليسوا بالطائشين .

(١٨) رقاق النعال : كناية عن انهم سادة لايخصفون النعال لأنهم لايمشون بل يركبون . الحجزات : ج حجزة : معقد الإزار وطيب حجزاتهم كناية عن عفتهم . يوم السباسب : عيد الشعانين عند النصارى .

(١٩) الولائد : الإماء ج وليدة . الاضريج : الخز الاحمر . المشاجب : ما يعلق فوقه الثوب . يريد انهم اهل نعمة ورفاهية تسعى بينهم الإماء وثيابهم الفاخرة معلقة فوق المشاجب .

(٢٠) لازب : لازم ، ثابت ، يريد انهم عقلاء محنكون قد خبروا الزمان فإن أصابهم خير لم يطمئنوا الى دوامه فيبطروا ، وإذا أصابهم شر لم ييأسوا ليقينهم انه غير دائم .

* * *

دراسة النص

مناسبتها

قيلت هذه القصيدة في مدح عمرو بن الحارث الغساني الذي قدم عليه النابغة بعد مفارقته بلاط النعمان بن المنذر في الحيرة للاسباب التي اشرنا اليها في كلامنا على حياة النابغة . وقد قالها في الشام مقر الغساسنة .

ب — التحليل الأدبي

الأقسام والأفكار العامة

الغرض الاساسي من القصيدة هو مدح الغساسنة ، ويبدأ النابغة قصيدته بأبيات يصور فيها همومه والاحزان التي ازدحمت في صدره ويشكو ما يلقاه من طول الليل (الابيات ١ — ٣). ثم اخذ يمدح عمرو بن الحارث والغساسنة ويذكر مالهم من أفضال عليه (٤) ، وحين اخذ في مدحهم وصفهم بالشجاعة وحسن البلاء في الحروب وأنهم ابداً منتصرون على اعدائهم ، وانهم اذا خرجوا للغزو تبعتهم اسراب الجوارح لتقتات من لحوم اعدائهم ، وهي واثقة من ظفرهم ، وشبه هذه الجوارح بالشيوخ وقد ارتدوا الفراء (٥-٩) ، ثم وصف الخيل التي يمتطونها وما فيها من جراح دامية وجالبة واسراعهم للنزول عنها للطعان (١٠ - ١١) ، ثم وصف سيوفهم التي كانت تتطاير منها القوانس والعظام ، وما أصابها من الثلوم لكثرة الضراب بها . الخ .. (١٢ - ٦) ، ثم اخذ يمدح الغساسنة واصفاً ماتحلوا به من كريم الخصال ولاسيما الجود ، ذاكراً أنهم من الاشراف الذين لايخصفون النعال ، وانهم يعيشون عيشة ترف ورخاء تسعى بينهم الولائد والإماء ، ويرتدون فاخر الثياب ، وانهم بعدُ ذوو احلام وخبرة لايغرهم إقبال الزمن ولايخيفهم إدباره (١٧ - ٢٠) .

العاطفة:

تحدث النابغة في اول قصيدته عن همومه وأحزانه فعرفنا أنه قال قصيدته هذه تحت تأثير عاطفة الحزن والهم ، وهو لايبين لنا مصدر همومه ، ولعل لبعده عن النعمان أثراً في شعور الحزن الذي كان ملماً به . ثم لايلبث النابغة ان يحدثنا عن شعوره نحو الغساسنة وما يكنه لهم من الحب والاعجاب والشكران لما أغدقوا عليه من النعم والهبات . وعلى الرغم من ان النابغة اتخذ المديح وسيلة للتكسب الا انه كان اصدق عاطفة من غيره من الشعراء الذين تكسبوا بمدحهم كالحطيئة والأعشى .

الاسلوب

عرف النابغة بأنه من هؤلاء الشعراء الذين أطلق عليهم الاصمعي لقب عبيد الشعر ، وهم الذين اشرنا اليهم في كلامنا على زهير والذين كانوا يتأنون ويتأنقون في صنع شعرهم ، والذين كانوا يعنون عناية شديدة بالصور الحسية . ولا نريد من هـــذا أن سائر الشعراء كانوا يرسلون الشعر ارسالاً عفوياً لايبذلون في صنعه جهداً ولاعناءً ، فالشعر كله لابد فيه من صنعة ، ولكن حظ الشعراء من هذه الصنعة متفاوت ومنهم من كان اميل الى الطبع من هؤلاء المتقحين . ولا نريد ايضاً ان الصور المادية المحسوسة كانت وقفاً على هؤلاء دون سواهم ، فإن كل الشعراء الجاهليين كانوا ينتزعـون صورهم من البيئة الحسية ، الا ان هذه الطائفة التي نتحدث عنها كانت اكثر اعتماداً على هذه الصور واعظم افتناناً فيها وابتكاراً لها .

ولما كان النابغة ممن يتأنون في صنع شعرهم فقد ظهر اثر هذه الأناة في سهولة الفـاظه وحسن تخيرها وانزالها في مواضعها الملائمة من الجمل وحلاوة جرسها ، وظهر اثرهذه الاناة ايضاً في قـوة تراكيبه وفي انسجام افكاره مع تعبيره وفي حسن تأليف جمله ، وظهر كذلك اثر هذه الاناة في إكثاره من الصور البيانية ، وهو في أكثر هذه الصور مبدع مبتكر حتى لقد اخذها عنه كثير من الشعراء بعده ، ولا سيما الأخطل الذي نجده يحاكي النابغة في أسلوبه ويستعير صوره وتشبيهاته، واخيراً يظهر اثر هذه الاناة في ترتيب النابغة افكاره وحسن انتقـــاله من فكرة الى اخرى ومن غرض الى آخر .

وأبرز ما يتصف به النابغة ويبدو جلياً في شعره هو قوة الحس وخصب المخيلة وصدق العاطفة وهذه المزايا هي التي خلقت منه فناناً مبدعاً يصطنع مختلف الاساليب لابراز معانيه في صور جميلة مبتكرة سرعان ماتنطبع في الذاكرة وتؤثر في النفس تأثيراً قوياً ، فانظر اليه كيف يصطنع اسلوباً

غير مباشر لابراز شجاعة الغسانيين حين يصور أسراب الطير محلقة فوق كتائب الغساسنة ،متهيئة للانقضاض على اعدائهم ، ثم انظر الى هذه الكنايات الكثيرة المبثوثة في قصيدته ، فهو يكني عن طول الليل ببطء الكواكب ، وعن شجاعة بني غسان ومهارتهم الحربية بتحليق اسراب الطير فوقهم ،وعن كثرة وقائعهم بقوله إن سيوفهم قد كثرت فيها الثلوم ، وعن شرفهم وعلو منزلتهم بقوله إنهم لايخصفون النعال ، وعن عظمتهم بقوله انهم طيبو الحجزات ، وعن منزلتهم الرفيعة وحياتهم الرافهة بتصويره سعي الولائد بينهم ، وتحيتهم بالريحان ، وتعليق ملابسهم الحريرية فوق المشاجب .

وليست الكنايه وحدها مستفيضة في قصيدته ، بل هناك التشبيه ايضاً ، من ذلك تشبيهه الجوارح بالشيوخ ، واسراع الابطال الى لقاء الموت بإرقال الفحول من النوق ، والطعن بسرعة دفع الناقة ببولها . ولايعيب النابغة إتيانه بهذه الصورة لأن البيئة الجاهلية كانت لاترى فيها ماينبو عن الذوق وان كان ذوقنا نحن لايسيغ مثل هذه الصور ولايراها ملائمة للشعر .

واذا قصد النابغة الاستعارة استعار الشراب للمنية وجعلهم يتساقون هذا الشراب ، ولاتخلو صور النابغة من بعض المبالغات كقوله : تقد السلوقي ... الخ البيت ، الا انها مع ذلك مبالغة جميلة ممكنة التصور ، لم تبلغ حد الاحالة كما في مبالغات العباسيين .

ومن مبتكرات النابغة في هذه القصيدة هذه الصورة البديعة التي سماها البلاغيون : المدح بما يشبه الذم ، في قوله : ولا عيب فيهم ... الخ البيت .

ولعلنا لاحظنا ان صور النابغة تجمع بين العناصر البدوية والحضرية ،ومرد ذلك الى اختلاف النابغة ، وهو البدوي الصريح ، الى بلاطي المناذرة والغساسنة ، وتأثره بالحياة الحضرية في هذين البلاطين حتى صار لايأكل ، فيما زعموا ، إلا في صحاف الذهب والفضة .

قيمة القصيدة ومنزلة الشاعر

هذه الميزات الكثيرة في شعر النابغة هي التي بوأته المنزلة الرفيعة بين شعراء الجاهلية حتى كانت تضرب له قبة من أدم في سوق عكاظ فيأتيه الشعراء ويحتكمون اليه ولذلك عده ابن سلام في الطبقة الاولى من شعراء الجاهلية مع امرىء القيس وزهير والاعشى ، وقال فيه : « قال من احتج للنابغة : كان أحسنهم ديباجة شعر ، وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتاً ، كأن شعره كلام ليس فيه تكلف ولذلك ايضاً قدمه كثير من القدامى كأبي الاسود الدؤلي وعبد الملك بن مروان وحماد الراوية ، بل ان ابا عمرو جعل زهيراً أجيراً للنابغة ، فيما يرويه صاحب الاغاني .

وهذه القصيدة نموذج لفن النابغة وقوة ابداعه وطول باعه في المديح والوصف .

* * *

الاعتذار

قال النابغة يعتذر للنعمان ويمدحه ويتبرأ مما اتهمه به اعداؤه :

١ – أتاني، أبيتَ اللعنَ ، أنكَ لُمتني ... وتلكَ التي أهتمُّ منها وأنصبُ

٢ – فبتُّ كأنَّ العائداتِ فرشْنَ لي ... هَراساً بهِ يُعلى فِراشي ويُقْشَبُ

٣ – حلفْتُ فلم أتركْ لنفسكَ ريبةً ... وليسَ وَراءَ اللهِ للمرءِ مَذهبُ

٤ – لئنْ كُنتَ قد بُلِّغْتَ عنّيَ خيانةً ... لَمُبلِغُكَ الواشي أغشُّ وأكذَبُ

٥ – ولكنّني كُنتُ امرءاً ليَ جانبٌ ... من الأرضِ فيهِ مُستَرادٌ ومَذْهَبُ

٦ – مُلوكٌ وإخوانٌ ، إذا ما أتيتُهمْ ... أحكَّمُ في أموالهمْ وأُقرَّبُ

---

(١) أبيت اللعن : تحية الملوك في الجاهلية ، اي لافعلت ماتستوجب به اللعن. تلك : اي تلك الملامة هي التي جعلتني مهموماً حزيناً . أنصب : أعيا وألقى العناء . يريد : ان لومك الذي بلغني صيّرني دائم الهم والنصب .

(٢) العائدات : الزائرات في المرض . الهراس : شجر شائك ثمره كالنَّبِق وشوكه كالحسك قشب الرجل الشيء: خلطه بما يفسده والقَشْب : الدنس . يريد : اصبحت حين بلغني ملامتك كأني نائم على فراش قد حشي شوكاً فلا استطيع الى الرقاد سبيلاً .

(٣) الريبة : الشك . يريد:أقسمت فلم ادع لك مجالا للشك في صدقي ولم ادع مذهباً يذهب اليه بعد قسمي بالله . ويلاحظ هنا ان النابغة يقسم بالله والقسم بالله كان شائعاً عند الجاهليين والى ذلك اشار القرآن بقوله: «وأقسموا بالله جهد أيمانهم» ولكن الله في تصور الجاهليين كان غير الله في تصور المسلمين

(٤) يريد : لئن بلغك أني أخون نعمتك فإن الذي نقل اليك هذه الوشاية لهو غاش لك وكاذب علي.

(٥) مستراد ومراد : موضع رياد الابل ، اي اختلافها في المرعى مقبلة ومدبرة وهنا بمعنى المكان المرتاد ، مذهب : مفعل من الذهاب ، يشير النابغة في بيته هذا اشارة صريحة الى تردده على الغساسنة والى ان صلته بالغساسنة كانت من اسباب غضب النعمان عليه .

(٦) ملوك وإخوان : اراد بهم الغسانيين الذين كانوا يكرمون وفادته ويغدقون عليه ←

٧ – كفعلك في قوم أراك اصطنعتهم فلم ترهم، في شكر ذلك، أذنبوا
٨ – ولا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناس مطليٌّ به القار، أجرب
٩ – ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب
١٠ – فإنك شمس، والملوك كواكب إذا طلعت، لم يبد منهن كوكب
١١ – ولست بمستبق أخاً لا تلمه على شعث، أي الرجال المهذب؟
١٢ – فإن أك مظلوماً، فعبد ظلمته وإن تك ذا عتبى، فمثلك يعتب.

* * *

الاموال ويقربونه .

(٧) اصطنعه : أحسن اليه وأكرمه واصطنعه لنفسه : اختاره واصطفاه . يريد : انني اشكر ماأسداه إليّ الغسانيون من حسن الصنيع كأولئك الذين احسنت اليهم واصطنعتهم فلم تنكر عليهم شكرهم نعمتك واياديك عليهم .

(٨) الوعيد : التهديد ، الوعد للخير والوعيد للشر . القار : القطران . مطلياً به القار : اي مدهوناً بالقار . يريد : اذا اوعدتني وتهددتني أصبح كمن به جرب يتحاشاه الناس ويتجنبونه فتداركني بعفوك . بعد ان نفى النابغة التهمة الملصقة به اخذ يستعطف النعمان .

(٩) السورة : المنزلة والمكانة . يتذبذب : يضطرب ويتعلق . بعد ان استعطف النابغة النعمان اخذ في مدحه فيقول له : ألا ترى ان الله قد منحك منزلة دونها سائر الملوك .

(١٠) يستمر النابغة هنا في تفضيل النعمان على الملوك الآخرين فيشبهه بالشمس والملوك الآخرين بالنجوم ، فإذا طلعت الشمس حجب نورها جميع الكواكب .

(١١) تلمه : تجمعه ، تقربه . الشعث : التفرق والاختلال . يريد انك ان لم تقرب صديقك وتقوّم اخلاقه فلست راغباً في صداقته . ثم يؤيد قوله فيتساءل : اين الرجل المهذب الكامل الخلق المبرّء من العيوب ، انه لاوجود له .

(١٢) تك : اصلها تكون . حذفت الواو للجزم ثم حذفت النون تخفيفاً ، ولا يجوز هذا الا في مضارع كان المجزوم وقبل المتحرك . العتبى : الرضى . يعتب : يرضى ويعفو . يريد : اذا كنت مظلوماً فما أنا الا عبد لك احتمل ظلمك ، وان كنت مذنباً فعفوت عني فإنك حقيق بأن تعفو عن عبدك .

* * *

كلمة في اعتذاريات النابغة

يراد بالاعتذاريات هذه القصائد التي قالها النابغة يعتذر فيها للنعمان عن الامر الذي عزاه إليه حساده في مجلس النعمان ، وقد وجدنا ان النابغة ينكر اشد الانكار هذه التهمة التي ألصقت به (وهي هجاؤه النعمان او تغزله الفاحش بالمتجردة زوج النعمان) ، واذن فمم يعتذر ؟ إنه يعتذر ولا شك عن تردده على الغساسنة ومدحه إياهم ، وعذره في ذلك أنه شاعر يقصد من يحسن وفادته ويكرمه فلا عليه إذن أن يمدح الغساسنة ويختلف اليهم على الرغم من عداوتهم للمناذرة وللنعمان الذي كان النابغة منقطعاً اليه .

واعتذاريات النابغة يشيع فيها الحزن والاخلاص والالم والرجاء ، فالنابغة حزين لبعده عن النعمان صديقه ولانه يراه غاضباً عليه لغير ذنب ارتكبه ، وهو مخلص في تودده الى النعمان ينم عن إخلاصه له شدة الخافه عليه في تصديقه ، وهو متألم لانه يرى حساده يشون به يصغي النعمان الى افترائهم وينقم على شاعره ، وهو يرجو اخيراً ان يصدقه النعمان فيعفو عنه ويستدنيه اليه .

وطريقة النابغة في الاعتذار أنه يبدأ بتصوير حاله حين بلغه نبأ توعد النعمان له فيصور نفسه كمن ينام على فراش من الشوك او كمن وانبته أفعى :

وعيدُ أبي قابوسَ في غير كُنْهِهِ ... أتاني ودُوني راكسٌ فالضواجعُ

فبتُّ كأنّي ساورتْني ضئيلةٌ ... من الرُقش في أنيابها السمُّ ناقعُ

يُسهَّدُ من ليل التمامِ سليمُها ... لِحلْي النساء في يَدَيْهِ قعاقعُ

او يشبه النعمان بالاسد الزائر الغاضب :

أُنبِئتُ أنَّ أبا قابوسَ أوعدني ... ولا قرارَ على زأرٍ من الأسدِ

فيظهر النابغة شدة خوفه من توعد النعمان له ، ويبدو ان النابغة لم يكن صادقاً في شعوره هذا فلم يكن توعد النعمان بالذي يخيفه وهو في ديار قومه او في بلاط الغساسنة ، ولكنه كان حريصاً على استرضاء النعمان رغبة في جوائزه ، وقد روى ابو الفرج ان ابا عمرو بن العلاء سئل : « أفمن مخافته امتدحه وأتاه بعد هربه منه ام لغير ذلك ؟ فقال : لا ، لعمرُ الله ، ما لمخافته فعل ، إنْ كان

لأمناً من أن يوجّه النعمان له جيشاً ، وما كانت عشيرته لتسلّمه لأول وهلة ، ولكنه رغب في عطاياه وعصافيره . وكان النابغة يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب من عطايا النعمان وأبيه وجدّه ، لايستعمل غير ذلك . » (الأغاني ج ١١ : ٢٨)

ثم ينتقل بعد ذلك الى تكذيب التهمة التي ألصقت به ، وينال الوشاة بلواذع هجائه ، ويقسم الأقسام المغلّظة على براءته كقوله :

لَعمري ، وما عُمري عليَّ بهيّنٍ ... لقد نطقتْ بُطلاً عليَّ الاقارعُ
أقارعُ عوفٍ ، لا أُحاولُ غيرَها ... وجوهُ قرودٍ تبتغي من تُجادِعُ

وكقوله في داليّته :

فلا لعمرُ الذي مسّحتُ كعبتَه ... وما هُريق على الأنصاب من جسَدِ
والمؤمنِ العائذاتِ الطيرَ تمسحُها ... ركبانُ مكةَ بين الغيلِ والسَعَدِ
ما قلتُ من سيّءٍ مما أُتيتَ به ... إذن فلا رفعتْ سوطي إليّ يدي

ثم ينتقل بعد ذلك الى مدح النعمان وتعظيم نفوذه وقوة سلطانه لاسترضائه واستعطافه ، كقوله في العينيّة :

فإنّك كالليلِ الذي هو مُدركي ... وإنْ خلتُ أنّ المنتأى عنك واسعُ
خطاطيفُ حُجْنٌ في حبالٍ متينةٍ ... تشدُّ بها أيدٍ اليك نوازعُ
وانت ربيعٌ يُنعشُ الناسَ سيبُه ... وسيفٌ أُعيرَتْهُ المنيةُ ، قاطعُ

هذه هي طريقة النابغة في اعتذارياته ، وهذه الاعتذاريات تعد من اروع شعر النابغة وأصدقه ، وأشهرها ثلاث : البائية والعينية ومطلعها :

عفا ذو حسىً من فرتنا ، فالفوارعُ ... فجنبا أريكٍ فالتلاعُ الدوافعُ

والداليّة التي يجعلها بعضهم في جملة المعلّقات واوّلها :

يادارَ ميّةَ بالعلياءِ فالسَّندِ ... أقوتْ وطال عليها سالفُ الأمدِ

* * *

الوصف

روى صاحب الأغاني عن ابي عُبَيدة ان النابغة كان اثيراً عند النعمان خاصاً به ، وكان من نُدَمائه وأهل أنسه ، فرأى زوجته المتجرّدة يوماً ففوجئت فسقط نصيفها واستترت بيدها وذراعها، فقال النابغة في ذلك قصيدته التي اولها :

أمِنْ آلِ ميةَ رائحٌ أو مغتدِي عجلانَ ذا زادٍ وغيرَ مزوَّدِ

ومن هذه القصيدة قوله :

١ – نظرَتْ بمقلةِ شادنٍ متربّبٍ أحوى أحمِّ المُقلتَينِ مقلَّدِ
٢ – صفراءُ كالسِّيَراءِ أُكمِلَ خَلقُها كالغُصْنِ في غُلَوائهِ ، المتأوِّدِ
٣ – والبطنُ ذو عُكَنٍ لَطيفٍ طيُّهُ والنَحرُ تَنفُجُهُ بثَديٍ مُقعَدِ

---

(١) المقلة : شحمة العين التي تجمع السواد والبياض ، ويراد بها هنا العين مطلقاً ، والجمع مُقَل. الشادن : الظبي اذا قوي واستغنى عن امه. المتربب : المربّى . الأحوى ، من الحوة : حمرة يعلوها سواد وتوصف بها الشفتان . الأحم : الشديد السواد ، صفة للمقلة . المقلّد : الذي طوق جيده بالحلي . شبه نظرة الغانية بنظرة ظبي احوى الشفتين احم المقلتين مزين جيده بالحلي ، وتشبيه المرأة بالظبي مستفيض في شعر العرب .

(٢) صفراء : خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هي . السيراء : ثوب من حرير فيه خطوط صفر ، والذهب الخالص . الغلواء : الغلو والتجاوز ، ومن الشباب اوله ونشاطه ، ويريد بغلواء الغصن نعومته وسموقه . المتأود : المتثني شدة نعومته . كان العرب يحبون الصفرة الخفيفة في النساء والنابغة يصف هذه الغانية بأنها صفراء كالذهب ، تامة الخلق ، تشبه في قامتها المتثنية الميّاسة الغصن اللدن المتعطف.

(٣) العكن : ج عكنة وهي ماتثنى من لحم البطن سمناً ، وهي صفة مستحبة عندهم . النحر : العنق ، الجيد . تنفجه : ترفعه . المقعد : صفة للثدي الناهد الذي لم ينثن . يصفها بانها ذات بطن متعكن لطيف الطي وذات نحر يرفعه ثدي ناهد .

٤ – مَحطوطةُ المَتْنَينِ ، غيرُ مُفاضةٍ ‏ ‏ رَيّا الرَّوادفِ ، بَضّةُ المُتَجَرَّدِ
٥ – قامتْ تَراءَى بَيْنَ سَجْفَي كِلّةٍ ‏ ‏ كالشمسِ يومَ طُلوعِها بالأسعُدِ
٦ – أو دُرّةٍ صَدَفيّةٍ ، غوّاصُها ‏ ‏ بَهِجٌ ، متى يَرَها يُهِلَّ ويَسجُدِ
٧ – أو دُميةٍ من مَرمَرٍ ، مَرفوعةٍ ‏ ‏ بُنِيَتْ بآجُرٍّ يُشادُ وقَرمَدِ
٨ – سقطَ النَّصيفُ ولم تُرِدْ إسقاطَهُ ‏ ‏ فتناوَلَتْهُ واتَّقَتْنا باليَدِ
٩ – بمُخَضَّبٍ رَخْصٍ ، كأنَّ بَنانَهُ ‏ ‏ عَنَمٌ على أغصانِهِ لم يُعقَدِ
١٠ – نظرتْ إليكَ بحاجةٍ لم تَقضِها ‏ ‏ نَظَرَ السَّقيمِ إلى وُجوهِ العُوَّدِ

* * *

(٤) محطوطة المتنين : ملساء الظهر . المفاضة : الضخمة البطن . الريّا : مؤنث ريّان اي ناعم مليء . الروادف : الارداف . البضة : الناعمة الغضة . المتجرَّد ، بفتح الراء : اي انها بضة عند التجرد ، وبكسرها : الجسم .

(٥) تراءى : اصلها تتراءى اي تلوح وتظهر . السجف : الستر . الكلة : غشاء رقيق يتوقّى به من البعوض (ناموسية) . الاسعُدُ : جمع سَعْد : منازل القمر . شبه منظر هذه المرأة وهي بين ستري الكلة بالشمس حين طلوعها في أيام السعود .

(٦) هلّ يهلّ : صاح وفرح . يتم وصف المرأة فيشبهها ايضاً بدرة فريدة اذا رآها مستخرجها صاح جذلاً .

(٧) الدمية : التمثال . يشاد : يرفع . القرمد : الآجر ، القرميد . يتم النابغة وصف المرأة مشبهاً إياها بالدمية من المرمر المرفوعة بالآجر والقرميد .

(٨) النصيف : الخمار يغطي نصف الوجه . يشير النابغة بهذا البيت الى سقوط نصيف المتجردة في مجلس النعمان واتقائها وجهها بيدها .

(٩) المخضب : صفة للكف المخضوب . رخص : طري لدن . البنان : الاصابع . العنم : شجرة حجازية لها ثمر احمر يشبه به البنان الخضيب . قوله : بمخضب ، متعلق بتناولته في البيت السابق ، اي تناولت نصيفها بكف مخضب أصابعه كأنها ثمرة العنم .

(١٠) السقيم : المريض . العوَّد : الزائرون . يشبه نظرة المتجردة بنظرة السقيم في فتورها وذبولها . والنظرة اذا خالطها فتور ازدادت حسناً وإغراء .

وفي القصيدة بعد ذلك ابيات فاحشة مدسوسة على النابغة .

١١– فما الفُراتُ إذا جاشتْ غواربُهُ ترمي أواذيُّهُ العِبرَينِ بالزَّبَدِ
١٢– يَمُدُّهُ كُلُّ وادٍ مُتْرَعٍ، لجِبٍ فيهِ رُكامٌ من اليَنْبوتِ والخَضَدِ
١٣– يظَلُّ من خوفِهِ الملّاحُ معتصِماً بالخيزُرانةِ، بعدَ الأينِ والنجَدِ
١٤– يوماً بأجودَ منه سيْبَ نافلةٍ ولا يحُولُ عطاءُ اليومِ دونَ غدِ

* * *

(انظر في ديوان النابغة قصيدته الرائية في وصف المرأة . وفي تصوير الصراع بين الثور الوحشي وكلاب القانص ، وهي من اجود قصائد النابغة واولها :

عُوجوا فحيُّوا لنعمٍ دِمنةَ الدّارِ ماذا تُحيُّونَ من نُؤيٍ وأحجارِ)

* * *

---

(١١) جاشت : اضطربت . الغوارب : اعالي الامواج . الأواذي: ج آذي وهو الموج. العبرين: الضفتين . اذا جاشت امواه الفرات وقذفت الشاطئين بالزبد.

(١٢) مترع : ملئ . لجب : ذو اللجب وهو الصوت والجلبة ، وبحر ذو لجب اذا سمع اضطراب امواجه . الركام : الحطام . الينبوت : شجر الخشخاش . الخضد : ماتكسر من الاغصان .

(١٣) الملاح : النوتي . الخيزرانة : ذيل السفينة . الاين : الفتور والاعياء والنصب . النجد : العرق والاعيـاء .

(١٤) السيب : العطاء . النافلة : العطية .

هذه الأبيات الاربعة ليس القصد منها وصف الفرات بل مدح النعمان بالجود والكرم فشبهه بالفرات ، وان هذا النهر اذا هاج وماج واترع بالمياه التي تحمل الحطام والينبوت ، واضطر الملاح لشدة اضطراب مياه النهران يلوذ بذيل السفينة ، ليس بأكثر تدفقاً من الممدوح ، فشبه تدفق النهر بالمياه بتدفق النعمان بالعطاء . وقد اخذ هذه الصورة عن النابغة كثير من الشعراء .

كلمة عن الوصف في شعر النابغة

وجدنا في النابغة فناناً بارع التصوير، خصب المخيلة، وتظهر براعته الفنية هذه في وصفه بصورة خاصة، والوصف في شعر النابغة والجاهليين ليس غرضاً مستقلاً تدور حوله القصيدة، وانما يأتي في خلال قصائد الغزل او المدح او الرثاء او الفخر، ولكن موهبة النابغة التصويرية تدفعه الى الاطالة في الوصف والى انتهاز المناسبات التي تتيح له التفرّغ للوصف، فإذا ذكر ناقته شبهها بالثور الوحشي ثم انتقل الى وصف الثور الوحشي وصراعه مع القانص وكلابه وأطال في هذا الوصف حتى نكاد ننسى انه جاء به في معرض تشبيه الناقة بالثور الوحشي.

وإذا نظرنا في وصفه المتجردة وقفنا على مدى عناية النابغة بالصور البيانية، والتشبيه خاصة، فهو لا يكتفي بتشبيه المتجردة بالشمس بل يشبهها ايضاً بالدرة الصدفية وبالدمية المرمرية، ثم يشبه بنانها بالعنم ونظرتها بنظرة السقيم، الى غير ذلك من التشبيهات.

والصور التي اتى بها النابغة منها الصور البدوية التي استمدها من بيئته الاولى، كتشبيه البنان بالعنم، ومنها الصور الحضرية التي استمدها من بيئة المناذرة والغساسنة المتحضرة كتشبيه المرأة بالدرة والدمية ونحو ذلك. ولا شك ان هذا الوصف الدقيق للفرات حين تضطرب امواجه وتجيش غواربه انما استمده النابغة من بيئة المناذرة الذين كانت منازلهم قرب الفرات.

* * *

مصادر

١ — الاغاني، ج ١١ : ٣، دار الكتب.

٢ — خزانة الادب للبغدادي، ج ٢ : ١١٦، السلفية.

٣ — شعراء النصرانية، لويس شيخو، بيروت.

٤ — النابغة الذبياني، سليم الجندي، دمشق.

٥ — دائرة المعارف الاسلامية، مادة «نابغة»، بقلم موريس شمول، ص ٨٥٩، الطبعة الفرنسية.

٦ — الروائع، فؤاد افرام البستاني، الجزء ٣.

٧ — H. Derenbourg, le dîwân de nâbiga dhobyânî, paris. 1869
مع شرح الاعلم الشنتمري.

نماذج من شعر النساء

ان جل ما انتهى الينا من شعر النساء في الجاهلية مما لا يوثق بصحته ، كهذا الشعر المقول في وقعة ذي قار ، وكالشعر المنسوب الى جليلة بنت مرة ، زوجة كليب ، والى هند ، ام عمرو بن هند، ونحوه مما نجده مبثوثاً في كتب الأدب ، وقد اخترنا منه مانرجح صحته .

والناحية التي اكثر النساء من قول الشعر فيها هي الرثاء ؛ لان المرأة ، بطبيعتها ، اشد تأثراً من الرجل بالفواجع التي تمسها من قريب ، وأرق عاطفة منه ، وهي لا تستطيع ان تتجلد للنائبات تجلده لها ، فإذا فقدت عزيزاً لها طفقت تبكيه وترثيه وتتفجع عليه ، وربما أنفقت حياتها كلها في البكاء والتفجع ، صنيع الخرنق في بكائها زوجها وأخاها ، والخنساء في رثائها اخويها . وعلى الرغم من انصراف اكثر شواعر العرب الى الرثاء ، وعلى الرغم من انهن وقفن جل شعرهن عليه ، فإنهن لم يستطعن أن يبلغن فيه مابلغه اقطاب الرثاء من الشعراء ، ولا سيما ابو تمام وابن الرومي .

ولا نجد في اشعار النساء الجاهليات مانجده في اشعار الفحول من متانة السبك . وجزالة اللفظ، وقوة الابتكار ، وطول النفس ، الا انا نجد فيها صدق العاطفة . وهن لا يختلفن عن الشعراء الجاهليين في انتزاع صورهن من بيئتهن المادية المحسوسة ، وفي اكثارهن من التشابيه والكنايات .

قالت أُمامةُ ، بنتُ ذي الإصبع العَدْواني ، ترثي قومها :

١ — كَمْ مِنْ فَتىً كانَتْ لهُ مَيْعَةٌ ... أَبْلَجَ مِثْلِ القَمَرِ الزّاهِرِ

٢ — قدْ مَرَتِ الخَيْلُ بِحافاتِهِ ... كَمَرِّ غَيْثٍ لَجِبٍ ، ماطِرِ

(١) ميعة الشباب : أوّله ونشاطه . الأبلج : الواضح ، وانبلج الصبح : أضاء ، والبُلْجة : الضوء ونقاوة مابين الحاجبين ويراد بالأبلج هنا : المشرق الوجه . الزاهر : المضيء ، زَهَر النجم يزهَر : أضاء وتلألأ .

(٢) الحافات : جمع حافّة وهي الجانب وخفف التشديد لضرورة الشعر. الغيث اللجب: المطر ←

٣ – قَدْ لَقِيَتْ فَهْمٌ وعَدْوانُها قتلاً وَهُلْكاً آخِرَ الغابِرِ

٤ – كانوا ملوكاً سادةً في الذُّرى دهراً لها الفخرُ على الفاخِرِ

٥ – حتّى تَساقَوْا كأسَهُمْ بينَهُمْ بَغْياً فيا للشّاربِ الخامِرِ

٦ – بادُوا فمَنْ يحلُلْ بأوطانِهِمْ يَحْلُلْ برسْمٍ مُقْفِرٍ داثِرِ

* * *

[راجع ترجمة ذي الإصبع العدواني والسبب في تفاني قبيلة عدوان ص ١١٤]

* * *

وقالت الخِرْنِقُ، أُختُ طرفةَ، ترثي أخاها :

٧ – عَدَدْنا لهُ سِتّاً وعِشرينَ حِجّةً فلمّا توفّاها استوى سيّداً ضخما

الذي ترافقه قعقعة الرعد. ترثي أمامة قومها بني عدوان فتقول : كم كان فيهم من فتيان نضرين كالأقمار اذا ارادوا الغزو حفّتهم الخيل مسرعة لجبة كالغيث اللجب .

(٣) فَهْم وعَدْوان : بطنان متفرعان من عمرو بن قيس عيلان . هُلْكاً : هلاكاً . غبر : مكث وذهب ، من الألفاظ المتضادة ، فهو غابر ويراد بالغابر هنا : الباقي من الدهر .

(٤) الذرى : ج . ذروة : من كل شيء أعلاه .

(٥) تساقوا كأسهم بينهم : استعارة يراد بها انهم اقتتلوا وتفانَوا . البغي : الظلم والتعدّي والفساد . ياللشارب : صيغة تعجب تأتي على شاكلة الاستغاثة . تريد ان قومها كانوا حقبة من الزمن سادة يفخرون على كل فاخر حتى نشب الخلاف بينهم فتساقوا كأس الردى بغياً بغير حق وتفانوا . ثم تأتي بلفظ الشارب مراعاة للنظير .

(٦) يحلل : ينزل . الرسم : آثار الديار . الداثر : الدارس العافي . تريد ان قومها قد هلكوا وبادوا حتى أصبحت مواطنهم قفراً ليس فيها الا الرسوم العافية الدارسة .

(٧) الحِجّة : السنة ، والمرة من الحج ، على غير القياس لأن اسم المرة على وزن فَعلة واسم الهيئة على وزن فِعلة . توفّاها : استكملها واستوفاها . يستدل المؤرخون من هذا البيت على ان طرفة عاش ستاً وعشرين سنة ، تقول أخته إنه حين استوفى هذه السن أصبح سيداً عظيماً .

٨ - فُجِعنا بِهِ ، لمَّا رَجَوْنا إيابَهُ ، عَلى خيرِ حالٍ ، لا وَليداً ، ولا قَحْما

[راجع ترجمة طرفة بن العبد وما قيل في سبب قتله ص : ٧٤]

* * *

وقالت الخِرنق أيضاً ترثي زوجها بِشر بن عَمرو بن مرثد :

٩ - لا يَبْعَدَنْ قومي الّذينَ هُمُ سُمُّ العُداةِ وآفةُ الجُزرِ

١٠ - النّازلونَ بِكُلِّ مُعتَرَكٍ ، والطّيِّبونَ مَعاقِدَ الأُزْرِ

---

(٨) فُجعنا به : رزئنا به ، اي فقدناه . إيابه : عودته . الوليد : الصغير السن . القحم : الشيخ المسن . فقدناه حين توقعنا عودته الينا شاباً قوياً على خير حال ، لاهو بالوليد الصغير ولا بالشيخ الكبير.

(٩) لايبعدن : لايهلكن ، وهو دعاء جاء بلفظ النهي . يقال بَعِد يَبْعَد بَعَداً اذا هلك . وبَعُد يبعُد بُعداً : ضد القرب ، وقد يستعمل في الهلاك ومنه قوله تعالى : «ألا بُعْداً لِعادٍ قومِ هُود» وقد جرت عادة العرب على الدعاء للميت بألاّ يهلك استعظاماً لموت الرجل العظيم ومنه قول مالك ابن الريب :

يقولون لاتَبْعَدْ وهم يدفِنونني وأين مكانُ البعـد إلا مكانيا

العداة : ج عادٍ وهو العدو ، وجمع العدو : اعداء ، لأن فاعل يجمع على فَعَلة ، وفَعُول على أفعال . الآفة : العلة المهلكة ، وآفَهُ : أفسده وأضرّه . الجُزُر : ج جَزُور ، وهي الناقة التي تنحر ، فإن كانت من الغنم فهي جَزَرة . وصفت قومها بالشجاعة وانهم يقتلون اعداءهم كما يقتلهم السم ، ووصفتهم بالكرم ونحر الابل للأضياف فكأنهم آفة للابل تصيبها فتهلكها .

(١٠) المُعتَرَك والمَعرَك والمَعرَكة : موضع القتال ، مشتق من عركت الرحى الحب اذا طحنته . الطيبون معاقد الأزر : كناية عن عفتهم . لأن العرب تكني بالشيء عما يشتمل عليه فتكني بطهارة الكم عن الأمانة ، وبطهارة الجيب عن الإخلاص ، وبطهارة الذيل وطيب الحجزة والإزار عن العفة . وقد مر بنا قول النابغة في الغساسنة : طيّب حجزاتهم . ومعاقد الازر : موضع العقد من الإزار ، والإزار مايستر النصف الأسفل من الإنسان والرداء مايستر النصف الأعلى منه ، ونصبت معاقد على التمييز . تريد أن قومها شجعان ينزلون عن الخيل عند ضيق المعترك فيقاتلون على اقدامهم وعند ذلك يتداعون : نَزَالِ ، وانهم عفيفون .

١١ – ٱلضَّارِبُونَ بِحَوْمَةٍ نَزَلَتْ، وَٱلطَّاعِنُونَ بِأَذْرُعٍ شُعْرِ
١٢ – إِنْ يَشْرَبُوا يَهَبُوا، وَإِنْ يَذَرُوا يَتَوَاعَظُوا عَنْ مَنْطِقِ ٱلْهُجْرِ
١٣ – قَوْمٌ إِذَا رَكِبُوا سَمِعْتَ لَهُمْ لَغَطاً مِنَ ٱلتَّأْيِيهِ وَٱلزَّجْرِ
١٤ – لَاقَوْا غَدَاةَ قُلَابَ حَتْفَهُمُ، سَوْقَ ٱلْعَتِيرِ يُسَاقُ لِلْعَتْرِ
١٥ – هذا ثَنَائِي، مَا بَقِيتُ، لَهُمْ، فَإِذَا هَلَكْتُ أَجَنَّنِي قَبْرِي

* * *

(١١) الحَوْمة : من البحر والرمل والقتال معظمه وأشدّ موضع فيه ، ويراد بها هنا حومة الحرب . الشُّعر : ذوات الشعر . تريد ان قومها يضربون اعداءهم بسيوفهم اذا وقعت الحرب ، ويطعنونهم بأيديهم القوية على الطعان .

(١٢) إن يشربوا : اي إن يشربوا الخمر . يذروا : يتركوا ، والفعل وَذِر ، من باب فرح ، ولكن العرب لم تستعمل هذا الفعل الا في المضارع والأمر . يتواعظوا : يعظ بعضهم بعضاً . الهُجر : الفاحش من القول . تريد أنهم اذا شربوا كانوا كراماً يهبون الهبات ، وإن تركوا الشراب وعظ بعضهم بعضاً وتزاجروا عن القول الفاحش . وقد انتقد البغدادي قولها : إن يشربوا يذروا ، لأنه ليس بمدح تام ، اذ جعلت العلة في كرمهم شرب الخمر ، وقد عيب على طرفة قوله :

فإذا ماشربوها وانتشوا وهبوا كلَّ أمونٍ وطِمِرّْ

وقد وجدنا عنترة يصف نفسه بالكرم حين الشرب ثم يستدرك فيقول إنه ايضاً كريم عند الصحو .

(١٣) ركبوا : اي ركبوا الخيل ، اللغط : الكلام الذي لايكاد يفهم . التأييه : التصويت ، يقال أيَّهت به إذا صحت به . الزجر : المنع والردع والنهي والمراد به هنا زجر الخيل . تريد انّ قومها كثير فإذا ركبوا اختلطت اصواتهم وارتفع لغطهم لكثرة الصياح والزجر .

(١٤) الحتف : الموت ، ولاقى حتفه : مات . العتيرة : شاة كان عرب الجاهلية يذبحونها في شهر رجب للعِتْر ، وهو صنم لهم . والعتر : ذبح العتيرة . تريد ان قومها لاقوا هلاكهم في يوم قلاب وساقهم العدو الى الموت سوق العتيرة للذبح .

(١٥) جنَّ الشيءَ وأجنَّه : ستره واخفاه ، ومنه الجُنَّة وهي الدرع وكل ماوارك من السلاح . ←

الخِرنِق بنت بَدر بن هَفّان ... بن بكر بن وائل ، هي اخت طرفة لأمّه وردة ، وزوجها بشر بن عمرو بن مَرثَد ، سيّد بني مرثد . وقد قتل اخوها طرفة فرثته بالبيتين السابقين ، ثم قتل زوجها بشر في يوم قُلاب فقالت اكثر شعرها في رثائه . وقُلاب اسم جبل ، وفي هذا اليوم غزا بشر بني عامر بن صعصعة في جماعة من بني أسد فظفر بهم وملأ يديه من السبي ورجع ، فلما دنا من قُلاب أغار على بني أسد في قلة من أصحابه فهزم أصحابه وقتل هو وأولاده الثلاثة . وقد ظلت الخرنق ترثيه حتى توفيت حوالي عام ٥٨٠ م .

* * *

وقالت امرأة من بني هِزّان تدعى أمّ ثوّاب في ابنٍ لها عقّها :

١٦ — رَبَّيتُهُ ، وهو مثلُ الفرخِ أعظَمُهُ ... أمُّ الطعامِ ترى في جِلدِهِ زَغَبا

١٧ — حتّى إذا آضَ كالفُحّالِ شذّبَهُ ... أبّارُهُ ونفى عن مَتنِهِ الكَرَبا

١٨ — أنشا يمزِّقُ أثوابي ، يؤدِّبُني ... أبعدَ شَيبي عندي يبتغي الأدَبا

والمجن : الترس . سوف يبقى ثنائي لهم إلى ان أموت وأغيب في القبر فينقطع ثنائي .

(١٦) ام الطعام : المعدة . الزغب : الصغير الدقيق من الريش والشعر . تريد انها ربت ابنها وهو مازال صغيراً كالفرخ اعظم مافيه معدته ، اي لاهم له الا الطعام ، وما زال هذا الفرخ صغير الريش او مازال ابنها قصير الشعر .

(١٧) آض : صار ، والأيض : الصيرورة . الفُحّال : فحل النخل . شذب الشجرة : قطع ماعابها من الأغصان او اصلح جزعها وشذّب اللحاء : قشره . أبّر وابر النخل والزرع : أصلحه . الكَرَب : أصول السعف التي يرتقى بها في النخلة . تشبه ابنها بعد ان شب واشتد ساعده بالفحل من النخل وقد شذب كربه فبدا منتصباً سامقاً .

(١٨) أنشا : أصلها انشأ فليّنت الهمزة للشعر ، وهي من أفعال الشروع اي أخذ ، وهي جواب اذا في البيت السابق . تريد انه اخذ حين شب يمزق اثوابي ليؤدبني ، عجباً له ، أيريد تأديبي وقد شبت وكبرت .

١٩ — إنّي لأُبصِرُ ، في ترجيلِ لِمّتِهِ　　وخطِّ لِحيتِهِ في خدِّهِ ، عجبا

٢٠ — قالتْ لهُ عِرسُهُ يوماً لِتُسمِعَني :　　مهلاً ، فإنّ لنا في أمِّنا أربا

٢١ — ولوْ رأتْني في نارٍ مُسعّرةٍ　　ثمّ استطاعتْ لزادتْ فوقَها حطبا

* * *

(١٩) الترجيل : تسريح الشعر ومشطه . اللِمة : الشعر الذي هو دون شحمة الأذن والجمع لِمَم . انني اعجب لسرعة نموه وقد استطالت لمته وسرحت وامتدت لحيته في خده .

(٢٠) عرسه : زوجه . الأرب : المأرب والحاجة . ان زوجه كانت تتظاهر بالعطف على امه ونهيه عن اذاها وهي تضمر بغضها وتكيد لها .

(٢١) المسعّرة : الموقدة . تريد ان عرسه تتظاهر بالعطف عليها وهي تكرهها حتى لو انها رأتها في نار موقدة لالقت فوق هذه النار بمزيد من الحطب امعاناً في تسعيرها . ويمثل لنا هذان البيتان العداوة المزمنة المتأصلة بين الزوجة وحماتها .

* * *

النثر في العصر الجاهلي

كلمة في النثر : تعريفه ، نشأته ، اقسامه

في كلامنا على الشعر آنفاً (ص٥٥ ومابعدها) فرّقنا بين مفهوم الشعر وبين مفهوم النثر ، فكل مالم يكن شعراً هو نثر ، ولكن ليس كل نثر ادباً .

ان الجماعات البشرية اضطرت منذ وجودها الى ايجاد لغات تكون اداة للتفاهم بين أفراد الجماعة الواحدة ، ومازالت هذه اللغات تنمو وتتسع حتى أصبح لكل جماعة لغة محادثة تتفاهم بها وتتخاطب وتتعامل . ولاريب ان لغة المحادثة هـذه كانت أسبق وجوداً من الشعر ومن أي نوع آخر من أنواع الكلام .

ولكن الانسان لم يقنع باستعمال اللغة وسيلة للتفاهم والتعامل بل أخذ يستعملها بعد ذلك وسيلة للتأثير العاطفي والاستمالة الوجدانية ولاثارة الاعجاب والاطراب ، وكان لامفر له ، ليدرك هـذه الغاية ، من أن يعنى بصوغ عباراته صوغاً جميلاً يكون له في النفوس وقع موسيقي مستعذب ، وأن يضمّن كلامه صوراً خيالية جميلة وأفكاراً مستطرفة ومعاني مستحدثة ، وعندئذ وجد النثر الفني الذي نعتبره من الادب ، وهـذا النثر الفني كان متأخراً في وجوده على الشعر ، لانه وجد حينما أصبحت الامة على حظ ما من النضج الفكري والرقي اللغوي .

فالنثر اذن ضربان : نثر عادي هو هذا الذي يجري على ألسنتنا في حياتنا اليومية ، لانتكلف في إرساله جهداً ولانعاني في تأليفه مشقة ، ولا نتأنّى في تخيّر ألفاظه وصوغ جمله ، وهـذا النثر غير داخل في نطاق الادب . ونثر فني يُتأنى في تخير ألفاظه وصوغ جمله ، ويراعى فيه احتواؤه على مقومات الفن ، كجمال التعبير وقوة التأثير ومراعاته لقواعد عامة تميزه من النثر العادي كجريانه على قواعد الصرف والنحو .

والنقاد ، بعد ذلك ، لايتفقون في وضع حدود مميّزة لهذا النثر الفني ، ولكننا نحب أن نقصر كلامنا هنا على النثر الفني الذي يعد من الادب الصرف لامن الادب بمعناه العام .

هذا النثر الفني منه مايعتمد في أدائه على اللسان وأبرز أقسامه : الخطابة ، والمحاضرات، والمناظرات (أو الجدل) ، ومنه مايكون عماده الكتابة وأهم أقسامه : الرسائل ، والقصص ، والمقالات.

فالخطابة هي الكلام يلقيه الخطيب في حفل من الناس ، متناولاً فيه امراً من امور حياتهم العامة. والمحاضرة هي الكلام يلقيه المحاضر في موضوع من الموضوعات الادبية لجلاء غوامضه وبيان رأي المحاضر فيه . والمناظرة او الجدل هي أن يختلف الرأي بين فريقين في موضوع او فكرة فيحاول كل فريق ان يدعم وجهة نظره بالحجة والمنطق وان يدحض مقال الفريق الآخر ، في ملأ من المستمعين الذين يقفون من الفريقين موقف الحكم ، فينصرون الفريق الذي يرون ان الحق في جانبه . وقد تكون المناظرات كتابية في الصحف والمجلات ويترك الحكم فيها لجمهور القراء . والمناظرات التي تعنينا هنا هي المناظرات الأدبية . وهي اما واقعية (كمناظرة بديع الزمان وأبي بكر الخوارزمي) وإما متخيلة (كمناظرة صاحب الديك وصاحب الكلب في كتاب الحيوان للجاحظ) . والخطابة هي أقدم الفنون الكلامية وجوداً .

والرسالة هي حديث مكتوب ينقل الى شخص غائب . والرسائل منها ما يتناول شؤون الامة العامة ويقوم عليها غالباً ديوان الانشاء ، ومنها مايتنـــاول شؤون الافراد الخاصة ، كالرسائل التي يتبادلها الاخوان والاصدقاء للتهنئة او التعزية او الشكر او العتاب او الاعتذار اوالتوصية ونحو ذلك وكالتي تكون بين ذوي القربى حـــين يفترقون لسفر او غيره . ولكل ضرب من الرسائل اسلوب يختص بـه .

والقصة هي رواية حادثة من الحوادث ولها انواع عديدة منها القصة التاريخية التي تروي حادثاً واقعياً دون ان يضيف الكاتب شيئاً من عنده ، ومنها القصة الخيالية التي تروي حادثاً تبتكره مخيلة الكاتب . وقد تجمع القصة بين الواقع والخيال فينسج الكاتب حول حادثة واقعية تفاصيل يبتدعها خياله . ومن انواع القصة ايضاً القصص التي يرويها رحالة مغامر عن مشاهداته في رحلاته (كرحلة ابن بطوطة ورحلة ابن جبير) . ومنها ايضاً الامثال التي تقص حادثة خيالية صغيرة على سبيل التأديب والارشاد والحكمة (كأمثال ايزوب عند اليونان ، وامثال لافونتين عند الفرنسيين ، وامثال كليلة ودمنة عند الهنود والفرس وكالأمثال المنسوبة الى لقمان عاد عند العرب) ، وربما لم تعتمد هذه الامثال على قصة خيالية بل كانت مستمدة من تجارب واقعية .

وقد عرف العرب في عصورهم المختلفة كثيراً من ضروب القصة فعرفوا القصة الطويلة كقصة

« الف ليله وليلة » و « سيرة عنتر » و « سيرة الظاهر بيبرس » وغيرها ،وعرفوا ضرباً من القصص الصغيرة التي تعتمد على الفكاهة والنوادر وعلى التأنق في الاسلوب واظهار البراعة الادبية واللغوية ، واطلق على هذه القصص اسم « المقامات » وأشهر من عرف بها بديع الزمان الهمذاني والحريري .

وقد عني الغربيون بالقصة عناية خاصة واوجدوا لها قواعد وأصولاً وقسموها بحسب طولها وموضوعها الى أقصوصة (قصة صغيرة) Conte والى قصة Nouvelle . والى رواية (قصة طويلة) Roman

وأما المقالات فهي كلام في الصحف والمجلات يتناول موضوعاً من الموضوعات الأدبية ، ومنها الاحاديث الادبية التي تنقلها محطات الاذاعة .

اساليب النثر العربي

كانت اساليب النثر عند العرب تختلف من عصر الى آخر ومن بيئة الى اخرى ، على ان هذه الاساليب المختلفة تنحصر في أنواع ثلاثة .

١ ـ الاسلوب المسجّع . والسجع هو توافق فواصل الفقرات [١] في الحرف الاخير ، مع تساوي الفقرات على الاغلب ، وذلك نحو قول قُس بن ساعدة : ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات ابراج . ونحو قوله تعالى : « فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَة ، وأَكوابٌ موضوعة » .

٢ ـ الاسلوب المتوازن او المزدوج . وهو ماتساوت فيه الفقرتان او الفقرات في الوزن دون التقفية ، ويستحسن ان تكون فواصله على زنة واحدة . ومنه قوله تعالى : « إنَّ ما تُوعَدُونَ لَصادقٌ ، وإنَّ الدين لواقعٌ » ، وكقول عبد الحميد الكاتب في رسالته الى عبد الله بن مروان : « واعلم ان كل أهوائك لك عدوٌ يحاول هلكتك ، ويعترض غفلتك ، لانها خدعُ إبليس ، وخواتل مكره ، ومصايد مكيدته ، فاحذرها مجانباً لها ، وتوقّها محترساً منها . »

٣ ـ الاسلوب المرسل . وهو مالم يلتزم فيه السجع ولا الازدواج . ومنه قوله تعالى : « ان اللهَ لا يَخفى عليه شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ . هو الذي يصوّركُمْ في الأرحامِ كيفَ يَشاءُ لا إلَهَ إلا هو العزيزُ الحكيم . » وكقول الجاحظ في البيان

(١) الفاصلة من النثر كالقافية من الشعر .

والتبيين : «... وقد يستخف الناس الفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع الا في موضع العقاب ، او في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ؟ والناس لايذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة .»

وقد رأينا ان القرآن يأخذ بحظ من الاساليب النثرية الثلاثة .

النثر في العصر الجاهلي

ونماذج منه

لم يتح للجاهليين ان يعرفوا نثراً فنياً راقياً لفشو الامية فيهم وجهلهم الكتابة وضآلة حظهم من الثقافة الفكرية ، فكانت عناية الجاهليين منصرفة الى الشعر . وقد قدمنا ان الشعر لغة العاطفة وهو لايفتقر الى مايفتقر إليه النثر الفني من الحضارة والرقي العقلي ، ولذلك كان ارتقاء الشعر في الجاهلية اسرع من ارتقاء النثر .

ولانريد من قولنا هذا ان الجاهليين لم يعرفوا النثر فلا شك ان حياتهم العامة كانت تقتضي نشوء هذا الفن ، بل كانت تتيح له ضرباً من الرقي ، ولاريب انهم عرفوا الكتابة لاحتياجهم اليها في معاملاتهم التجارية وصلاتهم الاجتماعية . ولذلك كثيراً ما نجدهم يشبهون آثار الدار بالكتابة كقول المرقش :

الدارُ قَفْرٌ والرسومُ كما رقَّش في ظهر الأديم قلم

فنحن لانذهب مذهب نيكلسون في إنكار معرفة الجاهليين بالنثر الفني ولكن اكثر هذا النثر قد فقد لأنهم لم يسجلوا آثارهم الفنية في نصوص مكتوبة وانما استعملوا الكتابة للاغراض التجارية والسياسية ، وما انتهى الينا من نصوصه عرفناه من طريق الرواية الشفهية لامن طريق النصوص المكتوبة ، وهذا ما أفسح المجال للشك في كثير مما وصلنا منه ، واول نثر في نثق في صحته كل الثقة هو القرآن الكريم .

والنثر الجاهلي الذي بين ايدينا منه النثر المعروف بسجع الكهان ، ومنه القصص ، ومنه الخطب والوصايا ، ومنه الامثال والحكم .

سجع الكهان

وجدت في الجاهلية طائفة عرفت بالكهان كانوا يدّعون معرفة الغيب عن طريق وسطائهم من الجن ، وكان الناس يستشيرونهم قبل إقدامهم على سفر او زواج او قتال وفي غير ذلك من شؤونهم وكانت عقلية العرب في العصر الجاهلي تتقبل امثال هذه المعتقدات الباطلة . وقد اشتهر من الكهان والكواهن سطيح الذئبي وشق بن مصعب الانماري والمأمور الحارثي وحازي جهينة وعُزّى سلمة وطريفة الخير والزرقاء بنت زهير ، وغيرهم ، وهم يروون عن هؤلاء الكهان قصصاً عجيبة عن وقوفهم على انباء الغيب ومعرفتهم بالخبآت .

وقد روي لنا عن هؤلاء الكهان نثر اشتهروا به وعرف بسجع الكهان ، وكانوا يعتمدون في كلامهم على السجع لتعمية أقوالهم وللتأثير في النفوس ولصرف السامع عن المعنى الى المبنى . وكانوا يعتمدون في كلامهم ايضا على الاقسام الغريبة بظواهر الطبيعة وغيرها كما كانوا يصطنعون الالفاظ الغريبة والرموز الموهمة .

وعلى الرغم من أن أكثر ما وصلنا من سجع الكهان منحول قد وضع في العصر الاسلامي لاغراض دينية وسياسية ، فإننا لانشك في ان الجاهليين قد عرفوا هذا السجع حقاً ، وقد روي ان رجلاً اتى الرسول فخاطبه بكلام مسجوع فقال له: أسجعاً كسجع الكهان . وفي القرآن نفسه ما يدل على وجود هذا السجع في الجاهلية ، لان الجاهليين وجدوا بعض المشابهة بين سجع الكهان وبين الاسلوب القرآني فزعموا أن محمداً كاهن أو شاعر فرد عليهم القرآن هذا الزعم كقوله تعالى: « وما هو بقولِ شاعرٍ قليلاً ماتُؤمنونَ ، ولا بقولِ كاهنٍ قليلاً ماتذكّرُون ، تنزيلٌ من ربِ العالمين . » (الحاقه آية ٤١ - ٤٢) .

وفيما يلي نموذج للسجع المنسوب للكهان :

قالت زبْراء الكاهنة تحذر بني رئام من اعدائهم بني ناعب وبني داهن :

والأوحِ الخافِقِ (١) ، والليلِ الغاسِقِ (٢) والصباحِ الشارقِ ، والنجمِ

(١) الأوح : الهواء بين السماء والارض . خفقت الريح : صوتت بهبوبها . (٢) الغاسق : المظلم .

الطارق(٣)، والمُزْنِ الوادِق(٤)، إن شجرَ الوادي ليأْدُو اختلا (٥)، ويحْرُقُ أنيابًا عُصْلاً (٦)، وإنّ صخرَ الطَّوْدِ ليُنْذِرُ ثُكْلاً (٧)، لا تجدُون عنه مَعْلاً (٨).

الحكم والأمثال

يراد بالحكم هذه الأقوال الموجزة العبارة التي تحمل مع إيجازها معنىً صائباً مستنبطاً من التأمل او من تجارب الحياة فتشيع هذه الحكم وتحفظ، وهي تأتي في النثر كما تأتي في الشعر. وقد اشتهر من حكماء الجاهليين قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي وعامر بن الظَّرب، والجاهليون ينسبون جملة من الحكم الى لقمان عاد. واشتهر بالحكم من شعراء الجاهلية زهير بن ابي سلمى وطرفة بن العبد وأمية ابن أبي الصلت.

ويفرقون بين معنى الحكمة وبين معنى المثل بأن المثل يعتمد على حادثة معينة وأنه يضرب في الحوادث المماثلة لها، ولذلك فهذه الأمثال تدخل عند البلاغيين في باب الاستعارة التمثيلية، ولذلك ايضا لا يجوز التصرف فيها ولا بد من روايتها على اصلها.

وربما كانت الحادثة التي يعتمد عليها المثل حادثة خيالية ضربت حولها طائفة من الأمثال، كهذه الأمثال التي تضرب على لسان البهائم والطيور وتعرف «بالأمثال الفرضية». ويروون منها قصة الأرنب التي التقطت تمرة فاختلسها الثعلب فاحتكما الى الضب، فقالت الأرنب: يا أبا الحِسْل! قال: سميعاً دعوت. قالت: أتيناك لنحتكم إليك. قال: عادلاً حكمتما. قالت: فاخرج إلينا. قال في بيته يؤتى الحكم. قالت: إني وجدت تمرة. قال: حلوة فكليها. قالت: فاختلسها الثعلب. قال: لنفسه بغى الخير. قالت: فلطمته. قال: بحقك اخذت، قالت: فلطمني. قال: حر انتصر. قالت: فاقض بيننا. قال: قد قضيت. فذهبت اقوال الضب كلها مثلاً.

---

(٣) الطارق: الذي يأتي ليلاً، ويطلق ايضاً على النجم المعروف بكوكب الصبح. (٤) المزن: السحاب. الوادق: الممطر من ودَقت السماء: امطرت. (٥) يأدو: يختل وأدوت له: خدعته، والختل: الخداع. (٦) حرق أنيابه: حك بعضها ببعض فسمع لها صريف، ويستعمل عند الغضب فيقال: إنه يحرُق علي الأُرَّم، اي الأسنان. العُصل: المعوجة، والمفرد أعصل وعصلاء. (٧) الطود: الجبل والجمع أطواد. (٨) المعل: المنجى والملاذ.

والأمثال والحكم هي أصح ما وصلنا من النثر الجاهلي لأن قالبها الثابت وإيجازها يعينان على سهولة حفظها وتناقلها. وهي أيضاً أفضل مانستدل به على حياة العرب العقلية والاجتماعية وعلى لغتهم لأنها مستمدة من تجارب حياتهم في السلم والحرب، ولأنها مقولة بلغتهم العادية دون تنميق ولا تهذيب، وهذا ما يعلل أن في بعض الامثال خروجاً على قواعد النحو والصرف كقولهم: «مكرهٌ أخاك لابطل»، وقولهم: «إذا عز أخاك فَهُنْ»، وقولهم: «أعط القوس باريها» بإسكان الياء. ولهذا فإن لهذه الأمثال في نظر المؤرخ قيمة كبيرة، وقد قال فيها ابن عبد ربه: «هي ابقى من الشعر، وأشرف من الخطابة.»

نماذج من امثال الجاهليين:

١ — سَبَقَ السيفُ العَذَلَ. (يُضرب لمن يندم على اقدامه على امر لاسبيل لى رجوعه عنه)

٢ — تجوعُ الحُرّةُ ولا تأكلُ بِثَدْيَيْها. (يضرب لمن يترفع عن الدنيّة)

٣ — يَداكَ أوْكَتا وفُوكَ نَفَخ. (يضرب لمن يقع في سوء فعله)

٤ — مكرهٌ أخاكَ لابطل. (يضرب لمن يحمل على مايكره)

٥ — إنّ العَوانَ لاتُعَلَّمُ الخِمْرَة (يضرب للخبير بالأمر العارف به)

٦ — رَمَتْني بدائِها وانسَلَّتْ. (يضرب لمن يعيّر غيره والعيب فيه)

٧ — إنّ البُغاثَ بأرضِنا يَستَنْسِر. (يضرب للضعيف يصير قوياً، والذليل يعز بعد الهوان)

---

(١) العذل: الملامة. (٣) أوكى: ربط واصله، فيما يقال، ان رجلاً نفخ زقاً وركبه في النهر فانحل الوكاء وفرغ الزق من الهواء وغرق الرجل، فاستغاث بأعرابي فقال له هذا المثل. (٤) كان الصواب ان يقول: مكره اخوك، ولكنه ورد هكذا فلم يغير. (٥) العوان: التي كان لها زوج. الخمرة: لبس الخمار. (٦) انسل: انطلق في استخفاء. (٧) البغاث: ضعاف الطير ←

٨ – ان كنتَ ريحاً فقد لاقيتَ اعصاراً . (يضرب للقوي يلقى اقوى منه)

٩ – أحشَفاً وسُوءَ كِيلَة (يضرب لمن تجتمع عليه المصائب)

١٠ – اذا كنت في قوم فاحْلِب في انائهم . (يضرب للمجاراة والمداراة)

١١ – مجاهرةً اذا لم أجدْ مَخْتلاً (يضرب لمن يأخذ حقه قسراً)

١٢ – كنتَ كُراعاً فصِرت ذِراعاً (يضرب لمن يعز بعد ذل)

١٣ – كلُّ فتاةٍ بأبيها مُعجَبة . (يضرب لمن يعجب بما يخصّه)

١٤ – من مأمَنِه يُؤْتى الحَذِر . (يضرب لمن أتي من حيث لم يحتسب)

١٥ – الصيفَ ضيّعتِ اللبن . (يقال لمن يفرّط في الأمر ثم يطلبه)

١٦ – زوج من عُود خيرٌ من قُعود . (يضرب الرضا بالبعض دون الكل)

١٧ – لوذاتُ سِوارٍ لَطَمَتْني (يضرب للعزيز يهينه الذليل)

١٨ – كلُّ شاةٍ برجلها تُناط . (يضرب الذنب يؤخذ به صاحبه)

١٩ – أبْرِقْ لمن لا يعرفُك . (يضرب للجبان يتهدد غيره)

٢٠ – لم أجدْ لِشَفرتي مَحزّاً . (يضرب لمن يطلب الحاجة في غير موضعها)

* * *

وصغارها وباداة مثلثة . تستنسر : تصير نسوراً . (٨) الاعصار : الريح الشديدة والجمع اعاصير . (٩) الحشف : أردأ التمر . الكيلة : الاسم من الكيل . (١١) المختل : التحايل والخداع . (١٢) الكراع : مادون الركبة الى الكعب . (١٧) ذات سوار : كناية عن الحرة . (١٨) تناط : تعلق وتربط . (١٩) أبرق الرجل : هدد وتوعد . (٢٠) المحز : موضع الحز ، اي القطع .

الخطابة

توطئة

يشتق اللغويون لفظ الخطابة من الخطب اي الامر الجلل ، لان الخطابة تقوى إبان الخطوب.
والخطابة فن من فنون البيان القولي وسيلته كلام يلقى على جماعة من الناس ويعتمد على التأثير العاطفي والاقناع العقلي ؛ ولكن حظ الخطابة من العنصرين العقلي والعاطفي يتفاوت حسب انواع الخطب، فالخطابة السياسية والدينية تتجه اكثر ما تتجه الى استمالة العواطف وتحريك المشاعر، والخطابة القضائية وخطابة المحافل الادبية والعلمية ترمي في المرتبة الاولى الى الاقناع العقلي بصواب فكرة ما او خطئها.

ونشأة الخطابة لدى الامم نشأة طبيعية لانها وليدة الحاجة ، فمنذ أقدم العصور احتاجت الامم الى الخطابة تصطنعها في الحض على القتال والاخذ بالثأر او في الدعوة الى السلم وتجنب سفك الدماء واصطنعها كذلك فيما يعرض لها من مناسبات مختلفة ، فكذلك عرف العرب الخطابة منذ أقدم عصورهم الا انهم لم يعرفوا من انواعها الا مامست الحاجة اليه وما اقتضته ظروف بيئتهم البسيطة ، ولكن أمماً أخرى غير العرب عرفت قبلهم بقرون ضروب الخطابة الاخرى كاليونان والرومان ، وقد ازدهرت الخطابة في بيئتهم ازدهاراً عظيماً .

والذي أدى الى رقي الخطابة لدى اليونان هـو شيوع النظام الديموقراطي في بلادهم ؛ وحرية القول من أقوى العوامل في رقي الخطابة ، والسياسية منها بخاصة ، فازدهرت الخطابة لذلك عندهم ونبغ من خطبائهم : بركليس Pericles (توفي سنة ٤٢٩ ق . م) وديموستنيس Demosthenes (٣٢٢ ق . م) .

وكذلك ارتقت الخطابة عند الرومان حين انتشرت فيهم الآداب اليونانية وأخـذوا يصارعون حكامهم المستبدين ، وفي مقدمة خطبائهم شيشرون Cicero (٤٣ ق م)

وقد وضعت للخطابة أصول وقواعد منذ القديم ، وأشهر الكتب التي تحدثت عنها كتاب «الخطابة» لأرسطو الذي ترجمه الى العربية اسحاق بن حنين ، وكان له أثر بعيد في البيان العربي .

وقد عرفت انواع كثيرة للخطابة أبرزها الخطابة السياسية ، والقضائية ، والدينية ، وخطب المحافل والمجامع .

فالخطابة السياسية هي التي تدور حول شؤون الدولة والسياسة ، ومنها الخطب التي تلقى في المؤتمرات السياسية والمجالس النيابية ، وهذا النوع يتوقف ازدهاره على أمرين : كثرة الاحداث وشيوع الحرية ، ولذلك نجد الخطابة السياسية تزدهر إبان الحروب والثورات والفتن لانها فن شعبي تحرك به عواطف الجماهير . وقد قدمنا ان ارتقاء الخطابة لدى اليونان كان مديناً للنظام الديموقراطي الذي كان سائداً عندهم آنئذ ، وقد ازدهرت هذه الخطابة عند العرب منذ بدء عصر الفتوح وقيام الفتن والاحزاب السياسية .

والخطابة القضائية هي التي تلقى في دور القضاء وقاعات المحاكم ، وكان لهذه الخطابة ايضا شأن عظيم عند قدماء اليونان لان نظامهم القضائي كان يقوم على الاحتكام الى الشعب وكان على المتهم أن يدافع عن نفسه بنفسه . وهذا النوع من الخطابة لم يعرفه العرب الا في العصور الحديثة حين عرفوا الحياة القضائية الراقية ، ومن الجلي ان جل اعتماد الخطابة القضائية على البراهين والادلة القانونية ولكن لها ايضا صلة وثيقة باثارة المشاعر واستمالة عواطف المحكمين والقضاة .

والخطابة الدينية هي هذه الخطب التي تلقى في مجال الوعظ والهداية في دور العبادة لارشاد الناس الى عمل الخير واجتناب الشر ، ومن هذا القبيل خطب الجمعة والاعياد . وقد عرف العرب هذا الضرب من الخطابة منذ الجاهلية .

وخطب المحافل هي التي تلقى في مناسبات الاستقبال او التكريم او التأبين . ومن هذا الضرب ايضا ماعرفه العرب في جاهليتهم من خطب النكاح للتنويه بمآثر كل من الزوجين .

واخيرا هناك خطب المجامع الادبية والعلمية وهي التي تعرف بالمحاضرات .

ومهما يكن نوع الخطبة فلا بد للخطيب الممتاز من ان يتحلى بصفات تساعده على الاستمالة العاطفية والاقناع العقلي ، كجهارة الصوت ووضوحه وطلاقة اللسان وحضور البديهة وسرعة الخاطر وطول النفس ورباطة الجأش ، ولابد له من ان يكون متفهما لنفسية السامعين تفهماجيداً ، وقادراً على استمالتهم وكثيراً مايتغلب جمال العرض وحسن البيان على قوة الحجة وأدلة المنطق.

وللخطابة اسلوبها الخاص الذي يغاير الاسلوب الكتابي لان الخطيب محتاج ، كما قدمنا ، الى تحريك مشاعر مخاطبيه واثارة اهتمامهم ، وهذا لايتسنى الا اذا اتخذ الخطيب الوضوح مطية له فلا

بشكل الغموض والتعمق اللذين يحتاجان الى امعان الفكر ، وذلك أمر يشق على المستمع ومجاله في القراءة التي تسمح بالتفكر والتأمل . ولابد للخطيب ايضا من استعمال المألوف من العبارات والقريب من المعاني وان يحسن عرض افكاره وترتيبها والتدليل عليها ليسهل الاقتناع بها والميل اليها ، ولابد ايضامن مراعاة موضوع الخطبة وحال المخاطبين ونفسيتهم ليطيل في مجال الاطناب ويوجز اذا وجب الايجاز .

الخطابة في العصر الجاهلي

كانت نشأة الخطابة عند العرب ، شأنها عند سائر الامم ، نشأة طبيعية نتيجة لعوامل البيئة وحاجاتها ، لاسيما وأنّ الأمية كانت سائدة بين العرب في العصر الجاهلي فلم يكن للكتابة كبير شأن فكانت الوفود تقوم مقام الرسائل ، وكانت القبيلة تجتمع إبّان الملمات والخطوب فيقوم فيها خطيبها محرضاً على القتال والغزو او داعياً الى الصلح او واعظاً ، الا ان دواعي الخطابة كانت محدودة في العصر الجاهلي فكانوا يحتاجون اليها في المواسم والاسواق وفي التحريض على القتال او الدعوة الى السلم وفي بذل الوصايا والمواعظ كما كانوا يحتاجون اليها في مناسبات الزواج والتهنئة وفيما كان يقوم بينهم من منافرات كما كانت أداة الوفود التي تسعى بين القبائل او التي تفد على الملوك والامراء .

ولابد لرقي الخطابة في أمة من الامم من ان تكون هذه الامة على حظ لابأس به من الحضارة والرقي العقلي والتنظيم الاجتماعي ولكن حياة العرب في الجاهلية كانت أقرب الى البساطة ، وعقليتهم أدنى الى السذاجة ، فضلاً عن شيوع الامية وقلة الاحداث العامة . كل ذلك لم يهيئ للخطابة من الرقي والنضج مثلما هُيّئ لها في العصر الاسلامي والاموي ، فظلت دوافعها محدودة ، وأغراضها محدودة ، وظلت في لغتها واسلوبها وافكارها أقرب الى البساطة والسذاجة ، في حين ان الشعر كان على حظ أوفر من الرقي والنضج . ولذلك نجد من طوابع الخطابة في الجاهلية قصر الفقرات وعدم ترابط الجمل بعضها ببعض ، لان الخطبة كانت في الغالب جملة من الافكار تدور حول فكرة عامة ولكن هذه الافكار غير مرتبة ترتيباً منطقياً ، وهي مطبوعة بطابع الحكمة والمثل . وهذه الافكار منتزعة من واقع الحياة الجاهلية وتجاربها المحدودة .

وربما كانت الصلة في ذلك العصر قوية بين الشعر والخطابة لان الجاهليين كانوا يعيشون بحسهم اكثر مما يعيشون بعقلهم ، فنتبين هذه الصلة سواء في الصياغة ، اذ كان السجع غالباً على الخطب مما يجعل لها تأثيراً موسيقياً قريباً من تأثير الشعر ؛ اوفي الافكار البسيطة التي لاتنتظمها وحدة فنية .

ومن الطوابع الغالبة على الخطابة في العصر الجاهلي الايجاز في التعبير ، وهي ميزة طالما فخر بها

العرب واعتدّوها خاصة بهم ووقفاً عليهم ، وكان يصبّون خلاصة تجاربهم وتأملاتهم في جمل قصيرة بليغة سرعان ماتتداولها الالسن وتجري مجرى الامثال ، وكانت الخطب قصاراً في جملتها ، وربما تخللها شيء من الشعر .

وعلى الرغم من قلة عناية الجاهليين بالصنعة وتزويق الكلام وايثارهم الطبع على التكلف فإنهم كانوا يتكلفون في القاء خطبهم فيروي الجاحظ ان من الخطباء من كان ينتحل سمة الاشداق وهدل الشفاه وكانوا يتخللون كلامهم بألسنتهم تخلل الباقرة الكلاء بلسانها .

وكان للخطيب منزلة مرموقة عند الجاهليين، وخطباء القبيلة كانوا ، في الغالب ، من اشرافها وسادتها ، يتوجهون الى عشيرتهم بالنصح او الوعظ او يحرضونهم على قتال اعدائهم ، وكانوا غالباً ممن عرفتهم القبيلة بصواب النظر وسداد الرأي ، إليهم يحتكم للفصل في المنازعات بين افراد القبيلة ، ولذلك كانت القبيلة تفخر بخطبائها فخرها بشعرائها ، كقول قيس بن عاصم المنقريّ يفخر بقومه :

خطباءُ حين يقومُ قائلُهم ... بيضُ الوجوه مَصاقعٌ لُسْنُ

وكقول ربيعة بن مقروم الضبّي :

ومتى تقمْ عند اجتماع عشيرةٍ ... خطباؤنا ، بين العشيرة يُفْصَلِ

وكانت القبيلة تحتاج كثيراً الى خطبائها حين تفد على الملوك او الولاة ، من ذلك الخطب التي رويت لنا على لسان وفود العرب الى كسرى حين حطّ من شأن العرب ، ومن ذلك ايضا خطب وفود القبائل العربية عند محمد عليه السلام .

بل زعم بعض الرواة ان الخطيب أصبح في الجاهلية فوق الشاعر حين اتخذ الشعراء الشعر مكسبة ، فقال ابو عمرو بن العلاء : «وكان الشاعر في الجاهلية يقدّم على الخطيب بفرط حاجتهم الى الشعر الذي يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ويهوّل على عدوهم ومن غزاهم ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ويهابهم شاعر غيرهم فيراقب شاعرهم ؛ فلما كثر الشعر والشعراء، واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا الى السوقة وتسرعوا الى اعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر.»

وكانت للخطابة عادات وأصول مألوفة فيروي الجاحظ انهم كانوا يخطبون على رواحلهم في المواسم العظام والمجامع الكبار ، وكانوا يلوثون العمامة ويتخذون المخاصر والعصي والقسيّ ، يتكئون عليها او يشيرون بها والى ذلك يشير الانصاري بقوله :

يصيبون فصل القول في كل خطبة ... إذا وصلوا أيمانهم بالمخاصر

ويرى الجاحظ ان حمل العصا دليل على التأهب للخطبة ، والتهيؤ للاطناب والاطالة ، وذلك شيء خاص في خطباء العرب ومقصور عليهم .. » (البيان والتبيين ج ٣ : ٦٧)

وكانوا يمدحون في الخطيب جهارة الصوت وفخامة المنطق وقلة التلفت وكثرة الريق ورباطة الجأش ويعيبون فيه البُهر والعي ودقة الصوت والارتعاش وكثرة التلفت وأن يمس ذقنه وسباله او يتنحنح .

وكان لكل قبيلة ولكل بلدة خطيبها او خطباؤها الناطقون باسمها . ومن اقدم خطباء العرب، فيما يروون ، كعب بن لؤي ، ومن خطباء تميم المشهورين أكثم بن صيفي ، وحاجب بن زرارة، وقيس ابن عاصم ، وعمرو بن الاهتم المنقري ، ومن خطباء بكر الحارث بن عُباد، وقيس بن مسعود وهانئ ابن قبيصة الشيباني ومن خطباء بني عامر خالد بن جعفر، وعلقمة بن عُلاثة ، وعامر بن الطُفيل. ومن بني سُليم عمرو بن الشريد . ومن غطفان قيس بن خارجة خطيب داحس والغبراء ، وخُويلد ابن عمرو خطيب يوم الفجار . ومن بني أسد قبيصة بن نُعيم .ومن كلب زهير بن جناب .ومن قريش عتبة بن ربيعة . ومن بني ضبة حنظلة بن ضرار . ومن إياد قُس بن ساعدة وعُذْرة بن حُجْرة ، ومن وائل سحبان ، وغيرهم كثير ، إلا ان جل هؤلاء الخطباء لم يصلنا شيء من خطبهم وكثير مما وصلنا من خطب الجاهليين منحول موضوع .

نماذج من الخطب الجاهلية

خطبة قُس بن ساعدة

أيُّها الناسُ اجتَمِعُوا ثم اسمَعُوا وعُوا (١)، مَن عَاش مات ، ومَن ماتَ فات ، وكُلُّ ماهو آتٍ آت . آياتٌ مُحْكَمات (٢)، مَطرٌ ونَبات ، وآباءٌ وأُمَّهات ، وذاهبٌ وآت ، ونجومٌ تَمُور (٣) وبُحور لاتَغُور (٤)، وسَقفٌ

(١) عُوا : امر من وَعى يَعي الكلام : حفظه واستوعبه : (٢) الآيات : ج آية : العلامة .
(٣) مار الشيء يمور : تحرك واضطرب . (٤) غار الماء يغور : غاض وذهب في الأرض .

مَرفوع ، ومِهادٌ مَوضوع (٥) ، وليلٌ داجٍ (٦) ، ونهارٌ ساج (٧) ، وسماءٌ ذاتُ أبراج (٨) . مالي أرى الناسَ يَموتونَ ولا يَرجِعون ؟ أرَضُوا فأقاموا ، أم حُبِسوا فناموا . يامعشرَ إياد ، أينَ ثمودُ وعاد (٩) ، وأينَ الآباءُ والأجداد ؛ أينَ المعروفُ الذي لم يُشكَرْ ، وأينَ الظُلمُ الذي لم يُنكَر ! أقسمَ قُسٌ قسماً حقاً إنّ لله لَدِيناً هو أرضى عندَه من دينِكم .

في الذاهبينَ الأوّلِيـ — ـنَ من القرونِ لنا بَصائِرْ (١٠)
لمّا رأيتُ مَوارداً — للموتِ ليسَ لها مَصادر (١١)
ورأيتُ قومي نحوَها — تَمضي ، الأكابرُ والأصاغر
لايرجِعُ الماضي ولا — يَبقى ، من الباقينَ غابر (١٢)
أيقنتُ أنّي لامحا — لةَ حيثُ صار القومُ صائِر (١٣)

* * *

(٥) المهاد : الفراش والبساط ومنه قوله تعالى : أَلَمْ نَجعلِ الأرضَ مِهادا . ويريد بالسقف السماء وبالمهاد الأرض . (٦) داج : مظلم ، ودجا الليل : أظلم . (٧) ساج : ساكن والفعل سجا يسجو . (٨) الأبراج مجموعات النجوم التي يبدو لمن في الأرض ان الشمس تجوز فيها في فصول السنة المختلفة . واسماء هذه البروج هي : الحَمَل والثور والجوزاء ، لفصل الربيع . السرطان والأسد والسنبلة ، لفصل الصيف . والميزان والعقرب والقوس ، لفصل الخريف . والجدي والدلو والحوت ، لفصل الشتاء . وقد وضع هذه الاسماء اليونانيون استمداداً من معتقداتهم . (٩) ثمود وعاد : من قبائل العرب القديمة البائدة ، وقد أشار اليها القرآن في أكثر من موضع . (١٠) البصائر ج بصيرة : مايستدل به الرجل من رأيه وعقله على مايغيب عنه من الأمور ، وهي العِبَر ايضا . (١١) الموارد : من وَرَدَ الماء اذا أتاه ليشرب ، وصدر عنه : شرب ورجع ، اي ان الناس يموتون ولا يرجعون . (١٢) الغابر : الباقي ، المقيم . (١٣) صار الرجل الى المكان : انتهى اليه . وصار هنا تامة بمعنى ذهب فإن كانت بمعنى (تحوّل) فهي الناقصة .

* * *

دراسة الخطبة

أ — جو النص

صاحب النص

لانعرف الشيء الكثير عن حياة قُس بن ساعدة الايادي ، قائل هذه الخطبة . وقد اشاد مؤرخو العرب بذكره وعلو منزلته في الخطابة والحكمة ، ونسبوا اليه كثيراً من العادات التي جرى عليها خطباء العرب فقالوا إنه أول من وقف على شَرَف ، وأول من اتّكأ على السيف والعصا ، وأول من قال في خطبته « أمّا بعد » . ورووا أن الرسول عليه السلام سمعه قبل البعثة يخطب في عكاظ على جمل أورق وأنه ذكر ذلك لوفد إياد حين قدم عليه وأبدى إعجابه بقس ودعا له . وكذلك يروون أنه كان متصلاً بقيصر الروم يفد عليه ويحاوره . وقد رجّح كاتب مادة « قس » في دائرة المعارف الاسلامية ان قساً كان على المسيحية ولكنه لم يكن اسقفاً لنجران كما تزعم المصادر العربية . ويرى هذا المستشرق ايضاً أن قساً لابد ان يكون وجوده متقدماً على الجيل المعاصر لمحمد عليه السلام لأن قبيلة إياد في ذلك العهد كانت قد زالت من الوجود كقبيلة متميّزة .

وترجمة قس مضطربة اشد الاضطراب في المراجع العربية وهم يضيفون إليه الأعاجيب حتى زعم بعض المؤرخين انه عُمّر سبعمائة سنة وانه أدرك بعض الحواريين وأنه كان على دين إبراهيم . وكذلك اضطربت رواية خطبة قس التي قالوا ان الرسول سمعها منه في عكاظ ، ومنهم من أضاف اليها قوله : سيأتيكم حق من هذا الوجه ، وأشار بيده الى مكة . قالوا له : وما هذا الحق ؟ قال : رجل أبلج أحور من ولد لؤي بن غالب يدعوكم الى كلمة الإخلاص وعيش ونعيم لاينفدان ، فاذادعاكم فأجيبوه ، ولو علمت أني أعيش الى مبعثه لكنت اول من يسعى إليه . » . وقد شك المحققون في هذا الحديث وضعّفوه حتى جزم بعضهم بأن حديث قس بن ساعدة من جميع جهاته باطل (السيرة الحلبية ج ١ : ٢٦٩) . وأغلب الظن انّ قصة قس وخطبته قد عبث فيها الرواة وتزيّدوا فيها ليضيفوا قصة الى هذه القصص التي تتحدث عن مجيء محمد وتتنبأ بمقدمه ومبعثه .

المناسبة

قال قس هذه الخطبة ، فيما رووا لنا من حديث الرسول ، في عكاظ وذلك قبل البعثة النبوية . وغاية قس من هذه الخطبة وعظ قبيلته إياد ، لما عرف به من رجاحة العقل وإصابة الرأي وسداد النظر.

ب — التحليل الأدبي

الاقسام والافكار العامة

ليس في هذه الخطبة أقسام واضحة وانما هي مجموعة من الافكار الثانوية تدور حول فكرة رئيسية هي أن الناس كلهم الى فناء فليعتبروا وليتعظوا وان المسلك الذي يسلكون ليس بالذي يرضى عنه الله . وفكرة الفناء هذه نجدها عند كثير من حكماء الجاهليين وشعرائهم ، وهي تدل على مدى الاضطراب الروحي والقلق الفكري اللذين كان يعانيها العرب قبيل الاسلام ، وهذا ما مهّد لسرعة انتشار الدين الاسلامي حين ظهوره .

وعلى كل لانجد في فكرة النص كبير عمق وما ذاك إلا لأن العقلية العربية كانت عصرئذ في عهد طفولتها ، وكانت جد متأخرة عن عقلية الامم القديمة ذوات الحضارة التليدة كاليونان والرومان والفرس ، ولم تتفتح العقلية العربية إلا بعد انطلاق العرب من جزيرتهم واتصالهم بالامم الاخرى. ولكن فكرة النص ، على سذاجتها ، كانت تمثل شيئاً من النضج بالقياس الى عقلية الجاهليين .

العاطفة

يحرص قس في خطبته هذه على دفع قومه الى التفكير والاعتبار بمظاهر الكون ، فهو يتألم لما يراه من مسلك قومه الضال . وهو الى ذلك يائس لايرى من الموت منجاة ، وموقن ان مصيره مصير الذين هلكوا قبله جميعاً .

الأسلوب

كان السجع غالباً على خطب الجاهليين كما يبدو لنا من خطبة قس هذه ، ولامرية انه كان لسجع الكهان اثر في فشو السجع في خطابة الجاهليين بل وفي الخطابة الدينية بعد الاسلام . والسجع وسيلة ناجحة لتغطية ضعف الفكرة ، فحين تكون الفكرة ضعيفة او ساذجة لاعمق فيها يعمد صاحبها الى تمويهها بالقوالب اللفظية الجميلة الخدّاعة . وهذا مايفسر شيوع السجع في الجاهلية ثم شيوعه بعدئذ

في اواخر القرن العباسي ، حين خمدت القرائح ونضب معين الابتكار . ومع ذلك فإن سجع الجاهليين كان أقرب الى الطبع من سجع المتأخرين .

ونجد بعد ذلك ان خطبة قس سهلة الالفاظ ، قصيرة العبارات ، وإيجاز عباراتها يطبعها بطابع الحكمة والمثل . وفي هذه الخطبة نجد بضعة ابيات من الشعر تدور في معناها حول فكرة الخطبة الرئيسية . ولم يكن الاستشهاد بالشعر امراً ملتزماً في خطب الجاهليين والاكثر خلوها منه .

وقد زعم لنا مؤرخو الادب ان قساً اول من قال في خطبته : اما بعد ، ومع ذلك لانجده استعمل هذه العبارة في خطبته الوحيدة التي وصلتنا ، وما وصلنا من خطبه الاخرى لايعدو عبارات متفرقة لاغناء فيها ، واذن فلا نستطيع قبول احكام لاتؤيدها النصوص ، ولايبعد ان الرواة حين طاب لهم أن ينسبوا الى امرىء القيس اوليات كثيرة في الشعر طاب لهم ايضاً ان ينسبوا الى قس اوليات في الخطابة حرصاً على تعيين نقطة بدء للتاريخ الادبي .

وعلى كل فهذه الخطبة نموذج للخطابة الجاهلية في بساطة أفكارها وعدم ترابط جملها وإيجاز فقراتها وقصرها .

* * *

خطبة لأكثم بن صيفي

خطب اكثم حين وفد على كسرى على رأس وفود النعمان اليه فقال :

إنَّ أفضَلَ الاشياءِ أعاليها ، وأعلى الرجالِ مُلوكُها ، وأفضَلَ الملوكِ أعمُّها نفعاً ، وخيرَ الأزمنةِ أخصبُها ، وأفضَلَ الخُطباءِ أصدقُها . الصدقُ مَنجاةٌ (١) ، والكذبُ مَهواةٌ (٢) ، والشرُّ لَجاجَةٌ (٣) ، والحزمُ مَركَبٌ صَعْبٌ ، والعجزُ مَركَبٌ وطيءٌ (٤) . آفَةُ الرأيِ الهوى (٥) ، والعجزُ مِفتاحُ الفَقْرِ ، وخيرُ

---

(١) منجاة : باعث على النجاة . (٢) مهواة : من هوى يهوي اي سقط ، ومهواة : دافع الى السقوط . (٣) لجاجة : من لجّ يلجّ في الخصومة اي تمادى وعنَد . ويريد أن التمادي في الخصومة هو أصل الشر . (٤) الوطيء : السهل ، اللين . (٥) لآفة : العاهة وما يفسد الامر ، آفة يؤوفه :

الأمورِ الصبرُ. حُسنُ الظنِّ ورطةٌ (٦)، وسوءُ الظنِّ عِصمةٌ. إصلاحُ فسادِ الرعيةِ خيرٌ من إصلاحِ فسادِ الراعي. من فسدتْ بطانتُه كان كالغاصِّ بالماءِ (٧). شرُّ البلادِ بلادٌ لا أميرَ بها. شرُّ الملوكِ مَن خافه البريءُ. المرءُ يعجزُ لا المحالة (٨). أفضلُ الأولادِ البررةُ. خيرُ الأعوانِ مَن لم يُراءِ بالنصيحةِ (٩). أحقُّ الجنودِ بالنصرِ مَن حسُنت سريرتُه (١٠). يكفيكَ من الزادِ ما بلّغكَ المحلَّ (١١). حسبُكَ من شرٍّ سماعُه (١٢). الصمتُ حُكمٌ وقليلٌ فاعلُه (١٣). البلاغةُ الإيجازُ. من شدَّدَ نفَّرَ، ومن تراخى تألَّفَ (١٤).

كلمة في الخطبة وقائلها

ان مانعرفه عن حياة أكثم بن صيفي، قائل هذه الخطبة، ليس بالكثير، فهو من أشراف قبيلة بني تميم وكانت له في قومه منزلة الخطيب المفوّه والحكيم المجرّب والمشير الناصح، وكان من اوائل

أفسده. الهوى: الشر والميل مع نوازع النفس (٦) الورطة: الهلكة وكل أمر شاق يعسر التخلّص منه (٧) بطانة الرجل: من يلازمه من الأصدقاء، مأخوذة من بطانة الثوب التي تلازمه. والمعنى ان من فسد اصدقاؤه فلا حيلة في إصلاحه فهو كمن يشرق بالماء لاسبيل إلى إزالة غصّته. (٨) المحالة: الحيلة. يريد ان المرء لابد من ان يدركه العجز مهما طال به العمر. (٩) يرائي: يري خلاف ما هو عليه ويقول بلسانه خلاف مايعتقده في نفسه. (١٠) السريرة: الطويّة، يريد أن النصر يقوم على الإخلاص. (١١) الزاد: ما يتزود به المرء عند السفر من المأكل والمشرب. يريد: حسبك من الزاد ماتحتاجه في سفرك حتى تبلغ المكان الذي تقصد، وهذه الحكمة للحث على القناعة ومجانبة الطمع. (١٢) السماع بالشر خير من إتيانه. (١٣) الحُكم: الحكمة، ومنه قوله تعالى: «وآتيناه الحكم صبياً». (١٤) من كان شديداً فظاً في معاملته الناس نفروا منه ومن عاملهم بالحسنى والملاينة التفّوا حوله.

العارفين بانساب العرب وامثالهم ، وهذه الخصال هي التي حملت النعمان على اختياره في وفـــده الى كسرى ، وجعله اول المتكلمين . وقد عمر أكثم حتى بلغ التسعين فيما يروي الرواة . وادرك بعثة الرسول، وقد روى له ابن سلام كلاماً يدعو فيه قومه للإسلام .

قال أكثم خطبته هذه حين قدم على كسرى في وفد النعمان ، وقصة هذا الوفد مشهورة في كتب الادب وملخصها ان النعمان بن المنذر قدم على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين ، فافتخر كل بلاده وملوكه ، فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الامم حتى الفرس ، مما أثار كسرى فجعله يذكر فضل كل امة ومآثرها وانكر ان يكون للعرب شيء منها ، ومن كلامه في ذلك قوله :«..ولم أرَ للعرب شيئاً من خصال الخير في امر دين ولادنيا ، ولاحزم ولا قوة ، مع ان مما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها ، محاتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة ، والطير الحائرة ، يقتلون اولادهم من الفاقة ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة .. » فرد النعمان على كسرى مقالاته هذه وعدد مناقب العرب ، ولما قفل الى الحيرة استدعى خطباء القبائل وفيهم اكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة وعامر بن الطفيل وغيرهم فوجههم الى كسرى ليعرفوه مناقب العرب ومآثرهم ، وقدم عليهم اكثم بن صيفي . فتوجهوا الى كسرى وقام اكثم فقال خطبته هذه فأعجب به كسرى شديد الاعجاب وقال له : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى . ثم تتابع الخطباء من القبائل وانتهى الامر بعودة وفود العرب مكرمة معززة .

هذه هي خلاصة القصة التي تروى في كتب الادب عن وفود النعمان الى كسرى ، وقد شك بعض الباحثين في هذه القصة كما شك في صحة الخطب المروية فيها .

ويلاحظ في خطبة اكثم هذه انه ليس لها موضوع معين تعالجه وانما هي جملة من الحكم والامثال لفق بعضها الى بعض دون أن تربط بينها فكرة موحدة ، فليس في هذه الخطبة افكار رئيسية ولا أقسام مرتبة ، ولو أننا غيرنا في ترتيب الفقرات أو أنقصنا منها أو أضفنا اليها لما كان لهذا التغيير اثر في موضوع الخطبة ، لان هذه الخطبة لاموضوع لها ، وما الغاية منها إلا اظهار براعة قائلها في ضرب الامثال وإرسال الحكم . ولاريب ان العرب كانوا جد قديرين على استنباط لحقائق من تجارب حياتهم وسبكها في قوالب الامثال والحكم ، وكانوا مطبوعين على تضمين القليل من اللفظ الكثير من المعاني وميزة أكثم انه كان من اشهر من عرفوا بضرب الامثال واستخلاص الحكم وإليه تنسب طائفة كبيرة من امثال العرب وحكمهم . ولكن الخطابة شيء آخر غير الحكم والامثال ، لانه يشترط في الخطابة أن يكون لها موضوع تدور حوله وأن تكون أفكار الخطبة كلها متصلة بالموضوع الرئيسي وهذا مالانجده في خطبة أكثم هذه لأن مافيها من امثال وحكم متباين الموضوع ، ولايصل بين هذه

الحكم الا انها جملة من الحقائق المستخلصة من واقع الحياة العربية جرى بها لسان حكيم من حكماء العرب المشهورين وبلغائهم المفوهين.

* * *

نموذج من الوصايا في العصر الجاهلي

وصيّة أُمامة بنت الحارث لابنتها أُم إياس حين زُفّت الى زوجها:

أي بُنيّةُ؛ إن الوصيّة لو تُركت لفضل أدب تُركت لذلك منكِ ولكنّها تذكرةٌ للغافل، ومعونةٌ للعاقل، ولو أنّ امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها، وشدّة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه، ولكنّ النساء للرجال خُلقن، ولهنّ خُلق الرجالُ.

أي بُنيّة، إنك فارقت الجوّ الذي منه خرجت، وخلّفت العشّ الذي فيه درجت (١)، إلى وكر (٢) لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيباً ومليكاً، فكوني له أمةً يكُنْ لك عبداً وشيكاً (٣).

يا بُنيّة، احملي عنّي عشر خصالٍ تكُن لك ذُخراً وذكراً: الصحبةُ بالقناعة، والمعاشرةُ بحُسن السمع والطاعة، والتعهّدُ لموقع عينه، والتفقّدُ لموضع أنفه، فلا تقع عينهُ منكِ على قبيحٍ، ولا يشمّ منكِ إلا أطيب ريحٍ، والكحلُ أحسن الحُسن الموجود، والماء أطيبُ الطيبِ المفقود. والتعهّدُ لوقت طعامه، والهدوُّ (٤) عنه عند منامه فإنّ حرارة الجُوعِ ملهبةٌ، وتنغيص النوم مغضبةٌ (٥).

---

(١) درج: مشى، واكثر ما تقال للطفل. (٢) الوكر: العش (٣) الأمة: المملوكة. الوشيك: القريب، السريع. (٤) الهدو: اصلها الهدوء (٥) ملهبة: تثير اللهيب. مغضبة: تحمل على الغضب.

والاحتفاظ بِبيتِه ومالِه، والارعاءُ على نفسِه وحَشَمِه وعيالِه، فإنّ الاحتفاظ بالمالِ حُسنُ التقديرِ والارعاء (٦) على العِيالِ والحَشَم (٧) جميلُ حُسنِ التدبير. ولا تُفشي سِرّاً، ولا تَعصي له أمراً، فإنك إن أفشيْتِ سِرّه لم تأمَني غدره، وان عَصَيْتِ أمرَه أوغرت صدرَه (٨). ثم اتقي مع ذلك الفرحَ أمامه ان كان تَرِحاً، (٩) والاكتئاب عنده إن كان فرحاً، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانيةَ من التكدير. وكُوني أشدَّ ماتكونين له إعظاماً، يكُنْ أشدّ مايكونُ لك إكراماً، وأشدَّ ماتكونين له مُوافقةً، يَكُنْ أطول مايكونُ لكِ مرافقةً. واعلمي أنّكِ لاتَصِلين إلى ما تُحبّين حتى تُؤْثري (١٠) رضاه على رضاك وهواهُ على هواكِ فيما أحْبَبْتِ وكَرِهت، واللهُ يَخيرُ لكِ. (١١)

خصائص النثر الجاهلي

من دراسة النماذج النثرية الجاهلية التي اوردناها نستطيع استخلاص خصائص مشتركة للنثر الجاهلي نجملها فيما يلي :

١ – غلبة السجع والازدواج، ولاسيما في نثر الكهّان.

٢ – قلة العناية بتنميق الكلام وتزويقه وتحليته بالزخارف الكلامية، ولانريد من هذا أن النثر الجاهلي كان خالياً من الصنعة ولكن اثر التنقيح والتهذيب فيه قليل، والصناعة فيه ليست متكلفة تكلف المتأخرين لها.

٣ – جزالة الألفاظ ومتانة التراكيب. وهذه الميزة ربما لانجدها في أسجاع الكهّان وهذا مايرجّح ان اكثرها مفتعل وموضوع.

---

(٦) الارعاء : الرعاية والعناية. (٧) حشم الرجل : خاصته وعبيده. (٨) اوغر صدر فلان : ملأه غيظاً. (٩) الترح : المغموم الحزين. (١٠) آثر : فضل. (١١) خار الله لك في الامر : جعل لك فيه الخير.

٤ – سذاجة الأفكار . وذلك امر طبيعي لأن العقلية العربية لم تكن عصرئذ قد استوفت حظاً كبيراً من النضج والارتقاء .

٥ – الايجاز في التعبير . والايجاز من الطوابع المميزة لطرق التعبير العربية الخالصة ، ولم تعرف الأساليب العربية الإطناب الا بعد ان اختلط العرب بالأعاجم وتأثروا بطرقهم وأساليبهم .

٦ – مجانبة المبالغات البعيدة لما فطر عليه العربي من إيثار الصراحة والصدق .

٧ – ضعف الترابط بين الفقرات وعدم تسلسل الأفكار تسلسلاً منطقياً ، حتى ليعسر علينا احياناً فهم موضوع النص ، وحتى انه يسهل علينا التقديم والتأخير في العبارات .

وعلى الجملة يتضح لنا من دراسة النثر في العصر الجاهلي أنه لم يبلغ مرحلة النثر الفني الراقي ، ولم يعرف العرب النثر الفنّي بالمعنى الكامل الا مع القرآن الكريم .

* * *

مصادر عن النثر في العصر الجاهلي

١ – البيان والتبيين للجاحظ ، في مواضع متفرقة .

٢ – نقد النثر : قدامة بن جعفر ، ص ٨٢ .

٣ – العقد الفريد لابن عبد ربه ، في ابواب مختلفة .

٤ – التوجيه الأدبي : جماعة من الاساتذة ، ص ١٥ .

٥ – في الأدب الجاهلي : طه حسين ، ص ٣٤٦ .

٦ – الفن ومذاهبه في النثر العربي ، شوقي ضيف ، ص ٣ .

٧ – تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي : أنيس المقدسي ، ص ١ .

٨ – الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي : محمد هاشم عطية ، ص ٥٨ .

* * *

عصر

صدر الاسلام وبني أمية

(١ – ١٣٢ هـ)

الحياة العامة في هذا العصر

جمع محمد عليه السلام شتات القبائل العربية في أمة عربية واحدة دينها الاسلام ودستورها

الإسلام القرآن. وكان الإسلام دين عقيدة وعمل، فمن الناحية العقدية أبطل الاسلام الشرك والوثنية ونادى بدين توحيدي يؤمن بإله واحد مطلق السلطان وأبطل اكثر المعتقدات والعادات التي كانت شائعة في الجاهلية كالاعتقاد بالكهان والعراف وزاجري الطير وأضرابهم، وحرم الخمر والميسر والاستقسام بالأزلام: «إنما الخمرُ والميسرُ والانصابُ والأزلامُ رجسٌ من عملِ الشيطانِ فاجتنبوه»، وحرّم أنواع القرابين التي كانت تُقدم للآلهة كالبحيرة والسائبة. وقد أقيمت أركان الإسلام على الإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر. ومن ناحية العمل فرض الاسلام اعمالا معيّنة يؤديها المسلم هي الصلاة والزكاة والصوم وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلاً.

وقد نشر الدين الاسلامي بين العرب مفاهيم خلقية جديدة تنافي اكثر المفاهيم الخلقية التي كانت سائدة في العصر الجاهلي، وأخذ بيد المستضعفين والفقراء. وهذه التعاليم الجديدة هي التي نجدها مبثوثة في السور القرآنية كما في قوله تعالى: «لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ

وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ، أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ.» (البقرة: ١٧٧).

وقد تحدث غولد سيهر في كتاب العقيدة والشريعة في الإسلام عن الفرق بين المثل الأعلى الجاهلي والمثل الأعلى الإسلامي، فمن ذلك قوله: «إن الإسلام رسم للحياة مثلاً أعلى غير المثل الأعلى للحياة في الجاهلية، وهذان المثلان لا يتشابهان وكثيراً ما يتناقضان، فالشجاعة الشخصية، والشهامة التي لا حد لها، والكرم الى حد الإسراف، والإخلاص التام للقبيلة، والقسوة في الانتقام والأخذ بالثأر ممن اعتدى عليه او على قريب له او على قبيلته، بقول او فعل؛ هذه هي أصول الفضائل عند العرب الوثنيين في الجاهلية. اما في الاسلام فالخضوع لله والانقياد لأمره، والصبر، وإخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأوامر الدين، والقناعة، وعدم التفاخر والتكاثر، وتجنب الكبر والعظمة؛ هي المثل الأعلى للإنسان في الحياة.»

والعمل العظيم الذي قام به الإسلام هو محاربة الروح الجاهلية، روح الحمية والنجدة والتنابز بالألقاب والتفاخر بالأنساب: «اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية، حمية الجاهلية»، هذه الحمية التي كانت سبباً للقتال المتصل بين القبائل؛ فأوجد كائناً أقوى من القبيلة هو الدين، وأقام اسساً جديدة تؤلف بين العرب وتقضي على العصبية القبلية، فالمؤمنون إخوة، ولا فضل لمسلم على مسلم إلا بالتقوى.

لاقى الرسول العربي عناءً شديداً في بث تعاليم الاسلام هذه بين القبائل المتعصبة القبلية والقومية العربية، ونجح في توحيد الامة العربية في أمة واحدة دينها الاسلام ودستورها القرآن، فأتيح للعرب بفضل هذه الوحدة أن يقوموا بفتوحات لا مثيل لسرعتها في تاريخ الفتوح، وكان لحركة الفتح هذه آثار بعيدة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية للأمة العربية، كان من نتائجها انتقال الأمة العربية من امة بدوية فقيرة الى امة حضرية غنية، ولكن الى أي مدى نجح الاسلام في القضاء على النزعات الجاهلية ولا سيما العصبية القبلية؟

الواقع ان تغيير طبائع النفوس امر عسير يحتاج الى جهد ووقت طويل، ولم يتح للاسلام القضاء على نزعات الجاهلية الا بعد انتشاره بسنين طويلة ومنذ عهد الرسول كانت تقوم بعض المنازعات

بين القبائل العربية ، ولا سيما بين المهاجرين والأنصار ، كالذي حدث في غزوة بني المصطلق مثلا . وبعد وفاة الرسول أبت القبائل العربية على قريش ان تستأثر بالحكم دونها فارتد عن الاسلام كثير منها ، ولولا حزم ابي بكر وعمر لعاد العرب سيرتهم الأولى . ومنذ عهد عثمان عاد بنو أمية وبنو هاشم إلى التنافس على الزعامة والرياسة شأنهم في الجاهلية ، وظهر هذا التنافس على أشده بعد مقتل عثمان ، وكان الأمويون يفخرون بالدهاء والحلم وكثرة الخطباء والشعراء ، وكان بنو هاشم يفاخرون بنحو ذلك ، فكان هذا التفاخر صورة للمنافرات المعروفة في العصر الجاهلي .

وفي عهد بني أمية ظهرت العصبية القبلية على أشدها ولا سيما بين العدنانيين والقحطانيين . وكان الولاة في الأمصار يضطهدون القبائل المناهضة لهم ، وكانت الفتن تنشب باستمرار بين قبائل الأزد اليمنية وتميم المضرية في خراسان ، وبين كلب اليمنية وقيس المضرية ، وبين قيس المضرية وتغلب الربعية في الشام . روى ابن ابي الحديد أن « أهل الكوفة في آخر عهد عليّ كانوا قبائل ، فكان الرجل يخرج من منازل قبيلته فيمر بمنازل قبيلة أخرى ، فينادي باسم قبيلته : يا للنخع او يا لكندة ، فيتألب عليه فتيان القبيلة التي مرّ بها فينادون : يا لتميم ويا لربيعة ، ويقبلون الى ذلك الصائح فيضربونه فيمضي الى قبيلته فيستصرخها ، فتسل السيوف وتثور الفتنة . » ، وجاء في الأغاني في الكلام عن طُوَيس : « كان طُوَيس ولعاً بالشعر الذي قالته الأوس والخزرج في حروبهم ، وكان يريد بذلك الإغراء ، فقلّ مجلس اجتمع فيه هذان الحيان فغنّى فيه طويس إلا وقع فيه شيء . »

وقد أوقد بنو أمية نار العصبية القبلية زمناً ليصفو لهم الجو ، وكان للشعراء النصيب الأوفى في تأجيج نار العداوة بين القبائل ، اذ كانوا حماة القبيلة يذبّون عن حياضها ويهجون القبائل المنافسة لها ، ولهذا حارب الاسلام الشعر في اول ظهوره لما يثيره من الفتن ؛ ولهذا ايضا وجدنا عمر ابن الخطاب ينهى الشعراء عن تناشد الشعر المقول في الجاهلية والذي من شأنه استفزاز القبائل بعضها ضد بعض ، ويسجن الحطيئة لهجائه الناس ، وأصدق صورة للعصبية القبلية في شعر الشعراء نجدها في الحرب الهجائية التي استطارت بين جرير من جانب ، وبين الفرزدق والأخطل من جانب آخر .

وهكذا نرى ان العصبية القبلية لم تمت بظهور الاسلام بل ظل أثرها ظاهراً أمداً طويلاً بعده ، وكذلك النزعات الجاهلية الأخرى كالشراب والصيد واللهو لم يمحها الاسلام محواً تاماً بل إننا نجدها في بعض الخلفاء الأمويين كيزيد بن معاوية والوليد بن يزيد ، وكل هذه النزعات نجدها واضحة في الشعر الأموي . ولكن ظهرت الى جانب هذه النزعات الجاهلية نزعات اخرى اسلامية ، وكان الاسلام

أثر بعيد في نفوس كثير من العرب ولاسيما الخوارج.

الى جانب العصبية القبلية الضيّقة ظهرت في العصر الأموي عصبية اوسع هي العصبية القومية، رغم أن الاسلام قد ساوى بين المسلمين كافة، عرباً كانوا او غير عرب، لأنه لافضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، إلا أن الأمويين والعرب لم يعاملوا الأمم التي انضوت تحت لواء الاسلام معاملة الند لند، بل نظروا اليهم نظرة ترفع وامتهان، وكانوا يطلقون عليهم لفظ الموالي. (١)

وقد قابل هؤلاء الموالي عصبية العرب بعصبية عجمية مثلها، فكان الموالي من الفرس والروم والترك وغيرهم يتعصبون لأممهم ولغتهم وتاريخهم، وهذه الحركة المناهضة للعرب عرفت فيما بعد بحركة الشعوبية، وقد ظهر امرها واضحاً في العصر العباسي حين اعتمدت الدولة على غير العرب، أما في العصر الأموي فكانت الدولة عربية في أشخاصها، عربيـة في سياستها، فلم يكن للموالي شأن يذكر في ذلك العصر، ومع ذلك نجد ان بعض شعرائهم يفخرون بقوميتهم حتى امام الخلفـــاء، فاسماعيل بن يسار الفارسي يدخل على هشام بن عبد الملك وينشده ابياتاً يفخر فيها بالفرس ومنها قوله:

مَن مثلُ كِسرى وسابورِ الجنودِ معاً ... والهُرمزانِ لفخرٍ أو لتعظيمِ
أُسدُ الكتائب يوم الروع إن زحفوا ... وهُم أذلّوا ملوكَ التُركِ والرومِ

فيغضب هشام ويأمر بغطه في الماء حتى يشرف على الموت.

الفرق والأحزاب منذ أن قُبض الرسول العربي رأت جماعة من المسلمين أن الخلافة ينبغي أن تكون في آل البيت، ذلك ان الرسول لم يشرع للمسلمين قبـل وفاته اسلوباً للحكم ولم يعين خليفة له، فاختلف رأي المسلمين بعده وظل علي طوال حكم الخلفاء الراشدين الثلاثة يرى أنه احق منهم بالخلافة لقرابته من الرسول ولمآثره في حركة الدعوة الاسلامية، وكان يشايعه في ذلك جماعة من الصحابة والمسلمين كانوا النواة الأولى لفرقة الشيعة. وقد زعم جماعة منهم أن النبي أوصى بالخلافة لعلي وان ابا بكر وعمر وعثمان قد اغتصبوا الخلافة اغتصاباً من علي. وقد قوي حزب الشيعة بعد مقتل عثمان واستطاع ان يولي الخلافة علياً ثم ظل بعـــد ذلك يناوئ الامويين والعباسيين، وقتل من أتباعه وزعمائه خلق كثير، وكان من جراء هـذه الاضطهادات ان اضطر الشيعة الى بث تعاليمهم خفية والى أن يأخذوا بالتقيّة في مناوأتهم للامويين والعباسيين، على نقيض

(١) وكان يراد بالموالي ايضا الاسرى من أهالي البلاد المفتوحة الذين يؤخذون أرقاء ثم يعتقهم أسيادهم فيصبحون موالي لهؤلاء الاسياد تربطهم بهم رابطة الولاء.

الخوارج ، والى اصطناع الرمز والتأويل والتمويه ، وكان يظاهر حركتهم فريق كبير من الموالي ولا سيما من الفرس ، وكان للشيعة شعراؤهم المنادون بمبادئهم كالكميت الاسدي ، وأيمن بن خريم وقد نظم الكميت في الاحتجاج لبني هاشم قصائد سماها « الهاشميات » وهو القائل :

الى النفرِ البيضِ الذين بحُبِّهم ... الى اللهِ فيما نابني أتقرَّبُ

بني هاشمٍ رهطِ النبيِّ فإنّني ... بهم ولهُم أرضى مراراً وأغضَبُ

وقد انقسم الشيعة فيما بعد الى فرق عديدة اشهرها « الزيدية » و « الامامية » .

وعلى أثر موقعة صفّين رأى جماعة من شيعة علي ، جلّهم من بني تميم ، ان علياً أخطأ بقبوله التحكيم لأن حقه في الخلافة واضح ، ولأن قبوله التحكيم يدل على شكّه في هذا الحق ، وطلبوا منه أن يقرّ على نفسه بالخطأ والكفر وأن يرجع عمّا أبرمه مع معاوية ، وكان شعارهم « لا حكم إلا لله » ، وقد اضطر علي آخر الامر أن يقاتلهم وأفنى جمعاً عظيماً منهم في واقعة النّهروان ، وهؤلاء هم الذين عرفوا بالخوارج لخروجهم على عليّ ، او من خروجهم في سبيل الله ، وعُرفوا ايضاً بالشُراة لأنهم باعوا أنفسهم لله أخذاً من قوله تعالى : « ومِنَ النّاسِ مَن يَشري نفسَه ابتغاءَ مَرضاةِ اللهِ » . ومالبث مذهبهم أن أصبحت له أصول سياسية ودينية وكان ينحو منحى ديموقراطياً يساوي بين المسلمين ولذلك انضم اليهم جمهور من الموالي . وكما افترق الشيعة الى مذاهب افترق الخوارج ايضاً الى مذاهب تتفاوت اعتدالاً وتطرّفاً اشهرها « الازارقة » و « النجدات » و « الاباضيّة » و « الصفرية » . فالنجدات هم أصحاب نجدة بن عامر الحنفي ، وهم يقولون إن الدين أمران : معرفة الله ومعرفة رسوله ، وما جاوز ذلك فالناس معذورون بجهله ، والاباضية اتباع عبد الله بن أباض التميمي ، وهم أميل الى المسالمة والتساهل في صلات الخوارج بسائر المسلمين ، والصُفرية هم اتباع زياد بن الاصفر ، واشد هؤلاء مغالاة وتطرفاً هم الازارقة اصحاب نافع بن الازرق الحنفي فقد كفّروا جميع المسلمين وأحلّوا قتل أطفالهم وحرّموا التقيّة وكفّروا القعَدة .

وكانت سياسة الخوارج مع الامويين سياسة عنف وصراحة ، وكانوا أشدّاء في القتال ، أقوياء في عقيدتهم ، متمسكين بروح التعاليم الإسلامية الديموقراطية . وكان لهم شعراؤهم المدافعون عن مذاهبهم كعمران بن حطّان الذُهلي ، وقطَريّ بن الفُجاءة ، والطرمّاح بن حكيم الطائي الذي يقول في وصف حياة الخوارج :

لله دَرُّ الشُّراة إنهمُ   اذا الكَرى مال بالطُلى(١) أَرِقُوا
يُرَجِّعون الحنينَ آونةً   وإن علا ساعةً بِهم شهِقوا
قومٌ شِحاحٌ على اعتقادهمُ   بالفوز ممّا يُخافُ قد وَثِقوا

وفي عهد يزيد بن معاوية وُجد حزب ثالث ذو صبغة سياسية بحتة هو حزب عبد الله بن الزبير، فقد كان ابن الزبير يطمع ان تكون له الخلافة بعد معاوية ، فلمّا بويع يزيد أبى ابن الزبير مبايعته ودعا لنفسه بالخلافة سنة ٦٣ ﻫ فبايعه أكثر أهل الحجاز والعراق ومصر واليمن وكاد يظفر بالخلافة وينتزعها من الأمويين لولا سوء إدارته وجهله بأساليب السياسة التي كان يحذقها بنو أمية فما لبث ان انهزم في موقعة مرج راهط ، زمن مروان بن الحكم . وفي زمن عبد الملك بن مروان توجه الحجاج الى مكة وقاتل ابن الزبير وقتله وقضى على حزبه سنة ٧٣ ﻫ .

كان ابن الزبير يريد تأسيس حكومة قرشية يتولاها هو ، وكان يكره الأمويين لأنهم استأثروا بالحكم ، ويكره الهاشميين لأنهم أبوا مبايعته ، ويكره الخوارج لأنهم أبوا متابعته وحاولوا أن يفرضوا عليه مبادئهم . ولم يطل الامر بهذا الحزب أكثر من عشر سنوات ، ولم يكن ينصره كثير من الشعراء لما عرف به ابن الزبير من فرط البخل والشح ، والشاعر الذي دافع عن حزبه وناصره هو عبيد الله بن قيس الرُقيّات الذي كان ملازماً لمصعب بن الزبير ، وكان يدفعه الى مناصرة الزبيريين إشفاقه من إفلات الامر من يد قريش ، وقد قال في مدح مصعب والتغني بقريش وهجاء الأمويين قصيدة تعتبر من اصدق الشعر العربي وأجمله يقول فيها :

حبّذا العيشُ حين قومي جميعٌ   لم تُفرِّقْ أمورَها الأهواءُ
قبل أن تطمعَ القبائلُ في ملـك قريشٍ وتشمتَ الأعداءُ
أيها المشتهي فناءَ قُريش   بيد اللهِ عمرُها والفناءُ
إنّما مُصعبٌ شهابٌ من الـلـه تجلّت عن وجهه الظلماءُ
مُلكُه ملكُ قوةٍ ليس فيه   جبروتٌ ولا به كبرياءُ
أنا عنكم بني أميةَ مزورٌّ — وأنتم في نفسي الأعداءُ

---

(١) الطُلى : ج طُلية وطُلاة وهي العنق ، والطَلى : الشخص

التمازج بين الشعوب وآثاره بعد أن فرغ ابو بكر من حروب الردّة وبعد أن توطدت دعائم الدولة الإسلامية أخذ العرب يقومون بفتوحاتهم السريعة ففتحوا الشام والعراق وفارس ومصر والسند وبلاد ماوراء النهر والمغرب والأندلس، وكان من نتيجة هذه الفتوحات أن تمازجت الأمم التي خضعت لسلطان الأمة العربية تمازجاً كان له أثره البعيد في مختلف نواحي الحياة.

كان له أثره في الحياة الاجتماعية لأن البيت العربي لم يعد عربياً خالصاً بل دخلت فيه عناصر غريبة من طريق الاسترقاق والتزاوج، وقد كثر الرقيق كثرة هائلة بنتيجة الفتوح حتى روي أن الزبير بن العوّام كان له ألف عبد وألف أمة. وكان المصدر الأول للرق الأسر، فقد كان يحق للمسلمين استرقاق من يرفض الدخول في الإسلام او دفع الجزية من أهل البلاد المفتوحة. وكان الرق شائعاً في جميع الأمم القديمة كما كان معروفاً للعرب زمن الجاهلية ولكنه كان محدوداً في ذلك العصر ثم كثرة كثرة هائلة على اثر الفتوح الإسلامية، وقد ادت كثرة الرقيق الى تدهور نظام الأسرة شيئاً فشيئاً حتى تفككت روابط الأسرة تماماً في العصر العباسي. وكانت الأمة اذاولدت من سيدها فالولد ابنه وتسمى هي «أم ولد» ولا يجوز لسيدها بيعها واذا مات عنها أصبحت حرة.

وكان لهذا التمازج اثره ايضاً في الحياة العقلية لأن العرب وقفوا على حضارات الأمم التي انضوت تحت لواء المملكة الاسلامية واطلعوا على ثقافاتها ومعارفها وشؤون حياتها فاتسعت مداركهم ونمت معارفهم وعلومهم، وظهرت حركة النقل في اواخر العصر الأموي وآتت أكلها في العصر العباسي. وقد نشأ جيل ليس بالعربي الخالص ولا بالعجمي الخالص يجمع بين خصائص العقليتين العربية والعجمية، وكان من هؤلاء كثير من العلماء والفقهاء والادباء.

وكان لحركة التمازج اثرها ايضاً في الحياة السياسية والإدارية لأنها ادت الى اقتباس نظم الحكم والسياسة والإدارة وأساليب الحرب عن الأمم المغلوبة. كما انها ادت من جهة اخرى الى ظهور العصبية القومية.

وقد اضطرت الدولة الإسلامية منذ نشأتها أن تعرف ضرباً من التنظيم الاداري فأوجد الرسول ديوان الرسائل، وأوجد عمر ديوان الجند وديوان الخراج، وكانت لغة الدواوين هي لغة الأمصار التي تكون فيها حتى نقلها عبد الملك بن مروان والوليد ابنه الى العربية.

وكان لهذه الحركة ايضاً أثرها في الحياة الدينية لأنها ادت من جانب الى نشر الدين الاسلامي في البقاع المفتوحة، ومن جانب آخر الى ظهور آثار الديانات التي كانت شائعة في هذه البقاع في

الديانة الإسلامية ، ولا سيما في نشوء بعض المذاهب والفرق كالقدرية والمعتزلة والمرجئة التي سنفصل القول فيها في كلامنا على الحياة العامة في العصر العباسي .

ومن الطبيعي أن تأخذ الحياة الاقتصادية بحظها من النمو والازدهار نتيجة لاتساع رقعة الدولة العربية الاسلامية وكثرة مواردها ، وكان لهذا الانقلاب الشامل في جميع نواحي الحياة العربية أثره القوي في اللغة العربية والأدب العربي .

أثر الحياة العامة في اللغة والأدب

صوّر الأدب في عصر صدر الإسلام وبني أمية الحياة العامة التي رسمنا خطوطها خير تصوير ، فكان الشعر والنثر مرآة لهذه البيئة الجديدة في مختلف نواحيها . واذ كانت الناحية السياسية ابرز هذه النواحي وابعدها اثراً فإن الطابع الغالب على الأدب العربي في هذا العصر كان الطابع السياسي .

كان من أثر القرآن في اللغة العربية أن جمع شتات اللهجات واللغات العربية في لغة واحدة هي لغة قريش التي بها نزل القرآن والتي اصبحت هي اللغة الأدبية السائدة ، وقد ظلت هناك بعض اللهجات ظاهرة الأثر في لغة الحديث ولغة الأدب واشهرها لغة تميم .

وقد أدى انتشار الإسلام في البقاع المفتوحة الى نشر اللغة العربية في هذه البقاع فتركت اللغة العربية في لغة الفرس والروم والترك وغيرها من اللغات آثاراً قوية ؛ ولكن هذه اللغات ايضاً كان لها أثرها في اللغة العربية إذ أضافت إليها ألفاظاً وتراكيب جديدة ، ولا سيما تلك التي لها مدلولات لاعهد للعرب بها ، كأسماء كثير من الأطعمة والأشربة والعطور والرياحين ونحوها .

ونجم عن اتصال العرب بسكان البلاد المفتوحة وتفاعل اللغات بعضها مع بعض أن تسرب اللحن الى اللغة العربية حتى أحوج الأمر الى وضع علوم اللغة والنحو .

وقد اتسعت أغراض اللغة العربية بظهور الاسلام وحركة الفتح فعرفت اللغة العربية مصطلحات جديدة واكتسبت بعض الالفاظ دلالات مستحدثة كالكفر والفسق والنفاق والاسلام والزكاة والصوم ونحوها من الالفاظ الاسلامية ، وماتت ألفاظ أخرى بزوال أغراضها التي قضى عليها الاسلام .

وكما كان للقرآن اثره في اللغة كان له اثره في الأدب ، فاحتذى المتأدبون اسلوب القرآن في الفاظه وتراكيبه واقتبسوا كثيرا من صوره التعبيرية ، ولم يزل هذا الأثر واضحاً في اسلوبنا الأدبي حتى اليوم فمازلنا نصطنع كثيراً من الصور والتراكيب القرآنية ، لاسيما وان القرآن كان كتاباً بلاغياً معجزاً

سحر العرب باسلوبه قبل ان يسحرهم بمعانيه ، فصار الأديب ، ناثراً كان او شاعراً ، يبدأ ثقافته الادبية بحفظ القرآن – صنيع الفرزدق مثلا – ، وكان بعضهم يتلو سوراً من القرآن قبل ان يشرع في الكتابة او النظم .

بيد ان التأثير القرآني كان مختلفاً باختلاف الفنون الأدبية ، اذ كان اثره في النثر ابرز منه في الشعر ، لأن الشعر فن تقليدي لايخضع سريعاً للمؤثرات خضوع النثر ، ومن هنا نجد ان الشعر الاسلامي يكاد يكون امتداداً للشعر الجاهلي . وكان للقرآن اثره المباشر في الشعر إذ صرف الناس عنه لأنه كان في الغالب اداة لاثارة الفتن بين القبائل ومطية الكذب : « والشعراء يتبعهم الغاوون » ، ولهذا وجدنا الرسول كثيراً ما يبطش بشعراء المشركين ، وكان من اثر مهاجمة القرآن للشعر ان الشاعر لبيد بن ربيعة كف عن قول الشعر بعد اسلامه . ومع ذلك فقد حارب الرسول المشركين بالشعر وحث حسان بن ثابت على هجائهم فكان يقول له : اهجُهم وروحُ القُدس معك وكان من اثر ذلك ايضا ان أعرض الرواة والناس عن الشعر الذي قيل بلغة بعيدة عن لغة القرآن ، فضاع هذا الشعر ، كما انه دفع الرواة الى العناية بالشعر الذي يستشهد به على لغة القرآن .

وقد ادت كثرة الاحداث السياسية الى ارتقاء فن الخطابة ارتقاءً نلمسه في خطب الخلفاء والقواد والولاة وزعماء الاحزاب ، وكان اثر القرآن بيناً في الخطابة سواء من ناحية المعاني اومن ناحية الاسلوب .

وكذلك ارتقت الكتابة في العصر الاموي لانتشار الكتابة بين المسلمين ، وقد كان العارفون بها قلة في العصر الجاهلي ، ولاتساع الثقافة وتهيؤ أغراض الكتابة ، وقد ظهر فيها كذلك اثر القرآن واضحاً ، سواء من ناحية الاسلوب في ابتدائها بالبسملة مثلا ، او من ناحية المعاني والافكار .

وكما كان للقرآن هذا الاثر في الادب فقد كان له اثر آخر في نشأة العلوم ولاسيما علوم العربية والقراءات والتفسير والتاريخ .

وقد كان للخلافة الاموية ايضا اثرها في الحركة الادبية في العصر الاموي إذ انها اوجدت ادباً اموياً مؤيداً لها ولسياسة بني أمية ، فكان الخلفاء الامويون يغدقون الاموال على الشعراء ويقربونهم ليمدحوهم وليظهروا حقهم في الخلافة ، وكان من الشعراء الناطقين بلسانهم الأخطل ، الشاعر النصراني ، وكان لبني أمية ايضاً يد في ارتقاء الخطابة لان قوادهم وولاتهم كانوا من أفصح الخطباء كزياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفي .

وقد ادت حركة القمع التي قام بها الامويون ضد معارضيهم من الخوارج والشيعة الى خلق ادب أموي معارض ولكن لم يصلنا من أدب المعارضين إلا النزر القليل .

وهكذا نرى أن الادب الاسلامي قد تأثر بالحياة العامـة بمختلف نواحيهـا وخضع الحضارة الجديدة وللبيئة الجديدة واستوعبها شعراً ونثراً .

* * *

مصادر

١ – المصادر التاريخية الرئيسية كتاريخ الطبري وابن الاثير وسيرة ابن هشام وغيرها .

٢ – فجر الاسلام : احمد امين .

٣ – تاريخ الشعر السياسي : احمد الشائب .

٤ – العقيدة والشريعة في الاسلام : اجناس غولد تسيهر ، ترجمـــة علي حسن عبد القادر وجماعة . ط . دار الكاتب المصري .

٥ – ادب الخوارج : الدكتورة سهير القلماوي .

٦ – شرح نهج البلاغة : ابن ابي الحديد .

٧ – الكامل : ابو العباس المبرّد .

النثر في العصر الاسلامي

القرآن الكريم

لم يكن الاسلام ثورة دينية فحسب وانما كان أيضاً ثورة أدبية واقتصادية وسياسية واجتماعية، ولم يكن القرآن كتاباً دينياً فحسب وإنما كان ايضا كتاباً أدبياً معجزاً ودستوراً ينظم حياة الامة العربية في مناحي السياسة والاجتماع والاقتصاد، وكان يرمي الى تأليف دولة عربية منظمة تقوم على الشورى والمساواة والعدل وتدين بإله واحد لاشريك له؛ وهذا التوحيد الذي ألح عليه القرآن لم يكن توحيداً في الإله فقط بل كان توحيداً للأمة العربية ايضاً، فالقرآن هو كتابنا القومي الأول.

يرى بعض المستشرقين امثال «شوالي» و«فلهوزن» أن كلمة قرآن مأخوذة عن الآرامية أو العبرية، ويرجع علماء المسلمين هذا اللفظ الى الفعل «قرأ» بمعنى القراءة او الجمع، وهو اما مصدر لقرأ او اسم علم يراد به هذا الوحي الذي كان يتنزل على محمد عليه السلام وهو يتلوه على الناس وقد أطلق على القرآن اسماء أخرى كالكتاب والذكر والفرقان.

نزل القرآن مجزءاً على شكل آيات وسور. وأصل معنى الآية: العلامة، وبهذا المعنى وردت في مواضع كثيرة من القرآن كما في قوله تعالى: «قالَ ربِّ اجعلْ لي آيةً، قالَ آيتُكَ ألاَّ تُكلِّمَ الناسَ ثلاثةَ أيامٍ إلاَّ رَمْزاً»، ثم دلت على العلامات الدالة على وجود الله وعلى المعجزات، ثم أطلقت على أجزاء السورة كما في قوله تعالى: «سُورةٌ أنزَلناها وفَرَضْناها وأنزَلنا

فيها آيات بيِّنات لعلكم تذكَّرون » وأما لفظ (سورة) فلا يعلم مصدره ، وقد أطلق في القرآن ليدل على مجموعة من الآيات قد لاتكون بينها صلة جامعة ، وقلما كانت السورة تنزل كلها مرة واحدة . وقد ورد لفظ السورة في القرآن دالاً على جملة من الوحي كما في قوله تعالى : « وإن كُنتم في رَيبٍ مما نزَّلنا على عبدنا فأتوا بسُورةٍ من مِثلِه » .

نزل القرآن مُنجَّماً في بضع وعشرين سنة ، وكان ينزل بحسب الأحوال والحوادث ، ولهذا وجدت فيه آيات تنسخ آيات سابقة ، والى هذا أشار القرآن بقوله : « ما نَنسَخ من آيةٍ أو نُنْسِها نأتِ بخيرٍ منها أو مِثلِها » (البقرة) ، وكان المشركون يتساءلون عن سبب هذا التنجيم فيرد عليهم القرآن بقوله : « وقالَ الذين كفرُوا لولا نُزِّلَ عليه القرآنُ جملةً واحدةً ؛ كذلك لنُثبِّتَ به فؤادك . » (الفرقان) . وقد نزل أكثر القرآن في مكة وأقله في المدينة فاجتمع فيه مائة واربع عشرة سورة ، ثلاث وتسعون منها مكية وإحدى وعشرون مدنية .

كان يكتب الوحي للرسول عدد من الكتاب منهم زيد بن ثابت ومعاذ بن جبل وأُبي بن كعب . ولما مات الرسول كان القرآن موزعاً في الرقاع والصحف وفي صدور الحفّاظ ، ولم يكن مجتمعاً في مصحف واحد ، وفي عهد أبي بكر عُهد الى زيد بن ثابت بجمع القرآن فجمعه في صحُف وقد أشار عمر على أبي بكر بجمع القرآن بعد أن قتل عدد كبير من حفّاظ القرآن في قتال مسيلمة ثم آلت هذه الصحف الى عمر ثم الى حفصة ابنته ، ولكن كان هناك من جمع نسخاً أخرى للقرآن غير زيد بن ثابت كأبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري ومقداد بن عمرو . وكان بين هذه المصاحف تفاوت في الترتيب وفي عدد السور ، وكان ثم خلاف بين القراء في قراءة القرآن . فلما جاء عثمان أدرك مايترتب على هذا الاختلاف من الاضطراب والفوضى ، فطلب الى زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث أن يجمعوا نسخة موحدة من القرآن بالاعتماد على صحف زيد ، وأمرهم إن اختلفوا في شيء أن يكتبوه بلغة قريش لأن القرآن نزل بها ، فجمعوه ورتبوا سوره بحسب الطول ، ثم أمر عثمان باحراق المصاحف الأخرى المخالفة وتم ذلك عام ٢٥ هـ .

موضوعات القرآن الفكرة الرئيسية التي يدور حولها القرآن هي فكرة الله ووجوده ، فهو يحاول الاستدلال على وجود الله بتوجيه نظر الناس الى مظاهر الكون ومشاهد الطبيعة ويطلب إليهم أن يتدبروا بعقولهم أمر هذه الطبيعة ليستدلوا منها على وجود الله بوساطة قانون العلية في صورته البسيطة ، فالقرآن يصور حوادث الطبيعة وانتظامها وتسخيرها وما فيها من مخلوقات لمنفعة الناس ، ويلفت نظر الانسان الى نفسه : مم خلق وكيف خلق ولم خلق ثم يطلب اليه أن يتفكر فيما يراه ، ويحثه على النظر والاعتبار لكي يستدل بفكره على وجود الخالق الذي أوجد هذا الكون بنظامه البديع وسخره لمنفعة الانسان . وقد أشار القرآن الى مظاهر الطبيعة في أكثر من ثمانين موضعاً ، من ذلك قوله في سورة البقرة (آية : ١٦٣) : « انَّ في خَلْقِ السماوات والأرْضِ ، واختلافِ الليلِ والنَّهارِ ، والفُلْكِ التي تجري في البَحرِ بما يَنْفَعُ النَاسَ ، وما أنزلَ اللهُ من السَّماءِ مِن ماءٍ فأحيابهِ الأرْضَ بعدَ موْتِها وبَثَّ فيها من كُلِّ دابَّةٍ ، وتَصريفِ الرياحِ ، والسحابِ المُسَخَّرِ بين السماءِ والأرضِ لآياتٍ لِقومٍ يَعْقِلون . » وكقوله في سورة فصِّلتْ (آية : ٥٣) : « سَنُريهِم آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهِم حتّى يَتبيَّنَ لهم أنَّهُ الحقُّ ، أوَ لَمْ يَكْفِ بِربِّكَ أنّه على كُلِّ شيءٍ شَهيدٌ » . وهكذا من طريق لفت نظر الانسان الى مظاهر الكون والى نفسه يستدل القرآن على وجود الله . وعلى امثال هذه الآيات استند المتكلمون في استخلاص الأدلة على وجود الله بالاستناد الى قانون العلية في أبسط صوره التي تتقبلها الفطرة الانسانية بسهولة ، وهي الادلة التي يسمونها أدلة « الاتقان والاحكام » .

ولا يكتفي القرآن بهذه الادلة المنطقية لإثبات وجود الله بل يصطنع ايضا أدلة خطابية تعتمد على الترغيب والترهيب ، فيصور لهم تارة مايحظى به المؤمنون من نعيم مقيم وجنات تجري تحتها الانهار ينالون فيها كل مايشتهون ، ويصور لهم تارة أخرى مايحل بالكافرين من عذاب أليم وما يلقونه من سوء المصير . وهو في هذه الآيات يخاطب خيال العرب ويثير فيهم مشاعر اللذة والخوف ، وهو حين رغبهم إنما يصور لهم أقصى مايشتهونه في بيئتهم الطبيعية من الماء العذب والفاكهة والحور العين ؛ وحين رهبهم انما يصور لهم أشد مايخيفهم في طبيعتهم هذه من صور النار المحرقة التي تشوي أجسادهم ، ويصور لهم يوم القيامة وهوله ومايعتري الناس فيه من الذعر والهلع كقوله في اول سورة الحج:

«يا أيها الناسُ اتقوا ربكم إنّ زلزلة الساعةِ شيءٌ عظيمٌ. يومَ ترونها تذهلُ كلُّ مرضعةٍ عما أرضعتْ وتضعُ كلُّ ذاتِ حملٍ حملها وترى الناسَ سُكارى وما هم بسكارى ولكنّ عذابَ اللهِ شديدٌ.»، ومثال الأدلة الخطابية أيضاً قوله تعالى في آل عمران (آية: ١٠٦): «يومَ تبيضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوهٌ، فأمّا الذين اسودّتْ وجوهُهم أكفرتم بعدَ إيمانِكم فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرون وأمّا الذين ابيضّتْ وجوهُهم ففي رحمةِ اللهِ هم فيها خالدون».

وكذلك يعتمد القرآن على القصص لإرهاب الكافرين فيصوّر لهم الأمم الغابرة وكيف بادت لعصيانها أنبياءها وكفرها بالله، فيحدثهم عن عاد وثمود وقوم نوح وموسى ويونس وسائر المرسلين ليتعظوا بأخبارهم وقصصهم، وقصة موسى وقومه تحتل جزءاً كبيراً من القرآن. ومن أمثلة القصص قوله تعالى في سورة يونس (آية: ٧١): «واتلُ عليهم نبأ نوحٍ إذ قال لقومه ياقومِ إنْ كان كبُرَ عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى اللهِ توكلتُ فأجمعوا أمرَكم وشركاءَكم ثم لا يكنْ أمرُكم عليكم غُمّةً ثم اقضوا إليّ ولا تُنظرون. فإنْ تولّيتم فما سألتُكم من أجرٍ إنْ أجريَ إلاّ على الله وأُمرتُ أنْ أكونَ من المسلمين. فكذّبوه فنجّيناه ومَن معه في الفُلكِ وجعلناهم خلائفَ وأغرقنا الذين كذّبوا بآياتنا فانظرْ كيف كان عاقبةُ المُنذَرين.»

والفكرة الثانية التي يلحّ عليها القرآن هي فكرة وحدانية الله.

وفي سبيل تأييد وحدانية الله والتدليل عليها يهاجم القرآن الوثنيّة مهاجمة عنيفة مبيّناً بطلانها وعجزها ويقارن بينها وبين الله في الخلق كقوله في الأعراف (آية ١٩١ ومابعدها): «أيُشرِكون مالا يخلُقُ شيئاً وهم يُخلَقون. ولا يستطيعون لهم نصراً ولا

أنفسهم ينصرون. وإن تدعوهم الى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم انتم صامتون إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين. ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون »، وقد يروي القرآن مناقشة الانبياء السابقين لقومهم حول الاوثان كالذي جاء في سورة الانبياء على لسان ابراهيم (آية: ٥٢-٥٦): « إذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون. قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين. قال لقد كنتم انتم وآباؤكم في ضلال مبين. قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين. قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين »

ولا يهاجم القرآن الوثنية وحدها بل يهاجم فكرة الشرك بصورة عامة، ويبني فكرة الوحدانية على ادلة اعتمد عليها المتكلمون في الاستدلال على هذه الوحدانية، فهذا الكون لا يمكن أن يسيره إلا إله واحد وإلا افسد أمره واضطرب نظامه: « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا.» (الانبياء: ٢٢)، وكما هو منزه عن الشريك هو منزه عن الولد: « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » (المؤمنون: ٩١).

والى جانب الوحدانية يثبت القرآن لله تعالى صفات أخرى من أهمها: الخالق، وحين يثبت لله هذه الصفة يفرق بينه وبين الاوثان العاجزة عن الخلق: « أفمن يخلق كمن لا يخلق ». وهذه الصفات منها مايتصل بذات الله وحدها، فالله هو الخالق، القادر، العالم، المحيط بكل شيء، لا حول ولا قوة الا حوله وقوته ولا سلطان غير سلطانه. ومنها مايبين صلة الله بالانسان فهو الرحمن، الرحيم، الغفور، الحليم، المنتقم، الوهاب، الى غير ذلك من الصفات. ومنها مايبين صلة

الله بالكون من حيث أنه الخالق المدبّر له الذي يسخّره لمنافع البشر . وحول هذه الصفات احتدم الجدل بين متكلمي المسلمين وافترقت في ذلك مذاهبهم .

ويتحدث القرآن ايضاً عن محمد عليه السلام وعن دعوته ورسالته ويهاجم الذين ينكرون نبوّته مهاجمة عنيفة : « وقال الذين كفروا ان هذا الا افكٌ افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون فقد جاؤوا ظلماً وزوراً . وقالوا أساطيرُ الأوّلين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرةً وأصيلاً . قل انزله الذي يعلمُ السرَّ في السماوات والأرض انّه كان غفوراً رحيماً . » (الفرقان : ٣ — ٥)

والقرآن بعد ذلك بيّن عقائد الاسلام وأبطل أكثر معتقدات الجاهلية ، وهذه هي ناحية العقائد والتشريع في القرآن الكريم . وقد قدمنا ان القرآن لم يكن كتاب دين فحسب وانما كان دستوراً عاماً للعرب ينظم حياتهم في مختلف نواحيها ، فحارب اولاً الوثنية وما يتصل بها وحرّم الخمر والميسر والربا وأكل الميتة ولحم الخنزير ، والوأد . ثم أثبت بعض معتقدات الجاهليين كالاعتقاد بالجن والملائكة ولكنه لم يجعلها شركاء أو أبناء لله ، صنيع الجاهليين : « وجعلوا لله شركاء الجنّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علمٍ سبحانه وتعالى عمّا يصفون » (انعام آية ١٠٠) ، وقد اصبح الاعتقاد بالملائكة من اركان الاسلام الخمسة : الايمان بالله ، ورسله ، وملائكته ، وكتبه ، واليوم الآخر . وهذا الامر الاخير الح عليه القرآن إلحاحاً شديداً وأقام الاعتقاد باليوم الآخر على فكرة بعث الاجساد . ويستدل القرآن على إمكان البعث بأن من خلق الناس أول مرة قادر على أن يوجدهم مرة أخرى : « أولم يرَ الإنسانُ أنّا خلقناهُ من نطفةٍ فإذا هو خصيمٌ مبينٌ . وضرب لنا مثلاً ونسي خلقَه قال من يحيي العظامَ وهي رميمٌ . قلْ يحييها الّذي أنشأها أوّل مرّةٍ وهو بكلِّ خلقٍ عليم . » (يس : ٧٧ وما بعدها)

وناحية التشريع في القرآن تتناول النواحي الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والتشريع السياسي يكاد يتلخص في قوله تعالى : « وأمرُهُم شورى بينهم » (الشورى : ٣٧) ، وبالحض

على العدل في الحكم . ومن التشريعات القرآنية الجهاد في سبيل الله ، وتنظيم الزواج والطلاق والبيع والقرض والقصاص والإرث ، فضلاً عن العبادات المفروضة على المسلمين ، اي الصلاة والصيام والزكاة والحج ، وهذه الأمور لم يتناولها القرآن كلها بالتفصيل .

وفي القرآن فضلاً عن ذلك آيات تبين آداب التعامل والحديث وتحض على الأخلاق الكريمة والعادات الحميدة وتنهى عن إتيان الفواحش والمنكرات .

وفضلاً عن كل ماذكرنا يقص القرآن مراحل الدعوة النبوية ويصور لنا جهاد الرسول في سبيل نشر الدعوة بين أهل مكة ثم انتقاله الى المدينة واصطدامه باليهود والمنافقين ومحاربته المشركين حتى تمت كلمة الله وتأسست الدولة العربية الإسلامية : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً . » (المائدة آية : ٣)

هذا هو عرض موجز سريع لموضوعات القرآن ، ولا يخفى ان القرآن لم ترتب فيه الآيات والسور لا ترتيباً تاريخياً بحسب تاريخ النزول ولا ترتيباً موضوعياً بحسب الموضوعات التي عرض لها .

لغة القرآن نزل القرآن على العرب فكان طبيعياً أن تكون لغته العربية : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » (يوسف : ٢) ، وكانت لغته لغة قريش الحجازية ، ولهذا وجدنا عثمان حين أمر بجمع المصاحف يأمر بكتابة القرآن بلغة قريش التي نزل بها . ومع ذلك لم تكن لغة القرآن من اليسر والقرب بحيث يفهمها جميع القرشيين ، بله العرب كافة . ومن هنا وجد ماسموه « غريب القرآن » الذي صُنفت فيه كثير من الكتب . ونستدل على هذا مما يرويه لنا السيوطي في الإتقان إذ يقول : « فهذه الصحابة ، وهم العرب العرباء وأصحاب اللغة الفصحى ومن نزل القرآن عليهم وبلغتهم ، توقفوا في ألفاظ لم يعرفوا معناها فلم يقولوا فيها شيئاً . » ثم يروي السيوطي أن ابا بكر سئل عن قوله تعالى : « وفاكهةً وأبّاً » (١) فقال : اي سماء تظلني وأي ارض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم . ونحو هذا يروى عن عمر وعن ابن عباس وغيرهما .

ولم تكن لغة القرآن لغة قريش فحسب بل كان فيه الكثير من لغات القبائل الأخرى المضرية واليمنية ، فيذكرون مثلاً أن الأرائك بمعنى الأسرّة يمنية ، وأن الموئل بمعنى الملجأ كنانية ، وان الفشل بمعنى الجبن حميرية ، وأن السائح بمعنى الصائم هُذيلية ، الى غير ذلك .

بل إن القرآن لم يقتصر على لغة العرب فقد وقعت فيه ألفاظ أعجمية قالوا إنها زهاء المائة ، وقد

---

(١) الأبّ : الكلأ

أبى كثير من الأئمة ان يكون في القرآن ألفاظ أعجمية لقوله تعالى : « ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي . » ولقوله : « قرآناً عربياً غير ذي عوج . . . » وغيرهما من الآيات . ومن القائلين بهذا الشافعي وابن فارس . وذهب آخرون الى وقوع ألفاظ أعجمية فيه وأن هذه الألفاظ أعجمية في أصولها ولكنها اختلطت بلغة العرب فعربتها؛ فلما نزل القرآن كانت هذه الألفاظ جزءاً من لغة العرب . ويذكرون من هذه الألفاظ الأعجمية المعربة : طوبى ، وهي الجنة بالحبشية ، والجبت بمعنى الشيطان في الحبشية ، والصراط بمعنى الطريق في الرومية ، والرقيم بمعنى اللوح بالرومية ، واستبرق بمعنى الحرير بالفارسية ، وأباريق بمعنى أكواز بالفارسية ، وغيرها من الألفاظ المعربة .

ولا ينبغي أن نطمئن تماماً الى صحة تفسير هذه الألفاظ ولا الى ماقيل عن مصدرها ولكن مما لانشك فيه أن لغة القرآن كانت بصورة عامة هي لغة قريش في عهد الرسول مع ماخالطها من لغات القبائل الأخرى العربية ولغات الأمم غير العربية .

أسلوب القرآن

كان القرآن فذاً في أسلوبه ، يغاير ما ألفه العرب من أساليب النثر قبله ، ولهذا رأينا العرب يؤخذون بروعة هذا الأسلوب الجديد ويرون في محمد شاعراً او ساحراً او كاهناً ؛ ولهذا ايضاً رأينا المحدثين من الأدباء يختلفون في الأسلوب القرآني أهو من الشعر أم من النثر أم هو ليس بالشعر ولا بالنثر . والحق انه نثر مافي ذلك شك ، ولكنه نثر يمتاز بطوابع خاصة . فهذا النثر مجزأ الى سور وآيات ، ويرى المستشرقون أن هذا التقسيم يشبه تقسيم الانجيل والتوراة الى أسفار وأصحاحات . وهذا النثر يقوم على نظام الفواصل التي تحاكي قوافي الشعر ، وعلى نظام الازدواج في الغالب ، والسجع غير ملتزم فيه . ويلاحظ أن بعض السور يبدأ بأحرف مثل (ألم) و (حم) و (كهيعص) ، وقد اختلف القول في المراد بهذه الأحرف ، فذهب بعض المفسرين الى ان المراد بها الاشارة الى أن القرآن يتألف من هذه الأحرف ومع ذلك فهو معجز ، وبعضهم رأى انها اوائل ألفاظ فكهيعص تدل مثلاً على كريم ، هاد ، حكيم ، عليم ، صادق ، وبعضهم يجمعها ويؤلف منها كلمات فيجمع (الر) و (حم) و (ن) في كلمة (الرحمن) . ومنهم من يرى انها أحرف يراد منها مجرد تنبيه الرسول الى اقتراب الوحي . وكذلك اختلف الغربيون في تفسير هذه الأحرف فذهب نولدكه وهرشفلد الى انها تشير الى أسماء أصحاب المصاحف القديمة فطه تشير الى طلحة مثلا ، وبعضهم رأى فيها اشارات موسيقية كالمفاتيح الموسيقية يراد بها الاشارة الى نغمة التلاوة . وكل هذه الأقوال مما لايطمئن اليه تمام الاطمئنان .

ونستطيع بصورة عامة أن نتبين اختلافاً في اسلوب القرآن بين الآيات المكية والآيات المدنية . وقد لاحظ القدماء امتياز الآيات المكية من المدنية بخصائص اعتمدوا عليها في معرفة نوع الآية ، وهـذا الاختلاف في الاسلوب أمر طبيعي منشؤه نزول القرآن منجماً في فترات متتابعة استغرقت نيفاً وعشرين سنة ، فكان الاسلوب القرآني صورة للدعوة الاسلامية والمراحل التي مرت بها .

فالأسلوب القرآني في الآيات المكية خطابي تأثيري يصطنع الجدل تارة للاقناع بصحة الرسالة المحمدية والدعوة الاسلامية ولاثبات وجود الله ووحدانيته وبطلان الوثنية والشرك ، ويصطنع الترغيب والترهيب تارة أخرى للتأثير في نفوس المشركين . فكانت الآيات المكيّة لذلك تمتاز بالقصر في الغالب ، وكثرة السجع ، وحرارة اللهجة ، وخصب الخيال ، وقـوة العاطفة ، وفيض الشاعرية ، وترداد ألفاظ معينة كلفظ « ما ادراك » ، وجزالة الألفاظ ، والتكرار ، وكثرة القسم ، واستعمال أدوات التأكيد بكثرة . وكانت صور الأسلوب في التقديم أو التأخير وفي الذكر أو الحذف وفي التكرار والسجع وغيرها تفي بالغاية المقصودة وهي التأثير في نفوس المشركين . ولنقرأ مثلا أول سورة الفجر : « وَٱلْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۞ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۞ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۞ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۞ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۞ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ ... »

ويزعم بعض المستشرقين أن محمداً كان في السور المكية متأثراً بسجع الكهان وانه استعمل أساليب هؤلاء الكهان أيضاً في اللعن والبركة وفي القسم باشياء غريبة ، وان السجع قد اضطر محمداً الى استعمال كلمات غريبة كقوله : « سلامٌ على إلياسين (١) » . (الصافات)

وأما في الآيات المدنية فقد اتجه القرآن الى تشريع النظم للدولة الاسلامية وإلى الرد على اليهود وغيرهم وإلى تفصيل العبادات والمعاملات ، فأخذت الآيات تزداد طولاً ، وغلب على الأسلوب اللهجة الهادئة ، واستعمال الألفاظ الرقيقة الوادعة لمخاطبـة المؤمنين ، والاقلال من السجع والقسم ، فالأسلوب المدني اسلوب تقريري في الغالب .

وما ذكرناه من الفروق بين الاسلوب المكي والمدني هو الطابع الغالب دون ان تكون هناك حدود متميزة واضحة المعالم بين الآيات المكية والمدنية ، ولنقرأ بضع آيات مدنية من سورة البقرة : « يا أيُّهـا ٱلَّذِينَ آمَنوا لاتُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِٱلْمَنِّ وَٱلْأذَى كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ

---

(١) جمع (إلياس) أو لغة فيها .

تُرابٌ فأصابَهُ وابلٌ فتركَهُ صلداً لا يقدرون على شيءٍ مما كسبوا واللهُ لا يهدي القومَ الكافرين . ومثلُ الذين ينفقون أموالَهم ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ وتثبيتاً من أنفسِهم كمثلِ جنةٍ بربوةٍ أصابها وابلٌ فآتت أُكلَها ضعفين فإن لم يصبها وابلٌ فطلٌّ واللهُ بما تعملون بصيرٌ . »

ومن الخصائص البارزة في اسلوب القرآن الاكثار من التمثيل وعرض الأفكار المعنوية عرضاً حسياً بعيد الوقع في النفوس ، وأكثر هذه الأمثال مستمد من مشاهد الطبيعة في البيئة العربية أو مستقى من حوادث التاريخ بقصد الانذار والتذكير أو الحث على السجايا الحميدة ومكارم الأخلاق. فمن الأمثال المستمدة من مظاهر الطبيعة قوله تعالى: « أنزلَ من السماءِ ماءً فسالت أوديةٌ بقدرِها فاحتملَ السيلُ زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النارِ ابتغاءَ حليةٍ أو متاعٍ زبدٌ مثلُه كذلك يضربُ اللهُ الحقَّ والباطلَ فأما الزبدُ فيذهبُ جفاءً وأما ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ كذلك يضربُ اللهُ الأمثالَ . » (رعد : ١٧) ، ومن الأمثال التاريخية قوله تعالى : « وسكنتم في مساكنِ الذين ظلموا أنفسَهم وتبينَ لكم كيفَ فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثالَ . » (ابراهيم : ٤٥)

ومن هذه الخصائص أيضاً التكرار ، وهو إما تكرار للمعنى ، كأن تذكر القصة عينها في مواضع متعددة وبعبارات مختلفة ، وإما تكرار للفظ مع المعنى ، وهذا التكرار الأخيرة يشبه اللازمة في القطع الغنائية ونجد أمثلة له في سور النمل والرحمن والمرسلات والقمر ، فنجد في السورة الأولى تكرار اللازمة « أإلهٌ مع الله » ، وفي الثانية « فبأي آلاء ربكما تكذبان » ، وفي الثالثة « ويلٌ يومئذٍ للمكذبين » ، وفي الرابعة « فكيف كان عذابي ونذر » . وقد أراد بعض المستشرقين أن يرى في هذا التكرار ضعفاً أسلوبياً وفضولاً في الكلام لا مسوّغ له ولا غناء فيه ، والحق ان التكرار من خصائص الأسلوب الخطابي عامة ، نجده في الشعر كما نجده في النثر والغاية منه التأثير وتثبيت المعنى في النفس ، وهو من نواحي الجمال في الأسلوب لا من نواحي الضعف فيه .

ومن خصائص الأسلوب القرآني ايضاً الالتفات ، ويراد به الانتقال من صيغة إلى صيغة أخرى كالانتقال من صيغة المخاطب الى صيغة الغائب ، أو من الخبر الى الانشاء . وهذا التنويع يضفي على الأسلوب حياة ورونقاً وهو من مظاهر الجمال فيه ، وهو كذلك من ظواهر الأسلوب الخطابي ، ومن أمثلته قوله تعالى : « وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ، وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً » . (الكهف : ٤٧ - ٤٨)

ومن هذه الخصائص أيضا التقطع ، فالسورة القرآنية لاتؤلف ، في الغالب ، وحدة موضوعية منسجمة بل نحن ننتقل من فكرة الى اخرى ومن موضوع الى آخر في السورة الواحدة ، فليس في القرآن موضوعات مرتبة ، ولهذا نجد القصة الواحدة تذكر في أكثر من موضع ، مفصلة تارة ، موجزة أخرى ، ولا نكاد نجدها تامة في موضع واحد . وقد وجد نولدكه ان هذا التقطع يحدث اضطرابا في فهم القرآن وخللاً في أسلوبه ، ومن الانصاف أن نشير هنا إلى ان القصص القرآني ليست الغاية منه تاريخية ، ولو كانت كذلك لوجب إيراد القصص في ترتيبها التاريخي كما هي الحال في الكتب السماوية الاخرى وفي كتب التاريخ . ولما كان ثمة حاجة الى تكرار القصة نفسها في اكثر من موضع ، ولكن الغاية من قصص القرآن هي الترهيب والترغيب كما قدمنا ، فلا جرم اذن تذكر القصة كلما سنحت المناسبة ، ولا جرم تطول وتقصر باختلاف المناسبات .

وأخيراً نجد أن الطابع الغالب على الاسلوب القرآني هو الايجاز ، الايجاز في التعبير ، وفي الاستغناء عن كل ما لا غناء فيه من حيث المعنى ، أو عما يمكن فهمه من سياق الكلام ، أو عن التعليل والتفصيل الذي يخرج بالأسلوب عن روحه الشعرية ويجعله في جملة النثر العادي . والعناية بالأسلوب واضحة في القرآن ، والروح التي تهيمن عليه هي روح تنبض شعراً وبلاغة ، وهي التي احتكمت في ألفاظ القرآن بالزيادة أو النقص ، والذكر أو الحذف ، واختلاف الصيغ ، والايجاز أو الاطناب ، حتى جاء هذا الأسلوب معجزاً في بلاغته . ومهما يختلف القول في تعليل الاعجاز القرآني فلا ريب ان مرد هذا الاعجاز في المرتبة الأولى الى اسلوبه ونظمه . ونحن نعلم شدة تأثر العرب بالأسلوب والصيغة . وموضع الاعجاز في هذا الاسلوب ملاءمته للنفوس التي كانت تخاطب به بحيث يترك فيها أعمق الآثار ، بما توافر فيه من حس موسيقي كان يتصرف بالألفاظ تصرفاً موسيقياً عجيباً ، ومن هذه الخصائص الأسلوبية التي بيّناها ، فكل ذلك جعل من الاسلوب القرآني آية بلاغية معجزة لايزال أدباء العرب يقتدون بها وينهلون منها .

نماذج قرآنية

(فضلا عن النماذج الواردة أثناء البحث)

بسم الله الرحمن الرحيم

— ١ —

الاسلوب الخطابي

«اقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ ٱلْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ

---

(١) اقتربت الساعة : اقترب يوم القيامة ، وانشق القمر : أي سينشق القمر يوم القيامة . والقرآن كثيراً مايستعمل الفعل الماضي للمستقبل لبصور الحادثة كأنها تمت ودونها، تأكيداً لوقوعها. ويجنح بعض المفسرين إلى ان انشقاق القمر قد حدث فعلا في عهد الرسول ، آية على اقتراب الساعة. (٢) إن يروا : أراد بهم المشركين . آية : معجزة . مستمر : دائم مطّرد أو قوي مُحكم ، من المِرّة وهي إحكام فتل الحبل وطاقته . (٣) وكذّبوا : أي كذّبوا الرسول ، وإيجاز الحذف كثير شائع في الأسلوب القرآني . أهواءهم : مازيّن لهم الشيطان . وكل أمر مستقر : لا يعرف المراد هنا بهذه الجملة وقد اختلفت فيها أقوال المفسرين ، فمن قائل أنه يراد بها ان كل ما قدر فهو كائن وقيل معناها أنّ الخير مستقر بأهله في الجنة والشر مستقر بأهله في النار . ولعل المراد بها ان المشركين لايريدون الاعتقاد بغير ما استقر في نفوسهم من معتقدات آبائهم وأجدادهم ، وفي القرآن عبارات كثيرة يعسر فهمها فهماً واضحاً دقيقاً لغموض مدلول ألفاظها أو لجهلنا بملابساتها ومناسباتها. (٤) من الأنباء : اي أنباء الأمم الماضية التي هلكت وبادت لعصيانها أنبياءها . مزدجر : مفتعَل من الزَجر وأبدلت تاء الافتعال دالاً ، وهو اسم مصدر بمعنى الزجر والنهي والموعظة . (٥) حكمة: بدل من (ما) في الآية السابقة أو من مزدجر ، أو هي خبر لمبتدأ محذوف . بالغة : تامة . فماتغن: ما النافية أو للاستفهام الانكاري . تغن : تنفع وتجدي وحذفت الياء خطاً مشاكلة للفظ . النُذُر: جمع نذير ويريد بها الرسل أو الأمور المنذرة .

يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ (١) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ
كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (٢) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ
عَسِرٌ (٣) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٤)
فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (٥) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (٦) وَفَجَّرْنَا
الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (٧) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ
وَدُسُرٍ (٨) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (٩) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ
مُدَّكِرٍ (١٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ
مُدَّكِرٍ (١٢) كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا

---

(١) تولَّ عنهم : أعرض عنهم . يوم يدعو الداع : يوم الحساب ، وحذفت الياء من الداع مشاكلة للنطق . نكر : منكر وهو الحساب ، وأصله نُكْر فحركت الكاف للسجع . (٢) خشعاً أبصارهم : حال من يخرجون ، وخشع جمع خاشع أي منكس الطرف من الذلة . الأجداث : القبور . وشبههم بالجراد المنتشر لكثرتهم وتفرقهم في كل ناحية . (٣) مهطعين : مسرعين . عسر : صعب شاق . (٤) قبلهم : أي قبل قريش . ازدجر : زجر ومنع من أداء رسالته بالأذى والشتم . (٥) أني : فتحت همزة أن على تقدير اتصالها بالباء أي بأني . فانتصر : فانتقم لي من قومي . (٦) يشير في هذه الآية إلى إغراق قوم نوح بالطوفان . (٧) فالتقى الماء ماء السماء وماء الارض . على أمر قد قدر : لأمر قدر عليهم وهو هلاكهم غرقاً . (٨) ذات ألواح : كناية عن السفينة . دُسُر : ج دِسار وهو ماتشد به السفينة من المسامير ونحوها . (٩) تجري بأعيننا : بمرأى منا ، اشارة الى انها سارت محروسة بعناية الله . جزاء لمن كان كفر : أي أغرقناهم جزاء لكفرهم برسالة نوح . (١٠) آية : عبرة . مدَّكر : متعظ وهي اسم فاعل من اذدكر . (١١) الاستفهام في هذه الآية يراد به التعظيم والتهويل ، أي كان عذابي شديداً عظيماً . نذر : هنا ، يراد بها الانذار والوعيد ، وأصلها نذري ، وحذفت الياء وسكنت الراء للسجع ، ومثل هذا كثير في القرآن . وهذه الآية والتي بعدها نموذج للتكرار القرآني الذي يشبه اللوازم الغنائية . (١٢) يسرنا القرآن للذكر : سهلناه للحفظ والتذكر والاعتبار . (١٣) كذبت عاد : حذف المفعول به وهو هود ، نبي عاد .

صَرْصَراً في يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١) تَنْزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ . وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ . »

(من سورة القمر — مكية)

— ٢ —

الأسلوب الخطابي: (الترغيب والترهيب)

« ... وَنُفِخَ في ٱلصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ، هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ (٤) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥) فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦) إِنَّ أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٧) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى ٱلْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٨) لَهُمْ فِيهَا

---

(١) الصرصر : صفة للريح الشديدة البرد والهبوب . (٢) تنزع الناس : تقتلعهم من أماكنهم التي لاذوا بها . أعجاز : ج عَجُز وهو الأصل . منقعر : منقلع من أصله يشير في هاتين الآيتين إلى هلاك قوم عاد بالريح التي كانت تنتزعهم من أماكنهم كأنهم أصول النخل المقتلعة من مغارسها ، وكلما أشار القرآن هنا إلى قصة إحدى الأمم البائدة التي يعتبر بها أردفها بالآيتين : فكيف كان عذابي ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر .

(٣) الصور : القرن ينفخ فيه ، ويراد به هنا صور البعث ، ينسلون : يسرعون . وقد استعمل الماضي هنا بدلاً من المستقبل لتصوير ما سيكون كأنه كان ، تأكيداً لقرب حدوثه . (٤) قالوا : يريد بهم الكفار . مرقدنا : يريد به القبر . ماوعد : ما ، هنا موصولة . (٥) إن : ما . (٦) اليوم تلقى كل نفس جزاء ماعملت ، إن خيراً أثيبت عليه وإن شراً عوقبت به . (٧) في شغل : مشغولون بنعيم الجنة . فاكهون : فرحون ، ناعمون ، واحده الفاكه والفَكِه ، ومنه الفاكهة لأنه يتلذذ بها . (٨) في ظلال : في الظل لاتصيبهم الشمس . الارائك : ج أريكة وهي السرير الفاخر .

فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ (١) سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٢) وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّها الْمُجْرِمونَ (٣) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَني آدَمَ أَلاّ تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٤) وَأَنِ اعْبُدُوني هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٧) اصْلَوْها الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٨) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٩) » (سورة يس – مكية)

- ٣ -

الاسلوب التقريري :

« يا أَيُّها النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذي تَساءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحامَ

---

(١) يدّعون : يتمنون ، ويسألون . لاحظ ان القرآن حين يتحدث عن الجنة يمثلها للعرب حاوية على كل ما يتمناه العربي في جزيرته من المياه العذبة والفاكهة اللذيذة والظلال الوارفة والحور العين ونحو ذلك . (٢) المعنى : يقال لهم سلامٌ ، من رب رحيم ، أي يسلم عليهم الله بنفسه أو بواسطة الملائكة . وسلام خبر لمبتدأ محذوف . وقولاً مفعول مطلق أي يقال قولاً . (٣) امتازوا : انفردوا عن المسلمين . (٤) أعهد اليكم : آمركم . عدو مبين : بين العداوة . (٥) الصراط : الطريق ويراد هنا به الدين . (٦) أضل : أي الشيطان . الجبِلّ : الجماعة والخلق . (٧) يصور القرآن أهوال الآخرة كأنها تحدث أمام أعين المشركين ليوقع في نفوسهم الرعب والذعر ، وهذا التصوير التمثيلي من خصائص الأسلوب القرآني ، ولا يخفى ما له من بعيد الوقع والأثر في النفوس . (٨) اصلوها : من صَلِيَ النار : قاسى شدتها وحرّها ، وأصلاه النار : أدخله فيها . تكفرون : تجحدون وتنكرون . (٩) اليوم نمنع أفواههم عن الكلام ونُنطق جوارحهم ليعلموا أن اعضاءهم التي كانت عوناً لهم على المعاصي صارت شاهدة عليهم . كسب الاثم : تحمله واقترفه .

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١) وَآتُوا ٱلْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَتَبَدَّلُوا ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي ٱلْيَتَامَىٰ فَٱنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ ٱلنِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا وَآتُوا ٱلنِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً (٣) وَلا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً

---

(١) من نفس واحدة : من آدم . وخلق منها زوجها : حوّاء التي خلقت من ضلع آدم . بث : نشر وخلق . تساءلون : أصلها تتساءلون فحذفت التاء ، وهو قولهم : أسألك بالله وأنشدك بالله . الأرحام : معطوفة على ربكم ، أي اتقوا الارحام أن تقطعوها . والارحام ج رَحِم وهي القرابة ، مأخوذ من رحم المرأة . رقيباً : مطّلعاً وحافظاً . (٢) وآتوا اليتامى أموالهم : أي ادفعوا اليهم أموالهم بعد البلوغ ، وهذا عند البلاغيين مجاز مرسل علاقته اعتبار ما كان ، أي الذين كانوا يتامى ، لأن اليتيم لا يدفع اليه ماله الا بعد البلوغ . والقرآن يوصي المسلمين كثيراً بالأيتام وإنصافهم . لاتتبدلوا الخبيث بالطيب : لا تأخذوا المال الحرام ، مال اليتامى ، بدلاً من المال الحلال . أو المراد : لاتستبدلوا الأمر الخبيث ، وهو اختلاس أموال اليتامى . بالأمر الطيب وهو حفظها ورعايتها . إلى أموالكم : متعلقة بمحذوف تقديره : مضافة أو مضمومة . الحوب : الذنب . (٣) تقسطوا : تعدلوا . والمعنى انكم اذا خفتم ألا تعدلوا في يتامى النساء إذا تزوجتم بهن فتزوجوا ماطاب لكم من غيرهن . ويظهر أن الرجل في ذلك الحين كان يتزوج اليتيمة التي في حجره لينتقص من صداقها أو يرثها بعد موتها . وربما كان المعنى انكم كما خفتم الا تقسطوا في اليتامى حريٌّ بكم أن تخافوا في النساء فلا تتزوجوا أكثر من واحدة إلا إذا كنتم قادرين على معاملتهن بالعدل . مثنى وثلاث ورباع : من ألفاظ العدد المعدولة عن أصلها ، وهي على وزن فُعال ومَفْعَل أي تزوجوا اثنتين اثنتين ، وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً . ما ملكت ايمانكم : أي الاماء . أدنى ألا تعولوا : أقرب ألا تجوروا وتميلوا عن الحق . يقال : عال الميزان إذا مال وعال الحاكم إذا جار . صَدُقاتهن : ج صَدُقة : المهر والصَّداق . نحلة : عطية عن طيب نفس ، أو فريضة . فان طبن لكم عن شيء منه نفسا : تمييز محول عن الفاعل والأصل : طابت نفوسهن لكم عن شيء من الصداق فوهبنه لكم . الهنيء المريء : من الطعام ، الطيب السائغ ، وهنا يشبه الصداق أو بعضه بالطعام السائغ ، أي خذوه غير آثمين ولا ملومين .

وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً (١) وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً (٢) لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً (٣) ».

(من سورة النساء — مدنية)

— ٤ —

مكارم الاخلاق :

« وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً

---

(١) ولا تؤتوا : الخطاب للأولياء ؛ السفهاء : المبذرين من الزوجات والاولاد أو من الأيتام. قياماً : مصدر قام أي التي تقوم بمعاشكم وأودكم . وارزقوهم فيها : انفقوا عليهم منها واطعموهم ، والأرجح أن الحديث هنا عن الايتام . قولاً معروفا : قولاً جميلاً . (٢) ابتلوا : اختبروا . حتى إذا بلغوا النكاح : أي اذا صاروا أهلاً للزواج وبلغوا . آنستم منهم رشداً : أبصرتم فيهم صلاحا وحسن تدبير لأمورهم . بداراً ان يكبروا : مبادرين كبرهم ، وبادره : سبقه . فليستعفف : يعف عن مال اليتيم . بالمعروف : بقدر ، لا أن يفرط في مال اليتيم فيأكله كله . حسيبا : محاسبا وشاهداً . (٣) هذه الآية تنص على توريث النساء ، لأن الجاهليين لم يكونوا ، فيما يظهر ، يورثون النساء ، فقال تعالى إن للرجال وللنساء نصيباً مما ترك الوالدان والأقربون المتوفون ، وقد خص القرآن النساء بعد ذكره الرجال فلم يقل للرجال وللنساء ، وانما أفرد كلاً منها بالقول تأكيداً لحق النساء في الارث .

كَرِيماً (١) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً (٢) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً (٣) وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (٤) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (٥)».

(من سورة الاسراء – مكية)

– ٥ –

أمثال القرآن

(«إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ

---

(١) قضى : أمر . بالوالدين إحسانا : أن تبروا الوالدين وتعاملوهما بالحسنى . إما : مركبة من إن الشرطية مع (ما) للتأكيد . احدهما : فاعل يبلغن . أف : كلمة يراد بها التضجر والكراهية والتأفف ، وهي عند النحاة اسم فعل بمعنى أتضجر والحق انهما من اسماء الأصوات . تنهرهما : تغلظ لهما في القول . (٢) واخفض لهما جناح الذل : أي ألن جانبك لهما من رحمتك لهما ورأفتك بهما . وهذا التعبير من الاستعارات القرآنية . (٣) الأوابين : التائبين الراجعين عن الذنوب من آب يؤوب : رجع . (٤) آت : أعط . حقه : حقه من الصلة ، ومن البر ان كان فقيراً . المسكين : الفقير الذي أسكنته الخلة ، قيل سمي مسكينا لانه دائم السكون . ابن السبيل : المسافر سمي بابن السبيل لملازمته الطريق ، أو هو الضيف أو الفقير الذي لا مأوى له غير الطريق . (٥) كفوراً : جاحداً لنعمته . من الآداب التي يلح القرآن عليها بر الوالدين والاحسان إلى الفقراء من ذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل .

تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون [1] .

(من سورة يونس – مكية)

– ٦ –

قصص القرآن

« واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون [2] فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين [3] فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين [4] ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم

(١) هذا المثل ضرب لبيان حال الدنيا العجيبة وسرعة زوال نعيمها بعد الأقبال واغترار الناس به . المثل : هنا ، الحال . الماء : المطر . الانعام : مايرعى من البهائم ولا واحد له من لفظه . الزخرف : الحسن والبهجة والنضارة . قادرون عليها : متمكنون من حصادها وجني ثمراتها وغلالها . أتاها أمرنا : أي قضاؤنا بهلاكها . حصيداً : محصودة لانبات فيها . كأن : مخففة من كأنّ . لم تغن : لم تكن . من غني بالمكان إذا أقام فيه . نفصّل : نبين . هذا المثل من التشبيه التمثيلي شبهت حال الدنيا في سرعة زوال نعيمها بعد الاقبال واغترار الناس بها بحال نبات الارض الذي يزين الأرض بالوانه وبهجته فاذا اغتر الناس به وظنوا انهم قادرون على الانتفاع به ، اتت عليه ريح عاتية فأبادته .

(٢) واتل عليهم : الخطاب لمحمد . النبأ : الخبر . كبر عليكم مقامي : شق عليكم لبثي فيكم . تذكيري : وعظي . أجمعوا أمركم : اعزموا على أمر تفعلونه بي . وشركاءكم : الواو للمعية . غمة : مستوراً . ثم اقضوا الي ولا تنظرون : ثم امضوا فيما عزمتم عليه ولا تمهلوني . (٣) توليتم : أعرضتم . الاجر : الثواب . إن : ما . (٤) الفلك : السفينة . وجعلناهم : هو وقومه . خلائف : ج خليفة وهو من يخلف غيره ويقوم مقامه .

فَجاؤُوهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانوا لِيُؤْمِنوا بِما كَذَّبوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلوبِ الْمُعْتَدينَ [1] ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ موسى وَهارونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَروا وَكانوا قَوْماً مُجْرِمينَ [2] ». (من سورة يونس)

- ٧ -

مشاهد الطبيعة ومظاهر الكون

« أَتى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلوهُ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمّا يُشْرِكونَ [3] يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِروا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلّا أَنا فَاتَّقونِ [4] خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعالى عَمّا يُشْرِكونَ [5] خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصيمٌ مُبينٌ [6] وَالْأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ فيها دِفْءٌ وَمَنافِعُ وَمِنْها تَأْكُلونَ [7] وَلَكُمْ فيها جَمالٌ حينَ تُريحونَ وَحينَ

---

(١) بالبيّنات : بالمعجزات وبالأدلة الواضحة البينة . فما كانوا ليؤمنوا : اللام في يؤمنوا لام الجحود أي الانكار وهي تأتي مع كان المنفية فتنصب الفعل المضارع المتصل بها . نطبع على قلوب المعتدين : نختم عليها فلا تتقبل الايمان . (٢) ملئه : قومه . فاستكبروا : فتعالوا عن الايمان بها .

(٣) سميت هذه السورة بسورة النِعَم أيضاً لكثرة تعداد نعم الله بها . أتى أمر الله : المراد به يوم القيامة ، وهنا ايضا استعمل الفعل الماضي للمستقبل القريب . سبحانه وتعالى عما يشركون: تنزه وجلّ عن أن يكون له شريك . وسبحان : مصدر سبّح لازم الاضافة إلى اسم الجلالة وهو مفعول مطلق . و (ما) في عمّا موصولة أو مصدرية ، أي تبرّأ من هذه الأوثان التي يشركونها معه في الألوهية (٤) الروح : الوحي . أن انذروا : اعلموا ، نذر به : علم . وأن هي المفسرة لأن الروح بمعنى الوحي الدال على القول أو هي مخففة من الثقيلة . اتقون : خافوني ، والياء محذوفة لمشاكلة النطق . (٥) تعالى : ارتفع وتبرأ . (٦) النطفة : أصلها للماء القليل واستعملت لماء الرجل . والقرآن يذكر الانسان دائما بأصله الحقير لينهاه عن الغرور وعن الجدل في شؤون الخلق والكون . خصيم : مجادل . (٧) والانعام خلقها : قدم المفعول به فنصب على الاشتغال . لكم فيها دفء : ينتفع بهذه الأنعام فيكتسي بجلودها الدفء . ومنها تأكلون: تأكلون لحومها أو نتاجها .

تَسْرَحُونَ (١) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ (٢) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٤) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (٥) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٧) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (٨) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً

---

(١) جمال : زينة . تريحون : تردونها من مراعيها إلى مراحها بالعشي. تسرحون : تخرجون بها الغداة إلى المراعي . (٢) بشق الأنفس : بالمشقة والكلفة . (٣) والخيلَ : معطوفة على الانعام. زينةً : نصبت على أنها مفعول لأجله . (٤) وعلى الله قصد السبيل : الله يهديكم إلى الطرق القويمة المفضية الى الخير والحق . ومنها جائر : ومن الطريق ما هو حائد عن القصد لا يهتدى به . (٥) لكم منه شراب ومنه شجر : تشربونه وينبت لكم الشجر . والمراد بالشجر هنا مطلق النبات . تسيمون : ترعون ومنه يقال للماشية سائمة . (٦) الآية : هنا ، العلامة الدالة على وجود الخالق . بعد ان ذكر الله الحيوان اجمالاً ذكره تفصيلاً فعدد انواع الحيوان التي يحتاجها العرب ويعرفونها . وكذلك بعد أن ذكر النبات إجمالاً ذكره تفصيلاً فعدد منه الأنواع التي يعرفها العرب في جزيرتهم كالزيتون والنخيل والأعناب . وذكر الخاص بعد العام من أنواع الإطناب في علم المعاني . (٧) سخرها : هيأها لمنافعكم . والنجوم مسخرات : أفرد النجوم بالذكر فأعاد معها فعل التسخير لما للنجوم من الخطورة في حياة العرب ، فالنجوم مبتدأ ومسخرات خبره ، ومسخرات : مذللات وربما أراد القرآن أن يؤكد تسخير النجوم لأمر الله لما كان يعتقده بعض القدامى فيها من قدرتها على التصرف بشؤون الخلق . (٨) ذرأ : خلق ، وهذه الآية معطوفة على (الليل) ، أي وسخر لكم ما خلق لكم في الدنيا من حيوان ونبات .

لِتَأْكُلُوا... تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١)
وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (٢) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)
وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤) .

(من سورة النحل – مكية)

مصادر

١ – القرآن الكريم وأشهر التفاسير كالكشاف للزمخشري والبحر لابن حيان وتفسير الطبري .

٢ – الاتقان في علوم القرآن : جلال الدين السيوطي .

٣ – المصاحف : ابن ابي داود السجستاني . ط . جفري .

٤ – المقنع في رسم مصاحف الامصار : أبو عمرو الداني . استانبول .

٥ – دائرة المعارف الاسلامية : مادة قرآن .

٦ – التصوير الفني في القرآن : سيد قطب .

٧ – تطور الاساليب النثرية في الادب العربي : انيس المقدسي .

٨ – القرآن : محمد صبيح

٩ – دائرة المعارف البريطانية : (مادة قرآن : نولدكه)

(١) ذكر الله في هذه الآية منافع البحر ، فينتفع منه بأكل أسماكه بأنواعها ، وينتفع منه باستخراج ما فيه من اللآلىء فتكون حلية للناس ، وينتفع منه بركوب السفن . الفلك : السفن ، للمفرد والجمع ، وللمذكر والمؤنث : مواخر : جواري من مخرت السفينة الماء إذا شقته بصدرها وجرت. ولتبتغوا من فضله : لتجنوا الرزق والربح بركوب هذه السفن . (٢) الرواسي : الجبال . أن تميد بكم : لئلا تميل بكم والميد : الاضطراب والميل . (٣) وعلامات : معطوفة على الرواسي في الآية السابقة ، وهي المعالم التي يهتدون بها ، ثم خص النجم بالذكر لأنه اجل هذه العلامات شأناً عند العرب إذ كانوا يهتدون به في أسفارهم . (٤) يقايس الله هنا بينه وبين الاوثان في المقدرة على الخلق، بعد ان عدد نعمه على الناس وأظهر بديع خلقه ، وذلك ليصرف الناس عن عبادة الأوثان العاجزة الى عبادة الله الخالق الذي سخر الطبيعة وما فيها لمنفعة الانسان .

الحديث الشريف

تعريفه : يطلق لفظ الحديث على ما أثر عن رسول الله من قول أو فعل أو إقرار لفعل أو قول . ويطلق أيضا على ما ورد عن الصحابة الذين رافقوا الرسول وعاينوا أفعاله وسمعوا أقواله ، وعلى ما ورد عن التابعين ، وقد عاشروا الصحابة وسمعوا منهم . ويطلق على الحديث أيضا لفظ السنة ، والخبر ، والاثر .

والحديث المضاف الى الرسول يسمى « المرفوع » ، والمضاف الى الصحابة يسمى « الموقوف » ، والمنسوب الى التابعين يسمى « المقطوع » .

وضع الحديث وتدوينه : لم يدون في عهد الرسول عليه السلام إلا القرآن ، أما الحديث فلم يدون في ذلك الحين خشية التباسه بالقرآن ، وهم يروون عن الرسول قوله : « من كتب عني غير القرآن فليمحه » . ومع ذلك فقد دونت في عهد الرسول طائفة قليلة من أحاديث الرسول وخطبه ، وقد روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه كان يكتب كل ما يسمعه من رسول الله ، وينقل عن عائشة قولها : « جمع أبي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت خمسمائة حديث ، فبات ليلته يتقلب كثيراً . قالت : فغمني ، فقلت : أتتقلب لشكوى أو لشيء بلغك ؟ فلما أصبح قال : أي بنية ، هلمي الأحاديث التي عندك . فدعا بنار فأحرقها . . » (١) . ولكن هذا التدوين لم يكن شائعا ولم تكن له أصول خاصة ، وكان من الصحابة من إذا سمع أحداً يحدث عن الرسول طالبه بالبينة ، ومنهم من كره رواية الحديث لئلا يشغل به الناس عن القرآن ، أو لئلا يحرفه الناس ويغيروا فيه .

وحين توفي الرسول كانت الأحاديث النبوية محفوظة في الصدور ولم تدون في كتاب جامع ، وظل الأمر على هذه الحال إلى حوالي منتصف القرن الثاني ، فنجم عن عدم تدوين الأحاديث أن أخذ كثير من الناس يضع الأحاديث ويفتعل لها سنداً يرفعه الى الرسول . ويظهر ان وضع الأحاديث قد وجد منذ عهد الرسول ، يدل عليه الحديث المنسوب الى النبي : « من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » ، وحين آنس الصحابة الثقات كثرة الوضع والكذب في الحديث امتنعوا من روايته ، وقلّ إقبالهم عليه ، من هذا ما يرويه مسلم عن ابن عباس ان بشيراً العدوي جاءه يحدثه بأحاديث الرسول وهو لا يصغي إليه ، فقال له : يا ابن عباس ، مالي لا أراك تسمع

---

(١) تذكرة الحفاظ ص ١

لحديثي ؟ أحدثك عن رسول الله ولا تسمع ! فقال ابن عباس : إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول: قال رسول الله ، ابتدرته أبصارنا ، وأصغينا إليه بآذاننا ، فلما ركب الناس الصعبة والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف ».

وقد كثر وضع الأحاديث كثرة هائلة بعد قيام الفتوح واتساع رقعة المملكة الاسلامية ودخول الأمم الأعجمية أفواجا في الاسلام ، لاسيما وأن كثيراً ممن أسلم كان إسلامه بلسانه لا بقلبه ، ولا أدل على استفحال الوضع من أن البخاري قد اختار أحاديثه ، وهي لا تعدو سبعة الآلاف من ستمائة ألف حديث كانت متداولة في زمنه ، وأن المحدّث القطان قال : « لم نر الصالحين في شيء أكذب منهم في الحديث » لأن بعض الوضّاعين كان يضع الأحاديث عن حسن نية أو عن غفلة أو للترهيب والترغيب ، ورووا عن محمد بن سعيد الدمشقي قوله : « اذا كان كلام حسن لم أر بأساً أن أجعل له إسناداً » وكان ثمة دوافع كثيرة تحمل على وضع الأحاديث ، كتلك الدوافع التي لاحظناها في انتحال الشعر ، وسنجمل القول في أبرز هذه الدوافع .

١ - الخلاف السياسي . منذ أن وجدت الأحزاب السياسية التي كانت تتناحر في سبيل الخلافة أخذ كل حزب يفتعل الاحاديث تأييداً لمذهبه ، فوضع كل من الانصار ، والمهاجرين ، والشيعة ، والبكريين ، والخوارج ، والأمويين ، والزبيريين ، والعباسيين ، أحاديث كثيرة لهذه الغاية ، فيروى عن المبرّد قوله : « وكان المهلّب [١] ربما صنع الحديث ليشد به أمر المسلمين ويضعف به أمر الخوارج » ، ويقول ابن ابي الحديد : « واعلم أن اصل الكذب في حديث الفضائل كان من جهة الشيعة ، فانهم وضعوا في مبدأ الامر أحاديث مختلفة في صاحبهم ، حملهم على وضعها عداوة خصومهم ... فلما رأت البكرية ما صنعت الشيعة وضعت لصاحبها أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث [٢] » فمن هذه الاحاديث التي وضعت بدافع الخلاف السياسي ما يروى عن الرسول من أنه أخذ بكتفي أبي بكر وعمر فقال : انتما وزيراي ، فلا شك أنه من وضع خصوم علي ، ولا ريب أن البكريين هم الذين وضعوا حديث : « إن تؤمّروا أبا بكر تجدوه أميناً مسلماً » ، وكحديث « إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه » فلا ريب أنه من وضع الشيعة ، ولا ريب انهم الذين وضعوا على الرسول قوله لعلي : « هذا وصيي وموضع سري وخير من أترك بعدي » ، ولا يبعد أن يكون الانصار قد وضعوا حديث : « آية المنافق بغض الانصار ، وآية المؤمن حب الانصار » ، ولا ريب أن الامويين هم واضعو حديث : « الامناء عند الله ثلاثة : أنا وجبريل ومعاوية » وكذلك وضع العباسيون حديث : « اتاني جبريل وعليه قباء أسود في زي ولد العباس » ، الى غير هذه من الأحاديث الكثيرة التي افتعلتها الأحزاب السياسية .

---

(١) هو المهلب بن أبي صفرة قائد الامويين في حرب الخوارج (٢) شرح نهج البلاغة ، ج٣ : ١٧

٢ – العصبيّة . وضعت بدافع العصبية القبلية وتنازع قبائل العرب الرياسة والمكارم احاديث كثيرة في فضائل قبائل العرب ، على غرار ما وجدناه في الشعر ؛ فكانت كل قبيلة تصنع الأحاديث في بيان فضائلها وتفوّقها على القبائل الأخرى .

وكما كان للعصبية القبلية أثر في وضع الأحاديث كان ايضاً للعصبية القومية مثل هذا الاثر فوضع العرب احاديث في تفضيلهم وصنع الأعاجم مثل ذلك ، فكان منها هذه الأحاديث الكثيرة في في فضائل العرب والفرس والترك والروم والحبش وغيرهم . فمن وضع الموالي من الفرس حديث : « ان الملائكة حول العرش يتكلمون الفارسية » ووضع المتعصبون للعرب حديث : « أبغض الكلام الى الله الفارسية » ، ومن ذلك حديث : « اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم سادة أهل الجنة : لقمان وبلال والنجاشي » ، وعلى هذا النحو كانت كل أمة تضع الأحاديث التي ترفع من شأنها وتعدد فضائلها .

وكان ثمة عصبية اخرى مدنية كان من اثرها ان وضعت احاديث كثيرة في فضائل المدن .

٣ – الخلاف المذهبي . رأينا المسلمين ينقسمون الى فرق دينية كثيرة فضلاً عن الأحزاب السياسية التي اتخذت ايضاً صبغة دينية كالشيعة والخوارج ، وكانت هذه الفرق الدينية تجادل في امور الدين الشائكة كالقضاء والقدر وخلق الله وخلق القرآن والإرجاء ونحو ذلك ، فكان كل فريق يؤيد مذهبه بأحاديث ينحلها النبي . فجاءنا من ذلك عدد ضخم من الأحاديث الموضوعة التي تتناول المسائل الكلامية والفرق الإسلامية ، منها : « اتقوا القدَرَ فإنه شعبة من النصرانية » ، « صنفان من أمتي لا تنالهم شفاعتي : المرجئة والقدرية » ، « لكل أمة مجوس ، ومجوس هذه الامة الذين يقولون لا قدَر » ، « القرآن كلام غير مخلوق ومن قال غير هذا فقد كفر » ، ومنها الحديث المروي في ذم الشافعي ومدح ابي حنيفة : « يكون في أمتي رجل يقال له محمد بن إدريس أضر على أمتي من إبليس ، ويكون في أمتي رجل يقال له ابو حنيفة هو سراج أمتي » .

٤ – الزندقة . كان هناك فريق كبير من الموالي ومن غير الموالي اعتنق الاسلام كارهاً وقد أضمر في نفسه مقته وكراهيته ، فأخذ يضع الاحاديث للتشنيع على الدين الاسلامي وحشوه بالترّهات والأباطيل . رووا انه لما أخذ عبد الكريم بن أبي الموجاء الوضّاع لتضرب عنقه قال : « لقد وضعت فيكم اربعة آلاف حديث أحرّم فيها وأحلّل » ، وكان عبد الكريم هذا متهماً بالمانوية . من هذه الأحاديث ما يروونه عن الرسول من انه توضأ بالنبيذ ، والحديث المنسوب للأهوازي : « ان الله تعالى لما اراد ان يخلق نفسه خلق الخيل فأجراها حتى عرقت ثم خلق نفسه من ذلك العرق » .

٥ – الترغيب والترهيب . كان هناك فريق من الوعّاظ والأتقياء وجد ألاّ ضير عليه في

انتحال الأحاديث اذا كان لا يقصد بها تحريم المحلل وتحليل المحرم ، ووجد بعضهم ألا بأس عليه في وضع اسناد لكل كلام حسن. ومن هذه الطريق جاءنا عدد وفر من الأحاديث المكذوبة تحدث عن فضائل السور وعن فضائل بعض الصحابة والأماكن والأنهار والبلدان والاطعمة والالبسة وغيرها. من ذلك ماروي عن نوح بن أبي مريم من انه وضع احاديث في فضائل القرآن سورة سورة ، وقد أثبتها البيضاوي في تفسيره مروية عن ابن عباس ، وظن واضعها انه سيؤجر لعمله هذا اذ قال في تسويغ عمله : « لما رأيت اشتغال الناس بفقه أبي حنيفة ، ومغازي محمد بن اسحاق ، وأعرضوا عن حفظ القرآن ، وضعت هذه الأحاديث حسبة لله تعالى . »

٦ — اسباب اخرى الوضع . كان هناك اسباب أخرى الوضع غير ماذكرنا ؛ منها حب التقرب من ذوي المكانة والسلطان فتوضع الأحاديث إرضاء لهم ؛ ومنها حب الاغراب والاطراف ؛ ومنها هذه الأحاديث المروية في تفسير آيات القرآن ، ولا سيما الاسرائليات ، ولم يثبت عن الرسول في تفسير القرآن الا احاديث معدودات ؛ ومنها القصص ، فإن القصاص كانوا يحتاجون الى وضع الاحاديث لاجتذاب السامعين ، واكثر هذه الأحاديث عن اشراط القيامة وأحوالها وصور الجنة والنار والحساب والعذاب ونحو هذا ، وكثير منها مستمد مما جاء في التوراة والانجيل .

كل هذه الأسباب مجتمعة ادت الى استفحال الوضع في الأحاديث استفحالاً عظيماً حتى شحنت كتب التفسير والتاريخ والحديث والفقه والكلام بالأحاديث الموضوعة ، كتفسير ابن الكلبي ، وتفسير مقاتل بن سليمان وتفسير ابن عباس ، وقصص الأنبياء للثعلبي ، والمستطرف للأبشيهي . وكان من ذلك أن قام جماعة من العلماء الثقات بتدوين الأحاديث ، وكان الدافع الأول لهم خوفهم من ضياع الأحاديث بموت الحفاظ ، وقد قامت محاولات اولى للتدوين في عهد عمر بن الخطاب ثم في عهد عمر ابن عبد العزيز ، وفي عهد المنصور قام الإمام مالك بن أنس (المتوفي سنة ١٧٩) بجمع طائفة من الأحاديث في كتاب اسماه « الموطأ » ، وأخذ كل عالم يدون الأحاديث التي صحت له ، كعبد الملك ابن جريج بمكة (ت ١٥٠) ، والأوزاعي بالشام (ت ١٥٦) ، وسفيان الثوري بالكوفة (١٦١) وحماد بن سلمة بالبصرة (١٧٦) ، والليث بن سعد في مصر (١٧٥) ، ولكن لم يكن يراعى كثير من الدقة والاحتياط في جمع الأحاديث ، وكانت كتبهم تجمع بين الأحاديث وبين أقوال الصحابة وفتاوى التابعين ، ولم يصل إلينا مما ألفه هؤلاء الا موطأ مالك ، وهو مرتب ترتيباً فقهياً اذ كان الغرض منه إفادة التشريع الإسلامي ، واحاديث الموطأ ليست كلها مسندة موثوق بصحتها .

وفي نهاية القرن الثاني تقدم تدوين الحديث فأخذ بعض العلماء يفردونه بالتأليف، ومن الكتب

التي وضعت حينئذ المسانيد التي صنّفها عبيد الله بن موسى العبسي ، ومُسدّد بن مُسَرهَد .

فلما جاء القرن الثالث ظهر حذّاق المحدّثين والناقدين الذين وضعوا اصولاً دقيقة ميّزوا فيها بين الأحاديث الصحيحة والمكذوبة وأشهر الكتب المؤلفة في هذا العصر : صحيح البخاري (توفي سنة ٢٥٦) ، وصحيح مسلم (٢٦١) ، وسُنن ابي داوود (٢٧٥) ، وسنن النّسائي (٣٠٣)، وجامع الترمذي (٢٧٩) ، وسنن ابن ماجه (٢٧٣) ، وهذه الكتب الستة تعتبر أصح كتب الحديث ، ويضاف اليها مسند الإمام احمد (٢٤١) .

وأشهر هذه الكتب صحيحا البخاري ومسلم. فأما البخاري فهو محمد بن اسماعيل الفارسي الأصل، وقد أقبل على حفظ الحديث منذ صغر سنه ، ولما شب أخذ يرتحل من مكان الى آخر طلباً للأحاديث خلال ستة عشر عاماً ، ووضع كتابه المعروف « بالجامع الصحيح » ، ولم يجمع فيه إلاّ الأحاديث الموثوق بصحتها ، ولذلك اشترط في الحديث ان يكون متصل الاسناد الى الرسول ، وان يكون كل من رواته عدلاً موثوقاً بروايته . وقسم كتابه الى كتب وأبواب فقهية ، وجمع فيه ، حسب إحصاء ابن حجر ٧٣٩٧ حديثاً ، بما في ذلك المكرر ، وقيل انه اختارها من ستمائة الف حديث كانت متداولة لعهده .

وأما مسلم ، فهو مسلم بن الحجاج الذي ينتهي نسبه الى قيس عيلان ، وكان معنياً بالحديث منذ صغر سنه وارتحل كذلك في طلبه واتصل بالبخاري وتلمذ له ، وقد جمع كتابه المعروف باسم « صحيح مسلم » ، واشترط في اختياره احاديثه ايضاً اتصال السند وثقة الراوية ، إلاّ أنه كان يخالف طريقة البخاري في اختياره بعض المخالفة ، وأحصوا ما في صحيحه من الأحاديث فبلغت ٧٢٧٥ حديثاً مع المكرر وكان ينحو ايضا منحى البخاري في ترتيب كتابه على الأبواب الفقهية .

هؤلاء هم الذين يرجع اليهم الفضل في تدوين الحديث وتمييز صحيحه من موضوعه، وقد عني جماعة آخرون بعدهم بتلخيص او تهذيب كتبهم ، وعني آخرون بوضع مصطلحات لأنواع الاحاديث وتقسيم الرواة الى طبقات فأوجدوا من ذلك ماسموه « فن مصطلح الحديث » ، وأشهر الكتب المؤلفة فيه : التقريب للنووي ، وعلوم الحديث لابن الصلاح ، واختصاره لابن كثير ، والكفاية للخطيب البغدادي ، وكذلك وضعت كتب في الأحاديث الموضوعة ونقدها وأشهرها : اللآلئ المنثورة لابن حجر، واللآلئ المصنوعة للسيوطي، والموضوعات لابن الجوزي، وتذكرة الموضوعات لمحمد بن طاهر المقدسي.

نقد الاحاديث وحين نشط المحدثون والحفاظ الى جمع الاحاديث الصحيحة نظروا في الحديث من طريقين : الأول طريق السند، وهم الرجال الرواة للحديث ، والثاني طريق المتن ، وهو نص

الحديث نفسه . فنظروا في رواة الحديث هل هم جميعاً من الثقات العدول المعروفين بصدق الرواية أو أن منهم من عرف بالكذب والوضع ، وخرجوا من هـذا النظر بحث اسموه « التجريح والتعديل » وكذلك نظروا في سند الحديث من حيث اتصاله او انقطاعه ، وباعتبار السند قسمت الأحاديث الى انواع كثيرة منها الحديث المتواتر ، وهو الذي أخبر به جماعة بلغوا في الكثرة مبلغاً لا يحتمل معه تواطؤهم على الكذب فيه ؛ ولم يصح من الاحاديث المتواترة الأحاديث قليلة دون العشرة ، واذا لم يكن الحديث متواتراً سمي حديث آحاد. وقسموا الاحاديث بصورة عامة ، بحسب قوتها اوضعفها الى صحيحة ، وحسنة ، وضعيفة . وقسموها كذلك الى مسندة ، وهي ما اتصل سندها الى الرسول والى منقطعة وهي ما كان في سندها انقطاع .

وأما طريق المتن فهو أن ينظر الى نص الحديث نفسه إن كان فيه ما يوجب رفضه من الموجبات العقلية او النقلية . ولكن عناية المحدثين اتجهت بالدرجة الاولى الى السند ، فاذا ما صح لديهم السند لم ينظروا في المتن ولو كان فيه ما يبعث على الشك . ولهذا نجد في كتب الاحاديث الصحيحة ما يترجح وضعه لخضوعه لبعض اسباب الوضع التي أجملناها او لثبوت بطلانه بالتجربة والمشاهدة كالحديث الذي يرويه البخاري : « لايبقى على ظهر الأرض بعد مائة سنة نفس منفوسة . »

منزلة الحديث شغل المسلمون بعلم الحديث وانصرف إليـــه جل الصحابة والعلماء يتدارسونه ويحفظونه وينقدونه ، وكان منهم من حفظوا عدداً عظيماً من الأحاديث وعرفوا « بالحفاظ » ، فكان للحديث بعيد الأثر في الحركة العلمية لدى المسلمين وفي نشر الثقافة الاسلامية ، وكانت كتب التفسير الاولى لاتحوي الا ما أثر عن الرسول من احاديث التفسير ، وكذلك كانت كتب التاريخ الأولى متأثرة بمنهج التأليف في كتب الحديث كسيرة ابن هشام ، وامتد هذا الأثر الى كتب الأدب التي ألفت في العصور الاسلامية الأولى فكان كثير منها ينحو منحى كتب الحديث في ذكر الاسانيد وتعدد الروايات ككتاب الاغاني مثلاً . واوجد الحديث في علماء المسلمين روح النقد والبحث والتحري ودفعهم الى الارتحال في سبيل العلم وسعياً وراء الحقيقة والمعرفة .

ولغة الحديث نموذج للنثر العربي في مبدأ القرن الأول الهجري ولذلك فان لهذا النثر منزلة ادبية ولغوية تأتي في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم ، لاسيما وان النبي عليه السلام كان من أفصح العرب وأبلغهم وأقدرهم على التصرف في فنون القول وفي ابتكار الصور البيانية والتمثيلات، فلا جرم يكون الحديث الصحيح قدوة الكتاب والبلغاء ومثالاً يحتذيه الخطباء والمتأدبون ، ومما ينسب الى الرسول من مبتكر التعبير قوله : حمي الوطيس ، يريد : اشتدت الحرب ، وقوله : رفقاً بالقوارير ، يريد النساء

وقوله : اياكم وخضراء الدمن ، اي احذروا منبت السوء ، ونحوها من التعابير . إلا ان كثرة الوضع في الاحاديث وتعذر تمييز الصحيح من الموضوع حمل اكثر النحاة على عدم الاستشهاد بها في مسائل النحو ، لاسيما وان كثيراً من الاحاديث مروي بالمعنى لا باللفظ ، وقد فصل القول في هذا الامام عبد القادر البغدادي في الجزء الاول من خزانة الادب .

والخصائص الأدبية التي نجدها في الحديث لاتخرج عن الخصائص العامة للنثر الاسلامي التي سيأتي بيانها ، كالايجاز في التعبير وعدم تكلف الصنعة البلاغية ومجانبة السجع والتأثر بالمعاني الاسلامية .

وكانت احاديث الرسول في جملتها مرجعاً للمسلمين في كثير من امور دينهم ودنياهم ، اذ أنها كانت تتناول بالتفصيل بعض ما أجمله القرآن كتحريم الخمر وتفصيل الصلاة ، وكان منها ماينحو الى تزويد المسلمين بالاخلاق الفاضلة والسجايا الكريمة ، ومنها ماينظم صلات المسلمين الاجتماعية وشؤونهم الاقتصادية .

نماذج من الأحاديث النبوية

١ – مَن سَرَّهُ أن يُبْسَطَ عليه رِزقُهُ أو يُنْسَأَ في أثرِهِ فليَصِلْ رَحِمَهُ .

٢ – لاتَحاسَدُوا ولا تَباغَضُوا ولا تقاطَعُوا وكُونُوا عِبادَ اللهِ إخْواناً .

٣ – مَثَلُ المُؤمنينَ في تَوادِّهِم وتَراحُمِهِم وتعاطُفِهِم مَثَلُ الجَسَدِ اذا اشْتكى منه عُضْوٌ تَداعى له سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمّى .

---

(١) يبسط : يُوسَّع . ينسأ : يُؤخَّر . الاثر : الأجل . الرحم : القرابة . هذا الحديث في الحث على صلة المرء ذوي قرباه . (٢) تحاسدوا أصلها : تتحاسدوا ، ومثلها تباغضوا وتقاطعوا . هذا الحديث في النهي عن التحاسد والتباغض والقطيعة . (٣) توادّ الرجلان : تحابّا ، وأصلها توادد ، وصيغة تفاعل تدل على المشاركة والتبادل . تداعى : دعا بعضه بعضاً ، ومنه تداعى البناء اذا أشرف

٤ — إنّ الرِّفْقَ لا يكُونُ في شيءٍ إلاّ زانَهُ، ولا يُنْزَعُ مِن شيءٍ إلاّ شانَهُ.

٥ — إنّ مِن شرِّ النّاسِ ذا الوَجْهَين الذي يأتي هؤلاء بوجهٍ وهؤلاء بوجهٍ.

٦ — مازالَ جِبْريلُ يُوصيني بالجارِ حتى ظَنَنْتُ أنّه سيُورِّثُه.

٧ — المُؤمِنُ للمُؤمِنِ كالبُنْيانِ يَشُدُّ بعضُه بعضاً.

٨ — آيَةُ المُنافِقِ ثَلاثٌ، إذا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذا وَعَدَ أخْلَفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خانَ.

٩ — ليس الشَّديدُ بالصُّرَعَةِ إنّما الشَّديدُ الّذي يَمْلِكُ نَفْسَه عندَ الغَضَبِ.

١٠ — لا يُؤمِنُ أحدُكُم حتّى يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ.

على السقوط والانهيار. هذا الحديث الدعوة الى التعاون والتعاضد. (٤) زانه: زيّنه. شانه: عابه. ويلاحظ في هذا الحديث السجع وهو قليل الورود في الاحاديث، والنبي يدعو بحديثه هذا الى اصطناع الرفق والملاينة. (٥) يراد بهذا الحديث ان شر الناس من يأتي كل طائفة ويظهر انه معها وانه مخالف للطائفة الاخرى. (٦) هذا الحديث دعوة الى اكرام الجار والعناية به. (٧) هذا الحديث تمثيل حسّي للمؤمنين في تعاونهم وتعاضدهم وهو يبيّن ان القوة في الاتحاد. (٨) الآية: العلامة. المنافق: الذي يظهر غير مايبطن ويراد به هنا من لم يكن خالص الايمان من المسلمين. وهذا الحديث حث على الصدق والوفاء بالوعد وأداء الامانة. (٩) الصُّرَعة: القوي الذي يصرع الناس. وهذا الحديث دعوة الى كظم الغيظ وضبط النفس. (١٠) يحث النبي في هذا الحديث على

١١ - الأعمالُ بالنيِّةِ ولِكُلِّ امرئٍ مانوَى.

١٢ - مَثَلُ مابعثني اللهُ بهِ منِ الهُدى والعِلْمِ كَمَثَلِ الغيثِ الكثيرِ أصابَ أرضاً فكان منها نقيَّةٌ قبلَتِ الماءَ فأنبتَتِ الكلأَ والعُشبَ الكثيرَ. وكانت منِها أجادبُ أمسكَتِ الماءَ فنفَعَ اللهُ بها الناسَ فشرِبُوا وسقَوْا وزرَعُوا، وأصابَ منِها طائفةً أُخرى إنَّما هي قيعانٌ لا تُمسِكُ ماءً ولا تُنبِتُ كلأً، فذلك مثَلُ مَن فقِهَ في دِينِ اللهِ ونفَعَهُ مابعثني اللهُ بهِ فعلِمَ وعلَّمَ، ومثَلُ مَن لم يرفَعْ بذلك رأساً ولم يقبَلْ هُدى اللهِ الذي أُرسِلْتُ بهِ.

* * *

التحابب واجتناب الأثرة ويجمل ذلك من شروط الايمان الصحيح. (١١) يدعو الرسول المسلمين في هذا الحديث الى ان يكونوا خالصي النية، بعيدين عن إضمار الشر. (١٢) أجادب: ج جدباء وهي القاحلة التي لاينبت فيها الزرع. القيعان: ج قاع: الأرض المطمئنة التي انفرجت عنها الآكام. فقه: علم. يشبه الرسول في هذا المثل الذين تقبلوا هدى الله وتفقهوا في الدين فانتفعوا ونفعوا الناس بالأرض الطيبة التي تقبل الماء وتنبت الكلأ والعشب، وبالأرض التي لاتنبت ولكنها تمسك الماء فينتفع به الناس في الشرب والسقاية، ويشبه الذين لم يتقبلوا هدى الله ولم يتفقهوا في دينه بالأرض التي يغيض فيها الماء فلا هي تنبت فينتفع الناس بنباتها ولاهي تمسك الماء فينتفع به الناس للشرب والسقاية. وهذا المثل يذكرنا بالأمثال الكثيرة التي نجدها في القرآن والتي وجدنا انها تمثيل حسي مستمد من البيئة العربية ويقصد منه التأثير في نفوس العرب بإبراز الأمور المعنوية ابرازاً حسياً.

مصادر

١ – الجامع الصحيح للبخاري .

٢ – صحيح مسلم مع شرح الإمام النووي .

٣ – اختصار علوم الحديث لابن كثير .

٤ – تذكرة الموضوعات للمقدسي .

٥ – الإصابة في أخبار الصحابة لابن حجر .

٦ – البيان والتعريف لابن حمزة الحسيني .

٧ – تيسير الوصول الى جامع الأصول لابن الديبع الشيباني .

٨ – خزانة الأدب للبغدادي . ج ١ : ٢٣ .

٩ – فجر الاسلام : ٢٥٥ وضحى الاسلام لأحمد امين . ج ٢ : ١٠٦

١٠ – دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « حديث »

* * *

الخطابة في العصر الاسلامي والأموي

تطورت الخطابة في العصر الاسلامي والأموي تطوراً فنياً بيناً تبعاً لتطور البيئة العربيـة ، اذ كان لابد للانقلاب الشامل الذي أحدثه الاسلام والقرآن من ان يكون له أثره البعيـد في الأدب العربي ، وكان هذا الاثر أظهر في النثر منه في الشعر وأسرع ، لأن النثر اداة مطواعة تساير التطور الفكري والاجتماعي في حين أن الشعر اصعب انقياداً وأقل استجابة لدواعي التطور لأنه فن يقوم على التقليد والمحاكاة .

فكذلك رأينا الخطابة في العصر الاسلامي ترتدي ثوباً جديداً يغاير الثوب الجاهلي وتستجيب لدواعي الرقي والتطور التي توافرت لهـا في هـــذا العصر فتخطو خطوات سراعاً في سبيل الرقي والازدهار .

عوامل رقي الخطابة - انواع الخطابة

١ ــ اتخذت الخطابة في هذا العصر وسيلة لنشر الدعوة الاسلامية وبث تعاليم الدين الجـديد ووعظ المسلمين وحثهم على مكارم الاخلاق ، كما استعملت لمهاجمة المشركين ومجادلتهم وبيان فساد عقائدهم ، فكان الرسول اول خطباء عصره وكان الخلفاء الراشدون ممن لهم باع طويل في الخطـابة والفصاحة واللسن ، فكانوا يخطبون في الناس واعظين منـذرين داعين الى التمسك بتعاليم القرآن وسنن الرسول . وكذلك كان الولاة والعمال يخطبون في أمصارهم لهذه الغايات .

٢ ــ وحين استقرت دعائم الدين الاسلامي وتوطـــدت اركانه وشيّدت بيوت الله احتلت الخطابة ذرى المنابر لوعظ المسلمين وهدايتهم ، وما لبثت الخطابة أن أصبحت لازمة قبل أداء الفروض الدينية أيام الجمع والعيدين وفي مواسم الحج . ثم سخرت منابر المساجد للأمور السيـاسية ، فكان

الخليفة اذا بويع قام في المسجد خطيباً وبيّن للمسلمين خطته وهي تشبه مانعرفه اليوم باسم خطاب العرش والبيان الوزاري . وكذلك كان يصنع الوالي حين يولّى على مصر من الأمصار فيشرح للناس طريقته ويبيّن لهم ماعليه نحوهم من وجائب وماله عليهم من حقوق ، ولذلك كان الخليفة يختار ولاته من ذوي الفصاحة والبيان .

ومن العاملين المتقدمين يتبين لنا ان الطابع الغالب على الخطابة في عصر صدر الاسلام كان الطابع الديني ، ولذلك تأثرت تأثراً كبيراً بالأسلوب القرآني والأفكار الاسلامية ، وكانت الخطابة السياسية محدودة .

٣ — مالبث كثير من العرب الذين اسلموا في عهد الرسول ان ارتدوا عن الإسلام بعد وفاته فشغل ابو بكر في حروب المرتدين واخضاع المارقين ، ومنذ عهد عمر قامت الفتوح الإسلامية وانطلقت جيوش المسلمين تغزو العراق والشام ومصر وفارس وغيرها من الأقطار ، فاتسعت رقعة الدولة الإسلامية وكثرت الأحداث واحتاج المسلمون الى الخطابة في تشجيع الجند والحث على الجهاد وفي مخاطبة سكان البلاد المفتوحة ، وبذلك ظهر ضرب من الخطابة هو مزيج من الخطابة السياسية والخطابة الدينية .

٤ — مالبث العرب الذين استطاعوا اخضاع بلاد الفرس والروم لسلطانهم أن فرّقتهم الأطماع والأهواء فانشقوا على أنفسهم وثارت الفتن الداخلية بمقتل عثمان ، ثم انقسم المسلمون اثر وقعة صفين الى خوارج وشيعة وأمويين ، وظهر في اوائل العصر الأموي حزب عبد الله بن الزبير ، واخذت هذه الأحزاب يقاتل بعضها بعضاً في سبيل الخلافة . وقد ظهر النزاع حول الخلافة منذ وفاة الرسول بين المهاجرين والأنصار وكانت خطبة السقيفة أولى الخطب السياسية التي عرفها العرب ، وظل هذا النزاع قائماً بين احزاب المسلمين حتى تم الأمر لبني أمية ، ولكن هؤلاء لم يستطيعوا القضاء على خصومهم قضاء تاماً فظلوا طوال حكمهم يقاتلون الخوارج وينكلون بالشيعة .

هذه الأحزاب السياسية لم تكن تقتتل بالحسام فحسب وانما كانت تعتمد ايضاً على اللسان ، وقد نشطت على ايديها الخطابة السياسية وازدهرت ازدهاراً بعيداً ، ولكنها لم تكن سياسية خالصة بل كانت تخالطها امور دينية لأن الأحزاب لم تكن عصرئذ سياسية خالصة بل كانت لها ايضاً اصول دينية .

ومنذ بدء النزاع حول الخلافة كانت الخطابة اداة فعّالة في أيدي المتنازعين كل يدلي بحججه التي تبيّن حقه في الخلافة وانه اولى من سواه بها ، وكان زعماء الأحزاب في الغالب ممن اوتوا طلاقة

في اللسان وقوة في البيان ، وكان لكل حزب خطباؤه المدافعون عنه ، فكان علي بن ابي طالب من أفصح خطباء العربية وقد دافع عن حقه في الخلافة دفاعاً قوياً وكان من خطباء الشيعة في العصر الاموي بعده المختار الثقفي . وكان على رأس حزب الزبيريين عبد الله بن الزبير وأخوه مصعب ، وكان كلاهما خطيباً مفوّهاً . وظهر من الخوارج خطباء كثر على رأسهم قطري بن الفجاءة ، ونافع ابن الازرق ،وزيد بن جندب ، وابو حمزة الخارجي . وكان خطباء الامويين كثيرين ايضاً ، فكان اكثر خلفائهم خطباء ولا سيما معاوية وعبد الملك بن مروان ، واشتهر بالخطابة من قادتهم وولاتهم زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف .

٥ ـ وفي العصر الاموي بدأ العقل العربي تتفتح له آفاق جديدة لاتصال العرب بالامم المجاورة لهم وبثقافتهم وحضارتهم فظهرت بوادر حركات دينية وفلسفية لم تلق تشجيعاً من خلفاء بني أمية ، بل لقي بعضها اضطهاداً شديداً كحركة الجهمية.لان بني أمية وجدوا فيها خطراً سياسياً يتهدد حكمهم ، ولذا لم تنم هذه الحركات ولم تزدهر في هذا العصر وازدهر بعضها في العصر العباسي الذي تهيأت فيه حرية القول ، تلك هي أصول مذاهب المرجئة والقدرية أو المعتزلة والجبرية . و كان كل من هذه المذاهب يعتمد في نشر مبادئه على خطبائه وبلغائه فظهر نوع جديد من الخطابة يعتمد على الحجج والبراهين العقلية من جانب ، ويعتمد من جانب آخر على البراعة اللفظية والمهارة البيانية ، فيروى لنا أن جهم بن صفوان ، مؤسس فرقة الجبرية ، كان فصيحاً خطيباً يدعو الناس فيجذبهم الى مذهبه، و كذلك كان واصل بن عطاء ، اول دعاة المعتزلة ، من الخطباء المصاقع .

٦ ـ فضلاً عن هذه الانواع المستحدثة من الخطابة ، نمت انواع أخرى كانت لها اصول في الجاهلية ، فالخطب التي كانت تقصد الى الوعظ والهداية كخطبة قس بن ساعدة ، نمت وازدهرت في عصر بني امية مطبوعة بالطابع الاسلامي ومعتمدة على القرآن والحديث ، واتخذت مركزها في المساجد حيث كان النـــاس يتحلقون حول الوعاظ فيحاضرونهم ويعظونهم . واشتهر من هؤلاء الوعاظ تميم الداري ، والحسن البصري ، وغيلان الدمشقي وغيرهم . كذلك ظهر ضرب من الوعظ المصوغ بقالب قصصي وهو الذي كان يقال في جيوش المسلمين ابّان الفتوح ، وكان الخطيب القاصّ يطوف بين الجنود محرّضاً مشجّعاً مذكّراً بآيات الله وما أعده من الثواب للمجاهدين . ومن هذا القصص نشأ فيما بعد تاريخ الفتوح وسير المغازي .

و كذلك ازدهرت في هذا العصر خطب الوفود ، اذ كانت القبائل في اول أمرهـــا ترسل وفودها الى النبي لتعلن إسلامها ، ثم اخذت القبائل تفد على الخلفاء للمبايعة او للشكوى والتذمر

من العمّال ولنحو ذلك من الأسباب ، وكان من زعماء الوفود الأحنف بن قيس زعيم قبيلة تميم في البصرة ، وكان سحبان يفد على معاوية ويخطب بين يديه ساعات طوالاً .

مدى ارتقائها

انّ ماقدّمناه ينبئنا بما بلغته الخطابة من الازدهار والرقي في العصر الإسلامي - الأموي ، ولكن ماهي مظاهر هذا الازدهار ، وما هي البقاع التي ازدهرت فيها الخطابة ، ومامدى هذا الازدهار؟

نلاحظ اولاً ان بيئة الخطابة الأولى كانت بلاد الحجاز ، مقر الرسول والخلفاء الراشدين ، ولكن مالبث مركز الخلافة ان انتقل الى الشام ومنذ ذلك الحين فقدت الحجاز منزلتها السياسية وتضاءلت منزلتها الأدبية ، لأن بني أمية جعلوا منها منفى ومعتزلاً لقريش ليتسنى لهم الاستئثار بالحكم ، وبدأت الشام والعراق تموجان بالحركة في العصر الأموي ، فكانت الشام مركز الخلافة ومقر مؤيديها من الخطباء والشعراء ، اما العراق فكانت مركز المعارضة لبني أمية ، وفيها اصطرعت المذاهب السياسية صراعاً لسانياً وحربياً ولذلك ازدهرت فيها الخطابة ازدهاراً عظيماً ، فعلى منابرها ألقى زياد والحجاج خطبها الرائعة ، وفي ميادينهـــا التحم الخوارج بالأمويين وعلى رأس كل فريق خطباؤه ، وفي مساجدها قامت ايضاً حلقات الوعظ يتوسطها امثال تميم الداري والحسن البصري .

ازدهرت الخطابة العربية اذن في هذا العصر وتنوعت فنونها وأغراضها بيد انه ينبغي لنا ألاّ نسرف في تقديرنا لهذا الازدهار ، فعلى الرغم مما أصابته الخطابة في هذين العصرين من الرقي ، وعلى الرغم من أن العصر الأموي هو العصر الذهبي للخطابة العربية ، فإنها لم تبلغ فيه من الناحية الفنية مابلغه الشعر العربي في عصوره الذهبية من الرقي والنضج ، فضلاً عن ان هذا الرقي لم يتعد الناحيتين الدينية والسياسية .

والخطابة السياسية لاتوجد إلا في بيئة اضطربت فيها الأحوال السياسية وكثرت الأحداث وساد التذمر من الأوضاع السياسية ، ولكن ارتقاءها يحتاج الى ان تنال هذه البيئة قسطاً من الحرية يسعفها على القول وعلى المجاهرة بالرأي ، لهذا وجدنا الخطابة السياسية تزدهر في عصورنا الحديثة في ظل النظم الديموقراطية التي تبيح حرية القول . ولهذا ايضاً ازدهرت الخطابة السياسية عند قدماء اليونان لانهم كانوا يتمتعون بحرية القول . اما في ظل الدولة الأموية فلم يكن لهذه الحرية وجود لأن الأمويين كانوا يعملون على خنق أصوات المعارضة بكل السبل ، ولم يكونوا يسمحون لأحد بالاعتراض على سياسة الحكومة القائمة حتى روي عـــن عبد الملك بن مروان قوله :

أيها الناس ، من قال لنا اتقوا الله ضربنا عنقه . ولهذا كانت احزاب المعارضة إمّا ان تجاهر بمعارضتها فتضطر الى ان تقاتل جيوش الأمويين وإما ان تصطنع التقية ،واضطر كثير من المعارضين الى السكوت على مضض ، وعلى العكس نشطت الخطابة المؤيدة لسياسة الأمويين ولم يسمح للرواة بأن يرووا غيرها ، وهذا مايفسر قلة مابأيدينا من خطب المعارضة .

اذن فلم تبلغ الخطابة السياسية في العصر الأموي مابلغته عند اليونان والرومان في القديم وما بلغته في البلاد الديموقراطية في العصور الحديثة .

وأما الخطابة القضائية فلم يعرفها العرب في ذلك العصر لأنهم لم يعرفوا النظام القضائي بصورته الراقية التي عرفها اليونان والتي نعرفها اليوم ، والتنظيم القضائي الحديث هو الذي خطا بالخطابة القضائية في مضمار الرقي والازدهار .

وهكذا نرى ان الخطابة العربية لم تبلغ في عصرها الذهبي من الرقي مابلغه الشعر العربي في عصور ازدهاره لما قدمناه من الاسباب ، ولأن الخطابة ، على الرغم من سهولة تطورها ، فن شعبي يتجه الى الجماهير ولا مفر للخطيب من مراعاة عقلية الجماهير المحدودة ، ومخاطبتهم بما يفهمون ، فلا يتاح له مايتاح للشاعر والكاتب من التعمق والافتنان .

خصائصها

لم يكن للخطابة في العصر الاسلامي والاموي طابع واحد تتصف به وانما كانت تختلف باختلاف الخطباء ، ولكننا مع هذا نستطيع استخلاص خصائص مشتركة للخطابة في هذا العصر اهمها :

١ ــ صارت لها اصول ثابتة كابتدائها بحمد الله وتمجيده فان خلت من ذلك سميت « بتراء » وكتوشيحها بالآيات القرآنية فان خلت منها دعيت « شوهاء » (انظر البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ : ١٩) ، ونستدل من هذا على ان الخطابه كانت متأثرة في ذلك العصر بالقرآن الكريم والثقافة الاسلامية ، وقد تأتي الخطبة بكاملها جملة من الآيات كخطبة مصعب بن الزبير حين وفد الى العراق داعياً العراقيين الى مبايعة اخيه عبدالله . (العقد الفريد ، ج ٤ : ١٣٥)

وقد لاتضمّن الآيه القرآنية بنصها بل ينقل معناها ، وهذا ماسماه البلاغيون « اقتباساً » ، وهو كثير في خطب ذلك العصر .

٢ ــ ولا يقتصر اثر القرآن على تضمين الآي واقتباسها ، بل يتعداها الى استعمال الالفاظ الاسلامية ومحاكاة الاسلوب القرآني ، فعذبت الالفاظ ورقت التعابير وعني الخطباء بوسبق الجملة مراعاة لوقعها في النفس .

وكما كان للقرآن اثره في الخطابة من حيث الشكل والصياغة كان له أثره فيها ايضاً من حيث الغرض والافكار ، فكان الغرض في كثير من الخطب اسلامياً دينياً ، كما قدمنا ، وكان الخطيب يعتمد على الافكار الاسلامية والقرآنية سواء كان غرضه دينياً او سياسياً .

٣ – وفي هذا العصر ابتعد الخطباء عن السجع وقل تكلفهم له ، الا ماتجده في بعض خطب الشيعة والوعاظ ، واذا ورد في الخطبة شيء من السجع فمن غير تكلف وفي غير إكثار ، ولعل مجانبة السجع من اثر الاسلام ايضاً لان القرآن لم يلتزمه وقد نهى الرسول عن تكلف السجع الذي يذكر بسجع الكهان في الجاهلية .

٤ – وكان الخطيب ربما عمد الى شيء من الشعر او بعض الامثال السائرة فحلى بها خطبته ، ولم يكن ذلك ملتزماً في جميع الخطب . ويرى قدامة بن جعفر ألا « يتمثل في الخطب الطوال التي يقام بها في المحافل بشيء من الشعر . فان أحب أن يستعمل ذلك في الخطب القصار والمواعظ والرسائل فليفعل . » (١)

٥ – والخاصة الهامة التي نجدها في خطب ذلك العصر هي الانسجام والترابط بين فقرات الخطبة وجملها ، فبعد ان كانت الخطبة في الجاهلية جملة من الفقرات ليس بينها كبير ارتباط نجد أنه أصبح للخطبة في العصر الاسلامي والاموي وحدة فنية متناسقة ، فالخطبة مقسمة الى أقسام واضحة بحسب الافكار ، لاينتقل الخطيب من قسم الى آخر حتى يستوفي الكلام فيه ، وتبدأ الخطبة بمقدمة ثم ينتقل الى الغرض فالخاتمة ولكن هذا التقسيم والترابط لانجده واضحاً في جميع خطب ذلك العصر وخير مثال يظهر لنا الوحدة الفنية في خطابة العصر الاموي هو خطبة زياد المعروفة بالبتراء .

عادات الخطباء وصفاتهم

كانت للجاهليين عادات حين يتصدون للخطابة ، فكان الخطيب يلوث العمامة ويقف على نشز من الارض او على راحلة ، متخذاً مخصرة او متكئاً على عصا أو سيف ، وهو قائم . وقد ظلت هذه العادات سائدة في العصر الاسلامي – الاموي إلا أنهم في هذا العصر اتخذوا المنابر ايضاً للخطابة ويقال إن تميماً الداري هو أول من أشار على الرسول بصنع المنابر تقليداً لمنابر الكنائس ، وقد غاير الوليد بن عبد الملك سنة أسلافه في الوقوف حين الخطابة فخطب جالساً ولكن عادة الوقوف ظلت هي السائدة .

---

(١) نقد النثر ص : ٨٤

وكان الخطيب في هذا العصر يمدح بمثل ما كان يمدح به الخطيب الجاهلي وذلك بأن يكون فصيحاً ، مبيناً ، طلق اللسان ، سريع الخاطر ، حاضر البديهة ، كثير الريق ، قوي العارضة، يوجز في مقام الايجاز ويطنب في مجال الاطناب ، خبيراً بنفوس سامعيه ، عارفاً بمواقع الكلام ، وألا يخاطب العامة بألفاظ الخاصة ولا الخاصة بألفاظ العامة ، والا يكون كثير التكلف . يقول قدامة : « ومن الاوصاف التي اذا كانت في الخطيب سمي سديداً ، وكان من العيب معها بعيداً ، أن يكون في جميع ألفاظه ومعانيه جارياً على سجيته ، غير مستكره لطبيعته ولا متكلف ما ليس في وسعه ، فان التكلف إذا ظهر في الكلام هجنه وقبّح موقعه . » (١) ، ثم يشير بعد ذلك الى أن جهارة الصوت تزيد في حسن الخطبة وفي وقعها ، وقد مدح احد الشعراء معاوية بجهارة الصوت فقال :

ركوب المنابر ، وثّابها مِعَنٌّ بخطبته ، مِجْهَرُ (١)

وقال آخر في خطيب :

جَهيرُ الكَلام ، جَهيرُ العُطا — س ، شديدُ النِّياط، جَهيرُ النَّغَم (٢)

ومازالوا في هذا العصر يتعاطون سمة الأشداق وتبيين مخارج الحروف ، يقول الشاعر :

تَشادقَ حتى مال بالقول شِدْقُه وكُلُّ خطيبٍ ، لاأبالكَ ، أشدَقُ

وما زالوا يعيبون على الخطيب كثرة التنحنح والسعال ومس العثنون والعرق والبُهر والاستعانة بالاشارات والحركات ، يقول أحدهم في ذم خطيب :

مليءٌ ببُهرٍ والتفات وسُعلةٍ ومسحةِ عُثنونٍ وفَتْلِ الأصابعِ (٣)

الى غير ذلك من عيوب الالقاء والنطق التي فصل الجاحظ القول فيها في كتاب البيان والتبيين.

ويظهر انه كان لبعض الخطباء عبارات خاصة يختم بها خطبه ، فيروي ابن عبد ربه ان آخر ما يقوله ابو بكر اذا فرغ من خطبته هو : اللهمّ اجعلْ خير زماني آخره ، وخير عملي خواتمه ، وخير أيامي يوم ألقاك . وان آخر كلام يقوله عمر في خطبته هو قوله : اللهم لاتدعني في غمرةٍ ولا تأخذني على غرة ولاتجعلني من الغافلين .

---

(١) نقد النثر ص : ٩٢

(٢) المعن : الخطيب الفصيح والمجهر : الجهير الصوت (٢) النياط : القلب

(٣) البهر : تتابع النفس وانقطاعه من الاعياء ، العثنون : ما نبت من اللحية على الذقن .

نماذج من الخطب والوصايا

في العصر الإسلامي والأموي

---

١ من خطبة الرسول عليه السلام في حجة الوداع :

الحمدُ لله ، نحمَدُه ونستعينُه ونستغفِره ونتوبُ إليه ، ونعوذُ بالله من شُرورِ أنفُسِنا ، ومن سيئاتِ أعمالِنا ، مَنْ يهدِ اللهُ فلا مُضِلَّ له ، ومَن يُضلِلْ فلا هاديَ له ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ، وأنَّ محمَّداً عبدُه ورسولُه .

أوصيكمُ عبادَ الله بتقوى الله ، وأحثُّكم على طاعتِه ، وأستفتحُ بالذي هو خيرٌ .

أمَّا بعدُ ، أيُّها الناسُ اسمعوا منِّي أُبيِّنْ لكم ، فإنِّي لا أدري لعلِّي لا ألقاكمُ بعدَ عامي هذا ، في موقفي هذا .

أيُّها النَّاسُ ، إنَّ دماءَكم وأموالَكم عليكم حرامٌ إلى أن تلقَوْا ربَّكم ، كحُرمةِ يومِكم هذا ، في شهرِكُمُ هذا ، في بلدِكم هذا (١) . ألا هل بلَّغْتُ ،

---

(١) حرام عليكم سفك الدماء واغتصاب الأموال .

اللهمَّ اشهدْ . فمَن كانت عنده أمانةٌ فليؤدِّها الى الذي ائتمنه عليها ، وإنَّ ربا الجاهليَّةِ موضوعٌ (١) ، وإنَّ أوّلَ رِبًا أبدأُ به ربا عمّي العبّاسِ بنِ عبدِ المُطّلب . وإنّ دماء الجاهلية موضوعةٌ (٢) ، وإنّ أوّلَ دمٍ أبدأ بهِ دمُ عامرِ بنِ ربيعةَ بنِ الحارثِ بنِ عبدِ المطّلب ، وإنّ مآثرَ الجاهليةِ موضوعةٌ غيرَ السّدانة والسّقاية ... (٣)

أيُّها الناسُ ، إنَّ لنسائِكم عليكم حقًّا ، وإنَّ لكم عليهنَّ حقًّا ؛ لكم عليهنَّ أن لا يُوطِئْنَ فُرُشَكم غيرَكم (٤) ، ولا يُدخِلنَ أحدًا تكرهونه بيوتكم إلاّ بإذنِكم ، ولا يأتينَ بفاحشةٍ ، فإنْ فعلْنَ فإنَّ الله قد أذن لكم أن تعضُلوهنَّ وتهجُروهُنَّ في المضاجعِ وتضْربوهنّ ضربًا غيرَ مُبرِّحٍ (٥) ؛ فإنِ انتهيْنَ وأطعْنكم فعليكم رزقُهنَّ وكسْوتُهنّ بالمعروف ، وإنّما النِّساء عندكم عوارٍ (٦) لا يملكْنَ لأنفُسهنَّ شيئًا ، أخذتموهنَّ بأمانةِ الله ، واستحللْتُم فُروجَهنّ بكلمة الله ، فاتّقُوا اللهَ في النساء واستوْصُوا بهنَّ خيرًا . أيها الناسُ ، إنما المؤمنون إخوةٌ فلا يحِلُّ لامرئٍ مالُ أخيهِ إلاّ عن طيبِ نفسِه ، ألا هل بلّغت ، اللهم اشهد .

فلا ترجِعُنَّ بعدي كُفّارًا يضرِبُ بعضُكم رقابَ بعضٍ ، فإنّي قد

---

(١) الربا : ما يأخذه الدائن من المدين لقاء إقراضه ، وأصله من ربا يربو : زاد ونما . موضوع : ساقط لا حساب عليه . (٢) الدماء ، هنا : جرائم القتل . (٣) مآثر الجاهلية : ما أُثر عن الجاهليين . السدانة : القيام على شؤون الكعبة وخدمتها . السقاية : سقاية الحجيج حين يفدون الى مكة . (٤) الفُرُش : كل ما يفرش به البيت من المتاع والأثاث ، واذا رويت بالضم فهي جمع فراش . (٥) تعضلوهن : تضيقوا عليهن . المبرّح : الشديد الأذى . (٦) عوارٍ : ج عارية وهي تمليك المنافع بغير عوض .

تركتُ فيكم ما إن أخذتم به لم تضِلّوا: كتابَ اللهِ. ألا هل بلَّغتُ، اللهم اشهد.

أيها الناسُ، إن ربَّكم واحدٌ، وإن أباكُم واحدٌ، كُلُّكم لآدمَ، وآدمُ من ترابٍ، أكرَمُكم عندَ اللهِ أتقاكُم، ليس لِعَرَبيٍّ على عَجَميٍّ فَضْلٌ إلا بالتَّقْوى، ألا هل بلَّغْتُ.

٢ خطب ابو بكر يوم السقيفة فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أيها الناسُ، نحن المُهاجِرُونَ أوَّلُ الناسِ إسلاماً، وأكرمُهم أحساباً (١)، وأوسَطُهم داراً، وأمَسُّهم رَحِماً (٢) برسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، أسلَمْنا قبلكم، وقُدِّمْنا في القُرآن عليكم، فقال تباركَ وتعالى: « والسّابِقُونَ الأوَّلُون مِن المهاجِرينَ والأنصارِ والذين اتَّبَعُوهم بإحسانٍ ». فنحن المهاجرون، وأنتم الأنصارُ، إخوانُنا في الدِّين، وشُركاؤُنا في الفَيْءِ (٣)، وأنصارُنا على العدوّ. آوَيْتُم وواسَيْتُم، فجزاكُمُ اللهُ خيراً، فنحن الأمراءُ وأنتم الوُزراءُ، لا تَدينُ العربُ إلاّ لهذا الحيِّ مِن قُرَيشٍ، فلا تَنْفَسُوا (٤) على إخوانِكم المهاجرينَ ما مَنَحهُمُ اللهُ من فضلِهِ.

[ابو بكر هو عبد الله عَتيق بن ابي قُحافة وابو بكر كنيته ولقب بالصدِّيق لأنه بادر الى تصديق الرسول عليه السلام او لأنه كان معروفاً بالصدق، وينتهي نسبه الى تَيْم من قريش،

---

(١) الأحساب : مفاخر الآباء والأجداد . (٢) أمسهم رحماً : ادناهم قرابة .
(٣) الفيء : الغنائم والخراج . (٤) نَفِس الرجل بالشيء: ضنّ به وعلى فلان بأمر : حسده عليه .

وكان من اوائل من استجاب لدعوة الرسول وأنفق ماله في نصرته وهاجر معه الى المدينة وكان معه في الغار ورافقه في اكثر غزواته . وبعد وفاة الرسول اختير خليفة للمسلمين واستطاع القضاء على حركة المرتدين ووطد دعائم الدولة الاسلامية ثم توفي عام ١٣ للهجرة وكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة . وقد كان ابو بكر من اعلم قريش بأنساب العرب وأيامها ومفاخرها وكان خطيباً مفوّهاً وحكيماً بعيد النظر .]

٣ خطبة لعمر بن الخطاب :

أيها الناسُ ، إنّي قد أتى عليّ زمانٌ وأنا أرى أنّ قوماً يقرَؤُون القرآنَ يُريدون به اللهَ عزّ وجلّ وما عندَه ، فخُيّل إليّ أنّ قوماً قرَؤوه يُريدون به الناسَ والدُّنيا . ألا فأريدُوا اللهَ بأعمالِكم . ألا إنما كُنّا نعرِفكم إذ يتنزّلُ الوَحْيُ (١) وإذ رسولُ اللهِ بينَ أظهُرِنا يُنبئُنا من أخبارِكم ، فقد انقطع الوحيُ وذهبَ النبيُّ ، فإنما نعرِفكم بالقول . ألا مَن رأينا منه خيراً ظننّا به خيراً وأحببناه عليه ، ومن رأينا منه شرّاً ظننّا به شراً وأبغضناه عليه . سرائِرُكم (٢) بينَكُم وبينَ ربِّكم . ألا وإنّي إنما أبعثُ عُمّالي ليُعلّموكم دِينَكم وسُنّتَكم ، ولا أبعثُهم ليضرِبُوا ظُهورَكم ويأخُذوا أموالَكم . ألا مَن رابَهُ (٣) شيءٌ من ذلك فليرفَعْهُ إليّ ، فوالّذي نفسي بيدِه (٤) لأُقِصّنّكم منه (٥) .

[عمر بن الخطاب الفاروق ينتهي نسبه الى عدي من قريش ، ثاني الخلفاء الراشدين . ولد بعد

---

(١) الوحي : القرآن . (٢) السرائر ، ج سريرة : مايسره المرء في نفسه . (٣) رابه : ادخل في نفسه الريب . (٤) فوالذي نفسي بيده : أقسم بالله الذي نفسي بيده (٥) أقصّ الأمير الرجل من خصمه : اقتصّ له منه وأخذ له بحقه منه .

ولادة النبي بثلاث عشرة سنة وكان من فتيان قريش المعروفين بجرأتهم وفصاحتهم ، ناهض الاسلام مناهضة شديدة ثم اسلم وأبلى بلاءً حسناً في نصرة الدعوة الاسلامية ، فعهد إليه ابو بكر بالخلافة بعده فساس الدولة العربية بما عهد فيه من حزم وشدة .وفي عهده قامت الجيوش العربية بفتوحاتها السريعة المظفّرة ، وبدأ العرب يؤرّخون بالتاريخ الهجري ، ومصّرت الأمصار ، واتخذت الدواوين. قتله ابو لؤلؤة المجوسي عام ٢٣ للهجرة فكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر ، كان مثال الاداري الحازم ، والحاكم العادل ، والخطيب المصقع.]

٤ خطبة لعثمان بن عفان :

إنَّ لِكُلِّ شيءٍ آفةً ، وإنَّ لكل نِعمةٍ عاهةً (١). وإنَّ آفةَ هذه الأُمَّةِ وعاهةَ هذه النِعمةِ عيّابون طَعّانون ، يُظهِرون لكم ما تُحِبّون ، ويُسِرّون ما تكرهون ، يقولون لكم وتقولون ، طَغامٌ (٢) مِثْلُ النَّعامِ ، يَتَّبِعون أوّلَ ناعِقٍ (٣)، أحَبُّ مواردِهِم إليهم النازِحُ (٤). لقد أقررتم لابنِ الخطّابِ بأكثرَ مما نَقَمْتُم عليَّ ، ولكنه وقَمَكم وقَمَعَكم وزَجَرَكم زَجْرَ النعامِ المُخَزَّمةِ (٥). والله إني لأقربُ ناصراً وأعزُّ نفراً ، وأقْمَنُ (٦) إنْ قلتُ هَلُمَّ أنْ تُجابَ دعوتي من عُمَرَ . هل تفقِدون من حقوقِكم شيئاً ؟ فما لي لا أفعلُ في الحقِّ ما أشاء ؟ إذن فلمَ كنتُ إماماً ؟

---

(١) الآفة : العلة المفسدة . العاهة : الآفة . (٢) الطغام : اراذل الناس وجهالهم. (٣) الناعق : الصائح ، واصلها للغراب . (٤) الموارد ، ج مورد : الماء المرتاد . النازح : البعيد والناضب ، اي لايعجبهم ماهو قريب منهم ولو كان فيه الخير ، ويعني بذلك نفسه . (٥) وقمكم : قهركم . قمع فلاناً : ضربه على رأسه بالمقمعة ، وقمعه ايضاً: ذلله وقهره . الزجر: النهي والردع والانتهار. المخزّمة : التي ثقب منقارها ووضع فيه الخزامة ، وتستعمل لمعنى الاذلال والتسخير . (٦) أقمن : احق وأجدر .

[عثمان بن عفان ذو النورين ، ثالث الخلفاء الراشدين ، ينتهي نسبه الى أمية من قريش ، ولد بعد مولد الرسول بست سنوات وكان من اوائل السابقين الى الإسلام وكان ذا يسار فبـــذل ماله في نصرة الرسول ، وشهد معه كل غزواته الا بدراً ، ولما طعن عمر عهد بالخلافة الى ستة كان احدهم عثمان فاختير للخلافة . أتم مابدأ به عمر من الفتوح ، وفي الشطر الثاني من ولايته ثار عليه قبائل كثيرة من العرب لعدم رضاها عن سياسته وانتهى الامر بمقتله في المدينة عام ٣٥ هـ وبدأت بمقتله الفتن الداخلية بين المسلمين . وكانت مدة خلافته زهاء اثني عشر عاماً ، ومن الاعمال الجليلة التي تمت في عهده جمع القرآن ، وكان كأبي بكر وعمر في فصاحته وبيانه إلا أنه لم يكن مثلهما في حسن السياسة وبعد النظر .]

٥ وصية معاوية لابنه يزيد :

لما حَضرت معاوية الوفاة ويزيد غائب دعا بمسلم بن عُقبه المُرّي والضحّاك ابن قيس الفِهري وقال لهما : أبلغا عنّي يزيدَ وقولا له :

أُنْظُرْ أهلَ الحجاز ، فهم عِصابَتُك وعِترَتُك(١) ، فمن أتاك منهم فأكْرِمْهُ ، ومَن قَعد عنك فتعاهَدْهُ(٢) . وانظر أهلَ العراق ، فإن سألوك عزلَ عاملٍ في كل يومٍ فاعزِلْهُ عنهم ، فإنّ عزلَ عاملٍ واحدٍ أهونُ عليك من سلِّ مائة ألف سيفٍ ، ثم لا تدري علامَ أنت عليه منهم(٣) ثم انظُرْ أهلَ الشامِ فاجعلْهم الشِعارَ دونَ الدِثارِ (٤) ، فإن رابَكَ من عدوٍّ رَيْبٌ فارْمِه بهم ، فإن أظفرك اللهُ فارْدُدْ أهلَ الشامِ إلى بِلادهم ، لا يُقيموا في غيرِ بِلادِهم فيتأدَّبوا بغيرِ

---

(١) عترة الرجـــل : رهطه وعشيرته الادنون . (٢) تعاهده : حالفه وواثقه .

(٣) لاتدري علام انت عليه منهم : لاتدري اتظفر بهم ام يظفرون بك اي لاتستطيع ان تأمن جانبهم . (٤) الشعار : مايلي الجسد من اللباس . والدثار : مايلبس فوق الشعار . اي قربهم منك واعتمد عليهم .

آدابِهم . لست أخافُ عليك غيرَ عبدِ اللهِ بنِ عُمر ، وعبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيرِ ، والحُسينِ بنِ عليّ . فأمّا عبدُ اللهِ بنُ عمر فرجلٌ قد وَقَذَهُ الوَرَعُ (١) ؛ وأما الحسينُ فأرجو أن يكفيكَهُ اللهُ بمن قتلَ أباه وخذلَ أخاه (٢) ؛ وأمّا ابنُ الزبيرِ فإنّه خَبٌّ ضَبٌّ (٣) ، فإن ظفرتَ به فقطّعْه إرْباً إرْباً (٤) .

[معاوية بن أبي سفيان ، مؤسس الدولة الأموية ، ينتهي نسبه الى أمية من قريش ، أسلم عام فتح مكة وتقلد الكتابة للرسول عليه السلام وكان والياً على الشام في زمن عمر وعثمان مدة عشرين سنة ، ثم ناوأ علياً بعد مقتل عثمان واستطاع بدهائه وسياسته الظفر بالخلافة عام ٤٠ ﻫ وهو ابن اثنتين وستين سنة ، وظل في الخلافة عشرين عاماً ساس الدولة إبانها سياسة تدل على عظيم مهارته وذكائه ودهائه واستطاع ان يعهد بالخلافة بعده لابنه يزيد فجعل الخلافة وراثية في بني أمية ، وتوفي بدمشق عام ٦٠ للهجرة وهو ابن اثنتين وثمانين سنة .]

٦ من كلام عائشة :

انتهى الى السيدة عائشة رضي الله عنها أن أناساً يذكرون اباها بسوء فأرسلت اليهم ثم قالت :

أبي وما أبِيَهْ ، أبي واللهِ لا تَعْطُوهُ الأيْدي (٥) ؛ ذاكَ طَوْدٌ مُنيفٌ وفَرْعٌ مَديدٌ (٦) ، هيهاتَ كذبت الظُّنونُ ، أنْجَحَ اذ أكْدَيْتُم (٧) ، وسَبَقَ

---

(١) وقذه الورع : غلبه التقى وعبادة الله . (٢) يقصد من قوله هذا اهل العراق الذين قتل احدهم اباه علياً ، وخذلوا اخاه الحسن . (٣) الخب : الخبيث الخدّاع . الضب : الحقود اللئيم (٤) الإرْب : العضو . وقطعه إربا اربا : اي قطعاً صغاراً .

(٥) عطا الشيء عطواً : تناوله . (٦) الطود : الجبل . المنيف : المرتفع المشرف وأناف على الشيء : ارتفع وأشرف ، وناف الشيء ينوف : ارتفع . الفرع : من كل شيء أعلاه ومن الشجرة غصنها وفروع القوم : أشرافهم . (٧) أنجح الرجل : صار ذا نجاح . أكدى : انقطع وهنا بمعنى اخفق .

إذ وَنَيْتُم سَبْقَ الجَواد إذا استولى على الأمَد (١)، فتى قُريش ناشئاً، وكَهفُها كهلاً، يَفُكُّ عانِيَها (٢)، ويَرِيشُ مُمْلِقَها (٣)، ويَرأبُ شَعْبَها (٤)، ويَلُمُّ شَعَثَها (٥)، حتى حَلِيَتْه قلوبُها (٦). ثم استشرى في دين الله فما بَرِحت شكيمتُه في ذات الله عز وجل حتى اتَّخذ بِفِناء دارِه مَسجداً يُحيي فيه ما أمات المُبْطِلون (٧).

[عائشة بنت ابي بكر الصديق، ام المؤمنين، تزوجها محمد عليه السلام بعد وفاة زوجه خديجة بعد المبعث بعشر سنوات وكانت دون العاشرة من سنها، ومات عنها وهي دون العشرين وكانت أحب نسائه إليه. كانت متفقهة في الدين، كثيرة الرواية عن الرسول، تجمع الى ذلك ثقافة أدبية واسعة. كانت لها مشاركة في شؤون السياسة العامة منذ مقتل عثمان الذي لم تكن راضية عن حكمه وقد ارادت ان تكون الخلافة من بعده لطلحة بن عبيد الله التيمي فلما رأت علياً كاد يستأثر بها ولم تكن على وفاق معه، اخذت تطالب بدم عثمان فقام معها عدد من المسلمين منهم طلحة والزبير، فاضطر علي لقتالهم في موقعة الجمل المشهورة التي انتهت بانهزام أصحاب عائشة ومقتل الزبير، عام ٣٦ هـ، ثم عادت الى المدينة مكرمة وتوفيت سنة ٥٨ هـ.]

٧ من كلام أسماء

دخل عليها ابنها عبد الله بن الزبير حين حاصره الحجاج بمكة فقال لها: يا أمه،

---

(١) ونى الرجل: ضعف وفتر وتراخى. الأمد: المسافة والغاية والمنتهى. (٢) يفك عانيها: يفتدي أسيرها بماله. (٣) راش السهم: وضع فيه الريش. المملق: الفقير المعدم والمراد انه يعين فقيرها. (٤) رأب الشق: أصلحه، وبين القوم: أصلح. الشعب: الصدع. والمراد انه يصلح بين القوم. (٥) الشعث: اضطراب الامر والتشتت: التفرق. والمراد انه يصلح شؤونها ويؤلف بين أفرادها. (٦) حليته: وجدته حلواً. (٧) استشرى: الفرس في سيره لجّ وجد واستشرى الأمر: تفاقم، وهنا بمعنى اشتد في دين الله. الشكيمة: الأنفة والاباء وقوة القلب.

خذلني الناس حتى أهلي وولدي، ولم يبق معي إلاّ اليسير ومَن لا دفع عنده أكثر من صبر ساعة من النهار، وقد أعطاني القوم ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت له: ان كنتَ على حقٍ تدعو اليه فامضِ عليه فقد قُتِلَ عليه أصحابُكَ، ولا تُمَكِّنَن من رقبتِك غلمانَ بني أمية فيتلعّبوا بك. وان قلتَ انّي كنتُ على حقٍ فلمّا وَهَنَ (١) أصحابي ضَعُفت نيّتي فليس هذا فِعلَ الأحرارِ ولا فِعلَ من فيه خيرٌ. كم خُلودُكَ في الدنيا. القتلُ أحسنُ ما يُقنَعُ به يا ابنَ الزُبيرِ، والله لَضربةٌ بسيفٍ في عزٍ أحبُّ اليَّ من ضربةٍ بسوطٍ في ذُلٍ (٢).

[أسماء هي كبرى بنات أبي بكر الصديق وأخت عائشة لأبيها، وزوجة الزبير بن العوام. هاجرت الى المدينة وهي حامل بولدها عبد الله فوضعته بقباء ولذلك كان اول مولود في الاسلام. شهدت أسماء مقتل زوجها، الزبير، في موقعة الجمل، ثم شهدت مقتل ابنها عبد الله بمكة وماتت بُعيده. وكانت تلقب بذات النطاقين لأنها شقت نطاقها ليلة خروج محمد عليه السلام الى الغار فجعلت شطره سُفرة لرسول الله والشطر الآخر عصاماً لِقربته.]

* * *

(١) وهن: ضعف (٢) القتل مع العز خير من احتمال المذلة.

عليّ بن أبي طالب

من خطبة الشقشقية

أما والله لقد تقمّصها ابنُ أبي قُحافة (١)، وإنّه ليعلمُ أنّ محلّي منها محلُّ القُطْبِ من الرّحى (٢)، ينحدرُ عنّي السّيلُ، ولا يرقى إليّ الطّيرُ. فسدلتُ دونَها ثوباً، وطويتُ عنها كشْحاً (٣)، وطفقتُ أرتئي بين أن أصولَ بيدٍ جذّاء، أو أصبرَ على طخْيةٍ عمياء (٤)، يهرمُ فيها الكبيرُ،

الشرح اللغوي (١) تقمصها : اتخذها قميصاً ويريد انه استولى عليها ، وهي استعارة . ابن أبي قحافة : ابو بكر . (٢) القطب : الحديدة التي تدور عليها الرحى . الرحى : حجر الطاحون ، يريد أنه أولى بالخلافة من سواه ، وهذا من التشبيه . (٣) لايرقى : لايرتفع. سدلت : أرخيت. الكشح: مابين الخاصرة والجنب . ونجد هنا اربع استعارات ، الأولى والثانية منها لبيان علو منزلته وعظيم مكانته ، والثالثة والرابعة يريد بهما انه رغب عن الخلافة وزهد فيها فهو كمن سدل دون الأمر حجاباً وطوى عنه كشحه اي مال عنه ، (٤) طفق : من افعال الشروع . ارتأى الأمر : نظر فيه وتدبره وارتأى : اجال رأيه . أصول : اسطو وأثب . جذاء : مقطوعة ومثلها الجداء والحذاء . الطخية : الظلمة ، والقطعة من السحاب . عمياء : شديدة الإظلام ، لايرى فيها . وهنا استعارتان يريد بهما انه تردد بين ان يناوئ ابا بكر المداوة ويطالبه بالخلافة فيقوم الخلاف بين المسلمين وينشق بعضهم على بعض ، وبين ان يصبر على هذه الحال الوخيمة التي كأنها الظلمة الحالكة السواد .

وَيَشيبُ فيها الصغير، ويَكدحُ فيها مؤمنٌ حتى يَلقى ربَّه (١). فرأيتُ أنَّ الصبرَ على هاتا أحجى، فصبرتُ وفي العينِ قذى، وفي الحلقِ شجا، أرى تُراثي نَهْباً (٢).

حتى مَضى الأوَّلُ لِسَبيلِه فأدلى بها الى ابنِ الخطّاب بعدَه (٣):

شتّانَ مايَومي على كُورِها ويومُ حيّانَ أخي جابرِ (٤)

فياعَجَبا، بيناهو يَستَقيلُها في حياتِه، إذ عقَدَها لآخرَ بعدَ وفاتِه (٥)، لَشدَّ ما تَشطَّرا ضَرْعيْها (٦)، فصيَّرها في حَوزةٍ خَشناءَ يَغلُظُ كَلامُها،

---

(١) فيها: الضمير عائد على الطخية. والمعنى ان هذه الطخية لهولها يهرم فيها الكبير ويشيب فيها الصغير. يكدح: يكد ويسعى. حتى يلقى ربه: حتى يموت. (٢) هاتا: هذه، ها للتنبيه وتا للاشارة. أحجى: أليق بالحجى وهو العقل. القذى: مايدخل في العين من الشوائب. الشجا: مايعترض في الحلق من شوك وغيره. التراث: الموروث من المال. ويريد به هنا الخلافة. النهب: المنهوب. في هذا الكلام ايضاً استعارة، يريد انه صبر على مضض فهو كمن يصبر وفي عينه قذى وفي حلقه شجا. (٣) الأول: ابو بكر. مضى لسبيله: مات. أدلى بها: دفعها، وأصلها من أدليت الدلو في البئر: أرسلتها. يشير علي الى ان ابا بكر اوصى بالخلافة بعده الى عمر بن الخطاب. (٤) هذا البيت للأعشى ميمون بن قيس. شتان: اسم فعل بمعنى بعُد وأصله من شتّ بمعنى فرّق، والأفصح ان يقال: شتان ماهما، لاشتان ما بينهما. كور الناقة: الرحل الذي يوضع فوقها لتركب. حيّان وجابر: رجلان من بني حنيفة، وكان حيّان نديماً للأعشى صاحب شراب ولهو، يوازن الاعشى بينه وهو يطوي البيداء في حر الهاجرة على ظهر ناقته وبين حيان هذا وهو في قصره ومجلس شرابه ناعم البال. (٥) ياعجبا: أصلها ياعجبي، قلبت الياء ألفاً. يستقيلها: يطلب إقالته منها. عقدها: أوصى بها، يشير علي الى ان ابا بكر كان كثيراً مايقول للناس في زمن خلافته أقيلوني منها، فياللعجب كيف أوصى بها لآخر، اي ابن الخطاب، مع انه كان يظهر الزهد فيها. (٦) شدّما: مركبة من (شدّ) و (ما) المصدرية، اي صار شديداً وفاعلها المصدر المؤول مما بعدها، وتشاركها في هذا التركيب: قلّما، وطالما، وربما اعتبرت أسماء فأعربت مفعولا مطلقاً او ظرفاً. تشطرا: اقتسما. الضرع: للناقة

وَيَخْشُنُ مَسُّها، ويكثرُ العِثارُ فيها، والاعتذارُ منها(١)، فصاحبُها كراكبِ الصَّعْبَةِ إنْ أشْنَقَ لها خَرَمَ، وإن أسلسَ لها تقحَّمَ(٢)، فمُنِيَ النّاسُ لَعَمْرُ اللهِ بخَبْطٍ وشِماسٍ، وتَلَوُّنٍ واعْتِراضٍ(٣)، فصبرتُ على طُولِ المُدَّةِ، وشِدَّةِ المِحْنَةِ.

حتى إذا مضى لسبيلِهِ جعلَها في جماعةٍ زعمَ أنّي أحدُهم فيا للهِ ولِلشُّورى(٤)،

اربعة أخلاف كل اثنين منها ضرع، والضرع هو الثدي من كل ذات ظلف، شبه الخلافة بالناقة ويريد من هذه الاستعارة ان ابا بكر وعمر اتفقا على اقتسام منافع الخلافة وان ذلك أمر مدبر بينهما.

(١) الحوزة: الناحية. الكلام: الارض الغليظة. العثار: من عثر الرجل: زل وكبا. والاعتذار منها: الضمير عائد هنا على الخلافة لا على الناحية. يصور هنا عمر وما عرف به من الخشونة والشدة وجفاء الطبع فيشبهه بالناحية الخشنة والأرض الغليظة التي لا يزال فيها السائر عاثراً. ويريد من هذه الاستعارة ان عمر كان غليظاً شديداً وانه كان كثيراً ما يحكم بالأمر ثم يبدو له فينقضه، وفي خطبة عمر حين ولي الخلافة بيان لسياسة عمر هذه كقوله منها: «اللهم إني غليظ فليّني لأهل طاعتك بموافقة الحق، وارزقني الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق»... اللهم إني كثير الغفلة والنسيان فألهمني ذكرك على كل حال...». (٢) الصعبة من النوق: مالم تُرض ولم تذلل. أشنق الناقة: جذبها بالزمام لئلا تشتد في السير. خرم: شق أنفها. أسلس: أرخى (الزمام). تقحم: اقتحم المهالك. يشبه هنا من تولى الخلافة براكب الناقة الصعبة ان شد زمامها ثقب أنفها وإن ارخى لها العنان اقتحمت به المهالك، يريد ان الخلافة تحتاج الى سياسة ملائمة لا هي بالشديدة المنفرة ولا بالمتراخية المفسدة. (٣) مني: أصيب وابتلي. الخبط: السير على غير هدى. الشماس: النفار والجموح. التلون: التبدل. الاعتراض: السير على غير استقامة ومنه المُعْرِضي من النوق: ما لم تتم رياضته فيمشي معترضاً. هذه الاستعارة يصور فيها علي ما أصاب الناس في عهد عمر من شدة وخشونة في المعاملة ومن عدم استقرار في الاحكام لما أثر عن عمر من الحكم بالشيء ثم نقضه.

(٤) يالله وللشورى: فتحت اللام في الأول لأنها المدعو وكسرت في الثانية لأنها المدعو إليه وتلك هي الصيغة العامة للاستغاثة والتعجب. يشير علي هنا الى عهد عمر بالخلافة، حين طعن، الى ستة هو أحدهم والخمسة الآخرون هم: سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان ←

متى اعترضَ الرَّيْبُ فيَّ مع الأوَّلِ منهم حتى صِرتُ أُقْرَنُ إلى هذه النَّظائر، لكنّي أسْفَفْتُ إذ أسَفّوا، وطِرتُ إذ طارُوا(١)، فصَغا رَجُلٌ منهم لضِغْنِه، ومالَ الآخَرُ لصِهْرِه، مع هَنٍ وهَنٍ (٢).

إلى أن قامَ ثالثُ القومِ نافِجاً حِضْنَيْهِ، بين نَثِيلِه ومُعتَلَفِه، وقامَ معَهُ

والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله قد، ترك لهم عمر ان يختاروا أحدهم فاختير عثمان. (١) الريب: الشك. النظائر: الأشباه. أسف الرجل: دخل في الأمر الحقير وأصله من أسف الطائر: دنا من الأرض في طيرانه. يستكبر علي هنا عن ان يقاس بجماعة الشورى وهو يرى نفسه أحق بالخلافة من أبي بكر نفسه. ثم يأتي باستعارة يشبه فيها نفسه بالطائر، فهو يسف باسفافهم ويرتفع بارتفاعهم، اي انه على رغم علو منزلته عنهم ماشاهم وسايرهم. (٢) صغى: مال. الضغن: الحقد والضغينة، والمقصود هنا طلحة، ذلك ان عمر حين عهد الى هؤلاء الستة باختيار أحدهم دعا أبا طلحة الأنصاري وأمره ان يجمع هؤلاء الستة في بيت ليتشاوروا في الأمر ويختاروا أحدهم وأمره ان يقتل المخالف منهم اذا اتفق اكثرهم على واحد فإن تساووا فليأخذ برأي الجماعة التي فيها عبد الرحمن ابن عوف، فلما اجتمعوا للتشاور تنازل سعد عن حقه في الخلافة لابن عمه عبد الرحمن، اذ كلاهما من بني زُهرة، وتنازل طلحة لعثمان، لأن طلحة كان من بني تيم، رهط ابي بكر، وقد فسد ما بين التيميين وجماعة علي منذ خلافة ابي بكر ولذلك تنازل طلحة عن حقه لعثمان حين ادرك ان الخلافة بعيدة عنه، نكاية بعلي. وحينئذ تنازل الزبير عن حقه لعلي لما بينهما من القرابة لأن الزبير ابن صفية بنت عبد المطلب عمة علي، وعندئذ قال عبد الرحمن لعلي وعثمان: ايكما يخرج نفسه من الخلافة ويكون إليه الاختيار في الاثنين الباقيين، فلم يتكلم منهما احد، فقال عبد الرحمن: اشهدكم انني قد أخرجت نفسي من الخلافة على ان أختار احدهما، ثم اقبل على علي وقال له: أبايعك على كتاب الله وسنة رسول الله وسيرة الشيخين ابي بكر وعمر، فقال – فيما رووا –: بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيي، فعدل عنه الى عثمان فعرض عليه ذلك فقبل فبايعه. فهذا الذي يشير إليه علي. ويريد بمن مال الى صهره عبد الرحمن بن عوف لقرابة كانت بينه وبين عثمان، ويرى بعضهم ان عمر مارجح الجانب الذي فيه عبد الرحمن بن عوف إلا ليجعل الخلافة لعثمان. مع هنٍ وهنٍ: عبارة يستعملها العرب حين يريدون ان يكنوا عن امور ولا يصرحوا بذكرها، وأكثر ما تستعمل في الشر.

بنو أبيه يَخضَمُونَ مالَ اللهِ خِضْمَةَ الإبلِ نِبْتَةَ الرَّبيعِ (١). الى أن انْتَكَثَ فَتْلُهُ، وأَجْهَزَ عليه عَمَلُهُ، وكَبَتْ به بِطْنَتُهُ (٢).

فما راعني إلاَّ والنَّاسُ كَعُرْفِ الضَّبُعِ إليَّ، يَنْثَالُونَ عليَّ مِنْ كُلِّ جانبٍ، حتَّى لقد وُطِئَ الحَسَنانِ، وشُقَّ عِطْفَايَ، مُجتَمِعِينَ حَوْلِي كَرَبِيضَةِ الغَنَمِ (٣). فلمّا نَهَضْتُ بالأمرِ نَكَثَتْ طائفةٌ، ومَرَقَتْ أُخرى، وقَسَطَ آخَرُونَ (٤)، كأنَّهم لم يَسْمَعُوا كلامَ اللهِ حيثُ يقولُ: «تلكَ الدّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً في الأرضِ ولا

---

(١) ثالث القوم: ثالث الخلفاء الراشدين، عثمان. نافجاً: رافعاً. الحضن: مابين الإبط والكشح، يقال لمن امتلأ بطنه طعاماً: جاء نافجاً حضنيه. النثيل: الروث. المعتلف: موضع العلف، يريد ان عثمان كان همه الأكل والرجيع فشبهه بالثور الذي لاهم له الا الأكل، وهذه الصورة استعارة. بنو أبيه: بنو أمية. الخضم: الأكل بملء الفم وضده القضم وهو الأكل بأطراف الاسنان. خضمة: مصدر هيئة فهو على وزن (فعلة). النبتة: النبات. يشير هنا الى ماصنعه عثمان بعد توليه الخلافة فانه أوطأ بني أمية رقاب الناس وولاهم الولايات وأقطعهم القطائع وأغدق عليهم الأموال. (٢) انتكث: انتقض. الفتل: الحبل المفتول او الغزل، وهي استعارة يراد بها أنه أخفق في عمله. كبا الجواد: وقع. البطنة: الإسراف في الأكل والنهم. يريد ان سوء سياسته هو ما أثار الناس عليه فقتلوه. (٣) راعني: روعني وأخافني. عرف الضبع: الشعر المجتمع في عنقها، والضبع تعرف بغزارة العرف. يشبه كثرة الناس حين أقبلوا لمبايعته، اثر مقتل عثمان، بالشعر الكثير في عنق الضبع. ينثالون: يتتابعون ويجتمعون. الحسنان: الحسن والحسين، ابنا علي. العطف: من كل شيء جانبه، والمراد هنا جانب الثوب، وفي رواية: (عطافاي) والعطاف: الثوب. الربيضة: الجماعة الرابضة الجاثمة. شبه كثرة الناس الذين التفوا حوله لمبايعته بجماعات الغنم الرابضة. (٤) نهضت بالأمر: قمت به، اى لما توليت الخلافة. نكثت: انتقضت. مرق: خرج مسرعاً ومنه يقال: مرق مروق السهم. قسط: جار وظلم، ومنه قوله تعالى: وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً. يشير بالطائفة الناكثة الى أصحاب الجمل (عائشة وطلحة والزبير) الذين ابوا مبايعته وقاتلوه. وبالطائفة ←

فَساداً والعاقِبَةُ للمُتَّقِينَ » ، بَلَى واللهِ لقد سَمِعُوها وَوَعَوْها ، ولكنَّهُم حَلِيَتِ الدُّنيا في أعْيُنِهِم ، وراقَهُم زِبْرِجُها (١) .

أما والَّذي فَلَقَ الحبَّةَ ، وبَرَأَ النَّسَمَةَ ، لولا حُضورُ الحاضِرِ ، وقيامُ الحُجَّةِ بوجُودِ النَّاصِرِ ، وما أخَذَ اللهُ على العُلَماءِ أنْ لا يُقارُّوا على كِظَّةِ ظالمٍ ولا سَغَبِ مَظْلُومٍ ، لألقَيْتُ حَبْلَها على غارِبِها ، ولَسَقَيْتُ آخِرَها بكأْسِ أوَّلِها ، ولألفَيْتُم دُنياكُم هذه أزْهَدَ عِندي من عَفْطَةِ عَنْزٍ (٢) .

* * *

المارقة الى جماعة معاوية الذين قاموا يطالبون بدم عثمان وقاتلهم علي في موقعة صفين . وبالطائفة القاسطة الى الخوارج الذين خرجوا على علي اثر موقعة صفين . وحول هذه الفقرة وضعت طائفة من الاحاديث الكاذبة . (١) وعوها : فهموها وحفظوها . حليت الدنيا في أعينهم : وجدوها حلوة . راقهم : أعجبهم . زبرجها : الزينة والزخرف . يقول علي إن هذه الجماعات التي خرجت عليه كانت تقاتله من اجل الخلافة كأنهم لم يعلموا أن الله أعد للزاهدين في دنياهم نعيم الآخرة ، وانما غرتهم الدنيا بزخرفها فهم يتهافتون عليها وينازعوني من أجلها . (٢) فلق الحبة : مأخوذ من قوله تعالى : فالق الحب والنوى . برأ : خلق وأوجد . النسمة . كل ذي روح من البشر . لولا حضور الحاضر : لعله يريد به استقرار الامر في يده . الحجة : الدليل ، وهنا الدليل على حقه في الخلافة . هذه الجملة والتي قبلها اشبه بعبارات المتكلمين وفيها مايدعو للشك . يقاروا : يقروا ويسكنوا . الكظة : مايعتري المكثر من الطعام من الثقل والضيق . السغب : الجوع . يريد : لولا ان الله أمر العلماء بالانتصاف من الظالم ومعونة المظلوم فلا يرتضون امتلاء الظالم بالطعام ولا أن يجوع المظلوم . الغارب : الكاهل : وهذا من امثال العرب يستعمل لمعنى الانصراف عن الشيء وعدم الاكتراث به فعل من يضع حبل الناقة على كاهلها ويدعها تسير حيث شاءت . ولسقيت آخرها بكأس اولها : الضمير هنا عائد على الخلافة ، واستعار الكأس والسقيا مريداً بذلك انه لولا ماينته من الامر لما اكترثت بشأن الخلافة ولوقفت منها الآن موقفي منها في أول أمرها ، (بعيد وفاة الرسول) غير عابئ بها . عفطة عنز : ماتنثره من فمها اذا عطست . يريد اني لولا ماينت لوجدتموني زاهداً في الدنيا لاتساوي عندي عفطة عنز .

دراسة الخطبة

أ — جو النص

صاحب النص

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، ابن عم رسول الله ، ولد في مكة قبل المبعث بزهاء تسعة اعوام ، ومات عنه أبوه وهو في السادسة من سنه فآواه الرسول عليه السلام في بيته وقام على تربيته ، فنشأ علي محباً لابن عمه ، معجباً به . فلما أظهر دعوته كان من السابقين الى اعتناق الدين الجديد وهو ابن تسع سنوات ، ثم أقام في مكان الرسول ليلة الهجرة ، وحين أخذت الدعوة الإسلامية تتخذ شكلاً حربياً كانت لعلي مواقف مشهودة في قتال المشركين والذب عن حياض الاسلام ، فيروون أن نصف من قتل في غزوة بدر كان على يد علي . وبعيد الهجرة أصهر الى الرسول بالزواج من ابنته فاطمة ولم يبن بغيرها في حياتها ، وكان له منها الحسن والحسين .

هذه المشاركة الفعّالة في نصرة الدين الجديد ، وصلة القرابة التي كانت تجمع بين علي وبين الرسول ، أضف الى ذلك ماعرف به علي من التعمق في فهم احكام الدين الاسلامي ، كل هذه الأمور ولّدت في نفس علي الاعتقاد الراسخ بأنه أولى المسلمين بالخلافة بعد محمد ، فلما قبض الرسول عليه السلام وبويع ابو بكر بالخلافة بعده (عام ١١ ﻫ) لم يخف علي تذمره وبايع مكرهاً ، ثم توفي ابو بكر وأوصى بالخلافة بعده لعمر (عام ١٣) فازداد تبرماً واستياءً ، ومع ذلك بايع عمر حرصاً على عدم إثارة الفتن ، وكان يمد ابا بكر وعمر برأيه ومشورته ويثني عليهما اذا رأى منهما غيرة على شؤون المسلمين ، ولم يشك علي في أن الخلافة ستكون له بعد عمر ، ولكن عمر حين طعن (عام ٢٣) جعل الخلافة في ستة من المسلمين يختارون أحدهم ، فنقم علي على عمر أن يقرنه الى هؤلاء الخمسة وهو يرى نفسه اولى من عمر وابي بكر بالخلافة ، وكانت نتيجة الشورى في جانب عثمان

لعوامل شتى ، فوقف علي طوال خلافة عثمان موقف الناقم المستاء ، ولكنه مع ذلك بايع عثمان ولم يبخل عليه بالنصح والمشورة . وعلى أثر مقتل عثمان قبل تولي الخلافة بعد تردد قليل (عام ٣٥) ولكن الأمور لم تصف له لأن عائشة كان في نفسها شيء من علي (بسبب حديث الافك) وكانت ترجو ان تصير الخلافة الى طلحة ، وعلى الرغم من مقتها لعثمان فانها قامت تطالب بدمه وانضم اليها طلحة والزبير فاضطر علي لقتالها في وقعة الجمل المعروفة التي انتهت بانتصار علي ومقتل الزبير .

ولما فرغ علي من أصحاب عائشة وجه همه الى معاوية والي الشام ، الذي رفض مبايعته وقام يطالب بدم عثمان ، والتقى الجيشان في صفين على الفرات ، وكاد الأمر يتم لعلي لولا خدعة المصاحف . وحين أرغم علي على قبول التحكيم خرجت عليه جماعة من أصحابه نادوا أن « لا حكم إلا لله » وهم الذين عرفوا بعد بالخوارج ، واضطر علي لقتالهم وقتل قسماً كبيراً منهم في موقعة النهروان ، وكانت نتيجة التحكيم ظفراً سياسياً عظيماً لمعاوية ، وكان لابد لعلي من رفض هذه النتيجة ، وبينما كان يتأهب لاستئناف القتال مع معاوية قتله الخارجي عبد الرحمن بن مُلْجَم في مسجد الكوفة (عام ٤٠ هـ) انتقاماً لقتلى يوم النهروان ، وبذلك تم الأمر لمعاوية وانتهت خلافة علي القصيرة الأمد .

ونحب ان نشير هنا الى بعض الأسباب التي أدت الى عدم نجاح علي في حياته السياسية منذ وفاة الرسول عليه السلام ، ومن ابرز هذه الأسباب أن قريشاً كانت تخشى اذا تولى علي الخلافة أن تصبح وراثية في آل بيته لقرابتهم من الرسول وكانت قريش تريد ان تكون الخلافة فيها جميعاً ، ولذلك قاوم القرشيون علياً منذ بدأ يطالب بالخلافة ، فضلا عن ان كثيراً من القرشيين كانوا يكرهون علياً لموقفه المتصلب في تطبيق مبادىء الاسلام ، ولقتله أقرباءهم إبان النزاع بين الرسول والمشركين ، ولأسباب خاصة أخرى كموقفه من عائشة في حديث الافك ، وإذا أضفنا الى هذه العوامل ما عرف به علي من الصراحة والمجاهرة بالرأي وانتقاد المخطئين علانية ، كل هذه العوامل أكثرت من خصوم علي ، ونفّرت القرشيين منه .

وكان حرص علي على تطبيق شرائع الدين وأحكامه تطبيقاً صحيحاً يجعله كثير المؤاخذة للخلفاء والولاة اذا رأى منهم مخالفة لهذه الشرائع أو اخطاء في الفتوى والاحكام ، وفي الحق ان علياً كان متعمقاً في فهم احكام الدين الجديد متفقهاً لأصوله حتى كانوا يستعيذون من قضية ولا أبا حسن لها ، ولكن حرصه على تطبيق هذه المبادىء وعلى عدم مقابلة مكر خصومه بمكر مثله قد أدى الى إخفاقه سياسياً وادارياً في كثير من الأمور ، ولهذا قال معاوية : « أعنت على علي بأربع : كان رجلا ظهره علنة ، وكنت كتوماً لسر ، وكان في أخبث جند ، وأشده خلافاً ، وكنت في أطوع جند وأقله

خلافاً ، وخلا بأصحاب الجمل فقلت : ان ظفر بهم أعددت ذلك عليه وهناً ، ان ظفروا به كانوا أهون شوكة علي منه ، وكنت احب الى قريش منه [1] » ولهذا ايضاً قال علي : «لولا الدين والتقى لكنت أدهى العرب » .

المناسبة

سميت هذه الخطبة بالشقشقية لأن علياً حين بلغ قوله : عفطة عنز ، قام إليه رجل من أهل السواد وناوله كتاباً فأخذ ينظر فيه ، فقال له ابن عباس : يا أمير المؤمنين لو اطردت خطبتك من افضيت فقال : هيهات يا ابن عباس ، تلك شقشقة هدرت ثم قرّت [2] .

وظاهر من الخطبة انها قيلت في اواخر خلافة علي لقوله فيها : « فلما نهضتُ بالأمر نكثت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون » ، واكثر الخطب التي وصلتنا لعلي قالها بعد توليه الخلافة .

ولم تُقل هذه الخطبة لمناسبة خاصة فان علياً توخى منها التصريح ، وقد آلت الخلافة إليه ، بما كتمه في نفسه طوال خلافة ابي بكر وعمر وعثمان ، وهو حقه الواضح في الخلافة ، واعلان انكاره لمسالك هؤلاء الخلفاء نحوه ، وتعداد ما وقعوا فيه الأخطاء ، والتنديد بهؤلاء الذين خرجوا عليه حين تولى الخلافة ، فانه لزاهد فيها راغب عنها لاتغرّنه الحياة الدنيا ولكن حرصه على ان يساس المسلمون سياسة صحيحة تتمشى وروح التعاليم الإسلامية هو مادفعه الى المطالبة بالخلافة وقتال الخارجين عليه .

ب — التحليل الأدبي

اقسام الخطبة وافكارها العامة

لم نذكر الخطبة الشقشقية كاملة في نهج البلاغة ، ولذلك لانجدها تبدأ بحمد الله والثناء على رسوله ، وقد كان ذلك ، على ماقدمنا ، من سنة الخطباء في ذلك العصر . والخطبة التي بين ايدينا

---

(١) العقد الفريد . ج ٢ : ٢٣٧

(٢) أفضيت : انتهيت ووصلت . الشقشقة : مايخرجه البعير من فيه إذا هاج . والهدير صوتها . قرّت : سكنت .

تنقسم الى أقسام واضحة مرتبة ، فإن علياً كرم الله وجهه تحدث فيها بإيجاز عن خلافة ابي بكر فعمر فعثمان وبين موقفه من هؤلاء الخلفاء الثلاثة ومن الخلافة .

ففي القسم الاول تحدث عن ابي بكر واستئثاره بالخلافة وهو يعلم ان علياً أحق بها منه ، ويذكر انه اضطر الى الصبر على مضض حرصاً على جمع كلمة المسلمين .

وفي القسم الثاني تحدث عن عمر ، ويعجب لابي بكر كيف يوصي بالخلافة بعده لعمر في حين انه كان يظهر الزهد فيها ، ويعرض تعريضاً خفياً بأن هذا الامر كان مدبراً بينهما . ثم تحدث عن عمر وما عرف به من الشدة والجفوة والعنجهية وارتكابه الاخطاء الكثيرة في الفتوى والاحكام ؛ وانه مع ذلك راض نفسه على الصبر ، على طول المدة وشدة المحنة .

وفي القسم الثالث تحدث عن عثمان ، وان عمر قبل وفاته أوصى بالخلافة لستة كان علي أحدهم فلا يخفي شدة استيائه وعجبه لانه قرن الى هؤلاء الخمسة ، مع انه كان اجدر بالخلافة من ابي بكر. ويشير إشارة عاجلة الى الطريقة التي تمت بها الشورى والتي أفضت الى تولي عثمان الخلافة . ثم تحدث عن سياسة عثمان في تمكين ذوي قرباه من اموال المسلمين وفي انصرافه الى اشباع نهمه ؛ وان هذه السياسة هي التي اودت به آخر الامر .

وفي القسم الرابع يحدثنا عن تدفق الناس عليه لمبايعته ، اثر مقتل عثمان ، فما كاد يتولى الخلافة حتى كثر المارقون والقاسطون والناكثون ، وكلهم لا غاية لهم الا الحكم والخلافة ، وينهي كلامه ببيان سبب تعلقه بالخلافة ، وهو ظهور حقه فيها والتفاف مناصريه حوله وماأوجبه الله على العلماء من احقاق الحق وانصاف المظلوم من الظالم ، ولولا ذلك لالفاه الناس زاهداً في الخلافة ، راغباً عن متاع الدنيا .

فالافكار العامة التي تتضمنها هذه الخطبة تتلخص فيما يلي :

١ ــ بيان حقه في الخلافة وانه اولى بها من جميع الصحابة .

٢ ــ اظهار سخطه على الخلفاء الذين هضموه حقه وتنقصوا قدره ولم يحسنوا سياسة المسلمين . واظهار سخطه على الخارجين عليه حين تولى الخلافة .

٣ ــ بيان سبب مطالبته بالخلافة ، على ما عرف به من الزهد فيها والانصراف عن الدنيا.

وهذه الافكار نجدها في اكثر ماوصلنا من خطب علي ، لانه كان مؤمناً بها شديد الايمان، فكان لايفتأ يرددها مجاهراً بها غير متحفظ ولا متحرج .

العاطفة

تنم لنا خطبة علي هذه عما كان يعتمل في نفسه من النقمة والسخط على الخلفاء الذين استأثروا بالخلافة وسلبوه « تراثه » . وهذه العاطفة طبيعية في رجل يرى نفسه قد شارك مشاركة فعالة في إقامة دعائم الدولة الاسلامية ، وهو أفقه المسلمين ديناً وعلماً وأمسهم رحماً برسول الله ، وما كان ليخامره الريب في ان الخلافة ستكون له بعد محمد عليه السلام ، فإذا بالقرشيين يتواطؤون ، في رأيه ، على انتزاع حقه منه ، واذا به يرى تراثه نهباً . فلا غرابة في ان يسخط على هؤلاء المغتصبين ، لاسيما وان سياستهم لأمور المسلمين لم تكن مبرأة من النقد . ولكنه مع ذلك راض نفسه على الصبر « وفي العين قذى وفي الحلق شجا » ائلا تقوم الفتنة بين المسلمين . وهذه العاطفة لايحاول علي ان يبرزها من خلف حجاب او يموّهها وإنما يظهرها سافرة صريحة تنم عما فطر عليه من ايثار الصراحة والمجاهرة بالرأي ، وقد رأينا معاوية يجد في هذه الخصلة نقطة ضعف في علي يُحسن الاستفادة منها .

على ان علياً لم يعلن سخطه هذا الا بعد وفاة الخلفاء والا بعد ان استقر الأمر في يده ، لانه كان حريصاً من قبل على اجتماع كلمة المسلمين ولو أنه أعلن سخطه جهاراً زمن اسلافه الخلفاء لنجم عن ذلك أحداث لاتؤمن عقباها ، وعاطفة السخط هي التي حملت علياً على ان ينال الخلفاء بشيء من التعريض والذم .

ولم يكن علي في خطبته هذه ساخطاً على الخلفاء السابقين وانصارهم فحسب بل هو ساخط ايضاً على هؤلاء الذين خرجوا عليه بعد توليه الخلافة ، اي على اصحاب الجمل وبني أمية والخوارج ، وقد كانوا يتظاهرون بالغيرة على الدين وعلى شؤون المسلمين وكان بعضهم يطالب بدم عثمان وليس لهم ، في حقيقة الامر ، من غاية الا الحكم .

وعلي لايخفي في هذه الخطبة اعتداده بنفسه واعتزازه برفعة منزلته : « ينحدر عني السيل ولا يرقى إلى الطير » ، وهو يجاهر بأنه أجدر المسلمين كافة بالخلافة : « محلي منها محل القطب من الرحى » ، ويحنقه أن يقرن به في الجدارة بالخلافة اشخاص ليسوا له بأكفاء : « متى اعترض الريب فيّ مع الاول حتى صرت أقرن الى هذه النظائر !؟ » . ولكنه من جانب آخر يسوّغ لنا تعلقه بالخلافة ، وانه لولا غيرته على أمور المسلمين لوجد فيه المسلمون ذلك الزاهد المنصرف عن الدنيا : « ولألفيتم دنياكم هذه ازهد عندي من عفطة عنز . »

الأسلوب

من الواضح اننا لانستطيع فهم خطبة علي هذه دون اللجوء الى المعاجم لكثرة ماتحوية من

الالفاظ الغريبة ، وهي حتى بالقياس الى خطب ذلك العصر ، لاتخلو من غرابة . ويبدو ان علياً كان مولعاً بتخير غير المألوف من اللفظ في اكثر خطبه وذلك ينبئنا بما عرف به علي من التمكن من اللغة العربية ووقوفه على شاردها وواردها حتى كان له الفضل في وضع الاسس لبعض علوم العربية. وهو لايختار من الالفاظ إلا أقواها دلالة على المعنى المقصود وأوفاها بالغرض . والطابع المميز لهذه الالفاظ جميعها هو الجزالة والمتانة وقوة الايحاء وجمال الوقع .

فاذا صاغ علي من ألفاظه جملاً تخيرها جملاً قصيرة ، على الاغلب ، ولكنها على إيجازها بليغة الدلالة ، تغني عن الشرح الطويل فهو يقول مثلاً : اما والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة ، فيختار لفظ تقمصها لمعنى الاستيلاء والاستحواذ ، ويذكر الضمير دون أن يذكر عائده ، وهو الخلافة ، لانه يعتمد على ذكاء المخاطب ، ولذلك لانجده يذكر لفظ الخلافة في جميع الخطبة مع ان مدارها عليها، وهو يكتفي بأن يشير إشارة خاطفة سريعة الى الاحداث التي مرت به دون أن يجنح الى التفصيل والتوسع ، وهذا مايجعل الخطبة ابلغ اثراً وأجمل وقعاً ويجعل أسلوبها الى الشعر أقرب منه الى النثر لان الشعر يعتمد على التركيز والنثر يعتمد على التفصيل ، فالاسلوب الذي ينتهجه علي في صوغ جمله هو الاسلوب الموجز المركز الموحي ، فبهذا الاسلوب يعرض لنا علي مامر به من احداث ويصور لنا سياسة الخلفاء قبله بعبارات موجزة قوية الدلالة ، فالطريقة التي تمت بها الشورى مثلاً وما رافقها من مؤامرات وملابسات ، كل ذلك يلخصه علي بقوله : « فصغا رجل منهم لضغنه ، ومال الآخر لصهره ، مع هنٍ وهنٍ . » ، والاسلوب المركز الموحي نتبينه ايضاً في هذه الكنايات الكثيرة التي جاء بها علي بدلا من التصريح بالحوادث والاسماء ، فهو يقول : نكثت طائفة ومرقت اخرى وقسط آخرون ، ولا يقول لنا من هم هـؤلاء الناكثون والمارقون والقاسطون وإنما يدع ذلك لذكاء القارىء .

والاعتماد على التوازن والازدواج واضح في هذه الخطبة ، بل ان هذا الازدواج يعتمد ايضا على الترادف المعنوي ، فالجملتان تتفقان زنة ومعنى ، ولا يخفى ما للتزاوج الموسيقي والمعنوي من قوي الاثر سواء في تأكيد المعنى او في جمال التعبير . وقد تأثر البلغاء بعد علي بهذا الاسلوب ونهجوا على غراره كعبد الحميد وابن المقفع ، ومن أمثلة الازدواج المترادف قوله : فسدلت دونها ثوباً وطويت عنها كشحاً ، وقوله : فصبرت وفي العين قذى ، وفي الحلق شجا ، وقوله: فصيرها في حوزة خشناء يغلظ كلامها ، ويخشن مسها ، ويكثر العثار فيها ، والاعتذار منها ، الخ .. وان هذا الازدواج ليحتكم في اللفظ ويتجاوز على قواعد اللغة فيعدي الفعل (أشنق) باللام مع انه متعد بنفسه ليزاوج

بين (أشنق لها) و (أسلس لها) . وقد يخرج علي من الازدواج الى السجع ، في غير تكلف مستكره ، كقوله : يهرم فيها الكبير ، ويشيب فيها الصغير ، و كقوله : لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر .

وظاهرة أخرى نلاحظها في جمل الخطبة ، هي انها كثيرة الاتكاء على ادوات التأكيد المختلفة: أما والله ، وانه ليعلم ، لشدما تشطرا ضرعيها ، فني الناس لعمر الله بخبط وشماس ، اما والذي خلق الحبة وبرأ النسمة ...، ومنها ايضا ترادف الجمل ، وهذه الظاهرة اللفظية تقابلها حالة نفسية هي قوة العاطفة ، عاطفة السخط والنقمة ، التي قال علي خطبته تحت تأثيرها ، والالجوء الى ادوات التوكيد ينم عن نفسية القائل وقوة عاطفته اكثر مما يدل على الرغبة في تقرير المعنى في نفس المخاطب .

ومن الطبيعي ان يكون للمعاني والافكار الاسلامية ، وللقرآن خاصة ، أوضح الاثر في خطب علي ، لان علياً كان يعيش هذه الافكار ويطبقها عملياً، ولان القرآن الكريم كان مادة ثقافته الاولى فهذا الاسلوب اللفظي الذي تحدثنا عنه يشبه الى حد بعيد الاسلوب القرآني (نلاحظ مثلاً ان علياً حين يقسم فيقول : اما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ، إنما ينظر الى قوله تعالى : فالق الحب والنوى) والمعاني التي اوردها علي في معرض الاحتجاج والاستدلال كلها معان وأفكار إسلامية ، بل ان اثر القرآن تجاوز هذا كله الى تضمين آية من القرآن : تلك الدار .. الخ الآية .

ولم يكن للثقافة الاسلامية وحدها الاثر في اسلوب علي بل كان واقفاً ايضاً على آداب العرب واخبارهم وامثالهم واشعارهم ، ونجده في هذه الخطبة يستشهد ببيت للاعشى ، على انه لم يكن كثير الاستشهاد بالشعر في خطبه .

فإذا تقصّينا أثر الخيال في خطبة علي دهشنا لكثرة الصور البيانية فيها ، فهي مزدحمة بالتشبيهات والاستعارات والكنايات ، مما ينبئنا بخصب مخيلة علي وقوة تصوره ودقة حسه ، واثر بيئة علي واضح في هذه الصور ، فهي منتزعة من البيئة العربية الخالصة ، فإذا قصد التشبيه شبه بقطب الرحى وبالناقة الصعبة وبالثور وبخضم الابل وبعرف الضبع وبربيضة الغنم . واذا قصد الاستعارة قال : ينحدر عني السيل ولا يرقى اليّ الطير ، فسدلت دونها ثوباً وطويت عنها كشحاً ،فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجا ، ولكني أسففت اذ أسفوا وطرت اذ طاروا ، ونحوها من الاستعارات.

ولا تخلو خطبته هذه من بعض الصور البديعية التي اقتضاها المعنى كالطباق والمقابلة : الصغير والكبير ، إن أشنق لها خرم وإن أسلس لها تقحم ، لكنني أسففت اذ أسفوا وطرت اذ طاروا ، الخ . . وكل هذه الصور الحركية واللمسية والبصرية قد أضفت على الخطبة الواناً شعرية جذابة

وأشاعت فيها الحركة والقوة والحياة .

قيمة الخطبة ومنزلة على الأدبية

لهذه الخطبة قيمة تاريخية كبيرة ، فضلاً عن قيمتها الادبيـة . إذ أنها ، على إيجازها ، تلخص لنا قصة الخلافة منذ وفاة الرسول عليه السلام ، وتقفنا على الخطوط البارزة في سياسة الخلفـاء الراشدين وعلى الغايات الحقيقية التي كانت الاحزاب في ذلك العصر تسمى لها .

وقد حمل مافي هذه الخطبة من التعريض الواضح بالخلفاء وبعض الصحابة طائفة من البـاحثين على الشـك في صحة نسبتهـا إلى علي ، ورجحوا أنها من وضع الشريف الرضي ، جامـع كلام علي في نهج البلاغة ، ولكنا نرجح انها حقاً لعلي ، او اكثرها على الاقل ، وذلك للامور التالية :

١ ـ انها بكلام علي وأسلوبه أشبه منها بكلام الرضي وطريقته . وقد اورد ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة (ج ١ : ٦٩) كلاماً دار بين مصدق بن شبيب الواسطي وبين ابن الخشاب ، (في اوائل القرن السابع الهجري) حول هذه الخطبة وما يقال من أنها للرضي فيقول ابن الخشـاب : « أنّى للرضي ولغير الرضي هذا النفَس وهذا الاسلوب ، قد وقفنـا على رسائل الرضي وعرفنـا طريقته وفنه في الكلام المنثور وما يقع مع هذا الكلام (اي كلام علي) في خل ولا خمر . »

٢ ـ ان كثيراً مما في هذه الخطبة مذكور في الكتب المصنفة قبل نهج البلاغة ، على ما يورده ابن ابي الحديد من كلام ابن الخشاب المذكور اذ يقول : « والله لقد وقفت على هذه الخطبة في كتب صنفت قبل أن يخلق الرضي بمائتي سنة ، ولقد وجدتها مسطورة بخطوط أعرفهـا وأعرف خطوط من هو من العلماء وأهل الادب قبل أن يخلق النقيب ابو أحمد والد الرضي . » . ثم يقول ابن ابي الحديد انه هو ايضاً وقف على كثير مما في هذه الخطبة في تصانيف أئمة المعتزلة والامامية الذين وجدوا قبل الرضي . بل اننا لنجد بين هذه الخطبة وبين خطب أخرى لعلي تشابهاً واضحاً في المعاني والتراكيب (انظر مثلاً خطبة علي حين استنفر اهل الكوفة لحرب الجمـل ، العقد الفريد ج ٤ : ٧١ ، والخطبة المروية لعلي عن ابي عبيدة في البيان والتبيين ج ٢ : ٥١) .

٣ ـ ان التعريض المذكور في هذه الخطبة لايستبعد صدوره عن علي لما عرف به من الصراحة والمجاهرة بالرأي ، لاسيما وانه يرى نفسه مهضوم الحق ، مسلوب التراث .

بيد أننا اذا رجحنا صحة الجزء الاكبر من هذه الخطبة لانستبعد مع هذا أن يكون في الخطبة ماليس لعلي ، وان في النفس لشيئاً من القسم الاخير منهـا ، فإن فيه مايشبه اقوال المتكلمين من الامامية : « لولا حضور الحاضر ، وقيام الحجة بوجود الناصر . » .

وهذه الخطبة تدلنا على مكانة علي الأدبية فهي نموذج ناطق ببلاغته وفصاحته وحسن بيانه ، فلا غرو أن تكون آثاره الأدبية قدوة البلغاء والادباء بعده ، ويروى ان عبد الحميد الكاتب سئل : ما الذي خرّجك في البلاغة ؟ فقال : حفظ كلام الأصلع ، يريد به علياً ، ولقد وصفوا كلام علي بأنه « دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق » .

وقد جمع الشريف الرضي (١) طائفة من آثار علي في كتاب أسماه « نهج البلاغة » ، وربما كان في هذا الكتاب الكثير مما ليس لعلي ، وضعه الرضي او غيره ، وأسباب الشك كثيرة اشار اليها الباحثون الأقدمون والمحدثون كخلو الكتاب من الأسانيد واحتوائه على صنعة بعيدة عن عصر علي وعلى إخبار بالمغيّبات واشارة الى امور حدثت بعد وفاة علي ، الى غير ذلك من أسباب الشك التي لا مجال لذكرها ومناقشتها هنا . ومهما يكن من أمر فإن هذا الكتاب يحوي كثيراً من آثار علي الأدبية التي تنطق بمقدرته البيانية ومكانته الأدبية الرفيعة . وقد شرح نهج البلاغة شروحاً عدة اشهرها شرح عبد الحميد بن ابي الحديد المعتزلي (المتوفي سنة ١٢٥٧ هـ) وشرح الامام محمد عبده (المتوفي سنة ١٩٠٥ م) . وفي كتب الأدب والتاريخ القديمة طائفة اخرى من آثار علي الأدبية لانجدها في نهج البلاغة .

[ملاحظة : اقرأ ايضاً من خطب علي خطبته في الجهاد : شرح النهج لابن ابي الحديد ج ١ : ١٤٠]

مصادر

١ – شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد او لمحمد عبده .

٢ – المصادر التاريخية القديمة كسيرة ابن هشام وتاريخ اليعقوبي والطبري وابن الأثير والمسعودي .

٣ – مقاتل الطالبيين : ابو الفرج الأصفهاني .

٤ – وقعة صفين : نصر بن مزاحم .

٥ – معجم الأدباء (مادة علي) : ياقوت الحموي .

٦ – العقد الفريد : ابن عبد ربه . ج ٤ : ٦٦ .

٧ – دروس الأدب : خلدون الكناني ، ص : ٨٢ وما بعدها .

٨ – علي بن ابي طالب : فؤاد افرام البستاني (الروائع) .

٩ – Encyclopédie de l'Islam, Huart : (Ali)

١٠ – Lammens : Etudes sur le Régne du Calife Omaiyade Mo'awia 1er · Beyrouth 1908

---

(١) الشريف الرضي هو محمد بن طاهر الذي ينتهي نسبه الى موسى الكاظم ، كان نقيب الطالبيين في عصره وإماماً من أئمة الأدب واللغة وشاعراً مشهوراً . توفي عام (٤٠٨ هـ) .

الحجاج بن يوسف الثقفي

خطبته في مسجد الكوفة حين وُلّي العراق :

أنا ابنُ جَلاَ وطَلاّعِ الثّنايا   متى أضعِ العِمامَةَ تعْرِفُوني (١)

يا أهلَ الكوفة ، إنّي لأرى رُؤوساً قد أينَعَتْ وحانَ قِطافُها ، وإنّي لصاحِبُها ، وكأنّي أنظرُ إلى الدماء بينَ العَمائمِ واللِحى (٢) :

هذا أوانُ الشَدِّ فاشْتَدّي زِيَمْ   قد لفَّها الليلُ بسَوّاقٍ حُطَمْ (٣)

ليس بِراعي إبِلٍ ولا غنَمْ   ولا بجَزّارٍ على ظَهرِ وَضَمْ (٤)

الشرح اللغوي.. (١) هذا البيت لسُحَيم بن وَثِيل الرياحي وقد تمثّل به الحجاج . ابن جلا : من الجلاء والوضوح ، يريد انه واضح الامر . الثنايا ، ج ثَنِيّة : الطريق في الجبل . يريد انه رجل جلد يقدم على الشاق من الامر . أضع : أنزل وأرفع . (٢) أينعت : ادركت ونضجت . قطافها : قطفها . يشبه الرؤوس بالثمار اليانعة . كأني : استعملت هنا للتقريب والتخييل . (٣) الشد : الاشتداد في السير . زيم : اسم فرس او ناقة . والزِيَم ايضاً : المتفرق من اللحم والدواب وجمع الزِيمة وهي الجماعة من الابل . لفّها : جمعها . الحُطم : الذي لا يبقي من السير شيئاً ، وهو ايضاً النهم الذي يأكل فلا يبقي ولا يذر ، ومنه يقال للنار التي لا تبقي : حُطَمَة . (٤) الوضم : الخشبة يقطع عليها اللحم . يريد الشاعر بقوله هذا أنه صاحب غارة ورحلة ، فهو اذن لا يترفق بناقته ترفق الراعي او الجزار بها بل سيسوقها سوقاً شديداً . ويشبه الحجاج نفسه بهذا الشاعر تمثيلاً لشدته وعنفه . وهذان البيتان لرُوَيشد بن رميض العنبري في رجل يدعى شُرَيح بن ضُبَيعة وكان غزا اليمن ←

قد لفَّها الليلُ بعَصلَبيِّ أروعَ خرّاجٍ من الدَّوِّيِّ

مُهاجرٍ ليس بأعرابيِّ (١)

قد شمَّرتْ عن ساقِها فَشُدُّوا وجَدَّتْ الحربُ بكمُ فجِدُّوا (٢)

والقوسُ فيها وَتَرٌ عُرُدُّ مثلُ ذراعِ البَكْرِ أو أشَدُّ

لابُدَّ مما ليس منه بُدُّ (٣)

إنّي واللهِ يا أهلَ العِراق ما يُقَعْقَعُ لي بالشِّنانِ (٤)، ولا يُغْمَزُ جانبي كتَغْمازِ التينِ (٥)، ولقد فُرِرْتُ عن ذكاءٍ (٦)، وفُتِّشْتُ عن تجرِبة. وإنَّ أميرَ المؤمنينَ، أطالَ اللهُ بقاءَه، نثرَ كِنانَتَه بين يديْه، فعَجَمَ عِيدانَها، فوجَدَني أمرَّها عوداً، وأصلَبَها مَكسِراً (٧)، فرماكم بي، لأنّكم

مجموع من ربيعة فغنم وسبى وفي عودته ضل وجماعته عن الطريق وهلك منهم ناس كثير عطشاً فجعل شريح يسوق بالقوم سوقاً عنيفاً حتى نجا من بقي معه، فقال رويشد هذا الشعر فصار شريح يلقب بالحُطَم. (١) العصلبيّ: الشديد القوي ومثله العَصْلُب. الأروع: الذكيّ والشجاع والحسن المنظر. الدوّيّ: المنسوب الى الدوّ وهو الصحراء التي لايهتدى بها، يريد بها الشدائد. ويريد بقوله: مهاجر ليس بأعرابي، انه ذو خبرة لهجرته من البادية، موطن الأعرابي، الى المدن.

(٢) شمّرت عن ساقها: الضمير هنا عائد على الحرب، والتشمير عن الساق استعارة يراد بها التهيؤ للأمر والانصراف إليه، والمعنى: قامت الحرب. جدّت: صارت الى الجد، اي اشتدت.

(٣) العُرُدّ والعُرُند: الشديد. البكر: الفتي من الابل. البد: الفراق. تمثل الحجاج بهذا الشعر ليحرّض اهل العراق على قتال الخوارج ويخوّفهم عصيان اوامر الخليفة. (٤) القعقعة: صوت الاشياء اليابسة اذا حركت. الشنان، ج شَنّ: الجلد اليابس يقعقع به للإبل فتنفر وتسرع، وهذا المثل يضرب لمن لايرهبه الوعيد. (٥) يغمز التين ليجفف ويريد انه لايسهل التأثير فيه.

(٦) فرّ يفُرّ الدابة: كشف عن أسنانها ليعرف سنّها. يريد انه اختبر فوجد ذكياً. (٧) امير المؤمنين: يريد به عبد الملك بن مروان. الكنانة: جعبة السهام. عجم العود: مضغه ليمتحن ←

طالما أوضعتم في الفتنة (١)، واضطجعتم في مراقد الضلال (٢).

والله لأحزمنكم حزم السلمة (٣)، ولأضربنكم ضرب غرائب الابل (٤)؛ فإنكم لكأهل قرية «كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون» (٥). وإني والله ما أقول إلا وفيت، ولا أهم إلا أمضيت (٦)، ولا أخلق إلا فريت (٧). وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب ابن أبي صفرة (٨). وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه.

[ملاحظة: هذه هي الرواية المشهورة لخطبة الحجاج كما في الكامل للمبرد (ج ١ : ٢٢٣)، ولها روايات اخرى تختلف عن هذه اختلافاً يسيراً: في البيان والتبيين ج ٢ : ٢١٨، والعقد الفريد ج ٤ : ١١٩، وعيون الاخبار ج ٢ : ٢٤٣]

صلابته. أمرّها: أقواها، من المِرّة وهي القوة. شبه الحجاج نفسه بالسهم القوي العود واراد ان امير المؤمنين لم يختره الا بعد أن اختبر رجالاً كثيرين فوجده اصلحهم لهذا المنصب. (١) فرماكم بي: ارسلني اليكم. أوضعتم: من الايضاع وهو ضرب من السير السريع. اي انكم طالما اسرعتم الى الشر. (٢) هذه الاستعارة يراد بها انكم تعودتم الضلال والمروق. (٣) السلمة: نوع من الشجر تعصب أغصانه وتضرب بالعصي ليسقط الورق وتنهشم العيدان. يريد لآخذنكم بالشدة والحزم. (٤) تضرب الابل الغريبة لترد عن الاختلاط بغيرها عند الورود. (٥) هنا تضمين للآية ١١٢ من سورة النحل: «وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة ... الآية»، والقرية يراد بها مكة. والرغد: الواسع. واذاقها الله لباس الجوع والخوف: استعارة يراد بها انه انزل الجوع والخوف بأهل مكة الذين كذبوا الرسول. وقد شبه الحجاج حال اهل العراق بحال اهل مكة في عصيانهم وجحودهم النعم. (٦) لا أهم بأمر ألا نفذته. (٧) خلق الاديم: قدّره ليقطعه. ←

دراسة الخطبة

١ – جو النص

صاحب النص

ابو محمد، الحجاج بن يوسف بن الحكم ينتهي نسبه الى قبيلة ثقيف من قيس، ولد بالطائف، موطن ثقيف، عام ٤١ هـ، وفيها نشأ وتعلم. وكانت بيئته تجمع بين حضارة المدن وبداوة الاعراب. ولا نعلم الشيء الكثير عن نشأته الاولى وقد ذكر لنا أنه نشأ في أسرة فقيرة وان اجداده كانوا ينقلون الحجارة على أكتافهم، وكانت في هيئته دمامة وعدم انسجام ربما كان لها الاثر في شذوذ طبعه وفي أخذه الناس بالشدة والعنف فيما بعد. وكان ابوه يمارس تعليم الصبيان القرآن بالطائف، ثم خلفه ابنه في هذه الصناعة وكان لهذه الثقافة الدينية واللغوية اثرها في تكوين شخصية الحجاج الأدبيـــة.

ويظهر ان عهد الحجاج بتعليم الصبيان لم يطل لأن طموحه وبعيد همته حملاه على مغادرة هذه البيئة الضيقة الى الشام، مقر الخلافة، فنجده يشترك في جيش يزيد بن معاوية الذي أنفذه الى المدينة بقيادة مسلم بن عقبة سنة ٦٣، ومع ان الامويين انتصروا في وقعة «الحرة» هــذه فإن الحجاج، فيما روي لنا، فرّ فيها تاركاً اباه يقاتل وحده او انه فر مع ابيه. ثم نجده مع ابيه في جيش مروان ابن الحكم الذي أقبل لقتال ابن الزبير في مكة، وينهزم جيش مروان في موقعة (الرَبذة) سنة ٦٥هـ، وفي هذه المعركة ايضاً يفر الحجاج وأبوه.

فريت: قطعت. كناية عن انه لايتردد ولا يحجم عن تنفيذ مايهم به من الأمور. (٨) الأعطيات، ج أعطية، ج عَطاء: مايعطى، وهنا مايعطى للمحارب من الأجر. والمراد بالعدو هنا: الخوارج. المهلب بن ابي صفرة: قائد الأمويين في حرب الخوارج.

وبعد حين نجد الحجاج والياً على تبالة باليمن من قبل عبد الملك بن مروان ، ولكنها لم تكن لترضي طموحه فسرعان ماتخلى عنها وقفل الى الطائف ومنها الى الشام حيث دخل في شرطة رَوْح بن زِنْباع الجُذامي ، صاحب شرطة عبد الملك ، واظهر من المقدرة ماجعل روحاً يرشحه للقيام على جند عبد الملك ، لما توجّه الى العراق لقتال مصعب بن الزبير عام ٧٠ ه ، وكان عبدالملك شكا الى صاحب شرطته سوء طاعة جنوده له فأشار عليه باستعمال الحجاج ففعل، وبهذا خطا الحجاج خطوته الاولى نحو المجد السياسي ، وما لبث ان أظهر مقدرة وحزماً عظيمين في سياسة جند الخليفة وحملهم على الطاعة والنظام ، حتى انه لم يتورع عن جلد أعوان روح لعصيانهم اوامره .

ولما آنس منه عبد الملك هذه المقدرة رمى به عبد الله بن الزبير في الحجاز الذي كان ينغّص عليه أمره ، فسار الحجاج الى الحجاز سنة ٧٢ ه ، واستولى بسهولة على الطائف والمدينة ثم حاصر ابن الزبير في مكة ، ورماها بالمنجنيق حتى تخرب قسم من الكعبة ، وكان الحجاج يصطنع أساليب بارعة ليشجع جنوده الذين كبر عليهم انتهاك حرمة الكعبة ، ولما طال الحصار وقامت المجاعة في مكة اضطر ابن الزبير الى الخروج لقتال الحجاج ، في قلة من أصحابه ، فقاتل حتى قتل سنة ٧٣ه، فصلبه الحجاج بعد أن قطع رأسه وأرسله الى عبد الملك ، واستطاع الحجاج ان يهوّن من فظاعة عمله ببراعته البيانية . وقد كافأه عبد الملك على انقاذه من الزبير بأن ولاّه على الحجاز واليمن .

ظل الحجاج والياً على الحجاز حتى سنة ٧٥ ، وكانت سياسته في معاملة الحجازيين قائمة على الشدة والعنف والسخرية حتى انه ختم على ايدي جماعة من الصحابة بالرصاص ، وبذلك تم خضوع الحجاز لسلطان بني أمية واستقر لهم الامر فيها .

ولما استفحل امر الفتن في العراق بعد وفاة واليها بشر بن مروان (سنة ٧٥ ه)واشتد خطر الخوارج عليها ندب عبد الملك الحجاج والياً عليها ليقر فيها الامن والطاعة لبني أمية ، فيقال ان الحجاج دخل الكوفة في اثني عشر راكباً فجمع الناس في المسجد وخطبهم خطبته الرائعة التي ندرسها والتي أوضح فيها السياسة التي يعتزم السير عليها ، وهي سياسة البطش والشدة ، واستطاع ان يوقع في قلوب اهل الكوفة الذعر والهلع حتى تسارعوا لقتال الخوارج مع المهلّب بن ابي صفرة . ولما استقر امر الحجاج في الكوفة توجه الى البصرة ونفّذ فيها ايضا سياسة العنف والشدة، ومنذئذ اتخذ الارهاب خطته ووضع السيف في الناس حتى دان العراق ، بلد الشقاق والفتن ، لبني أمية ، وبذلك تسنى له القضاء على حركات الخوارج ، ولا سيما الازارقة منهم ، بعد ان اوشكت الكوفة والبصرة على الوقوع في ايديهم ، وتسنّى له ان ينظم جباية الخراج حتى تدفقت الاموال على عبد الملك

وتسنى له أن يسير الجيوش نحو الشرق فتوغلت في بلاد فارس والسند حتى وصلت الى حدود الصين.

على ان سياسة الحجاج القائمة على الارهاب والتنكيل باشراف العرب وإنقاص أعطياتهم واضطهاد الموالي شحنت صدور الناس حقداً وضغينة عليه فقامت ضده ثورات عديدة، منها ثورة ابن الجارود وثورة الزنج، وثورة المطرف بن المغيرة، وثورة ابن الاشعث، وتعرض الحجاج إبّانها للقتـل والهزيمة مرات وكادت العراق تخرج من يد بني أمية لولا ثبات الحجاج ورباطة جأشه ومهارته الحربية ودهاؤه، فقضى على كل هذه الثورات كما قضى على حركات الخوارج ونشر الأمن في ربوع العراق. ولذلك حين مات عبد الملك (عام ٨٦) وخلفه ابنه الوليد أقر الحجاج على العراق وضم إليه الاقاليم الشرقية التي افتتحها، وظل الحجاج والياً عليها حتى توفي عام ٩٥ ه، في خلافة الوليـد. وعرف الامويون للحجاج قدره فقال عبد الملك لبنيه قبيل وفاته : « أكرموا الحجاج فإنه الذي وطأ لكم المنابر، ودوخ لكم البلاد، وأذل الأعداء. » ووصفه الوليد بأنه « جلدة وجهه كله ».

ولم يكن هم الحجاج، خلال ولايته الطويلة الأمد، منصرفاً الى سفك الدم والبطش والاعمال الحربية فحسب، بل قام بجملة من الاصلاحات منها نقل الدواوين الى العربية، وضرب النقود، وبناء مدينة واسط بين الكوفة والبصرة، ووضع علامات النقط والاعجام في المصاحف، واصلاح السدود والجسور وبناء السفن المدهونة المسمرة واتخاذ المنارات وغيرها من الاصلاحات.

المناسبة

روى المبرد مناسبة هذه الخطبة عن عبد الملك بن عُمير الليثي قال : بينا نحن في المسجد الجامع بالكوفة، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه، إذ أتى آتٍ فقال : هذا الحجاج قد قدم اميراً على العراق. فإذا به قد دخل المسجد معتماً بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه، متقلداً سيفاً، متنكباً قوساً، يؤم المنبر. فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر فمكث ساعة لا يتكلم. فقال الناس بعضهم لبعض : قَبّح الله بني أمية حيث تستعمل مثل هـذا على العراق، حتى قال عُمَير بن ضابي البرجمي : ألا أحصبه لكم. فقالوا : أمهل حتى ننظر. فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال : أنا ابن جلا ... الخ الخطبة.

ولما فرغ منها قال لغلامه : ياغلامُ، اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين. فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين. سلام عليكم. فلم يقـل أحد شيئاً. فقال الحجاج : اكفف ياغلام. ثم أقبل على النـاس فقال. أسلم عليكم أمير المؤمنين

فلم تردوا عليه شيئاً ؟ هذا أدب ابن نهية (١) ، أما والله لأؤدبنكم غير هـذا الادب او لتستقيمُن ، اقرأ ياغلام كتاب أمير المؤمنين . فلما بلغ الى قوله سلام عليكم لم يبق في المسجد أحد إلا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام .

فهذه الخطبة قيلت اذن في الكوفة سنة ٧٥ هـ حين قدمها الحجاج والياً من قبل عبـد الملك ، خلفاً لبشر بن مروان ، وكان المهلب بن ابي صفرة مشغولا بقتال الازارقة .

ب — التحليل الادبي

اقسام الخطبة وافكارها العامة

لانجد في هذه الخطبة أقساماً واضحة مرتبة بحسب الافكار ، كما أننا لانجدها تمشى واصول الخطابة في ذلك العصر ، فهي لم تبدأ بحمد الله والصلاة على رسوله ، على ماجرت به عادة الخطباء في ذلك الحين ، وإنمـا بدئت بالشعر دون تمهيد ، ولم يكن افتتـاح الخطب بالشعر معهوداً اذ ذاك ، وكانت غاية الحجـاج من هـذا الابتداء إلقـاء الرعب في نفوس أهـل الكوفة وفرض شخصيته المخيفة عليهم وحملهم على طاعة بني أمية ، فخطبته جملة من الاشعار والجمل المتتابعـة لاغاية لهـا إلا بث الرعب في نفوس اهل الكوفة وإفهامهم أنه سيتبع خطة البطش وحدها ، وانه اهل لهذه السياسة ، فهو الرجل المخوف القوي البطش الذي اختاره امير المؤمنين لاخضاع اهـل العراق وتوجيههم لمحاربة الازارقة ، فلم يُعن الحجاج بأن يبين لأهل العراق لمَ وجبت عليهم طاعة الامويين ، فمـا عليهم إلا الطاعة العمياء ، وايس لمن لايذعن لأمر الخليفة الا السيف . فلم ينهج الحجاج نهج زياد بن ابيه قبـله في تسويغ خلافة بني أمية وفي اتخاذ اللين تارة والشدة اخرى ، وانما اختار الشدة وحدها .

العاطفة

تصور لنا هذه الخطبة خير تصوير نفسية الحجاج القوية المنيفة التي تميل الى البطش وسفك الدم وفرض النظام الدكتاتوري المطلق ، وتكشف لنا عن نفس بدوية جافية لاتعرف المداراة والمصانعة والملاينة وانما تعرف المصارحة والمجاهرة بالرأي . والعاطفة التي تمثلها لنا هذه الخطبة هي عاطفة النقمة

---

(١) ابن نهية رجل كان على شرطه البصرة قبل الحجاج .

على اهل العراق، اهل الشقاق والنفاق، الذين تخلوا عن نصرة المهلب بن ابي صفرة في قتاله مع الخوارج، والذين ظاهروا المعارضين لبني امية اكثر من مرة. ونستشف ايضا من هذه الخطبة شعور الاعتداد القوي بالنفس الذي كان يحمل الحجاج على الحديث عن نفسه واطراء مناقبه وكفاءته للاعباء الجسام التي انيطت به .

الاسلوب

لاحاجة بنا الى بيان مافي الفاظ الخطبة من الجزالة والفخامة وقوة الجرس، ولاريب انها كانت تساقط في مسامع اهل الكوفة تساقط الجلمود من الصخر، والطابع البدوي الجافي ظاهر في هذه الالفاظ، وما يبدو لنا من غرابة بعضها مرده الى هذه البداوة كألفاظ : حطم، وضم، عصلي، دوي، عرد، الشنان، الخ ...

اما الجمل فيغلب عليها القصر والايجاز لان الحجاج لم تكن غايته الاقناع والجدل فيطيل الجمل ويفصل القول وانما كانت غايته التأثير والارهاب ولذا جاءت الجمل قصيرة، موجزة، بليغة، تشبه في هذا الاسلوب الخطابي في القرآن الكريم . وهذه الجمل تعتمد على التوازن والترادف : ولقد فررت عن ذكاء، وفتشت عن تجربة ..، فوجدني أمرها عوداً، واصلبها مكسرا .. . ما اقول إلا وفيت، ولاأهم إلا أمضيت، ولا أخلق إلا فريت ... وتعتمد ايضا على أساليب التوكيد إما بتكرار معنى الجملة وإما باستعمال ادوات التأكيد والقصر : إني لأرى، وإني لصاحبها، إني والله، والله لأحزمنكم، وإني والله ما أقول إلا وفيت الخ ..

والحجاج مصور بارع، يحسن، عرض افكاره عرضاً حسياً يصل منه الى التأثير في النفوس تأثيراً قوياً، وهكذا نجده يحشد الصور البيانية حشداً في هذه الخطبة، تارة يصطنع التشبيه : (ولا يغمز جانبي كتغماز التين، والله لاحزمنكم حزم السلمة، ولاضربنكم ضرب غرائب الابل، فإنكم لكأهل قرية ...)، وتارة يجنح الى الاستعارة : (إني لأرى رؤوساً قد اينعت، فوجدني أمرها عوداً، واضطجعتم في مراقد الضلال، الخ ..) وتارة يأتي بالكناية : (انا ابن جلا، الدماء بين العمائم واللحى، مايقعقع لي بالشنان، ماأخلق إلا فريت، الخ ..) .

وأسلوب الخطبة بصورة عامة يدل على براعة الحجاج الخطابية وخبرته النفسية، فإنه وقف على منبر الكوفة موقفاً مسرحياً موفقاً، لاث عمامته وتقلد سيفه وتنكب قوسه ثم مكث برهة لايتكلم حتى يلفت أنظار الناس جميعاً إليه ويسترعي انتباههم ويحملهم على الاصغاء والسكون، حتى اذا أخذ منهم الضيق واستبد بهم الفضول، واصبحوا كلهم آذاناً مرهفة، اذا به يحسر عنه اللثام ويطالعهم

بسجنته الخرفة الكالحة ويفجؤهم ببيت سحيم بن وثيل ، ثم يصور لهم نفسه بصورة الطاغية المتعطش الى سفك الدم المتلهف الى ضرب الأعناق ، ويصورهم بصورة ساخرة يشيع فيها التهكم ، صورة الثمار اليانعة الناضجة التي آن قطافها ، فيملأ نفوسهم رعباً وهلعاً . وكان هذا عين ما ينشده لأنه ادرك ان العراقيين لا ينال منهم الا العنف والبطش والارهاب ، وهاهو ذا زياد بن ابيه قبله يسبقه الى اخضاع العراقيين ورياضة نفوسهم المتمردة باصطناع القوة والعنف فيفلح في سياسته هذه ، فلمَ لا يقتدي به الحجاج ويسلك مسالكه في البطش والعنف ، بل ان زياداً كان يجنح احياناً الى الرحمة واللين ، اما الحجاج فلم يعرف الا القسوة والعنف فقط ، حتى زعموا ان صرعاه جاوزت مائة وعشرين الفاً وانه مات وفي حبسه خمسون الف رجل وثلاثون الف امرأة ، وحتى قال الحسن البصري : « تشبه زياد بعمر فأفرط ، وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس . »

والطابع الغالب على هذه الخطبة هو طابع البداوة ، سواء في الألفاظ ، اوفي الاستشهاد بالابيات البدوية ، او في الصور البيانية المنتزعة من البيئة البدوية (القعقعة بالشنان ، حزم السلمة ، ضرب غرائب الابل ، الخ ..) اوفي صراحة العبارات ، وعنف اللهجة . وهذا الطابع البدوي ينم عن نفسية الحجاج المتبدية الجافية ، وعلى الرغم من ان الحجاج كان حافظاً للقرآن الكريم ، واقفاً على الثقافة الاسلامية ، فإن نفسه لم تتأثر تأثراً عميقاً بالقرآن والتعاليم الاسلامية ، يدلنا على ذلك استهتاره بحرمة الكعبة وايذاؤه الصحابة وسفكه دماء الابرياء ؛ وكذلك لم يكن للقرآن كبير اثر في الفاظ الحجاج البعيدة عن الرقة والعذوبة ، ولكن الحجاج انتفع من ثقافته الاسلامية في تضمين الآيات القرآنية المؤيدة لأفكاره واقتباسها ، صنيعه في هذه الخطبة وفي خطبته بمكة على أثر مقتل ابن الزبير حين فاضل بين آدم وبين ابن الزبير ، وفي محاكاة الأسلوب الخطابي في القرآن بإيراد الجمل الخطابية القصيرة ومحاكاة العبارات القرآنية كقوله في خطبة له : يوم الزاوية ، وما يوم الزاوية ، .. يوم دير الجماجم ، وما يوم دير الجماجم ، محاكاة لقوله تعالى : القارعة ، ما القارعة . وقد تصل به هذه المحاكاة الى تقليد السجع القرآني كما في خطبة دير الجماجم هذه .

قيمة الخطبة ومنزلة الحجاج الأدبية

تعطينا هذه الخطبة صورة صادقة لفن الحجاج الخطابي وبراعته البيانية . والحق انه كانت للحجاج شخصية ادبية قوية إلى جانب شخصيته السياسية والادارية ، وقد رأيناه يبدأ حياته بتعليم القرآن ، ولاشك ان ثقافته اللغوية والادبية كانت واسعة ، يدلك على ذلك قول الاصمعي : « اربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل : الشعبي ، وعبد الملك بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، وابن القرية ، والحجاج

أفصحهم » ، وانه هم بقتل يحيى بن يعمر حين اتهمه باللحن ، وان ابا عمرو بن العلاء قال فيه : « لم أر قروين أفصح من الحسن البصري والحجاج » وكثرة استشهاده بالشعر في خطبه تدلنا ايضاً على اتساع ثقافته الادبية ، وكان لذلك يقرب الشعراء ويكرمهم وكان احظاهم عنده جرير .

وتتجلى لنا براعة الحجاج البيانية في تصرفه الغريب بالأفكار وابتكاره الصور الجديدة والمعاني المستحدثة المستطرفة ، في شتى الموضوعات التي كان يطرقها ، فاذا تهيب جنده قذف الكعبة بالمنجنيق جاءهم بآيات من القرآن الكريم فسرها لهم تفسيراً خاصاً جعلهم يمضون في عملهم ، واذا هال الناس مقتل ابن الزبير وازن بينه وبين آدم حين عصى ربه ليقول لهم إن آدم اكرم على الله من ابن الزبير، ومع ذلك فقد طرده من الجنة ، وان الجنة اعظم حرمة من الكعبة ، واذا أرجف اهل العراق بموته فرحين اظهر لهم ان هذا كل مايصبو إليه ، وان الله مارضي بالتخليد الا لابليس أهون خلقه عليه. ويدلنا على حسن تصرفه وقوة حجته قول مالك بن دينار فيه : « ربما سمعت الحجاج يخطب ويذكر ماصنع به اهل العراق وما صنع بهم ، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه وأنه صادق ، لبيانه وحسن تخلصه بالحجج . (1) »

وقد أعان الحجاج على قوة التأثير خبرته بالنفوس ، فكان يحسن الاتيان بالصور والتعابير ذات الوقع البعيد في نفوس السامعين ، كما كان يستعين بالقرآن والشعر والأمثال لهذه الغاية، وكان يضيف الى ذلك طرق تمثيلية بارعة ، يذكر المبرد انه ، كان يقف على المنبر وعلى رأسه عمامة يغطي بها أكثر وجهه ، متقلداً سيفاً ، متنكباً قوساً ، متلفعاً بمطرفة ، ثم يتكلم رويداً رويداً فلا يكاد يسمع ثم يتزيد في الكلام حتى يخرج يده من المطرفة ، ثم يزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من في المسجد .

هذه الميزات كلها أضفت على الحجاج شخصية ادبية قوية كان لها الأثر البيّن في ارتقاء الخطابة في العصر الأموي .

* * *

نموذج للدراسة من خطب الحجّاج

مرض الحجاج ففرح أهل العراق وأرجفوا بموته (2) ، فتحامل حتى صعد المنبر فخطب الخطبة التالية :

---

(1) البيان والتبيين ج ١ : ٣٠١ . (2) ارجف القوم في الشيء : خاضوا فيه ، وأكثروا من الأخبار السيئة المختلقة حتى يضطرب الناس لها .

إنَّ طائفةً من أهلِ العراقِ، أهلِ الشقاقِ والنفاقِ، نزغ (٢) الشيطانُ بينهم فقالوا: مات الحجّاج ومات الحجّاج، فمَهْ (٣)! وهل يرجو الحجّاج الخيرَ إلا بعدَ الموتِ! والله ما يسرُّني ألاّ أموتَ وأنّ لي الدنيا وما فيها. وما رأيتُ اللهَ رضيَ بالتخليد إلاّ لأهون خلقه عليه إبليسَ. ولقد دعا اللهَ العبدُ الصالحُ (٤) فقال: «ربِّ اغفرْ لي وهبْ لي مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ بعدي»، فأعطاه ذلك إلاّ البقاءَ. فما عسى أن يكونَ أيُّها الرجلُ، وكلُّكم ذلك الرجل! كأنّي والله بكلِّ حيٍّ منكم ميّتاً، وبكلِّ رطبٍ يابساً، ونُقِلَ في ثيابِ أكفانه إلى ثلاثِ أذرعٍ طولاً في ذراعٍ عرضاً (٥)، وأكلتِ الأرضُ لحمَه ومصَّتْ صديدَه (٦)، وانصرف الحبيبُ من ولدِه يقسِمُ الخبيثَ من مالِه. إنّ الذين يعقلون يعلمون ما أقولُ [عيون الأخبار ج ٢ : ٢٤٤]

* * *

مصادر

١ — كتب التاريخ المشهورة
٢ — الكامل لأبي العباس المبرّد، ج ١ : ٢٢٣
٣ — البيان والتبيين للجاحظ، ج ٢ : ١١١، ١١٤، ١٣٤، ٢١٨
٤ — العقد الفريد لابن عبد ربه، ج ٤ : ١١٥. (ط لجنة التأليف)
٥ — الحجاج بن يوسف : عمر ابو النصر، بيروت.
٦ — الحجاج، الحاكم والخطيب : ابراهيم الكيلاني، دمشق.
٧ — دروس الأدب لخلدون الكناني، ص : ١٩٧.
٨ — حياة الحجاج بن يوسف : جان بيريه، باريس.

(١) نزغ الشيطان بين القوم : أفسد وأغرى ووسوس إليهم. (٢) مه : اسم فعل بمعنى اكفف او انكفف. (٣) المراد بالعبد الصالح هنا سليمان عليه السلام والآية هي الآية ٣٥ من سورة (ص) (٤) كناية عن القبر (٥) الصديد : القيح.

أبو حمزة الخارجي

خطب ابو حمزة بمكة خطبة طويلة تناول فيها سيرة الخلفاء الراشدين وبني أمية واحداً واحداً ثم قال :

يا أهلَ مكّةَ ، تُعيّرونني بأصحابي ، تزعُمون أنّهم شبابٌ ، وهل كان أصحابُ رسولِ الله صلّى اللهُ عليه وسلّم إلا شباباً . نِعْمَ الشبابُ مُكْتَهِلين (١) ، عَمِيَةٌ عن الشرِّ أعينُهم (٢) ، بطيئةٌ عن الباطلِ أرجلُهم . قد نظرَ اللهُ إليهم في آناءِ الليلِ مُنْثنيةً أصلابُهم بمثاني القرآنِ (٣) ، إذا مرَّ أحدهم بآيةٍ فيها ذِكْرُ الجنّةِ بكى شوقاً إليها ، وإذا مرَّ بآيةٍ فيها ذِكْرُ النارِ شَهَقَ شَهْقةً كأنَّ زَفيرَ جهنّمَ في أُذُنيه (٤) . قد وَصَلُوا كَلالَ ليلِهم بكَلالِ نهارِهم (٥) ،

---

(١) اكتهل الرجل : صار كهلا . والكهل من كان سنه بين الثلاثين والخمسين ويريد انهم شباب ناضجون ، مكتهلون في ايمانهم وفي جهادهم . (٢) العمية : مؤنث العَمِيْ ، وهو الاعمى ، والجمع عَمُون . هؤلاء الرجال لايعرفون الشر ولا يقدمون على الباطل . (٣) الآناء ، ج أنْي وأناء وإنْي : الساعة من الليل . الأصلاب ، ج صُلب : عظم في الصدر يمتد من الكاهل الى العَجْب . مثاني القرآن : قسمت سور القرآن اربعة أقسام : السبع الطوال ، والمئون (وهي مازادت آياتها على المائة ، والمثاني (وهي التي آيها دون المائة) ، والمفصل (وهي ماولي المثاني من قصار السور) ، ويريد أن الخوارج ينفقون الليل في قراءة القرآن . (٤) لشدة خوفه من النار يتوهم انه يسمع زفير جهنّم . (٥) الكلال : التعب والاعياء . يريد ان حياتهم تعب متصل .

أَنْضاء عِبادةٍ (١)، قد أكلت الأرضُ جِباهَهم وأيْديَهم ورُكَبَهم (٢). مُصْفَرَّةٌ ألوانُهم، ناحلةٌ أجسامُهم، من كثرة الصِّيام، وطُول القِيام، مُسْتَقِلُّون لذلك في جَنْبِ الله، مُوفُون بعهد الله، مُسْتَنْجِزُون لوعد الله (٣). إذا رَأَوْا سِهام العَدُوّ قد فُوِّقَت (٤)، ورماحه قد أُشْرِعَت (٥)، وسُيوفه قد انْتُضِيَت (٦)، وبَرَقت الكَتيبةُ ورَعَدت بصواعق الموت، استَهانوا بوعيد الكتيبة لِوعد الله (٧)، فمضى الشابُّ منهم قُدُماً حتى تَخْتَلِف رِجلاه على عُنُق فرسه (٨)، قد رُمِّلَت محاسنُ وَجْهه بالدِّماء (٩)، وعُفِّر جَبينُه بالثَّرى (١٠)، وأسرع إليه سِباعُ الأرضِ، وانْحطَّت عليه طيرُ السَّماءِ (١١). فكم من مُقْلَةٍ في مِنقارِ طائرٍ، طالما بَكى صاحبُها من خَشْيَة

---

(١) أنضاء، ج نِضْو: المهزول، وأنضاه: أهزله. هؤلاء القوم أنضتهم كثرة العبادة. (٢) هذا التعبير استعارة مكنية تصوّر كثرة صلاتهم فكأن الأرض قد أكلت جباههم وايديهم وركبهم لكثرة احتكاكها بها. (٣) مستقلون لذلك في جنب الله: يجدون كل هذا أقل مما توجب عليهم اداؤه لله تعالى. مستنجزون لوعد الله: أن يغفر لهم ويؤجروا على عملهم. وكأن ابا حمزة ينظر الى قوله تعالى «مُحَمَّدٌ رسولُ اللهِ والذين مَعَه أشدّاءُ على الكفّار رُحَماءُ بينَهم تراهم رُكَّعاً سُجَّداً يبتغُون فضلاً من اللهِ ورِضواناً، سِيماهُم في وُجوهِهم من أثرِ السُّجود... وَعَدَ اللهُ الذين آمَنُوا وعمِلوا الصالحاتِ منهم مَغفِرةً وأجراً عظيماً.» (الفتح ٢٩). (٤) فوّق السهم: جعل له فُوقاً، وهو موضع الوتر من السهم، اي اذا أعدّت السهام للرمي. (٥) أشرع الرمح نحوه: سدّده إليه. (٦) انتضيت السيوف: استلّت من أغمادها. (٧) برقت الكتيبة ورعدت بصواعق الموت: استعارة يراد بها ان الكتيبة قد أعدّت عدّتها للهجوم والقتال، فإذا رأوا هذا استخفوا بوعيد الكتيبة استنجازاً لوعد الله بالمغفرة والجزاء. (٨) قدماً: مضوا في الحرب متقدمين لا يعرجون على شيء. (٩) رمّلت: لطّخت (١٠) عفره بالثرى: مرّغه بالتراب. (١١) السباع: كل ما أكل اللحم من الوحش والطير. اسرعت الوحوش والطيور لافتراس جثة الخارجي المستشهد.

الله (١)، وكم من كفٍّ بانَتْ عن مِعْصَمِها، طالما اعتمدَ عليها صاحبُها في سُجوده (٢)، وكم مِن خدٍّ عَتيقٍ، وجَبينٍ رَقيقٍ، قد فُلِق بعَمَد الحديدِ (٣). رحمةُ اللهِ على تلك الأبدانِ، وأدخلَ أرواحَها في الجِنانِ. [العقد الفريد ج ٤ : ١٤٤]

* * *

ابو حمزة، المختار بن عوف الأزدي (٤)، من زعماء الخوارج الإباضية ونساكهم، وكان مقر اكثرهم بالبصرة. وفي اواخر عهد بني أمية ظهر في حضرموت خارجي يدعي عبد بن يحيى الكندي الملقب بطالب الحق. ثار على بني أمية في حضرموت ودعا لنفسه بالخلافة ثم تغلب على اليمن، وكان قد اتصل بجماعة من الاباضية في البصرة ووافقوه على الخروج معه؛ وكان منهم ابو حمزة الخارجي. وبعد ان استقر بصنعاء وافته الشراة من كل جانب وظهر أمره فأرسل ابا حمزة في عدد من الخوارج الى مكة، فبلغوها والناس بعرفات، سنة ١٢٩ هـ، وكان جماعة ابي حمزة يرفعون العمائم السود على رؤوس الرماح، فأفزعوا الناس، وكان والي مكة والمدينة من قبل مروان بن محمد عبد الواحد بن سليمان فكره قتال الخوارج في مكة وأخلاها لهم فدخلوها بغير قتال، وخطب فيها ابو حمزة خطبته المشهورة التي اوردنا القسم الأخير منها، وفيها يوضح رأي الخوارج في الخلفاء الراشدين وفي ملوك بني امية واحداً، واحداً، وفيها يصور حياة الخوارج أصدق تصوير. (راجع تتمة الخطبة في البيان والتبيين للجاحظ، ج ٢ : ١٠٠)

ومضى عبد الواحد الى المدينة فجهز من أهلها جيشاً جعل عليه عبد العزيز بن عبد الله، وخرجوا لقتال الخوارج فجرت بينهما موقعة هائلة بموقع يقال له قُدَيد أسفرت عن انتصار الخوارج وذلك عام ١٣٠ هـ. ثم سار ابو حمزة فدخل المدينة دون مقاومة وخطب في مسجدها خطبة قوية ندد فيها بأهل المدينة وهاجم بني أمية وذكر مساوئهم.

ثم وجه ابو حمزة جموعه الى الشام فأرسل مروان بن محمد للقائهم جيشاً يفوقهم عدداً عليه عبد الملك بن عطية، والتقى الجمعان بوادي القرى فانهزم الخوارج وقتل منهم عدد كثير، ثم توجه ابن عطية الى مكة فلاقي ابا حمزة بظاهرها ونشب قتال عنيف أبلى فيه ابو حمزة وأصحابه بلاءً حسناً ولكن

(١) هذه المقلة التي انتزعها الطائر من جثة الخارجي طالما استعملها للبكاء من خشية الله.

(٢) بانت : انفصلت. (٣) العتيق : الجميل النبيل.

(٤) يذكر الجاحظ ان اسمه يحيى بن المختار (البيان والتبيين ج ٢ : ١٠٠)

جيش الامويين تغلب عليهم بمعونة أهل مكة ، فقتل ابو حمزة وقاتلت معه امرأته حتى قتلت في اواخر عام ١٣٠ هـ . ثم تابع ابن عطية مسيره حتى بلغ صنعاء فتغلب على عبد الله بن يحيى وقتله .
وقد رثى عمرو بن الحصين قتلى الخوارج بقصيدة طويلة مطلعها :

هبت قبيل تبلج الفجر   هند تقول ودمعها يجري

وفي خطبة ابي حمزة التي ذكرناها نجد لوحة رائعة صادقة تمثل حياة الخوارج الذين لاهم لهم الا عبادة الله والا القتال نصرة لعقيدتهم وذوداً عن مبادئهم ، وهم يتلهفون الى الاستشهاد في سبيل الله ، واثقون من ان الله سيجزيهم على حسن بلائهم خير جزاء .

مميزات أدب الخوارج

اول مانلحظه في أدب الخوارج أنه قوي ، قوي في عباراته وأسلوبه ، قوي في معانيه وأفكاره ، قوي في العاطفة التي تنبثق عنها وتشيع فيه . وهو يستمد قوته هذه من منبعين : الايمان الديني القوي والنفسية الاعرابية المنيفة . كانت كثرة الخوارج من القبائل العربية المقيمة بالبادية فطبعت هذه البيئة نفوسهم بطابع القوة والصراحة والجرأة وتعشق الحرية ، وطبعت أدبهم كذلك بطابع القوة والعنف والصراحة . ولكن نفس الخوارج لم تخلص لأثر البادية وحدها بل كان للقرآن والاسلام فيها أثر أعمق وأقوى ، فقد خالطت التعاليم الاسلامية قلوبهم وأشربتها دماؤهم ، وحفظوا القرآن وفهموه فهماً قريباً لافلسفة فيه ولاتعمق فأرادوا أن يكون للمسلمين حكومة قائمة على الشورى ، تستمد دستورها من روح الدين الاسلامي ومن كتاب الله . ولما لم يروا في دولة بني أمية مايحقق بغيتهم ثاروا عليها وقاتلوها قتالاً عنيفاً وأزعجوا الخلفاء الامويين ازعاجاً متصلاً طوال مدة حكمهم .

هذه العقيدة الدينية القوية هي التي تفسر لنا سر استبسال الخوارج في قتالهم أعداءهم وشجاعتهم المثالية حين يخوضون ساحات الوغى ، وتعجلهم الاستشهاد في الحرب لينالوا من ورائه رضوان الله ومغفرته ، حتى كان منهم الذي يقول والسيف يخترق صدره : وعجلت اليك رب لترضى ، وكان زعماء الخوارج في الغالب من الأتقياء والحفاظ والمحدثين . وهذه العقيدة الدينية القوية نجد أثرها واضحاً في ادب الخوارج ، نجد أثرها في هذه النغمة الصوفية الحزينة الصادقة التي تشيع في أشعار الخوارج وخطبهم ، ونجد أثرها في تغنيهم بالمثل العليا التي دعا اليها الاسلام ، وفي اقتباسهم المعاني الاسلامية وتضمينهم آيات الذكر الحكيم حتى تكاد لاتخلو خطبة لهم من تضمين آية او اقتباس معنى قرآني ، ونجد اثرها ايضا في العاطفة

الصادقة التي تتجلى لنا في أدبهم، عاطفة قوية عارمة مندفعة تملأ آثارهم حياة وحرارة وقوة ولاريب انا لاحظنا كل هذه الآثار حين قرأنا خطبة ابي حمزة السابقة ، وهي نموذج رائع للخطابة الخارجية.

على ان الخوارج ، على قوة عقيدتهم التي كانت تفرق احياناً بين افراد القبيلة الواحدة وتحملها على ان يقاتل بعضها بعضاً ، لم يستطيعوا ان يتخلصوا تماماً من اثر العصبية القبلية الذى نلمسه ايضاً في بعض آثارهم .

وقد اخرج لنا انضمام اثر الثقافة القرآنية الى النشأة البدوية ادباً خارجياً يجمع الى القوة وصدق العاطفة وحرارة اللهجة فصاحة اللفظ وقوة البيان وحسن التعبير ، وقد ذاع عنهم دلك حتى قال فيهم عبيد الله بن زياد : « لكلام هؤلاء أسرع الى قلوب الناس من النار الى اليراع » وقال عبد الملك في خارجي جادله في مذهبه : « لقد كاد يوقع في خاطري أن الجنة خلقت لهم وأني أولى منهم بالجهاد».

هذه الميزات كلها طبعت الادب الخارجي بطابع شخصي قوي متميز جعله جديداً على العرب كل الجديد . ولكن الخصومات السياسية والأهواء المذهبية لم تسمح لنا بالوقوف على الشيء الكثير من ادب الخوارج فلم يصل إلينا منه إلا قلة لاغناء فيها مبعثرة في كتب الادب والتاريخ .

* * *

مصادر

١ ـ انظر تاريخ الخوارج في أمهات كتب التاريخ كتواريخ الطبري والمسعودى وابن الأثير.

٢ ـ الفَرق بين الفِرق : عبد القاهر البغدادي.

٣ ـ ملخص تاريخ الخوارج : محمد شريف سليم.

٤ ـ الأغاني للاصفهاني (في الكلام على عبد الله بن يحيى) ، ج ٢٠ : ٩٧.

٥ ـ شرح نهج البلاغة : ابن ابى الحديد.

٦ ـ الكامل للمبرّد ، ج ٢ : ١٠٥ وما بعدها ، طبع الخيرية.

٧ ـ ادب الخوارج في العصر الاموي : سهير القلماوي .

٨ ـ دائرة المعارف الاسلامية :(مادة خوارج) .

الكتابة

في

عصر صدر الإسلام وبني أمية

أصل الخط العربي وتطوره لسنا نعرف على وجه اليقين مصدر الخط العربي وأصله، ويرى بعض مؤرخي العرب القدماء ان الخط توقيفي من عند الله وأن اول من وضع الخط العربي والسرياني وسائر الخطوط آدم قبل موته بثلثمائة سنة (١)، واكثر مؤرخي العرب على انه مأخوذ من الخط المسند الحميري، جاء في أدب الكتاب للصولي قوله: «سئل المهاجرون من أين تعلّموا الكتاب (٢) فقالوا: من أهل الحيرة، فسئل أهل الحيرة من أين تعلموا فقالوا: من أهل الأنبار ..»، ويذكر الفيروز بادي في المحيط أن العرب سمت خطها بالجزم لأنه جزم من المسند الحميري. إلا ان بعض المحدثين يستظهر ان الخط العربي مستمد من الخط النبطي المتأثر بالكتابة الآرامية.(٣) وعلى كل عرف الخط الذي كان العرب يكتبون به في صدر الاسلام بالخط الحجازي، ووجدت فيما بعد أنواع أخرى من الخط أشهرها الكوفي، ومنه تفرعت اكثر انواع الخط العربي المعروفة.

وكانت الكتابة في بادئ الامر لاتلتزم الاعجام ولا النقط (الشكل)، ولما خيف ان تقع في القرآن اللحن والتحريف وضعت في اوائل عصر بني أمية نقط ملونة للدلالة على الحركات المختلفة،

---

(١) العقد الفريد، ج ٤ : ١٥٦ (٢) الكتاب : الكتابة (٣) انظر مقالا في اصل الخط العربي نشره الاستاذ خليل يحيي نامي في مجلة كلية الآداب المصرية، مجلد ٣، ج ١، سنة ١٩٣٥.

وذلك على يد ابي الأسود الدؤلي (المتوفى سنة ٦٩ هـ) وتلامذته ، ثم وضعت نقط الاعجام على يد نصر بن عاصم (المتوفي سنة ٨٩هـ) ويحيى بن يَعْمُر (المتوفي سنة ٨٩هـ).

ولكن النقط والشكل كانا مقصورين على كتابة المصاحف في الغالب ، وكان يعاب على الكاتب أن يحلي كتابته بالشكل والنقط ، ويروى عن سعيدبن حميد الكاتب قوله : « لأن يُشكِل الحرف على القارئ أحب إليّ من أن يعاب الكتاب بالشكل » .

الكتابة في العصر الجاهلي كانت الكتابة في العصر الجاهلي بسيطة محدودة لعدم توافر دواعيها ولقلة الملمّين بها ، وكانت الأمية شائعة بين العرب ولاسيما بين البداة منهم . ولكن لم يكن العرب قبل الاسلام يجهلون الكتابة جهلاتاماً ، ولم يكونوا كلهم أميين ، وفي الشعر الجاهلي مايؤيد معرفة الجاهليين بالكتابة اذ كانوا كثيرا مايشبهون رسوم الديار بالكتابة والرقش ، وقد مر بك قول المرقّش :

الدار قفرٌ والرسومُ كما رقّش في ظهر الأديم قلم

وقال لبيد :

وجلا السيولُ عن الطُّلول كأنها زُبُرٌ تُجِد متونَها أقلامُها

وفي القرآن الكريم إشارات كثيرة الى الكتابة مما لايدع مجالا للشك في معرفة الجاهليين بها وقد أقسم الله تعالى بالقلم في قوله : « ن . والقلم وما يسطُرون » . بيد أننا لاينبغي ان نغالي في معرفة العرب قبل الاسلام بالكتابة ، فهذه الكتابة لم تعرف الا في حواضر التجارة ، كاليمن والحيرة والحجاز ، ولذلك كانت اغراضها تجارية بحتة . اما الكتابة الفنية فلم تعرف في ذلك العصر ؛ بل ان العارفين بالكتابة في الحجاز ، حاضرة التجارة ، كانوا قلة ، فيذكرون ان الاسلام جاء وفي قريش سبعة عشر رجلا من العارفين بالكتابة وكان في الأزد والخزرج في يثرب عدد قليل من العارفين بالكتابة تعلموها من اليهود ، وكانت معرفة كل هؤلاء بالكتابة معرفة اولية بسيطة لاتسلم من الاخطاء ، ولم يصلنا من كتابة الجاهليين شيء نطمئن اليه لعدم شيوع التدوين في ذلك العصر .

الكتابة في العصر الاسلامي والأموي لما جاء الاسلام توافرت دواعي الكتابة لاحتياج الرسول عليه السلام اليها في كتابة الوحي وفي ارسال الكتب الى الملوك والأمراء ورؤساء القبائل يدعوهم فيها الى اعتناق الاسلام ، وفي كتابة العهود والمواثيق والمحالفات فأقبل كثير من الصحابة على تعلمها ، وكان القرآن منذ بدء نزوله يحث على معرفتها، يقول مثلا في سورة

العَلَق : « إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من عَلَقٍ ، اقرأ وربُّك الأكرمُ ، الذي علَّم بالقلم . » ، وكان يأمر باتخاذ الكتابة في شؤون التعامل : « يا أيها الذين آمنوا اذا تداينْتُم بِدَيْنٍ إلى أجلٍ مسمى فاكتبوه ، وليكتُب بينكم كاتبٌ بالعدل ..» (البقرة آ ٢٨٢) . وكان الرسول ايضا يحث المسلمين على تعلمها حتى انه جعل فداء الاسرى العارفين بالكتابة ، في غزوة بدر ، ان يعلموا عشرة من صبيان المدينة الكتابة . بل انه كان يحض على تعلم بعض اللغات غير العربية ، ففي صحيح البخاري ان النبي قال لزيد بن ثابت : إني اكتب الى قوم فأخاف أن يزيدوا عليّ او ينقصوا فتعلم السريانية ؛ ففعل .

ثم سار الخلفاء بعد الرسول على غراره في تشجيع الكتابة ، ونشطت الكتابة وكثرت الحاجة اليها بقيام الفتوح ، واتخذ الخلفاء الكتاب لتدوين الرسائل ، وكثيراً ما كانوا يكتبون رسائلهم بانفسهم او يملونها إملاءً . وفي عهد عمر احتيج الى انشاء الدواوين فأنشأ ديوان العطاء لتوزيع الأعطيات على المسلمين . ويذكر الجهشياري وابن الطقطقي (١) ان عمر أخذ نظام الدواوين عن الفرس .

وفي العصر الأموي ازدادت الدولة الاسلامية اتساعاً وازدادت الحياة العامة تعقداً واتصل العرب بالأمم الأعجمية فاقتبسوا عنهم كثيراً من مظاهر الملك ونظم الادارة ، ولم يعد في وقت الخليفة متسع للكتابة فصار يكل رسائله الى ديوان خاص فأوجد معاوية ديوان الرسائل وديواناً للخراج وآخر للخاتم . وكان يقوم على شؤون الدواوين جماعة من الكتاب كان لبعضهم كبير الأثر في ارتقاء فن الترسل والكتابة ، وكان لكل منهم اختصاصه فمنهم كاتب الرسائل وكاتب الخراج وكاتب الجند وكاتب الشرطة وكاتب القاضي ، وارفعهم منزلة كاتب الرسائل .

وكانت الرسائل تكتب بالعربية ، اما الخراج فكان يكتب في كل مصر بلغته ، فكانت لغته الفارسية في فارس والعراق ، والرومية في الشام ، واليونانية في مصر . يقول الجهشياري في كتابه « الوزراء والكتاب » (ص ٣٨) : « ولم يزل بالكوفة والبصرة ديوانان ، احدهما بالعربية لإحصاء الناس وأعطياتهم ، وهذا الذي كان عمر قد رسمه ، والآخر لوجوه الأموال بالفارسية ، وكان بالشام مثل ذلك ، احدهما بالرومية والآخر بالعربية . فجرى الامر على ذلك الى ايام عبد الملك ابن مروان » .

---

(١) الوزراء والكتاب للجهشياري : ص ١٦ ، والفخري في الآداب السلطانية لابن الطقطقي : ص ٧٢ .

وفي عهد عبد الملك ارتقى نظام الدواوين وقفزت الكتابة قفزة اخرى بتعريب ديوان الخراج، ويروى ان الحجاج هو الذي اوعز الى كاتبه صالح بن عبد الرحمن بنقل الدواوين الى العربيـة في العراق وتم ذلك سنة ٧٨ هـ ثم أمر عبـد الملك بتعريب ديوان الخراج في الشام وفارس ، يذكر صاحب العقد ان عبد الملك لما وجد من كاتبه سَرْجون الرومي اهمالا وتوانياً في عمله قال لسليمان ابن سعد كاتبه على الرسائل : ان سرْجون يدل علينا بصناعته ، وأظن انه رأى ضرورتنا إليه في حسابه ، فما عندك فيه من حيلة ؟ فقال : بلى ،لوشئتَ لحولت الحساب من الرومية الى العربية .قال: افعل . قال : أنظرني أُعانِ ذلك . قال : لك نَظِرة ماشئت ، فحول الديوان ، فولاه عبـد الملك جميع ذلك . ثم جاء الوليد بن عبد الملك فأمر بنقل الدواوين في مصر الى العربية سنة ٨٧ هـ .

الى هؤلاء الكتاب ، وكتاب الرسائل خاصة ، تعزى نهضة الكتابة في العصر الاموي ، وكان رقيها الصحيح على يد عبد الحميد بن يحيى ، كاتب مروان بن محمد ، آخر خلفاء بني أمية . وقداشتهر من كتّاب الرسول علي بن ابي طالب وعثمان بن عفان ، وكانا يكتبان الوحي ، فإن غابا كتب أُبَي ابن كعب وزيد بن ثابت . وكان من كتاب الرسول في الشؤون الاخرى خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن ابي سفيان وغيرهما . وكان زيد بن ثابت وعثمان يكتبان لابي بكر ، وكان ممن يكتب لعمر بن الخطاب زيد وعبد الله بن الارقم ، وكان يلي ديوان الـكوفة ابو جَبيرة بن الضحّاك . وكان مروان بن الحكم كاتباً لعثمان بن عفان ، وممن كتب لعلي سعيد بن نمران وعبد الله بن جعفر.

واشتهر من كتاب بني أمية سعيد بن أنس الغساني كاتب معـــاوية ، وسَرْجون بن منصور الرومي كاتب يزيد ومروان وعبد الملك ، وحميد بن عبد الرحمن كاتب مروان بن الحكم ، وعبد الحميد الاصغر كاتب سليمان بن عبد الملك ، وعبد الحميد الاكبر وسالم كاتبا هشام بن عبد الملك . وقد تقلد عبد الحميد بن يحيى الكتـــابة لبني أمية منذ عهد هشام بن عبد الملك حتى زوال الدولة الاموية . ومع ان كثيراً من كتاب الدواوين كانوا من غير العرب فإنهم استطاعوا إتقان اللغـة العربية والثقافة العربية وضموا اليها ثقافتهم الاعجمية فاستطاعوا ان يرتقوا بفن الكتابة ارتقاءً عظيماً.

ولما عرفت الكتابة وشاعت في العصر الاموي شُرع بالتدوين والتـــأليف فألفت في العصر الاموي طائفة من كتب الادب والاخبار والتاريخ والكيمياء وغيرهـــا ، وبدأت حركة النقل والترجمة في اواخر هذا العصر الا ان حركة التدوين والتأليف والنقل لم تزدهر وتؤت أُكلها الا في العصر العباسي .

وقد صارت للكتاب في العصر الاموي آداب وازياء خاصة عرفوا بهـا ، قال ابراهيم بن محمد

الشيباني : « من صفة الكاتب اعتدال القامة ، وصغر الهامة ، وخفة اللهازم (١) ، وكثافة اللحية ، وصدق الحس ، ولطف المذهب ، وحلاوة الشمائل ، وحسن الإشارة ، وملاحة الزي . » وقال بعض بني المهلب لولده : « تزيوا بزي الكتاب فإن فيهم ادب الملوك وتواضع السوقة . » .

خصائص الترسل في العصر الاسلامي والأموي

اخذت كتابة الرسائل منذ عهد الرسول عليه السلام تعرف لها اصولاً وقواعد كثيرة حتى اصبحت على أيدي كتاب بني أمية الحذاق ، ولاسيما عبد الحميد ، فناً ناضجاً له مقوماته وطوابعه المميزة .

وقد جروا في بادىء الأمر على استفتاح الكتب بعبارة : باسمك اللهم ، فلما أنزلت سورة هود وفيها : (بسم الله مجراها ومرساها) صاروا يكتبون : بسم الله ، ثم نزلت سورة بني اسرائيل وفيها: (قل ادعوا الله وادعوا الرحمن) فصاروا يكتبون : بسم الله الرحمن ، ثم نزلت سورة النمل وفيها: (انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم) فاستفتح بها رسول الله عليه السلام وصارت سنة (٢).

وكان محمد عليه السلام يكتب في رسائله : من محمد رسول الله الى فلان ، وكان الذي يكتب يبدأ بنفسه فيقال : من فلان الى فلان ، دون مراعاة لتعظيم او تفخيم ، فيخاطب المفرد بصيغة المفرد والجمع بصيغة الجمع ، فلما جاء الوليد بن عبد الملك أراد أن يحذو حذو الفرس فأمر بتفخيم الكتابة وتجويد القراطيس وألا يكاتبه الناس بمثل مايكاتب به بعضهم بعضاً . وجرى خلفاء بني أمية على طريقة الوليد الا عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك .

وكانت الرسائل تبدأ غالباً بعبارة (السلام عليكم) او (السلام على من اتبع الهدى) ، ثم يأخذ الكاتب بحمد الله والصلاة على نبيه ، فإذا اراد الانتقال الى غرضه من الرسالة بدأه بقوله : أما بعد. وبعد أن يفرغ من غرضه يختم الرسالة بنحو مابدأها به من السلام .

وكان الطابع الغالب على الرسائل في عصر الرسول والراشدين إيثار الإيجاز ، وتخير الجزل من الألفاظ والفخم من التراكيب ، والبعد عن التهويل والتفخيم ، ومجانبة المبالغة والغلو ، وعدم تكلف الصناعة والتنميق ، وربما لم تخل الرسالة من السجع والازدواج . وكان أثر القرآن واضحاً في أسلوب الرسائل ومعانيها وأغراضها ، وربما تضمنت شيئاً من الشعر والأمثال .

على انه لم تبلغ الكتابة في صدر الاسلام مرتبة النثر الفني الراقي بل كان الترسل مازال في بدء نموه ورقيه . فلما جاء العصر الأموي ووجدت طبقة الكتاب ، وكتاب الرسائل خاصة ، تعقدت

---

(١) اللهزمتان : مضغتان في أصل الحنك . (٢) العقد الفريد ج ٤ : ١٥٨

الكتابة وصرفت اليها عناية كبيرة ، وصار الكتاب يتنافسون في الإجادة لينالوا الحظوة لدى الخلفاء ، وتأثر فن الكتابة بثقافة الكتاب الأعاجم ، وظهر اثر هذه العناية في أن الكتاب أخذوا يطيلون الرسائل ، ويفتنون في اختيار ألفاظهم وصوغ جملهم ، حتى قال فيهم الجاحظ : « ما رأيت قوماً أنفذ طريقة في الأدب من هؤلاء الكتاب ، فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ولا ساقطاً سوقياً » . واخذوا يراعون التناسب بين أجزاء الرسالة ، ويطيلون التحميدات، ويشققون الكلام ، وكانوا يتحرون جزالة الألفاظ ومتانتها ، والى ذلك اشار القلقشندي بقوله : « ... استعمل كتاب الدولة الأموية من الألفاظ العربية ما لم تستعمل مثله الدولة العباسية ، لأن كتاب الدولة الأموية قصدوا ما شاكل زمانهم الذي استفاضت فيه علوم العرب ولغاتهم حتى عدت في جملة الفضائل التي يثابر على اقتنائها ، والأمكنة التي نزلها ملوكهم من بلاد العرب ، والرجال الذين كانت الكتب تصدر إليهم ، وهم أهل الفصاحة واللسن والخطابة والشعر (١) » . وظل الأسلوب الغالب في الكتابة هو أسلوب الازدواج والتوازن الذي يخرج احياناً الى السجع ، دون ان يظهر في ذلك اثر التكلف والتصنع ، وظل اثر القرآن واضحاً في الكتابة من حيث أغراضها ومعانيها وأسلوبها ، وكان لعبد الحميد الكاتب الفضل الأول فيما أصابه فن الترسل من الرقي والازدهار.

* * *

(١) صبح الأعشى ج ٦ : ٢٩٧ .

نماذج من الرسائل والعهود

١ كتاب الرسول عليه السلام الى هرقل ملك الروم :

من مُحَمَّد رسول الله الى هِرَقْلَ عظيم الرُّوم ، سلامٌ على من اتَّبعَ الهُدَى. أمَّا بَعْدُ ، فإني أدعُوكَ بدِعايةِ الاسلام ، أسْلِمْ تَسلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أجْرَكَ مرَّتَين ، فإن تولَّيْتَ فإنَّ عليك إثمَ الأرِيسِيِّين . و « يا أهلَ الكِتاب تَعالَوْا إلى كلمةٍ سَواءٍ بيننا وبينكم ألاَّ نَعبُدَ إلاَّ اللهَ ولا نُشْرِكَ به شيئاً ولا يَتَّخِذَ بعضُنا بعضاً أرباباً مِن دُون اللهِ فإن تَوَلَّوْا فقولُوا اشْهَدُوا بأنّا مُسلِمون . »

٢ كتاب ابي بكر الى المسلمين بعهده بالخلافة الى عمر :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عَهِدَ به ابو بكرٍ ، خليفةُ مُحَمَّدٍ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، عندَ

---

١ — توليت : أعرضت . الأريسيون : الفلاحون والأكارون . يا أهل الكتاب ... تضمين للآية ٦٤ من سورة آل عمران ، والمراد بأهل الكتاب النصارى واليهود . كلمة سواء : كلمة حق مستوٍ أمرها . نشرك : نجعل له شريكاً . اربابا : آلهة .

٢ — الفاجر : الكثير المعاصي استعملت عليكم : وليت عليكم . فإن بَر . اذا كان ذا صلاح وخير .

آخرِ عهدِه بالدنيا وأولِ عهدِه بالآخرة، في الحالِ التي يؤمنُ فيها الكافرُ، ويتقي فيها الفاجرُ.

إني استعملتُ عليكم عمرَ بنَ الخطاب، فإن برّ وعدلَ فذلك علمي به ورأيي فيه، وإن جارَ وبدّلَ فلا علمَ لي بالغيب، والخيرَ أردتُ، ولكلِ امرىءٍ ما اكتسب. «وسيعلمُ الذين ظلموا أيَّ منقلبٍ ينقلبون.»

٣ رسالة عمر الى أبي موسى الأشعري في القضاء:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبدالله عمرَ بنِ الخطابِ أميرِ المؤمنينَ الى عبدالله بنِ قيس. سلامٌ عليكَ.

أما بعدُ، فإنَّ القضاء فريضةٌ محكمةٌ وسنةٌ متبعةٌ. فافهمْ إذا أُدلِيَ إليكَ فإنه لاينفعُ تكلمٌ بحقٍ لانفاذَ له. آسِ بينَ الناسِ في وجهِكَ وعدلِكَ ومجلسِكَ، حتى لا يطمعَ شريفٌ في حيفِكَ، ولاييأسَ ضعيفٌ من عدلِكَ. البينةُ على من ادّعى، واليمينُ على من أنكرَ. والصلحُ جائزٌ بين المسلمينَ الاّ صلحاً أحلَّ حراماً أو حرّمَ حلالاً. لايمنعنّكَ قضاءٌ

---

٣ — ابو موسى الاشعري، عبد الله بن قيس، احد اجلاء الصحابة، ولي قضاء البصرة لعمر فأرسل اليه هذا الكتاب. ثم شهد صفين مع علي وكان له في التحكيم موقف معروف. توفي سنة ٥٢ هـ القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة: اي ان القضاء فريضة أحكمها الله في كتابه وسنة بينها الرسول عليه السلام. فافهم اذا أدلى اليك: فافهم مايدلي به المتقاضون حتى تتضح الحجة وترتفع الشبهة. آس بين الناس: اي سو بينهم واجعل بعضهم اسوة بعض فتلقاهم جميعاً بنفس الوجه، وسو بينهم في الاحكام، واجلسهم مجلساً واحداً لاتقدم بعضهم على بعض. في حيفك: في ميلك معه لشرفه.

قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل. الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة. ثم اعرف الأشباه والأمثال، فقس الأمور عند ذلك، واعمد الى أقربها الى الله، وأشبهها بالحق. واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه، فإذا أحضر بينته أخذت له بحقه، وإلا استحللت عليه القضية، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً في ولاء أو نسب، فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان.

وإياك والغلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلق

البينة : الحجة والدليل ، وينسب للرسول حديث بهذا اللفظ ، وهذا من مبادىء القضاء في الاسلام فالمدعي مطالب بالحجة والمنكر مطالب باليمين . والصلح جائز .. يروى عن الرسول حديث ايضاً بهذا اللفظ . فالصلح بين المتقاضين جائز الا اذا كان من شأنه تحليل المحرم ، كالصلح على اذى مسلم او إرقاق حر ، او كان من شأنه تحريم المحلل كالصلح على منع القصاص مثلا . لا يمنعنك قضاء .. للرسول حديث ايضا بهذا اللفظ ، فإذا صحت هذه الاحاديث يكون عمر قد جمع طائفة من احاديث الرسول التي لها مساس بالقضاء فألف منها كتابه . ويريد بهذا القول انك اذا قضيت في امر ثم بدا لك خطأ اجتهادك فلا ضير في رجوعك الى الحق ، لأن الحق سابق على الباطل ، والرجوع اليه خير من التمادي في الحكم الباطل . وقد اشتهر عن عمر انه كان يفتي بالشيء ، ثم يبدو له فينقض فتواه ، وهذا مما أخذه علي عليه ، الا ان صدوره عن عمر طبيعي في الواقع لأن الأمة الاسلامية كانت ←

للناسِ بما يعلمُ اللهُ أنه ليس من نفسهِ شانَه اللهُ، فما ظنُّك بثوابٍ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ في عاجلِ رزقهِ وخزائنِ رحمتِه، والسلامُ.

٤ كتاب عثمان الى عليّ يستنجد به حين أُحيط به :

بسم الله الرحمنِ الرحيم

أما بعدُ، فقد بلغَ السيلُ الزُّبى، وجاوزَ الحزامُ الطُّبيَين، وطمعَ فيَّ من لا يدفعُ عن نفسِه، ولم يغلبْك مثلُ مُغلَّبٍ، فأقبلْ إليَّ صديقاً كنتَ أو عدوّاً.

فإن كنتُ مأكولاً فكنْ خيرَ آكلٍ وإلاّ فأدرِكْني ولمّا أُمزَّقِ

اذ ذاك في اول عهدها بالتشريع القضائي . الفهم الفهم : اي عليك بالاجتهاد في الامور التي لم ينص عليها القرآن او الحديث . تلجلج : تردد واضطرب . فقس الامور : بعد أن أوصى عمر ابا موسى بالاجتهاد اوصاه بالقياس . الأمد : الأجل والفسحة من الوقت . استحللت : كنت في حل. عدول، ج عدل : موثوق بشهادتهم . مجلوداً في حد : من جُلد إقامة لحدود الله وتنفيذاً لأحكام الدين . الزور : الباطل والكذب . ظنيناً في ولاء او نسب : متهما بادعائه الى غير مواليه او بانتسابه الى غير أبيه فلا تصح شهادته . وينسب الى الرسول قوله : لاتجوز شهادة خائن ولا خائنة ولا مجاود في حد ولا ذي غمر على أخيه ولا مجرب عليه شهادة زور ولا ظنين في ولاء او قرابة ، وكذلك يروى عنه عليه السلام لعنه من ينتمي الى غير ابيه او يدعي الى غير مواليه . درأ بالبينات والايمان : دفع عن نفسه التهمة بالحجج والاقسام . القلق : ضيق الصدر ، والضجر : قلة الصبر . من تخلق للناس : من أظهر خلقاً ليس فيه . شانه : قبحه .

٤ – الزُّبى ، ج زبية : مصيدة الاسد ، وهي حفيرة تتخذ في القلل والربى ليقع فيها الاسد، وهذا من امثال العرب يراد به أن الشدة قد بلغت غايتها . الطبيين ، مثنى طبي ، بكسر الطاء وضمها ، والجمع أطباء، وهو لذات الخف كالثدي للمرأة . فإذا بلغ حزام الفرس طبييها فقد انتهى الى ابعد غاياته ←

○

٥ كتاب علي الى معاوية بعد وقعة الجمل :

سلامٌ عليك . اما بعدُ فإن بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام ، لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ ، على ما بُويعوا عليه . فلم يكن للشاهد أن يختارَ ، ولا للغائبِ أن يردَّ ، وإنما الشُورى للمُهاجرين والأنصارِ ، فإذا اجتمعوا على رجُلٍ وسمَّوْه إماماً كان ذلك لله رضى ، وإن خرجَ عن أمرِهم خارجٌ ردُّوه الى ما خرج عنه ، فإن أبى قاتلوه على اتباعِه غيرَ سبيلِ المؤمنين ، وولاهُ اللهُ ما تولّى ، وأصلاهُ جهنَّم وساءَتْ مصيراً . وإنَّ طلحةَ والزُبيْرَ بايعاني ثم نقضا بيعتهما ، وكان نقضُهما كردِّهما ، فجاهدتُهما بعدما أعذرتُ اليهما ، حتى جاء الحقُّ وظهرَ أمرُ اللهِ ، وهم كارهون .

فادخُل فيما دخل فيه المسلمون فإن أحبَّ الأمورِ إليَّ قبولُك العافية ، وقد

فإذا جاوزهما كان الخطب ادهى ، وهذا من امثال العرب ايضا يستعمل لبلوغ الامر اقصى شدته . وطمع في من لايدفع عن نفسه : طمع في قتلي ، حين احاط الناس بي ، من هو مستضعف عاجز عن دفع الاذى عن نفسه فضلا عن ازالته بغيره . المغلب : الضعيف الذي يغلب كثيراً . وهذا القول ايضاً من حكم العرب يراد به ان العار كل العار ان يغلبك رجل ضعيف اعتاد ان يغلبه الناس . بيت الشعر لشاعر جاهلي يعرف بالممزق العبدي من قصيدة له يعتذر بها الى النعمان بن المنذر .

٥ — بيعتي بالمدينة : مبايعة الناس لي بالمدينة . على مابويعوا عليه : على مثل ما بويع عليه ابو بكر وعمر وعثمان . ولاه الله ما تولى : عاقبه الله بمثل عمله . أصلاه : ادخله . نقضها كردهما: نقضهما للبيعة كردهما اليها بالقتال ، فحين قاما بالاولى حقت عليهما الاخرى . اعذر اليه في الموعظة والوصية : بالغ . اكثرت في قتلة عثمان : في حديثك عنهم . خلافك : مخالفتك للمسلمين الذين بايعوني. تلك التي تريدها : كناية عن الخلافة . الطلقاء ، ج طليق : وهو من أطلق بعد أسر ، وكان معاوية وابو سفيان ابوه من الطلقاء يوم فتح مكة .

أكثرتَ في قتَلَةِ عثمانَ ، فإن رجعتَ عن رأيك وخلافِك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكمتَ القومَ إليَّ ، حملتُك وإيّاهم على كتابِ الله .

وأمّا تلك التي تُريدها فهي خِدعةُ الصبيّ عن اللّبَنِ . ولَعَمري لئن نظرتَ بعقلِك دونَ هواك ، لتَجِدَنّي أبرأَ قُريشٍ من دمِ عثمانَ .

واعْلَمْ أنّك من الطُلَقاءِ الذين لا تَحِلُّ لهم الخلافةُ ، ولا يَدخُلون في الشُورَى . وقد بعثتُ إليك وإلى مَن قِبَلَك جريرَ بنَ عبدِ الله ، وهو من أهلِ الإيمانِ والهِجرةِ ، فبايِعْهُ ، ولا قُوّةَ إلا بالله .

٦ جواب معاوية على كتاب عليّ :

سلامٌ عليك .

أمّا بعدُ ، فلَعَمْري لو بايَعكَ الذين ذكرتَ ، وأنت بريءٌ من دمِ عثمانَ ، لكنتَ كأبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ . ولكنّك أغريتَ بدمِ عثمانَ ، وخذلتَ الأنصارَ ، فأطاعك الجاهلُ ، وقَوِيَ بك الضعيفُ . وقد أبى أهلُ الشامِ إلاّ قتالَك حتى تدْفعَ إليهم قتلَةَ عثمانَ . فإن فعلتَ كانت شُورى بين المسلمين . وإنما كان الحجازيّون هم الحُكّامَ على الناسِ والحقُّ فيهم ، فلمّا فارقوه كان الحكّامُ على الناسِ أهلَ الشامِ . ولعَمري ما حُجّتُك على أهلِ الشامِ كحُجّتِك على أهلِ البَصرةِ ، ولا حجّتُك عليَّ كحُجّتِك على طلحةَ والزُبَيرِ ، كانا بايَعاك فلم

٦ — وانت بريءٌ من دم عثمان : الواو هنا حالية . أغريت بدم عثمان: حرضت على قتل عثمان. كانت شورى : اي الخلافة . والحق فيهم : الواو حالية . فلست ادفعه : فلست انكره .

أُبايِعُكَ أنا. فأمّا فَضْلُكَ في الإسلام، وقرابتُكَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلستُ أدفَعُه.

٧ كتاب الحجّاج الى قَطَرِيّ بن الفُجاءة:

بسم الله الرحمن الرحيم

سلامٌ عليك.

أمّا بعدُ، فإنّك مَرَقْتَ مِنَ الدينِ مُرُوقَ السَهمِ من الرَّمِيَّةِ. قد علمت حيث تجرثَمْتَ ذلك أنك عاصٍ لله ولوُلاةِ أمرِه، غير أنّك أعرابيٌّ جِلْفٌ أُمِّيٌّ تَستَطعِمُ الكِسْرةَ، وتشتفي بالتمرةِ، والأمورُ عليك حَسرةٌ. خرجتَ لتنال شَبعةً فلَحِقَ بك طَغامٌ صَلُوا بمثلِ ما صَلِيتَ به من العيشِ، يهزّون الرماحَ ويستنشئون الرياحَ، على خوفٍ وجَهدٍ من أُمورِهم. وما أصبحوا ينتظرون أعظم مما جهلوا معرفته. ثم أهلكهم الله بنزحتين والسلام.

٨ جواب قطري على كتاب الحجاج:

مِن قَطَرِيّ بنِ الفُجاءةِ الى الحجّاجِ بن يوسُفَ. سلامٌ على الهُداةِ من

٧ – مرقت: خرجت مسرعاً. الرميه: ما يرمى من الصيد. تجرثم. الامر: لزمه والشيء: أخذ معظمه. الجلف: الجافي. استطعم: طلب ان يطعم. تشتفي بالتمرة: تطيب نفسك بها وتقنع. الطغام: ارذال الناس. صلي النار وبها: قاسى شدتها وحرها، والامر: قاسى شدته. استنشى الريح: شمها. الجهد: التعب والمشقة: النزحتين: من نزحت الدار اذا بعدت والرجل عن داره: ابتعد. (لعل المراد: الترحتين، فصحفت، والترحة: الحزن والغم).

الوُلاةِ الذين يَرْعَوْنَ حَرِيمَ اللهِ ويرهَبُونَ نِقمَتَه. فالحمدُ للهِ على ما أظهرَ من دِينِه، وأظلعَ به أهلَ السَّفالةِ، وهدَى به من الضَّلالةِ، ونصرَ به عند استخفافِك بحقِّه.

كتبتَ إليَّ تذكُرُ أنِّي أعرابيٌّ جِلفٌ أُمِّيٌّ أستطعمُ الكِسرةَ وأشتفي بالتمرةِ. ولعمري يا ابنَ الحجّاجِ إنَّك لمِيِّتٌ في جِبِلَّتِك، مُطْلَخِمٌّ في طريقتِك، واهٍ في وَثيقتِك، لا تعرفُ اللهَ ولا تجزَعُ مِن خطيئتِك. يئستَ واستيأستَ من ربِّك، فالشيطانُ قرينُك لا تُجاذِبُه وِثاقَك، ولا تُنازِعُه خِناقَك. فالحمدُ للهِ الذي لو شاءَ أبرزَ لي صفحتَك، وأوضحَ لي طلْعتَك. فوالّذي نفْسُ قطريٍّ بيدِه لعَرفْتَ أنَّ مُقارعةَ الأبطالِ ليست كتصديرِ المقالِ، مع أنِّي أرجو أن يدْحضَ اللهُ حُجّتَك، وأن يمنحَني مُهْجتَك.

* * *

٨ — قطري بن الفجاءة التميمي زعيم من زعماء الخوارج الأزارقة المشهورين، ومن خطبائهم المفوّهين وشعرائهم اللامعين، ظل يناضل الزبيريين والأمويين أعنف نضال حتى قتله قائد الأمويين سفيان بن الأبرد عام ٧٧هـ. حريم الله: ما حرمه الله. أظلع مطيته: أعرجها. مطلخم: مضطجع، واطلخم: كلّ بصره. الوثيقة: ما يوثق به ويعتمد عليه. والوثاق، بفتح الواو وكسرها: ما يشد به من حبل ونحوه. الخناق: الحلق وما يخنق به. الصفحة: هنا، صفحة الوجه، ومثلها الطلعة. دحض الحجة: أبطلها. المهجة: القلب.

عبد الحميد الكاتب

رسالة في الشِطْرَنْج

أمَّا بعدُ، فإنَّ الله شرَّع دينَه بإنهاج سُبُلِه (١)، وإيضاحِ معالِمه بإظهارِ فرائضِه، وبَعَثَ رُسُلَه إلى خَلْقِه دلالةً على رُبُوبيَّتِه، واحتجاجاً عليهم برسالاتِه، وتَقَدُّماً إليهم بإنذارِه ووعيدِه، ليَهْلِكَ من هلكَ عن بيِّنةٍ، ويحيا من حيَّ عن بيِّنة (٢).

ثم ختَم بنبيِّه صلى الله عليه وسلم وَحْيَه، وقفَّى به رُسُلَه، وابْتَعَثه لإحياء دِينِه الدارسِ (٣)، مُرتضياً له، على حينِ انطمست الأعلامُ مُختفيةً (٤)، وتشتَّتت السُّبُلُ متفرِّقةً، وعفَتْ آثارُ الدينِ دارسةً، وسطَع رَهَجُ الفِتَنِ، واعتلى قتامُ الظُّلْمِ (٥)، واستنهدَ الشِّرْكُ (٦)، وأسدفَ الكُفْرُ (٧)،

---

(١) الإنهاج: الإيضاح والإبانة. (٢) حيَ يحيَى ويحيا، وحَيِيَ: عاش. البينة: الحجة والدليل. (٣) ابتعثه: ارسله. الدارس: العافي. (٤) الأعلام: العلامات يهتدى بها في الطريق، والصور هنا مجازية تبيّن ما كان عليه العرب من الضلال وتفرق المذاهب قبل ظهور محمد. (٥) الرَّهَج والرَّهْج: الغبار ومثله القتام. (٦) نهد الرجل: نهض، ولعدوه: برز وشرع في قتاله، واستنهد الرجل عدوه: طلبه للمناهدة والقتال. (٧) أسدف: أظلم، والسُّدفة: الظلمة.

وظهر أولياء الشيطان لطموس الأعلام، ونطق زعيم الباطل بسكتة الحق، واستطرق الجور (١)، واستنكح الصدوف عن الحق (٢)، واقمطر تلهب الفتنة (٣)، واستضرم اقاحها (٤)، وطبقت الأرض ظلمة كفر، وغيابة فساد، فصدع بالحق مأموراً (٥)، وبلغ الرسالة معصوماً، ونصح الاسلام وأهله، دالاً لهم على المراشد، وقائداً لهم إلى الهداية، ومنيراً لهم أعلام الحق ضاحية (٦)، مرشداً لهم الى استفتاح باب الرحمة، وإعلان عروة النجاة (٧)، موضحاً لهم سبل الغواية (٨)، زاجراً لهم عن طريق الضلالة، محذراً لهم الهلكة، موعزاً اليهم في التقدمة، ضارباً لهم الحدود على ما يتقون من الأمور ويخشون، وما إليه يسارعون ويطلبون، صابراً نفسه على الأذى والتكذيب، داعياً لهم بالترغيب والترهيب، حريصاً عليهم، متحنناً على كافتهم، عزيزاً عليه عنتهم (٩)، رؤوفاً بهم رحيماً، تقدمه شفقته عليهم وعنايته برشدهم، الى تجديد الطلب إلى ربه، فيما فيه بقاء النعمة عليهم، وسلامة أديانهم، وتخفيف أواصر الأوزار عنهم (١٠). حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه، ناصحاً متنصحاً، أميناً مأموناً، قد بلغ الرسالة، وأدى النصيحة، وقام بالحق، وعدل عمود الدين، حتى اعتدل ميله، وذل الشرك وأهله،

---

(١) استطرق : اتخذ طريقاً . (٢) استنكح : غلب . الصدوف : الاعراض . (٣) اقمطر : اشتد . (٤) استضرم : اشتعل والتهب . (٥) صدع بالحق : جهر به (٦) ضاحية : بارزة واضحة . (٧) عروة للدلو والكوز : مقبضه ، ومن الثوب مدخل زره ، والنفيس من المال . (٨) الغواية: الغي والضلال . (٩) العنت : المشقة . (١٠) الآصرة : حبل يشد به أسفل الخباء والمنة وصلة الرحم والجمع اواصر ، والأصر ، مثلثة الهمزة ، الذنب والثقل . الأوزار ، ج وزر : الذنوب .

وأنجز اللهُ وعدَه، وأراه صدق أسبابه في إكماله للمسلمين دينَه، واستقامة سُنَّته فيهم، وظهور شرائعه عليهم قد أبان لهم مُوبِقات الأعمال، ومُغْظِعات الذنوب (١)، ومُحْبِطات الأوزار، وظُلَمَ الشبُهات، وما يدعو اليه نقصان الأديان، وتَستهْويهم به الغوايات، وأوضح لهم أعلام الحق، ومنازلَ المراشد، وطُرُقَ الهُدى، وأبوابَ النجاة، ومَعالِقَ العصمة (٢)، غيرَ مُدَّخرٍ لهم نُصحاً، ولا مُبتغٍ في إرشادهم غُنْماً.

فكان مما قَدَّم اليهم فيه نَهْيَهُ، وأعلمهم سُوءَ عاقبتِه، وحذرهم إصْرَه، وأوعز اليهم ناهياً وواعظاً وزاجراً، الاعتكافُ على هذه التماثيلِ من الشِطْرَنجِ، والمواصلةُ عليها، لما في ذلك من عظيم الاثم، ومُوبِقِ الوزْرِ، مع مَشغلتِها لهم عن طلب المعاشِ، وإضرارِها بالعُقولِ، ومنعِها من حُضور الصلوات في مَواقيتِها مع جميع المسلمين.

وقد بلغ أميرَ المؤمنين أنَّ ناساً من قِبَلِكَ من أهلِ الاسلام، قد ألْهَجَهم الشيطانُ بها (٣)، وجمعهم عليها، وألَّف بينهم فيها، فهم مُعتكِفون عليها من لَدُنْ مُصبَحِهم الى مُمْساهم، مُلهِيةً لهم عن الصلوات، شاغلةً لهم عمّا أُمِروا به من القيام بسُنَنِ دينهم، وافتُرِض عليهم من شرائع أعمالِهم، مع مُداعبتِهم فيها، وسوءِ لفظِهم عليها، وأن ذلك من فعلهم ظاهرٌ في الأنديةِ والمجالسِ، غيرُ مُنْكَرٍ ولا مَعيبٍ، ولا مُستفظَعٍ عند أهل الفقهِ وذوي الورَع

(١) الموبقات: المهالك ووبق الرجل: هلك. المفظع: القبيح (٢) المعالق، ج معلاق: كل ما علِّق به شيء. (٣) ألهجه بالشيء: أولعه به وأغراه. والهج بالشيء: أغري به وثابر عليه.

والأديانِ والأسنان منهم. فأكبرَ أميرُ المؤمنين ذلك وأعظمَه، وكرِهَه واستكبره، وعلم أنّ الشيطانَ عندما يئس من بُلوغِ ارادته في معاصي الله عزّ وجلّ بعقرِ المسلمين وبجمعهم صُراحاً وجهاراً، أقدمَ بهم على شُبْهةٍ مُهْلِكة، وزيّن لهم وَرْطةً مُوبِقةً، وغرّهم بمكيدةِ حِبالِه، إرادةً لاستهوائهم بالخُدَع، واجتيالهم بالشُّبَه والمراصد الخفيّة المُشكِلة (١). وكلٌّ مُقيمٌ على معصيةِ الله صغُرت او كبرت، مستحِلاً لها، مُشيداً بها، مُظهِراً لارتكابه إياها، غيرَ حَذِرٍ من عقابِ الله عز وجل عليها، ولا خائفٍ مكروهاً فيها، ولا رَعيبٍ من حُلول سطوته دليها (٢)، حتى تَلحقَه المنيّةُ فتختلِجَه وهو مُصِرٌّ عليها (٣)، غيرُ تائبٍ الى الله منها، ولا مستغفرٍ من ارتكابه إيّاها، فكم قد أقام على مُوبِقات الآثام، وكبائر الذُّنوب، حتى صدّه مُخْتَرِمُ أيّامِه (٤).

وقد أحبَّ أميرُ المؤمنين ان يتقدّم اليهم فيما بلغه عنهم، وأن يُنْذِرَهم ويُوعِزَ اليهم، ويُعلِمَهم مافي أعناقِهم عليها، وما لهم في قبول ذلك من الحظ، وعليهم في تركه من الوِزر. فأذِنْ بذلك فيهم، وأشِدْه في أسواقهم وجمع أنديتهم (٥)، وأوعز اليهم فيه، وتقدّمْ الى عامل شُرطتِك في إنهاك العقوبة لمن دُفع إليه من أهل الاعتكاف عليها (٦)، والاظهار للتّعيّب بها، وإطالة حبسه في ضيقٍ وضَنْكٍ،

---

(١) اجتالهم الشياطين: صرفوهم عن الهدى الى الضلالة، وفي الحديث: خلق الله عباده حنفاء فاجتالتهم الشياطين. المراصد، ج مرصد: المكان يرصد فيه ويكمن. (٢) رعيب: مرعوب. (٣) اختلجه: اجتذبه وانتزعه. (٤) صدّه: منعه واوقفه. اخترمت المنية الرجل: اخذته، واختُرِم فلان عنا: مات. (٥) الاشادة: التذكير بالشيء. (٦) انهك السلطان فلاناً: بالغ في عقوبته.

وَطرحِ اسمه من ديوانِ اميرِ المؤمنين ، وافْطِمْهم عما كانجوا به من ذلك (١)، والتمس بشدتك عليهم فيه ، وإنما كان بالعقوبة عليه ، ثوابَ الله وجزاءه ، واتباعَ اميرِ المؤمنين ورأيه ، ولا يجدنَّ أحدٌ عندك هوادةً (٢) في التقصيرِ في حقِّ الله عز وجل والتعدّي لأحكامه ، فتُحِلَّ بنفسك ما تسوءُك عاقبتُه ومغبَّتُه ، وتتعرَّض به لغِيَرِ الله عز وجل ونكالِه (٣). واكتب الى أميرِ المؤمنين ما يكونُ منك إن شاء اللهُ ، والسلام .

[رسائل البلغاء ص ٢١١ ، وامراء البيان ج ١ : ٥٧ ، لمحمد كرد علي]

* * *

دراسة الرسالة

١ – جو النص

صاحب الرسالة

هو عبد الحميد بن يحيى ، مولى العلاء بن وهب العامري ، فارسي الاصل ، رووا ان جده كان من سبي القادسية ، ولم يصلنا من أخبار مولده ونشأته الاولى مافيه غناء ، ويظهر أنه كان من أهل الانبار ، واستوطن الرقة وانه بدأ حياته بتعليم الصبيان ، ثم ارتحل الى الشام واتصل بخلفاء بني أمية. وهنا تضطرب أقوال المؤرخين ، فابن عبد ربه يجعله ممن نبه بالكتابة بعد ان كان خامل الذكر ، ويقول انه كتب لعبد الملك بن مروان بعد سالم مولى عبد الملك ، ويسميه عبد الحميد الاكبر ، ثم يجعله كاتب يزيد بن عبد الملك ويقول انه لم يزل كاتباً لبني أمية الى ايام مروان بن محمد وانقضاء دولة

(١) افطمهم : امنعهم . (٢) الهوادة : اللين والرفق . (٣) غِيَر الدهر : احداثه المغيِّرة وصروفه. نكل بفلان : صنع به صنيعاً يعتبر به غيره .

بني أمية (١) . ولكن جمهور المؤرخين على ان سالماً كان مولى لهشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥هـ) وعلى ان اول من كتب له عبد الحميد هشام ، وسالم هذا هو ختن عبد الحميد (زوج اخته) ، وكان من مهرة الكتاب ، ويؤثر عنه ترجمة رسائل ارسطو الى الاسكندر . ولهذا رجح بعض المحدثين انه كان عارفاً باليونانية (٢) . وعلى سالم هذا تتلمذ عبد الحميد ومن طريقه تأثر بالثقافة اليونانية وبواسطته دخل في خدمة الأمويين فكتب لهشام بن عبد الملك ، وبقيت لنا من آثار كتابته له رسالة أرسلها بلسان هشام الى عامله على اليمن يوسف بن عمر الثقفي .

بيد ان اتصال عبد الحميد بسالم لايدل على وقوف عبد الحميد على اللغة اليونانية ، ولكنه كان يحسن الفارسية ، على ماذكره ابو هلال العسكري في كتاب « الصناعتين » اذ قال : « الا ترى أن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي فحولها الى اللسان العربي » (٣) .

ثم نجد عبد الحميد بعد ذلك متصلا بمروان بن محمد ، وهو وال على إرمينية ، وتقوم بين الوالي وبين كاتبه صلة صداقة متينة تحمل مروان على اصطحاب كاتبه معه الى دمشق حين آلت الخلافة إليه ، ويظل عبد الحميد منقطعاً الى مروان حتى تدور الدائرة على بني أمية بعد موقعة الزاب (١٣٢ هـ) ، ويضطر مروان الى الفرار الى مصر فيأبى على عبد الحميد وفاؤه الا مرافقته اليها ، والروايات بعد ذلك تختلف في مقتله ، فمن المؤرخين من يقول إنه قتل بمصر مع مروان ، ومنهم من يقول انه استطاع الفرار ولجأ الى دار صديقه عبد الله بن المقفع في الجزيرة فوشي به ففاجأه اعوان بني العباس ومعه ابن المقفع ، فلما سئلا ايهما عبد الحميد قال كلاهما : أنا ، خوفاً على صاحبه ، فلما تثبت الجند من شخص عبد الحميد مضوا به ثم قتل .

وقد انتهى الينا من آثار عبد الحميد جملة من الرسائل موزعة في كتب الأدب كالوزراء والكتاب للجهشياري وصبح الأعشى للقلقشندي ورسائل البلغاء لمحمد كرد علي ، ووصلنا من مطولاته رسالته ، على لسان مروان ، الى ولي العهد عبد الله بن مروان حين وُجّه لمحاربة الضحاك بن قيس الخارجي ، وهي أطول رسالة أثرت عن العصر الأموي ، ومدارها على شؤون القتال وتعبئة الجيوش؛ ورسالته الى الكتّاب ، ويقال أنه أرسل الى أبي مسلم الخراساني رسالة مطولة يستميله بها الى بني أمية

---

(١) انظر العقد الفريد ، ج ٤ : ١٦٤ ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٢) انظر من حديث الشعر والنثر لطه حسين ، ص ٦٢ .

(٣) الصناعتين ، ص ٦٩ ، طبع الخانجي .

ولكن ابا مسلم مزّقها لئلا يقع تحت تأثيرها ، ومن رسائله المشهورة رسالته الى أهله وهو منهزم مع مروان ، ورسالته هذه في التنفير من الشطرنج ، واخرى في وصف الصيد ، ورسالة في الفتنة ، فضلاً عن مختصراته الكثيرة .

المناسبة

لم نجد في الكتب التي روت هذه الرسالة ذكراً لمناسبتها ، فلسنا نعرف في أي سنة كتبت، ومن هو الشخص الموجهة إليه . وكل مانتبينه من الرسالة ان الناس في بعض ولايات الدولة الاسلامية لهجوا بالشطرنج ، وكان اذ ذاك جديداً على العرب أخذوه عن الفرس والهنود ، فانصرف الناس اليه وشغلوا به عن أداء فروضهم الدينية والتفرغ لأعمالهم . فوجه عبد الحميد هذه الرسالة ، على لسان امير المؤمنين ، الى امير تلك الولاية يبيّن له فيها مغبة التملق بأمثال هذه الملهيات ، وان ذلك مما نهى عنه الدين الحنيف ، وينكر فيها على فقهاء الولاية سكوتهم عنها واقرارهم لها ، ويأمر عامله بأخذ الناس بالشدة حتى ينصرفوا عن هذه المشغلة الذميمة .

ب — التحليل الادبي

الأقسام والأفكار العامة

تنقسم هذه الرسالة الطويلة الى أقسام واضحة كل قسم منها يمهد للقسم الذي يليه وكأنه مقدمة له، فالأقسام مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً منطقياً ، واجزاء الرسالة متناسبة فيما بينها . وهذا التقسيم المنطقي المتناسب وهذه الإطالة لم تعرفها الكتابة العربية قبل عبدالحميد ، وأغلب الظن انها من آثار ثقافته الفارسية اليونانية ، وكان الاسلوب الكتابي قبل عبد الحميد اميل الى ايجاز الرسائل ، لاتظهر فيه عناية كبيرة بالتقسيم ومراعاة التناسب . وهذه الرسالة تنقسم الى الاقسام التالية :

١ — مقدمة في أن الله ارسل أنبياءه الى الناس ليرشدوا الناس وينذروهم ويردّوهم عن سبل الضلال، فمن ضلّ فعليه وزره .

٢ — في أن الله ارسل محمداً خاتماً لرسله لإحياء مادرس من أعلام الدين وإنقاذ الناس من غياهب الكفر والفتن والفساد ، ولكي يوضح لهم سبل الرشاد ويزجرهم عن طرق الغواية . فقبضه الله اليه بعد أن ادى رسالته خير أداء . وهذا القسم هو أطول مافي الرسالة .

٣ – في أن الشطرنج مما نهى عنه الرسول لما فيه من عظيم الإثم والوزر ، ولصرفه الناس عن طلب المعاش وأداء الفروض الدينية ولإضراره بالعقول .

٤ – في أن أمير المؤمنين بلغه ولوع أهل الولاية بالشطرنج حتى ألهاهم عن شرائع دينهم وأعمالهم، وعدم انكار اهل الدين والحجى والسن لهذا الامر .

٥ – في أن أمير المؤمنين قد هاله هذا الامر وأشفق على الناس من خدع الشيطان ،فأحب أن ينذرهم وينهاهم عنه .

٦ – الخاتمة في أمر صاحب الشرطة بإنزال العقوبة بمن يتعلق بهذه اللعبة ، وحبسه وطرح اسمه من ديوان امير المؤمنين ، لينال عامل الشرطة من وراء ذلك ثواب الله ورضى أمير المؤمنين ، وان يكتب اليه بما يكون من أمره .

ونلاحظ ان القسم الثاني من الرسالة هو أطول قسم فيها ، وان هذه الإطالة مردها الى كثرة الجمل المترادفة فيه ، والاكثار من الترادف من مميزات اسلوب عبد الحميد .

ونلاحظ ايضاً اتصال اقسام الرسالة بعضها ببعض اتصالاً منطقياً وشيجاً فكل قسم نتيجة لما قبله ومقدمة لما بعده .

العاطفة

يظهر لنا أن العاطفة التي حملت عبد الحميد على كتابة هذه الرسالة هي غيرته على شرائع الدين ومشاركته أمير المؤمنين في إشفاقه من وقوع الناس في حبائل الشيطان وسلوكهم سبل الغواية والضلال.على انه ينبغي لنا الاشارة الى ان العاطفة في الرسائل تغاير العاطفة في الشعر والخطابة،لان الشعر والخطابة شخصيان في الغالب يعبر فيهما الأديب عن عاطفته الذاتية ، اما في الرسائل فإن الكاتب كثيراً ما يتكلم بلسان غيره، كما هي الحال عند كتاب الدواوين،فيعبر حينئذ عن عاطفة صاحب الرسالة. ولكننا نرجح ان عبد الحميد كان يشارك امير المؤمنين عاطفته في هذه الرسالة لما نعرفه من قوة عاطفته الدينية وصدق ولائه لأمير المؤمنين وحرصه على امور المسلمين .

الأسلوب

لعبد الحميد ذوق خاص في اختيار الألفاظ فهو لا يتخير منها إلا ماقرب معناه وقوي مبناه وكان يقول : « خير الكلام ما كان لفظه فحلاً ومعناه بكراً ».وحرصه على تخير الجزل من الألفاظ محاكاة لأساليب العرب الخلص ، وارضاءً للذوق العام في عصر بني أمية ، جعله يأتي احياناً بألفاظ

بعيدة عن الرقة كقوله: امطر" تلهّب الفتنة . ولكنه، في الغالب، يؤثر الالفاظ العذبة الرقيقة مع جزالتها.

وأما جمله فإن اثر الازدواج والترادف فيها ظاهر ، وقد كان الاسلوب المتوازن المزدوج شائعاً في العصر الاموي ، لاحظناه فيما درسناه من نماذج النثر في هذا العصر ، وكذلك لاحظنا ان هذا التوازن الصوتي كثيراً ما كان ينضم اليه الترادف المعنوي ، فسار عبد الحميد على أسلوب سابقيه ، وكان متأثراً بأسلوب علي خاصه ، فإنه حين سئل ما الذي خرّجك في البلاغة أجاب : حفظ كلام الاصلع ، يريد به علياً . ولكنه بالغ في اصطناع اسلوب الازدواج والترادف ، وصرف إليه جل عنايته واهتمامه حتى أصبح من مميزاته الكتابية الخاصة ، وكان يحمله على إشاره امران : اولهما تأثره بالطبيعة الفارسية والثقافة العجمية التي تميل الى الاسهاب والتفصيل والاستقصاء . وثانيهما حسه الموسيقي الذي كان يدفعه الى مراعاة الوقع الموسيقي للالفاظ والجمل ، والى ارداف كل جملة بجملة او اكثر توازنها وتشاكلها وهكذا نجد عبد الحميد يجري في جميع رسالته على الازدواج كقوله مثلاً : فصدع بالحق مأموراً ، وبلغ الرسالة معصوماً . وقد يحمله الحرص على الموازنة على ان يختار صفاته من زنة واحدة كقوله : قد أبان لهم موبقات الاعمال ، ومُقظعات الذنوب ، ومهبطات الاوزار . ثم يضيف الى هذا التوازن اللفظي الترادف المعنوي فيتبع الجملة بجملة اخرى او اكثر تدل على معنى مرادف لها ، او قريب منها او مشارك لها في الغرض كقوله : موضّحاً لهم سبل الغواية ، زاجراً لهم عن طريق الضلالة ، محذراً لهم الهلكة ، الخ ... وربما اتفق له بعض السجع العارض غير المتكلف كقوله : صابراً نفسه على الأذى والتكذيب ، داعياً لهم بالترغيب والترهيب .

ولعلنا لانجد كبير طرافة في المعاني التي جاء بها عبد الحميد في هذه الرسالة ، فإن اكثرها مما يجري على ألسنة الوعاظ والمرشدين ، الا أن عبد الحميد عرض لنا هذه المعاني في أسلوب جديد وألبسها حلة جديدة من اللفظ ، وساقها الينا مساقاً جديداً فيه طرافة وفيه جمال .

وعبد الحميد لايعتمد في رسالته هذه اعتماداً كبيراً على التصوير ، وماأورده فيها من الصور البيانية اثر الابتكار فيه ضعيف واكثره مردد معروف كقوله : على حين انطمست الاعلام مختفية ، وتشتت السبل متفرقة ، وعفت آثار الدين دارسة ، وسطع رهج الفتن ، واعتلى قتام الظلم ، واستنهد الشرك وأسدف الكفر . وربما كان في رسائله الاخرى اكثر ابداعاً للصور كما في رسالته الى أهله.
(راجعها في النماذج)

وفن عبد الحميد وتجديده انما نجدهما في طريقة العرض العامة : في تقسيمه رسالته الى اجزاء متناسبة تتتابع تتابعاً منطقياً ويتعلق بعضها ببعض ، وفي ترتيب افكاره وتسلسلها وتحديدها فلا اضطراب فيها ولا استطراد ،

وفي هذه الاناة التي تنم عنها رسائله والتي تدل على مايبذله من الجهد والعناية في تحبيرها ، وكلها صفات لم يعرفها الناثرون قبل عبد الحميد ، فلم يكن الرسول والخلفاء يبذلون كبير عناية في رسائلهم وما كانوا ينظرون اليها الا على انها اداة للابلاغ فكانت موجزة مختصرة لاتعميق فيها ولا عناية ، تتتابع افكارها تتابعاً عفوياً استطرادياً ، ومنذ انشئت الدواوين في زمن بني أمية اخذ فن الترسل في النمو والارتقاء وصار الكتاب يتنافسون في إجادة الكتابة حتى وصل هذا التجويد الى غايته على يد عبدالحميد بن يحيى.

ولا بد لنا من ملاحظة اثر ثقافة عبد الحميد غير العربية في ما أحدثه من وجوه التجديد في فن الترسل ، وهذا ابو هلال يقول : « ومن عرف ترتيب المعاني واستعمل الالفاظ على وجوهها بلغة من اللغات ثم انتقل الى لغة اخرى تهيأ له فيها من صنعة الكلام ما تهيأ له في الاولى . ألا ترى ان عبدالحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي وحولها الى اللسان العربي . »

وقد كان للثقافة الفارسية آثار اخرى في كتابة عبد الحميد منها استعماله التحميدات في فصول الكتب (حمد الله وتعداد أفضاله) ، ومنها إطالته بعض رسائله (كرسالته الى ولي العهد ورسالته الى الكتاب ورسالته في الشطرنج) ، وكان لها ايضاً آثار في معانيه اذ أن كثيراً مما أورده في رسالتيه الى الكتاب والى ولي العهد مستمد من الثقافة الفارسية التي تعنى عناية خاصة بآداب الملوك والكتاب وفنون القتال وتدبير شؤون المملكة .

وظاهرة أخرى نلاحظها في أسلوب عبد الحميد هي كثرة اعتماده على الحال ، وقد اشار بعض المحدثين الى هذه الظاهرة ووجد فيها اثراً من آثار الثقافة اليونانية (١) ، وقد قدمنا ان عبد الحميد كان تلميذاً لسالم ، وان سالماً هذا كان متصلاً بالثقافة اليونانية ، فلا يبعد إن اكثار عبد الحميد من الحال مرجعه الى تأثره بطريقة سالم استاذه ، واستعمال الحال كثير في رسالته هذه كقوله فيها: فصدع بالحق مأموراً ، وبلغ الرسالة معصوماً ، ونصح الاسلام وأهله دالاً لهم على المراشد ، وقائداً لهم الى الهداية ، ومنيراً لهم أعلام الحق ضاحية ، مرشداً لهم الى استفتاح باب الرحمة واعلان عروة النجاة ، موضحاً لهم سبل الغواية ، زاجراً لهم عن طريق الضلالة ، محذراً لهم الهلكة موعزاً اليهم في التقدمة ، ضارباً لهم الحدود ،...

ولكن عبد الحميد لم يخلص لأثر الثقافة الفارسية اليونانية وحدها ، فقد نشأ في بيئة الكوفة ، وهي حينئذ ملتقى أئمة اللغة وأعلام الادب ، ثم انتقل الى البلاط الاموي في الشام

---

(١) من حديث الشعر والنثر لطه حسين ، ص ٦٢

وخالط من فيه من رجال الشعر والأدب واخذ عنهم ، ووجدناه يعترف بأخذه عن علي وحفظه كلامه ، فلا ريب ان ثقافته العربية كانت قوية واسعة ربما كانت تفوق ثقافته الأعجمية ، وكان الموالي في ذلك العصر حريصين على اتقان الثقافة العربية ليتاح لهم أن يتبوأوا المراكز الرفيعة في الدولة وأن يصبحوا بمنزلة العرب ، وأثر هذه الثقافة العربية الاسلامية واضح بين في كتابة عبد الحميد ، وهو كثير الاقتباس للآيات القرآنية ، فمن امثلة اقتباسه القرآني قوله في كتابه الى بعض من شق عصا الطاعة على بني أمية : « .. ثم كيدوني جميعاً فلا تنظرون . فما أسرنا إكثارك الجموع ، وحشدك الخيول ، فإنك لا تكثف جمعاً ، ولا تسرب خيلاً ، الا وثقنا بأن سيمدنا الله من ملائكته ، ويزيدنا من نصره .. » (انظر سورة التوبة آية ٤٠) وربما حاكى الاسلوب القرآني احياناً في عنايته الشديدة بموسيقى الجملة ، فيحمله هذا على تقديم الصفة على الموصوف ، وعلى تقديم حروف الجر على متعلقاتها ونحو هذا من ضروب التقديم والتأخير التي يقصد بها ترتيب الفاظ الجملة ترتيباً موسيقياً جميلا .

منزلة عبد الحميد الادبية

هذه الميزات الكثيرة التي وجدناها في أسلوب عبد الحميد حملت الأدباء على تقديمه تقديماً شديداً حتى جعلوا الكتابة تبدأ به فقالوا : فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد. وقال ابن النديم: « عنه أخذ المترسلون ولطريقته لزموا وهو الذي سهل سبيل البلاغة في الترسل » . وقال فيه ابراهيم ابن العباس الصولي : « كان والله الكلام معانيّ له ماتمنيت كلام أحد من الكتاب قط أن يكون لي مثل كلامه » . وقال فيه ابن عبد ربه : « كان أول من فتق أكمام البلاغة وسهل طرقها وفكّ رقاب الشعر » ، وقال الشريشي : « وهو اول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب فاستعمل الناس ذلك بعده » . ويروى عن المنصور قوله : « غلبنا بنو أمية بثلاثة اشياء : بالحجاج وعبد الحميد والمؤذن البعلبكي » . وكان الشعراء يضربون المثل ببلاغته ، من ذلك ماجاء في قصيدة للبحتري يمدح بها محمد بن عبد الملك الزيات :

وتفننتَ في البلاغة حتى ... عطّل الناسُ فنّ عبد الحميد

وقال ابو اسحاق الصابي :

أنسيتُم كتباً شحنتُ فصولها ... بفصولِ درٍ عندكم منضود
ورسائلا نفذت الى أطرافكم ... عبدُ الحميد بنّ غيرُ حميد

ولكن هذه المكانة العظيمة التي كانت لعبد الحميد لاتدل عليها آثاره القليلة التي انتهت الينا فلا ريب انه كانت له آثار اخرى كثيرة لم تصلنا ، وهي التي بوأته هذه المنزلة الرفيعة بين الكتّاب ، ولكننا استطعنا ان نقف ، من رسائله التي بين ايدينا ، على مدى الرقي الذي بلغته الكتابة على يده ، ولا غرو ان يكون اول من خطا بالكتابة الى مرتبة النثر الفنّي .

نماذج من كتاباته

من مختصراته :

كتب موصياً بشخص : « حقُّ مُوصِلِ كتابي إليك كحقّه عليّ ، إذ جعلكَ مَوضِعاً لأمله ، ورآني أهلاً لحاجته ، وقد أنجزتُ حاجتَه ، فصدِّقْ أملَه » .

وبعث الى مروان بن محمد احد قواده بغلام أسود فأمر عبد الحميد ان يكتب اليه كتاباً موجزاً يقبّح فيه هديته فكتب إليه : « لو وجدتَ لوناً شرّاً من السّواد وعدداً أقلّ من الواحد لأهديته ، والسلام . »

من تحميداته :

أمّا بعدُ ، فالحمدُ لله الذي اصطفى الاسلامَ لنفسه ، وارتضاه ديناً لملائكته ، وأهلِ طاعته مِن عباده ، وجعله رحمةً وكرامةً ونجاةً وسعادةً لمن هُدِيَ به من خلقه ، وأكرمهم وفضّلهم وجعلهم بما أنعم عليهم به أولياءه المُقرَّبين ، وحزبَه الغالبين ، وجُندَه المنصورين ، وتوكّلَ لهم بالظُّهور والفَلَج (١) ، وقضى لهم بالعُلُوِّ والتمكين ، وجعلَ مَن خالفه وعزَبَ (٢) عنه وابتغى سبيلَ غيره أعداءَه الأفَلّين ، وأولياءَ الشيطانِ الأخسرين ، وأهلَ الضلالةِ الأسفلِين ،

---

(١) فلج الرجل وأفلج : ظفر وفاز . (٢) عزب : ابتعد .

مع ما عليهم في دنياهم من الذُلّ والصَّغار (١). فأعجلَ لهم فيها من الخِذلان والانتقام، إلى ما أعدَّ لهم في آخرتهم من الخِزْيِ والهَوانِ المُقيم، والعذابِ الأليم. إنّه عزيزٌ ذو انتقام.

رسالته الى أهله وهو منهزم مع مروان:

أمّا بعدُ، فإنّ اللهَ تعالى جعل الدنيا محفوفةً بالكُرهِ والسُّرور، فمن ساعده الحظُّ فيها سكن إليها، ومن عضّته بنابها ذمّها ساخطاً عليها، وشكاها مستزيداً لها. وقد كانت أذاقتْنا أفاويقَ (٢) استحليناها، ثم جمحت بنا نافرةً، ورمحتْنا مولّيةً (٣)، فملُح عذبُها، وخشُن ليّنها، فأبعدَتْنا عن الأوطانِ، وفرّقتْنا عن الإخوان. فالدارُ نازحةٌ (٤)، والطيرُ بارحةٌ (٥).

وقد كتبتُ والأيّامُ تزيدُنا منكم بُعداً، وإليكم وجداً، فإن تتمّ البليّةُ إلى أقصى مُدّتها يكن آخرَ العهد بكم وبنا، وإن يلحقْنا ظُفُرٌ جارحٌ من أظفار مَن يليكم (٦) نرجعْ إليكم بذُلّ الإسار، والذُلُّ شرُّ جار.

نسألُ اللهَ الذي يُعِزُّ من يشاء، ويُذِلُّ من يشاء، أن يَهبَ لنا ولكم أُلفةً جامعةً، في دارٍ آمنةٍ، تجمعُ سلامةَ الأبدان والأديانِ، فإنّه ربُّ العالمين وأرحمُ الراحمين.

---

(١) الصغار: المهانة والذل. (٢) أفاويق، ج فيّق، ج فيقة: اللبن يجتمع في الضرع بين الحلبتين. يشبه الدنيا بالناقة، تارة تدر عليهم بلبنها، وتارة تجمح بهم. (٣) رمحتنا: رفستنا. مولية: مدبرة. (٤) نازحة: بعيدة. (٥) البارح من الصيد: ما مرّ من ميامنك الى مياسرك، وكان العرب يتشاءمون بالطير البارح. (٦) من يليكم: يريد بهم اعوان بني العباس.

من رسالته الى الكتاب :

... بكم تنتظمُ للخلافة محاسنُها ، وتستقيمُ أمورُها ، وبنصائحكم يُصلحُ اللهُ للخلق سلطانهم ، وتعمرُ بلدانهم ، لا يستغني الملكُ عنكم ، ولا يُوجد كافٍ إلا منكم . فموقعكم من الملوك موقعُ أسماعهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يُبصرون ، وأيديهم التي بها يبطشون .. فتنافسوا يا معشر الكُتّاب ، في صنوف الآداب ، وتفقّهوا في الدين ، وابدؤوا بعلم كتاب الله عزّ وجلّ ، والفرائض (١) ، ثم العربيّة ، فإنّها ثقافُ (٢) ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخطّ فإنّه حليةُ كُتُبكم ، وارووا الأشعارَ ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيامَ العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرَها ..

من رسالته الى ولي العهد عبد الله بن مروان :

... فإذا أفضيت نحو عدوّك ، واعتزمت على لقائهم ، وأخذت أُهبة قتالهم ، فاجعلْ دعامتك التي تلجأُ إليها ، وثقتك التي تأمُلُ النجاة بها ، وركنك الذي ترتجي منال الظفر به ، وتكتهفُ بهِ لمغالق الحذر (٣) ، تقوى الله عزّ وجلّ ، مستشعراً لها بمراقبته ، والاعتصام بطاعته متّبعاً لأمره ، مُجتنباً لسخطه ، مُحتذياً لسُنّته ، ... ثم اصمدْ (٤) لعدوّك المتسمّي بالإسلام ، الخارج من جماعة أهله ، المنتحل ولاية الدين ، مُستحلاً لدماء أوليائه ، طاعناً عليهم ،

(١) علم الفرائض : مايعرف به تقسيم التركة على مستحقيها . (٢) ثقاف ألسنتكم : ماتقوّم به ألسنتكم . (٣) تكتهف به : تلوذ به وتحتمي . ومغالق الحذر : أسبابه (١٢) صمد له : قصد اليه .

راغباً عن سُنَّتهم ، مُفارقاً لشرائِعهم ، يَبغِيهم الغوائلَ (١) ، ويَنصِبُ لهم المكايدَ ...

* * *

مصادر

١ ــ الوزراء والكتاب : ابن عبدوس الجهشياري .
٢ ــ الفهرست : ابن النديم .
٣ ــ العقد الفريد ، ج ٤ : ١٥٦ : ابن عبد ربه .
٤ ــ صبح الأعشى ، ج ٦ : القلقشندي .
٥ ــ وفيات الأعيان ، ج ١ : ٣٠٧ : ابن خلكان .
٦ ــ امراء البيان ج ١ : ١ ـ ٩٨ : محمد كرد علي .
٧ ــ رسائل البلغاء ، ص ١٧٣ وما بعدها : محمد كرد علي .
٨ ــ الفن ومذاهبه في النثر العربي ، ص ٣١ : شوقي ضيف .
٩ ــ تطور الأساليب النثرية ، ص ٨٧ ومابعدها : أنيس المقدسي .
١٠ ــ دروس الأدب ، ص ٣٢٧ ومابعدها : خلدون الكناني .

---

(١) الغوائل ، ج الغائلة : الداهية والمهلكة .

الشعر
في
العصر الإسلامي والأموي

منزلة الشعر في هذا العصر

كان الشعر في العصر الجاهلي سلاحاً ماضياً في يد القبائل العربية تتخذه للذود عن حياضها ولمهاجمة القبائل الأخرى، وكان الشاعر مندمجاً في قبيلته وهو لسانها الناطق. فلما جاء الاسلام ووحّد بين شتى القبائل في أمة عربية واحدة كان من الطبيعي ان يحارب الشعر الذي يثير العصبية القبلية ويوقد الفتن، فوجدنا القرآن يهاجم شعراء المشركين بقوله: «والشعراء يتّبعهم الغاوون، ألم ترَ أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون.»، ووجدنا الرسول يقول: «لأن يمتلئ جوفُ احدكم شعراً خيرٌ له من أن يمتلئ شعراً»، وقد اوعد جماعة من شعراء المشركين ككعب بن زهير وقتل بعضهم. ووجدنا خلفاء الرسول ايضاً ينهون الشعراء عن قول الشعر الذي من شأنه إثارة العصبية القبلية لئلا يعود المسلمون سيرتهم الاولى في الجاهلية، فكان عمر ينهى الناس عن إنشاد مناقضة الأنصار ومشركي قريش وقال: «في ذلك شتمُ الحيِّ بالميت وتجديد الضغائن» (١)، وحين قدم غالب بابنه الفرزدق على عليٍّ ليسمعه من شعره أشار عليه بأن يحفظه القرآن.

وقد انصرف الناس في صدر الإسلام قليلاً عن الشعر لموقف الاسلام منه ولأنهم شغلوا عنه

---

(١) الأغاني، ج ٤ : ١٤٠، طبع دار الكتب.

بالفتوح وأخبارها وبهذه المعجزة البلاغيـة التي أنزلت على محمد فأ كبوا على حفظ القرآن وتفهمه وانصرفوا عن الشعر حتى كان حسان ربما أنشد الناس شعره في مسجد الرسول وهم منصرفون عن سماعه فيهيب بهم الزبير ان يستمعوا الى شاعر الرسول ، وسمعه عمر ينشد النـاس شعره فأخذ بأذنه وقال له : أرغاء كرغاء البعير .(١)

على أن العرب في صدر الإسلام لم ينصرفوا عـن الشعر انصرافاً تاماً ولم تنحط منزلة الشاعر كثيراً في هذا العصر ، والقرآن الكريم لم يهاجم الا شعراء المشركين الذين آذوا الرسول بهجائهم وألبوا عليه المشركين كما نتبيّن من قوله بعد الآيات السابقة : « الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات.». ويؤثر عن الرسول ايضاً قوله : « ان من الشعر حكمة » ، وكان عليه السلام يحرّض شعراء الانصار حسان وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة على الرد على شعراء قريش : عبـد الله بن الزبعري وضرار بن الخطاب وعمرو بن العاص وأبي سفيان ، و كان يقول في أصحابه : « هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل .» وكان يقول لحسان محرّضاً : « اهجهم ومعك جبريل روح القدس والق ابا بكر يعلّمك تلك الهنات » .(٢) وكان خلفاء الرسول ايضاً معجبين بالشعر ، متذوقين له ،ويؤثر عن عمر بن الخطاب كلام في اطراء بعض الشعراء وفي الحث على تعلم الشعر ، من ذلك انه ارسل الى ابي موسى الاشعري يقول :« مر من قبلك بتعلم الشعر ، فإنه يدل على معالي الاخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب . » ، ويروي ابن رشيق جملة من الاشعار المنسوبة الى الخلفاء الراشدين .

فلما تولّى بنو أمية الحكم كان من سياستهم في أول الأمر إذكاء نار العصبية القبليـة ليشغلوا القبائل عن المطالبة بالخلافة ومنازعتهم الحكم ، فأخذوا يغرون بين القبـائل ، يقربون هذه فتثور تلك، فتجددت الضغائن بين بني هاشم وبني أمية ، فكان سديف الشاعر يخرج في جمـاعة من موالي بني هاشم في مكة وشبيب يخرج في جماعة من بني أمية فيفخرون ثم يتشاتمون ثم يتجالدون بالسيوف. وتجددت الضغائن بين المهاجرين والانصار ، ونعرف موقف يزيد من الانصار وتحريضه الاخطل على هجائهم ، وقامت الفتن بين اليمنية والمضرية وبين القيسية والتغلبية ؛ وأخذ الشعراء يستعيدون مكانة الشعراء الجاهليين من قبائلهم ، فينطقون بلسان قبائلهم منافحين عنها ، هاجين القبائل الاخرى، فعادت الى الشعر مكانته القديمة ، وعاد الى الناس ولعهم بسماع الشعر وتقيمه والمفاضلة بين الشعراء حتى انهم كانوا يتذا كرونه في وقائعهم وحروبهم .

وعرف الخلفاء شأن الشعر فقربوا اليهم فحول الشعراء وأفاضوا عليهم الهبات والجوائز ليكونوا

---

(١) الاغاني ، ج ٤ : ١٤٤ (٢) العمدة لابن رشيق ج ١ : ١٨

عوناً لهم على أعدائهم وليدافعوا عن سياستهم وحقهم في الخلافة . ولا أدل على منزلة الشعراء في عصر بني أمية مما كان يلقاه الأخطل النصراني ، شاعر الأمويين ، من الحظوة العظيمة عندهم حتى كان يدخل على يزيد فيشرب ويعرض عليه أكل الخنانيص ، وحتى كان يدخل على عبد الملك بدون اذن وصليبه يتدلى على صدره ولحيته ترفض خمراً ، وربما أنشده شعراً يعرض فيه بالإسلام او يتطاول فيه عليه .

وما زال للشعر في هذا العصر اثره في الناس وفي الرفع من شأن القبيلة او الحط منها . فيذكرون ان قبيلة بني أنف الناقة كانت لا تجرؤ على ذكر اسم قبيلتها فتنتسب الى قريع ، فلما قال فيهم الحطيئة قصيدته التي منها :

قومٌ هم الأنفُ والأذنابُ غيرهم ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا

صاروا يتطاولون بهذا النسب ويعدون به أصواتهم . ومن هذا ايضاً ان بني نمير كانوا شديدي الافتخار بنسبهم حتى قال فيهم جرير بيته :

فغضّ الطرف إنك من نُمير فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

فصاروا يتوارون من الناس لشدة خجلهم .

تطور الشعر في هذا العصر

حين تحدثنا عن طبيعة الشعر قلنا انه فن يقوم على التقليد والمتابعة وانه لذلك لا يخضع سريعاً للمؤثرات خضوع النثر لها ولا يتطور بالسرعة التي يتطور بها النثر ، ولهذا فإن النثر في هذا العصر كان من أسبق من الشعر الى التأثر بالعوامل الجديدة والاستجابة لها فظهر فيه مبكراً اثر القرآن والاسلام والأحداث الدينية والسياسية الجديدة .

أما الشعر فلم يخضع للمؤثرات الجديدة الا بعد فترة طويلة ، ولم يكن الشعر الإسلامي، بمجموعه، الا امتداداً للشعر الجاهلي . وفي أواخر العصر الأموي تظهر في الشعر اتجاهات جديدة على يد المولدين من الشعراء مؤذنة بابتداء عصر ادبي جديد .

ولكن هذا ليس معناه ان الشعر الإسلامي كان صورة مطابقة تمام المطابقة للشعر الجاهلي، فإن هذا الانقلاب العظيم في حياة العرب كان لا بد له من أن يترك آثاراً واضحة في الحياة الأدبية ، والأدب الجاهلي نفسه لم يكن واحداً بل كان في تطور وتغير مستمرين ، فلا يعقل ان يظل الشعر جامداً في العصر الإسلامي، لأن سنة التطور التي تنتظم الكائنات الحية تنتظم ايضاً حياة الفنون . وقد وقفنا قبل على تطور النثر في العصر الإسلامي وها نحن نوجز ما ألمّ بالشعر من مظاهر التطور في هذا العصر .

الأسلوب

لم يطرأ على أسلوب الشعر تغيير كبير في هذا العصر فما زال الشعراء يؤثرون فخامة اللفظ وجزالة العبارة ومتانة التركيب ولاسيما أن الخلفاء الراشدين وملوك بني أمية كانوا من العرب الخلص الذين يعجبون بأساليب القدماء. وكان نقاد الأدب ورواته في هذا العصر من المتعصبين ايضاً لأساليب القدماء وللشعر الجاهلي ؛ وكان الذوق العام ميالاً ايضاً الى هذه الأساليب القديمة التي ألفها، ولهذا ظل الشعر في أسلوبه قوياً جزلاً فصيح العبارة .

وكانت لغة الشعر ماتزال صحيحة بعيدة عن اللحن ، بل انها كانت ادق من لغة الجاهليين لأن اللغويين والنحاة في هذا العصر كانوا يحصون على الشعراء اخطاءهم وينقدونهم . فلما بدأ اللحن يفشو في العصر الأموي ولما بدأ الموالي يتعلمون لغة العرب وينظمون بها الشعر العربي رأى النقاد والرواة ان الشعر العربي الصحيح الجيد قد اشرف على الزوال ، فأطلقوا على الشعراء الذين ظهروا في أواخر العصر الأموي اسم الشعراء المولّدين ولم يجيزوا الاستشهاد بشعرهم في اللغة والنحو ، ونظروا الى الشعر الجاهلي والإسلامي على أنه النموذج الكامل للشعر العربي الصحيح .

وكان للقرآن الكريم اثره في أساليب الشعراء فرقت ألفاظهم وعذب أسلوبهم وظهر الأثر القرآني قوياً في شعر الخوارج وفي شعر الغزلين .

وكما حرص الشعراء في هذا العصر على محاكاة الأسلوب الجاهلي في الفاظهم وتراكيبهم حرصوا ايضاً على محاكاة النظام العام للقصيدة الجاهلية. وقد وجدنا الشاعر الجاهلي يبدأ قصيدته غالباً بوصف الأطلال ثم يعرج منه على النسيب ثم ربما وصف الناقة او الفرس او الطريق ثم ينتقل الى الغرض من القصيدة وهو اما المدح او الفخر او الهجاء او الرثاء . فالتزم الشعراء الإسلاميون هذه الأصول ولا سيما في قصائد المدح ، بل انهم كانوا أحرص على هذه الأصول من الجاهليين انفسهم لأنهم كانوا يحاكون النماذج الكاملة من الشعر الجاهلي محاكاة واعية ولأن تكسب الشعراء في هذا العصر حملهم على تجويد قصائد المديح والعناية بها ، فكانت هذه القصائد تظهر أقرب الى الشعر العربي البدوي الأصيل من اشعار الجاهليين أنفسهم، ولهذا كان بعض النقاد القدامى يفضلونها على اشعار الجاهليين.

اما وحدة القصيدة فلم تعرف الا في شعر هذه الطائفة التي عرفت بالغزلين والتي كان مقرها بالحجاز والبوادي التي تطيف به .

الأوزان والقوافي

لم يطرأ على أوزان الشعر وقوافيه تغير يذكر في هذا العصر ولكن الشعراء صاروا ينتبهون الى عيوب القافية والوزن ويتحاشونها ، وكانت فاشية في الشعر الجاهلي ، ووجدت في هذا العصر جماعة من الشعراء عنوا عناية خاصة بالأراجيز (القصائد المنظومة على بحر الرجز) ، وكان الجاهليون يقولون الأبيات القليلة من الرجز يحدون بها الإبل او يصفون بها حيوان الصحراء او يتغنون بها ، فجاء هؤلاء فأطالوا الأراجيز وفاقوا الجاهليين في استعمال الألفاظ الغريبة وتناولوا في اراجيزهم شتى الموضوعات كالمدح والفخر والرثاء والهجاء ووصف الصيد حتى اصبحت فناً مستقلاً . وهؤلاء الشعراء هم الذين عرفوا بالرُجّاز واشتهر منهم في ذلك العصر الأغلب العجلي ، وهو أول من أطال الرجز ، وابو النجم العجلي ، والعجّاج التميمي ، وابنه رؤبة ، ودكين الراجز .

المعاني والأخيلة

كانت معاني الشعراء الجاهليين وأخيلتهم مطبوعة بطابع السذاجة والبداوة لضيق أفقهم وبداوة بيئتهم ، الا من تردد منهم على الممالك المتحضرة في الشام والعراق واليمن فظهرت في معانيهم وصورهم آثار الحضارة كالذي نجده مثلاً في اشعار النابغة الذبياني والأعشى وعدي بن زيد .

اما في العصر الإسلامي والأموي فقد وجد العرب أنفسهم في بيئة جديدة متحضرة تغاير بيئتهم القديمة ، وخالطوا الامم الأعجمية واقتبسوا منها مظاهر حضارتها ، وبدأت الثقافة العربية تنفتح لها آفاق جديدة ، وكان من الطبيعي ان يكون لاختلاف البيئة اثره في اتساع معاني الشعراء وتنوع صورهم وانفساح خيالهم وفي طبع كل ذلك بطابع حضري . الا أن هذا الأثر كان محدوداً لأن أغلب الشعراء في هذا العصر كانوا من العرب ولأن كثيراً منهم نشأوا نشأة بدوية وحرصوا على الاحتفاظ بالطابع الجاهلي في شعرهم . كما قدمنا ، وكان منهم من لم يكن للحضارة الجديدة كبير أثر في شعرهم كذي الرمة ، ولم تظهر آثار البيئة الجديدة والحضارة الجديدة واضحة قوية في الشعر الاسلامي الامتداواخر العصر الأموي ولذلك نجد اكثر معاني الشعراء في هذا العصر ترداداً لمعاني الجاهليين ومحاكاة لطرقهم في التصوير ، يضاف الى ذلك ما أدخله الأسلوب القرآني والأفكار الإسلامية من التجديد في المعاني والصور . ولكننا لا نجد في اشعارهم ذلك الغوص على المعاني العميقة وتلك الصور الطريفة المبتكرة وتلك المبالغات البعيدة التي نجدها في اشعار العباسيين .

الأغراض والموضوعات

لعل اوضح مظاهر التطور في الشعر الإسلامي والأموي انما نجدها فيما طرأ على ابواب الشعر وأغراضه من التجديد فقد قل التعرض لبعض الأبواب وكثر النظم في موضوعات أخرى لم يعرفها الجاهليون او عرفوها بسيطة محدودة ، وسنجمل القول في كل منها :

١ — الغزل   كان الغزل معروفاً في العصر الجاهلي ولكن الشعراء الجاهليين كانوا قلما يجعلونه غرضاً مستقلا وانما كانوا يصدرون به قصائدهم ، وجروا على ذلك حتى صار الاستفتاح بالنسيب سنة لهم ، وكثيراً ما كان الشاعر الجاهلي يأتي بالنسيب بدافع التقليد لامدفوعاً بعاطفة حقيقية يشعر بها.

فلما جاء العصر الإسلامي والأموي ظل هذا النسيب التقليدي شائعاً في مطالع القصائد ، وكان الشاعر يحرص على التزامه في قصائد المدح خاصة ، فلم يكن هذا النسيب يختلف كثيراً عن عن نسيب الجاهليين من حيث خصائصه العامة ، فالشاعر لايعنى بالناحية النفسية من المرأة التي يتغزل بها بقدر عنايته بالناحية المادية منها ، فيعنى بوصف هيئتها وقدها ووجهها واعضائها واثر جمالها فيمن يراها ونحو ذلك ، ثم يصل ذلك بوصف الفراق والبين والشوق والحنين ووصف ديار الحبيب بعد البين ويقف على اطلالها باكيا ملتاعاً .

هذا النسيب عرف في العصر الإسلامي والأموي في بيئة الشام والعراق خاصة ، لأن الشعراء في هاتين البيئتين كانوا في شغل عن الشعر الغزلي الخالص لانهماكهم في المنازعات السياسية والدينية والخصومات القبلية التي كانت نيرانها مستعرة فيها ، وهو هذا النسيب الذي نجده في مطالع قصائد الخوارج والشيعة وانصار بني امية وغيرهم كالفرزدق وجرير والاخطل والطرماح والكميت والراعي وسواهم ، ولعلنا كنا نظفر بشعر غزلي صحيح لو ان بعض هؤلاء أتيح له التفرغ للغزل ، ويروى عن جرير قوله : « لولا ماشغلني من هذه الكلاب لشببت تشبيباً تحن منه العجوز الى شبابها حنين الناقة الى سقبها (١) » ، فلما لم يتح لجرير التفرغ للغزل اكتفى باطالة النسيب في مطالع قصائده إطالة ملحوظة.

على أن الأمر كان يختلف في الحجاز وما حولها عنه في الشام والعراق ، ففي هذا العصر ازدهر في بيئة الحجاز فن الغزل ازدهاراً عظيماً نتيجة توافر عوامل عديدة . فإن بني أمية حين خشوا مزاحمة قريش لهم على الخلافة ولم يأمنوا جانب المهاجرين والانصار جعلوا الشام بدلاً من الحجاز

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص ١٨٠ .

مركزاً لدولتهم وعزلوا الحجازيين عن السياسة العامة عزلاً تاماً وجعلوا من الحجاز منفى ومعتزلاً لأشراف قريش والانصار ، وكانوا يصطنعونهم بالأموال والهبات فإذا ناهضوهم منتصرين للزبيريين او للشيعة نكلوا بهم شر تنكيل ، فلما يئس الحجازيون من عودة الحجاز الى سابق مجده السياسي نفضوا أيديهم من شؤون السياسة على مضض وظاهروا بني أمية مكرهين على أعدائهم من الخوارج وغيرهم . وقد اتبع الأمويون هذه الخطة أيضاً مع شعراء الحجاز فصرفوهم عن التدخل في شؤون السياسة ومن اجترأ على مناصرة اعدائهم نكلوا به ، ولم ينج عبيد الله بن قيس الرقيات ، شاعر الزبيريين ، من القتل الا بمشقة ، واضطر اخيراً الى ممالأة الأمويين ومدحهم .

فحين صرف شعراء الحجاز عن امور السياسة العامة تفرغوا لأنفسهم فصاروا يتغنون مشاعرهم الذاتية ، وكان جلهم من ابناء المهاجرين والأنصار الذين أفاء الله عليهم الغنائم الوفرة إبان الفتوح ، فانصرفوا الى حياة اللهو ، وكان مما يغريهم على الانغماس في هذه الحياة والانصراف اليها شيوع مجالس الغناء والطرب في الحجاز ، وفي المدينة خاصة ، واحاديث هذه المجالس ومن كان يقوم عليها من القيان والمغنين امثال جميلة ومعبد وطويس وابن سريج وابن محرز وابن عائشة وغيرهم مشهورة مستفيضة في كتب الأدب ، ولا سيما في كتاب الأغاني . ولم يكن الشعراء يشاركون في هذه المجالس بالاستماع واللهو فقط بل كانوا يشاركون ايضاً في مد المغنين والمغنيات بما يحتاجون اليه من الأشعار ليغنوا بها .

وكما شغل هؤلاء الشعراء بمجالس الغناء شغلوا أيضاً بمواسم الحج فكانوا يتعرضون للحجيج الوافد من شتى أقطار المملكة الاسلامية فيتتبعون الحاجات الجميلات الشريفات ويتغزلون بهن وكان التعرض للنساء المسلمات امراً منكراً في بدء العصر الاسلامي فكان عمر يعاقب الشعراء الذين يشببون بالمسلمات بالجلد ، وكان الاشراف الذين يخشون تشبيب الشعراء المجان بنسائهم يمنعونهن من ارتياد مواسم الحج . ألا ان الامويين لم يتشددوا كثيراً في هذا الأمر ، باستثناء عمر بن عبد العزيز ، اما النساء فكن على مايظهر لايجدن ضيراً في تشبيب الشعراء بهن ، حتى الشريفات منهن ، وربما تعرضن عمداً للشعراء ليشببوا بهن ويشهروا جمالهن ، صنيع فاطمة بنت عبد الملك بن مروان التي ساءها ألا يشبب بها عمر بن ابي ربيعة حين قدمت مكة للحج .

كان طبيعياً اذن ، لاجتماع هذه العوامل كلها ، ان ينشط الشعر الغزلي الخالص ويزدهر على ايدي هؤلاء الشعراء حتى يصبح فناً مستقلاً ، وكان طبيعياً ايضاً ان يكون غزل هذه الطائفة المترفة اللاهية من شعراء مكة والمدينة مطبوعاً بالطابع العملي الصريح ، وكان طبيعياً ايضاً ألا تكون العاطفة

صادقة في جميع شعرهم وألا يقتصروا في غزلهم على ذكر امرأة واحدة بل يشببوا بكل هؤلاء النساء الجميلات اللائي يصادفونهن في مجالس اللهو ومواسم الحج . واشهر هؤلاء الشعراء عمر بن أبي ربيعة وعبدالله بن عمر ... بن عثمان بن عفان المشهور بالعرجي ، والأحوص بن عبدالله الأنصاري، وعبيد الله بن قيس الرقيات .

على ان هناك طائفة اخرى من الشعراء الغزلين وجدوا في هذا العصر وقالوا ايضاً كل شعرهم في الغزل ، ولكنهم لم يكونوا من أبناء المهاجرين والأنصار ولا من المتحضرين في مكة والمدينة ، وانما كانوا يعيشون في بوادي الحجاز ونجد ، وكان غزلهم في جملتــه لايختلف كثيراً عن غزل الجاهليين في اسلوبه ومعانيه ، الا ان نفوسهم تأثرت بالاسلام والقرآن فرقت طباعهم ولانت ، وقد صرفهم الاسلام عن الموضوعات التي انصرف اليها شعراء البدو الجاهليون والتي كانت تدعو اليـا العصبية القبلية وحياة القتال والغزو المتصل ، وكذلك صرفوا عن المشاركة في سياسة الدولة العامة لأن قريشاً استأثرت بالحكم وأبت على القبائل العربية الأخرى مشاركتها فيه ، ومن أراد منهم ان يصبح شاعراً سياسياً كان عليه ان يرتحل الى الشام او الى العراق ، فلم يجد الذين استقروا في بوادي الحجاز ونجد ملاذاً لهم الا في الشعر الغزلي . ولم تكن بيئتهم البدوية العفيفة الفقيرة لتتيح لهــم الانغماس في حياة اللهو التي انغمس فيهـا شعراء الحواضر ، فجاء غزلهم عفيفاً لامجون فيه ولاتهتك يتفق وطبيعتهم البدوية ويتفق ونفوسهم المتأثرة بتعاليم الاسلام التي تدعو الى الزهد والعفـة والى الاعراض عن المجون والتهتك ، ويتفق وبيئتهم الفقيرة التي لاتتيح لهم الانصراف الى حياة اللهو والمجون التي انصرف اليها شعراء الحجاز . وكان طبيعياً بعد هذا ان يقفوا شعرهم كلـه على الغزل لا أن يصدّروا به قصائدهم فحسب ، صنيع الجاهليين . والأمر الثاني الذي يختلف فيـه غزلهم عن غزل الجاهليين هو انهم لم يقتصروا في غزلهم على وصف المرأة وذكر محاسنها بل عبروا ايضا عن مشاعرهم الخاصة وصار الغزل عندهم غاية في ذاته .

والظاهرة التي نلحظها في اشعار هؤلاء انهم كانوا في الغالب يتغزلون بامرأة واحدة لابعــدة نساء حتى صاروا ينسبون الى النساء اللاتي تغزلوا بهن فيقال : جميل بثينة ، وكثير عزّة ، ومجنون ليلى . وظاهرة اخرى هي انهم كانوا يتشابهون في اسلوبهم وفي معـانيهم حتى لايكاد الناقـد يميّز فروقاً جوهرية واضحة بين اشعارهم وحتى ليسهل إضافة ما لأحدهم الى الآخر ، وحتى انك لتقف على فنهم وأسلوبهم ومعانيهم جميعاً اذا قرأت شعر أحدهم . وهؤلاء الشعراء هم الذين عرفوا بالعذريين ، نسبة الى قبيلة عذرة اليمانية التي اشتهر افرادها بالحب العفيف ، واشهرهم جميل بن معمر صاحب

بثينة ، وكُثَيِّر بن عبد الرحمن صاحب عَزَّة ، وقيس بن المُلَوَّح صاحب ليلى وهو المعروف بمجنون ليلى ، وقيس بن ذَرِيح صاحب لبنى .

وحول هؤلاء الشعراء وأشعارهم وضعت قصص متشابهة تتحدث عن حبهم العفيف واتصالهم البريء بمن احبوا من النساء ،وكل هذه القصص تتشابه في نهايتها فكان حب هؤلاء الشعراء لاينتهي بهم الى الزواج ممن احبوا ، لأن أهل الفتاة يرفضون تزويجها من الشاعر لفقره او لاشتهار حبه لها ، فلا يزيده هذا الا امعاناً في حبها والتغزل بها ، فيستعدي أهلها الخليفة على الشاعر فيهدر دمه فيضطر الى الفرار والى ان يهيم على وجهه في الصحراء حتى يدركه حينه يائساً محطم القلب . وهذه القصص نجدها مروية في كتاب الاغاني عند كلامه على هؤلاء الشعراء .

٢ — الشعر السياسي والديني منذ أن جاهر الرسول عليه السلام بدعوته وأخذ يدعو العرب الى عبادة إله واحد واعتناق دين واحد والى التوحد تحت لواء زعيم واحد شعر اشراف قريش ان ثمة خطراً يتهدد مركزهم الديني والتجاري فناهضوا الرسول مناهضة عنيفة حتى اضطر الى المهاجرة الى يثرب حيث التفت حوله قبائل الاوس والخزرج الذين عرفوا بالانصار ، وبدأمنذ ذلك الحين صراع لساني وحربي بين قريش من جانب وبين الانصار والمهاجرين من جانب آخر .
وقد وجدنا الرسول يتخذ من شعراء الانصار سلاحاً يهاجم به المشركين وشعراءهم ، فكان يقف في صف الرسول حسان وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وكان يقف في صف المشركين عمرو بن العاص وابو سفيان وعبدالله بن الزِبَعري وضرار بن الخطاب ، وكان حسان وكعب ،على ماروى ابو الفرج ، يعارضان شعراء المشركين بمثل قولهم ، بالوقائع والايام والمآثر ويعيّرانهم بالمثالب ، وكان عبد الله بن رواحة يعيّرهم بالكفر ، فكان الشعر المقول على ألسنة هؤلاء الشعراء نواةالشعر الديني الاسلامي والشعر السياسي .

ثم قبض الرسول بعد ان وحد قبائل العرب في أمة واحدة تخضع لزعيم واحدومنذ وفاته اصبحت زعامة المسلمين أمراً تتزاحم عليه قبائل العرب وتقتتل من أجله وتنشأ الاحزاب والفرق بسببه ، وبدأ هذا التنافس بين المهاجرين والانصار واستطاعت قريش ان تستأثر بالحكم ولكن ابا بكر ما كاد يقوم بأمر الخلافة حتى ارتدت عن الاسلام قبائل كثيرة من العرب لم ترتض زعامة قريش فشغل ابو بكر بقتالها حتى فاءت الى الاسلام واذعنت مكرهة لسلطان القرشيين .

وفي عهد عمر شغل العرب بالفتوح عن امور السياسة الداخلية فلم يثر النزاع بينهم حول الخلافة ولكنها لما آلت الى عثمان رأى بنو أمية في هذا ظفراً سياسياً على بني هاشم وعلى سائر القرشيين وكان

ثم جماعة من المسلمين رأوا ان الخلافة يجب أن تكون في آل علي فكانوا النواة الأولى لحزب الشيعة، وما لبثت سياسة عثمان القائمة على تمكين بني أمية من أموال المسلمين ان أكثرت اعداءه والناقمين عليه وانتهى الأمر بمقتله وتولية علي الخلافة .

ولكن بعض القرشيين كانوا يطمعون في ان تكون الخلافة لهم بعد عثمان فاستغلوا مقتله ليطالبوا بالخلافة تحت ستار المطالبة بدمه ، وبدأ النزاع بين علي وبين أصحاب الجمل ، ثم بين علي وبين معاوية، وانقسم المسلمون حزبين أحدهما يناصر علياً والآخر يناصر معاوية ، وعلى أثر وقعة صفين وجد حزب الخوارج وبدأ التطاحن بين هذه الأحزاب حول الخلافة والحكم وانتهى الأمر بانتصار الأمويين واستقرار الحكم في أيديهم يرثه الأبناء عن الآباء .

ولكن الأمر لم يصف لهم مدة حكمهم فإن عبد الله بن الزبير كان يرجو أن تكون له الخلافة بعد معاوية فأبى مبايعة يزيد وقاتل الأمويين مدة عشر سنوات وكاد الأمر يتم له لولا سوء سياسته وانتهى الأمر بمقتله في زمن عبد الملك بن مروان . بيد أن حزب الخوارج ظل يناضل الأمويين ويزعجهم طوال مدة حكمهم على الرغم من انقسامه على نفسه وعلى الرغم من سياسة الإبادة التي اتبعها الأمويون حياله . اما حزب الشيعة فكان حزباً مستضعفاً نصره الناس بقلوبهم أكثر مما نصروه بسيوفهم ولم يتوان الأمويون عن البطش به وبزعمائه بلا هوادة .

وهذه الأحزاب المناوئة لبني أمية لم تبق متحدة الكلمة بل سرعان ما انشقت على نفسها وافترقت فرقاً كثيرة .

وكانت سياسة الأمويين كما نعلم عربية أكثر منها اسلامية فعاملت الموالي الذين انضووا تحت لواء الدولة الاسلامية مكرهين معاملة السيد لمسود وآذاهم مما أوغر صدور هؤلاء الموالي على العرب عامة وعلى بني أمية خاصة ، فكانوا يشاركون في كل الثورات التي تقوم ضد بني أمية، وكان قسم منهم يظاهر العلويين وقسم آخر يساند الخوارج، وكان لهم آخر الأمر اليد الطولى في تقويض ملك بني أمية.

كل هذه الأحزاب التي كانت تصطرع من أجل الخلافة لم يكن صراعها حربياً فحسب وانما كان لسانياً أيضاً ، فكان لكل حزب شعراؤه وخطباؤه المدافعون عنه ، الناطقون بلسانه ، وكان هؤلاء الشعراء بمثابة الصحف في أيامنا هذه فكان لهم كبير الأثر في الدعاوة للحزب، ولذلك حرص كل حزب على ان يستكثر من الشعراء والخطباء ليقوي بهم جانبه . وبعد ان كانت هذه الأحزاب سياسية خالصة لا غاية لها إلا الظفر بالحكم أصبحت لبعضها أصول دينية تتصل بصفات الحاكم وارتكاب كبائر الذنوب والقتال ونحو ذلك ؛ فكان الشعر المقول على ألسنة شعراء هذه الأحزاب ذا صبغة سياسية تشوبها صبغة دينية ، ولا سيما شعر الخوارج والشيعة .

وكان الحزب الأموي اقوى هذه الاحزاب وأقدرها على اجتذاب الشعراء واصطناعهم بالأموال والهبات ، فكان اكثر الشعراء في العصر الأموي في صف بني أمية منهم الفرزدق والأخطل وجرير ومسكين الدارمي وابو العباس الأعمى وعبد الله بن خارجة الشيباني والنابغة الشيباني وعديّ بن الرقاع وابو صخر الهذلي وعبد الله بن الزَّبير الأسدي ونُصيب وغيرهم . وجل هؤلاء الشعراء كانوا يناصرون الأمويين رغبة في جوائزهم لا حباً بهم ، ولهذا لانستغرب ان تنطوي نفوس بعضهم على بغض بني أمية او على التشيع للأحزاب الأخرى كالذي يروى عن الفرزدق من انه كان متشيعاً لعلي .

اما شعراء الخوارج فلم يكونوا من المتكسبين المرتزقة وانما كانوا من المؤمنين بمذهب الخوارج المدافعين عنه بلسانهم وقلوبهم وربما بحسامهم ايضاً ، فكانوا أصدق عاطفة من شعراء الأمويين ، ومنهم من كان شاعراً وزعيماً معاً ، واشتهر منهم قطري بن الفجاءة وعِمْران بن حِطّان الذهلي والطِرِمّاح بن حكيم الطائي وعمرو بن الحصين .

وفي حين نرى شعراء الخوارج يقفون شعرهم في الغالب على الانتصار لمذهبهم نجد شعراء الشيعة لايقفون شعرهم كله على مناصرة مذهبهم بل كانوا يعنون بفنون الشعر الأخرى ايضاً ، وكان يحملهم على مناصرة الحزب الشيعي اعتقادهم بحقه في الخلافة الا انهم ما كانوا كشعراء الخوارج يدافعون عنه دفاعاً حربياً ، وكثيراً ما كانوا يأخذون بالتقيّة ويمدحون خلفاء بني امية خوفاً او تكسباً ، ولذلك لانجد في شعرهم تلك القوة التي نجدها في شعر الخوارج . واشهر شعرائهم الكُمَيت بن زيد الأسدي الذي نظم قصائد عديدة في مدح بني هاشم والاحتجاج لهم أسماها « الهاشميات » وقد اضطهده الأمويون لمدحه بني هاشم وهددوه بالقتل مما اضطره الى ممالأتهم ومدحهم . ومن الشعراء الذين عرفوا بتشيعهم كثيّر عزة وأيمن بن خُرَيم الأسدي والسيّد الحميري .

اما حزب ابن الزبير فلم يكن ينصره كثير من الشعراء لما عرف به عبد الله بن الزبير من الشح والبخل فانفض عنه الشعراء ولم يأخذ بناصره إلاّ عبيد الله بن قيس الرقيّات الذي كان معجباً بمصعب بن الزبير ، محباً له ، وكان ناقماً على بني أمية لنقلهم مركز دولتهم من الحجاز الى الشـــام ومشفقاً من ذهاب سلطان قريش ، فناصر الزبيريين حتى قتل مصعب وأخوه عبد الله فاضطر بعدهما الى مصانعة الأمويين ومدحهم .

٣ — **الهجاء والنقائض** كان الهجاء في العصر الجاهلي قائماً على تجريد المهجو من الفضائل التي كان الجاهليون يفاخرون بها كالشجاعة والنجدة والكرم وعلو النسب ، اما الهجاء القائم على

نهش الاعراض وعلى السباب والاِفحاش في القول فلم يكن شائعاً في العصر الجاهلي ، وكان الحطيئة المخضرم يجمع في هجائه بين هذين الضربين . وكانت بواعث الهجاء في العصر الجاهلي قبلية في الغالب ولذلك كان يخالطه الفخر .

فلما قام الاسلام قامت معركة هجائية بين شعراء المشركين وبين شعراء الانصار ، وكان هجاء المشركين وهجاء حسان وكعب على غرار الهجاء الجاهلي الذي يدور حول ذكر مثالب القبيلة وتجريدها من الفضائل ، ولهذا وجدنا الرسول يشير على حسان بلقاء ابي بكر ليدله على هنات قريش ومثالبها . وحين توطدت دعائم الدولة الاسلامية نهى الرسول وخلفاؤه عن هجاء المسلمين ، وكان عمر يشتد في عقوبة الشعراء الذين يتعرضون لهجاء الناس فوجدناه يسجن الحطيئة لهجائه الزبرقان ويتهدد النجاشي بقطع لسانه لهجائه بني العجلان .

وحين آلت الخلافة الى بني أمية كان من سياستهم في اول الأمر ، كما قدمنا ، الاغراء بين القبائل والشعراء كما كان من سياستهم تقريب الشعراء اليهم واصطناعهم ، فبعد ان كان الاخطل ناقماً على بني امية قربوه اليهم وحرضه يزيد على هجاء الانصار فهجاهم هجاءً مقذعاً منه قوله :

ذهبت قريشٌ بالمكارمِ كلِّها   واللؤمُ تحت عمائم الانصار

فكبر على الانصار ان يهجوهم شاعر نصراني فدخل شاعرهم النعمان بن بشير على معاوية غاضباً وأنشده قصيدة يهدده فيها بثورة الانصار إن لم يؤدب الاخطل ، فأمر معاوية بقطع لسان الاخطل وكاد يفعل لولا تدخل يزيد .

وفي العصر الاموي يميل الهجاء الى ناحية الاِفحاش ونهش الاعراض وقذف المحصنات ، وهو مالم يكن فاشياً في العصر الجاهلي ، وكان الذوق العام في هذا العصر لا يمج سماع هذا اللون الفاحش من الهجاء ويشجع عليه ، وبلغ هذا الهجاء البذيء غايته في النقائض التي كانت بين جرير والفرزدق وبين جرير والاخطل ، هذا الى جانب الهجاء القديم الذي عرفه الجاهليون والذي يقوم على التجريد من الفضائل والتعيير بالمثالب .

والنقائض مأخوذة من الفعل ناقضه في الشيء مناقضة اي خالفه ، وقد أطلقت في الأدب على ضرب من التحدي والتهاجي يقوم بين شاعرين يقول احدهما قصيدة في هجاء الآخر ومفاخرته فيرد عليه الآخر بقصيدة تشاكلها في البحر والقافية ينقض فيها ماقاله خصمه فيفند مزاعمه ويدحض أقواله ثم يهجوه بنحو هجائه له ويفاخره بمآثره وفضائله . ولما كانت حياة العرب الاجتماعية قائمة على القبيلة فإن هذا الهجاء وهذه المفاخرة لم تكن تقتصر على الشاعر بل كانت تتناول قبيلته ايضاً ، بل

ان العصبية القبلية كانت الدافع الأول لنشوء فن النقائض .

وليست النقائض فناً اموياً خالصاً وانما هو فن جاهلي النشأة ؛ فإن الحياة العامة في الجاهلية هي التي أدت إلى نشوئه ولا سيما هذا المداء المتصل بين القبائل الذي لم تكن مظاهره حربية فحسب وانما كانت لسانية ايضاً ، فكان شعراء القبائل يهجو بعضهم بعضاً ويفاخر بعضهم بعضاً ويناقض بعضهم بعضاً ، وقد انتهى الينا بعض هذه النقائض التي تتصل بأيام الجاهليين ووقائعهم كالتي قيلت في الوقائع التي دارت بين عرب الجنوب وعرب الشمال ، وبين الأوس والخزرج من اليمن ، وبين عبس وذبيان ، وبين تغلب وبكر ، وبين بكر وتميم وغيرها ، منها نقائض حسان بن ثابت الخزرجي وقيس بن الخطيم الأوسي ؛ ونقائض رُشيد بن رميض العنزي الربعي ومحرز بن المُكَعبَر الضبّي ، ونقائض النابغة الذبياني وعامر بن الطفيل ، وغيرها ، وثمة نقائض اخرى اسبابها لاتمت الى العصبية القبلية بل الى امور اخرى كالتي كانت بين ابي ذؤيب الهُذَلي وخالد بن زهير ونحوها . (١) وهاك مثالاً للنقائض الجاهلية :

من ابيات لحسان بن ثابت يعرّض بليلى اخت قيس بن الخطيم ويفتخر بقومه :

تذكرت ليلى وأنّى بها ... اذا قُطِّعت منك أقرانُها

ويثرب تعلم أنّا بها ، ... اذا التبس الأمر ، ميزانُها

ويثرب تعلم أنّا بها ، ... اذا خافت الأوسَ جيرانُها

متى ترنا الأوس في بيضنا ... نهزُّ القنا تخبُ نيرانُها

وتُعطِ القيادَ على رَغمها ... وينزلْ من الهام عصيانُها

فيرد عليه قيس متغزلاً بعمرة ام النعمان بن بشير ومفتخراً بقومه :

أجدَّ بعَمرة غُنيانُها ... وباح لك اليوم هجرانُها

ونحن الفوارسُ يوم الربيع ... قد علموا كيف فرسانُها

رددنا الكتيبة مفلولةً ... بها أفْنُها وبها ذانُها

ولولا كراهةُ سفكِ الدماء ... لعاد ليثرب أديانُها

ثم جاء الإسلام فكان شعراء المشركين والمسلمين يتهاجون ويتناقضون ويذكرون ما يكون بينهم من غزوات ووقائع . ولما انقسم المسلمون الى احزاب كان شعراء هذه الأحزاب يتهاجون

---

(١) راجع تفصيل هذا البحث في كتاب تاريخ النقائض في الشعر العربي تأليف احمد الشايب.

ويتناقضون ايضاً كالتناقض الذي قام بين كعب بن جعيل المناصر لمعاوية والنجاشي المناصر لعلي.

على أن فن النقائض لم يرتق ويزدهر الا في العصر الاموي الذي استيقظت فيه العصبية القبلية بعد أن خدّرها الاسلام ، وانضمت الى العوامل القبلية عوامل أخرى سياسية واجتماعية واقتصادية وشخصية ادت الى ازدهار هذا الفن وشيوعه شيوعاً عظيماً ، وكانت نقائض هذا العصر تختلف عن نقائض العصر الجاهلي بطولها وإفحاشها واتساع الخيال فيها . ومما وصلنا من نقائض هذا العصر ما كان بين هدبة بن خشرم العذري وزيادة بن زيد الذبياني ، وماتناقض به حارثة بن بدر اليربوعي وأنس بن زنيم الليثي ، وليلى الاخيلية والنابغة الجعدي ، وسلمان العجلي والابيرد بن رياح اليربوعي ، وزفر بن الحارث القيسي وجواس بن القعطل الكلبي ، الخ .. وأشهر نقائض هذا العصر النقائض التي كانت بين جرير والفرزدق ، وبين جرير والاخطل ، وسنوجز القول في دوافع هذه النقائض الاخيرة .

قام نزاع بين بني الخطفى ، رهط جرير ، وبين بني سليط ، وكلاهما من يربوع التميمية ، فهجا غسان بن ذهيل السليطي بني الخطفى فردّ عليه جرير ، وكان اذ ذاك حدثاً يرعى إبل أبيه ، والتحم الهجاء بينهما فقال غسان قصيدة يهجو بها جريراً مطلعها :

لعمري لئن كانت بجيلةُ زانها ... جريرٌ لقد أخزى كليباً جريرُها

فأجابه جرير بنقيضة اولها :

ألا بكرت سلمى فجدّ بكورُها ... وشقّ العصا بعد اجتماع أميرُها

فكانت هذه اولى معارك الهجاء التي خاضها جرير وعلى اثرها اشتهر اسمه وذاع ؛ ويضطر بنو سليط الى الاستعانة بشعراء آخرين ليثبتوا في وجه جرير . وبينما كان جرير يكيل ضرباته لغسان وقومه اذا بالبعيث المجاشعي الشاعر يتحرش ببني يربوع ، رهط جرير ، لأن جماعة منهم سرقوا له إبلاً ثم ردوها اليه معتذرين ، فيهب جرير للدفاع عن قومه ويهجو البعيث بقصيدة اولها :

طاف الخيال ، وأين منك ، لماما ... فارجع لزورك بالسلام سلاما

ويكاد الأمر ينتهي عند هذا الحد لولا أن قوماً أثاروا البعيث فهجا جريراً بقصيدة يقول فيها :

أجريرُ أقصرْ لا تحينْ بك شقوةٌ ... إن الشقيّ ترى له أعلاما

والتحم الهجاءُ بينهما وتوالت نقائضهما حتى رجحت كفة جرير فلجأت مجاشع الى شاعرها

الفرزدق (١) ، ويقال انه كان قيد نفسه حتى يحفظ القرآن وعاهد الله ألا يهجو احدا ، ولكنه كان يرقب المعركة عن كثب وكان في نفسه شيء من البعيث ، فانتظر حتى اجمل جرير البعيث فهب مدافعاً عن مجاشع ، رهطه ، ومنافساً جريراً في زعامة تميم الشعرية ، فقال قصيدة يهجو فيها جريراً والبعيث معاً فيرد عليه البعيث يهجوه وجريراً معه وتم هذه المناقضة الطريفة بأن يهجو جرير الفرزدق والبعيث معاً ، وهكذا يسقط البعيث ويلتحم الهجاء بين جرير والفرزدق وتتصل النقائض بينهما حتى وفاة الفرزدق .

وكان الأخطل التغلبي ، شاعر بني أمية ، يرقب ايضاً هذه المعركة الهجائية بين جرير والفرزدق وكان ناقماً على جرير لمدحه قبيلة قيس المعادية لتغلب ، قبيلة الأخطل ، فلما غادر جرير العراق الى البلاط الأموي في الشام ، ازدادت نقمته عليه لمزاحمته إياه على مكانته لدى بني أمية ، فتحرش به بأن فضل عليه الفرزدق في مجلس بشر بن مروان ، فسرعان ماجاءه رد جرير في قصيدة يهجوه فيه ويهجو الفرزدق ويقول فيها :

ياذا الغباوة إنّ بشراً قد قضى أن لاتجوزُ حكومهُ النّشوانِ

فأجابه الأخطل بقصيدة مطلعها :

بكر العواذلُ يبتدرن ملامتي والعاذلون فكلُّهم يلحاني

والتحم الهجاء بينهما اثر ذلك واتصلت نقائضهما . ولم يكن على جرير أن يرد على الفرزدق والأخطل فقط بل كان عليه ايضاً ان يرد على كثير من الشعراء انضموا الى صف خصميه ، لأسباب مختلفة ، حتى زعموا أنّ عدة من هاجاهم جرير سبعون شاعراً .

ومن الإنصاف أن نشير الى ان هذه المعركة الهجائية قد أذاعت ذكر كل من جرير والفرزدق والأخطل وكانت لهم خير دعاوة ادبية حتى أصبح حديثهم يملأ المجالس وحتى شغل الناس بترقب نقائضهم كما يترقبون اليوم آخر الأنباء ، وكانت مسألة المفاضلة بين هؤلاء الشعراء الثلاثة من أهم مايشغل النقاد والناس في ذلك العصر ، وهذا مايفسر لنا اتصال الهجاء بينهم طوال حياتهم لأنهم كانوا جد حريصين على هذه الدعاوة الأدبية وعلى إرضاء الناس ، ولأنهم كانوا يتنافسون على الزعامة الشعرية ، وكان بشر بن مروان يغري بين هؤلاء الشعراء لغايات سياسية ، وكان الناس الذين لذّ

---

(١) كان كل من جرير والفرزدق من قبيلة تميم الا أن جريراً يربوعي والفرزدق دارمي (انظر جدول الانساب) .

لهم تدبع هذه النقائض لايزالون يحضؤون نار العداوة بينهم ويشجعونهم على الاقذاع والافحاش .

وكان فن الهجاء في هذه النقائض قائماً على امور ثلاثة : الأول ان يذكر الشاعر معايب خصمه ومثالب قبيلته ويفتخر بنفسه وبقبيلته ، وهو امتداد للهجاء المعروف في الجاهلية . والثاني تناول الأعراض وقذف المحصنات والسباب البذيء الذي تأباه اذواقنا اليوم وتمجه نفوسنا لما فيه من الواقعية السافرة والهجاء المكشوف الشنيع . والثالث تصوير الخصم بصورة ساخرة تحمل القارىء على الضحك ، وهذا الضرب الثالث ازدهر في العصر العباسي ازدهاراً عظيماً على ايدي الشعراء الساخرين ولا سيما ابن الرومي . وسنشير فيما بعد الى سائر ماتحلى به النقائض من خصائص اسلوبية ومعنوية .

وقد عني الادباء بهذه النقائض فجمع ابو عبيدة مَعْمَر بن المُثَنّى (المتوفى سنة ٢٠٩) نقائض جرير والفرزدق ونشرها المستشرق الانكليزي بيفان Bevan وطبعت في مدينة ليدن بهولندة عام ١٩٠٧ ، ثم طبعت بعد ذلك بمصر سنة ١٩٣٥ . وجمع ابو تمام نقائض جرير والاخطل ونشرها الأب انطون صالحاني اليسوعي في بيروت سنة ١٩٢٢ .

٤ — المدح لم يكن الجاهليون يكثرون من المدح واذا مدحوا فقلما كانوا يمدحون للتكسب ، وكانوا يأنفون من مدح غير الملوك والأشراف . وقبيل الإسلام كثر التكسب بالمدح ، ويروي ابن رشيق أن اول من تكسب بالشعر النابغة الذبياني ولذلك سقطت منزلته ، ثم جاء بعده زهير بن ابي سلمى والأعشى ، ثم جاء الحطيئة و « أكثر من السؤال بالشعر وانحطاط الهمة فيه والإلحاف حتى مقت وذل أهله ، وهلم جرا الى أن حرم السائل وعدم المسؤول [1] . » ، وكان الشعراء من قبل يرون الأخذ ممن هم دون الملوك عاراً وضعة .

وفي عهد الرسول تساهل في الاستماع الى الشعراء الذين كانوا يمدحونه ويبشرون بصدق رسالته ولكنه نهى عن المدح الكاذب وكذلك خلفاؤه ، حتى جاء العصر الاموي فشاع فيه التكسب بالمدح شيوعاً عظيماً لأن بني أمية كانوا يشجعون عليه ليؤيدوا به حكمهم وراجت صناعة الشعر ودرت على اصحابها من المتكسبين بمدحهم الأموال الوفرة ، وصار الشعراء يتنافسون في تجويد قصائد المدح وتوليد المعاني والمبالغة في تعظيم الممدوح حتى صار شعر المدح في نظر النقاد القدماء مثال الشعر الجيد الممتاز ، ولكن ليس لهذا الشعر في نظر النقاد المحدثين كبير منزلة لأنه خلو من العاطفة الصادقة

---

(١) العمدة ج ١ : ٦٥

التي هي ركن من اركان الفن الشعري ، وقد بلغ التكسب بالمدح غايته في العصر العباسي .

٥ — **الفخر** قل الفخر القبلي بظهور الاسلام وحل محله الفخر الديني ، ولكن الفخر القبلي مالبث ان عاد الى الظهور في عهد الأمويين ، وظل الشعراء يتفاخرون بالمثل العليا الجاهلية كالكرم والمروءة والنجدة والشجاعة وشرف النسبة وبالوقائع والأيام القديمة . الا انهم ضموا اليها اموراً اسلامية كالفخر بمناصرة الرسول وبصدق العقيدة الدينية . وظهر في العصر الأموي على اثر اختلاط العرب بالأعاجم ، فخر قومي ولدته العصبية القبلية فكان العرب يفاخرون العجم بعروبتهم وبأنهم قوّضوا ملكهم وفتحوا بلادهم ، كقول احدهم :

إنّا من النفر الذين جيادُهم طلعتْ على عادٍ بريحٍ صرصرِ
وسلبنَ تاجَيْ مُلكِ قيصرِ بالقنا واجتزْنَ بابَ الدربِ لابنِ الأصفرِ

وكان العجم يردون على العرب مفتخرين بحضارتهم القديمة ومجدهم الغابر كقول اسماعيل بن يسار مفتخراً بالفرس :

مَن مثلُ كسرى وسابورِ الجنودِ معاً والهُرمزانِ لفخرٍ او لتعظيم
أُسْدُ الكتائبِ يومَ الرَّوعِ إن زحفوا وهم اذلوا ملوكَ الترك والرّوم

الا ان صوت الموالي لم يرتفع عالياً في هذا العصر لأن بني أمية كانت سياستهم عربية خالصة تنظر الى الموالي نظرة السيد الى المسود .

٦ — **سائر الأغراض** لم يطرأ على أغراض الشعر الأخرى كبير تغيّر إلاّ ما كان من اتساع مادة الوصف لاتساع البيئة العربية وتنوّعها فكثر وصف القتال والغزوات والفتوح وخطا وصف الخمر خطوة أخرى على يد الأخطل والوليد بن يزيد . وكذلك ارتقى الرثاء بعض الرقي بفضل الخنساء التي انفقت حياتها في بكاء اخويها صخر ومعاوية .

* * *

نماذج من الشعر الإسلامي والأموي

حسان بن ثابت

ترجمة (١)

هو حسان بن ثابت بن المنذر ، من قبيلة الخزرج الأزدية اليمانية ، هاجرت قبيلته من اليمن الى شمال الجزيرة العربية فاستقرت هي وأختها الأوس في يثرب . وهو من مخضرمي الجاهلية والإسلام ، ولا نعرف الكثير من أخباره في الجاهلية وكل مانعرفه عنه انه ولد قبيل مولد الرسول بسنوات ، وانه نشأ في يثرب وعاش عيشة فتيان الجاهلية المترفين المتحضرين ينفق أيامه في الاختلاف الى مجالس اللهو والغناء والشراب والمتعة ، وكان شديد التعصب لقبيلته ينافح عنها ويهجو خصومها، ولاسيما قبيلة الأوس التي كان بينها وبين الخزرج وقائع متصلة في الجاهلية لم تنته الا بدخولهما في الإسلام ، وكانت بين حسان وبين قيس بن الخطيم شاعر الأوس مناقضات كثيرة .

وكان حسان يختلف الى المواسم والأسواق يعرض فيها شعره على الناس والنقاد ، وكان يختلف ايضاً الى بلاط الغساسنة في الشام ، وكانت تجمعه بهم صلة القرابة لأن قبائل الخزرج والأوس وغسان والمناذرة كلها من الأزد اليمنية . ولكن صلة حسان بالغساسنة تبدو لنا مضطربة اشد الاضطراب في كتب الأدب ، فالمؤرخون يزعمون انه اتصل بجبلة بن الأيهم ، وبعمرو بن الحارث وبالأيهم وبغيرهم ، والأرجح انه اتصل اول الأمر بعمرو بن الحارث (حكم من سنة ٥٨٧ الى ٥٩٧ م) حسبما حققه دوبرسفال ، وربما اجتمع عنده بالنابغة بعد فراره من النعمان بن المنذر، ولكننا لانشك في افتعال القصة التي ترويها كتب الأدب حول اتصال حسان بالنابغة . ثم اتصل بعد ذلك

---

(١) اذا اوردنا للشاعر اكثر من نص واحد بدأنا بترجمته .

بالحارث السابع ثم بالأيهم الثاني ، وربما صادف في بلاط هذا الملك ابنه جبلة وصادقه ، ولعل جبلة ارسل إليه بعد ذلك ثياباً ودنانير ، حين كان لاجئاً الى ملك الروم فراراً من عمر بعد ارتداده عن الإسلام (١) . وعلى كل كان حسان يتردد على ملوك الغساسنة وينادمهم ويمدحهم وكان لهذه الحياة الحضرية أثرها الواضح في شعره .

اما مايروى في بعض كتب الأدب عن اتصال حسان بالمناذرة فلا دليل عليه في شعر حسان ، وكل مافي ديوانه مما يدل على اتصاله بالملوك اربع قصائد في مدح الغساسنة .

ولما هاجر الرسول الى يثرب دخل حسان في الإسلام مع من دخل من قومه ودافع الأوس والخزرج عن الرسول وقاتلوا أهل مكة فسموا بالانصار ، ثم احتاج الرسول الى من ينصره على القرشيين بلسانه لأن شعراء قريش كانوا يؤذون الرسول والمسلمين بهجائهم ، فيشار على النبي باختيار علي بن ابي طالب لهذه الغاية فلا يجده كفءاً لها ثم يقول للأنصار : « مايمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم » ؟ فينبري حسان قائلا : أنالها ، ثم يأخذ بطرف لسانه ويقول : والله مايسرني به مقول بين بصرى وصنعاء . فقال الرسول : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ فقال : إني أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين . فيشير عليه الرسول بلقاء أبي بكر ليدله على هنات قريش ومثالبها ، فلما أخذ يهجوهم لم يخف عنهم أن لابن ابي قحافة يداً في هذا الهجاء .

ومنذئذ أصبح حسان شاعر الرسول الخاص يفاخر به شعراء الوفود والمشركين ، وكان هجاء حسان للمشركين فيه كثير من الفحش والاقذاع وكانت معانيه جاهلية اكثر منها إسلامية، على أن نصيب حسان من الجهاد في صف الرسول كان مقتصراً على الناحية اللسانية ، اما الجهاد الحربي فلم يكن لحسان فيه مشاركة فعالة لما عرف به من الجبن حتى انه لم يجرؤ على سلب يهودي مقتول ، وكان اذا حمل المسلمون في وقعة الخندق على المشركين حمل بسيفه على وتد في الأرض ، ومع ذلك كان لا ينفك يفخر بشجاعته وبسالته فإذا سمعه الرسول يفخر بهما لم يملك نفسه من الضحك ، وكان يخضب شاربيه وعنفقته ليكون كأنه « أسد والغ في دم » .

بيد ان مآثره في الدفاع عن الاسلام بشعره كانت تغنيه عن المآثر الحربية، وكان الرسول دائم الثناء عليه حتى انه تغاضى عن موقفه من عائشة في حديث الإفك المشهور ، كما تغاضى عن تعريضه بالمهاجرين ذات مرة ، وحين ضربه صفوان بن المعطل بسيفه لهجائه إياه عوضه الرسول عن ذلك بإعطائه بستاناً ووهبه سيرين القبطية ، اخت مارية ام ولد الرسول ، فولدت له ابنه عبد الرحمن.

ولما توفي الرسول وقف حسان بجانب قومه الأنصار يدافع عن حقهم في الخلافة ولكن المهاجرين

---

(١) انظر خبر جبلة وحسان واسلام جبلة ثم ارتداده في خزانة الأدب ج ٤ :٢٩٦

يستأثرون بالسلطة فيضعف شأن الأنصار ويهمل الخلفاء حسان ويعرض الناس عن سماع شعره لانشغالهم بأخبار الفتوح ، وكان عمر ربما سمعه ينشد شعره الناس في مسجد الرسول فيأخذ بأذنه ويقول : أرغاء كرغاء البعير ، فيرد عليه حسان بقوله : دعنا عنك يا عمر ، فوالله تعلم أني كنت أنشد في هذا المسجد من هو خيرٌ منك فلا يُغيِّرُ علي ، فيقول له عمر : صدقت .

ولما قتل عثمان رثاه حسان وحرض على الأخذ بثأره واتهم بدمه علي بن ابي طالب ، وكان الرسول قد آخى بين عثمان وبين اوس بن ثابت اخي حسان ، وكان طبيعياً ان ينحاز وقومه الى صف معاوية ضد علي ، فيكرم معاوية وفادتهم ويشتري من حسان حائطه بيرحاء الذي منحه إياه الرسول ويهبه الف دينار . وفي عهد معاوية مات حسان بعد ان كف بصره وجاوز المائة ، ويزعم بعض المؤرخين انه عاش مائة وعشرين سنة ، عاش نصفها في الجاهلية ونصفها في الاسلام .

* * *

نماذج من شعره

١ – المفاخر والمكارم

من قصيدته التي مطلعها :

ألَمْ تسألِ الرَبعَ الجديد التكلُّما ... بمَدفعِ أشداخٍ فبُرقَةِ أظْلَما

* * *

١ - لنا حاضِرٌ فَعْمٌ وبادٍ كأنَّه ... شَماريخُ رَضْوى عِزَّةً وتَكَرُّما
٢ - متى ماتَزِنّا من مَعَدٍّ بِعُصبةٍ ، ... وغسّانَ ، نَمنعْ حَوضَنا أن يُهدَّما
٣ - بكُلِّ فتىً عاري الأشاجعِ لاحَهُ ... قِراعُ الكُماةِ يَرشَحُ المِسكَ والدَّما

---

(١) الحاضر : الحي المتحضر . الفعم : المليء الكثير . البادي : الحي النازل بالبادية .الشماريخ ، ج شمراخ : قلة الجبل . رضوى : جبل قرب يثرب .

(٢) تزنا : من وزن يزن اي تقايسنا وتقابلنا .معد:ابن عدنان،ومن نزار ابنه تفرعت القبائل المدنانية اما حسان فهو من الأزد القحطانية . وغسان : الواو للقسم . نمنع حوضنا ان يهدما : كناية عن قوة القبيلة ومنعتها .

(٣) بكل : متعلق بنمنع في البيت السابق . الاشاجع : أصول الأصابع ، اوعروق ظاهر الكف وواحدها أشجع ، وهذه كناية عن قوته. لاحه : غيرلونه. قراع الكماة:مقارعة الأبطال والفوارس المدججين بالسلاح . يرشح المسك والدم : يقطر منه المسك والدم .

٤ ـ اذا استدبرتنا الشمس دَرَّت متوننا كأنّ عروق الجوف ينضحن عندما
٥ ـ ولدنا بني العنقاء وابني محرِّقٍ، فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما
٦ ـ نُسوِّد ذا المال القليل، إذا بدت مروءته فينا، وإن كان معدما
٧ ـ وإنّا لنقري الضيف، إن جاء طارقاً، من الشحم ما أمسى صحيحاً مسلّما
٨ ـ ألسنا نردّ الكبش عن طية الهوى ونقلب مرّان الوشيج محطّما
٩ ـ وكائن ترى من سيّدٍ ذي مهابةٍ أبوه أبونا، وابن أختٍ، ومحرما
١٠ ـ لنا الجفنات الغرّ يلمعن بالضحى، وأسيافنا يقطرن من نجدةٍ دما
١١ ـ أبى فعلنا المعروف أن ننطق الخنا وقائلنا بالعرف إلا تكلّما

---

(٤) استدبرتنا : أصابت ظهورها ، والمتون : الظهور . عروق الجوف : جوف الجسم. ينضحن: يقطرن . العندم : شجر يعرف بدم الاخوين وبالبقّم ايضاً ،ولونه احمر يصطبغ به. يريد : اذا أصابت الشمس ظهورنا تصبب منها العرق كأنه العندم .

(٥) العنقاء : لقب احد اجداد الغساسنة . محرق : هو الحارث بن عمرو ، احد ملوك الغساسنة. فأكرم بنا خالا : صيغة تعجب ، اي ما أكرمنا خالا . ابنما : لغة في ابن .

(٦) نسوّده : نجعله سيداً . المعدم : الفقير المملق .

(٧) انا نطعم الضيف الطارق القطع التامة من الشحم .

(٨) الكبش : سيد القوم . الطية : الجهة والمقصد والنية . المران ، ج مارن : الرمح المرن . الوشيج : شجر يتخذ منه قصب الرماح. اي نحن نرد سيد القوم عن غايته ونطاعن بالرماح حتى تتحطم.

(٩) كائن : من كنايات العدد بمعنى كم الخبرية التي تفيد التكثير. المحرَم: المحرّم: المحمي من النساء والاشياء. يريد ان كل ذوي قرابتنا اسياد اشراف .

(١٠) الجفنات ، ج جفنة : قصعة الطعام . الغر ، ج غراء : البيضاء ، لكثرة الشحم. النجدة : الشدة والبأس .

(١١) الخنا : الفحش . العرف : المعروف .

١٢ ـ فكلُّ مَعَدٍّ قد جَزَيْنا بصُنْعِهِ : فبُؤْسَى ببُؤْسَى ها وبالنُّعْمِ أَنْعُما

* * *

دراسة الأبيات

المناسبة

هذه الأبيات من قصيدة قالها حسان في الجاهلية مفتخراً بقومه ويقال انه أنشدها النابغة في سوق عكاظ .

ب — التحليل الأدبي

الأقسام والأفكار العامة

في هذا القسم من القصيدة يفخر حسان بقومه ويعدد مآثرهم ، وهي لا تخرج في جانبها عن المكارم التي كان الجاهليون يفاخرون بها ، فهو يفخر بكثرة قومه وعزتهم وتكرمهم ومنعتهم واستبسالهم في القتال وشرف نسبتهم وكرمهم وحسن فعالهم . واكثر شعر حسان في الجاهلية يدور حول فخره بقبيلته وبنفسه .

العاطفة

تظهر لنا من خلال هذه الأبيات نفسية حسان الفخور المعتدة وتظهر لنا شدة تعصبه لقبيلته واعتداده بها ، وهذه العصبية العنيفة تفسر لنا موقف حسان العنيف من المشركين لأنه كان ينظر الى النزاع القائم بين الأنصار وبين القرشيين نظرة قبلية ، وهذه العصبية تفسر لنا ايضاً تعريضه بالمهاجرين في اكثر من مناسبة . وقد كانت لحسان نفسية سريعة الانفعال والهيجان فلا يكاد احد

(١٢) البؤسى : ضد النعمى ، اى السيئة . ها : للتنبيه ، اي جزينا السيئة بالسيئة والحسنة بالحسنة .

يمس قبيلته بسوء حتى تثور ثائرته وينبري للدفاع عنها . ولما عرف به من شدة الانفعال وسرعة التأثر كان يطيب لشعراء قريش ان ينشدوه ، بعد الاسلام ، الاشعار التي قالوها في هجائه وهجاء الانصار حين كان النبي بيثرب ، فيثور حسان ويحمى ، وربما لم يمكنوه من انشاد ماقاله في الرد عليهم فيستعين بعمر بن الخطاب على إعادتهم حتى يسمعوا شعره .

الاسلوب

حسان شاعر حضري عاش في بيئة يثرب المتحضرة التي كانت تكثر فيها مجالس الغناء وتردد على بلاط الغساسنة المتحضرين المنعمين ، فكان لابد من ان يكون لهذه الحياة الحضرية أثرها في شعره وكان حسان ايضا يمني الاصل ، والشعر اليمني يختلف عن الشعر المضري بإيثارة الرقة والسلاسة على الفخامة والجزالة . وآثار هذين العاملين تبدو في شعر حسان واضحة في رقة ألفاظه وسهولتها وبعدها عن الغرابة والمماظلة ، وهذه الصفات جعلت شعره محبباً الى الغربيين . وتبدو هذه الآثار ايضا في الصور الحضرية التي نجدها في شعره ، ولكنه في هذه الابيات كان أقرب الى البداوة في صوره فتشبيهه عزة باديه بشماريخ رضوى وكنايته عن منعة قومه بقوله : نمنع حوضنا ان يهدما ، وتشبيهه العرق بالعندم ، كلها صور منتزعة من البيئة البدوية ، ولا يظهر لنا الاثر الحضري الا في قوله: يرشح المسك ، لان التطيب بالمسك من عادات الحضريين . (١)

---

(١) ذكرت في كتب الادب قصة طويلة حول البيت العاشر والحادي عشر من هذه الابيات وآثار الوضع واضحة فيها ، وملخصها ان النابغة كانت تضرب له قبة من أدم في عكاظ فيأتيه الشعراء فينشدونه شعرهم ويحكم بينهم فجاءه الاعشى مرة فأنشده ثم أنشد، حسان ثم أنشدته الخنساء فقال لها : لولا ان هذا الاعمى أنشدني قبلك (اي الاعشى) لفضلتك على شعراء هـذا الموسم . فغضب حسان لتفضيل الخنساء عليه وفخر عليها ببيتيه المشار اليهما فقالت له : ضعفت افتخارك وأنزرته في ثمانية مواضع : « قلت : لنا الجفنات ، والجفنات مادون العشر ، فقللت العدد ، ولو قلت :الجفان، لكان اكثر . وقلت : الغر ، والغرة البياض في الجبهة ، ولو قلت :البيض،لكان اكثر اتساعاً.وقلت: يلمعن ، واللمعان شيء يأتي بعد شيء ، ولو قلت : يشرقن ، لكان اكثر ، لان الاشراق ادوم من اللمعان . وقلت : بالضحى ، ولو قلت : بالدجى ، لكان أبلغ لان الضيف اكثر طروقاً بالليل، وقلت: اسيافنا والاسياف دون العشرة ، ولوقلت : سيوف، لكان اكثر وقلت يقطرن، فدللت على قلة ←

٣ – المفاخر والمكارم

من قصيدة له اسلامية يفتخر فيها بنصرة الرسول :

١ نَصرنا وآوَيْنا النبيَّ وصدَّقت أوائلُنا بالحقِّ أولَ قائلِ

٢ وكنّا متى يغزُ النبيُّ قبيلةً نَصِلْ حافتيْه بالقَنا والقنابلِ

٣ ويوم قُريش إذا أتَوْنا بجمعهم وَطِئنا العدُوَّ وطأةَ المتثاقِلِ

٤ وفي أُحُدٍ يومٌ لهم كان مُخزِياً نُطاعِنُهم بالسَّمْهريِّ الذوابلِ

٥ ويوم ثقيفٍ ، إذا أتينا ديارَهم كتائبَ ، نَمشي حولَها بالمَناصلِ

٦ ففرّوا ، وشدَّ اللهُ رُكنَ نَبيِّه بكلِّ فتىً حامي الحقيقة باسلِ

٧ وإنّي لسهلٌ للصديقِ وإنّني لأعدلُ رأسَ الأصعرِ المتمايلِ

٨ وأجعلُ مالي دون عِرضي وِقايةً وأحجُبُه كي لا يطيبَ لآكِلِ

* * *

القتل ، ولو قلت : يجرين ، لكان اكثر لانصباب الدماء . وقلت : دماً ، والدماء اكثر الدم . وفخرت بمن ولدت ، ولم تفخر بمن ولدك ». وما في هذه القصة من النقد تافه لا يعتد به وهو بعيد عن معارف الجاهليين ونقدهم ، والارجح انه من افتعال بعض رواة العصر العباسي .

(١) نصرنا وآوينا النبي : يشير حسان الى ما قام به الاوس والخزرج من نصرة الرسول وايوائه حين هاجر الى يثرب .

(٢) نصل حافتيه : نحيط بجانبيه . القنا ، ج قناة : الرمح . القنابل ، ج قَنْبَلة : الطائفة من الخيل .

(٤) السمهري . الرمح الصلب المنسوب الى سمهر وهي قرية بالحبشة . الذوابل ، ج ذابل : صفة للرمح الصلب القناة .

(٥) يوم ثقيف : اشارة الى اليوم الذي حاصر فيه المسلمون الطائف في السنة الثامنة للهجرة . المناصل ، ج مُنصُل : السيف .

(٧) الاصعر : المتكبر الذي يميل برأسه كبراً .

الفخر في شعر حسان

اكثر شعر حسان يدور حول الفخر لما قدمناه من شدة تعصبه لقبيلته، وفخره الجاهلي لا يختلف عن فخر شعراء الجاهلية فهو ينسب الى قومه كل فضيلة ومكرمة ، فهم ذوو النسب الرفيع والمحتد النبيل وهم الكماة والأبطال والشجعان يوم الروع وهم الكرام الذين يهينون المال ويقرون الضيفان، ولكن حسان لا يفخر بقبيلته فقط بل يفخر بنفسه ايضاً : يفخر بشعره الذي يبلغ ما لا يبلغه الحسام:

لساني وسيفي صارمان كلاهما ... ويبلغ مالا يبلغ السيف مذودي

ويفخر بشجاعته وبسالته ، على الرغم مما اشتهر من جبنه ، ويفخر بكرم خصاله وجوده:

وإن أكُ ذا مالٍ كثيرٍ أجدْ به ... وإن يعتصر عودي على الجهدُ، يُحمدِ

فلا المالُ ينسيني حيائي وعفتي ... ولا واقعات الدهر يفللن مبردي

اما في فخره الإسلامي فانه ضم الى هذه المكارم مكارم أخرى اسلامية فقد نصر قومه الرسول وآووه وقاتلوا المشركين ، ونصر هو الرسول بلسانه وشعره ، وكان حسان كثير الاعتداد بهذا الشعر وكان يقول في لسانه : والله مايسرني به مقول بين بصرى وصنعاء ، والله لو وضعته على شعر لحلقه او على صخر لفلقه . وأسلوب حسان في الفخر أقرب الى الجزالة والفخامة وقوة الأسر منه في سائر شعره .

---

٣ - المدح

من قصيدة في مدح اولاد جفنة الغساني :

١ لله درُّ عِصابةٍ نادمتُهم ... يوماً بجلّقَ ، في الزمانِ الأوّلِ

٢ يمشُونَ في الحُلَلِ المضاعَفِ نسجُها ... مشيَ الجِمالِ الى الجمالِ البُزّلِ

---

(١) العصابة : الجماعة من الناس ، ويريد بهم الغساسنة . جِلّق : موضع قرب دمشق . ويظهر من هذا البيت ومن البيت التاسع ان حسان قال هذه القصيدة في زمن متأخر عن اتصاله بالغساسنة.

(٢) البُزّل ، ج البازل : صفة للبعير الفتي

٣ الضاربون الكبش يبرق بيضه ضرباً يطيح له بنان المفصلِ
٤ والخالطون فقيرهم بغنيهم والمنعمون على الضعيف المرملِ
٥ اولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضلِ
٦ يغشون حتى ماتهر كلابهم لايسألون عن السواد المقبلِ
٧ يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسلِ
٨ بيض الوجوه، كريمة أحسابهم شم الانوف، من الطراز الاولِ
٩ فلبثت ازماناً طوالاً فيهم ثم انثنيت كأنني لم أفعلِ

* * *

---

(٣) الكبش : السيد . البيض ، ج بيضة : الخوذة . يطيح : ينفصل . البنان : الاصبع.

(٤) المرمل : الفقير الذي فقد الزاد .

(٥) جفنة : جد ملوك الغساسنة وهو جفنة بن عمرو مزيقياء . ابن مارية : اختلف في المقصود به وفي مارية امه، والارجح انه الحارث الاعرج ، وامه مشهورة بقرطيها لانها ـ على مايقول الزمخشري ـ اول عربية تقرطت وسار ذكر قرطيها في العرب . واراد بقوله : حول قبر ابيهم انهم أهل حضر مستقرون في ديارهم ، وقيل انه أشار بذلك الى ما اعتادته العرب من إقامة الابناء عند قبور آبائهم يعقرون عندها رواحلهم ويتصدقون بلحمها .

(٦) يغشون : يطرقون ويتردد إليهم . ماتهر كلابهم : من الهرير ، وهو صوت الكلاب دون النباح . يريد أن كلابهم اعتادت رؤية الضيوف فهي لاتنبحهم . وانما رفع الفعل بعد حتى في هذا البيت لانها للماضي والشرط في انتصاب المضارع بعدها ان تكون للمستقبل . واراد بالسواد المقبل كثرة الضيفان الوافدين .

---

(٧) البريص . موضع بدمشق او قربها مشرف على نهر بردى او هو نهر متفرع من بردى. بردى : نهر بدمشق واراد : ماء بردى . يصفق : يمزج او ينقل من إناء إلى إناء ليصفو. الرحيق : الخمرة . السلسل : السائغة العذبة .

(٨) الاحساب ، ج حسب : المفخرة والشرف : الشم ، ج أشم : المرتفع ، وشم الانوف كناية عن عزتهم وأنفتهم .

المدح في شعر حسّان

ليس لحسان مدح كثير في الجاهلية ولم يمدح إلاّ الغساسنة اقرباءه ، ومدائحه في الغساسنة اقرب الى الفخر ولا تشم منها رائحة التكسب والاستجداء وانما هو يمدح الغساسنة مفتخراً بهم كما كان يمدح قبيلته الخزرج ، وشدة تعصب حسان لقبيلته حملته على أن يأنف من التكسب بشعره، وعلى ان يقول اكثر شعره في الافتخار بها . واذا مدح حسان الغساسنة صوّر حياتهم الرافهة الناعمة وعدّد انتصاراتهم على اعدائهم وتحدّث عن شجاعتهم و كرمهم ورفعة أحسابهم .

اما في الإسلام فقد انتقل حسان الى مدح الرسول ووصف مايتحلى به من السجايا النبيلة والأخلاق الكريمة والتحدث عن نبوته ورسالته وهدايته للناس بعد ان كانوا في ضلالهم يعمهون ، كقوله فيه :

نبيٌّ أتانا بعد يَأسٍ وفترة ... من الرُّسْلِ ، والأوثانُ في الأرضِ تُعبَدُ
فأمسى سِراجاً مستنيراً وهادياً ... يلوحُ كما لاح الصَّقيلُ المُهَنَّدُ

ولكن حسان لاينسى ، اذ يمدح الرسول ، ان يفخر بقومه الذين نصروا النبي وأن يفخر بنفسه لدفاعه عنه بشعره .

---

٤ — الهجاء

قال يهجو أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، ابن عم الرسول :

١ لقد علم الأقوامُ أنَّ ابنَ هاشمٍ ... هو الغُصنُ ذو الأفنانِ لا الواحدُ الوَغْدُ
٢ ومالك فيهم مَحْتِدٌ يعرِفونه ... فدونك ، فالصَقْ مِثلما لَصِقَ القُرْدُ

---

(١) ابن هاشم : المراد به محمد عليه السلام . الأفنان : الأغصان . الوغد : الدنيء . ويريد به ابا سفيان ، وهو ابن عم الرسول واخوه بالرضاع ، وكان من شعراء قريش الذين هاجوا محمداً ثم اسلم بعد ذلك .

(٢) المحتد : الأصل . دونك : مكانك . القرد : القراد ، وهو دويبة تلصق بالبعير .

٣ وإنَّ سَنامَ المجدِ من آلِ هاشمٍ ، بنو بنتِ مخزومٍ ، ووالدُك العبدُ

٤ وما ولَدت أفناء زُهْرةَ منكمُ كريماً ، ولم يقربْ عجائزَك المجدُ

٥ ولست كعبّاسٍ ، ولا كابنِ أُمّه ، ولكن هجينٌ ليس يُورَى له زَنْدُ

٦ وأنت زنيمٌ نيطَ في آلِ هاشمٍ ، كما نِيطَ خلفَ الراكبِ القَدَحُ الفَرْدُ

٧ وإنّ امرءاً ، كانت سُميّةُ أُمّه ، وسمراء ، مغلوبٌ إذا بلغَ الجَهدُ

* * *

الهجاء في شعر حسان

كان هجاء حسان في الجاهلية متصلاً في الغالب بالفخر ، لأن الهجاء في الجاهلية كان جله يقوم على أسس قبلية لا فردية ، فإذا هجا الشاعر الجاهلي جرّد المهجو وقبيلته من جميع الفضائل والمكارم ونسبها الى قبيلته هو ، وكان لهذا الهجاء شديد الأثر في نفوس الجاهليين ، اما الهجاء القائم على

(٣) السنام من كل شيء : اعلاه . بنت مخزوم : فاطمة ام عبد الله والد الرسول . ووالدك العبد : لأن سمراء ام الحارث كانت امة .

(٤) افناء الناس : الذين لا يعرفون من هم ، المغمورون . وزهرة زوجة كلاب بن مرة وإليها نسب ابناؤه .

(٥) العباس : عم الرسول ، وابن امه اخوه ضرار . الهجين : المربي ابن الأمة . يورى : يقدح . الزند : العود تقدح به النار ، وهذا القول كناية عن الشح والبخل .

(٦) الزنيم : الدعيّ المنتسب لغير قومه . نيط : عُلّق . القدح الفرد : القدح يعلقه الرجل خلفه اذا ركب دابته .

(٧) سمية : ام ابي سفيان وكانت أمة ، وسمراء : جدته ام الحارث ، وكانت أمة ايضا . الجهد : المشقة . يريد انك مهما تبذل من جهد فلن تنال شيئاً وسوف تغلب على أمرك لأن أمك سمية وجدتك سمراء .

الإقذاع والإفحاش فكان قليلاً في ذلك العصر ، وقد جمع حسان بين هذين الضربين في هجائه قيس بن الخطيم ،شاعر الأوس المعادية لقبيلته ، وقد مر بنا مثال لهذا الهجاء في كلامنا على النقائض، وربما اعتمد حسان على الصور المضحكة « الكاريكاتورية » في هجائه كقوله في هجاء قبيلة جذام:

اذا ما شاتُهم وَلَدت تنادوا أجديٌ تحت شاتك أم غلامُ

فلما تطوع حسان للدفاع عن الرسول ولهجاء المشركين كان عليه ان يكون حذراً في هجائه لئلا يمس محمداً وكان عليه أن يسلّه منهم « كما تسل الشعرة من العجين » ، وقد أعانه ابو بكر في هذا الهجاء فدلّه على مثالب قريش وكان بها خبيراً . فكان اذا هجا المشركين نسب إليهم كل المثالب التي تعيّر بها قريش ونسب الى محمد وأصحابه كل الفضائل ، وجعله في الذروة من قريش ، وكان لهذا الهجاء وقع مؤلم في نفوس القرشيين . حدثنا محمد بن سيرين ان حسان وكعباً كانا يعارضان شعراء المشركين بمثل قولهم بالوقائع والايام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب ، وان عبد الله بن رواحة كان يعيرهم بالكفر ، « فكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب ، وأهون القول عليهم قول ابن رواحة . فلما أسلموا وفقهوا الاسلام ، كان اشد القول عليهم قول ابن رواحة[1]». ونحن نعتقد ان شعر حسان وكعب كان اشد إيلاماً وايجاعاً لهم حتى بعد اسلامهم . ولا يخفى ان حسان في هجائه المشركين لم يكن مدفوعاً بعامل الدفاع عن العقيدة الاسلامية وعن محمد فحسب ، وانما كان مدفوعاً ايضاً بعامل قوي هو عامل العصبية القبلية ، وبعامل حقد اليثربي على المكي ؛ وكان اليثربيون ينفسون على المكيين في الجاهلية مكانتهم التجاريه والدينية .

وكان هجاء حسان للمشركين فيه الكثير من الإفحاش والإقذاع حتى ان ابن هشام تورع عن ذكر بعض ماقاله حسان في الهجاء ، ولا يبعد ان يكون قد حمل على حسان من هذا الشعر الفاحش وغيره كثير مما لم يقله .

منزلة حسّان الأدبية وطوابع شعره العامة

اظهر مايتصف به شعر حسّان الرقة والسهولة والبعد عن الغرابة والتعقيد ، وقد بيّنا مردهذه الصفات ، على ان النقاد القدامى يرون ان شعر حسان في الإسلام كان أضعف منه في الجاهلية ، رووا عن الاصمعي قوله : « الشعر نَكِد ، بابه الشر . هذا حسان فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره[2] . » ، ورووا عن حسان قوله حين سئل عن سبب لين شعره : « ان

---

(١) الاغاني ج ٤ :١٣٨ (٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص ١٠٤ .

الاسلام يحجز عن الكذب وان الشعر يزينه الكذب . » ، ولعل مرد هذا اللين ، اذا سلمنا به ، الى اضطرار حسان الى طرق موضوعات جديدة لاعهد للشعر بها والى الارتجال احياناً ، ولا شك ان الاسلام قد ضيّق على حسان مجال القول بعض التضييق .

ثم يتصف شعر حسان بأنه نموذج للشعر الغنائي الصحيح في الجاهلية ، سواء في ملاءمته للغناء لرقته وسهولته ، او من حيث موضوعه الذي يدور حول التغنّي بفضائله وفضائل قبيلته وكانت شخصية حسان مندمجة تمام الاندماج في قبيلته ، والشاعر الغنائي هو الذي يتغنّى مشاعره الخاصة وعواطفه الذاتية .

ومن طوابع شعره ايضاً قصر النفس ، فلا نجد لحسان قصائد طويلة ، ولا نجده يطيل في وصف الديار والاطلال وغيرها فلا يكاد يقول فيها بيتين او ثلاثة حتى ينتقل الى موضوع آخر بقوله : دع ذا وعدّ عن ذا ، وكثيراً مايكون انتقاله فجائياً لايدل على براعة ، وهذه الانتقالات الفجائية تدل على ضيق خيال حسان ونفاد صبره .

على ان حسان كان بارعاً في الاغراض التي تمس نفسه من قريب كالفخر والهجاء ووصف الخمر والايام الخوالي ، وان هو لم يبلغ شأو الفحول من الشعراء فلا ريب انه كان من شعراء القرى المتفوقين وقد فضله ابن سلام على شعراء القرى كافة ، وقال ابو عبيدة : « اجمعت العرب على ان حسان اشعر أهل المدر . » وقال ايضاً : « فضل حسان الشعراء بثلاث : كان شاعر الانصار في الجاهلية ، وشاعر النبي في النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الاسلام . » ، واشعره ، فضلاً عن قيمته الادبية ، قيمة تاريخية كبيرة لانه صور لنا وقائع الرسول وغزواته والاحداث التي مرت به خير تصوير .

مصادر

١ ــ سيرة ابن هشام .

٢ ــ الاغاني للاصفهاني ، ج ٤ وج ١٤ طبع بولاق .

٣ ــ ديوان حسان بن ثابت ، بتحقيق هرشفلد Hirschfeld

٤ ــ خزانة الادب للبغدادي ، ج ١ : ٢١١ وج ٤ : ٢٨٨ ، طبع السلفية .

٥ ــ دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « حسان » .

٦ - C. de Perceval, Essai sur l'Histoire des Arabes T, 2 et 3

مَعن بن أَوس

١ وذي رَحِمٍ قَلَّمْتُ أظفارَ ضِغْنِهِ بحِلمي عنه ، وهو ليس له حِلْمُ
٢ يُحاوِلُ رَغْمي ، لا يحاوِلُ غيرَهُ ، وكالموتِ عندي أن يَحِلَّ به الرَّغْمُ
٣ فإنْ أعفُ عنهُ أُغضِ عيناً على قذىً وليس له بالصَّفحِ عن ذَنْبِه عِلْمُ
٤ وإنْ أنتَصِرْ منه أكُنْ مِثلَ رائشٍ سِهامَ عَدُوٍّ يُستهاضُ بها العَظْمُ
٥ صَبرتُ على ما كانَ بَيْني وبينَه ، وما تستوي حربُ الأقاربِ والسِلْمُ

(١) الرحم : القرابة . قلّم الظفر : قصه . الضغن : الضغينة والحقد . وقلمت أظفار ضغنه : استعارة اراد بها انه ازال حقد قريبه بحلمه .

(٢) الرغم : الكره ، والاذلال . وأرغمه : أذله وأسخطه . وارغم الذل أنفه : ألصقه بالرغام ، وهو التراب ، ومنه يقال : فعلته على رغم أنفه .

(٣) غض : أطبق . القذى : ماخالط العين من الشوائب . والمعنى : صبرت على رغم مابي من الالم .

(٤) انتصر منه : انتقم . راش السهم : ركب فيه الريش . يستهاض : يكسر . يقول : اذا انتقمت من قريبي هذا اكون كمن أعان عدوه على نفسه .

٦ وبادرتُ منه النأْيَ ، والمرءُ قادرٌ على سَهْمِهِ ، مادامَ في كفِّه السَّهمُ
٧ ويَشتُم عِرضي في المُغَيَّبِ جاهداً وليس له عندي هَوانٌ ولا شَتمُ
٨ إذا سُمْتُهُ وَصلَ القرابةِ سامني قطيعَتَها ، تلك السَّفاهةُ والإثمُ
٩ وإنْ أدْعُهُ للنِّصفِ يأْبَ ويَعصِني ويدعو لحُكْمٍ جائرٍ غيرُه الحُكمُ
١٠ فلولا اتّقاءُ اللهِ والرَّحِمُ التي رِعايتُها حقٌّ وتَعطيلُها ظُلْمُ
١١ إذنْ لَعَلاهُ بارقي وخَطَمْتُه بوَسْمٍ شَنارٍ لا يُشارِكُه وَسْمُ
١٢ ويَسعى إذا أبْني ليَهْدِمَ صالحي ، وليس الذي يَبني كمَن شأنُه الهَدمُ
١٣ يَوَدُّ لوَ انّي مُعْدِمٌ ذو خَصاصةٍ وأكرهُ جُهدي أن يُخالِطَه العُدْمُ

---

(٦) النأي : البعد . يريد : باعدته تجنباً لوقوع الشر بيننا ، وما دام السهم في كف صاحبه فإنه قادر على احتجازه بيده .

(٧) المغيب : الغيبة . جاهداً : دائباً جاداً . . هو لاهم له الا شتم عرضي غيبة وانا لا ارتضي له الشتم والمهانة .

(٨) سمته : كلفته . السفاهة : الحمق والاسراع الى الشر . الإثم : الذنب .

(٩) النصف : مثلثة النون ، الإنصاف . جائر : ظالم .

(١٠) اتقاء الله : خوفه . رعايتها : تعهدها والمحافظة عليها . تعطيلها : تركها . كأن معن بن اوس ينظر هنا الى ماجاء في القرآن الكريم من الحض على صلة الرحم .

(١١) علاه بالسيف : ضربه . البارق : من نعوت السيوف . خطمته : ضربت أنفه . الوسم : السمة والعلامة . الشنار : اقبح العار . يقول : لولا خوف الله وما بيننا من صلة الرحم لضربته بسيفي ضربة تسمه سمة عار لاعار مثله .

(١٢) يقول : يسعى لأن يشوه ما آتي به من صالح الأعمال ، وشتان من يبني ومن يهدم .

(١٣) المعدم : الشديد الفقر ، المملق . الخصاصة : الفقر ، والحاجة . الجُهد : الوسع والطاقة العدم : الاملاق والفقر .

١٤ ويَمْتَدُّ غُنْماً في الحوادثِ نَكْبَتي، وما إن له فيها سَناءٌ ولا غُنْمُ

١٥ فما زلتُ في لِيني له وتَعَطُّفي عليه، كما تحنو على الولد الأُمُّ

١٦ وصَبري على أشياء منه تُريبُني وكظمي على غَيْظي، وقد يَنفع الكَظْمُ

١٧ لأَستَلَّ منه الضِغْنَ حتى استللتُه، وإن كان ذا ضِغْنٍ يَضيقُ به الحِلْمُ

١٨ وأبرأتُ غِلَّ الصَّدْرِ منه تَوَسُّماً بحِلمي، كما يُشفى بالأدويةِ الكَلْمُ

١٩ وأطفأتُ نارَ الحربِ بيني وبينَه فأصبحَ بعدَ الحربِ وهو لنا سِلْمُ

* * *

كلمة في القصيدة وقائلها

معن بن اوس شاعر مجيد من مخضرمي الجاهلية والاسلام ، ينتهي نسبه الى مزينة المضرية ، كان يتردد على الصحابة يمدحهم وينال عطاياهم وربما هجاهم اذا لم يعرفوا له قدره ، صنيعه بعبد الله بن الزبير اذ نزل عنده فلم يحسن إكرامه فتركه مغضباً الى عبد الله بن العباس وعبدالله بن جعفر فأكرماه ، فقال قصيدة يمدحها ويهجو ابن الزبير . ويظهر ان معناً كان من المشهورين بسلاطة لسانه ينبئنا بذلك ما كان يغدقه عليه بعض الصحابة من الهبات اتقاء لهجوه وقد تحرش به الفرزدق مرة فأجابه بما أسكته ، وفي أواخر حياته كُفّ بصره وغلبه الدين فكان يستعين بعبد الله بن العباس وغيره على وفاء ديونه وقضاء حاجاته .

وقد وصف لنا معن بأنه كان مئناثاً يحسن صحبة بناته وتربيتهن ، وكانت فيه أعرابية ولوثة فتزوج

---

(١٤) الغنم : الغنيمة والربح . السناء : رفعة القدر .

(١٦) تريبني : تثير ريبتي وشكي . كظم الرجل غيظه : رده وصبر عليه .

(١٧) أستل : أخرج وانتزع .

(١٨) أبرأت : شفيت . الغل : الحقد والضغينة . الكلم : الجرح .

(١٩) اطفأت نار الحرب : استعارة معناها ازلت مابيني وبينه من العداوة . السلم : المسالم .

بامرأة حضرية شامية النشأة فكان يلذ لها أن تضحك من عجرفيته .

ويقول ابو الفرج إنه عمر الى أيام الفتنة بين ابن الزبير ومروان بن الحكم فتكون وفاته اذن بين عامي ٦٤ و ٦٥ هـ . (١)

والمطالع لقصيدة معن هذه يلاحظ انه يفخر بكرم خلقه وسجاياه الحميدة لا بالشجاعة والاقدام والكرم ونحوها من المآثر ، فقصيدته هذه تصور لنا نفساً بدوية ترعى صلة الرحم وتؤثر الحلم على السفاهة وتقابل الإساءة بالعفو والاغضاء ، مع قدرتها على الانتصاف والانتصار ، وقارىء هذه القصيدة لا يسعه إلا ملاحظة شبهها بقصيدة ذي الإصبع العدواني التي مرت بنا (صفحة ١١١) ، الا ان الأثر الإسلامي واضح ايضاً في افكار معن بن أوس ، فإن صلة الرحم والاغضاء عن الإساءة ومقابلة السفاهة بالحلم وكظم الغيظ كلها من الخصال التي حث عليها القرآن الكريم والحديث الشريف.

وفي اسلوب القصيدة جزالة ، وصورها لا تخلو من طرافة : قلمت أظفار ضغنه . وكانت لمعن منزلة رفيعة عند القدماء فكان معاوية ، فيما رووا ، يفضل مزينة في الشعر ويقول : كان اشعر أهل الجاهلية منهم وهو زهير ، وكان اشعر اهل الاسلام منهم وهو ابنه كعب ومعن بن أوس . وقال عبد الملك يوماً لأهل بيته وولده : « ليقل كل واحد منكم احسن شعر سمع به ، فذكروا لامرىء القيس وللأعشى ولطرفة حتى أتوا على محاسن ما قالوا ، فقال عبد الملك : اشعرهم الذي يقول : « وذي رحم .. الأبيات . » بيد اننا لا نراه يبلغ مرتبة الفحول من معاصريه .

* * *

مصادر

١ ــ الأغاني للأصفهاني ، ج ١٠ : ١٥٦ (بولاق) .
٢ ــ خزانة الأدب للبغدادي ، ج ٣ : ٢٥٨ .
٣ ــ تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ، ج ١ : ١٥١ .
٤ ــ ديوان معن بن اوس ، طبع ليبسيك .
٥ ــ معن بن اوس ، حياته وشعره و كمال مصطفى .

(١) حدد جرجي زيدان وفاته بعام ٢٩ هـ ولا ندري ما الذي اعتمد عليه في تعيين هذا التاريخ . (انظر كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ص ١٥١) .

الحُطَيئة

ترجمته

هو جرول بن أوس العبسي المضري ، ولقب بالحطيئة لقصره او دمامته ، وكنيته ابو مُليكة. نشأ مغموز النسب ، متدافعه ، كان ينتمي الى القبيلة فإذا غضب عليها انتمى الى الاخرى ، تارة ينتسب الى عبس المضرية ، وتارة ينتمي الى ذهل الربعية ، ذلك أن أباه أوس بن مالك العبسي كانت له زوجة من بني سدوس الذهلية وكانت له ايضاً أمة يقال لها الضراء ، فولدت الضراء الحطيئة. وزعمت أول الامر انه ابن الافقم ، أخي مولاتها زوجة أوس ، ثم اعترفت بنسبته الى أوس . ولما مات أوس أعتقت زوجه الضراء وابنها فتزوجت الضراء أحد بني عبس فطالب الحطيئة إخوته من أبيه أوس بميراثه منه فأبوا عليه ذلك وعرضوا عليه أن يقيم بينهم فهجاهم وارتحل الى اليمامة ، موطن بني ذهل ، فطالب بني الافقم بميراثه منه فمنحوه نخيلات لم ترضه فهجاهم بعد أن مدحهم ثم عاد فانتسب الى بني عبس .

نشأ الحطيئة اذن متدافع النسب ، منبوذاً من ذويه ، محروماً من عطف أبيه وحنان أمه ، لاتقع عليه الانظار إلا مشفوعة بالازدراء لوضاعة أصله ، فلا غرو أن يتولد في نفسه الحقد على الناس جميعاً ، ولاغرو أن تموت في صدره كل عاطفة نبيلة ، ولا غرو أن ينصرف الى التكسب بشعره يمدح هذا رغبة في نواله ويهجو ذاك لتوانيه عن إكرامه ، لايضيره ان ينتسب الى هذه القبيلة وتلك ، ولا غرو ان يكون اكثر شعره في الهجاء فهجا نفسه لقبحه وهجا أمه لما جرته عليه من الهوان وهجا زوج أمه ، وهجا أخويه من أوس لأنهما لم يعترفا به ، وهجا بني الأفقم لأنهم لم يعطوه ميراثه كاملاً ، وهجا كل من لم يعطه مايرغب ، فكان إمام الهجائين في عصره ، وكان ، كما وصفه الاصمعي : « جشعاً ، سؤولاً ، ملحفاً ، دنيء النفس ، كثير الشر ، قليل الخير ، بخيلاً ، قبيح المنظر ، رث الهيئة ، مغموز النسب ، فاسد الدين . » فتجردت نفسه عن الصفات التي كان

العربي يفاخر بها كالعصبية للقبيلة ، وعزة النفس ، والكرم وغيرها . وتروى لنا عن بخله قصص كثيرة حتى عده ابو عبيدة من بخلاء العرب الأربعة ولكن هذا لم يمنعه من مدح الكرم وذم البخل والبخلاء في شعره .

عاش الحطيئة في العصر الجاهلي يتكسب بشعره فينتجع الاشراف والاجواد يمدحهم ويظفر بعطاياهم ومن لم يعطه هجاه أقذع هجاء ، وكان ممن مدحهم حاتم الطائي وأوس بن سعدى وعلقمة ابن علاثة ، وزيد الخيل ، وغيرهم .

فاذا جاء الاسلام توقعنا ألا يكون الحطيئة من السابقين الى اعتناق الدين الجديد ، ولما اضطر الى اعتناقه لم يكن له في نفسه كبير اثر فعرف بفساد عقيدته ورقة إسلامه وكان ممن ارتد عن الاسلام بعد وفاة الرسول وقال في ذلك :

أطعنا رسولَ الله ، اذ كان بيننا ، فيا عجبا ! ما بالُ دين ابي بكرِ

أيُورثها بكراً ، اذا مات ، بعده ؟ فتلك ، وبيت الله ، قاصمةُ الظهر

ولما باءت حركة الردة بالاخفاق عاد الى حظيرة الاسلام وشارك بعدئذ في تحريض المسلمين على قتال الفرس في وقعة القادسية .

ولكن الحطيئة ظل يعيش في الاسلام عيشته في الجاهلية ، كان لابد له من تدبير القوت لزوجته وعياله وكان بهم رحيماً ، ولا مورد له إلا الشعر ، فأخذ يتردد على الاشراف و الاجواد متجراً بمديحه ، مهدداً بهجائه ، وكانت النفوس لم تزل الروح الجاهلية غالبة عليها ، روح المفاخرة والرغبة في المدح واتقاء الهجاء بالعطاء ، فلقيت تجارته رواجاً لدى اشراف القبائل ، وكان الناس يرصدون له العطايا يتقون بها لسانه ، فربما قدم المدينة ، والناس في سنة مجدبة وسخطة من خليفة ، فتجمع له الاموال من المهاجرين والانصار حتى تبلغ اربعمائة دينار ولكنها لا ترضي جشعه . وكان يفد على ابي موسى الاشعري فيصله فاذا لامه عمر في ذلك أجابه : إني اشتريت عرضي منه بها ، فيقره عمر على فعله اذا قصد منه اتقاء الهجاء لا الرغبة في المدح والفخر . ومما يدلنا ايضا على تخوف الناس من هجائه مارواه المفضل عنه حين نزل بني المقابر بن بربوع قال : « فمشى بعضهم الى بعض وقالوا : إن هذا الرجل لا يسلم أحد من لسانه ، فتعالوا حتى نسأله عما يحب فنفعله وعما يكره فنجتنبه ، فأتوه فقالوا له : يا أبا مليكة ، إنك اخترتنا على سائر العرب ووجب حقك علينا ، فمُرنا بما تحب ان نفعله وبما تحب ان ننتهي عنه ، فقال : لا تكثروا زيارتي فتملوني ، ولا تقطعوها فتوحشوني ، ولا تجعلوا فناء بيتي مجلساً لكم ، ولا تسمعوا بناتي غناء شبانكم ، فإن الغناء رقية الزنا . فأقام عندهم ،

وجمع كل رجل منهم ولده وقال : أمكم الطلاق ، لئن تغنّى احد منكم والحطيئة مقيم بين أظهرنا لاضربنه ضربة بسيفي أخذت منه ما أخذت .. »

وكانت للحطيئة مع الزبرقان بن بدر التميمي حادثة مشهورة ، كان الزبرقان والياً للرسول ولأبي بكر وعمر بعده ، فقدم على عمر في سنة مجدبة ليؤدي صدقات قومه ، فلقيه الحطيئة بموضع من اليمامة ، فعرفه الزبرقان ولم يعرفه الحطيئة فسأله عن وجهته فقال : العراق ، فقد حطمتنا هذه السنة. قال : وتصنع ماذا ؟ قال : وددت أن أصادف بها رجلاً يكفيني مؤونة عيالي وأصفيه مدحي ابداً. وكان الزبرقان من اشراف قومه الحريصين على المدح وعلى مفاخرة ذوي القربى، على عادة الاشراف في الجاهلية ، فرأى ان يقرب اليه هذا الشاعر المشهور ليمدحه ، فوجهه إلى أهله بالعراق ووعده ان يعود اليه مسرعاً بعد ان يؤدي لعمر صدقات قومه . فنزل الحطيئة بزوجة الزبرقان فأكرمته وأحسنت جواره ، فساء ذلك الذين ينازعون الزبرقان الشرف من اقربائه ، وهم بنو أنف الناقة ، فأخذوا يستميلون إليهم الحطيئة بشتى الوسائل ، منها أنهم دسوا الى زوج الزبرقان ان زوجها ينتوي اتخاذ مليكة ، ابنة الحطيئة ، زوجة له ، فظهرت من المرأة للحطيئة جفوة ، واستطاعوا آخر الامر استمالته اليهم ، فصار اليهم فبالغوا في اكرامه وإجلاله ، حتى اذا عاد الزبرقان وحاول استرجاع ضيفه آثر الحطيئة جوار بني أنف الناقة ، وأخذ يصفي لهم المدح دون ان يهجو الزبرقان وقال فيهم بيته المشهور :

قومٌ هم الانف والأذناب غيرهُم ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا

فصاروا يفاخرون بنسبهم هذا بعد ان كانوا يُعَيرون به . الى ان اوعز الزبرقان الى احد الشعراء بهجاء بغيض بن شماس القُريعي ، الذي أقام الحطيئة بجواره ، فحينئذ أخذ الحطيئة يهجو الزبرقان مناضلاً عن بغيض وقال في ذلك قصيدته السينية المشهورة التي يقول فيها مخاطباً الزبرقان :

دع المكارمَ لا ترحل لبغيتها واقعد فانك انت الطاعم الكاسي

وكان لهذا الهجاء وقع أليم في نفس الزبرقان فاستعدى عليه عمر بن الخطاب فلم ير في هذا الهجاء اقذاعاً شديداً حتى سأل حساناً ، وهو الخبير بهذا الضرب من الهجاء الذي يجرد المهجو من المكارم والفضائل ، فوجد فيه اقذاعاً شديداً ، وكان عمر يشتد على الشعراء الهجائين، فحبس الحطيئة في بئر فأخذ يمدحه ويستعطفه بأشعاره ، من ذلك قوله له :

ماذا تقول لأفراخٍ بذي مَرَخٍ زُغبِ الحواصل لا ماءٌ ولا شجر

ألقيت كاسبَهم في قعر مظلمةٍ فاغفرْ ، عليك سلام الله ياعمر

حتى لان له قلب عمر فأطلقه بعد ان اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم فقال في ذلك:

وأخذتَ أطراف الكلام فلم تدع ... شتماً يضر ولا مديحاً ينفع
وحميتني عِرض اللئيم فلم يَخَف ... ذمي وأصبح آمناً لا يَفزع

وبعد وفاة عمر عاد الحطيئة الى هجيراه من التكسب بالشعر ، وفي خلافة عثمان نجده ينتصر للوليد بن عقبة ، اخي عثمان لأمه ، حين اتهمه الناس بالصلاة سكران ، ثم نجده يتصل بسعيد بن العاص والي المدينة زمن معاوية ، ويمدحه المدائح الغر ، ثم توفي في خلافة معاوية ، حسب رواية ابن حجر ، بعد ان عمر طويلا .

وقد ذكر لنا ابو الفرج وصية طويلة مروية عن ابي عبيدة والاصمعي قيل ان الحطيئة اوصى بها قبل وفاته وفيها من التكلف ما يحمل على الظن بأنها لم تسلم من الاضافة والتزيد .

ومن الانصاف للحطيئة ان تقول إن اخلاقه وصفاته لم تكن شراً كلها ، فهذه النفس الخبيثة الوضيعة لم تخل من ومضات نبيلة ، فقد وجدناه لا يقدم على هجاء الزبرقان الا بعد ان حرض احد الشعراء على هجاء بغيض مضيفه ، وكان شديد العطف على اولاده فاذا اراد سفراً وقالت له زوجه:

اذكر تحننا إليك وشوقنا ... واذكر بناتك انهن صغار

امتنع عن السفر وقال : حطوا ، لا رحلت لسفر ابداً . وفي أبياته التي استعطف بها عمر حين حبسه نلمس ايضاً حبه لذويه وعاطفته الأبوية الصادقة .

* * *

نماذج من شعره

١ – الهجاء

قال يهجو الزبرقان ويمدح بغيض بن عامر :

١ واللهِ ، ما مَعْشَرٌ لاموا امرَأً جُنُباً في آلِ لأيٍ وشمّاسٍ ، بأكياسِ
٢ ما كان ذنبُ بَغيضٍ ، لا أبالكمُ ، في بائسٍ جاء يحدو آخرَ النّاسِ
٣ لقد مَرَيْتُكُمُ ، لو أنّ دِرّتكمْ ، يوماً يجيء بها مَسْحي وإبساسي
٤ وقد مدحتكمُ عمداً لأُرشدكم ، كيما يكونُ لكمْ متْحِي وإمراسي

(١) الجُنُب : الغريب . أكياس ، ج كَيّس : اللبيب الفطن . يريد : إن من لامني، انا الغريب ، في تحولي الى آل شماس ولاي وفي مدحهم ليسوا بمعشر أكياس . واراد بالمعشر هنا الزبرقان ورهطه.

(٢) بغيض : هو بغيض بن عامر بن شماس الذي تحول إليه الحطيئة بعد مفارقته الزبرقان . لاأبالكم : كلمة جافية يستعملها بداة العرب في مجال الذم . وعنى بالبائس نفسه . حدا الإبل : ساقها وغنّى لها . يريد : ماذنب بغيض في إضافته بائساً رآه يسير آخر الناس لا يكترثون به .

(٣) مرى الناقة : مسح ضرعها لتدر . الدرّة : اللبن . مسحي : اي مسحي الضرع . الإبساس : دعاء الناقة وملاطفتها لتسكن وتدر . يريد : لقد مدحتكم وتملقتكم املا في أن أصيب من خيركم يوماً فلم تفعلوا . وهذا التعبير استعارة شبه فيها آل الزبرقان بالناقة .

(٤) المتح : الاستقاء من البئر . أمرس حبل البكرة : أعاده الى موضعه . يريد : لقد مدحتكم عمداً لأرشدكم الى وجوب إكرامي وليكون لكم الفضل علي في هذا الإكرام . وهذا التعبير استعارة .

٥ وقد نَظَرتُكُمُ إيناءَ صادِرَةٍ للخِمْسِ طال بها حَوْذي وتَنْساسي

٦ فما ملكتُ بأن كانت نُفوسُكُمُ كفاركٍ كَرِهَت ثَوبي وإلباسي

٧ لمّا بدالي مِنكمْ غيبُ أنفُسِكم ولم يكن لجراحي فيكمُ آسِي

٨ أزمعتُ يأساً مُبِيناً من نَوالِكُمُ ، ولن تَرَى طارِداً للحُرِّ كاليأسِ

٩ ماكان ذنبُ بَغيضٍ أنْ رأى رجلاً ذا فاقَةٍ حلَّ في مُسْتَوعَرٍ شاسِي

١٠ جارٌ لقومٍ أطالُوا هُونَ مَنزِلِهِ وغادرُوه مُقيماً بين أرماسِ

---

(٥) نظرتكم : أمهلتكم وانتظرتكم ، الإيناء : مصدر أونى بمعنى أتعب . الصادرة : الراجعة من الشرب ، وضدها الواردة . الخمس : ضرب من إظماء الإبل وهو أن ترعى ثلاثة أيام ثم ترد الماء في اليوم الرابع . الحوذ : السوق السريع . التنساس : من نسّ الناقة اذا ساقها وزجرها . يريد : لقد انتظرت عطاءكم متعباً تعب ناقة صادرة بعد ان طال بها الظمأ والسوق والزجر ، فشبه نفسه بالناقة المتعبة على سبيل الاستعارة .

(٦) الفارك : المرأة المبغضة لزوجها . يريد : ليس الذنب ذنبي اذا كرهتم مقامي بينكم فكنتم كالمرأة التي تبغض زوجها فهي تكره إلباسه ثيابه .

(٧) غيب أنفسكم : اي ما كان غائباً في نفوسكم من كرهي . الآسي : المداوي . واستعار الجراح للفقر والحاجة ، واراد بأسو جراحه اكرامه .

(٨) ازمعت : قررت وعزمت . اليأس : انقطاع الرجاء . المبين : البيّن . النوال : العطاء . هذا البيت جواب للبيت السابق ، يريد : حين بدا لي غيب انفسكم صممت على قطع الرجاء من عطائكم ، ثم أردف هذا بقول ارسله مثلاً وهو ان لاشيء يحمل الحر من الناس على فراق من يجاورهم كاليأس من نوالهم .

(٩) الفاقة : الفقر والحاجة . المستوعر : المكان الوعر من استوعر القوم المكان : وجدوه وعراً . وفي رواية اخرى : مستوغر وهو المكان الشديد القيظ . الشاسيء : المكان الغليظ المرتفع وليّنت الهمزة . ماذنب بغيض اذ رأى رجلاً فقيراً مقيماً في مكان قفر فأضافه .

(١٠) الهون : الهوان والمذلة . الأرماس ، ج رمس : القبور . يريد : كنت جاراً لهؤلاء القوم رهط الزبرقان ، فأطالوا هواني وغادروني مقيماً في مكان قفر قاحل فكأني بين ارماس .

١١ مَلُّوا قِراهُ وهَرَّتْهُ كِلابُهُمُ ... وجَرَّحوه بأنيابٍ وأضراسِ

١٢ دعِ المكارمَ ، لاتَرحل لبُغيتِها ، ... واقعُدْ فإنَّك أنت الطاعمُ الكاسي

١٣ وابعَثْ يساراً الى وُفْرٍ مُذَمَّمَةٍ ... واحدِجْ اليها بذي عَرْكَيْنِ قِنْعاسِ

١٤ سِيري ،أُمامَ ،فإنَّ الأكثرين حصىً ... والأكرمين أباً من آلِ شمّاسِ

١٥ من يَفْعلِ الخيرَ لايَعدَمْ جوازِيَه ، ... لايذهبُ العُرْفُ بينَ اللهِ والناسِ

١٦ ما كان ذَنْبِيَ أنْ فَلَّتْ مَعاوِلَكُمْ ، ... من آلِ لأْيٍ ، صفاةٌ أصلُها راسِ

١٧ قد ناضَلُوكَ فسَلُّوا من كَنائِنِهِم ... مجداً تليداً ونَبْلاً غيرَ أنكاسِ

* * *

---

(١١) هرته : نبحته . جرّحوه بأنياب وأضراس : جعلوا كلابهم تجرحه بأنيابها وأضراسها. واذا نبحت كلاب القوم ضيفانهم دل هذا على شدة بخلهم لأن الكلاب اذا تعودت رؤية الضيفان لم تنبحهم .

(١٢) بغيتها : طلبها . الطاعم : الآكل . الكاسي : الذي عليه الكسوة . يقول : دعك من طلب المكارم وحسبك أن تأكل وتلبس ، وكان هذا من أقذع الهجاء عند العرب ، وبهذا البيت حبس عمر الحطيئة .

(١٣) يسار : عبد للزبرقان . . وُفر ، ج وفراء : المزادة الوافرة الأديم .المذمّمة : المليئة . احدج : ارحل ، من حدج البعير : شدعليه الحدج . العركان : الضاغطان تحت إبطي البعير وكنّى بذي العركين عن الجمل . القنعاس : البعير الضخم . يقول : دع المكارم وارسل عبدك في طلب السقاء المليء وارحل إليه على بعيرك ،فلست أهلا لغيرذلك.

(١٤) أمام : منادى مرخم وأصله أمامة. الحصى : العدد ، وأطلق الحصى على العدد لأن العرب كان يعدون بالحصى لجهلهم الحساب ، ومنه اشتق الفعل فقيل : أحصيت الشيء اي عددته . ونصبت حصىً وأباً على التمييز .

(١٥) الجوازي ، ج الجازية : الجزاء والمثوبة . العرف : المعروف . وقد أعجب النقاد القدامى شديد الإعجاب بهذا البيت . ←

دراسة القصيدة

المناسبة

أشرنا الى مناسبة هذه القصيدة في ترجمة الحطيئة فإنه بعد مفارقته الزبرقان الى جوار بغيض بن عامر بن شماس بن لأي واخوته وبني عمه من بني أنف الناقة أقام يمدحهم ولا يهجو الزبرقان على رغم الحاحهم عليه في ذلك ، حتى ارسل الزبرقان الى احد الشعراء فهجا بغيضاً بأبيات منها قوله:

وما أضحى لشماسِ بن لأيٍ   قديمٌ في الفَعال ولا رباءُ
سوى أن الحطيئة قال قولاً   فهذا من مقالته جزاءُ

فحينئذ قال الحطيئة قصيدته هذه في هجاء الزبرقان ومدح بغيض ورهطه .

ب — التحليل الأدبي

الأقسام والأفكار العامة

نلاحظ اولا أن الحطيئة لم يبدأ قصيدته بوصف الأطلال او بالغزل على ماجرت به عادة الجاهليين وانما طرق موضوعه مباشرة دون تمهيد، وهو يسلك هذا السبيل في اكثر شعره واذا مهّد لموضوعه آثر النسيب على وصف الأطلال .

---

(١٦) فلّت : ثلمت . الصفاة : الصخرة الملساء . الراسي : الثابت . يخاطب الحطيئة آل الزبرقان فيقول لهم إن الذنب ليس ذنبه اذا فلّت صخرة آل شماس ولأي معاولكم ، اي اذا غلبوكم في حسن الضيافة والمجد لأنهم ذوو شرف ثابت وأهل مكارم أصيلة .

(١٧) ناضلوك : الخطاب للزبرقان . الكنائن ، ج كنانة : جعبة السهام . النبل : اسم جمع مفرده نبلة وهي السهام . أنكاس ، ج نِكْس : اضعف السهام . يريد انهم فاخروك فغلبوك لأنهم ذوو مجد تليد . قال الأزهري : كان العرب اذا أسروا أسيراً خيروه بين التخلية وجز الناصية ، والأسر . فإذا اختار جز الناصية جزوها وخلوا سبيله ، ثم جعلوا ذلك الشعر في كنائنهم ، فإذا افتخروا أخرجوه وأروهم مفاخرهم .

وتتلخص أفكار الحطيئة في قصيدته هذه انه في لم يأل جهداً في مدح الزبرقان وآله انتظاراً لنواله ولكنه لم يلق منهم اكتراثاً ولا حسن ضيافة فآثر جوار بغيض ورهطه الذين أحسنوا وفادته، وهو الغريب البائس، ولا غرو أن يفوقوا الزبرقان في كرمهم لأنهم ذوو مجد تليد، اما الزبرقان فلا همّ له إلا الأكل والملبس اما المكارم فهو ليس اهلا لها. وتبدو لنا في هذه الأبيات عناية الحطيئة بوضع افكاره وضعاً منطقياً فقد مدح الزبرقان انتظاراً لنواله فلما يئس منه تحول عنه الى رهط بغيض الذين اكرموه فلا عليه اذن في مفارقة الزبرقان ولا ضير على بغيض في مد يد المعونة الى بائس وجده مقيماً في أناس لا يكترثون له ولا يعرفون قدره.

العاطفة

تكشف لنا هذه الأبيات عن نفس الحطيئة التي لا تدين بالولاء إلا لمن يفيض عليها نواله وعطاياه، فالحطيئة هنا ساخط على الزبرقان الذي أساء أهله جواره وأهملوه ولم يكترثوا به، معترف بالجميل لبغيض بن عامر ورهطه الذين أكرموه حق اكرامه وأحسنوا ضيافته. ويصور لنا الحطيئة نفسه غريباً فقيراً بائساً يلتمس مضيفاً يكفيه قوته وقوت عياله ليصفيه مدحه، فهو اذن متكسب بشعره لا يمدح لعصبية او قرابة او دفاعاً عن عقيدة او انتصاراً لفكرة وانما يمدح تكسباً وسداً لخلة، فمن العبث اذن ان نلتمس في مدحه صدق العاطفة.

الأسلوب

في الفاظ الحطيئة متانة وجزالة ظاهرتان، وفي تراكيبه ايضاً قوة وحسن تأليف، ولا غرو فشعر الحطيئة نموذج للشعر النجدي الجزل الألفاظ المتين العبارة الجيد السبك. وفي الفاظ القافية بعض الغرابة الناجمة عن صعوبة القافية السينية التي اختارها الحطيئة وعن بداوة الصور: مسح الضرع، متح البئر، الخ... وفي تأليف القصيدة ما ينبئ بأنها وليدة الأناة والجهد الطويل والتثقيف ومعاودة النظر. وهنا نذكر ما حدثنا به القدماء من تلمذ الحطيئة لزهير وأخذه عنه، جاء في مقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبة قوله: «ومن الشعراء المتكلف والمطبوع، فالمتكلف هو الذي قوم شعره بالثقاف ونقحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر كزهير والحطيئة. وكان الأصمعي يقول: زهير والحطيئة وامثالها من الشعراء عبيد الشعر، لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين. وكان الحطيئة يقول: خير الشعر الحولي المنقح المحكك.(١)»، ويذكر لنا ابو هلال في الصناعتين ان الحطيئة كان يعمل القصيدة في شهر وينظر فيها ثلاثة أشهر قبل أن يبرزها للناس، ونحن نذكر ايضاً ان الحطيئة

---

(١) الشعر والشعراء، ص ١٦

كان راوية زهير بن ابي سلمى وابنه كعب ، ويدلك على تأثره بزهير ومذهب أهل الصنعة مارواه ابو الفرج في الأغاني ، قال : « اتى كعب بن زهير ، وكان الحطيئة رواية زهير وآل زهير ، فقال له : قد علمتَ روايتي لكم أهل البيت وانقطاعي إليكم ، وقد ذهب الفحول غيري وغيرك ، فلو قلت شعراً تذكر فيـــه نفسك وتضعني موضعاً بعـدك ، فإن النـاس لأشعاركم أروى وإليها أسرع ، فقـال كعب :

فمن للقوافي شانها من يحوكها | اذا ماثوى كعبٌ وفوز جرولُ
كفيتُك لاتلقى من الناس واحداً | تنخل منهـا مثلما نتنخل
نقول فـلا نعيا بشيء نقوله | ومن قائليها مَن يسيء ويجمل
نثقفها حتى تلـين متونهـا | فيقصر عنها كل ما يُتمثل (١) »

ويتبين لنا من هذه الأبيات ان زهيراً ومن نابعه من الشعراء كانوا يفاخرون بتثقيفهم الشعر ، ويظهر ان كعباً كان يهاجم بأبياته هذه طائفة من الشعراء عرفت باتبـاع طريقة أخرى غير طريقة المثقفين هؤلاء ، لأن مزرِّد بن ضرار رد على أبيات كعب هذه بأبيات يفاخره فيها بشعره وشعر جماعة آخرين منهم حسان بن ثابت ويقول منها:

فلست كحسّانَ الحسام ابنِ ثابت | ولست كشماخ ولا كالمخبَّل (٢)

ولهذا لم يعجب الحطيئة بشعر حسان حين سمعه ينشد الناس .

وهذه المدرسة الزهيرية عرفت ايضاً بأمر آخر غير العناية بالألفاظ والتراكيب وغير التثقيف والتهذيب ، هو الإكثـار من الصور البيانية اكثاراً واضحاً ، وحسبنا ان نقرأ أبيات الحطيئة هذه لنقف على مدى عنايته بالتصوير في شعره ، فالاستعارات والكنايات والتشابيه فيها مكتظة متلاحقة (الاستعارة في الأبيات : ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٧ ، ١٠ ، ١٦ ، ١٧ والتشبيه في البيتين : ٥ ، ٦ والكناية في الأبيات : ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٧) ، وهذه الصور كلها مادية حسية ، وكلها منتزعة من البيئة البدوية الخالصة : متح البئر ، مسح الضرع ، اظماء الإبل ، الخ . وهي تنم لنا عن طبيعة الحطيئة الاعرابية الجـافية التي لم يكن للحضارة فيها اي اثر . ولا يقف اثر المدرسة الزهيرية عند هذا الحد بل انا لنجده ايضا في ضرب الأمثال والاتيان بالحكم ، وهي خاصة زهيرية

---

(١) الاغاني ، ج ٢ : ١٦٥

(٢) الأغاني ج ٢ : ١٦٦

كما نعلم ، وقد جاءنا الحطيئة في هذه القصيدة بحكمة انتزعت اعجاب النقاد وهي قوله :

من يفعل الخير لايعدم جوازيه | لايذهب العرف بين الله والناس

حتى قال ابو عمرو بن العلاء إن العرب لم تقل بيتاً أصدق من بيت الحطيئة هذا ، ولا يخفى ان حكمة الحطيئة هذه مطبوعة بطابع إسلامي ، وهذا الطابع واضح في شعر الحطيئة على الرغم من أن نفسه لم تتأثر بالإسلام تأثراً فعلياً .

اما فن الحطيئة في الهجاء فسنرجئ القول فيه الى ما بعد عرضنا لنماذج أخرى من هجائه .

٢ — نماذج أخرى من هجائه

قال يهجو بخيلاً :

١ كدحتُ بأظفاري وأعملتُ مِعوَلي | فصادفتُ جلموداً من الصخرِ أملسا

٢ تشاغَلَ ، لمّا جئتُ في وجه حاجتي ، | وأطرق حتى قلتُ : قد مات أو عسى

٣ وأجمعتُ أن أنعاه حين رأيتُه | يَفُوقُ فُواقَ الموتِ ، حتى تنفّسا

٤ فقلت له : لابأسَ ، لستُ بعائدٍ ، | فأفرخَ تعلوه السمادير مُلْبِسا

وقال يهجو ضيفاً نزل به :

٥ وسلّمَ مرّتين فقلت : مهلاً ، | كفَتْكَ المرّةُ الأولى السّلاما

٦ ونَقْنَقَ بطنُه ودعا رُؤاساً | لما قد نال من شِبَعٍ وناما

---

(١) الجلمود : القطعة من الصخر .

(٢) عسى ، هنا ، بمعنى كاد

(٣) اجمعت : عزمت . فاق يفوق فواقاً : ترددت روحه في صدره قبل ان تفيض . يريد انه اعتراه من مجيئي مايشبه الاحتضار حتى اعتزمت ان انعاه .

(٤) افرخ : ذهب روعه . السمادير : شيء يتراءى للمرء من ضعف البصر عند السكر وغيره.

(٦) نقنق بطنه : قرقر لامتلائه . دعا رؤاساً : نادى يالبني رؤاس ، وهم عشيرة الضيف .

وقال يهجو أمّه :

٧ تَنَحَّيْ فاجلسي منّي بعيداً أراحَ اللهُ منكِ العالمينا
٨ أغِربالاً اذا استُودِعْتِ سِرّاً وكانُوناً على المتحدِّثينا
٩ حياتُكِ ، ماعلمتُ ، حياةُ سُوءٍ وموتُكِ قد يَسُرُّ الصالحينا

التمس ذات يوم انساناً يهجوه فلم يجده فقال :

١٠ أبت شفتايَ اليومَ إلاّ تكلُّماً بشَرٍّ فما أدري لِمَنْ أنا قائلُه

ثم اطّلع في حوض فرأى فيه وجهه فقال :

١١ أرى ليَ وجهاً شوّهَ اللهُ خَلْقَهُ فقُبِّحَ مِن وَجهٍ وقُبِّحَ حاملُه

* * *

الهجاء في شعر الحطيئة

اتخذ الحطيئة الهجاء سلاحاً يخيف به الناس ويرهب به الاشراف فكانوا يتقون لسانه بالمال او يستعينون به على هجاء خصومهم . ولم تتأثر نفس الحطيئة بالاسلام وبتعاليمه التي تنهى عن الشتم وإيذاء الناس فظل يتّجر بشعره مدحاً وهجواً حتى جرت عليه سلاطة لسانه السجن في عهد عمر وحتى اضطر عمر الى شراء أعراض المسلمين منه .

وقد وجدنا ان بيئة الحطيئة كان لها أكبر الاثر في توجيهه نحو الهجاء وفيما عرف به من دناءة النفس ولؤم الخلق ، ولاريب ان من الدناءة الفاحشة ان يهجو الرجل أمه وزوج أمه وأضيافه وأن يؤجر على هجاء الاشراف ، ولكن أو ليست امه المسؤولة عن ضعة أصله وسوء منبته ؟ ثم ألم تهمل رعايته والعناية به ؟ ثم ألم تتزوج رجلا آخر بعد موت مولاها ، فلا جرم يهجوها ابنها ويهجو زوج

---

(٨) شبهها بالغربال لانها لاتحتفظ بالسر ، ويكنى بالغربال ايضاً عن الرجل النمام . الكانون : الرجل الثقيل ، ولعله اراد تشبيهها بالشهر المعروف لبرودها وثقلها على الناس .

امها هذا . وإن المشقة التي لقيها الحطيئة في الحصول على قوته وانكار إخوته له وازدراء الناس له ، كل ذلك وأّد في نفسه بغض الناس والحرص على جمع المال بأية وسيلة ، فلا جرم يتخذ شعره تجارة يتكسب بها مدحاً وهجاءً .

ومع انصراف الحطيئة الى الهجاء يدهشنا حين نقرأ هجائه هذا ألا نجد فيه من الفحش والبذاءة مثلما نجده في اشعار بعض معاصريه وفي اشعار هجائي العصر الاموي ، فإن هجاءه لم يكن قائماً على الفحش في القول وانما على تجريد المهجو من صفات الاشراف وفضائلهم كالكرم والشجاعة والمجد ثم على تفضيل غيره عليه . وكان لهذا الهجاء اشد الوقع في نفوس الاشراف في ذلك العصر . وخلو هجائه من الإفحاش هو ما حمل عمر على القول حين لجأ اليه الزبرقان مستعدياً على الحطيئة : ما أسمع هجاءً ولكنها معاتبة . فقال الزبرقان : أو ماتبلغ مروءتي إلا أن آكل والبس ؟ فلما استدعي حسان قال انه هجاه وأقذع وقيل إن لبيداً الشاعر قال حين سئل في ذلك : مايسرّني أنه لحقني من هذا الشعر مالحقه وأنّ لي حُمرَ النَّعم .

وكان الذي حمل الحطيئة على اختيار هذا الضرب من الهجاء ان اكثر مهجويه كانوا من الاشراف الذين يؤلمهم هذا الهجاء أشد الايلام ، فاذا هجا غير الاشراف سلك مسلكاً آخر هو مسلك التصوير الساخر ، كما في هجائه لاضيافه وأمه ونفسه والبخلاء ، ومن الطريف ان الحطيئة كان كثير التهكم من البخلاء مع ما عرف به هو من شدة البخل حتى كان يطرد أضيافه ويهددهم بالضرب اذا لم ينصرفوا .

٣ — المدح

قال من قصيدته التي يمدح بها بني أنف الناقة والتي مطلعها :

طافَت أُمامةُ بالرُّكبانِ آوِنةً ، يا حُسنَه من قَوامٍ ما ومُنتَقبا

* * *

١ سِيري، أُمامَ، فإنَّ الأكثرينَ حصىً والأكرمينَ ، إذا ماينسبون ، أبا

٢ قومٌ يَبيتُ قريرَ العينِ جارُهُمُ   إذا لَوَى بقُوَى أطنابِهم طُنُبا

٣ قومٌ إذا عَقَدوا عَقْداً لجارِهِمُ   شدّوا العِناجَ وشدّوا فوقَه الكَرَبا

٤ قومٌ همُ الأنفُ، والأذنابُ غيرُهُمُ،   ومَن يُساوي بأنفِ الناقةِ الذَّنَبا

٥ ما كان ذنبُ بَغيضٍ، لا أبا لكمُ،   في بائسٍ جاء يحدو أَيْنُقاً شُسُبا

٦ حطّتْ به من بلادِ الطُّورِ عاديةٌ   حصّاءُ لم تَتْرُكْ دونَ العصا شَذَبا

٧ ما كان ذنبُك في جارٍ جعلتَ له   عيشاً، وقد كان ذاقَ الموتَ أو كَرَبا

وقال ايضاً يمدحهم من قصيدته التي مطلعها :

ألا طَرَقَتْنا بعدما هجعوا هِندُ   وقد جُزْنَ غَوراً واستبانَ لنا نجدُ

* * *

٨ يَسُوسون أحلاماً بعيداً أناتُها   فإنْ غَضِبوا جاء الحفيظةُ والجِدُّ

---

(٢) لوى : شد وعقد . القوى ، ج قوة : الطاقة من طاقات الحبل . الطنب : الحبل يشد به طرف الخباء . اي اذا حل فيهم ضيفاً ، وهذا من قبيل الكناية .

(٣) عقدوا : ربطوا . العناج : حبل يشد أسفل الدلو العظيمة الثقيلة ليمسكها اذا انقطعت الأوذام ، وهي السيور التي بين آذان الدلو وأطراف العراقيّ . الكرب : الحبل الذي يشد في وسط العراقي ثم يثنى ويثلث . والعراقي هما العودان المُصلّبان تشد اليهما الأوذام . اراد : اذا عقدو عقدا أحكموه ووثقوه كإحكام الدلو اذا شُد عليها العناج والكرب .

(٤) بهذا البيت علا شأن بني أنف الناقة وصاروا يفاخرون بنسبهم هذا بعد ان كانوا يعيّرون به.

(٥) الأينق : ج ناقة . الشسب ، ج شاسبة : المهزولة من النوق .

(٦) بلاد الطور : اراد بها منازل عبس في نجد . الحصّاء : السنة المجدبة . الشذب : ماينقطع من أغصان الشجر . يريد ان هذه السنة لما فيها من القحط لم تترك نباتاً ولا أغصاناً غير العصا .

(٧) كرب . اوشك وقارب .

(٨) الأحلام : العقول . الحفيظة : الدفاع عن المحارم .

٩ أقِلّوا عليهم ، لا أبا لأبيكمُ ، من اللومِ اوسُدّوا المكانَ الذي سَدّوا

١٠ اولئك قومٌ إن بنَوا أحسنوا البُنى ، وإنْ عاهَدُوا أوفَوا ، وإنْ عَقَدُوا شدّوا

١١ وإن كانت النُّعمى عليهم جَزَوا بها ، وإن أنعموا لا كَدّروها ولا كَدّوا

١٢ وإن قال مَولاهم ، على جُلِّ حادثٍ من الدهر : رُدّوا فضلَ أحلامِكم ، ردّوا

١٣ مطاعينُ في الهيجا ، مكاشيفُ للدُّجى ، بنى لهمُ آباؤهمْ وبنى الجدّ

* * *

المدح في شعر الحطيئة

الدافع الى المدح والهجاء عند الحطيئة واحد هو التكسب ، فلا يظهر في مدحه صدق العاطفة ولكن يظهر فيه إتقان الصنعة كما يتبين لنا من أبياته هذه وتظهر هذه الصنعة في تخيره لألفاظه وعباراته وفي اكثاره من الصور البيانية كالاستعارة والكناية والتشبيه والصور البديعة كالجناس والطباق والمقابلة ورد العجز على الصدر (١) والتقسيم (٢) والإرصاد (٣) ونحوها .

واذا مدح الحطيئة أضاف الى ممدوحه جميع الفضائل التي كانت القبائل تفاخر بها ككثرة العدد واكرام الضيف وحسن الجوار ورفعة النسب والشجاعة في القتال ، وهو لاينسى ان يلح على كرمهم ليهز أريحتهم للعطاء .

٤ — الوصف

تنسب للحطيئة قصيدة يصف بها أعرابياً فقيراً منقطعاً في صحراء موحشة ، دهمه ضيف وليس

---

(١١) النعمى : الحسنة . يريد : انهم يقابلون حسن الصنيع بمثله وإن أنعموا على أحد لم يكدروا انعامهم بالمن ولم يكدّوا المنعم عليه بطلب الجزاء .

(١٣) مطاعين ، ج مطعان : الذين يكثرون الطعن . الهيجا : الحرب . مكاشيف للدجى : اي انهم ينيرون الظلام بنيرانهم التي يوقدونها للضيفان .

(١) ان يذكر لفظان مكرران او متجانسان احدهما في الشطر الأول من البيت وثانيهما في آخره (٢) ذكر احوال الشيء مضافاً الى كل منها مايليق به ويناسبه . (٣) ان يذكر قبل القافية مايدل عليها .

لديه مايقدمه له فلما هم بذبح ابنه ليطعم ضيفه لمح قطيعاً من حمر الوحش يريد الماء فرمى أتاناً منه بسهم فسقطت مضرجة بدمها ، وهكذا بات قرير العين لقيامه بحق الضيافة . وهذه القصيدة لم تذكر في ديوان الحطيئة ويشك بعض الباحثين في نسبتها إليه ، وقد ألحقها الشنقيطي بديوان الحطيئة وقال إنها من مشهور شعره . ومهما يكن من الامر فإنها من الوصف القصصي الذي يعتز به الشعر العربي ، وإليكها :

١ وطاوي ثلاثٍ عاصبِ البطنِ مُرْمِلٍ ... ببيداءَ لم يعرِفْ بها ساكنٌ رَسْما

٢ أخي جَفوةٍ ،فيه من الإنسِ وحشةٌ ، ... يرى البُؤسَ فيها،من شراستِه،نُعمى

٣ وأفرد في شِعْبٍ عجوزاً إزاءَها ... ثلاثةُ أشباحٍ تخالُهُمُ بَهْما

٤ حُفاةٌ ،عُراةٌ، مااغتذَوا خبزَ ملَّةٍ ، ... ولا عرَفوا للبُرِّ مذ خُلِقوا طَعما

٥ رأى شَبَحاً وَسْطَ الظلامِ فراعَهُ ، ... فلمّا بدا ضيفاً تشمَّر واهتمّا

٦ وقال: هيا ربّاهُ ، ضيفٌ ولا قِرىً ... بحقِّك لا تحرِمْه تا الليلةَ اللحما

٧ فقال ابنُه لمّا رآه بحَيْرةٍ : ... أيا أبَتِ اذبحْني ويَسِّرْ له طُعْما

٨ ولا تعتذرْ بالعُدْمِ علَّ الذي طرا ... يظنُّ لنا مالاً فيُوسعَنا ذَمّا

---

(١) الطاوي : الجائع ، والطوى : الجوع . ثلاث : ثلاث ليال . عاصب البطن : شدَّ على بطنه عصابة من جوعه . المرمل : فاقد الزاد . الرسم : آثار الدار .

(٢) الجفوة : خشونة الطبع . الإنس : الناس . وحشة : نفور . فيها : اي في البيداء النعمى : النعيم .

(٣) الشعب : ما انفرج بين جبلين ، والطريق في الجبل . ثلاثة اشباح : ثلاثة اطفال كالاشباح لهزالهم . البهم ، ج بهمة : ولد الضأن . شبههم بها لهزالهم .

(٤) خبز الملة : الخبز المصنوع على الرماد الحار . البر : الحنطة .

(٥) راعه : أخافه . تشمر : تهيأ . اهتم : اغتم وحزن .

(٧) الطعم : الطعام .

٩ فروّى قليلاً ، ثم أحجم بُرهةً ، وإن هو لم يذبح فتاهُ فقد همّا

١٠ فبينا هُمُ عنّت على البُعد عانةٌ قد انتظمت من خلف مِسحلها انظما

١١ ظماءٌ تُريدُ الماءَ ، فانساب نحوها ، على أنّه منها إلى دمها أظما

١٢ فأمهلها حتى تروّت عطاشها ، فأرسل فيها من كنانته سهما

١٣ فخرّت نحوصٌ ذاتُ جحشٍ ، فتيّةٌ ، قد اكتنزت لحماً وقد طُبّقت شحما

١٤ فيا بِشرَهُ إذ جرّها نحو أهله ، ويا بِشرهم لمّا رأوا كلمها يدمى

١٥ فباتوا كراماً قد قضوا حقّ ضيفهم وما غرِموا غُرماً وقد غنِموا غُنما

١٦ وبات أبوهم من بشاشته أباً لضيفهم ، والأمُّ من بِشرها أُمّا .

* * *

منزلة الحطيئة الأدبية

عرف القدماء للحطيئة منزلته الشعرية فقال ابو الفرج : « هو من فحول الشعراء ومتقدّميهم وفصحائهم ، متصرّف في جميع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب ، مجيد في ذلك أجمع » ، وجعله ابن سلام في الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية ، وقال الأصمعي بعد ان وصف دناءة نفسه : « وما تشاء أن تقول في شعر شاعر من عيب الا وجدته ، وقلّما تجد ذلك في شعره . » وكان يؤسفه ان الحطيئة أفسد شعره الحسن بهجاء الناس وكثرة الطمع ، وقد كتب له في ايلة

---

(٨) العدم : الفقر . طرا : مخففة من طرأ : قدم .

(١٠) عنّت : عرضت ولاحت . العانة : القطيع من حمر الوحش . المسحل : حمار الوحش .

(١١) أظما : مخففة من أظمأ ، كان أظمأ الى دمها منها الى الماء .

(١٣) النحوص : الاتان الوحشية . ذات جحش : ذات ولد . طبقت شحماً : امتلأت شحماً .

(١٤) البشر : السرور . الكلم : الجرح . يدمى : يقطر منه الدم .

اربعين قصيدة . وقال فيه ابو عبيدة : « كان الحطيئة متين الشعر ، شرود القافية ، وكان دنيّ النفس ، وما تشاء ان تطعن في شعر شاعر إلا وجدت فيه مطعناً ، وما أقل ماتجد ذالك في شعره .» وحين قيل لابن ميّادة ان الحطيئة سبقه الى معنى أتى به قال : « والله ماعلمت ان الحطيئة قال هذا قط ، والآن علمت والله أني شاعر حين واطأت الحطيئة . » وكان الحطيئة يعرف قدر نفسه فاذا سئل من أشعر الناس أخرج لسانه وقال : هذا ، إذا طمع .

فاذا أضفنا الى هذه الأقوال ماذكرناه في ترجمته من تقريب الناس له رغبة في مدحه واتقاء هجوه عرفنا ما كان له من كبير المنزلة الشعرية لدى معاصريه ، وان دراستنا لشعره كشفت لنا ، دون ريب ، عن منزلته هذه ، وشعره الذي وصلنا ، على قلته ، يدل على ان الحطيئة فحل من فحول الشعراء المخضرمين ، مجيد في اكثر فنون الشعر وزعيم الهجّائين في عصره .

* * *

مصادر

١ ـ الأغاني للأصفهاني ، ج ٢ : ١٥٧ ، طبع دار الكتب .

٢ ـ خزانة الأدب للبغدادي ج ٢ : ٣٥٥ و ج ٣ : ٢٦١ .

٣ ـ ديوان الحطيئة ، شرح السكري .

٤ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١١٠ .

٥ ـ طبقات الشعراء لابن سلام ص ٣٣ .

٦ ـ دائرة المعارف الاسلامية ، ج ٢ ، ٣٦٩ ، مادة الحطيئة (غولدتسيهر) .

الخنساء

ترجمتها

هي تماضر بنت عمرو بن الشريد التي ينتهي نسبها الى سليم فقيس عيلان فمضر ، والخنساء لقب غلب عليها (١) ، وهي من مخضرمي الجاهلية والاسلام ، ولدت حوالي عام ٥٧٥ م وقد نشأت في بيت اشتهر بالرفعة والشرف ، كان بنو سليم من أشهر بطون قيس عيلان ، وكانوا « يدركون الثأر ويحمون الجار ويعظمون النار » على قول دغفل ، وكان عمرو بن الشريد ، ابو الخنساء ، يأخذ بيدي ابنيه صخر ومعاوية ويقول : انا ابو خيري مضر ، فتعترف له العرب بذلك ، واشتهر بيتها بالشعر ايضاً فكان ابن عمها خفاف بن ندبة السلمي شاعراً وكان أخوها صخر شاعراً ايضاً وكان ابناؤها شعراء ايضاً اشتهر منهم عبد الله المقلب بأبي شجرة ، والعباس بن مرداس، اذا صح انه ولدها.

وكان ابوها على شيء من الثراء فالمرزوقي يحدثنا في كتاب الازمنة ان ابا الخنساء قدم سوق عكاظ مع ولديه صخر ومعاوية ، في عام ٣٥ للفيل فباعوا ارضاً لهم بيثرب. ولكن قومها كانوا مقيمين بالباديه ، وربما رؤيت الخنساء وهي تهنأ إبلاً لها ، على عادة أهل البادية .

كانت الخنساء تتمتع بشخصية قوية تتيح لها البت بشأن زواجها ، رآها الشاعر دريد بن الصمة تهنأ بعيراً لها أجرب ، وقد تبذلت، فأعجبته، وكان هو شيخاً كبير السن ، فخطبها الى ابيها فرحب

---

(١) الخنساء صفة للمرأة التي بها خنس ، وهو تأخر الانف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الارنبة ، وهي صفة مستحبة واكثر ماتكون في الظباء وبقر الوحش .

به ولكنه اشترط موافقتها لأن لهذه المرأة في نفسها ماليس لغيرها ، فلما فاتحها أبوها بهذا الأمر أبت أن تؤثر على بني عمها ، وهم مثل عوالي الرماح ، شيخ بني جُشم ، وهو هامة اليوم أو غد ، فحز رفضها في نفس دريد ، فارس هوازن ، صديق أخيها معاوية ، فهجاها بأبيات ذكرها صاحب الاغاني ، وآثرت ألا ترد على هجائه بمثله .

ثم تزوجت الخنساء مرتين او ثلاثاً ، وكان آخر ازواجها مرداس بن ابي عامر السلمي ، وانجبت ابناءً عديدين ، احدهم ابو شجرة الذي ارتد عن الاسلام مع من ارتد وحارب خالد بن الوليد ، وهو القائل :

فروّيت رمحي من كتيبة خالد ... وإني لأرجو بعدها أن أُعمّرا

وكان منهم ، على ماذكره ابو الفرج ، العباس بن مرداس الشاعر المشهور وأحد المؤلفة قلوبهم ، الا ان ابن الكلبي انكر ان يكون ابن الخنساء وقال إن جميع ابناء مرداس من الخنساء الا العباس ، وقتل اربعة من اولادها فيما بعد في وقعة القادسية .

وقد وصلتنا من اخبار الخنساء في الجاهلية وفودها على النابغة الذبياني في عكاظ وانشادها إياه شعرها وتفضيله لها على حسان ، على ان اهم ما أثر في حياتها وهز شاعريتها مقتل أخويها معاوية وصخر ، حدثنا البغدادي في الخزانة وانها كانت في اوائل امرها تقول البيتين والثلاثة حتى قتل اخوها معاوية ثم اخوها صخر فأكثرت من الشعر وأجادت . وقد انتهى الينامن شعرها المقول قبل مقتل اخويها ابيات قالتها في سباق قام بين أبيها وبين أخيها صخر ، ولم ترد هذه الأبيات في ديوانها ونحن نثبتها هنا لما فيها من جمال الوصف وبراعة الاحتجاج :

جارى اباه ، فأقبلا وهما ... يتعاوران مُلاءة الفخر
حتى اذا نزت القلوب ، وقد ... لُزّت هناك العُذرُ بالعُذرِ
وعلا هُتاف الناس : أيُّهما ؟ ... قال المجيبُ هناك : لاأدري
برزَت صحيفةُ وجهِ والده ... ومضى على غُلوائِه يجري
أولى فأولى أن يُساويَه ، ... لولا جَلالُ السِنّ والكِبَرِ
وهما كأنّهما ، وقد برزا ، ... صقرانِ قد حطّا على وَكْرِ (١)

---

(١) جاراه : سايره في الجري . يتعاوران : يتبادلان . شبهت الغبار المثار بالملاءة يرتديها الأب تارة والابن تارة أخرى . وهذا من استعارات العرب الجميلة . نزت : وثبت واضطربت . ←

فجعت الخنساء بأخيها معاوية اولا ، قتله هاشم بن حرملة المرّي يوم الحوزة لنزاع كان بينهما ، فانتقم له أخوه صخر . ثم فجعت بأخيها صخر فى وقعة كانت بين عشيرته وبين بني أسد اذ أصابته طعنة في جنبه فجوي جرحه وظل مريضاً زهاء حول ثم مات . (راجع تفصيل مقتل معاوية وصخر في الاغاني ج ١٣ : ١٤٠ والعقد الفريد ج ٣ : ٧٤) ، وكان لمقتلها ابلغ الاثر في نفس الخنساء فظلت تبكيهما وترثيهما بشعرها بقية عمرها ، وقالت اكثر شعرها في رثاء صخر الذي كان عطوفاً عليها براً بها يقاسمها ماله كلما افتقرت .

فلما جاء الاسلام قدمت الخنساء على الرسول في وفد بني سُليم في السنة الثامنة للهجرة ودخلت في الإسلام معهم . الا ان الاسلام لم يستطع أن يعزّيها عن مقتل أخويها فظلت تبكيهما وظلت تلبس الصدار (وهو قميص من الشعر) على الرغم من نهي الإسلام عنه ، فاذا ليمت في بكائها على اخويها وقد أصبحا من اهل النار ، اجابت ان ذاك اطول لعويلها عليهما ، كانت تبكي لهما من القتل فصارت تبكي لهما من النار . واذا لامتها عائشة على لبسها الصدار وصفت لها صنيع صخر اليها وعطفه عليها ومشاطرته إياها ماله مرات .

ولما قامت وقعة القادسية (عام ٦٣٨) اشترك اولاد الخنساء الاربعة فيها ، وقتلوا جميعاً ، فلما بلغها نبأ استشهادهم قالت : « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم . وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته » . ولا نجدها تتفجع عليهم تفجعها على اخويها ، وربما عزاها في مقتلهم اطمئنانها الى ان مصيرهم جنة الخلد . ثم ماتت الخنساء ، على أرجح الاقوال ، في خلافة معاوية بعد أن عميت .

لزّت : الصقت . العُذر ، ج عذار : الشعر على كاهل الفرس ، وما نبت من الشعر في جانب الوجه . ارادت ان عذاري الفرسين كانا متلاصقين لتجاورهما في العدو . الغلواء : النشاط والحدة . اولى : اجدر ، كان الابن جديراً بمساواة ابيه لولا مهابته له .

نماذج من رثائها

١ – من قصيدة ترثي بها أخاها صخراً :

١ قذًى بعينِك ، أم بالعينِ عوّارُ ، أم ذرَّفتْ إذ خلَتْ من أهلِها الدارُ
٢ كأنّ دمعي لذكراه، اذا خطَرت، فيضٌ يسيلُ على الخدّين ، مِدْرارُ
٣ تبكي خُناسٌ فما تنفكُّ ماعمرت ، لها عليه رنينٌ ، وهي مِفتارُ
٤ تبكي خُناسٌ على صخرٍ، وحُقّ لها، إذ رابها الدهرُ ، إنّ الدهرَ ضرّارُ
٥ لابدّ من ميْتةٍ في صرفها غِيَرٌ ، والدهرُ في صرفه حَولٌ وأطوارُ
٦ وما عَجُولٌ على بوٍّ تُطيفُ به لها حنينانِ : إصغارٌ وإكبارُ ،

(١) القذى : ماخالط العين من الشوائب . العوّار : كل ما أعلّ العين من قذى او رمد . تخاطب الخنساء نفسها فتقول : اي شيء حمل عينك على ذرف الدمع ، أمن قذى او عوّار بها ، أم لأن أهل الدار قد فارقوها ؟

(٣) خناس : لقب للخنساء . ماعمرت : مدة عمرها . الرنين : ارتفاع الصوت بالبكاء . مفتار : التي أصابتها فترة ، وهي الضعف والانكسار .

(٤) حُقّ لها : كان حقيقاً بها . رابها الدهر : أصابتها صروف الدهر .

(٥) في صرفها : في حدوثها وتغيّرها . غير الدهر : احداثه وصروفه . الحول : التحوّل والتقلب . الأطوار : الأحوال . تريد ان الدهر من شأنه التحول والتقلب ولا ينجو أحد من صروفه وغيره .

(٦) العجول : التي يموت ولدها صغيراً . البو : جلد ولد الناقة الميت يحشى تبناً ويقرّب من أم الفصيل لتدر . الحنين : صوت الناقة . الإصغار : الحنين بصوت خفيض . الإكبار : الحنين بصوت عالٍ .

٧ تَرتع ُما رَتَعت حتى اذا ادَّكرتْ فإنما هي إقبالٌ وإدبارُ ،
٨ لاتَسمنُ الدهرَ ، في أرضٍ ، وإن رُبِعَت فإنّما هي تحنانٌ وتَسجارُ
٩ يوماً بأوجدَ منّي ، يومَ فارقني صخرٌ ، وللدهرِ إحلاءٌ وإمرارُ
١٠ وإنّ صخراً لَوالينا وسيّدُنا ، وإنّ صخراً ، إذا نَشتو ، لنَحّارُ
١١ وإنّ صخراً لمِقدامٌ ، اذا ركبوا ، وإنّ صخراً ، إذا جاعوا ، لعَقّارُ
١٢ وإن صخراً لتأتمُّ الهداةُ بِهِ كأنّه علَمٌ في رأسه نارُ
١٣ حمّالُ ألويةٍ ، هبّاطُ أوديةٍ ، شهّادُ أنديةٍ ، للجيشِ جرّارُ
١٤ لم تَرَهُ جارةٌ يمشي بساحتها لرِيبةٍ حين يُخلي بيتَه الجارُ

---

(٧) رتعت : رعت . ادكرت : تذكرت (ولدها) . فإنما هي إقبال وادبار : جعلتها لكثرة ماتقبل وتدبر كأنما تجسمت من الإقبال والإدبار . ارادت انها ترعى مادامت ناسية ولدها فإذا ذكرته لم يقر لها قرار وكثر إقبالها وإدبارها .

(٨) الدهر : طول الدهر . ربعت : اصابها مطر الربيع . التسجار : الحنين الطويل المديد . لاتسمن طول دهرها وان كانت في ارض كثيرة الكلأ لأنها منصرفة عن الرعي بالحنين والتسجار.

(٩) اوجد : اكثر وجداً وهو شدة الحنين والحب . الإحلاء والإمرار : السرور والحزن. هذا البيت جواب (وما عجول) في البيت السادس .

(١٠) الوالي : السيد . نشتو : ندخل في الشتاء واراد به القحط . نحر الناقة : عقرها وذبحها.

(١٢) تأتم : تتخذه إماماً . الهداة : الأدلاء الذين يهتدى بهم . العلم : الجبل . شبهت أخاها في اشتهاره بجبل عليه نار ، ولو انها شبهت بالجبل فقط لكفى ولكنها أضافت صورة اخرى هي صورة النار وهذا مايعرف عند البديعيين بالإيغال .

(١٣) ألوية ، ج لواء : راية الحرب . ارادت انه بطل يحمل لواء قومه في الحروب ، وهو شجاع لايعتصم بالجبال ، وهو ذو مكانة يحضر مجالس قومه وأنديتهم .

(١٤) لم تراه : لم تره . لريبة : لفاحشة . تريد انه شريف لايغتنم فرصة غياب جاره ليتعرض لزوجته.

١٥ لِيَبْكِهِ مُقْتِرٌ أفنى حَرِيبَتَهُ دهرٌ ، وحالفهُ بُؤسٌ وإقتارُ
١٦ ورِفقةٌ حارَ هاديهم بمَهْلَكَةٍ كأنَّ ظُلمتَها ، في الطَخْيةِ ، القارُ
١٧ لا يمنعُ القومَ إن سالوهُ خِلعتَهُ، ولا يُجاوِزُهُ بالليلِ مُرّارُ

* * *

دراسة القصيدة

المناسبة

غزا صخر بني أسد في جمع من بني خُفاف ، فأصابوا الأموال وسبوا النساء ، فلحقهم بنو أسد فاقتتلوا قتالاً شديداً . وفي هذه المعركة طعن ربيعة بن ثور الأسدي صخراً في جنبه بجرحه ، فجوي جرح صخر وأقام مريضاً قرابة عام حتى ملت امرأته سلمى زيارته والعناية به وظلت امه تحنو عليه وتعالجه فقال فيها ابياتاً اولها :

أرى أم صخر لا تمل عيادتي وملت سليمى مضجعي ومكاني

ولما طال به الأمر نتأت له قطعة مثل الكبد في جنبه فأشير عليه بقطعها ففعل فلم يلبث أن مات. وهذه القصيدة من أطول وأجود ما قالته الخنساء في رثاء اخيها صخر .

---

(١٥) المقتر : الفقير ، المملق . الحريبة : المال الذي يعيش به الرجل . الإقتار : الفقر .

(١٦) الهادي : الدليل . المهلكة : البيداء ، المفازة . الطخية : السحاب الذي يواري النجوم فيضل الدليل سبيله . القار : القطران . ليبك صخراً الفقير لأنه كان يعينه بالمال ، والرفقة الذين يضلون طريقهم لأنه كان لهم نعم الرائد الهادي .

(١٧) سالوه : مخففة من سألوه . الخلعة : الثوب يخلعه الرجل على آخر . لا يجاوزه بالليل مرار : لا يجوز به رجل ليلاً الا أضافه .

التحليل الأدبي

الأغراض والأفكار العامة لم تتناول الخنساء في قصيدتها هذه غير الرثاء ، بل ان فجيعتها بأخويها صخر ومعاوية وبزوجها مرداس جعلتها تقف شعرها كله تقريباً على رثائهم . وأكثر مراثيها في أخيها صخر الذي كان كثير البر بها ، شديد العطف عليها . فأفكارها في هذه القصيدة تدور حول تصوير لوعتها وفجيعتها بموت أخيها ، فهي لا تزال تبكيه ماعاشت . فإذا ماعبرت عن حزنها على أخيها وبكائها المتصل عليه أخذت تطري مناقبه وتمدد مآثره ، والرثاء ضرب من المدح ، فصخر هو السيد ، النحار ، المقدام ، الكريم ، الذائع الذكر ، الرفيع المنزلة ، الشريف النفس ، السخي اليد ، المطعم الضيفان . هذه هي الأفكار التي تدور حولها القصيدة والتي نجدها مكررة في أكثر مراثي الخنساء . وهي أفكار عامة كما رأيت لا تفصيل فيها ، وهي الى ذلك قريبة لم تجهد الخنساء نفسها كثيراً في الاتيان بها .

العاطفة لانحتاج الى بيان عاطفة اللوعة الصادقة والحزن الشديد واليأس المفجع التي تنم عنها قصيدة الخنساء هذه ، فإن مقتل صخر قد احدث في فؤاد الخنساء كلماً لا يرجى له برء وخلف فيه لوعة لا تخمد جذوتها . فهي دائمة الحزن عليه حزن الناقة على فصيلها ، دائمة البكاء عليه لا يرقأ لها دمع ولا تجف لها عبرة ، وهذه العاطفة القوية العارمة لم يستطع الاسلام تلطيف حدتها وعجزت الأيام عن إخماد جذوتها . ومن خلال حزنها على اخيها نلمح شدة اعجابها به وحبها له وتعلقها به .

الأسلوب ارادت الخنساء أن تشعر فبكت ، فلا نراها في مراثيها الا باكية متفجعة تخاطب عينيها وتطلب اليها ان تجودا بالدموع السوافح : ياعين جودي بدمع منك مسكوب ، أعيني جودا ولا تجمدا ، يا عين جودي بالدموع المستهلات السواجم ، الخ .. وفي قصيدتها هذه نراها ايضاً تبدؤها متساءلة عما حمل عينها على ذرف الدموع ، أهو قذى أصاب عينها ، لا ، انها ذكرى صخر خطرت لها ، وما خطرت لها ذكراه الا ذرفت الدمع السخين . ولا عليها ان يكون رثاؤها بكاءً متصلاً فللمرأة خلق البكاء ، والرجل أقدر من المرأة على التجلد وحبس الدمع .

واذا بكت خناس بكت معها ألفاظها وقوافيها وجملها ، فألفاظها تناسب البكاء في رقتها وجرسها ومعانيها وأكثرها متصل به : ذرفت ، دمعي ، فيض يسيل ، مدرار ، رنين ، الخ ..وقوافيها تناسب

البكاء في جرسها ومدها ، وجملها متناسبة أيضاً في قصرها ووقعها، وربما استعانت الخنساء بالسجع والموسيقى الداخلية لتضيف إلى البيت نغمة أخرى تزيد في وقعه :

حمّال ألوية ، هبّاط أودية ، شهّاد أندية ، للجيش جرّار

وكثيراً ما تحملها شدة عاطفتها على التكرار ، كتكرار : تبكي خناس ، في البيتين الثالث والرابع ، وتكرار : وان صخراً ، في الأبيات العاشر والحادي عشر والثاني عشر .

وليس في معانيها كبير ابتكار أو عمق وإنما هي آهات وأنات وزفرات ، ولا نجد في رثائها ما نجده في رثاء أبي تمام وابن الرومي وأمثالهما من العمق والتصرف في المعاني ، وقلما نجدها تربط فجيعتها بقوانين الكون أو تمزجها بالحكم أو تستخلص منها العبر ، فان فعلت ففي غير اكثار كقولها هنا :

لابد من ميتة في صرفها غير ، والدهر في صرفه حول وأطوار

وفنها في الرثاء لا يخرج غالباً عن أمرين : وصف حزنها ومدح مناقب المرثي ، فاذا وصفت حزنها بكت واستبكت ولم تجد إلى التأسي وإلى العزاء سبيلا ، ولولا أنها ترى كثرة الباكين حولها لقتلت نفسها ، وإذا عددت مناقب صخر أو معاوية ألصقت بهما فضائل الكرم والشجاعة والنجدة والشرف وجمال الخلق وما إلى ذلك ، وربما أعادت ذكر الخصلة الواحدة في أكثر من موضع ، وإذا وصفت أخاها اختارت له صفات المبالغة التي تدل على قوة عاطفتها : نحار ، عقار ، حمال ، هباط ، شهاد ، جرار ، ونحوها . والغلو من الخصائص التي نجدها في أكثر شعر الرثاء .

ولا ترضيها التعابير الحقيقية في أداء أفكارها فتستعين كثيراً بالصور البيانية والبديعية ، فدمعها كالفيض ، وهي كالعجول الثكلى ، وصخر كجبل في رأسه نار ، وظلمة الداجية كالقار ، وصخر حمال ألوية هباط أودية ... ، لا يجاوزه بالليل مرار ؛ وهي تصطنع هذا الترشيح الذي وجدنا مثاله عند النابغة فاذا شبهت نفسها بالناقة الثكلى أوغلت في وصف هذه الناقة وما يلم بها ، إذا ذكرت فصيلها ، من الاقبال والادبار والتحنان والتسجار لتقول لنا أخيراً إن هذه الناقة مع ذلك ليست بأوجد منها يوم فارقها صخر . وأخيراً نجدها تلجأ إلى التقسيم والتفريع والسجع حتى تمتلىء أبياتها بالصور البيانية والبديعة .

وأخيراً نلاحظ أن القرآن إذا لم يستطع أن يؤثر في نفسها فانه أثر في ألفاظها وأسلوبها ومعانيها ، وهذا الاثر يجب أن نلتمسه في شعرها المقول بعد إسلامها .

نماذج أخرى من رثائها

قالت ترثي صخراً :

١ يؤرقني التذكرُ حين أمسي ، فأصبحُ قد بُليت بفرط نُكسِ
٢ على صخرٍ ، وأيّ فتىً كصخرٍ ليوم كريهة وطِعان خَلْسِ
٣ يذكّرني طلوعُ الشمس صخراً ، وأذكرُه لكلِّ غروبِ شمسِ
٤ ولولا كثرةُ الباكين حولي على إخوانهم لقتلتُ نفسي
٥ ولكنْ لا أزالُ أرى عجولاً وباكيةً تنوحُ ليوم نحس
٦ اراها والهاً تبكي أخاها ، عشيّةَ رُزْئه أو غِبَّ أمسِ
٧ وما يبكين مثلَ أخي ولكن أعزّي النفسَ عنه بالتأسّي
٨ فلا واللهِ لا أنساكَ حتى أفارقَ مُهجتي ويُشقَّ رَمسي

وقالت ترثي أخاها معاوية :

٩ ألا ما لعيني ، ألا مالها ، وقد أخضل الدمعُ سِربالَها
١٠ سأحملُ نفسي على آلةٍ ، فإمّا عليها وإمّا لها
١١ فإن تصبرِ النفسُ تلقَ السرورَ ، وإن تجزعِ النفسُ أشقى لها
١٢ لعمرُ أبيك ، لنعمَ الفتى تَحُشُّ به الحربُ أجذالها

---

(١) النكس : معاودة المرض بعد النقه . (٢) طعان خلس : مخالسة .
(٦) الرزء : المصيبة والنازلة . غبّ أمس : بعد أمس .
(٩) أخضل : بلل . (١٠) على آلة : على خطة . (١٢) تحش : توقد . الأجذال ، ج جِذل : أصول الشجر .

١٣ حديدُ السنانِ، ذليقُ اللسان، يُجازي المَقارضَ أمثالَها
١٤ فنفسي الفداءُ له من فقيدٍ، أبت أن تُزايلَ إعوالَها
١٥ فإن تكُ مُرّةُ أودَتْ به فقد كان يُكثِرُ تقتالَها
١٦ فخرّ الشوامخُ من قتله، وزُلزلت الأرضُ زِلزالَها
١٧ وزال الكواكبُ من فقدِه، وجُلّلت الشمسُ أجلالَها

منزلتها الادبية

فجيعة الخنساء بأخويها وزوجها حركت حسها الشعري ففاضت عاطفتها شعراً رثائياً نابضاً بالصدق والقوة والحياة، حدثنا أن الرسول كان معجباً بشعرها يستنشدها ويحثها على أن تزيده بقوله: هيه، ياخناس، وقد وازن أبو زيد الأنصاري بينها وبين ليلى الأخيلية فقال: وليلى أكثر تصرفاً وأغزر بحراً، وأقوى لفظاً، والخنساء أذهب عموداً في الرثاء» وقال المبرد: «من أحسن المراثي ماخلط فيه مدح بتفجيع على المرثي فإذا أوقع ذلك بكلام صحيح، ولهجة معربة، ونظم غير متفاوت فهو الغاية من كلام المخلوقين، وكذلك رثاء الخنساء». ولئن لم نجد في شعرها مانجده في أشعار ابن الرومي وابي تمام وغيرهما من العمق والافتنان والتصرف بالمعاني فحسبنا أن شعرها صدى نفسها الملتاعة المفجوعة وفيض عاطفتها المتوقدة العارمة.

مصادر

١ ـ الأغاني الأصفهاني، ج ١٣ : ١٣٥، بولاق.
٢ ـ انيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء، لويس شيخو، بيروت ١٨٩٦.
٣ ـ خزانة الأدب للبغدادي، ج ١ : ٣٩١، السلفية.
٤ ـ طبقات الشعراء لابن سلام ص ٨١.
٥ ـ دائرة المعارف الاسلامية، كرنكو (مادة خنساء) ج ٢ : ٩٥٤ Encyclopédie de l'Islam

---

(١٣) السنان: حديدة الرمح. المقارض: الغزواة. (١٦) الشوامخ: الجبال. لاحظ أثر القرآن في هذا البيت والذي يليه.

الرثاء : اولاد ٥

أبو ذؤيب الهذلي

١ أَمِنَ المنونِ ورَيبِها تتوجعُ ؟ والدهرُ ليس بمُعتِبٍ من يَجزَعُ
٢ قالت أُمَيمةُ : ما لجسمِكَ شاحباً منذُ ابتُذِلتَ ومثلُ مالِك ينفعُ
٣ أم ما لجسمِكَ لا يُلائمُ مَضجعاً إلاَّ أقضَّ عليكَ ذاك المضجعُ
٤ فأجبتُها : أمَّا لجسميَ أنه أودى بَنِيَّ من البلادِ فودَّعوا
٥ أودى بَنِيَّ فأعقبوني حسرةً ، بعدَ الرُّقادِ ، وعبرةً ما تُقلِعُ
٦ سبقوا هوِيَّ وأعنقوا لهَواهُمُ فتُخُرِّمُوا ولكلِّ جَنبٍ مَصرَعُ

---

(١) المنون : المنية ، الموت . ريب الدهر : حوادثه وصروفه . معتب : مُرضٍ ، والعتبى : الرضى . من يجزع : من لا يملك نفسه عن الحزن والاضطراب . (٢) ابتذلت : ابتذلت نفسك وأهنتها حسرة وأسى ، وكرهت الدعة والزينة ولزمت العمل والسفر ، ومالك يغنيك عن هذا (٣) أقض المضجعُ : خشن ونبا ، وأقض الله مضجعه : جعله خشناً . يريد : مالجسمك لايلائمه مضجع ، فكلما اختار مضجعاً نبا به وخشن ، وذلك لشدة حزنه على ابنائه (٤) أما : مركبة من أن وما الموصولة أودي : هلك . ودّعو : فارقوا . يريد : أن سبب هزال جسمي وابتذاله هلاك أبنائي ومفارقتهم هذا العالم (٥) أعقبوني : خلفوا لي ، أورثوني . تقلع : تذهب ، تكف عن الانهمار . (٦) الهويّ : ←

٧ فغبرتُ بعدهُم بعيشٍ ناصبٍ، وإخالُ أني لاحقٌ مستتبَعُ

٨ ولقد حرَصتُ بأنْ أدافعَ عنهمُ، وإذا المَنيةُ أقبلتْ لا تدفعُ

٩ وإذا المنيةُ أنشبتْ أظفارَها ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

١٠ فالعينُ بعدَهم كأنَّ حِداقَها سُمِلت بشوكٍ فهي عُوْرٌ تَدمَعُ

١١ وتجلُّدي للشامتينَ أُريهمُ أني لريبِ الدهر لا أتضعضعُ

١٢ حتَّى كأني للحوادثِ مَرْوَةٌ بصفَا المُشقَّرِ كلَّ يومٍ تقرَعُ

١٣ لا بدَّ مِن تلَفٍ مقيمٍ فانتظِرْ أبأرضِ قومِك أم بأخرى المَضجعُ

١٤ ولقد أرى أنَّ البكاءَ سفاهةٌ ولسوفَ يُولَعُ بالبُكا مَن يُفجَعُ

١٥ وليأتينَّ عليكَ يومٌ مرَّةً يُبكى عليكَ مقنَّعاً لا تَسمعُ

١٦ والنفسُ راغبةٌ، إذا رغَّبتَها، وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تقنعُ

الهوى . أعنقوا : أسرعوا . تخرَّم الدهر القوم : استأصلهم واقتطعهم. (٧) غبرت : لبثت، أقمت. ناصب : متعب . مستتبع: تابع لهم في الهلاك (٨) ادافع عنهم: أردعهم (غائلة الهلاك) (٩) أنشبت: أعلقت . التميمة : ما يُعلق مخافة العين من خرز وتعاويذ ونحوها . شبه المنية هنا بحيوان مفترس على سبيل الاستعارة المكنية . (١٠) سملت : فقئت . الحداق ، ج حدقة : سواد العين . يريد : ان عيني بعدهم دائمة البكاء فكأنها سملت بشوك . (١١) التجلد : اظهار الجلد والاحتمال. للشامتين: للذين يُسرون بمصيبتي . أتضعضع : أضعف وأجزع . (١٢) المروة ، واحدة المرو : الحجارة الصلبة . الصفا : الحجارة الملساء . المشقَّر : حصن بالبحرين . شبه نفسه في تجلده للحوادث بمروة صلبة تقرع كل يوم . (١٣) التلف : الردى ، الهلاك . مقيم : دائم . المضجع : مكان الاضطجاع أي الموت. (١٤) أرى : أعلم. السفاهة: خفة العقل. أولع بالأمر: أغري به وتعلق. يفجع : تنزل به الفجيعة . (١٥) المقنع : المغطى بالاكفان. يريد: لا بد من أن تهلك يوماً ويبكى عليك وأنت مدرج في أكفانك لا تسمع بكاء الناس . (١٦) راغبة : طامعة في المزيد .

١٧ كم من جميعِ الشَّملِ مُلتئمِ الهوى كانوا بعيشٍ ناعمٍ فتصدَّعوا
١٨ فلئن بهم فجعَ الزمانُ وريبُه إنّي بأهلِ مودّتي لمُفجَعُ

* * *

كلمة في القصيدة وقائلها :

أبو ذؤيب الهذلي هو خويلد بن خالد الذي ينتهي نسبه الى هذيل فمضر . وهو أحد فحول مخضرمي الجاهلية والإسلام ، ولم يصلنا من أخباره مافيه غناء وانما نعلم انه كان في أول أمره راوية ساعدة بن جؤية الهذلي ولما جاء الاسلام وفد على النبي عليه السلام فمات النبي قبل وصوله بليلة ، ونعلم أنه كان له ابناء خمسة هاجروا الى مصر وهلكوا بالطاعون في عام واحد فرثاهم بقصيدته العينية هذه ، ونعلم أنه كان يهوى امرأة يقال لها ام عمرو وكان يرسل اليها خالد بن زهير فخانه فيها، فجرت بين أبي ذؤيب وبين خالد ملاحاة ، ثم نجد أبا ذؤيب يشترك مع المسلمين في غزو الروم في عهد عمر او في عهد عثمان ، ففي الأغاني روايتان مختلفتان عن موت أبي ذؤيب ، الأولى تقول إنه غزا بلاد الروم في عهد عمر بن الخطاب مع ابنه وابن أخ له فلما قفل من الغزو اخذه الموت ودفن هناك ، والرواية الأخرى تقول إنه كان في جيش عبد الله بن سعد حين غزا افريقية موفداً من قبل عثمان عام ٢٦ هـ ، فلما انتصروا على جرجير، صاحب إفريقية ، أرسل عبد الله وفداً الى عثمان يزف اليه النبأ ، وكان أبو ذؤيب في هذا الوفد ، فلما قدموا مصر مات أبو ذؤيب بها .

كانت لأبي ذؤيب منزلة رفيعة عند النقاد فجعله ابن سلام في الطبقة الثالثة من شعراء الجاهلية ، وقال فيه : « كان أبو ذؤيب شاعراً فحلاً لا غميزة فيه (لا عيب فيه) ولا وهن » ، وروى أبو عمرو ابن العلاء ان حساناً سئل : «من أشعر الناس ؟ قال : أحياً أم رجلاً ؟ قالوا : حياً . قال : أشعر الناس حياً هذيل ، وأشعر هذيل غير مدافع ابو ذؤيب » . وكان لقصيدة ابي ذؤيب هذه شهرة بعيدة عن المتقدمين، فبها قدم عمر بن شبة ابا ذؤيب على جميع شعراء هذيل، ولما مات جعفر بن المنصور

---

(١٧) جميع : مجتمع . الشمل : ما اجتمع من الأمر ، يقال اجتمع شملهم اذا اجتمعوا وتبدد شملهم إذا تفرقوا . ملتئم الهوى : متحد المنازع . تصدعوا : تفرقوا ، تبددوا .

(١٨) المفجع : المنكوب ، المحزون .

التمس المنصور رجلاً ينشده هذه القصيدة ليتعزّى بها عن مصيبته فلم يجد أحداً يحفظها من أهل بيته فقال : « والله لمصيبتي بأهل بيتي الا يكون فيهم احد يحفظ هذا لقلة رغبتهم في الأدب أعظم وأشد علي من مصيبتي بابني » . والحق ان هذه القصيدة من أروع الرثاء في الشعر العربي ، وهي تبلغ زهاء سبعين بيتاً ، قالها في رثاء أبنائه الخمسة الذين هلكوا بالطاعون في عام واحد ، وبدأها بوصف ما ترك في نفسه مصرع أبنائه من الأثر ، فقد هذل جسمه وهانت نفسه ونبا به مضجعه وملأت نفسه الحسرات ، وفاضت عيناه بالعبرات ، ولقد حاول أن يرد عنهم غائلة الردى فلم يفلح ، ولكنه يتجلد لئلا يشمت به الشامتون ويثبت لخطوب الدهر كالصخرة التي لا تزعزعها الاحداث ، وان مما يعزيه في مصابه ان المنية لا مفرّ منها ولا منجاة ، فهي تنزل بالناس كما تنزل بالوحش الآمنة الرائعة المقيمة في أطيب عيش حين يفجؤها القانص ويرميها بأسهمه وكما تنزل بالكميّ الشاكي السلاح المتسربل بدرعه السابغة ، فكل هؤلاء لا ينجون من المنون « والدهر يحصد ريبه مايزرع » . والقصيدة نموذج للرثاء العاطفي الصادق اللوعة ، وفيها من جزالة الالفاظ وقوة التراكيب وجمال التصوير ما يجعلنا نقر المتقدمين في تقديمهم ابا ذؤيب على شعراء هذيل كافة .

مصادر

١ – الأغاني للأصفهاني ، ج ٦ : ٥٦ ، (بولاق) .

٢ – الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص ٢٥٢ .

٣ – خزانة الأدب للبغدادي ، ج ١ : ٣٨١ .

٤ – ديوان أشعار الهذليين .

٥ – جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ص ٢٦٤ .

مالك بن الريب

١ أَلا ليتَ شِعري هل أَبيتَنَّ ليلةً ... بجنبِ الغَضى أُزجي القِلاصَ النَّواجِيا
٢ فليتَ الغَضى لم يَقطعِ الرَّكبُ عَرضَه ... وليتَ الغَضى ماشى الرِّكابَ لَيالِيا
٣ لقدْ كانَ في أهلِ الغَضى لو دنا الغَضى ... مزارٌ ، ولكنَّ الغَضى ليسَ دانِيا
٤ أَلم تَرَني بِعتُ الضَّلالةَ بالهُدى ... وأَصبحتُ في جيشِ ابنِ عَفَّانَ غازِيا
٥ تذكَّرتُ مَن يبكي عليَّ فلم أَجِدْ ... سوى السيفِ والرُّمحِ الرُّدَينيِّ باكِيا
٦ وأشقرَ محبوكٍ يَجُرُّ عِنانَه ... إلى الماءِ لم يَترُكْ له الموتُ ساقِيا

---

(١) الشعر : العلم وليت شعري : ليت علمي ، والخبر محذوف وجوباً تقديره : موجود . الغضى : شجر ينبت في الرمل وأرض البادية وهو أيضاً وادٍ بنجد. أزجي : أسوق . القلاص ، ج قلوص : الناقة الفتية . النواجي ، ج ناجية : السريعة . (٢) الركب : ج راكب . الركاب : الابل والجمع ركائب . يريد : ليت الغضى كان طويلا فيماشيهم . (٣) يريد : لو دنا أهل الغضى لاستطعنا زيارتهم ولكن الغضى بعيد ، وهذا يصور شدة تلهفه إلى رؤية وطنه . (٤) يريد ألم ترني أقلعت عما كنت فيه من الضلالة إذ كنت لصاً أقطع الطريق واخترت سبيل الهدى فأصبحت غازياً في جيش سعيد بن عثمان بن عفان . (٥) الرديني : المنسوب إلى ردينة ، وهي امرأة عرفت بتقويم الرماح . (٦) الأشقر : يريد به فرسه . المحبوك : الفرس القوي . وأشقر معطوفة على السيف والرمح ، أي لم أجد باكياً سوى سيفي ورمحي وفرسي .

٧ ولكن بأكنافِ السُمينةِ نسوةٌ ... عزيزٌ عليهنّ ، العشيّةَ ما بيا

٨ صريعٌ على أيدي الرجالِ بقفرةٍ ... يُسوُّونَ لَحدي حيثُ حُمَّ قضائيا

٩ ولمّا تراءَت عندَ مروٍ منيّتي ... وخلَّ بها جسمي وحانت وفاتيا

١٠ أقولُ لأصحابي : ارفعوني ، فإنه ... يَقَرُّ بعيني أنْ سُهَيلٌ بدا ليا

١١ فياصاحبيْ رَحلي ، دنا الموتُ فانزِلا ... برابيةٍ ، إنّي مُقيمٌ لَياليا

١٢ أقيما عليَّ اليومَ أو بعضَ ليلةٍ ، ... ولا تُعجِلاني ، قد تَبيَّنَ شانيا

١٣ وقُوما ، إذا ما استُلَّ رُوحي ، فهيِّئا ... ليَ السِدْرَ والأكفانَ ثم ابكِيا ليا

١٤ وخُطّا بأطرافِ الأسنّةِ مضجعي ... ورُدّا على عَينيَّ فضلَ ردائيا

١٥ ولا تَحسُداني ، باركَ اللهُ فيكما ، ... من الأرضِ ذاتِ العرضِ أن تُوسِعا ليا

١٦ خُذاني فجُرّاني بِبُرْدي إليكما ، ... فقدْ كانَ ، قبلَ اليوم ، صَعباً قِياديا

١٧ وقد كنتُ عطّافاً إذا الخيلُ أدبرتْ ، ... سريعاً لدى الهَيجا إلى من دَعانيا

---

(٧) أكناف ، ج كَنَف : الجانب . السمينة : اسم موضع في طريق البصرة . (٨) يسوّون : يجعلونه مستويا . اللحد : القبر . حُم القضاء : نزل . (٩) تراءت : قربت . خلّ : اضطرب وهزل . (١٠) أقول : جواب (ولمّا) في البيت السابق . قرت عينه : سُرّ ، وهي مشتقة من القر بمعنى البرد لأن العين تسخن عند البكاء فاذا بردت فذلك كناية عن السرور . سهيل : نجم لا يرى في خراسان وإنما في بلاد الشام فهو يسأل أصحابه أن يرفعوه لعله يرى سهيلا فتقر عينه . (١١) الرحل : مركب البعير . الرابية : المرتفع من الأرض والجمع رُبى وروابٍ . (١٢) أقيما علي : أمهلاني . شانيا . مخفف شأنيا ، وتبين شانيا : دنت منيتي . (١٣) السدر : شجر النبق وكانوا يغسلون الميت بورقه . (١٤) خطّا : احفرا . وردّا على عيني فضل ردائيا : غطيا عيني بطرف ثوبي . (١٥) أن توسعا لي : أن توسعا لي القبر . (١٦) البرد : الثوب . يريد : جرّاني إليكما بثوبي فأنا اليوم ذليل سهل القياد وقد كنت قبل اليوم لا أنقاد لأحد . (١٧) عطافا : من عطف الفرس إذا كرّ به . أدبرت : انهزمت . الهيجا : الحرب .

١٨ وقد كنتُ صبّاراً على القِرْنِ في الوغى ... ثقيلاً على الأعداء ، عَضْباً لسانيا

١٩ ولا تنسيا عهدي ، خليليَّ ، بعدما ... تَقَطَّعُ أوصالي وتبلى عظاميا

٢٠ يقولون : لا تبعَدْ ، وهم يدفِنونني ، ... وأينَ مكانُ البُعدِ إلاّ مكانيا

٢١ غداةَ غدٍ ، يا لَهفَ نفسي على غدٍ ... إذا أدلجوا عنّي وأصبحتُ ثاويا

٢٢ وأصبحَ مالي ، من طريفٍ وتالِدٍ ، ... لغيري ، وكان المالُ بالأمسِ ماليا

٢٣ فياليتَ شعري ، هل بكتْ أمُّ مالكٍ ... كما كنتُ ، لو عالوا بنعيكِ ، باكيا

٢٤ إذا متُّ فاعتادي القبورَ فسلِّمي ... على الرَّمْسِ ، أُسقيتِ السحابَ الغواديا

٢٥ على جدَثٍ قد جرّتِ الريحُ فوقَه ... تراباً كلونِ القسطلانيِّ هابيا

٢٦ أُقلِّبُ طرفي حولَ رَحلي فلا أرى ... به من عيونِ المؤنساتِ مُراعيا

٢٧ وبالرَّملِ منّا نسوةٌ ، لو شهِدْنني ، ... بكَيْنَ وفَدَّيْنَ الطبيبَ المُداويا

٢٨ فمنهنَّ أمّي وابنتاها وخالتي ... وباكيةٌ أخرى تَهيجُ البواكيا

٢٩ وما كان عهدُ الرَّملِ عندي وأهلِه ... ذَميماً ، ولا ودَّعتُ بالرمل قاليا

* * *

(١٨) القرن : الكفء والنظير في الحرب . الوغى : الحرب . العضب : القاطع .
(١٩) الأوصال ، ج وصل : المفاصل . (٢٠) لا تبعد : لا تهلك ، وهو دعاء جاء بصيغة النهي ، والبُعد : الهلاك (انظر شرح البيت ٩ ص ١٤٩) . (٢١) أدلجوا : ساروا ليلا . الثاوي : المقيم . (٢٢) الطريف : المال المكتسب . التالد : المال الموروث . (٢٣) عالوا : رفعوا وبلّغوا . (٢٤) الرمس : اثر القبر . أسقيت : دعاء لها بالسقيا . الغوادي ، ج غادية : السحابة الباكرة المطر . (٢٥) الجدث : القبر . القسطلاني : الغبار الرقيق . الهابي : الساطع المنتشر ، صفة للغبار . (٢٦) المراعي : المراقب . (٢٧) الرمل : موطن الشاعر . (٢٨) وباكية أخرى : أراد بها زوجته أو ابنته . (٢٩) ذميم : مذموم . القالي : المبغض .

كلمة في القصيدة وقائلها

هو مالك بن الرَّيب الذي ينتهي نسبه إلى مازن فتميم . نشأ في بادية بني تميم بالبصرة ، وجعل يقطع الطريق في جماعة من أصحابه منهم شظاظ، فساموا الناس شراً وطلبهم مروان ابن الحكم وهو عامل على المدينة فهربوا منه . وأخبار مالك ، على قلتها ، مضطربة متناقضة ، وقد أضيفت إليه أخبار هي أقرب إلى الأساطير فزعموا أن مالكاً وأصحابه طلبهم مروان بواسطة الحارث بن حاطب ، عامله على بني عمرو بن حنظلة ، وان هذا أرسل رجلا من الأنصار أخذ مالكاً ولصاً آخر من أصحابه ثم تخلف الأنصاري وأمر غلامه فجعل يسوق مالكاً فتغفل مالك غلام الأنصاري فانتزع السيف منه وقتله به ثم شد على الانصاري فقتله وجعل يقتل من كان معه يميناً وشمالا ثم استنقذ صاحبه وفرا معاً إلى البحرين ومنها إلى فارس فلم يزل مالك هناك حتى قدم عليه سعيد بن عثمان بن عفان ، والياً لمعاوية على خراسان . فاستصحبه . وقبل رحيله تعلقت به ابنته وبكت وقالت له: أخشى أن يطول سفرك أو يحول الموت بيننا ، فبكى وقال شعراً في ذلك منه قوله :

ولقد قلت لابنتي ، وهي تبكي   بدخيل الهموم قلباً كئيبـــاً
حذر الحتف أن يصيب أباهـا   ويلاقي في غير أهل شعوبا :
أسكتي، قد حززت بالدمع قلبي   طالمـــا حز دمعكن القلوبا

ولكن الروايات لا تتفق في حديثها عن سبب مغادرة مالك بن الريب موطنه إلى خراسان فلا ندري أين لقي سعيد بن عثمان مالكاً بين المدينة والبصرة أم بفـــارس ، وتنسب إلى أبي عبيدة روايتان مختلفتان عن سبب خروج مالك إلى خراسان إحداهما تقول إن ذلك كان بسبب استحيائه من صرع توبة بن الحمير له أمام ليلى الأخيلية، والثانية تقول أن سعيد بن عثمان لقي مالكاً بفارس ، حين كان متوجهاً إلى خراسان والياً عليها ، « وكان مالك ابن الريب ، فيما ذكر ، من أجمل العرب جمالا وأبينهم بياناً ، فلما رآه سعيد أعجبه فقال له : ويحك يا مالك ، ما الذي يدعوك إلى ما يبلغني عنك من العداء وقطع الطريق ؟ قال : أصلح الله الأمير ، العجز عن مكافأة الاخوان . قال : فان أنا أغنيتك واستصحبتك أتكف عما تفعل وتتبعني ؟ قال : نعم ، أصلح الله الأمير ، أكف كأحسن ما كف أحد . فاستصحبه وأجرى عليه خمسمائة دينـــار في كل شهر ، وكان معه حتى قتل بخراسان ، ومكث مالك بخراسان فمات هناك » . والروايات لا تتفق أيضاً في كلامها على موت مالك ، فلا ندري أمات من لدغة حية ، أو مات في الغزو بطعنة أصيب بها ، بل إن هناك رواية تزعم أنه مات في

خان فرشته الجان لما رأت من غربته ووحدته ، ووضعت الجن الصحيفة التي فيها القصيدة البائية هذه تحت رأسه ، ولا ندري متى مات مالك على وجه اليقين ، وإذا صح ما رواه له ابن قتيبة من أبيات في هجاء الحجاج تكون وفاته في زمن عبد الملك أو الوليد ابنه .

وعلى كل فان القصيدة التي نحن بصددها قالها مالك حين شعر بدنو أجله ، وعدة أبياتها ثمانية وخمسون ، ولكن أبا عبيدة لم يصحح منها إلا ثلاثة عشر بيتاً وقال إن الأبيات الأخرى منحولة . وهذه القصيدة في وزنها ورويها تذكر بقصيدة لعبد يغوث الحارثي ، الشاعر الجاهلي ، أولها :

ألا لا تلوماني كفى اللومُ مابيا   فما لكما في اللوم خيرٌ ولا ليا

ولم يصلنا من شعر مالك شيء يعتد به غير هذه القصيدة وهي التي نبهت ذكره لما فيها من صدق العاطفة وحرارة اللهجة وجمال التعبير وطلاوة الأسلوب .

مصادر

١ - الأغاني للأصفهاني ، ج ١٩ : ١٦٣ ، بولاق .

٢ - الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص ١٢٩ .

٣ - خزانة الأدب للبغدادي ، ج ٢ : ١٨٢ .

عمر بن أبي ربيعة

١ ألم تسألِ الأطلال والمتربَّعا ... ببطن حُلَيَّاتٍ دوارس بلقعا
٢ إلى الشَّرْي من وادي المُغَمَّس بُدِّلَتْ ... معالمُه وبلاً ونكباء زعزعا
٣ فيبخلْنَ أو يُخبرنَ بالعلم بعدما ... نكأْنَ فؤاداً كان قدماً مُفجَّعا
٤ بهندٍ وأترابٍ لهندٍ ، إذ الهوى ... جميعٌ وإذ لم نخشَ أن يتصدَّعا

(١) المتربع : المكان ينزل فيه ربيعاً . بطن حليات : اسم موضع . الدوارس ، ج دارس: العافي . البلقع : القفر .

(٢) الشري : النخيل . وادي المغمس : موقع قرب الطائف . الوبل : المطر الشديد . النكباء : الريح تنحرف عن مهب الرياح . الزعزع : الشديدة . وانتصبت وبلا ونكباء على نزع الخافض ، أي بدلت معالمها من المطر والريح .

(٣) نكأ الجرح : قشره قبل أن يبرأ . مفجعاً: موجعاً. يريد : إذا سألت هذه الأطلال بخلت عليك بالجواب أو أجابتك بما تعلم فتنكأ فؤادك الذي كان موجعاً بحب هند .

(٤) بهند : متعلقة بمفجعاً . أتراب، ج ترب : الأخدان من سن واحدة . جميع : مجتمع. يتصدع : يتفرق .

(١) انظر ما قلناه في الغزل صفحة ٢٩٨ .

٥ وإذ نحنُ مثلُ الماء كان مزاجُه ... كما صفّق الساقي الرّحيقَ المُشعشَعا

٦ وإذ لا نُطيعُ العاذلين ولا نرى ... لواشٍ لدينا يَطلبُ الصَّرْمَ مطْمعا

٧ تُنوعتَنَ حتى عاودَ القلبَ سُقْمُه ... وحتى تذكّرتُ الحديثَ المودَّعا

٨ فقلتُ لمُطْرِيهنّ: ويحَك، إنّما ... ضرَرْتَ فهل تستطيعُ نفعاً فتنفعا

٩ وأشْرَبْتَ فاستشرى، وقد كان قد صحا ... فؤادٌ بأمثال المها كان مُوزَعا

١٠ وهيّجتَ قلباً كان قد ودّع الصِّبا ... وأشياعَه، فاشفعْ عسى أن تُشفَّعا

١١ لئن كان ما قد قلتَ حقاً فما أرى ... كمِثل الأُلى أطريتَ في الناسِ أربعا

١٢ فقال: تعالَ انظرْ، فقلتُ: وكيف لي ... أخافُ مُقاماً أن يَشيعَ فيشْنُعا

١٣ فقال: اكتفلْ ثم التثِمْ وأْتِ باغياً ... فسلِّمْ ولا تُكثرْ بأن تتورّعا

---

(٥) مزاجه: ما يمزج به ويؤشب. التصفيق: نقل الماء من إناء إلى آخر ليصفو. الرحيق: الخمر. المشعشع: الممزوج. يريد: كنا في اتصالنا وامتزاجنا كالماء والخمر الممتزجين المصفقين.

(٦) العاذلين: اللائمين. الصرم: القطيعة والهجران.

(٧) تنوعتن: من النعت، أي الوصف، والضمير عائد على الأتراب، أي كانت كل منهن تنعت صاحبتها. السقم: المرض، وهو الحب هنا. المودع: الغابر.

(٨) المطري: من أطراه إذا وصف محاسنه. ضررت: بتذكيري بحبي القديم.

(٩) أشربت: أفسدت وأغريت، أراد أغريت فؤادي بهواه السابق فأغري وتحرك. صحا: أقلع عن هواه. المها، ج مهاة: البقرة الوحشية. موزعاً: مولعاً.

(١٠) الصبا: الميل مع نوازع الفتوة. أشياعه: الذين يميلون إليه. تشفع: تقبل شفاعتك وتثمر وساطتك.

(١١) الألى: اللواتي. يريد: لا أجد في الناس أربع نسوة كاللواتي أطريتهن ووصفت جمالهن.

(١٢) مقاماً: من أقام بالمكان إذا نزل. يشنع: يقبح.

(١٣) اكتفل: استتر بالكفل، وهو كساء يلف حول سنام البعير. التثم: ضع اللثام على وجهك. باغياً: طالباً. تتورع: تتحشم وتكف عن سوء الأدب.

١٤ فإنّي ساُخفي العَينَ عنك فلا تُرى مخافةَ أن يَفْشُو الحديثُ فيُسمعا

١٥ فأقبلتُ أهوي مثلَ ماقالَ صاحبي لمَوعدِهِ ، أُزجي قَعُوداً مُوَقَّعا

١٦ فلمّا تفاوَضْنا الحديثَ وأسفرتْ وُجوهٌ زهاها الحُسنُ أن تتقنّعا

١٧ تبالَهْنَ بالعِرفانِ ، لمّا عرفْنَني وقُلنَ : امرؤٌ باغٍ أَكلَّ وأوضعا

١٨ وقرّبنَ أسبابَ الهوى لمتيّمٍ يَقيسُ ذِراعاً كلّما قِسنَ إصبَعا

١٩ فلمّا تنازعنَ الأحاديثَ قُلنَ لي : أَخِفتَ علينا أنْ نُغَرَّ ونُخدَعا

٢٠ فبالأمسِ أرسلنا بذلك خالداً إليك وبيّنّا له الشأنَ أجمعا

٢١ فما جئتَنا إلا على وَفقِ موعدٍ على مَلأٍ منّا خرجنا له معا

٢٢ رأينا خلاءً من عيونٍ ومَجلِساً دَميثَ الرُّبى سهلَ المَحلّةِ مُمرِعا

٢٣ وقلنا : كريمٌ نالَ وصلَ كرائمٍ فحقٌّ له في اليومِ أن يتمتّعا

* * *

(١٤) سأخفي العين عنك : سوف أجعل الناس لا يرونك .

(١٥) أهوى : أوفض وأسرع . أزجي : أسوق . القعود : البعير الذي يتخذه الراعي لركوبه . الموقّع : المذلل .

(١٦) تواقفنا : تقابلنا . زهاها الحسن أن تتقنعا : كبرت لجمالها عن اتخاذ القناع فأسفرت .

(١٧) تبالهن : أظهرن البله وعدم معرفته . أكلّ : اتعب (راحلته) أوضع ناقته : حملها على الاسراع .

(١٨) أسباب : وسائل . المتيم : الذي دلّهه الحب . ويريد بالشطر الأخير أن هواه كان أعظم من هواهن .

(١٩) تنازعنا : تبادلنا . أخفت علينا أن نغر ونخدع : أظننت أننا نغر ونخدع بتنكرك .

(٢٠) وبيّنّا له الشأن أجمعا : أي دبرنا معه هذا الأمر وأرسلناه إليك .

(٢١) على ملأ : على اتفاق واجتماع . (٢٢) خلاء : مكاناً خالياً . العيون هنا ، الرقباء . الدميث : السهل اللين . الربا ، ج ربوة : المرتفع من الأرض . المحلة : منزل القوم . الممرع : الخصيب . (٢٣) حق له : كان حقيقاً وجديراً .

دراسة القصيدة

أ — جو النص

قائل القصيدة : هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي القرشي ، ولد سنة ٢٣ ﻫ وهي السنة التي قتل فيها عمر بن الخطاب فكنى أبا الخطاب ، فلما شب عمر وأنشأ يقول الشعر الغزلي قال الناس : « أي حق رُفع وأي باطل وُضع » . نشأ عمر في اسرة عريقة النسب ، وافرة الغنى ، كان أبوه يلقب بالعِدل في الجاهلية لأنه كان يكسو الكعبة من أمواله سنة وتكسوها قريش من أموالها سنة ، وكان ، على ما روى أبو الفرج ، تاجراً موسراً يتنقل بين الحجاز واليمن ، وكان له عدد ضخم من العبدان . ولما جاء الاسلام استعمل الرسول صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي ربيعة على الجَنَد ومخاليفها،(١) لم يزل عاملا عليها حتى قتل عمر بن الخطاب وأم عمر من سبي اليمن، تمال لها مجد ويرى ابن سلام ان الغزل إنما أتى عمر من هذا الأصل اليماني .

نشأ عمر اذن في هذه الأسرة الغنية المترفة المنعمة وتوافر له الشباب والفراغ والجدة وكانت بيئة الحجاز في ذلك الحين على ما صورناه قبل من انهماك في اللهو وانصراف عن السياسة العامة واحتفال بمجالس الغناء والمجون فلا جرم ينصرف عمر الى هذه الحياة اللاهية المترفة ولا جرم يتجه الى التغزل بهؤلاء النساء اللائي كان يلقاهن في مجالس اللهو او في مواسم الحج ، ومال منذ صباه الى حضور مجالس النساء وسماع أحاديثهن ، فاذا خرج أنشأ يقول الشعر فيما سمع ورأى ، فكان شعره اول الأمر هذيانا ، كما اسماه جرير ،فلم يكترث به ، ولكنه مازال يذلل الشعر حتى انقاد له وأخذ بناصيته وبذّ الشعراء،وهذا ماأراده جرير بقوله : مازال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر .

ولم يكن عمر ممن يؤمنون بأن القلب لا يتسع لأكثر من حبيب واحد ، بل كان قلبه يتسع لكل النساء الجميلات اللواتي يصادفهن ،وكان موكلا بالجمال لاهم له إلا تتبعه ، وكان اذا جاء موسم الحج اعتمر ثم ارتدى فاخر الحلل وركب النجائب المخضوبة بالحناء ، وأسبل لمته وخرج من

---

(١) الجند : احدى ولايات اليمن الثلاث : الجند وصنعاء وحضرموت . المخاليف،ج مخلاف: قرى اليمن وأصقاعها .

مكة وبلده، يتلقى الحواج الحجازيات والشاميات والعراقيات وغيرهن فيتعرض لهن ويترقب خروجهن للطواف بالكعبة حتى ينظر اليهن محرمات فيرى منهن ما لا يراه خارج الحرم فيصفهن ويشبب بهن. وأخباره مع هؤلاء الحواج كثيرة مستفيضة في كتاب الاغاني . وما كان تعرض عمر النساء ليسوءهن بل كثيراً ما كن يتصدين له ويستأن إذا لم يشبب بهن ، وكانت المرأة في ذلك العصر قد أخذت تتمتع بقسط من الحرية والانطلاق فكانت لا ترى بأساً من البروز الى الرجال ومحادثتهم ، وكان لشيوع الثمري وكثرة الاماء واختلاط العرب بالأعاجم أثره في الحياة الاجتماعية فصار الأشراف وأبناء الصحابة لا يرون بأساً في حضور مجالس الغناء واللهو وفي سماع الشعر الغزلي الماجن ، وصارت شريفات النساء يتبارين في التزين والتبرج ويتنافسن في ابراز محاسنهن ، وكان يسرهن أن يشبب عمر وأمثاله بهن ليعرف جمالهن وربما استدعينه ليحكم أيهن أجمل ، وفارقت المرأة العربية حياتها القديم فصارت لا ترى ضيراً في أن تتعرض للرجال وتتصدى للمجان ، وكان الأشراف الذين يخشون تعرض المجان من الشعراء لنسائهم يمنعونهن من ارتياد مواسم الحج وكان الخلفاء ربما تهددوا الشعراء بالقتل إن هم تعرضوا لنسائهم ، صنيع الحجاج اذ أرسل يتوعد عمر إن هو شبب بفاطمة بنت عبد الملك حين قدومها للحج .

ظل عمر منصرفاً الى حياته هذه اللاهية ينقل فؤاده بين النساء ، يهوى تارة الثريا بنت علي وتارة زينب بنت موسى وتارة هنداً بنت الحارث وغيرهن من الشريفات اللاتي تعلق قلبه بهن واحدة اثر الأخرى ، أو أنه أحبهن جميعاً في وقت معاً ، لأنه كان كلفاً بالنساء جميعاً ، وكان له مع كل من هؤلاء أخبار وصلات ، وكثيراً ما كان يسفر ابن أبي عتيق بينه وبين صاحباته ، الى أن ذوت نضرته وأفل شبابه فمالت نفسه الى الزهـــد وصدفت عن العبث وآلى على نفسه ألا يقول بيتاً في الغزل الا أعتق جارية أو عبداً . وكان قد تزوج امرأة تدعى كلثم وأنجب منها ابنين ، فكان إذا سأله أحد أن ينشده شيئاً من شعره أحاله الى ابنيه ، ولكنه لم يملك نفسه من التحسر على أيام لهوه وصباه حتى مات حوالي عام ٩٣ هـ ، على اختلاف الرواة في سبب موته ، فمنهم من يزعم ان عمر بن عبد العزيز نفاه الى جزيرة دهلك ، من بلاد الحبش ، حين ولي الحجاز . فأراد أن يكفر عن آثامه بالجهاد فاحترقت به سفينته ومات ، ومنهم من يزعم أن ريحاً أصابته وهو في ظل شجرة فخدشه غصن منها فورم جرحه ومات منه .

المناسبة — روى عمر بن أبي ربيعة مناسبة قصيدته هذه فقال : « بينا أنا منذ أعوام جالس إذ

أتاني خالد الخرّيت فقال لي : يا أبا الخطاب ، مرت بي أربع نسوة قبيل العشاء يردن موضع كذا وكذا لم أر مثلهن في بدو ولا حضر ، فيهن هند بنت الحارث المرّية ، فهل لك أن تأتيهن متنكراً فتسمع من حديثهن وتتمتع بالنظر اليهن ولا يعلمن من أنت ؟ فقلت له : ويحك ! وكيف لي أن اخفي نفسي ؟ قال : تلبس لبسة أعرابي ثم تجلس على قعود ثم ائتهن فسلم عليهن ، فلا يشعرن الا بك قد هجمت عليهن . ففعلت ما قال وجلست على قعود ثم أتيتهن فسلمت عليهن ثم وقفت بقربهن ، فسألنني أن أنشدهن وأحدثهن ، فأنشدتهن لكثير وجميل والأحوص ونصيب وغيرهم . فقلن لي : ويحك يا أعرابي ما أملحك واظرفك ، لو نزلت فتحدثت معنا يومنا هذا ، فاذا أمسيت انصرفت في حفظ الله . فأنخت بعيري ثم تحدثت معهن وأنشدتهن فسررن بي وجذلن بقربي وأعجبهن حديثي . ثم انهن تغامزن وجعل بعضهن يقول لبعض : كأنا نعرف هذا الأعرابي ، ما أشبهه بعمر بن أبي ربيعة . فقالت احداهن : هو والله عمر . فمدت هند يدها فانتزعت عمامتي فألقتها عن رأسي ثم قالت لي : هيه يا عمر ! أتراك خدعتنا منذ اليوم ؟ بل نحن والله خدعناك واحتلنا عليك بخالد فأرسلناه اليك لتأتينا في أسوأ هيئة ونحن كما ترى ، فقال عمر قصيدته هذه يروي حادثته مع هند وأترابها .

التحليل الأدبي

الأقسام والأفكار العامة :

موضوع هذه القصيدة الغزل كما نرى ، وعمر هو أحد هؤلاء الشعراء الذين وجدوا في بيئة الحجاز في العصر الأموي ووقفوا شعرهم كله على الغزل ، وقد بدأ عمر قصيدته بوصف الأطلال لأن هذا الوصف ممهد للغزل ، ثم انتقل من هذا الوصف بلباقة الى الحديث عن هند وأترابها ، وطفق يروي هذه الحادثة التي أشرنا اليها في مناسبة القصيدة ، وغالباً ما كان عمر يتخذ الشعر سبيلاً لوصف مغامراته وحوادثه مع النساء ، ولا ندري ، لعله كان يختلق هذه الحوادث أحياناً ويبتكرها من مخيلته ، الا أن بيئته كانت تتيح له أن يحقق أكثر ما رواه لنا في شعره من اخباره مع النساء ، وقد روى أبو الفرج أن رجلاً سأل عمر : أكل ماقلته في شعرك فعلته ؟ فقال : نعم ، واستغفر الله . ولهذا عد عمر من الغزلين المحققين العمليين لا من الغزلين المتعففين المذربين .

العاطفة : نعلم أنه ليس ثمة عاطفة تنسجم مع الغزل غير عاطفة الحب ، ولكنا وجدنا الشاعر

الجاهلي اذا تغزل قلما عبر عن عاطفته تعبيراً مباشراً وكان غزله، في جملته، وصفاً لمحاسن المرأة التي يتغزل بها . أما عمر وأضرابه من الغزلين فانهم لم يقتصروا على الناحية المادية من المرأة بل تحدثوا أيضاً عن عاطفتهم حديثاً مباشراً ، صنيع عمر في قصيدته هذه .

وليست عاطفة عمر وقفاً على امرأة واحدة بل كان كلفا بالنساء جميعا وكان فؤاده « موزعاً بأمثال المها » ، بل ان عمر كان يتتبع الجمال حتى في نفسه فهام بها وتغزل وأسرف في بيان إعجاب النساء به وتعرضهن له ، فكان تصويره للجمال تصوير فنان خبير لا تصوير عاشق مدله . وأنى له ان يقف فؤاده على امرأة واحدة في بيئة ابتذلت فيها النساء حتى صرن يتعرضن للرجال، وكيف لا يتغزل بنفسه ويزهى بها وهو يجد النساء يتصدين له ويتحرشن به تجذبهن اليه نضارة الشباب ووسامة الهيئة وبسطة المال وعلو الشرف ورقة الشعر . وقد حدث عن نفسه فقال: « لقد كنت وأنا شاب أُعشق ولا أعشق، فاليوم صرت الى مداراة الحسان الى الممات وقد لقيتني فتاتان مرة فقالت لي احداهما: أدنُ مني يا بن ربيعة أسر اليك شيئا ، فدنوت منها ودنت الاخرى فجعلت تعضني ، فما شعرت ببعض هذه من لذة سرار هذه » .

فلا جرم يبدو عمر في غزله عاشقا مدللا مخنثا تطارده النساء ويتغزلن به. « وهل يخفى القمر » وهذا ما أخذه بعض النقاد عليه فقال فيه المفضل بن سلمة: « انه لم يرق كما رق الشعراء لانه ما شكا قط من حبيب هجراً ولا تألم لصد ، وأكثر أوصافه لنفسه وتشبيبه بها ، وان أحبابه يجدون به أكثر مما يجد بهم ويتحسرون عليه أكثر مما يتحسر عليهم . » وربما كان في هذا الحكم بعض الاسراف على عمر ، لأنه لا يسعنا ان نزعم خلو عمر تماما عن عاطفة الحب وعما يشعر به المحبون من الم الهجران والصدود، فلا ريب أنه تعشق الجمال حيثما لقيه وشعر بعاطفة الحب نحو هذا الجمال ، ولكنه كان عمليا في حبه ، منقلا فؤاده بين شتى النساء اللائي أعجب بهن وأعجبن به.

الأسلوب : لا إخالنا في حاجة الى بيان ما في الفاظ عمر من سهولة وسلاسة وعذوبة وما في تعابيره من رقة وأناقة ، وهي صفات تتفق ولا شك والحياة الحضرية المترفة التي كان يحياها عمر في الحجاز ، وتتفق كذلك وفن الغزل الذي تلائمه الرقة والسهولة ، وتتفق أيضاً ورقة النساء الكريمات الشريفات اللاتي كان عمر يتغزل بهن ويعاشرهن ، ويسرف عمر في الرقة حتى يوشك ان يتخنث ، ولكن اسلوبه لا ينحط الى اسلوب المتخنثين في العصر العباسي ، فهو وسط بين الأسلوب البدوي القوي الجزل وبين الأسلوب الحضري المسرف في التخنث والرقة .

وعمر حريص على أن يستهل قصائده في الغالب بالوصف التقليدي للأطلال والديار، وهو في هذا الوصف مقلد قليل الابتكار الا انه اذا اراد الانتقال الى الغزل لم يثب وثباً وانما ينساب برفق وتؤدة حتى لا نكاد نشعر بانتقاله، ثم لانلبث ان نجده يتخذ اسلوب الحوار القصصي الذي يكثر من اصطناعه في قصائده، وهو في الغالب حوار بين عمر وبين امرأة شريفة تحيط بها اتراب كأمثال المها: بهند وأتراب لهند، وفي هذا الحوار تتجلى خبرة عمر بمجالس النساء وأحاديثهن وميولهن. ونحن حين نقرأ هذا الحوار لا يسعنا الا ذكر امرئ القيس الذي سن لمن بعده من الشعراء هذا السبيل، الا ان عمر اكثر منه وافتن فيه وبرع في ابتكار القصص الغرامي براعة بذّ فيها شعراء الغزل كافة .

وعمر لا يكثر من الصور البيانية في شعره لأنه كان يسلك سبيل الحوار في الغالب لاسبيل الوصف، وميزة عمر الأولى هي في هذه المعاني الجديدة المبتكرة التي جاء بها في غزله .

ولكي تقف على هذه المعاني اسمع ما قاله مصعب بن عبد الله الزبيري في فن عمر، قال: «راق عمر بن ابي ربيعة الناس وفاق نظراءه وبرعهم بسهولة الشعر، وشدة الأسر، وحسن الوصف، وصواب المصدر، والقصد للحاجة، واستنطاق الربع، وانطاق القلب، وحسن العزاء، ومخاطبة النساء، وعفة المقال، وقلة الانتقال، وإثبات الحجة، وترجيح الشك في موضع اليقين، وطلاوة الاعتذار، وفتح الغزل، ونهج العلل، وعطف المساءة على المذال، وأحسن التفجع، وبخل المنازل، واختصر الخبر، وصدق الصفاء، إن قدح أورى، وان اعتذر أبرا، وإن تشكى أشجى، وأقدم عن خبرة ولم يعتذر بغرّة، وأسر النوم، وغمّ الطير، وأغذّ السير، وحيّر ماء الشباب، وسهّل وقوّل، وقاس الهوى فأربى، وعصى وأخلى، وحالف بسمعه وطرفه، وأبرم نعت الرسل وحذّر، وأعلن الحب وأسر، وبطن به وأظهره، وألح وأسف، وأنكح النوم، وجنى الحديث وضرب ظهره لبطنه، وأذل صعبه، وقنع بالرجاء من الوفاء، وأعلى قاتله، واستبكى عاذله، ونفض النوم، وأغلق رهن منىً وأهدر قتلاه؛ وكان بعد هذا كله فصيحاً.» (انظر امثلة هذه المعاني في الأغاني ج ١ : ١٢١) .

منزلته الأدبية :

يكاد يجمع أكثر النقاد القدامى على أن عمر بن أبي ربيعة زعيم الغزلين جميعاً لما ادخله على الشعر الغزلي من ضروب التجديد والافتنان، روي عن يعقوب بن اسحاق قوله : «كانت العرب تقر

لقريش بالتقدم في كل شيء عليها إلا في الشعر ، فانها كانت لا تقر لها به ، حتى كان عمر بن ابي ربيعة فأقرت لها الشعراء بالشعر ايضاً ». والمقصود بالشعر هنا الشعر الغزلي . وقد اعترف له الشعراء بالتفوق في النسيب فقال الفرزدق وقد سمع شيئاً من نسيب عمر: «هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار ووقع هذا عليه» ويريد الفرزدق من هذا القول ان يشير الى ما جاء به ابن ابي ربيعة من معان جديدة في الغزل لم يعرفها الشعراء قبله، وقد شهد جرير لعمر بنحو ما شهد له الفرزدق وقال نُصَيب : «لعمر بن ابي ربيعة أوصفنا لربات الحجال» ، ووصف حماد الراوية نسيبه بأنه «الفستق المقشر»، وعرف الرجال موقع غزله من نفوس النساء فكانوا يحولون دون دخول شعره عليهن فروي عن هشام بن عروة قوله : «لا تُرَووا فتياتكم شعر عمر بن ابي ربيعة لا يتورطن في الزنا تورطاً »، وكان ابن جريج يقول: «ما دخل على العواتق في حجالهن شيء أضر عليهن من شعر عمر بن ابي ربيعة .» وشهد اللغويون لعمر بالفصاحة والتمكن من اللغة العربية فقال الاصمعي : «عمر حجة في العربية» .

وكما شهد القدماء لعمر بالتفوق في الغزل شهد له أيضاً المحدثون بهذا التفوق ، فقال فيه طه حسين : «.. لا نعرف شاعراً أمويا افتن في الغزل افتنان عمر . فعمر اذن زعيم الغزلين الامويين جميعاً لا نستثني منهم احداً ولا نفرق فيهم بين أهل البادية واهل الحاضرة . بل نحن نذهب الى ابعد من هذا ، فنزعم ان عمر بن ابي ربيعة زعيم الغزلين في الادب العربي كله على اختلاف ظروفه وتباين اطواره منذ كان الشعر العربي الى الآن . » (*) .

نماذج أخرى من غزل عمر

قال حين هجرته الثُرَيّا بنت عليّ ، وكان لها محباً :

١ قال لي صاحبي ليعلمَ ما بي — أتُحِبُّ القَتُولَ ، أختَ الرَّبابِ

(*) حديث الاربعاء لطه حسين ، ج٢ : ١٢٧ ، الطبعة الاولى .

(١) القتول : فعول بمعنى فاعل ، يستوي فيها المذكر والمؤنث ، اي القاتلة . الرباب : اخت ←

٢ قلتُ : وَجْدي بها كوجدكَ بالعَذْبِ ، إذا ما مُنِعتَ طَعمَ الشَّرابِ
٣ مَن رسولي إلى الثُّريّا بأنّي ضِقتُ ذرْعًا بهجرها ، والكتابِ
٤ أبرزُوها مثلَ المَهاةِ تهادى بينَ خَمسٍ كواعبٍ أترابِ
٥ وهي مكنونةٌ تحيّرَ منها ، في أديم الخدّين ، ماءُ الشبابِ
٦ دُميةٌ عندَ راهبٍ ذي اجتهادٍ صوّرُوها في جانبِ المِحرابِ
٧ ثمّ قالوا : تُحبُّها ؟ قلتُ : بهراً ! عددَ النجمِ والحَصى والتُّرابِ
٨ غَصَبَتْني مجاجةُ المِسك عقلي ، فسلُوها : ماذا أحلّ اغتصابي

وحجت رملة بنت عبد الله بن خلف الخزاعية فقال فيها :

٩ أصبح القلبُ في الحِبال رَهينا مُقْصَداً ، يومَ فارقَ الظاعنينا
١٠ قلتُ : مَنْ أنتم ؟ فصدّتْ وقالت : أمُبِدٌّ سؤالَكَ العالمِينا
١١ نحن من ساكِني العِراقِ وكُنّا قبلَهُ قاطنِين مكّةَ حِينا

الثريا التي قال عمر أبياته هذه فيها . (٢) الوجد : الشوق . العذب : الماء . (٣) ضقت ذرعاً بهجرها : لم أعد أحتمله . والكتاب : الواو للقسم، والكتاب : القرآن الكريم . (٤) المهاة: البقرة الوحشية . تهادى : تتمايل وأصلها تتهادى . الكواعب ، ج كاعب : الناهدة الثدي . الأتراب ، ج ترب : صديقك الذي سنه مثل سنك . (٥) المكنونة : المصونة المستورة . تحير : اجتمع . أديم الخد : صفحته . ماء الشباب : رونقه . (٦) الدمية : الصورة . ذي اجتهاد : مجتهد في عبادة الله . (٧) بهراً : عجبا ، أو كثيراً وفي هذا البيت استفهام حذفت أداته وهو قوله : تحبها ، أراد أتحبها . (٨) مجاجة المسك : التي يتضوع منها أريج المسك . (٩) الحبال : أراد بها حبال الهوى . الرهين : الأسير . المقصد : من أقصد بالسهم إذا رماه فأصاب منه مقتلا . الظاعن : ضد المقيم . (١٠) صدت : أعرضت. أمبد : أملزم ، أو أمقسم سؤالك على الناس جميعا . (١١) قاطنين : ساكنين .

١٢ قد صدقناك إذ سألت فمن أنـ ـت عسى أن يجرَّ شأنٌ شؤونا
١٣ ونرى أننا عرفناك بالنعـ ـتِ بظنٍ، وما قتلنا يقينا
١٤ بسوادِ الثنيتين ونعتٍ قد نراه لناظرٍ مستبينا

ومن استنطاقه الربع قوله :

١٥ سائلا الربعَ بالبليّ وقولا : هجت شوقاً لنا ، الغداةَ ، طويلا
١٦ أين حيٌّ حلوك إذ أنت محفو ف بهم آهلٌ أراكَ جميلاً
١٧ قال : ساروا فأمعنوا فاستقلوا ، وبرغمي لو استطعتُ سبيلا
١٨ سئمونا وما سئمنا مقاماً ، وأحبوا دماثةً وسهولا

* * *

مصادر

١ — الأغاني للأصفهاني ، ج ١ : ٦١ إلى ٢٤٨ . (دار الكتب) .
٢ — وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج ١ : ٣٧٨ .
٣ — حديث الأربعاء لطه حسين ، ج ٢ : ١٢٧ . (الطبعة الأولى) .
٤ — حب عمر بن أبي ربيعة وشعره : زكي مبارك .
٥ — عمر بن أبي ربيعة : جبرائيل سليمان جبور ، بيروت ١٩٣٩ .
٦ — شاعر الغزل : عباس محمود العقاد . (سلسلة إقرأ) .
٧ — دائرة المعارف الاسلامية ، مادة (عمر بن أبي ربيعة) .

---

(١٣) ما قتلنا يقينا : ما علمنا علماً يقيناً . (١٤) الثنية : واحدة الثنايا ، وهي أربع أسنان في مقدم الفم . مستبيناً : واضحاً . (١٥) الربع : الدار والمنزل . البلي : اسم تل . (١٦) محفوف : من حف الشيء إذا أحاط به . الآهل : العامر . (١٧) استقلوا : واصلوا السير وجدوا في الارتحال . الدماثة : السهولة واللين .

جميل بن مَعْمَر

---

١ أبُثَيْنَ إنَّكِ قد ملَكتِ فأسجِحي   وخُذي بحظِّكِ من كريمٍ واصلِ

٢ فلَرُبَّ عارِضةٍ علينا وَصلَها   بالجِدِّ تَخلِطُه بقَولِ الهازلِ

٣ فأجبتُها بالقولِ بعدَ تَستُّرٍ :   حُبّي بُثَينةَ عن وِصالِكِ شاغِلي

٤ لو كانَ في صَدري كَقَدْرِ قُلامةٍ ،   فَضلاً، وَصلتُكِ أو أتتْكِ رسائلي

٥ صادَتْ فؤادي، يابُثَينَ، حِبالُكمْ   يومَ الحَجُونِ وأخطأتْكِ حبائلي

---

(١) أسجح : أحسن العفو ، وسجح : سهل ولان . يخاطب بثينة فيقول لهـا : إنك ملكت فؤادي فأحسني العفو وصلي محباً لك حريصاً على وصلك . (٢) الوصل والوصال : الاستمتاع بأنس اللقاء . (٣) بثينة : مفعول المصدر حبي . يريد : رب امرأة عرضت علي وصلها ، وهي تخلط الجد بالهزل لئلا تحرج إذا إذا رأت مني صدوداً ، أجبتها أن حبي لبثينة يشغلني عن وصالك . (٤) القلامة : ما يقص من الظفر . الفضل : الزيادة . يقول مخاطباً هذه المرأة التي عرضت عليه وصلها : لو أن بثينة تركت في فؤادي فراغاً بقدر قلامة ظفر لوصلتك أو لأنفذت إليك رسائلي ولكنها لم تترك في قلبي متسعاً لحب سواها .

(٥) الحبائل ، ج حبالة وأحبولة : شبكة الصائد . الحجون : جبل قرب مكة .

٦ مَنَّيْتِني فلَوَيْتِ ما منَّيْتِني — وجعلتِ عاجلَ ما وعدْتِ كآجلِ
٧ وتثاقَلَتْ لمّا رأَتْ كَلَفي بها، — أَحْبِبْ إليَّ بذاكَ من متثاقِلِ
٨ وأطعتِ فيَّ عواذلاً فهجرتِني — وعصيْتُ فيكِ، وقد جهدْنَ، عواذلي
٩ حاولْنني لأَبُتَّ حبلَ وِصالِكم — منّي، ولستُ، وإن جهدْنَ، بفاعلِ
١٠ ويقُلْنَ: إنّكَ قد رَضِيتَ بباطلٍ — منها، فهل لكَ في اجتنابِ الباطلِ
١١ ولَباطلٌ ممّا أُحِبُّ حديثَه — أشهى إليَّ من البغيضِ الباذلِ
١٢ ليُزِلْنَ عنكِ هوايَ ثمّ يَصِلْنَني، — وإذا هويتُ فما هوايَ بزائلِ
١٣ فرَدَدْتُهُنَّ، وقد سعَيْنَ بهجرِكمْ، — لمّا سعَيْنَ له بأفوقَ ناصلِ
١٤ يَعْضَضْنَ من غيظٍ عليَّ أناملاً، — ووَدِدْتُ لو يَعْضَضْنَ صُمَّ جنادلِ
١٥ ويقُلْنَ: إنّكِ، يا بُثَينُ، بخيلةٌ، — نفسي فِداؤكِ من ضَنينٍ باخلِ

* * *

---

(٦) منيتني: طمعتني بالأماني. لويت: مطلت وطويت. يريد: إنك أخلفت ما منيتني به من لقائك وصيرت وعدك العاجل آجلا. (٧) تثاقلت: تباطأت. الكلف: شدة الحب والتعلق. يريد: تباطأت عن لقائي ووصلي حين رأت شدة حبي لها، وما أحب تثاقلها هذا الى قلبي. (٨) العواذل، ج عاذلة: اللوم. جهد في الأمر: جد وتعب. يريد: أطعت عاذلاتك اللاتي لمنك على حبي فهجرتني، أما أنا فلم أصغ إلى قول عواذلي ولم أرتدع عن حبي لك على رغم الحاحهن علي وجدهن في هذا الأمر. (٩) حاوله: استعان عليه بالحيلة، وحاوله أيضاً: رامه وأراده. أبت: اقطع. يريد: أن عواذلي حاولن حملي على هجرك، ولست هاجرك مهما يحاولن ويجهدن. (١٢) فرددتهن: الضمير عائد على العواذل. الأفوق السهم الذي كسر فوقه، والفوق: موضع الوتر من السهم. الناصل: السهم الذي لا نصل له، والنصل: حديد السهم. يريد: لقد رددت عواذلي خائبات حين سعين في حملي على هجرك فباء سعيهن بالاخفاق فكأنهن رمين بسهم مكسور الفوق لا نصل له (١٣) الأنامل: رؤوس الأصابع، الصم، ج أصم: الصلب. الجنادل، ج جندل: الصخر والحجارة.

قائل القصيدة ومناسبتها

قائل هذه القصيدة هو جميل بن عبد الله بن معمر الذي ينتهي نسبه إلى قبيلة عذرة(١) المشهورة بحبها العفيف ، وكان جميل راوية لهدبة بن خشرم راوية الحطيئة ، ومن هنا اتصل جميل بالمدرسة الزهيرية ، اشتهر جميل بحبه العفيف لبثينة العذرية التي تجمعه بها صلة القربى وصلة الجوار ، إذ كانت منازل قومهما متجاورة بوادي القرى ، وقد أحب جميل بثينة مذ كانت جارية صغيرة وأقام على حبها حتى مات وقال فيها أكثر شعره ، وحول حبهما نسجت قصص وأخبار كثيرة تجدها في الأغاني . ولا ندري إن كانت بثينة صادقة في حبها لجميل إلا إننا لا نشك في أن جميلاً كان صادقا كل الصدق في حبه لبثينة ، وقد شهد له ابن سلام بصدق الصبابة ، وكان طبيعيا بعد هذا أن يريدها زوجة له ، إلا أن أهلها أبوا تزويجها منه لاشتهار حبه لها وزوجوها بآخر يدعى « نبيها » ، فلم يثنه زواجها عن لقائها وكان يحتال في الوصول إليها ليبثها حبه ، فلما ضاق به أهلها ولم يجد فيه التحذير ولا الهجاء استعدوا عليه عامر بن ربعي ، وكانت إليه بلاد عذرة ، فأباحهم دمه إن هو غشي منازلهم ، فلم يرتدع عن الالمام بدار بثينة فطلبه الوالي طلبا شديداً فاضطر أن يفر إلى اليمن وأقام فيها حتى عزل ذلك الوالي.

ويذكر ابن قتيبة أن الذي طلبه مروان بن الحكم وهو يومئذ على المدينة من قبل معاوية وفيه يقول جميل :

أتاني عن مروان بالغيب أنه	مقيد دمي أو قاطع من لسانيا
ففي العيس منجاة وفي الأرض مذهب	إذا نحن رفعنا لهن المثانيا

ثم عاد جميل إلى لقاء بثينة والتشبيب بها فكان قومها يشكونه إلى عشيرته ويعذرون إليه ويتوعدونه فيأتي أبوه وقومه فيلومونه ويظهرونه على خداعها له وتغريرها به ويعرضون عليه الزواج فيجيبهم أن لا سبيل إلى سلوها ولا حيلة له في حبها ، ولما طال به الامر ارتحل إلى الشام عسى أن يسلوها ، ويظهر إنه اتصل بالشام ببعض خلفاء بني أمية ولكنه لم ينقطع إليهم ولم يمدحهم لشدة اعتزازه بنفسه ، ثم يرتحل في آخر الأمر إلى مصر ويتصل بواليها عبد العزيز بن مروان ، ولا يلبث فيها إلا قليلا حتى ينزل به المرض ويموت عام ٨٢ هـ .

كان جميل جميل الهيئة طوالا عريض المنكبين متأنقا في ملبسه على شيء من الرخاء والثراء شديد

---

(١) تنتمي عذرة إلى قضاعة وقد اختلف النسابون في قضاعة فجعلها بعضهم من معد العدنانية وأضافها بعضهم إلى حمير القحطانية .

الاعتداد بنفسه والاعتزاز بها ، ولم يكن يخلو من شذوذ في خلقه ، وكانت بثينة فارعة الطول سمراء وكانت على ما وصفها به عبد الملك بن مروان لا تخلو من حمق .

كان جميل بن معمر قد وعد ذات يوم بثينة صاحبته أن يلتقيا في بعض المواضع فأتى لوعدها وعلم قومها بمجيئه فمنعوا بثينة من لقائه ، فلما يئس من لقائها انصرف كئيباً سيئ الظن بها فجعل نساء الحي يلمنه ويقلن له : انما حصلت منها على الباطل والكذب والغدر ، وغيرها أولى بوصلك منها ، فقال في ذلك هذه القصيدة .

غزل جميل ومنزلته : غزل جميل نموذج لهذا الشعر الغزلي العفيف الذي ازدهر في أوائل العصر الأموي في بوادي الحجاز ونجد ، وأظهر ما يتصل به غزله صدق العاطفة فقد وقف فؤاده كله على حب بثينة حتى لم يعد فيه قيد أنملة لحب فتاة غيرها ، ولا أدل على صدق عاطفته من أنه حين حيل بينه وبين الزواج من بثينة عاش حياته كلها عزباً لا هم له الا لقاء بثينة بشتى الوسائل ، وهو في حبه يمثل لنا العاشق العفيف الزاهد في المتع الجسدية الرخيصة واللذات الشهوانية العابرة وخير ما يصور لنا عاطفته قوله :

وإنّي لأرضى من بُثينةَ بالذي ... لو ابصره الواشي لقرّت بلابلُه
بلا ، وبألاّ استطيعُ ، وبالمُنى ، ... وبالأمل المرجُو قد خاب آملُه
وبالنظرةِ العَجْلى ، وبالحولِ ينقضي ... أواخره ، لا نلتقي ، وأوائلُه

وهذا يفسر لنا لمَ لم يتغزل جميل بغير بثينة فلم يكن كعمر يتنقل بين النساء كما تتنقل الفراشة بين الأزاهير ، لأن عمر كان عملياً محققاً في حبه ينشد اللذة حيثما كانت ، أما جميل فحسبه أن يرى بثينة وان يتحدث اليها ليكون راضي النفس قرير العين ، وقد بلغ من شد اخلاصة لبثينة أنه كان يتهكم من عواذله ويتمنى لهن أن يعضضن لا على الأنامل بل على صم الجنادل .

ونحن حين نقرأ غزل جميل نشعر أنا بعيدون كل البعد عن ذلك الغزل الجاهلي الذي كان إلى الوصف المادي أدنى منه إلى الغزل الخالص ، فجميل لا يقف عند وصف محاسن بثينة بل يتجاوز هذ الى التعبير عن مشاعره الخاصة والى تصوير ما تختلج به نفس العاشق المستهام من شعور بلذة التضحية واستعذاب تباريح الهوى ، وأنه ليرى أن جهاده في حبه هذا يعفيه من الجهاد في سبيل الله :

يموتُ الهوى مني إذا ما لقيتُها ... ويحيا إذا فارقتُها فيعـود
يقولون: جاهدْ ياجميلُ بغزوةٍ ... وأي جهادٍ غيرَهنّ أريدُ

لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل بينهن شهيد

فهذه المشاعر الدقيقة الصادقة كان جميل اول من استطاع تصويرها في شعره تصويراً يجمع الى الصدق والمهارة جزالة الأسلوب وفصاحة الألفاظ وحسن الاحتجاج والافتنان في الحوار والتصرف بالمعاني فاستحق بذلك ان يكون امام الغزلين العذريين . وقد عرف له القدماء هذه المنزلة فكان راويته كثير الشاعر يقدمه على نفسه وما استنشده احد شعراً الا بدأ بجميل وكان يقول : « وهل وطأ لنا النسيب الا جميل » ، وفضله عبد الرحمن بن الأزهر على شعراء أهل الاسلام فلم يقنع هذا عبد الرحمن بن حسان ففضله أيضاً على شعراء الجاهلية . وكان الشعراء بعده عالة عليه في كثير من المعاني وكان ممن أخذ عنه كثير والفرزدق ، وقد وازن ابن سلام بينه وبين كثير فقال : « كان لكثير في النسيب حظ وافر ، وجميل مقدم عليه وعلى أصحاب النسيب في النسيب ، وكان كثير راوية جميل ، وكان جميل صادق الصبابة والعشق ، ولم يكن كثير بعاشق ولكنه كان يتقول . » ، وهو يحتل المنزلة الاولى بين شعراء الغزل بعد ابن أبي ربيعة ، ويروى عن جميل أنه فضل عمر على نفسه فقال له حين سمع لاميته : « لا أقول والله مثل هذا سجيس الليالي وما خاطب النساء مخاطبتك أحد » ، ونحب أخيراً أن نورد ما قاله فيه أحد النقاد المعاصرين وهو عباس محمود العقاد فقال في كتيبه عنه : « وحقيقة الرأي الذي يدل عليه شعره فيما نعتقد أنه كان شاعراً يجمع بين البلاغة والسهولة ، ويرتقي في الصناعة الشعرية مرتقى لا يعلو عليه شاعر من أبناء عصره » .

* * *

مصادر

١ — الأغاني للأصفهاني ، ج ٨ : ٩١ . (دار الكتب)

٢ — خزانة الأدب للبغدادي ، ج ١ : ٣٥٨

٣ — وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج ١ : ١١٥

٤ — جميل بثينة : عباس محمود العقاد (سلسلة اقرأ)

٥ — العشاق الثلاثة : زكي مبارك (سلسلة اقرأ)

٦ — حديث الاربعاء لطه حسين ، ص ٥٨ ، (الطبعة الأولى)

كُثَيِّر بن عبد الرحمن

١ خليليَّ هذا رَبعُ عزَّةَ فاعقِلا ... قَلوصيكُما ثم ابكيا حيث حلَّتِ
٢ وما كنتُ أدري قبلَ عزَّةَ ما الهوى ... ولا موجِعاتِ القلبِ حتى تولَّتِ
٣ فقد حلفَتْ جهداً بما نحرتْ له ... قريشٌ غداةَ المأزِمَين وصلَّت
٤ أناديكِ ماحجَّ الحجيجُ وكبَّرتْ ... بِفَيْفا غزالٍ رُفقةٌ وأهلَّتِ
٥ وكانت لقطعِ الحبلِ بيني وبينها ... كناذرةٍ نذراً فأوفَتْ وحلَّتِ
٦ فقلتُ لها : يا عزَّ كلُّ مصيبةٍ ... إذا وُطِّنَتْ يوماً لها النفسُ ذلَّت

(*) انظر ما قلناه في الغزل ص ٢٩٨

(١) الربع : الديار . عزة : اسم المرأة التي كان يتغزل بها . اعقلا : قيّدا . القلوص : الناقة الفتية حلت : نزلت .(٢) موجعات القلب : الهموم والأحزان . تولت : ذهبت (٣) حلفت جهداً : بالغت في اليمين . نحرت : ذبحت الأضحيات . المأزم : الطريق الضيق بين الجبلين ، وهما مضيقان أولهما بين جمع وعرفة والآخر بين مكة ومنى . يريد : حلفت عزة يمينا بما نحرته قريش من الأضحيات ان تهجرني وتصرمني .(٤) الحجيج : ج حاج . فيفاء الغزال : موضع بمكة قرب الأبطح . والفيفاء : المكان المستوي والمفازة لاماء فيها . الرفقة : بتثليث الراء ، الأصحاب . أهلت : جأرت بالتكبير والتلبية . (٥) قطع الحبل : اراد به قطع الوصل والمودة . أوفت بنذرها : قامت به حلت : كانت في حل من --

٧ ولم يلقَ إنسانٌ من الحبِّ ميعةً ... نعمٌ ولا غمّاء إلاّ تجلّتِ

٨ كأنّي أنادي صخرةً حين أعرضتْ ... من الصمِّ لو تمشي بها العُصمُ زلّتِ

٩ صفوحاً ، فما تلقاكَ إلا بخيلةً ... فمن ملَّ منها ذلكَ الوصلَ ملّتِ

١٠ أباحتْ حمىً لم يَرْعَهُ الناسُ قبلَها ... وحلّتْ تلاعاً لم تكن قبلُ حُلّتِ

١١ فليتَ قَلوصي عندَ عزّةَ قُيِّدَتْ ... بحبلٍ ضعيفٍ غُرَّ منها فضلّتِ

١٢ وغُودِرَ في الحيِّ المقيمين رَحلُها ... وكان لها باغٍ سوايَ فبلّتِ

١٣ وكنتُ كذي رِجلينِ رِجلٍ صحيحةٍ ... ورِجلٍ رمى فيها الزمانُ فشلّتِ

١٤ وكنتُ كذاتِ الظَّلْعِ لمّا تحاملتْ ... على ظَلْعِها ، بعدَ العِثارِ ، استقلّتِ

١٥ أريدُ الثَّواءَ عِندَها ، وأظنُّها ... إذا ما أطلْنا عندَها المُكْثَ ملّتِ

ندرها إذ أوفت به . (٦) ياعز : مرخّم عزة ولذلك يجوز في الزاي الفتح والضم. وطنّ فلان نفسه على الأمر : أقرّها عليه وهيأها لقبوله . ذلت : سهلت . (٧) الميعة : الشدة . الغمّاء : الكربة . تجلت : تكشفت وتقشعت . (٨) أعرضت : صدّت . والضمير عائد على عزة . الصم: ج أصم وصمّاء . الصلب . العصم: ج أعصم : الوعل . زلت : زلقت . يريد : حين ناديت عزة أعرضت عني كأني أنادي صخرة صمّاء ملساء تزل عليها الوعول . (٩) الصفوح : صفة المرأة المعرضة الصارمة بخيلة: بخيلة بوصالها . (١٠) الحمى : المكان المحميّ واراد به قلبه . التلاع: ج تلعة: الارض المرتفعة . اراد: انها حلّت قلبي واستباحته ولم تحل به قبلها امرأة أخرى . (١١) غر : قطع ، والغر : كل كسر متثن في الثوب ونحوه . اراد : ليت قلوصي، حين نزلت بعزة : كانت مقيدة بحبل واهن انقطع فضلت كي اضطر الى البقاء عندها . (١٢) باغ: طالب . بلّت : نجت وذهبت . يتم معنى البيت السابق فيقول: ليت رحل ناقتي بقي في حي عزة وهامت ناقتي على وجهها ، فاذا طلبها طالب ليرجعها أفلتت منه ونجت . (١٣) رمى فيها الزمان : أصابها الزمان . شلت : يبست وبطلت حركتها . مازال يستقصي المعنى السابق فهو يتمنى لو أن رجله أصابها الشلل ليظل في حي عزة (١٤) الظلع: الغمز في المشي والعرج . العثار : الزلل والكبو . استقلت: ارتحلت . يتمنى لو انه كان كناقة أصابها العرج فعاقها عن الارتحال . (١٥) الثواء : الاقامة . المكث : المقام . يتمنى كثير أن تطول اقامته لدى عزة ولكنه يستشعر منها ـــ

١٦ فما أنصفَتْ ، أمَّا النساءُ فبغَّضَتْ إليَّ ، وأمّـا بالنَّوالِ فضَنَّتِ
١٧ يُكلِّفُها الغيرانُ شتمي ، وما بها هَواني ولكنْ للمليكِ استذَلَّتِ
١٨ هنيئاً مريئاً غيرَ داءٍ مُخامِرٍ لعزَّةَ من أعراضِنا ما استحلَّتْ
١٩ فواللهِ ما قاربتُ إلا تباعدَتْ بصرمٍ ، ولا أكثرتُ إلاَّ أقلَّتِ
٢٠ فإن تكُنِ العتبى فأهلاً ومرحباً وحقَّتْ لها العتبى لدينا وقلَّتِ
٢١ وإن تكنِ الأُخرى فإنَّ وراءنا مَنادِحَ لو سارتْ بها العيسُ كلَّتِ
٢٢ أسيئي بنا أو أحسِني لا ملُومةً لدينـا ولا مَقْلِيَّةً إن تقلَّتِ
٢٣ فلا يحسَبِ الواشونَ أنَّ صبابتي بعزَّةَ كانت غمرةً فتجلَّتِ
٢٤ فأصبحتُ قد أبللتُ من دَنَفٍ بها كما أُدنِفَتْ هيماءُ ثم استبلَّتِ

الملل منه . (١٦) النوال : الوصل . ضنت : بخلت . يزيد : ان عزة لم تنصف في صرمها إياي فقد بغضت الي النساء جميعاً بحبي لها ثم منعت عني وصلها (١٧) الغيران : الغيور ، واراد به زوجها حين حملها على شتم كثير جهاراً . ما بها هواني : لا تريد إهانتي . المليك : المالك ، الزوج . استذلت : انقادت (١٨) هنيئاً : اي أكلت هنيئاً : والهنيء من الطعام : السائغ اللذيذ . مريئاً . اي شربت مريئاً ، والمريء من الشراب : السائغ . المخامر : من خامره الداء اذا خالط جوفه . استحلت : استباحت . يريد : لتهنأ عزة بما استباحته من أعراضنا بشتمها إياي ، وشبه استباحتها امرضه بالطعام الهنيء والشراب المريء الذي لا يخالطه الداء والأذى (١٩) الصرم : الهجر . يريد : كلما ازددت منها قرباً كلما أمعنت في البعد عني . (٢٠) العتبى : الرضى . أهلا : أتيت أهلا . مرحباً : نزلت مكاناً رحباً . (٢١) الأخرى : اراد القطيعة والهجر . منادح ج مندوحة : الارض الواسعة . العيس : البيض من الابل . كلت : اصابها الكلال والاعياء من السير . يريد : ان رأت عزة ان نصطلح ونتراضى فأهلاً بها ومرحباً . وان أبت إلا القطيعة فلن يضيق بي المقام . (٢٢) مقلية : مبغضة ، والقلى : البغض . تقلت : استوجبت القلى . (٢٣) الصبابة : الهوى . الغمرة : الشدة . تجلت : زالت . (٢٤) أبل المريض : برئ . الدنف : المرض الملازم . الهيماء : الناقة أصابها داء الهيام ، وهو داء يصيب

٢٥ فيا عجبا للقلب كيف اعترافه وللنفس، لما وُطِّنَت، كيف ذلَّت

٢٦ وإني وتهيامي بعزّة بعدما تخلّيتُ مما بيننا وتخلّت

٢٧ لكالمرتجي ظلّ الغمامة كلما تبوّأ منها للمقيل اضمحلّت

٢٨ كأني وإياها سحابةُ مُمحِلٍ رجاها فلما جاوزته استهلّت

٢٩ فإن سأل الواشون: فيم هجرتها؟ فقل: نفسُ حرٍّ سُلِّيَت فتسلّت

* * *

قائل القصيدة ومناسبتها

قائل هذه القصيدة هو ابو صخر، كُثَيِّر بن عبدالرحمن الذي ينتهي نسبه الى خزاعة فالأزد فقحطان، وكان مقام خزاعة بالمدينة وما حولها فنشأ كثير في هذه البيئة وكان راوية لجميل بن معمر فأخذ عنه طريقته في الغزل واستمد من معانيه، وكان متصلا برجل من الكيسانية(٣٠) يعرف بخندف الأسدي فتأثر به وأصبح كيسانياً مغالياً في التشيع، ويقول بالرجعة والتناسخ محتجاً بقوله تعالى: « في أي صورة ما شاء ركبك »، وبلغ من تشيعه ان كان يسمي الاطفال من آل البيت

الابل من ماء مستنقع تشربه فتهيم على وجهها. يريد انه قد شفي مما كان به من لاعج الحب كناقة اصابها الهيام ثم أبلت. (٢٥) اعترافه: اصطباره، وقلب عروف. صبور (٢٦) التهيام: شدة العشق. تخليت مما بيننا: اقلعت عما كان بيننا. (٢٧) تبوأ المكان: نزله، وتبوأ منها: حل في ظلها المقيل: النوم نصف النهار. اضمحلت: تقشعت. يريد: اني في هيامي بعزة وطمعي بوصلها بعدما قام الجفاء بيننا، كاللاجىء الى ظل سحابة للقيلولة فسرعان ما تنقشع وتضمحل. (٢٨) الممحل: الذي نزل به المحل والجدب. جاوزته: ابتعدت عنه. استهلت: أمطرت. يريد: ان حالي معها كرجل ممحل جازت به سحابة وأمّل ان تمطره فلم تستهل الا بعد ان جاوزت ارضه، ويريد من ذلك انه كان يأمل لشدة تعلقه بعزة ان يكون له وصلها ولكنها منحت وصلها سواه. (٢٩) سلت: عزيت.

(٣٠) كيسانية فرقة من الشيعة الامامية ينتسبون الى كيسان مولى الامام علي بن ابي طالب.

الأنبياء الصغار ، ويهب لهم الدراهم اذا أخذ عطاءه وحتى كان عمر بن عبدالعزيز يعرف صلاح بني هاشم وفسادهم من بغضهم كثيراً وحبهم إياه ، وبلغ من ايمانه بالرجعة أنه كان يقول لعمته انه يونس ابن متى ، وكان يقول للناس قبيل وفاته انه سيرجع اليهم بعد اربعين ليلة على فرس عتيق و كان بنو هاشم يستغلون سذاجته ويفيدون من دعاوته ، وحين سجن ابن الزبير محمد بن الحنفية (١) في سجن عارم قال ابياتاً يمدح فيها ابن الحنفية ويهجو ابن الزبير منها قوله مخاطباً ابن الزبير الذي كان يدعي انه عائذ بالبيت الحرام :

تخبر من لاقيت انك عائذ   بل العائذ المظلوم في سجن عارم

ولما مات ابن الحنفية زعم كثير انه لم يمت وقال إنه المهدي المنتظر .

وكان كثير الى تشيعه محمقاً شديد الغفلة ، وكان حمقه هذا يحمله تياهاً شديد الاعتداد بنفسه، فكان ناس من اهل المدينة يعبثون به ويأخذون رداءه من خلفه فلا يلتفت اليهم لشدة تيهه ويمضي في قميص ، وكانت قريش ايضاً تعابثه وتهزأ به ، فيحدثنا طلحة انه دخل عليه يعوده في نفر من قريش فقال له : كيف تجدك يا أبا صخر ؟ فقال : أجدني ذاهباً . فقلت : كلا . فقال هل سمعتم الناس يقولون شيئاً ؟ فقلت : نعم ، يتحدثون انك الدجال . فقال : أما لئن قلت ذلك إني لأجد في عيني ضعفاً منذ أيام .

وكان كثير يجمع الى هذه الصفات خصالاً اخرى لا تقل عنها سوءاً : كان شديد العقوق لأبيه ، وضيع النفس يدعي تارة انه من ازد قحطان ويزعم تارة اخرى أنه من كنانة قريش ، فيرده القرشيون والخزاعيون ، وكانت صفاته الخَلقية لا تقل سوءاً عن صفاته الخُلقية : كان دميم الهيئة قصيراً مسرفاً في القصر ، فكان عبدالعزيز بن مروان يعابثه اذا دخل عليه بقوله : طأطىء رأسك لا يصبه السقف .

ولم يكن تشيع كثير ليحول دون اتصاله بالأمويين وامتداحه إياهم لأنه كان من اولئك الشعراء المنافقين المتكسبين وكان بنو أمية ، مع علمهم بتشيعه ، يقربونه ويكرمونه اصطناعاً له وجلالته في أعينهم ولطف محله في أنفسهم ، كما قال ابو الفرج ، ولعل بني أمية ما كانوا يأخذون تشيعه لبني

---

(١) هو ابن علي بن ابي طالب وامه خولة بنت جعفر الحنفيه فنسب اليها . ولما دعا ابن الزبير لنفسه بالخلافة رفض ابن الحنفية مبايعته فاضطهده وهدده بالحرق وكان الكيسانيون يعتقدون بإمامته ولما مات عام ٨٣ هـ قالوا انه مقيم بجبل رضوى وانه هو المهدي المنتظر .

هاشم بعين الجد لما اشتهر من حمقه ، فكانوا يتندرون به ويستظرفون مجلسه ولا يخلون عليه بالعطاء لما كان يقوله فيهم من جيد المديح .

لم تكن هذه الشخصية التي تستثير السخرية والمقت بحمقها وتلونها انتؤهل صاحبها الا ان يكون عاشقاً صادق العاطفة نبيل الحس ، ومع ذلك فقد اشتهر كثير بالشعر الغزلي وبتعشقه لعزة بنت حميل الضمرية ، زعموا انه لقيها بينما كان يسوق غنما له ، وكانت جارية صغيرة ، فعلقها وأنشأ يقول فيها الشعر الغزلي الكثير حتى صار ينسب اليها فيقال كثير عزة ، وكانت له معها اخبار كثيرة أوردها أبو الفرج ، الا ان بعض متقدمي الادباء يشكون في صدق عاطفته نحوها ، قال ابن سلام: « كان كثير مدعياً ولم يكن عاشقاً ، وكان جميل صادق الصبابة والعشق » ، وروي عن ابي عبيدة نحو هذا القول ، ويظهر انه كان يتكلف العشق والشعر الغزلي تقليداً لاستاذه جميل ، ولا ادل على تكلفه العشق من ان حبه لعزة لم يحل دون زواجه ولم يحل دون حبه لامرأة غيرها تدعى أم الحويرث ناله من حبها اشد البلاء . ولعله احب ام الحويرث هذه بعد موت عزة .

مات كثير بالمدينة سنة ١٠٥ هـ وورث عنه بنوه الشعر فكان ابنه ثواب شاعراً ومات سنة ١٤١ هـ وكان لابنته ليلى ابن يعرف بأبي سلمة شاعر أيضاً .

وقصيدته التائية هذه قالها في عزة متغزلا بها ذاكراً هجرها إياه ويذكر أبو الفرج حادثة له مع عزة وزوجها وان زوجها هذا أرغمها على شتم كثير فشتمته وهي تبكي فقال كثير في ذلك :

يكلفها الخنزير شتمي وما بها   هواني ولكن للمليك استذلت

شعره ومنزلته

لم يكن شعر كثير غزلاً كله بل كان له مدح أعجب به النقاد شديد الاعجاب حتى أن مصعب بن الزبير قال فيه : « هو أشعر من جرير والفرزدق والراعي وعامتهم ، ولم يدرك أحد في مديح الملوك ما أدرك كثير . » وكان ابن أبي حفصة شديد الاعجاب بمديحه واستقصائه فيه . ولكن شهرة كثير عندنا لم تقم على المديح وإنما على الغزل ، وقد وجدنا الرواة يحكمون عليه بأنه كان متكلفاً في غزله ، غير صادق في عاطفته ، ووجدنا أنه لم يكن خليقاً ، لما ذكرنا من صفاته ، ان يكون شاعراً غزلياً ممتازاً ، وفي كلامنا على جميل تحدثنا عن تفضيل كثير أستاذه على نفسه ، والذي نتبينه من دراسة القليل الذي وصلنا من شعره هو أن كثيراً كان عالة على أستاذه جميل في طريقته الشعرية وأسلوبه ومعانيه وقد سار على غراره في عفة الغزل وفي اكثاره من الحديث عن خلجات النفس وتباريح الهوى وآلام الهجر ، وحاكاه في رشاقة الاسلوب وحلاوة اللفظ ، إلا انه لم يبلغ

شأوه ولم يصل الى مرتبته ، وكان في غزله متكلفاً قليل الحظ من صدق العاطفة وحرارة اللهجة.
ولعل من خير غزله هذه التائية التي اوردنا لك أكثرها ، وتكشف لنا هذه القصيدة عن نفس كثيّر السريعة السلو ، القوية على الهجران ، الحريصة على كرامة الحب ، فهو يقابل صدود عزة بصدود مثله فاذا سئل كيف قوي على الهجران أجاب انها نفس حر سليت فتسلت.

ولا يسعنا إلا إن نعجب بما في هذه القصيدة من جمال اللفظ وحلاوة الجرس وبراعة التشبيه واستقصاء المعنى ، أرأيت كيف تمنى قرب عزة وعدم مفارقتها فتمنى لو أن ناقته وهي منها الحبل فقطعته وهامت على وجهها ، أو لو أن إحدى رجليه أصابها الشلل فعاقها عن السير وذلك ليتاح له أن يمكث إلى جانب صاحبته عزة ، أرأيت كيف مثل لرجائه الخائب في وصل عزة بمن فاء إلى ظل سحابة سريعة التقشع والاضمحلال . أو بالممحل الذي خدعته سحابة عابرة رجا أن يصيبه مطرها فلم تمطر إلا بعد أن جاوزته . لا ريب أن هذه الصور ونحوها تدل على أن كثيراً كان على حظ لا بأس به من الصنعة الشعرية ، ولعلنا لو وقفنا على شعره كله ، لكنا له أكثر إنصافا ، فقد حدثنا عنه الرواة حديثا يدل على كثرة شعره وعلى علو منزلته عندهم وشدة إعجابهم بشعره ، فابراهيم بن سعد يقول : « إني لأروي لكثير ثلاثين قصيدة لورقي بها مجنون لأفاق » وكان هذا خبيث النفس فاذا سئل عن شعر كثير طابت نفسه ، وعبد الله بن أبي عبيدة يقول : « من لم يجمع من شعر كثير ثلاثين لامية فلم يجمع شعره . » وكان هذا يملي شعر كثير بثلاثين ديناراً . وقال ابن سلام : « كان كثير شاعر أهل الحجاز ، وهو شاعر فحل ، ولكنه منقوص حظه بالعراق . » وكان يونس النحوي يقول إنه أشعر أهل الاسلام ، فهذه الأقوال تدلنا على مكانة كثير عند القدماء حتى زُعم لنا أنه مات وعكرمة المحدث مولى ابن عباس في يوم واحد فاجتمع أكثر الناس في جنازة كثير . وعلى الجملة يحتل كثير منزلة رفيعة بين شعراء الغزل إلا أنه لا يبلغ فيه مرتبة رائد الغزل الحضري عمر بن أبي ربيعة وزعيم الغزل البدوي جميل بن معمر.

مصادر

١ — الأغاني للأصفهاني ، ج ٩ : ٣ (دار الكتب) .
٢ — الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٩٨ .
٣ — وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج ١ : ٤٣٣ .
٤ — حديث الأربعاء لطه حسين ، ج ٢ : ١١٦ .
٥ — خزانة الأدب للبغدادي ، ج ٢ : ٣٨١ .
٦ — العشاق الثلاثة لزكي مبارك . (سلسلة إقرأ) .

الصِّمَّة القُشَيْري

١ حَنَنْتَ إلى رَيَّا ونفسُكَ باعَدَتْ مزارَكَ من ريّا وشعباكُما معا
٢ فما حسنٌ أنْ تأتيَ الأمرَ طائعاً وتجزَعَ أن داعي الصبابةِ أسمعا
٣ قِفا وَدِّعا نجداً ومن حلَّ بالحِمى، وقلَّ لنجدٍ عندنا أنْ يُوَدَّعا
٤ بنفسي تلكَ الأرضُ ما أطيبَ الرُّبى، وما أحسنَ المُصطافَ والمُتَربَّعا

(١) حننت : يخاطب الشاعر نفسه وكان من عادة الشاعر في مفتتح قصيدته أن يجرد من نفسه شخصاً يخاطبه ، وهذا ما سماه البلاغيون بالتجريد . ريّا : اسم المرأة التي كان الصمة محباً لها . المزار : مكان الزيارة . الشعب : القبيلة . يخاطب الشاعر نفسه قائلا : إنك قد حننت واشتقت إلى ريا حين بعدت عن ديارها مختاراً وتباعد حيا كما .

(٢) الجزع : فقدان الصبر وإظهار الحزن . الصبابة : الشوق . يريد : لقد أقدمت على مفارقة ريا طائعاً مختاراً فلا ينبغي أن تجزع إذا استبد بك الشوق اليها .

(٣) الحمى : منازل القبيلة التي تحميها فلا ينزل بها سواها. يخاطب الشاعر صاحبيه، وكثيراً ما كان الشاعر يخاطب صديقين متخيلين ، فيسألهما أن يودعا نجداً ، موطنه ، ومن حل في حماها يريد صاحبته ريا ، ثم يقول إنه قلما كان يغادر موطنه نجداً مرتحلاً الى بلاد اخرى .

(٤) بنفسي تلك الارض : اي افتدي بنفسي تلك الارض ، فالارض منصوبة على انها مفعول للفعل المقدر . المصطاف : المكان ينزل فيه صيفاً . المتربع : المكان ينزل فيه ربيعاً .

٥ ولَيست عَشيَاتُ الحِمى برواجعٍ   عليكَ ولكنْ خَلِّ عَينَيكَ تَدْمَعا
٦ ولمّا رأيتُ ٱلبِشْرَ أعرضَ دُونَنا   وحالَتْ بَناتُ ٱلشَّوقِ يَحنِنَّ نُزَّعا
٧ بكَتْ عَينيَ ٱليُسرى فلمّا زَجَرتُها   عن الجَهلِ بعدَ الحِلمِ أَسبَلَتا معا
٨ تَلفَّتُّ نحوَ ٱلحيِّ حتى وَجَدْتُني   وَجِعتُ من الإصغاءِ لِيتاً وأخْدَعا
٩ وأذكُرُ أيامَ الحِمى ثم أنْثَني   عَلى كَبِدي من خَشيَةٍ أنْ تَصدَّعا

* * *

الصِمة بن عبد الله شاعر أموي ينتهي نسبه الى قُشَير فقيس عيلان ، ولم يصلنا من أخباره ما فيه غناء ، فيذكر ابن الكلبي في جمهرة الانساب أنه كان « شريفاً ، شاعراً ناسكاً ، عابداً » ، وأن أحد أجداده وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكرمه وكساه واستعمله على صدقات قومه. وجاء في شرح الحماسة أن الصمة كان يهوى ابنة عمه ريّا ، فخطبها إلى عمه فزوّجه على خمسين من الابل ، فجاء الى أبيه فساق عنه تسعاً وأربعين . فقال أكملها . فقال هو عمّك وما يناظرك في ناقة . فجاء الى عمه بها ، فقال : والله لا أقبلها إلا كاملة . فلج عمه ولج أبوه ، فقال الصمة : والله

---

(٥) عشيات الحمى : الأمسيات التي كنا نقضيها في الحمى . خل : دع .

(٦) البشر : اسم جبل أو موضع . أعرض الشيء : بدا من بعيد . حالت : تحركت . بنات الشوق : نوازعه . نزّع ، ج نازعة : مشتاقة .

(٧) زجرتها : منعتها . الجهل : الانقياد لدواعي الهوى . أسبلت : ذرفت . يريد : حين جاوزت البشر وتحرك في نفسي الشوق والحنين بكت عيني اليسرى وحين حاولت منعها من البكاء بكت عيناي كلاهما . ونحن نعلم أن البكاء لا يكون إلا بالعينين معاً ، ولكن الشاعر مثل لنا ناحية نفسية هي أن المحزون كلما زجرته عن البكاء والاستسلام للحزن ازداد حزنه وفاضت عيناه بالعبرات .

(٨) الاصغاء : التلفت . الليت : صفحة العنق . الأخدع : عرق في صفحة العنق ، وفي كل عنق أخدعان . يريد انه ظل يتلفت نحو الحي حتى آلمه ليته وأخدعاه .

ما رأيت الأم منكما ، وأنا ألأم منكما إن أقمت معكما . فرحل إلى الشام فاتي الخليفة فكلمه ، فأعجب به وفرض له عطاء ، وألحقه بالفرسان،فكان كثير التشوق والحنين الى نجد .

فأبياته هذه قالها اذن في الحنين الى نجد والى ابنة عمها ريا التي لم يسعد بزواجها ، وهي كما ترى تشيع فيها رنة حزن ولوعة صادقة وتنم عن نفس مرهفة الحس ، شديدة التأثر ، صادقة التأثير ، صادقة الهوى ، وأسلوبها يجمع بين الجزالة والرقة ، وقد أعجب أبو تمام بهذه الأبيات فصدر بها باب النسيب في حماسته .

الكُمَيت بن زيد

١ طَرِبْتُ وما شوقاً إلى البيض أطْرَبُ ولا لَعِباً منّي، وذو الشَّيب يلعَبُ
٢ ولم يُلْهِني دارٌ ولا رَسمُ منزِلٍ ولم يتطرّبْني بنانٌ مُخَضَّبُ
٣ ولا أنا مِمّنْ يزجُرُ الطيرَ، همُّهُ أصاحَ غُرابٌ أم تعرّض ثعلبُ
٤ ولا السانحاتُ البارحاتُ عشيّةً أمرَّ سليمُ القرنِ أم مرَّ أعضبُ

(*) انظر ما قلناه في ص ٣٠١ .

(١) البيض: كناية عن النساء . وذو الشيب يلعب : أصلها عند ابن هشام : أو ذو الشيب يلعب ؟ فحذفت همزة الاستفهام وقال بعض شراح الهاشميات ليس فيها استفهام والمعنى : لم أطرب شوقاً الى البيض ولا طربت لعباً مني ، وقد يلعب ذو الشيب ويطرب وان كان قبيحاً به ولكن طربي الى أهل الفضائل والنهى .

(٢) لهاه : شغله . يتطربني : يحملني على الطرب . البنان : الاصابع . مخضب : مصبوغ بالخضاب وكنّى بالبنان المخضب عن المرأة .

(٣) الزجر : الاستدلال على المستقبل بحركات الحيوان وأصواته وهيئته . تعرّض له : تصدى ، وظهر . كان العرب يتطيرون من صياح الغراب ورؤية الثعلب .

(٤) السانح من الطير : ماولاك ميامنة . البارح : ماولاك مياسرة ، وأهل نجد ←

٥ ولكن إلى أهلِ الفضائلِ والنُّهى — وخيرِ بني حوّاءَ، والخيرُ يُطلَبُ
٦ إلى النفرِ البيضِ الذين بحبّهمْ — إلى اللهِ فيما نابني أتقرّبُ
٧ بني هاشمٍ، رهطِ النبيِّ، فإنّني — بهمْ ولهمْ أرضى مراراً وأغضبُ
٨ خفضتُ لهم منّي جناحَي مودّةٍ — إلى كَنَفٍ عِطفاه أهلٌ ومرحبُ

---

٩ يُشيرونَ بالأيدي إليَّ وقولُهم: — ألا خابَ هذا، والمُشيرون أخيبُ
١٠ فطائفةٌ قد كفّرتني بحبّكم، — وطائفةٌ قالوا: مُسيءٌ ومُذنبُ
١١ فما ساءني تكفيرُ هاتيك منهمُ — ولا عيبُ هاتيك التي هي أعيبُ
١٢ يَعيبونني من خَبّهم وضلالِهم — على حُبّكم، بل يسخرون وأعجبُ

يتفاءلون بالأول ويتشاءمون بالثاني. الأعضب: المكسور القرن. كان العرب يتشاءمون أيضاً بالثور المكسور القرن.

(٥) الى أهل الفضائل: متعلقة بطربت في البيت الأول. النهى، ج نُهية: العقل. يريد: انني لا أطرب شوقاً الى النساء، ولا لعباً مني، ولست ممن يلهج برسوم الديار والخرّد الحسان والزجر والعيافة وانما شوقي الى آل النبي ذوي المكارم والنهى وخير الناس، والخير حقيق بأن يطلب ويسعى إليه.

(٦) البيض: كناية عن الأشراف. فيما نابني: فيما أصابني، من الأذى والبلاء، فإني أتقرب الى الله به وبحب بني هاشم.

(٧) رهط الرجل: قومه وقبيلته. بهم أرضى ولهم أغضب.

(٨) الكنف: الجانب، ومثله العطف. المرحب: المكان الرحب. في هذا البيت استعارة مكنية في قوله: خفضت لهم مني جناحي مودة، بمعنى التقرب والتودد، وقد أخذ الكميت هذا عن قوله تعالى: واخفض لهما جناح الذل من الرحمة.

(٩) يشيرون: الضمير عائد على الناس الذين كانوا يأخذون عليه تقربه من بني هاشم والمشيرون أخيب: الواو هنا حالية. أخيب: أكثر خيبة.

(١٢) الخب: الخداع والخبث. بل يسخرون وأعجب: هم يسخرون مني وأنا أعجب لهم.

٣ وقالوا : ترابيٌّ هواه ورأيُه ، بذلك أُدعى فيهِمُ وألَقّبُ
١٤ علَى ذاكَ إجرِيّايَ،فيكم ضَرِيبتَي، ولو جمعُوا طرّاً عليَّ وأجلبُوا
١٥ وأَحمِلُ أحقادَ الأقاربِ فيكمُ وينصَبُ لي في الأبعَدِين فأُنصَبُ
١٦ بخاتِمكمُ غَصْباً تَجوزُ أمورُهم فلمْ أرَ غصباً مثلَه يتَغصَّبُ
١٧ وقالوا : ورِثْناها أبانا وأمَّنا ، وما وَرّثَتْهُمْ ذاكَ أُمٌّ ولا أَبُ
١٨ يَرَونَ لهم حقّاً على الناسِ واجباً سفاهاً ، وحقُّ الهاشميين أوجَبُ
١٩ فيامُوقِداً ناراً لغيرِك ضوءُها ، ويا حاطِباً في غيرِ حبلِك تحطِبُ
٢٠ ألم ترَني من حُبِّ آلِ مُحمّدٍ أرُوحُ وأغدُو خائفاً أترقَّبُ
٢١ كأنّي جانٍ مُحدِثٌ وكأنّما بهم أُتقّى ، من خشيةِ العَرِّ ، أجربُ

---

(١٣) ترابي : نسبة الى علي بن أبي طالب الذي كناه الرسول بأبي تراب .

(١٤) الاجريا : الخلق والعادة . الضريبة . الطبيعة . طراً . جميعاً مأخوذ من طر الابل إذا جمعها . أجلب القوم : تجمعوا وتوعدوا بالشر . يريد : انني سوف أبقى على عادتي وسجيتي التي هي حبكم مهما يتألب علي الناس ويتوعدوني بالشر .

(١٥) نصب له : عاداه وقاومه . أنصب : أتعب . يريد : انني أحمل من أجلكم أحقاد ذوي قرباي وأتعرض لخصومة الاباعد .

(١٦) الخاتم : مايختم به . الغصب . الاستلاب والاخذ قهراً وظلماً . تجوز : تنفذ وتجري . يتغصب : يغتصب . يريد : ان بني أمية يسوسون أمورهم وينفذونها بخاتمكم الذي اغتصبوه منكم .

(١٧) ورثناها : أي الخلافة . أبانا وأمنا : نصبتا على نزع الخافض ، أي عن أبينا وامنا .

(١٩) حطب الرجل : جمع الحطب ، وحطب في حبل فلان : نصره وأعانه والخطاب لمن يلومه في حب بني هاشم وينتصر للامويين لا لنفسه .

(٢٠) راح الرجل : ذهب عشية ضد غدا . يريد : انني لا أحب بني هاشم رغبة في مغنم بل ان حبهم يجعلني دائم الترقب والخوف من بطش أعدائهم .

٢٢ عَلى أَيِّ جُرمٍ أَم بِأَيَّةِ سِيرَةٍ ... أُعَنَّفُ في تَقريظِهِم وأُؤَنَّبُ

٢٣ أُناسٌ بِهِم عَزَّت قُرَيشٌ فَأَصبَحوا ... وَفيهِم خِباءُ المَكرُماتِ المُطَنَّبُ

٢٤ إِذا نَشَأَت مِنهُم بِأَرضٍ سَحابَةٌ ... فَلا النَبتُ مَحظورٌ وَلا البَرقُ خُلَّبُ

٢٥ وَإِن هاجَ نَبتُ العِلمِ فِي النّاسِ لَم تَزَل ... لَهُم تَلعَةٌ خَضراءُ مِنهُ وَمِذنَبُ

* * *

قائل القصيدة ومناسبتها :

هو أبو المُستهِل الكميت بن زيد الذي ينتهي نسبه الى قبيلة أسد المضرية . ولد في سنة ٦٠ هـ وبها نشأ وتثقف ، وكانت الكوفة إذ ذاك مركز المتشيعين لبني هاشم ، الناقمين على بني أمية استئثارهم بالحكم ، كما كانت حاضرة الأدب والعلم ، فتأثر الكميت ببيئة الكوفة هذه فنشأ متشيعاً لبني هاشم شديد التعصب لهم ، وقد قال فيهم خير شعره وهي قصائده المعروفة « بالهاشميات » ، وقد جمع الى الشعر ثقافة علمية وأدبية ولغوية غزيرة ، فكان فيما ذكروا ، خطيب بني أسد وفقيه الشيعة وكان حافظاً للقرآن وراوية للحديث ، ومن أعلم الناس بأنساب العرب وأخبارها ومثالبها ولغاتها ، حتى قالوا ما جمع أحد من علم العرب ومناقبها ومعرفة أنسابها ما جمع الكميت ، فمن صحح الكميت

---

(٢١) جان محدث : مجرم مقترف إثماً . العر : الجرب . يريد أن الناس كانوا يتحاشونه كأنه مرتكب إثماً أو كأنه أجرب .

(٢٢) السيرة : الطريقة والمذهب . التقريظ : المدح .

(٢٣) الخباء : بيت الوبر . المطنب : المشدود بالأطناب وهي حبال الخيمة . والشطر الثاني كناية عن شرفهم وعلو منزلتهم .

(٢٤) المحظور : الممنوع المحرم . البرق الخلب : الذي يخدع الناس فيظنون أن معه مطراً ولا مطر معه . والبيت كناية عن فضلهم وحسن جزائهم .

(٢٥) هاج : هلك . التلعة : ما ارتفع من الارض . المذنب : مسيل الماء الى الارض ، والبيت كناية عن سعة علمهم .

نسبه صح ، ومن طمن فيه وَهن » : وروي عن بعض النسابين قوله : «ما عرف الأنساب أنساب العرب على حقيقتها حتى قال الكميت النزاريات ، فأظهر بها علما كثيراً ، ولقد نظرت في شعره فما وجدت أحداً أعلم منه بالعرب وأيامها » ولقد بلغ من تمكنه من اللغة والرواية انه انتصر على حماد الراوية فيهما . وقد كان لثقافته هذه الواسعة الخصبة أثرها القوي الواضح في شعره ، وقد استغلها أول الأمر في تعليم الصبيان بمسجد الكوفة ولكنه مالبث أن انصرف الى الشعر حين أشار عليه الفرزدق باذاعته من الناس .

ناصر الكميت بني هاشم في وقت ضعفت فيه شكيمتهم وقل نصيرهم فآزرهم بشعره ومديحه حين كان فحول الشعراء يتزاحمون على أبواب بني أمية يتملقونهم ويمدحونهم متخذين شعرهم مطية للنفاق والتكسب ، فحمد بنو هاشم للكميت نصرته لهم وشجعوه على تأييدهم بلسانهم ومالهم ، الا أنه كان كثيراً مارفض جوائزهم ، لايقبل منها إلا ثيابهم التي تلي أجسادهم ، تبركاً بها وكان يقول . «والله ما أحببتكم للدنيا ، ولو أردتها لأتيت من هي في يديه ، ولكني أحببتكم للآخرة » وكان الكميت أول من ناظر في التشيع ، مجاهراً بذلك ، محتجاً له في شعره ، الا أنه لم يكن كشعراء الخوارج ينتصر لمذهبه بلسانه وحسامه ، وهي ظاهرة أشرنا اليها في حديثنا عن الشعر السياسي ، ولذلك فقد تخلف الكميت عن تلبية دعوة زيد بن علي بن الحسين حين خرج هذا على بني امية في عهد هشام بن عبد الملك . وقد جر عليه تشيعه هذا سخط بني امية واضطهادهم ولقي بسببه أذى عمالهم على الكوفة .

وقد عرف الكميت بأمر آخر غير تشيعه هو تعصبه الشديد للعدنانية على القحطانية ، وكانت العصبية القبلية على أشدها في ذلك العصر ، فكان الكميت أحد الشعراء الذين أوقدوا نارها وحملوا لواءها وقد قال بسببها قصائده النزاريات ، فلما ولي العراق خالد بن عبد الله القسري اليمني عاملاً لهشام اراد أن يثأر لليمنية فاحتال في ايغار صدر هشام على الكميت ، وما كان ذلك بالعسير عليه وموقف الكميت من بني أمية على ما رأينا ، فأمر هشام بسجنه وقطع لسانه ، ولكن الكميت ينجو من قبضة خالد ويمضي الى الشام مستخفياً فيحتال في الوصول إلى هشام ، وقد أيقن أن بقاءه مرهون بعصا نمته له ، فيدخل عليه وينشده قصيدته الرائية في مدحه ومدح بني أمية وفيها يقول :

كم قال قائلكم لعاً ... لك ، عند عثرته ، لعاثر

وغفرتم لذوي الذنو ... ب من الأكابر والأصاغر

أبني أميـة انكم ... أهل الوسائل والأوامر

فيرضى عنه هشام ويجيزه ويقربه اصطناعاً له ، ويضطر الكميت ، وقد تقدمت به السن وخاف

البطش ، أن يصانع الأمويين ويتقيهم فأخذ يمدحهم ويمدح ولاتهم ويقبل صلاتهم ،صنيع الشعراء المتكسبين، وكان بنو هاشم يغضون عن انصرافه الى أعدائهم لأنهم كانوا يرون الأخذ بالتقية، فمدح الكميت خالد بن عبد الله القسري. ولما عزل هذا سنة ١٢٠ ﻫ وخلفه على الكوفة يوسف ابن عمر الثقفي، ابن عم الحجاج ، مدحه أيضاً ، وفي عهده خرج زيد بن علي على الامويين ولكن حركته باءت بالاخفاق وقتل يوسف زيداً وصلبه عرياناً ثم أحرقه . ويظهر أن يوسف بن عمر هذا أراد أن يستأصل انصار زيد ، ولم يخف عليه أن هوى الكميت في الشيعة وأن مدحه لبني أمية لم يكن إلا نفاقاً ومصانعة ، فأوعز إلى الجند القائمين على رأسه فوجئوا بطن الكميت بسيوفهم لأنه فيما زعموا ، أنشد الأمير قبل أن يأذن له ، وزعموا أيضاً أنهم كانوا من اليمانية فاحفظهم تعريض الكميت بخالد القسري . وكان مقتله عام ١٢٦ ﻫ ، في خلافة مروان بن محمد .

وقصيدته هذه من خير قصائده الهاشميات ، وهي طويلة تبلغ زهاء أربعين ومائة من الأبيات .

شعره ومنزلته :

لم يبق لنا من شعر الكميت الكثير إلا أقله فقد احصوا شعره فأربى على خمسة آلاف بيت، وقد حفظت لنا اشعاره المقولة في بني هاشم والمعروفة بالهاشميات ، ولعل عدم ضياعها يرجع إلى عناية الشيعة بها . وهذه الهاشميات هي خير ما قال الكميت من الشعر ، ومهما يختلف رأي النقاد في قيمتها نعتقد أنها كانت اذ ذاك فتحاً جديداً في الشعر العربي لأننا لا نجد شاعراً قبل الكميت وقف جانباً كبيراً من شعره على الدفاع عن مذهب سياسي أو ديني ، وانما كان الشاعر يقول الأبيات أو القصيدة في تأييد هذا المذهب او ذاك ولم تكن هذه الهاشميات جديدة في موضوعها فحسب وانما كانت جديدة ايضاً في خصائصها العامة ، وابرز هذه الخصائص ان اكثرها طويل يبلغ عدد ابياته التسعين والمائة او يجاوزها ، وان الكميت يخالف في مطالعها ما اعتاده الشعراء قبله من وصف الاطلال أو النسيب فيبدأ احداها بالتقريع والوعظ :

ألا هل عمٍ في رأيه متأمل ... وهل مدبرٌ بعد الإساءة مقبل

ويبدأ بعضها بوصف ما يحسه من الشوق ولكن لا إلى النساء وانما إلى بني هاشم كما في قصيدته التي أوردناها وكما في ميميته التي أولها :

مَن لقلب متيم مستهامِ ... غير ما صبوة ولا أحلام

ويخالف الكميت فيها الشعراء ايضاً بأنه لم يجعل وصف الناقة ممهداً للمديح إنما يأتي به في آخر القصيدة بعد الفراغ من مدح بني هاشم .

وتشيع في هذه الهاشميات عاطفة الحزن لمصير بني هاشم والسخط على بني امية الذين استأثروا بالخلافة واغتصبوها من اصحاب الحق فيها، والسخط على الناس الذين استكانوا لبني هاشم ونكصوا عن الانتصار لآل البيت ، وهي عاطفة تشيع في جميع اشعار الشيعة وأنصارهم ، وكان الكميت صادقاً في عاطفته هذه مخلصاً في حبه لبني هاشم .

ويعتمد الكميت في هاشمياته على امرين : التصوير والاحتجاج ، فهو يصور ما حل ببني هاشم من الاضطهاد والتنكيل والقتل وما لقوه من العنت والبلاء تصويراً يثير الشفقة ويستدر الدموع كقوله في بائيته هذه :

ومن اكبر الأحداث كانت مصيبة — علينا قتيلُ الأدعياء المُلَحَّبُ
قتيل بجنب الطف من آل هاشمٍ — فيا لك لحماً ليس عنه مُذَبِّب
ومنعفرُ الخدين من آل هاشم — ألا حبذا ذاك الجبين المترب

وهو يحتج لحق بني هاشم في الخلافة فيقول لبني امية كيف تنكرون تراث بني هاشم وانتم تزعمون ان الخلافة ارث في قريش وحدها ، ولولا هذا التراث لكان لقبائل العرب الأخرى مثل ما لقريش من الحق في الخلافة ، والى هذا اشار الجاحظ بقوله : ما فتح للشيعة الحجاج الا الكميت بقوله :

فان هي لم تَصلح لحيٍ سواهمُ — فان ذوي القُربى أحقُّ وأوجَبُ
يقولون:لم يُورَث ،ولولا تُراثه — لقد شَرِكَتْ فيها بَكيلٌ وأرحَبُ

فاذا مدح بني هاشم نسب اليهم كل المكارم والمعالي فهم اشراف ، أجواد ، شجعان ، عقلاء ، أتقياء ، الى آخر هذه النعوت .

وفي أسلوب الكميت فخامة وجزالة وفي الفاظه توعر وغرابة ، ويظهر ان الكميت كان يتكلف هذا التوعر وهذه الغرابة فقد روي عنه ما يدل على ذلك ، وشعر الكميت معرض لثقافته الواسعة الخصبة ومعرفته بأنساب العرب وأيامها وأخبارها . ولقد لقيت هاشمياته رواجاً عظيما على ألسن الناس في ذلك العهد ولهج بها الشيعة وتناشدوها حتى قالوا إن من لم يرو قول الكميت : طربت وما شوقا الى البيض أطرب . . . فليس بشيعي ، وحتى احيطت بطائفة من الأحاديث زعم فيها أن الكميت رأى الرسول عليه الصلاة والسلام في نومه وأن الله قد غفر له بها ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

وقد ادى تشيع الكميت وتعصبه على القحطانية الى اختلاف الناس في منزلته الشعرية فمنهم من تحامل عليه وغض من شعره ومنهم من قدمه على شعراء الجاهلية والاسلام كمعاذ الهراء ، وقد روي عن الفرزدق انه كان معجبا بشعره وانه هو الذي شجع الكميت على اذاعة شعره في الناس ، ونحن

نعلم ما رُمي به الفرزدق من التشيع ، وكذلك كان من أثر نشأته الحضرية بالكوفة ان شعره لم يحظ باعجاب الرواة الذين لا يعجبهم من الشعر الا ما أنبتته البادية ، فروي عن الاصمعي قوله : ليس الكميت بن زيد بحجة ، وروي عن المفضل قوله : لا يعتد بالكميت في الشعر ، وكان يتهمه بالاغارة على معاني الشعراء السابقين . ومهما تختلف أقوال النقاد في الكميت لاريب في انه كان شاعر الهاشميين الاول ولسان الحزب الشيعي في العصر الاموي .

مصادر

١ — الاغاني للاصفهاني ، ج ١٥ : ١١٣

٢ — الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص ٢٢٦

٣ — خزانة الادب للبغدادي ، ج ١ : ١٣٨ ، وج ٤ : ٢٣٦

٤ — ديوان الهاشميات ، طبع لندن ١٩٠٤

٥ — الكميت بن زيد : عبد المتعال الصعيدي .

الطِرِمّاح بن حَكيم الطائي

١ وإنّي لَمُقتادٌ جَوادي وقاذفٌ ⁂ به وبنفسي ، العامَ ، إحدى المَقاذِفِ
٢ لأكسِبَ مالاً أوأؤولَ إلى غنىً ⁂ منَ اللهِ يكفيني عداةَ الخلائف
٣ فيارَبِّ ، إن حانَت وفاتي فلا تكُنْ ⁂ عَلى شَرْجَعٍ يُعلى بخُضْرِ المطارِفِ
٤ ولكنّ قبري بطنُ نَسْرٍ مَقيلُهُ ⁂ بجوِّ السماءِ ، في نُسورٍ عواكِفِ
٥ وأُمسي شهيداً ثاوياً في عِصابةٍ ⁂ يُصابُونَ في فجٍّ منَ الأرضِ خائفِ

---

(١) المقاذف : اراد بها المهالك يقذف بنفسه فيها .

(٢) أؤول : أرجع ، أصير . الخلائف ، ج خليفة ، يريد انه سيقذف بنفسه في المهالك ليكسب مالا يكفيه سؤال الناس ، ويسأل الله ان يرزقه مالاً يستغني به عن طرق أبواب الخلفاء .

(٣) الشرجع : النعش . المطارف ، ج مُطرَف: رداء من خز . يسأل الشاعر ربه ألا يميته حتف أنفه فيحمل على نعش قد فرشت عليه المطارف الخضر .

(٤) مقيله : مكان قيلولته ، من قال الرجل يقيل . عكف القوم حوله : أطافوا به . يسأل الله ان يقتل في ساح الوغى فتأكل جوارح الطير لحمه فيكون قبره في بطن نسر مقيله في جو السماء بين نسور عواكف حوله .

(٥) ثاوياً : مقيما . الفج : الطريق الواسع بين الجبلين والجمع فجاج . خائف : بمعنى مخوف ،←

٦ عَصائبُ من شتى يؤلِّفُ بينهم ... تُقى اللهِ ، نزّالون عندَ التزاحفِ

٧ إذا فارقوا دُنياهمُ فارقوا الأذى ... وصاروا إلى موعودِ ما في المَصاحفِ

* * *

وقال يصف حياة الخوارج :

٨ للهِ دَرُّ الشُراةِ إنّهمُ ... إذا الكرى مالَ بالطُلى أَرِقُوا

٩ يُرَجِّعون الحنينَ آونةً ... وإن علا ساعةً بينهمْ شَهَقُوا

١٠ خوفاً تَبيتُ القلوبُ واجفةً ... تكادُ عنها الصدورُ تَنفلِقُ

١١ كيف أُرجّي الحياةَ بعدهمُ ... وقد مضى مؤنسِيّ فانطلقوا

١٢ قومٌ شِحاحٌ على اعتقادِهمُ ... بالفوزِ مما يُخافُ قد وَثِقُوا

* * *

فاعل بمعنى مفعول ، ولها نظائر في لغة العرب كقولهم : ليلة ساهرة ، ونهار صائم . وأراد بالعصابة أصحابه من الخوارج .

(٦) من شتى : من قبائل متفرقة . يؤلف بينهم : يجمع بينهم . نزالون عند التزاحف : يدعون نَزالِ عند تلاقي الجيشين ، أي يدعون خصومهم للبراز .

(٧) يريد : إذا فارقوا دنياهم انتقلوا إلى جنة الله ورضوانه كما وعدهم في كتابه الكريم .

(٨) الشراة ، ج شار : الخوارج ، وسموا بالشراة أخذاً من قوله تعالى : « من الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله » . الطُلى ، ج طُلية : العنق ، والطُلى : الشخص . يصور الشاعر حياة الخوارج الذين يأرقون حين يميل الكرى بأعناق الناس .

(٩) رجع في صوته : ردده وكرره . الحنين : شدة البكاء ، وصوت الناقة إذا حزنت . الآونة ، ج الأوان : الحين . شهق الرجل ، بكسر الهاء وفتحها : تردد البكاء في صدره ورفع صوته فيه . (١٠) واجفة : مضطربة . يصور الشاعر نفوس الخوارج الذين لا يبيتون إلا والخوف يضطرب في أفئدتهم حتى أن صدورهم تكاد تنشق عنها لشدة اضطرابها .

قائل الأبيات ومناسبتها

هو الطِرِمّاح بن حكيم الطائي أحد الشعراء الناطقين بلسان الخوارج ، نشأ بالشام ثم انتقل منها الى الكوفة ، على قول ابي الفرج ، مع جيش من جيوش الشام ، فنزل فيها في تيم اللات بن ثعلبة ، وعن أحد شيوخها تلقن العقيدة الخارجية ،وكان على الأرجح من الصفرية الذين لايكفرون القعدة عن القتال . وقد أفاد الطرماح من بيئة الكوفة العلمية فنمّى فيها ثقافته اللغوية والادبية وانصرف في اول أمره الى تعليم الصبيان ، صنيع الكميت ، وكان يتنقل بين العراق وخراسان ، ولاندري كيف اتصل الطرماح بالكميت ولكن الرواة يسجلون عجبهم من هذه الصداقة الوطيدة القوية التي قامت بين الشاعرين والتي لم ينل منهاتنازع قبيلتيهما واختلاف مذهبهما الديني : وكان الكميت عدنانياً عصبياً وكان الطرماح قحطانياً عصبياً . وكان الكميت شيعياً من الغالية وكان الطرماح خارجياً من الصفرية ، وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة وكان الطرماح لأهل الشام .ومع أن مذهب الخوارج لم يكن يفرق بين القبائل فإن الطرماح كان شديد التعصب لليمن وقد حمله تعصبه هذا على هجاء قبيلة تميم وشاعرها الفرزدق ، وعلى الإدلال على بني أمية بأن ملكهم لم يقم الا على سواعد اليمنيين :

فبعزّنا نصر النبي محمّدٌ وبنا تثبّتت في دمشق المنبرُ

بل ان عصبيته هذه دفعته الى ان يمدح يزيد بن المهلب اليمني وهو الذي كان له ولأبيه اليد الطولى في القضاء على حركة الخوارج .

هذه العصبية المنيفة هي التي تفسر لنا لمَ كان اكثر شعر الطرماح في هجاء تميم والعدنانية وفي الفخر باليمنيين ، وشعر الطرماح الديني قليل بالقياس الى فخره وهجائه.

نصر الطرماح الخوارج بشعره ودافع عنهم بلسانه دفاعاً صادقاً ولكنه كان من القعدة فلم يشارك في وقائعهم ، ويظهر من ابياته الاولى التي اوردناها له انه كان يشتهي الخروج الى القتال ، ولكنه لم يفعل ، ويذكر لنا ابو الفرج ان جماعة شهدوا جنازته وعليها مطارف خضر فذكروا ابياته هذه التي لم يتح له تحقيق ماقاله فيها . وهذه الأبيات قالها في السنة التي مات فيها ولانعلم بالضبط تاريخ وفاته

---

(١١) و (١٢) يقول : لامطمع لي في الحياة بعد ان هلك من كان يؤنسني من أصحابي ، وانهم لقوم حريصون على عقيدتهم ، واثقون من مصيرهم يوم الروع .

كما اننا نجهل تاريخ ولادته ، وقد رجحت الدكتورة سهير القلماوي ان وفاته كانت بعيد سنة ١٠٦هـ.

شعره ومنزلته

لم يقف الطرماح شعره كله على نصرة المذهب الخارجي بل قال اكثر شعره في الفخر والهجاء والوصف ، ولكن الذي يعنينا هو شعره الديني الذي صور فيه حياة الخوارج خير تصوير ، وهو في ابياته الاولى التي قالها سنة وفاته يعبّر عن تلهفه القوي الى مشاركة الخوارج في القتال بعد أن أنفق حياته ينصرهم بلسانه ، ويتمنى ان يلقى حتفه في بعض المواقع ليموت شهيداً ويظفر بما وعد به الله عباده الذين يبذلون نفوسهم ابتغاء مرضاة الله . ولكن الطرماح لايريد ان يقذف بنفسه في لظى الحرب انتصاراً للخوارج فحسب بل كان همه ان يحصل ايضاً على مال يكفيه غوائل الحدثان ويستغني به عن انتجاع من بيدهم المال . والحق ان الطرماح لم يعرض مديحه على الخلفاء صنيع الشعراء الآخرين وكانت نفسه الأبية الأنوف تأبى عليه التذلل للأمراء والأشراف .

وفي أبياته الثانية يصور لنا الطرماح حياة الشراة تصويراً يذكرنا بخطبة ابي حمزة الخارجي ، فهؤلاء الخوارج اذا نام الناس جفا أعينهم الرقاد وأنفقوا ليلهم في ذكر الله وفي البكاء والشهيق ، لايأتون الا على خوف وهلع ، وهم حراص على عقيدتهم واثقون من حسن الجزاء والمثوبة .

والمميزات التي وجدناها في ادب الخوارج عامة (انظر صفحة ٢٦٢) نلحظها في شعر الطرماح ، فشعره يتصف بما يتصف به هذا الأدب من القوة التي يغذيها عنصرا الدين والنشأة البدوية ، ومن الصراحة وصدق العاطفه والنغمة الحزينة الصوفية والتأثر بالثقافة الاسلامية والمعاني القرآنية ، والطابع البدوي قوي واضح في شعر الطرماح ينم عن نفسية تجمعت فيها كل مميزات البداوة : العصبية القبلية العنيفة والاباء وعزة النفس والصدق والصراحة والقوة . وفي شعر الطرماح غرابة لفظية واضحة حملت الرواة واللغويين على ان يعنوا بشعره عناية شديدة وان يكثروا من الاستشهاد به في مسائل اللغة والنحو وقد رووا ان ابن الأعرابي سئل في ثمان عشرة مسألة من شعر الطرماح فأجاب عليها جميعاً : لا أدري . ولعلنا نذكر ان هذه الغرابة اثرت ايضا عن الكميت صديق الطرماح ، ويظهر ان تلازمهما كان له اثر في تقارب خصائصهما الشعرية ، وكما كان الكميت شاعر الشيعة في العصر الأموي غير مدافع فكذلك كان الطرماح يتبوأ مرتبة الصدارة بين شعراء الخوارج .

مصادر ١ — الأغاني للأصفهاني ، ج ١٠ : ١٤٨ ، (بولاق) . (٢ — ديوان الطرماح ، نشر المستشرق كرنكو . (٣ - الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٢٨ . (٤ — ادب الخوارج لسهير القلماوي ، ص ٩٤ .

عُبَيد الله بن قيس الرُقَيّات

من قصيدته التي مطلعها :

أقفرتْ بعدَ عبدِ شمسٍ كَداء فكُدَيٌّ فالرُكنُ فالبَطحاءُ

* * *

١ حبّذا العَيشُ حين قومي جميعٌ لم تُفرِّقْ أُمورَها الأهواءُ
٢ قبلَ أن تَطمعَ القبائلُ في مُلكِ قُريشٍ وتشمتَ الأعداءُ
٣ أيُّها المُشتَهي فَناءَ قُرَيشٍ بيَدِ اللهِ عُمرُها والفَناءُ
٤ إن تُوَدِّعْ مِنَ البلادِ قُرَيشٌ لايَكُنْ بعدَهمْ لِحَيٍّ بَقاءُ

(١) حبّذا : صيغة مدح مركبة من الفعل حب وذا الإشارية ، والمشهور في اعرابها ان ذا فاعل حب والمخصوص بعدها مبتدأ خبره جملة حبذا والتقدير هنا : العيش محبوبٌ، واعتبرها آخرون اسماً واحداً هو مبتدأ والمخصوص خبره ، او هي خبر مقدم والمخصوص مبتدأ مؤخر. جميع: مجتمعون. الأهواء ، ج هوى : الميل مع نوازع النفس . يتحسر الشاعر على تلك الايام التي كانت فيها قريش قبيلة متحدة لم تفرق بينها الاطماع والتزاحم على الحكم .

(٤) تودّع : تذهب وتفنى . يريد : اذا هلكت قريش فلن يكون لقبيلة بعدها بقاء .

٥ لم نَزَلْ آمنين يحسُدُنا النا - سُ ويجري لنا بذاكَ الثراءُ

٦ فرضينا، فمُتْ بدائكَ غمّاً لا تُميتنَّ غيرَكَ الأدواءُ

٧ لو بكتْ هذه السماءُ على قو - مٍ كرامٍ بكتْ علينا السماءُ

٨ إنّما مُصعبٌ شهابٌ من الله - ـهِ تجلّتْ عن وجههِ الظلماءُ

٩ مُلكُه مُلكُ قوّةٍ ليس فيه جبروتٌ ولا به كبرياءُ

١٠ يتّقي الله في الأمورِ وقد أفـ - لحَ من كان همّه الاتقاءُ

١١ عينُ فابكي على قُريشٍ وهل يُر - جِعُ ما فاتَ، إن بكيتِ، البُكاءُ

١٢ معشرٌ حتفُهم سيوفُ بني العلاّتِ يخشونَ أن يضيعَ اللواءُ

١٣ كيفَ نومي على الفراشِ ولمّا يشملِ الشامَ غارةٌ شعواءُ

١٤ تُذهِلُ الشيخَ عن بنيه وتُبدي عن بُراها العقيلةُ العذراءُ

---

(٥) يريد: مازلنا آمنين من ذهاب الأمر من يدنا والناس يحسدوننا على ذلك بينما نحن في خير ونعمة.

(٦) الأدواء، ج داء: العلة والمرض.

(٨) مصعب: هو مصعب بن الزبير اخي عبد الله بن الزبير. الشهاب: الكوكب. تجلت: تكشفت.

(٩) الجبروت: الكبر والتجبر. (١١) عين: منادي بحذف حرف النداء. يطلب الى عينه ان تبكي على ما آل اليه أمر قريش مع علمه بان بكاءها لن يجدي وان يرجع لقريش غابر عزها.

(١٢) الحتف: المنية. العلات، ج علّة: الضرة، وبنو العلات: الأقارب. يريد ان قريشاً قد انقسمت على نفسها فكان هلاكها بسيوفها لا بسيوف أعاديها.

(١٣) الشعواء: المتفرقة، مأخوذة من أشعى القوم الغارة: اشعلوها وفرقوها. يريد: انه لن يراود عينيه النوم قبل ان يشهد هجوم ابن الزبير على الشام مقر بني أمية.

(١٤) تذهل: تشغل وتصرف. البرى، ج برة: الخلخال والسوار. العقيلة: الكريمة من النساء. العذراء: البكر. يريد: ان هذه الغارة لهولها تجعل الشيخ ينسى بنيه وتجعل العذراء الكريمة تبدي عن حليها، وهي لا تسفر الا وقت الهول والذعر.

١٥ أنا عنكم بني أمية مزور وأنتم في نفسي الأعداء

١٦ إن قتلى بالطف قد أوجعتني كان منكم لئن قتلتم شفاء

* * *

قائل القصيدة ومناسبتها

هو عبيد الله بن قيس القرشي ولقب بالرقيات لأنه شبب بثلاث نسوة اسمهن رقية، وكان هواه في رقية بنت عبد الواحد.

نشأ ابن قيس الرقيات بمكة وعرف بانه كان زبيري الهوى، ولعله الشاعر الوحيد الذي ناصر الحزب الزبيري مناصرة فعالة، وكان يحمله على نصرته امران: اولهما انه كان قرشيا شديد التعصب لقريش، وكان يحز في نفسه ان يرى انقسام قريش على نفسها وتناحرها من أجل الخلافة والحكم وكانت كل أمنيته ان تعود قريش موحدة مؤتلفة شأنها في سابق عهدها، وكان يرى ان الامويين هم الذين يحولون دون هذه الوحدة بمعارضتهم لابن الزبير فكان شديد السخط عليهم، والامر الثاني انه كان صديقاً لمصعب بن الزبير، اخي عبد الله، فلما خرج مصعب لقتال عبدالملك بن مروان خرج معه وظل ملازماً له حتى قتل عام ٧٢هـ، وكان الامويون ناقمين عليه اشد النقمة فطلبه عبد الملك طلباً شديداً فاستخفى بالكوفة حتى قتل عبد الله بن الزبير عام ٧٣ هـ وخف عنه الطلب فذهب الى المدينة واستجار بعبد الله بن جعفر بن ابي طالب فكتب هذا الى أم البنين زوجة الوليد بن عبدالملك فنالت له الأمان من عبد الملك فوفد عليه ابن قيس ومدحه بقصيدته التي يقول فيها:

يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

فقال له عبد الملك: يابن قيس تمدحني بالتاج كأني من العجم وتقول في مصعب:

انما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

---

(١٥) مزور: مائل، منصرف. يعبر الشاعر في هذا البيت عن كرهه لبني أمية.

(١٦) الطف: موضع قرب الكوفة كان فيه مقتل الحسين وكثير من بني هاشم. ولايستغرب بكاء ابن قيس الرقيات على الحسين وأنصاره من بني هاشم وإن لم يكن متشيعاً لأنه كان انما يتعصب لقريش عامة وكان يحز في نفسه ان يراهم يتفانون في سبيل الحكم والملك

ملكه ملك عزة ليس فيه   جبروت ولا به كبرياء

أما الأمان فقد سبق لك ، ولكن والله لاتأخذ مع المسلمين عطاءً ابداً .

ولما لم يلق ابن الرقيات حظوة لدى عبد الملك انتجع اخاه عبد العزيز بن مروان والي مصر ولزمه حتى مات سنة ٧٥ هـ .

وقصيدته هذه قالها في مدح مصعب بن الزبير والفخر بقريش وهجاء بني أمية وهي التي اوغرت عليه صدر الأمويين .

شعره ومنزلته

لم يشتهر عبيد الله بن قيس الرقيات بالشعر السياسي فحسب بل اشتهر ايضا بانه كان شاعراً غزلياً ممتازاً يقرن بأعلام الغزل في العصر الاموي كعمر بن ابي ربيعة وجميل بن معمر ، بل هناك من يقدمه عليهم جميعاً ويعده شاعر قريش جميعاً في الاسلام ، وقد قدمنا انه إنما لقب بالرقيات لتشبيبه بنسوة ثلاث سمين جميعاً رقية ، وممن تغزل بهن ايضاً كثيرة الخزرجية التي لجأ الى دارها بالكوفة حين طلبه بنو أمية ، وام البنين زوج الوليد بن عبد الملك التي كان لها الفضل في تأمين عبد الملك له. وشعر ابن قيس الغزلي من أجود ماعرفناه من الشعر الغزلي وأرقه لفظاً وأعذبه أسلوباً .

على انا هنا بصدد شعر ابن قيس السياسي ، وشعره السياسي لايقل شأناً عن شعره الغزلي إن لم يفقه منزلة ، وقد وجدنا انه يكاد يكون الشاعر الوحيد الذي دافع عن حزب ابن الزبير بلسانه وسيفه ، الا ان مذهبه السياسي لم يكن زبيرياً خالصاً بل كان قرشياً ، وكان ساخطاً على الأمويين لاستعاضتهم عن الحجاز ، موطن قريش ، بالشام ، ولأنهم قربوا اليمانية واضطهدوا القرشيين ، وكان ساخطاً ايضا على الخوارج لأنهم يدعون الى جمهورية عربيـــة وهو يريدها ارستقراطية قرشية ، فناصر الزبيريين مناصرة قوية ولكن لما أديل منهم لبني أمية لم يجد غضاضة في الاتصال بالأمويين ومدحهم لأنهم كانوا يحققون هذه الارستقراطية القرشية التي يريدها ، وكان شعره السياسي يتخذ تارة سبيل المدح ، وله في مدح مصعب قصائد غر جياد لعل من أجودها هذه الهمزية التي ذكرنا جانبا منهـا ، ويتخذ تارة اخرى سبيل الهجاء ، فيهجو خصوم قريش المتألبين عليها ويهجو الامويين هجاءً مؤلماً في غير فحش ولا هجر من القول ، ويتخذ ايضا سبيل الرثاء المفجع الباكي وهو يختار في رثائه البحور القصيرة والقافية الحزينة الجرس كقوله من قصيدة في رثاء قتلى موقعة الحرة :

ذهب الصبا وتركت غيتيه   ورأى الغواني شيب لمتيه

إن الحوادث بالمدينة قد أوجعنني وقرعن مروتيه

ويتخذ أخيراً سبيل النسيب فإنه ماشبب بأم البنين إلا ليغيظ بذلك بني أمية ولكنه لم يكن يؤذي النساء بغزله ولم يصطنع فيه الفحش ،وهذا ماجعل غزله محبباً إليهن وقد وجدنا ام البنين تسعى في طلب الامان له من عبد الملك .

وقصيدة ابن قيس الهمزية هذه من اجود شعره السياسي وتشيع فيها عاطفة الحزن لما انتهى اليه امر قريش من الانقسام وتفرق الكلمة وعاطفة السخط على بني أمية وخصوم قريش ، ومانشك في انه كان صادقاً في عاطفته هذه كل الصدق . وأسلوبه في قصيدته هذه ، وفي شعره عامة ، يتصف بالسهولة والرقة وعذوبة اللفظ وحلاوة الجرس ، ولكن مافيه من الطوابع الحضرية حمل بعض النقاد على الحط من شأنه فقال فيه يونس : « ليس بفصيح ولا ثقة، شغل نفسه بالشرب بتكريت»، ولكن بعض المتعصبين له قدموه على شعراء قريش في الاسلام كافة ، والانصاف يقتضينا ان نضمه في مصاف الفحول من شعراء الغزل والسياسة الذين تمخض عنهم العصر الاسلامي .

مصادر

١ ـ الاغاني للاصفهاني ، ج ٥ : ٧٣ . (دار الكتب)

٢ ـ ديوان له مطبوع في فينا عام ١٩٠٢ بشرح السكري .

٣ ـ خزانة الادب للبغدادي ، ج ٣ : ٢٦٧ .

٤ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٢١٢.

٥ ـ حديث الاربعاء لطه حسين ، ج ٢ :٨٢ . (الطبعة الاولى)

٦ ـ تاريخ الشعر السياسي لاحمد الشايب ، ص ١٧٣ .

جرير

(نماذج من مدحه ورثائه ونقائضه)

ترجمته

هو ابو حزرة ، جرير بن عطيّة بن الخطفى ، من كليب بن يربوع احد بطون تميم . ولد في خلافة عثمان باليمامة وبها نشأ وترعرع بين قوم لم يكونوا على حظ يُعتد به من الشرف والغنى ، وكان عطية ، ابو جرير ، وضيع القدر ، شحيحاً ، بلغ من شحه انه كان يشرب اللبن من ضرع العنز مخافة ان يسمع صوت الحلب فيطلب منه لبن ، وكان جرير يقول : « اشعر الناس من فاخر بمثل هذا الاب ثمانين شاعراً وقارعهم به وغلبهم جميعاً » .

عاش جرير بين قومه هؤلاء عيشة لاتخلو من شظف وشدة ، واستهل حياته برعي ماشية أبيه وجدّه الخطفى ، وكان جده هذا شاعراً معروفاً وعالماً بأنساب العرب واخبارهم وغريبهم وقد كان لجده هذا كما كان للبيئة البدوية اثرهما في تفتح عبقرية جرير الشعرية وطبعها بطابع البداوة ، وكان ، شأن أهل البادية ، متأثراً بالاسلام تأثراً ساذجاً لاعمق فيه كان من أثره إعراضه عن المجون والتهتر وشرب الخمر وحرصه على أداء فروضه الدينية وتعففه في الغزل ، ولكن تدينه هذا لم يحل دون نهشه الاعراض بهجائه المقذع الفاحش البذيء .

وكان في طباعه مافي أهل البادية من سرعة الانفعال وحدة المزاج والخشونة والانفة ومقابلة الشر بمثله والتعصب الشديد للقبيلة فما أن سمع جرير غسّان السليطي يهجو قومه بني الخطفى حتى انبرى للرد عليه ، فحاول قومه ردّه عن ذلك لانه كان اذ ذاك غلاماً حدثاً لايكترث به فلما سمعوا اراجيزه المقذعة في غسان ادركوا أن نفس هذا الغلام تنطوي على عبقرية هجائية نادرة فاتفقوا

حوله وتباشروا به واتصل الهجاء بين جرير وغسان وما لبثت كفة جرير أن رجحت واضطر بنو سليط الى الاستعانة عليه بشعراء آخرين ، ومنذ ذلك الحين أصبح جرير شاعر كليب يذود عنها ويفاخر بها القبائل والشعراء فلا يكاد يبلغه ان شاعراً نال من قبيلته او غض من شأنه حتى يثور ويقذفه بحمم هجائه الممض فيصرعه ، فحين بلغه ان البعيث المجاشعي عرض ببني يربوع انقض عليه يشبعه هجاء وتهكماً فيحاول البعيث ان يثبت له ولكن الغلبة تكون لجرير فيستعين بنو مجاشع بشاعرهم الفرزدق فينبري لمصاولة جرير ويتصل الهجاء بينهما طوال حياتهما ولم تنطفىء جذوته الا بموت الفرزدق .

ومنذ ان استطارت شهرة جرير الهجائية ونبه ذكره أخذ الشعراء يتحرشون به ليرد عليهم فيشتهر اسمهم ، وكان بعض هؤلاء الشعراء يهجون جريراً انتصاراً للفرزدق او لدوافع شخصية او تلبية لرغبة من بيدهم الامر تحقيقاً لمآرب سياسية ، حتى زعم لنا ان من هاجاهم جرير يجاوزون الاربعين ، وأنا أحيلك على كتاب الاغاني لتقرأ فيه خبراً مطولاً فصّل فيه جرير القول عن سبب مهاجاته الشعراء ، وقد زعم فيه ان الحجاج استدعى جريراً وقال له : ايه ياعدوّ الله ، علامَ تشتم الناس وتظلمهم ؟ فقال : جعلني الله فداء الامير ، والله إني ما أظلمهم ولكنهم يظلموني فأنتصر . ثم طفق يعدّد الشعراء الذين هاجاهم ويبين سبب مهاجاته إياهم واحداً واحداً حتى طلع الصبح فانصرف فقال الحجاج : قاتله الله أعرابياً ، إنه لجروُ هراش . (الاغاني ج ٨ : ١٥) ونحن لانشك في ان هذا الخبر منتحل كله أو جلّه ، ومن اليسير ان تتبين انتحاله حين تقرأ فيه مثلاً خبر مهاجاة جرير لجفنة الهزاني لأن هذه المهاجاة كانت في زمن الوليد بن عبدالملك وجرير انما اتصل بالحجاج زمن عبد الملك ولكن صانع هذا الخبر اوقفنا على الدوافع التي ادت الى استطارة الهجاء بين جرير وخصومه .

ومن فحول الشعراء الذين هاجاهم جرير ، فضلاً عن الفرزدق ، الراعي النميري والاخطل التغلبي ، فأما عُبيد بن حُصين الراعي فقد استماله عرادة النميري نديم الفرزدق فجعله يفضل الفرزدق على جرير بقوله :

ياصاحبي دنا الرّواح فسيرا — غلب الفرزدق في الهجاء جريرا

ولما أبى ان يعتذر عن قوله هذا هجاه جرير وهجا بني نُمير بقصيدة بلغ فيها غاية الاقذاع والافحاش حتى صار بنو نمير يتهربون من نسبهم هذا وينتسبون الى بني عامر بعد ان كانوا يفاخرون به ، ومن هذه القصيدة بيته المشهور :

فغُضّ الطّرفَ إنك من نُمير — فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

وأما الاخطل فإنهم يذكرون من سبب اتصال الهجاء بينه وبين جرير انه قدم على بشر بن مروان بالكوفة فبعث إليه محمد بن عُمَير المجاشي بألف درهم وكسوة وبغلة وخمر وقال له : لا تُعن على شاعرنا واهج هذا الكلب الذي يهجو بني دارم . وكان الاخطل قال شعراً يفضل فيه جريراً على الفرزدق ، فلما دخل على بشر وسأله عن جرير والفرزدق أنشده قصيدة يهجو فيها جريراً ويفضل الفرزدق عليه منها قوله :

أجريرُ إنّك والذي تسمو له ... كأسيفة فخرت بحِدْجِ حَصانِ

تاجُ المُلوكِ وفخرُهم في دارمٍ ... أيّامَ يربوعٌ مع الرُّعيانِ

فما أن بلغ هجاؤه جريراً حتى بادر الى الرد عليه بنقيضة يقول فيها :

ياذا الغَباوة إنّ بشراً قد قضى ... ألاّ تجوزَ حكومةُ النشوانِ

فدعُوا الحكومةَ ، لستمُ من أهلِها ... إنّ الحكومةَ في بني شَيبانِ

ومنذ ذلك الحين اتصل الهجاء بين جرير والاخطل كما اتصل بينه وبين الفرزدق ولم يثبت لجرير من جميع الشعراء الذين هاجاهم الا الاخطل والفرزدق فشغل الناس والنقاد بالمفاضلة بينهم وملأت احاديثهم المجالس وتناشد الناس نقائضهم فكان لهم هذا الهجاء خير دعاوة أذاعت أسماءهم وأشاعت اشعارهم .

على انه لاينبغي لنا أن نقنع بما ذكر لنا من اسباب نشوب الهجاء بين جرير وبين الفرزدق والاخطل ، ولا يسعنا الا ملاحظة الدوافع الشخصية والقبلية لهذا التهاجي ، فالفرزدق لم يهج جريراً ذوداً عن بني دارم فحسب بل لانه اراد ايضاً منافسته على زعامة تميم الشعرية ، والاخطل لم يحمله على هجاء جرير مارشاه به ابن عمير المجاشعي فحسب بل حمله على هذا ايضاً سخطه على جرير لمدحه قبيلة قيس المعادية لبني تغلب ، رهط الاخطل ، ولعله كان يتوقع ايضاً مزاحمة جرير إياه على مكانته لدى بنى أمية ، وهو ماحدث فعلاً زمن عبد الملك بن مروان .

وقد بدأ اتصال جرير ببلاط بني امية منذ عهد يزيد بن معاوية وكان حينئذ شاعراً مغموراً لم يشتهر اسمه ، ولما قامت الفتنة بين ابن الزبير وبين مروان بن الحكم انحاز جرير واكثر شعراء مضر الى جانب ابن الزبير لما رأوه من تقريب بني أمية لليمانية ، ولكن عبد الله بن الزبير لم يكن يحسن اصطناع الشعراء فانفضوا عنه ، وما كاد الامر يتم لبني أمية في الشام والعراق والحجاز ويقضى على حزب ابن الزبير قضاء مبرماً حتى عاد الشعراء يطرقون ابواب الاموبين ويتقربون اليهم بمدحهم وهجاء خصومهم ، فاتصل جرير اول الامر ببشر بن مروان والي العراق من قبل أخيه عبدالملك ،

وكان بشر هذا مولعاً باغراء الشعراء بعضهم ببعض ويدلك على هذا مارواه ابو عبيدة من أن محمد بن عُمير الجاشمي بذل اربعة آلاف درهم وفرساً لمن فضّل من الشعراء الفرزدق على جرير ، فلم يقدم عليه الا سُراقة البارقي اذ قال ابياتاً في تفضيل الفرزدق ، فسرعان ما أرسل بشر هذه الأبيات الى جرير وأمره أن يجيب عنها ففعل .

ولما مات بشر اتصل جرير بخليفته الحجاج بن يوسف الثقفي وقال فيه وفي قبيلته قيس مدائح كثيرة ولكنه كان يطمح الى ان يكون شاعر البلاط الاموي ، واراد الحجاج أن يحقق له هذه الأمنية فأوفد معه ابنه محمداً الى عبد الملك بن مروان في الشام الا ان عبد الملك كان ساخطاً عليه لمناصرته ابن الزبير فيمن ناصره من شعراء مضر ، ولانقطاعه الى الحجاج وقوله فيه خير مدائحه ، فلم يأذن له الا بعد لأي وعناء ، فلما أذن له دخل عليه فأنشده قصيدته المشهورة التي يمدح فيها بني أمية ويهجو ابن الزبير ومنها بيته المشهور :

ألستم خيرَ من ركب المطايا وأندى العالمين بطونَ راح

فرضي عنه عبد الملك وأجازه ، ولا مراء في ان عبد الملك كان مسروراً باصطناع فحل من فحول القريض المعدودين ، ومنذ ذلك الحين اتصلت أماديح جرير في خلفاء بني أمية ولكنه لم يلق عندهم ما لقيه الأخطل من الحظوة والمنزلة ، فوفد على الوليد بعد موت أبيه وفي عهده مات الاخطل فهجاه جرير بقوله :

زار القبورَ أبو مالك فكان كألأم زوّارها

ثم وفد على سليمان بن عبد الملك ، ثم على عمر بن عبد العزيز ولكنه لم يجد عنده ما اعتاد أن يجده عند أسلافه لأن عمر لم يكن يقرب اليه الشعراء ، ثم اتصل بعد ذلك بيزيد بن عبد الملك ثم بأخيه هشام وفي عهده مات الفرزدق سنة ١١٠ ه على الأرجح فهجاه جرير بقوله :

مات الفرزدق بعدما جدّعته ليت الفرزدق كان عاش طويلا

فلما ليم في ذلك رثاه ببيتين من الشعر ولم يلبث أن لحق به فمات بعده ببضعة أشهر .

* * *

نماذج من شعره (*)

المديح

قال يمدح الحجّاج بن يوسف :

١ سَئِمتُ من المُواصَلَةِ العِتابا ... وأمسى الشَيبُ قد وَرِثَ الشَبابا
٢ غَدَتْ هُوجُ الرِياحِ مُبَشِّراتٍ ... إلى بينٍ نَزَلتِ بهِ السَحابا
٣ لقد أقْرَرتِ غَيبَتَنا لِواشٍ ... وكُنّا لا نُقِرُّ لكِ اغتيابا
٤ أناةٌ لا النَمُومُ لها خَدِينٌ ... ولا تُهدي لجارتِها السِبابا
٥ تَطيبُ الأرضُ إن نَزَلَت بأرضٍ ... وتُسْقَى حينَ تنزلُها الرَّبابا
٦ كأنَّ المِسكَ خالطَ طعمَ فيها ... بماءِ المُزْنِ يَطَّرِدُ الحَبابا
٧ ألا تَجزينَني وهُمومُ نَفسي ... بذِكرِكِ قد أُطيلَ لها اكتئابا

(*) أرجأنا الإتيان بنماذج من نقائضه الى بعد الفراغ من كلامنا على الشعراء الثلاثة : جرير والفرزدق والأخطل لنأتي بنماذج من نقائضهم مجتمعة ونتحدث عن منزلتهم ونوازن بينهم.

(١) المواصلة : الوصل . يريد انه ، وقد أدركه المشيب ، قد سئم العتاب على الهجر. (٢) الهوج ، ج هوجاء : الريح الشديدة . البين : الناحية من الأرض . يدعو بالسقيا الأرض التي نزلت بها . (٣) الغيبة والاغتياب : ذكر الرجل بما يسوؤه اثناء غيابه . يريد : لقد أصغيت لأقوال الوشاه فينا وما كنا لنقبل فيك وشاية مغتاب . (٤) الأناة : الرزينة الوقور المتأنية. النموم : المفسد بين الناس بالنميمة والكذب . خدين : صديق (٥) الرباب : السحاب الأبيض واراد به هنا المطر ، اي ان هذه المرأة اذا نزلت بأرض طابت و سقاها الغيث . (٦) المزن : السحاب . حباب الماء : نفاخاته التي تعلوه . شبه طعم فيها بمسك خالطه ماء المزن . (٧) ألا تجزينني: أراد : ألا تصلينني. وهموم :←

٨ سُقِيتِ الغَيثَ حيثُ نأيتِ عنّا ... فما نهوى لغيرِكُمُ سِقابا

٩ أهذا البُخلُ زادكِ نأْيَ دارٍ ... فليتَ الحُبَّ زادكُمُ اقترابا

١٠ لقد نام الخليُّ وطالَ ليلي ... بحُبِّكِ ، ما أبيتُ له انتحابا

١١ أرى الهِجْرانَ يُحدِثُ كُلَّ يومٍ ... لقلبي ، حينَ أهجُرُكُم ، عتابا

١٢ وكائنْ بالأباطِحِ مِن صديقٍ ... يراني لو أُصِبتُ هو المُصابا

١٣ ومسرورٍ بأوْبتِنا إليه ... وآخرَ لا يُحِبُّ لنا إيابا

١٤ دعا الحجّاجُ مِثلَ دُعاءِ نوحٍ ... فأسمعَ ذا المعارجِ فاستجابا

١٥ صبرتَ النفسَ يا ابْنَ أبي عقيلٍ ... مُحافظةً فكيفَ ترى الثوابا

١٦ ولو لم يرْضَ ربُّكَ لم يُنزِّلْ ... مع النصرِ الملائكةَ الغِضابا

١٧ إذا سعَرَ الخليفةُ نارَ حربٍ ... رأى الحجّاجَ أثقبَها شِهابا

١٨ ترى نصرَ الإمامِ عليكَ حقّاً ... إذا لبسُوا بدينِهِمُ ارتيابا

الواو فيها حالية . (٨) النأي : البعد . السقاب : القرب والجوار . (٩) أهذا البخل : البخل بالوصل. (١٠) الخليّ : من خلا قلبه من الهم والعشق . ما أبيت : ما أنام . (١٢) كائن : من كنايات العدد بمعنى كم الخبرية التي تفيد التكثير وتفترق عنها في اقتران مميزها بمن دائماً . الأباطح ، ج ابطح وبطحاء : مسيل واسع فيه دقاق الحصى . (١٣) الأوبة والإياب : الرجوع . (١٤) دعا نوح ربه فقال: «ربِّ لا تذرْ على الأرضِ من الكافرين ديّارا » ذو المعارج : من صفات الله تعالى : « من الله ذي المعارج » ، والمعارج ، ج معرج ومعراج : مكان العروج او آلته ، ويراد بها السماوات . وتظهر في هذا البيت والأبيات التي تليه أثر ثقافة جرير الإسلامية . (١٦) يريد : لولا ان الله راض عن سيرتك لما نصرك بملائكته ، كما نصر من قبل نبيه والمؤمنين بملائكة لم يروها في وقعة الخندق وحنين وغيرهما . (١٧) سعر : أوقد ، أشعل . ثقبت النار : اتقدت ، والكوكب : أضاء . الشهاب : الكوكب ، وأصله لما يرى في الليل منقضاً كأنه الكواكب . (١٨) الإمام : امير المؤمنين عبد الملك . اللبس : الاشكال ←

١٩ تَشُدُّ فلا تُكَذِّبُ يومَ زَحْفٍ — إذا الغَمَراتُ زَعْزَعَت العُقابا

٢٠ عفاريتُ العِراقِ شَفَيْتَ منهم — فأمسَوْا خاضِعِينَ لكَ الرِّقابا

٢١ وقالُوا : لن يُجامِعَنا أميرٌ — أقامَ الحَدَّ واتَّبَعَ الكِتابا

٢٢ إذا أخذُوا ، وكَيدُهُمُ ضَعيفٌ ، — بِبابٍ يَمْكُرُونَ فَتَحتَ بابا

٢٣ وأشمَطَ قد تَرَدَّدَ في عَماهُ — جَعَلتَ لشَيبِ لِحْيَتِهِ خِضابا

٢٤ إذا عَلِقَتْ حِبالُكَ حَبلَ عاصٍ — رأى العاصِي من الأَجَلِ اقتِرابا

٢٥ بأنَّ السيفَ ليس لهُ مَرَدٌّ — إذا أفْرَى عن الرِّئَةِ الحِجابا

٢٦ كأنَّكَ قد رأيتَ مُقَدَّماتٍ — بِصِينِسْتانَ قد رفَعُوا القِبابا

٢٧ جَعلتَ لكلِّ مُحْتَرَسٍ مَخُوفٍ — صُفُوفاً دارِعينَ بهِ وغابا

* * *

والاختلاط والاشتباه .(١٩) تشد : تحمل على الاعداء . الغمرات ، ج غمرة : الشدة . العقاب : الرايه . (٢٠) اراد بعفاريت العراق الخارجين على بني أمية. (٢١) أقام الحد : نفّذ احكام الشريعة . الكتاب : القرآن الكريم ؛ صور جرير الناقمين على الحجاج بصورة الخارجين على حدود الله المخالفين لقرآنه . (٢٢) في هذا البيت اقتباس لقوله تعالى : «ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لايشعرون». (٢٣) الاشمط : الذي يخالط سواد رأسه بياض . يريد : ورب رجل أشمط الرأس واللحية عصاك ولجّ في ضلاله ضربته بالسيف فكان الدم خضاباً لشيب لحيته . (٢٤) يريد : اذا ظفرت بعاص فقد أيقن هذا العاصي من اقتراب أجله . (٢٥) مَرَدّ : مصرف . أفرى : شق وقطع . (٢٦) مقدمة الجيش بفتح الدال وكسرها : الطائفة المتقدمة منه . صينستان : بلاد الصين . يشير الى ايفاد الحجاج محمد بن القاسم الثقفي لفتح بلاد الصين . (٢٧) المحترس: المكان الذي يحترس منه ويخاف دارعين: لابسين دروعهم او مقيمين في الليل . الغاب : ج غابة ، يريد انه نشر الامن في جميع الربوع .

* * *

دراسة القصيدة

الاقسام والأفكار العامة: الغرض في هذه القصيدة مدح الحجاج ولا نعلم لها مناسبة خاصة، و لم يطرق جرير موضوعه مباشرة بل مهد له بالنسيب، على سنة الشعراء في ذلك العصر وفي العصر الجاهلي، وجرير يلتزم الابتداء بالنسيب في اكثر قصائده وهو يطيل فيه إطالة ملحوظة، ولعلنا كنا نظفر منه بغزل راق لو أنه أتيح له التفرغ لذلك، ويؤيد هذا ماروا، عنه الأصمعي من قوله : « ماعشقت قط، ولو عشقت لنسبت نسيباً تسمعه العجوز فتبكي على مافاتها من شبابها .»، وإذ لم يتح له التفرغ للغزل لانشغاله بمقارعة خصومه وبالمدح ولخلو قلبه من عاطفة الحب فانه صدر به قصائده، وليس في نسيبه هذا معانٍ مستطرفة وانما هو محاكاة للنسيب الشائع في العصر الجاهلي .

ويبدأ القسم الخاص بمدح الحجاج منذ البيت الرابع عشر الى آخر القصيدة وقد وصفه فيه بالحزم والعزم وقوة الشكيمة والدهاء والتشدد في القيام بأحكام الشريعة ونشر الأمن ولم يصفه بالكرم في هذه القصيدة مع ان جريراً يحرص في اكثر أماديحه على وصف ممدوحه بالجود ليهز أريحيته.

العاطفة: نسيب جرير لايصدر عن قلب خفق بعاطفة الحب وذاق مرارة الهجر وألم الصد وإنما هو نسيب متكلف حاكى به النسيب التقليدي في مطالع القصائد، وقد رأينا جريراً يتحدث عن نفسه انه لم يعشق قط .

وليست عاطفته في مدح الحجاج بأصدق من عاطفته في الغزل لأن جريراً كان من هؤلاء الشعراء الذين اتخذوا شعرهم وسيلة للتكسب وللإثراء ونكاد نقول للاستجداء. فلم يكن في مدحه للحجاج والأمويين مدفوعاً بحبه لهم وإيثاره إياهم كالذي نجده في أشعار الخوارج والشيعة من صدق العاطفة وانما كان مدفوعاً بحاجته الى المال، ولهذا لايدهشنا ان نراه ينتصر لابن الزبير في بادىء الامر ثم ينقلب عليه ويهجوه حين يذهب الامر من يده .

الاسلوب اول مايطالعنا في أسلوب جرير سهولة ألفاظه ورقتها وبعدها عن الغرابة، وهي ظاهرة نلاحظها في جميع شعره وبها يختلف عن منافسيه الفرزدق والأخطل اللذين كانت ألفاظهما أميل الى الغرابة والتوعر والخشونة، وقد اوتي جرير موهبة شعرية ثرة وحساً موسيقياً ظهر اثرهما

في هذه الموسيقى العذبة التي تشيع في شعره كله ، وكان له من طبعه الفياض خير معين للاتيان بالتراكيب السهلة التي لاتعقيد فيها ولا التواء ولا مماطلة فكأنك تقرأ نثراً لاشعراً ، ومن هنا نفهم ما اراده القدماء بقولهم : « جرير يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر »، وهذا القول يشير الى ظاهرة اخرى في الشاعرين هي ان جريراً كان اكثر اعتماداً على الطبع من الفرزدق ،وان الفرزدق كان يلقى عناءً شديداً في صنع شعره ، واعتماد جرير على الطبع وانسياقه مع فطرته الشعرية من الامور التي ادت ايضاً الى سهولة شعره وسلاسة أسلوبه ورقة ألفاظه فكان لشعره موسيقى تطرب لها النفس ويهتز لها حس العربي الذي يعجب بجمال الصيغة والشكل ويؤخذ بأناقة التعبير وحلاوة الجرس اكثر مما يؤخذ بعمق الفكرة والغوص على المعاني .

ولهذا أبدع جرير في أبواب الشعر التي تلائمها الرقة والعذوبة كالنسيب والرثاء حتى روي عن الفرزدق قوله :« ويل ابن المراغة ما كان أحوجه مع عفافه الى صلابة شعري واحوجني مع شهواتي الى رقة شعره . . » ، ومن هنا جاءت سيرورة شعره في عامة الناس حتى قالوا : « جرير اشعر عامة والفرزدق اشعر خاصة . . » . على ان انسياق جرير مع الطبع وقلة عنايته بتهذيب شعره وإعادة النظر فيه، كل ذلك جعل حظه من الابتكار والابداع في المعاني ضئيلا لايوازي حظ الفرزدق من ذلك حتى انك لتنظر في بعض ابياته فلا تجد فيها غير صور لفظية جميلة جذابة لايكمن وراءها معنى مبتكر ولا فكرة طريفة ، اقرأ مثلا أبياته الغزلية في هذه القصيدة تجد انها معان مكرورة لاجدة فيها ولا طرافة قد وضعت في قالب لفظي جديد وعرضت عرضاً جديداً ، وفي هذه الصور والقوالب الجديدة تظهر براعة جرير وافتنانه ، اما سعة الخيال وتوليد المعاني وطرافة الافكار فحظ جرير منها دون حظ صاحبه الفرزدق ، والى هذا الامر اشار البحتري حين فضل الفرزدق على جرير لتوليده المعاني مع ان البحتري كان في طريقته تلميذاً لجرير ينحو نحوه في رقة الالفاظ وسلاسة الاسلوب.

ونلاحظ ان جريراً حين اراد الانتقال من النسيب الى مدح الحجاج كان انتقاله مفاجئاً لاتلطف فيه ولابراعة وهو يشعرك بهذه الوثبة بأنه انما جاء بهذا النسيب مسايرة لتقاليد القصيدة الشائعة منذ العصر الجاهلي والتي لم تكن تعترف بوحدة الموضوع في القصيدة ، وكان جرير في اكثر قصائده حريصاً على هذه التقاليد لايحاول الشذوذ عنها .

وقد كان لنشأة جرير البدوية أثرها في شعره كما كان لها أثرها في نفسه ،وقد شارك جرير في هذه النشأة البدوية صاحبيه الفرزدق والاخطل ، الا ان تشابه بيئتهم لم يجعلهم يوقعون نغمات واحدة لان عوامل ومؤثرات أخرى انضمت الى عامل البيئة فباعدت بين أساليبهم واخيلتهم وباينت بين معانيهم

وأغراضهم ، وانت تقف بيسر على اثر النشأة البدوية في أسلوب جرير فهو واضح فيما يبدو لك من جزالة الفاظه مع رقتها وسهولتها ومتانة تراكيبه وبساطة معانيه وبعدها عن التعمق والغلو وبداوة صوره وأخيلته ، وحين ندرس نقائضه سنقف على أثر آخر من آثار هذه النشأة البدوية هو صراحة الالفاظ وعدم التورع من الاتيان بالتعابير المكشوفة السافرة .

الا ان شعر جرير لم يخلص لاثر البادية وحدها فقد كان للقرآن أثره في شعره اذ لطف مافيه من طابع البداوة وكان له اثره في رقة الفاظه وسهولة أسلوبه كما كان له اثره في معانيه وافكاره ، والاثر القرآني واضح في أبياته هذه حين نجده يمدح الحجاج مدحاً اسلامياً خالصاً وحين نجده يستمد أفكاراً اسلامية ويقتبس آيات قرآنية ولا سيما في الابيات ١٤ و ١٦ و ٢٢ .

ولا نرى جريراً يكثر من الصور البيانية في قصيدته هذه ، وكذلك شأنه في اكثر شعره وفي صوره القليلة يظهر كذلك الطابع البدوي وقرب المتناول وجمال التعبير .

نموذج آخر من مدح جرير

من قصيدة له في مدح عبد الملك بن مروان :

١ تعزّت أمُّ حَزْرَةَ ثم قالت : رأيت الواردين ذوي التماحِ

٢ تُعَلِّلُ ، وهي ساغبةٌ ، بَنِيها بأنفاسٍ من الشَّبِمِ القَراحِ

٣ سأمتاحُ البحورَ فجنّبيني أذاةَ اللومِ وانتظري امتياحي

٤ ثقي باللهِ ليس له شريكٌ ومن عندِ الخليفةِ بالنَّجاحِ

٥ أغثني يافِداكَ أبي وأمي بسَيبٍ منكَ ، إنَّكَ ذو ارتياحِ

---

(١) ام حزرة : زوجة جرير . الواردين : القوم يردون الماء . اللقاح ، ج لقوح : الابل .

(٢) ساغبة : جائعة . أنفاس : جرعات . الشبم : البارد صفة للماء . القراح : الخالص من الشوائب .

(٣) امتاح الماء : اغترفه واستماح فلاناً : استعطاه . (٥) السيب : العطاء . الارتياح : الاهتزاز للعطاء

٦ فإنّي قد رأيتُ عليّ حقاً زيارتيَ الخليفةَ وامتداحي

٧ سأشكرُ أنْ رَددت عليّ ريشي وأثبتّ القَوادمَ في جَناحي

٨ ألستُمْ خيرَ من ركِبَ المطايا وأندى العالمين بُطونَ راحِ

* * *

المدح في شعر جرير

يستغرق المدح معظم ديوان جرير واكثر مدائحه في الحجاج وبني أمية وقبيلة قيس المضرية ، وغريب ان يمدح جرير قبيلة قيس على رغم عدائها لتميم قبيلته ، وقدمدحهافي بادئ الامر لمناصرتها ابن الزبير ، وكان شعراء مضر ساخطين على بني أمية لتقريبهم اليمانية ، ثم مدحهم تقرباً من الحجاج القيسي ، وكانوا هم يجزلون له العطاء وفي الحق انه ما كان لجرير من غاية غير التكسب وجمع المال فلم يترفع عن مدح اي شخص أفاض عليه نواله حتى انه مدح الموالي ، وقد حدّث احدهم انه شاهد جريراً والفرزدق في مسجد دمشق والناس عُنُق واحد على جرير : قيس ومَوالي بني أمية ، يسلمون عليه ويسألونه عن سفره وأهله وما يطيف بالفرزدق الانفر من خندف جلوس معه . ذلك ان طمع جرير وجشعه وحبه للمال كانت أقوى من عصبيته القبلية ولم يكن لرهطه من الشرف والرفعة مثل ما لرهط الفرزدق ، ولهذا شغل الفرزدق بالفخر بآبائه وعشيرته وقل اكثر مدائحه في قبيلته وحتى في مدائحه لبني أمية لم ينس الفخر بآبائه وقومه .

فمن العبث اذن ان نتساءل عن مذهب جرير السياسي أهو زبيري أم أموي أم شيعي ؟ فالمذهب الوحيد الذي عرفه جرير هو المال وهو مع الناس ماأجزلوا له العطاء ، فإذا رأيته اليوم زبيرياً رأيته في غد أموياً شديد التعصب لحـــق بني أمية في الخلافة ، لايتوانى عن التعريض باصدقاء الامس وهجائهم ، ومن العبث ايضاً ان نلتمس في مدح جرير العاطفة الصادقة فما كان جرير الا منافقاً كأضرابه من متكسبي الشعراء .

الاريحية . (٧) القوادم : الريشات في مقدم جناح الطائر . شبه جرير نفسه بالطائر الذي فقد ريشه.
(٨) المطايا ، ج مطية : كل مايمتطى من الحيوان كالابل والجياد . الراح ، ج راحة : باطن الكف . والبيت كناية عن شرف الامويين وجودهم ، وهو من خير ماقيل في المدح .

وهو اذا مدح الحجاج او الأمويين بالغ في وصفهم بصفات الشرف وعلو المنزلة والسطوة وقوة البطش ويلح الحاحاً شديداً في وصفهم بالجود والسخاء ليهز أريحيتهم ، وقد يسرف في الاستجداء والضراعة وتصوير مايعانيه من الفاقة والمسغبة كما في ابياته هذه في مدح عبد الملك ،وهو في مديحهم يكثر من الانتفاع بالمعاني الدينية فيجعلهم يستمدون سلطتهم من الله ولولا ذلك لما قيض لهم الظفر على اعدائهم من الخوارج والزبيريين وغيرهم وتكثر في أماديحه لهم الألفاظ الاسلامية والاقتباسات القرآنية . ولا يسعنا الا الاعتراف بان جريراً كان موفقاً كل التوفيق حين صور رفعة منزلة الأمويين وجودهم بقوله :

ألستم خير من ركب المطايا ... وأندى العالمين بطون راح

الرثاء

قال يرثي زوجته خالدة بنت سعد ، أم حزرة :

١ لولا الحياءُ لعادني استعبارُ ... ولزُرْتُ قبرَكِ ، والحبيبُ يُزارُ
٢ ولقد نظرتُ ، وما تمتُّعُ نظرةٍ ، ... في اللحدِ حيثُ تمكّنَ المحفارُ
٣ ولَهِتْ قلبي إذ علتني كَبْرةٌ ... وذوُو التمائِمِ من بنيكِ صِغارُ
٤ فسقى صدى جدثٍ ببُرقةِ ضاحكٍ ... هزِمٌ أجشُّ وديمةٌ مِدرارُ
٥ كانت مُكرَّمةَ العشيرِ ولم يكنْ ... يخشى غوائلَ أُمِّ حزرةَ جارُ

---

(١) عادني : انتابني . الاستعبار : البكاء والحزن . (٢) التمتع : الانتفاع والسرور . اللحد : القبر . (٣) الوله : شدة الحزن . التمائم ، ج تميمة : مايعلق في عنق الصبي من خرز ونحوه دفعاً للعين. (٤) الصدى : جثة الانسان بعد موته . برقة ضاحك : موضع باليمامة . الهزم : صفة للغيث الشديد الراعد . الأجش : الغليظ الصوت . الديمة : المطرة الدائمة . المدرار : الغزيرة السيلان . يدعو لقبرها بالسقيا . (٥) العشير : الزوج . الغوائل ، ج الغائلة : الشر . كانت تكرم زوجها ولاتنال جارها بالشر والأذى .

٦ ولقد أراكِ كُسيتِ أجملَ منظرٍ ومع الجمالِ سكينةٌ ووقارُ
٧ والريحُ طيّبةٌ اذا استقبلتَها، والعِرضُ لا دَنِسٌ ولا خوّارُ
٨ صلّى الملائكةُ الذين تُخيّروا والصالحون عليكِ والأبرارُ
٩ وعليكِ من صلواتِ ربِّكِ كلّما شَبحَ الحجيجُ مُلبّدين وغاروا
١٠ لا تُكثِرنَّ إذا جعلتَ تلومُني، لا يَذهبَنَّ بحلمِك الاكثارُ
١١ كان الخليطُ هم الخليطُ فأصبحوا متبدّلين وبالديارِ ديارُ
١٢ لا يُلبِثُ القُرَناءَ أن يتفرّقوا ليلٌ يكُرُّ عليهمُ ونهارُ

* * *

الرثاء في شعر جرير

ان ما عرف به جرير من رقة العاطفة وإرهاف الحس هيّأه لأن يكون مجيداً في الرثاء إجادته في النسيب، وهو في رثائه لزوجه خالدة وابنه سوادة وذوي قرباه صادق العاطفة، موجع القلب دامع العين. واذا قرأنا مرثيته لزوجته وجدنا انه ينظر الى المرأة نظرة إجلال واكبار وحب ولولا الحياء لبكى زوجته وزار قبرها، الا ان الناس كانوا ينكرون على الرجل ان يذرف الدمع حزناً على امرأته كما كانوا ينكرون عليه زيارته قبرها، فجرير يكاد لشدة حزنه على زوجته ووجده اليها

---

(٦) ولقد اراك: كنت اراك إذ كنت على قيد الحياة. (٧) الريح: ريح فمها. استقبلتها: واجهتها. الخوار: الضعيف، السريع الانقياد. يصف زوجه بطيب النشر وسلامة العرض. (٨) تخيروا: اختيروا. تظهر في هذا البيت والذي يليه عاطفة جرير الدينية. (٩) شبح: رفع يده بالتلبية والدعاء. الحجيج: ج حاج. لبد المحرم رأسه: جعل فيه شيئاً من صمغ ليتلبد شعره. غاروا: نزلوا الغور. (١١) الخليط: الزوج والمخالط المعاشر، والقوم الذين امرهم واحد. تبدلت الديار ومن فيها. (١٢) ألبث فلاناً: جعله يلبث ويقيم، ويلبث: يمهل ويؤخر. القرناء ج قرين: الزوج، والصاحب. يريد: ان كر الليل والنهار لا يؤخر القرناء عن التفرق.

أن يبكيها ويزور قبرها ، وهو لا يرى ان المرأة أهون مفقود على المرء ، صنيع الفرزدق الذي ماتت زوجته فامتنع عن بكائها وقال :

ولست ، وإن عزّت عليّ بزائرٍ ترابا على مرمُوسة قد تضعضعا
وأهونُ مفقودٍ ، اذا الموت ناله ، على المرء من أصحابه من تقنعا

وحين رثى جرير زوجته ابدى تولهه وتفجعه عليها وقد تركت بعدها بنين لها صغاراً ، وهو يدعو لجدثها بالسقيا ويصفها باكرام المشير وعدم إيذاء الجار وحسن المنظر والسكينة والوقار وطيب النشر وصون العرض ثم يدعو لها بان يصلي عليها الملائكة الأخيار والصالحون الأبرار ، ثم يعزّي نفسه بأن الدهر لابد من ان يفرق بين القرينين ولا مفر من الاذعان لحكم القضاء .

وقد نجد لجرير رثاء في بعض خلفاء بني أمية وغيرهم لايوازي رثاءه هذا في صدق العاطفة والتفجع . وأسلوب جرير في رثائه واضح السهولة ، بيّن الرقة ، عذب العبارة ، حلو النغمة ، شأنه في معظم شعره .

مصادر

١ ـ الأغاني للأصفهاني ج ٨ : ٣ و ج ١١ : ٦١ . (دار الكتب) .
٢ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج ١ : ١٠٢ .
٣ ـ نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة ، تحقيق الصاوي . ١٩٣٥ .
٤ ـ نقائض جرير والأخطل لأبي تمام ، نشر الأب انطون الصالحاني ، بيروت ١٩٢٢ .
٥ ـ ديوان جرير ، تحقيق محمد اسماعيل الصاوي .
٦ ـ جرير : جميل سلطان .
٧ ـ ابن سلام : ١٣٩ ، ابن قتيبة : ١٧٩ ، الخزانة ج ٣ : ٣٩٧ .

الفرزدق

(نماذج من فخره ووصفه ونقائضه)

ترجمته

هو ابو فِراس ، همّام بن غالب بن صعصعة وينتهي نسبه الى مجاشع بن دارم فتميم ، والفرزدق لقب غلب عليه لجهامة وجهه . ولد في اواخر خلافة عمر ونشأ في بادية البصرة في بيت من اشرف بيوت تميم وارفعها نسباً ، كان ابوه غالب من اجواد العرب المعدودين واشتهر جده صعصعة بافتداء الموءودات في الجاهلية وفيه قال الفرزدق :

وَجدّي الذي مَنع الوائداتِ وأحيا الوَئيدَ فلم يُوأدِ

فنشأ الفرزدق معتزاً برهطه ، كثير الفخر بقبيلته ، متعصباً لها تعصباً شديداً ، وقد هيأت له رفعة أصله أن يجيد الفخر وأن يبذ جريراً فيه ، كما حملته على عدم الإكثار من مدح الخلفاء والولاة لغلبة الفخر عليه .

لا نعلم الشيء الكثير عن نشأة الفرزدق قبل اتصال الهجاء بينه وبين جرير ، ويظهر ان عبقريته الهجائية وميله الى الشرظهرا فيه مذ كان ناشئاً وقد روي عنه قوله : « كنت أهاجي شعراء قومي وأنا غلام في خلافة عثمان فكان قومي يخشون معرة لساني منذ يومئذ . » وبدأ حياته شأن أهل البادية برعي ماشية أهله . ثم نجده في خلافة علي يفد مع أبيه غالب على عليّ بالبصرة ليسمعه من شعره فيشير عليّ على غالب بأن يعلم ابنه القرآن ويكون لهذا القول اثره في نفس الفرزدق فيؤالي على نفسه ان يقيد نفسه ولا يفك قيده حتى يحفظ القرآن . ونفهم من اتصال غالب بعلي ان آل الفرزدق كانوا ممن يتشيعون لعلي وقد تحدث الرواة عن تشيع الفرزدق وبالغوا في ذلك وما نخاله كان جاداً

في تشيعه هذا وانما كان يشارك اكثر شعراء مضر في عطفهم على آل البيت لما نالهم من اضطهاد وحرمان على يد بني أمية ، وكان كسائر الشعراء المتكسبين لاهم له الا جمع المال عن طريق المديح بيد أن شرف قومه جعله لايسف في مدحه اسفاف جرير .

ثم نجده في زمن معاوية يعرض نفسه لنقمة زياد بن ابيه ، أمير العراق، لتحريضه معاوية ولهجائه بني نهشل وبني فقيم وكلاهما من دارم ، فيضطر الى مغادرة العراق الى الحجاز فيدخل المدينة ويلوذ بأميرها سعيد بن العاص ويمدحه ويفضله على بني أمية ، فلما ولي مروان بن الحكم المدينة أخرجه منها لاشتهاره بشرب الخمر ومعاشرة القيان وكان ساخطاً عليه لتفضيله سعيد بن العاص عليه وعلى بني أمية . ظل الفرزدق بعيداً عن البصرة حتى هلك زياد عام ٥٣ فعاد اليها واتصل بأميرها عبيد الله ابن زياد ومدحه .

ولما انقلب اهل العراق على بني أمية وبايعوا ابن الزبير كان الفرزدق من هؤلاء الشعراء المضريين الذين ناصروا ابن الزبير سخطاً على بني أمية الذين قربوا اليمانية ولكنهم اضطروا آخر الامر الى ممالأة الامويين خوفاً من بطشهم وطمعاً في صلاتهم فنجد الفرزدق يتصل ببشر بن مروان ويمدحه ثم يتصل بالحجاج ويمدحه خوفاً منه ولكنه لم يلق لديه الحظوة التي لقيها جرير عنده ، ولما مات انقلب عليه وهجاه تقربا من سليمان بن عبد الملك ، وقد عرضته سلاطة لسانه للسجن اكثر من مرة ، هجا عمر بن هبيرة والي العراق من قبل يزيد بن عبد الملك فسجنه ثم أطلقه ، وكذلك هجا خالد بن عبد الله القسري والي العراق من قبل هشام بن عبد الملك فسجنه فاضطر الى مدحه وهكذا نجد أن صلة الفرزدق بولاة العراق لم تكن في الغالب صلة مودة وانما كان يهجوهم عصبية منه لمضر او لدوافع أخرى فاذا ظفروا به أو خاف بطشهم مدحهم فاذا ليم على تقلبه هذا قال : « نكون مع الواحد منهم ما كان الله معه ، فاذا تخلى عنه انقلبنا عليه » .

ولم تكن صلته بخلفاء بني أمية خيراً من صلته بولاتهم فكان يمدحهم اتقاء بطشهم ورغبة في نوالهم ولكنه لم ينقطع اليهم انقطاع الاخطل ولم يكن صادق العاطفة في مدحه لهم ، ولذلك لم تكن له كبير منزلة عندهم ، واكثر مدائحه في سليمان بن عبد الملك وقد تغلبه عصبيته لقومه فيفخر بهم عند الخلفاء ويتعرض لسخطهم وغضبهم .

هذه الحياة المضطربة التي عاشها الفرزدق في ظل ولاة بني امية وخلفائهم زاد في اضطرابها امران : فساد حياته الزوجية ومخاصمته لجرير ، فقد تزوج من ابنة عمه النوار على كره منها فنفرت

منه ومازالت به حتى طلقها ، وكان قد تزوج امرأة اخرى اسمها حدراء ، فلما طلقها ندم ندماً شديداً وقال في ذلك :

نَدِمتُ ندامةَ الكُسَعِيِّ لمّا غدت مني مُطَلَّقَةً نَوارُ
وكانت جنّتي فخرجتُ منها كآدمَ حين أخرجه الضِرارُ

ثم ماتت النوار فلم يحسن رثاءها فرثيت بشعر جرير . وأما خصومته لجرير فقد مضى القول في الدافع اليها ، ويجب ان نلفت النظر هنا الى وجوب مراعاة العامل الشخصي في هذه الخصومة فإن كلاً من جرير والفرزدق كانا يتنافسان على زعامة تميم الشعرية ، وكان الفرزدق حين استجار به نساء قومه للرد على جرير قد قيّد نفسه وآلى على نفسه ألاّ يفك قيده حتى يحفظ القرآن ، ففك قيده وبدأ هجاءه للبعيث ولجرير بأبيات يقول فيها :

الا استهزأت مني هُنَيدةُ أن رأتْ أسيراً يداني خطوَهُ حلقُ الحِجْلِ
فإن يكُ قيدي كان نَذْراً نذرتُه فما بي عن أحسابِ قوميَ من شُغُلِ
أنا الضامنُ الراعي عليهم ، وإنما يدافِعُ عن أحسابهم أنا أو مِثلي

ثم اتصل الهجاء بينها ولم ينقطع الا بموت الفرزدق عام ١١٠ هـ ، ونرجح ان التلاحي بينهما قد بدأ منذ خلافة معاوية .

لم تكن صفات الفرزدق الخلقية مما يحمل على الاعجاب به : كان قصيراً ضخماً مجدور الوجه اصلع دميم الهيئة ، وكان خُلقه يشاكل خَلقه دمامة وقبحاً اذ كان فاسقاً ماجناً خليعاً كثيراً مانفاه الولاة بسبب فسقه ولم يكن لثقافته القرآنية اثر قوي في نفسه ، وظل في طبيعته بدوياً معتزاً ببدويته يردد :

وإنا أهل بادية ولسنا بأهل دراهمٍ حضروا القرارا

وهذا الطابع البدوي يظهر جلياً في معاني الفرزدق وخياله وأسلوبه .

* * *

نماذج من شعره

الفخر

١ إنَّ الذي سَمَكَ السماءَ بَنَى لنا ... بيتاً دعائمُه أعزُّ وأطولُ
٢ بيتاً بناه لنا المليكُ، وما بَنَى ... حَكَمُ السماء فإنّه لا يُنْقَلُ
٣ بيتاً زُرارةُ مُحْتَبٍ بفنائه، ... ومُجاشعٌ، وأبو الفوارسِ نَهْشَلُ
٤ يَلِجُونَ بيتَ مُجاشعٍ وإذا احْتَبَوْا ... بَرَزُوا كأنّهُمُ الجبالُ المُثَّلُ
٥ لا يَحْتَبِي بفناء بيتكَ مِثْلُهُمْ ... أبداً إذا عُدَّ الفَعالُ الأفضلُ
٦ مِنْ عِزِّهِمْ جَحَرَتْ كُلَيْبٌ بيتَها ... زَرْباً كأنّهمُ لديه القُمَّلُ
٧ ضَرَبَتْ عليكَ العنكبوتُ بنسجها ... وقَضَى عليكَ به الكتابُ المُنْزَلُ

---

(١) سمك السماء : رفعها . دعائم البيت : العمد التي يقوم عليها . اعز وأطول : اراد أعز وأطول من بيتك . واراد بالبيت هنا شرف النسبة وعلو المنزلة . (٢) المليك : الله ، يريد : ان هذا العز حبانا به الله حاكم السماء ولذلك فهو قائم فينا لا يتحول عنا . (٣) زرارة ومجاشع ونهشل : من اولاد دارم من تميم ، وهم رهط الفرزدق . احتبى : جلس جامعاً بين ظهره وساقيه بعمامة او نحوها ، ذلك لأن الجالس في الخباء او في ظاهره لا يستطيع ان يستند بظهره اليه فيحتبي واحتبى الثوب : اشتمل به . فناء البيت : ساحته . (٤) يلجون : يدخلون . المُثّل : المنتصبة المقيمة ، يشبه قومه بالجبال الراسيات ، ومثّل من الاضداد تكون بمعنى قام وانتصب وبمعنى درس . (٥) الفعال : اسم للفعل الحسن . اراد ان بيته بيت عز وشرف لا يتطاول اليه بيت جرير . والخطاب لجرير . (٦) جحرت : دخلت . الزرب : حفيرة يكمن فيها الصائد ، وموضع الغنم . القُمّل : دويبة تتعلق بالبعير ، وصغير الجراد . مثل لوضاعة قبيلة جرير بقوله انهم يجحرون في زرب كأنهم القمل . (٧) اراد بنسج ←

٨ أينَ الذينَ بِهِمْ تُسامي دارِماً ... أمْ مَنْ إلى سَلَفَيْ طُهَيَّةَ تَجْعَلُ

٩ يَمْشُونَ في حَلَقِ الحَديدِ كَما مَشَتْ ... جُرْبُ الجِمالِ بِها الكُحَيْلُ المُشْعَلُ

١٠ والمانِعُونَ، إذا النِساءُ تَرادَفَتْ ... حَذَرَ السِباءِ، جِمالُها لا تُرْحَلُ

١١ يَحْمي، إذا اخْتُرِطَ السُيوفُ، نِساءَنا ... ضَرْبٌ تَخِرُّ له السَواعِدُ أرْعَلُ

١٢ ومُعَصَّبٍ بالتاجِ يَخْفِقُ فَوْقَهُ ... خِرَقُ المُلوكِ له خَميسٌ جَحْفَلُ

١٣ مَلِكٌ تَسُوقُ له الرِماحَ أكُفُّنا ... مِنْهُ نَعُلُّ صُدُورَهُنَّ ونُنْهِلُ

١٤ قد ماتَ في أسَلاتِنا أو عَضَّهُ ... عَضْبٌ بِرَوْنَقِهِ المُلوكُ تُقَتَّلُ

١٥ وإذا بَذَخْتُ ورايَتي يَمْشي بِها ... سُفيانُ أو عُدُسُ الفَعالِ وجَنْدَلُ

العنكبوت : ذل جرير ورهطه وكونه في بيت مغمور ذليل واهن كنسيج العنكبوت ، وان ذلك من قضاء الله تعالى ، وهو ينظر في هذا الى قوله تعالى : «وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون .» . (٨) تسامي : تفاخر وتباري . السلف : من تقدم من الآباء والأقارب . طهية : امرأة شريفة من دارم . يتحدى جريراً أن يأتيه برجال يفاخر بهم دارماً او يكونون كسلفي طهية عزاً وشرفاً . (٩) حلق الحديد : الدروع . الكحيل : القطران . أشعل الابل بالقطران : كثره عليها . شبه الرجال لعظمهم ولون الحديد عليهم بالجمال المهنوءة بالقطران . (١٠) ترادفت : ركب بعضهن إثر بعض . لاترحل : لايوضع عليها الرحل . يريد : انهم يمنعون نساءهم ويحمونهن وقت الغارة حين تفزع النساء فتركب الجمال عارية من رحالها . (١١) اخترط السيف : استل . تخر : تسقط . ارعل: قاطع والمرعل : السيف الباتر . وضربٌ فاعل يحمي . (١٢) المعصب : المتوج . خرق الملوك : الرايات: الخميس: الجيش الضخم . الجحفل . الكثير الخيل . (١٣) منه : اي من الملك . النهل : اول الشرب والعلل: الشرب مرة ثانية . اراد نطعن صدورهم برماحنا مرة بعد مرة . (١٤) الأسلات: الرماح . العضب : السيف القاطع . رونقه : فرنده ووشيه واراد به حده . قد مات: جواب ومعصب. (١٥) بذخت : فخرت ، وبَذَخ : عظم شأنه وعلا ، وتبذخ : تعظم وتكبر . سفيان : من اشراف مجاشع بن دارم . عُدُس : من اولاد عبد الله بن دارم . جندل : ابن نهشل بن دارم ، بنو دارم

١٦ الأكثرُونَ، إذا يُعَدُّ حَصامُ ... والأكرمُونَ، إذا يُعَدُّ الأوَّلُ
١٧ حُلَلُ المُلوكِ لِباسُنا في أهلِنا، ... والسَّابِغاتُ إلى الوَغى نَتَسَرْبَلُ
١٨ أحلامُنا تَزِنُ الجبالَ رَزانَةً ... وتَخالُنا جِنّاً إذا ما نَجهَلُ
١٩ وأنا ابنُ حنظَلَةَ الأغَرِّ وإنَّني ... في آلِ ضَبَّةَ لَلمُعَمُّ المُخْوَلُ
٢٠ وهُمُ على ابنِ مُزَيْقِياءَ تَنازَلُوا، ... والخَيلُ بين عَجاجَتَيْها القَسْطَلُ
٢١ وهَبَ القَصائِدَ لي النَّوابغُ إذ مَضَوا ... وأبو يَزيدَ وذُو القُروحِ وجَرْوَلُ
٢٢ ولقد وَرِثتُ لآلِ أوسٍ مَنطِقاً ... كالسُّمِّ خالَطَ جانِبَيْهِ الحَنظَلُ
٢٣ إنَّ استِراقَكَ يا جَريرُ قصائدي ... مِثلُ ادِّعاءِ سِوَى أبيكَ تَنَقَّلُ
٢٤ وابنُ المَراغَةِ يدَّعي من دارِمٍ ... والعَبدُ غيرَ أبيه قد يَتَنَحَّلُ

* * *

ستة : عبد الله ومجاشع ونهشل وأبان وجرير ومناف. (٦،) الحصى : العدد . الأول : من الآباء والأجداد او من المساعي والمكارم . يفاخر بكثرة عدد قبيلته وشرفها ورفعتها . (١٧) الحلل ، ج حلة : الثياب . السابغة : صفة الدرع التامة الواسعة . نتسربل : نرتدي . يريد إن لباسهم في قومهم الحرير والديباج ولباسهم في الحرب الدروع السابغة . (١٨) أحلامنا : عقولنا . يريد : نحن في رزانتنا كالجبال فإذا جهلنا وأردنا الشر كنا كالجن خفة وصولة . (١٩) حنظله : من اشراف تميم. الأغر : الشريف العزيز والجميل . آل ضبة : رهط أم الفرزدق . المعم المخول : الكريم الأعمام والأخوال . (٢٠) مزيقياء : لقب عمرو بن عامر احد ملوك اليمن . وابنه الحارث بن مزيقياء ، وقد قتله احد بني ضبة . تنازلوا : تداعوا للقتال والبراز . العجاجتان : الغبار الذي يثيره الجيشان. القسطل : غبار الحرب . وبعد هذا البيت ابيات اخرى فيها اشارة الى وقائع كانت لقوم الفرزدق على القبائل الأخرى ، والاشارة الى أيام العرب كثيرة في شعر الفرزدق . (٢١) النوابغ : اراد بهم النابغة الذبياني والجعدي والشيباني وكلهم شعراء مشهورون. ابو يزيد كنية الشاعر المخبل . ←

دراسة الأبيات

الأقسام والأفكار العامة هذه الأبيات مختارة من نقيضة طويلة للفرزدق تجاوز مائة بيت يهجو فيها جريراً ويفتخر بقومه ونفسه ، والأبيات التي اوردناها تدور حول الفخر ، وقد بدأها بالفخر بقومه ووصف عزهم وشرفهم وعلو منزلتهم وسطوتهم وشجاعتهم وكثرة عددهم ورجاحة عقولهم وبطشهم ، وتحدى جريراً ان يأتي بمثل آبائه وأجداده ، ثم انتقل الى الفخر بشاعريته فجعل نفسه وريثاً لفحول الشعراء المتقدمين ، واخيراً يتهم جريراً بالاغارة على شعره وانه يحاول الانتساب الى دارم والادعاء الى غير أبيه . وهذه الأفكار تتردد كثيراً في فخر الفرزدق .

العاطفة تنم أبيات الفرزدق هذه عن شدة تعصبه لقومه وشدة اعتزازه بهم وفنائه فيهم ، وقد كان بنو دارم جديرين بأن يفاخر بهم الفرزدق ويتطاول بهم على القبائل والشعراء لما عرفوا به من نبل المحتد ورفعة النسب وعلو المنزلة وكرم الخلال ، فحق للفرزدق أن يفاخر بهم وأن ينوه بمآثرهم ومكارمهم . وقد بلغ من شدة تعصب الفرزدق لقومه انه كان ربما اراد مدح الخليفة فلم يجر لسانه الا بالفخر بقومه . وكما تنم هذه الأبيات عن شدة إعجاب الفرزدق بقومه واعتزازه بهم تنم ايضاً عن شدة اعتداده بنفسه وشاعريته فهو يرى انه ليس ثمة شاعر يدانيه وانه شاعر تميم غير مدافع .

ذو القروح : لقب امرىء القيس . جرول : اسم الحطيئة . في هذا البيت وأبيات بعده لم نذكرها يعدد الفرزدق كثيراً من الشعراء المشهورين ليقول انه ورث شعرهم جميعاً . (٢٢) أوس : اوس بن حجر ، الشاعر الجاهلي المشهور . الحنظل : العلقم ، يريد أنه أخذ سلاطة لسانه وحدة هجائه عن أوس بن حجر وآله وهو من بني تميم . (٢٣) يهجو الفرزدق جريراً بهذا البيت فيتهمه بأنه يغير على شعره ويسترق معانيه وانه يحاول ان يتملص من الانتساب الى أبيه لضعته ودناءة أصله . (٢٤) المراغة : الأتان ، وابن المراغة : لقب ألصقه الفرزدق بجرير كما ألصق جرير بالفرزدق لقب ابن القين . يدعي : ينتسب . يتنحل : يدعي . يريد انك تحاول ان تنتسب الى دارم لشرفها وعزها وقد يدعي العبد الى غير ابيه لضعته .

الأسلوب لم يكن للاسلام والقرآن اثرهما العميق لا في حياة الفرزدق العملية ولا في نفسه ولا في شعره ، كان في حياته خليعاً ماجناً لاهم له الا السعي وراء شهواته ، وكانت طبيعته بدوية خشنة جافية ولم تكن له نفس جرير ولا رقة عاطفته ولادقة حسه فكأنما خلصت نفسه لأثر البادية وحدها ، وكان أسلوبه في شعره صدى لطبيعته الجافية المتبدية وانعكاساً لها فاستأثرت به الجزالة والقوة وغرابة الألفاظ وخشونتها وبداوة الصور ، وغلبت هذه الطوابع على شعره عامة حتى على الغزل الذي تلائمه الرقة والعذوبة فإذا اراد الفرزدق النسيب قال نحو قوله :

فياليتنا كنّا بَعيرين لا نُرى على منهلٍ إلا نُشَلُّ ونُقذَفُ

كلانا به عَرٌّ يُخافُ قِرافُه على الناس، مَطليُّ المَشاعرِ أخشَفُ

وحسبنا ان نقرأ أبيات الفرزدق التي ندرسها لنقف على خشونة ألفاظه وجزالة أسلوبه ومتانة شعره وبداوة صوره ، وهل هناك صور اكثر ايغالاً في البداوة من تشبيه قومه بالجبال الماثلة ، وتشبيه رهط جرير بالقمّل ، وتشبيه بني دارم وقد تسربلوا بالدروع بالجمال الجرب المهنوءة بالقطران ، وتشبيه سلاطة لسانه بالسم المشوب بالحنظل .

الا ان الاسلام إن لم يكن له أثره لا في نفس الفرزدق ولا في أسلوبه فقد كان له اثره الواضح في معانيه ، وقد وجدنا الفرزدق يستهل حياته بحفظ القرآن وكان ، فيما روي لنا ، ممن عرفوا برواية الحديث ، فلا جرم يستمد من القرآن كثيراً من معانيه وأخيلته وقصصه ، تسعفه على هذا حافظة قوية وبديهة حاضرة فكثرت في شعره الألفاظ القرآنية والإشارة الى القصص القرآني وأخبار الرسل السابقين والحديث عن الآخرة والجنة والنار والجن والملائكة وتصرف بهذه المعاني تصرفاً غريباً وله قصيدة ميمية يخاطب فيها إبليس ويهجوه منها قوله :

أطعتك يا إبليسُ سبعين حجةً فلما انتهى شيبي وتم تمامي

فررتُ الى ربي وأيقنت أنني مُلاقٍ لأيام المنونِ حِمامي

ومن آثار ثقافته الاسلامية في الأبيات التي ندرسها قوله في البيتين الأول والثاني ان الله هو الذي بنى لقومه بيت العز والشرف والسؤدد ، ومخاطبته جريراً في البيت السابع مشبهاً وضاعة بيته ووهنه بنسج العنكبوت .

وأمر آخر اتصف به أسلوب الفرزدق هو انه كان صورة لأساليب الفصحاء من شعراء الجاهلية في فصاحته وجزالته وغرابة ألفاظه وسعة مفرداته حتى قالوا : « لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث

لغة العرب » ورووا عن ابي عمرو بن العلاء قوله : « لم أر بدوياً أقام في الحضر إلا فسد لسانه غير الفرزدق ورؤبة . »

ولم تكن سليقة الفرزدق الشعرية مطواعاً له سريعة الاستجابة والانقياد كسليقة جرير بل كان يلقى عناءً شديداً في نظم شعره حتى رووا عنه قوله : « انا عند الناس اشعر الناس ، وربما مرت علي ساعة ونزع ضرس أهون علي من أن أقول بيتاً واحداً . » وهذا يفسر لنا قولهم إن جريراً يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر ، ولميل الفرزدق الى اطالة النظر في شعره شبهه بعض القدماء بزهير بن ابي سلمى ، إلا أن عنايته بشعره هذه لم تحل دون فشو المعاظلة والتعقيد والخروج على قواعد النحاة في كثير من اشعاره فإذا انتقده ارباب اللغة والنحو أجابهم : « علي أن أقول وعليكم ان تحتجوا . » وكان ربما هجا بعض النحاة لانتقادهم اياه ، ومن أمثلة تعقيده قوله يمدح خال هشام بن عبد الملك :

وما مثله في الناس إلا مُملَّكاً ‏ ‏ أبو أمه حي أبوه يقاربه

اراد : وما مثله في الناس حي يقاربه الا مملكاً ، ابو أمه أبوه . ونحو هذا كثير في شعره . ولم يعرف الفرزدق بسعة مادته اللغويه فحسب بل عرف ايضاً بسعة اطلاعه على أيام العرب واخبارها ووقائعها حتى قالوا : « لولا الفرزدق لضاع نصف اخبار الناس . » وحسبك ان تقرأ بعض نقائضه لتقف على معرفته الواسعة بأيام العرب ووقائعهم حتى يكاد يكون شعره سجلا تاريخياً لها ، وقد اكتفينا في هذه القصيدة ببيت واحد اشار فيه الى مقتل ابن مزيقياء :

وهم على ابن مزيقياء تنازلوا ‏ ‏ والخيل بين عجاجتيها القسطل

وفي اصل القصيدة بعده عدة ابيات يشير فيها الى وقائع اخرى .

والفرزدق ، لئن فاته رقة جرير وسلاسة طبعه وعذوبة شعره فقد بذ صاحبه بخصب مخيلته وقدرته على الابتكار والتوليد ، ويظهر خصب خياله في افتنانه في هجاء جرير واتيانه بالمعاني المبتكرة في ذلك في حين نجد معاني جرير محدودة مكرورة ، ولكن سهولة اسلوب جرير جعلت شعره اكثر سيرورة من شعر الفرزدق المعقد ، وظهر خصب مخيلة الفرزدق في امر آخر هو القصص الغزلي الذي جارى فيه قصص امرىء القيس وعمر بن ابي ربيعة .

نموذج آخر من فخره

١ وقد علم الجيران أن قدورنا ... ضوامن للأرزاق والريح زفزف

٢ نعجل للضيفان في المحل بالقرى ... قدوراً بمعبوط تمد وتغرف

٣ ترى حولهن المعتفين كأنهم ... على صنم، في الجاهلية، عكف

٤ وجدنا أعز الناس أكثرهم حصى ... وأكرمهم من بالمكارم يعرف

٥ وكلتاهما فينا الى حيث تلتقي ... عصائب لاقى بينهن المعرف

٦ وبالله لولا أن تقولوا: تكاثرت ... علينا تميم ظالمين وأسرفوا

٧ لما تركت كف تشير بأصبع ... ولا تركت عين على الأرض تطرف

٨ لنا حيث آفاق البرية تلتقي ... عديد الحصى والقسوري المخندف

٩ إذا هبط الناس المحصب من منى ... عشية يوم النحر من حيث عرفوا

١٠ ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا، ... وإن نحن أومأنا الى الناس وقفوا

* * *

الفخر في شعر الفرزدق

لم يبرع الفرزدق في فن من الشعر براعته في الفخر ذلك لأن شرف آبائه وأجداده قد مهد له سبيل القول ففاخر بهم وتطاول بهم على جرير وتحداه أن يأتيه بمثل آبائه وقومه:

---

(١) الزفزف: الريح الشديدة الهبوب. (٢) المعبوط: المذبوح من غير علة. تمد: تملأ كلما نفد مافيها. (٣) المعتفي: طالب المعروف. عكف على الشيء: احاط به ولازمه. (٤) الحصى: العدد. (٥) عصائب: جماعات. المعرف: موقف عرفات. (٨) البرية: الناس. القسوري: الرئيس العظيم. المخندف: المنتسب الى خندف. (٩) المحصب: موضع رمي الجمار بمنى، ومنى بليدة قرب مكة يقصدها الحجاج يوم النحر لرمي الجمار. (١٠) أومأنا: أشرنا.

اولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا ياجرير المجامعُ
فيا عجبـا حتى كليب تسبني كأن أباها نهشل أو مجاشعُ

وأنى لجرير أن يجاريه في الفخر وقومه على ما رأينا من الضعة والدناءة والفقر . واذ كانت غاية الفرزدق في فخره الاستعلاء على جرير كان فخره ممزجاً في الغالب بهجاء جرير ورهطـه ، فاذا فخر بقومه نسب اليهم كل مكرمة عرفت بها تميم واذا هجا جريراً ألصق به وبقومـه كل مخزية وصمت بها تميم .

وفي فخره بقومه يصفهم بالمكارم التي كان العرب يفاخرون بها ككثرة العدد ، وحماية الجار، والبأس في القتال ، وشرف المنزلة ، وقرى الضيف ، ونباهة الذكر ، ورجاحة الاحلام ، ثم يعدد آباءه ويذكر مآثر كل منهم ، فجده صعصعة محيي الموءودات ، وابوه غالب موقد النيران يوم الريح، وخاله حبيش ذو الفعال الافضل ، وهو اذا ذكر مآثر اجداده عدد وقائعهم التي انتصروا فيها في الجاهلية والاسلام واستغل الاحداث التي شاركت فيها تميم كاستغلاله حادثة مقتل قتيبـة بن مسلم القيسي بخراسان على يد احد بني تميم فقال في ذلك قصيدة من اشهر نقائضه فخر فيها بتميم وهجـا جريراً وقبيلة قيس التي كان جرير يدافع عنها . بل ان الفرزدق يستغل بعض الحوادث التي هجاه بها خصمه جرير فيجيد الاعتذار لها ويحولها الى فخر ، فحين عجز عن قتل الاسير الرومي الذي دفع اليه قال :

ولا نقتل الاسرى ولكن نفكُّهم إذا أثقل الاعناق حمل المغارم

وقد رأينـا ان الفخر قد غلب على الفرزدق حتى حين يقصد مدح الخلفاء ، بل انه كثيراً ما كان يصدر به قصائده بدلاً من النسيب .

ولا يفخر الفرزدق بقومه فحسب بل يفخر ايضاً بنفسه فينسب اليها كل المكارم والمفاخر فهو الكريم الشجاع النبيل حتى يرى ان الندى يموت بموته :

إذا متُّ فابكيني بما أنا أهلُه فكلُّ جميلٍ قلتِ فيَّ يُصدَّقُ
وكم قائلٍ :مات الفرزدقُ والندى وقائلة : مات الندى والفرزدق

وهو يفخر بشاعريته خاصة ويرى انه وريث جميع الشعراء الفحول . والطابع الغالب على فخره طابع المبالغة والاعتداد واستعمال الالفاظ الفخمة التي تملأ الفم وتقرع السمع .

قال يصف سفينة :

١ وراحلةٍ قد عوّدوني ركوبَها | وما كنتُ ركّاباً لها حين تُرحَلُ
٢ قوائمُها أيدي الرجالِ اذا انتحَتْ | وتَحملُ من فيها قُعوداً وتُحمَلُ
٣ إذا ما تَلَقّتْها الأواذيُّ شقّها | لها جُؤجُؤٌ لا يَستريحُ وكَلْكَلُ
٤ إذا رفعُوا فيها الشِراعَ كأنّها | قَلُوصُ نَعامٍ أو ظَليمٌ شَمَرْدَلُ

وقال يصف اسداً :

٥ وَرْدُ الشَّراةِ ترى سُودًا ملاغمُه | مُجاهِرُ القِرْنِ لا يَكتَنُّ بالخَمَرِ
٦ كأنّ عينيه، والظلماءُ مُسْدِفَةٌ، | على فَريسَتِه ناران في حَجَرِ

(١) الراحلة : النجيب من الابل . رحل البعير : شدّ عليه الرحل ، شبه السفينة بالناقة .
(٢) قوائم الناقة : يداها ورجلاها . انتحت : اتجهت وقصدت . يريد : ان هذه السفينة تشبه الناقة الا ان قوائمها ايدي الرجال لأنها هي التي تدفعها للمسير ، وهي تحمل من فيها قاعدين والماء يحملها .
(٣) الأواذي ، ج آذيّ : الأمواج . الجؤجؤ : صدر السفينة . الكلكل : صدر الناقة استعاره لصدر السفينة . (٤) قلوص النعام : أنثاه . الظليم : ذكر النعام . الشمردل : الفتيّ السريع . شبه السفينة اذا رفع فيها الشراع بالنعام . (٥) الورد : الأسد . الشَّراة : سلسلة جبال تمتد في غرب جزيرة العرب وتفصل الحجاز عن تهامة والسَّراة ، ج الساري : الأسد ، والمشهور نسبة الأسود الى الشَّرى ، وهو جبل كثير الأسود . الملاغم ، ج مَلغم : ماحول الفم . القرن : النظير في الشجاعة . اكتنّ : استتر واختبأ . الخَمَر : الشجر المتكاثف يستتر به . يصف الفرزدق هذا الأسد بسواد الملاغم وانه يبرز لأقرانه مجاهرة لا يستتر بالآجام والخمر . (٦) أسدف الليل : أظلم . ←

٧ كأنَّ عطارةً باتت نَمِلُ له بالزعفران ذراعي مُخدرٍ هَصِرِ

وقال في جيش :

٨ وجيشٍ ربعناه كأنّ زهاءه شماريخُ طودٍ مُشمخرٍ مخارمُه
٩ كثير الحصى، جمّ الوغى، بالغ العدا يُصمّ السميع رِزُّه وهماهِمُه
١٠ لُهامٍ، تظلُّ الطيرُ تؤخذ وسطه، تُقادُ إلى أرض العدوِّ سواهمُه
١١ إذا ما غدا من منزلٍ سهّلت له سنابكَه صُمّ الصُّوى ومناسِمُه

* * *

الوصف في شعر الفرزدق

لم يقف الفرزدق قصائد للوصف خاصة وانما كان يأتي به في ثنايا قصائد المدح والفخر والهجاء لأن الوصف لم يكن في عهده من أغراض الشعر الأصيلة ، وتظهر في الوصف سمة خيال الفرزدق

وأسدفت المرأة القناع : أرسلته . يشبه اتقاد عيني الأسد في الظلام وهو ينظر الى فريسته بشرارتين تقدحان بالحجر. (٧) علّ الثوب : أعاد صبغه . أخدر الأسد : لزم الأجمة والخِدر : أجمة الأسد، والخدر ، بكسر الدال وفتحها : الأسد . الهَصِر : صفة للأسد لكثرة اهتصاره الفرائس . وصف قوائم الأسد كأنما صبغت بالزعفران لاصفرار لونها .

(٨) ربع الجيش: اخذ منه ربع الغنيمة، والمكان : نزل به . الزهاء : الطول ، والمقدار . الشماريخ، ج شمراخ : رأس الجبل . الطود : الجبل العظيم . المشمخر : العالي ، المرتفع . المخارم ، مَخْرِم : الطريق في الجبل . (٩) الحصى : العدد . الوغى : الصوت والجلبة واختلاط الأصوات في الحرب. العدا : اسم جمع للأعداء . الرز : الصوت تسمعه من بعيد . الهمهمة : الصوت الخفيّ غير الواضح . (١٠) اللهام : الجيش العظيم . السواهم : العوابس ، اراد بها الخيل . (١١) السنابك ، ج سُنبُك : مقدم حافر الجواد . الصم : الصلبة . الصُّوى ، ج صُوّة : ما غلظ وارتفع من الأرض . والصوى ايضاً : الأحجار تنصب ليستدل بها على الطريق . المناسم ، ج مَنسِم ، وهو للبعير كالسنبك للفرس.

ودقة ملاحظته وبراعة تصويره ألا أنه لايخرج في تشابيهه واستعاراته عن مألوف التشابيه والاستعارات في عصره ، ويظهر في صوره بجلاء الطـــابع البدوي الذي يتسم به جميع شعره فهو يجري على نهج أسلافه في تشبيه السفينة بالناقة والنعامة ، وتشبيه عيني الأسد بالشرر يقدحه الزناد وتشبيـه الجيش بالجبل المشمخر ، الى آخر هذه التشابيه . وصوره ، كما ترى ، كلها مادية منتزعة مما يقع عليه الحس. ولايفارق الفرزدق في وصفه ماعرف به من غرابة الألفاظ وجزالة الأسلوب ومتانة التعابير .

* * *

مصادر

١ ـ الأغاني للأصفهاني ، ج ١٩ : ٣ (بولاق) واجزاء اخرى .

٢ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج ٢ : ١٩٦ .

٣ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص : ١٨٣.

٤ ـ طبقات الشعراء لابن سلام ، ص : ١٢٠ .

٥ ـ خزانة الأدب للبغدادي ، ج ١ : ٢٠٢ .

٦ ـ الفرزدق : خليل مردم بك .

٧ ـ ديوان الفرزدق . تحقيق بوشيه Boucher .

٨ ـ نقائض جرير والفرزدق لأبي عبيدة ، شرح الصاوي .

٩ ـ تاريخ النقائض : احمد الشايب.

* * *

الأخطل

(نماذج من مدحه ووصفه ونقائضه)

ترجمة

هو غياث بن غوث التغلبي الربعي ، والأخطل لقب غلب عليه لسفاهته . كانت قبيلة تغلب قبيلة نصرانية منيعة الجانب ، كثيرة العدد ، تنزل بأراضي الجزيرة الخصبة حول الفرات ودجلة ، مجاورة بلاد الروم النصرانية . ولما قامت الفتوح الاسلامية أبت قبيلة تغلب اعتناق الاسلام في عهد عمر ورضيت بالجزية . في هذه البيئة نشأ الأخطل نشأة بدوية خالصة ، وظهر فيه مبكراً ميله الى القريض والهجاء خاصة ، فهاجى ، وهو يومئذ غلام يقرزم ، شاعر قومه كعب بن جعيل وأخمله .

ولما آنس من نفسه اقتداراً على الشعر الجيد وضع عبقريته الشعرية في خدمة البلاط الأموي فاستعان به يزيد ، زمن أبيه معاوية . على هجاء الأنصار رداً على تشبيب عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري برملة بنت معاوية ، وكان معاوية يصطنع الأنصار ويقرب اليه زعماءهم فلم يجرؤ على هجائهم غير الأخطل النصراني فقال فيهم قصيدته المشهورة التي منها قوله :

خلّوا المكارم ، لستم من أهلها   وخذوا مساحِيَكم بني النجّار

ذهبتْ قريشٌ بالمكارم كلها   واللؤم تحت عمائم الأنصار

فثار الأنصار لهذا الهجاء وشكا شاعرهم النعمان بن بشير الأخطل الى معاوية فوعده بقطع لسانه ولكن يزيد حال دون ذلك ، ومنذ ذلك الحين أصبح الأخطل مقرباً الى بني أمية ، نديماً ليزيد بن معاوية يحضر مجالس لهوه وشرابه وينشده أماديحه فيه وربما عرض عليه أكل الخنانيص حتى اذا مات سنة ٦٤ رثاه بأبيات تكاد تكون كل ماضمه ديوان الأخطل من شعر الرثاء .

وعقب وفاة يزيد اضطرب امر الخلافة الاموية وكثر المطالبون بالخلافة ومالت قبيلة قيس الى جانب ابن الزبير لانها كانت ساخطة على يزيد الذي قرب اليمانية أصهاره ، ومالت اليمانية وأهل الشام الى بني أمية وبايعوا مروان بن الحكم ، وجرت بين الطرفين موقعة مرج راهط التي انتصر فيها الامويون وشتتوا شمل القيسية ، فالجأت قبيلة قيس مع زعيمها زفر بن الحارث الى قرقيسيا (وهي بلد على الخابور) واستقرت فيها مجاورة لبني تغلب المقيمين بين الخابور والفرات ودجلة فاستقبل التغلبيون قبيلة قيس استقبالاً حسناً اول الامر ، وأعانوهم في الاغارة على منازل بني كلب اليمانيين الذين زاحموا التغلبيين على أراضيهم ، ولكن قبيلة قيس مالبثت ان زاحمت تغلب على أرضها مما أثار سخطها ونقمتها وكان ذلك سبب نشوب الحرب بين قيس وتغلب ، واتصلت الوقائع بينهما وكان النصر فيها حليف قيس في الغالب ، وفي بعض هذه المواقع قتل ابو الاخطل وأسر الاخطل نفسه ثم أطلق سراحه لانهم ظنوه عبداً . وكان الامويون يقفون من هذه الحرب موقف المتفرج الشامت حتى اذا أيقن عبد الملك من زوال خطر القيسية أمر الوليد ابنه فأصلح بين القبيلتين واحتمل ديات القتلى . كانت لهذه الاحداث آثارها الواضحة في شعر الاخطل وفي نقمته على قيس وعلى جرير المدافع عنها ، وكان ذلك مما حمل الاخطل على الوقوف في صف الفرزدق ضد جرير ففضله عليه في مجلس بشر بن مروان وبدأت بذلك معركة الهجاء بينه وبين جرير ، على ماقدمناه في ترجمتنا لجرير ، ولم تخمد نار الحرب بينهما الا بموت الاخطل .

وفي زمن عبد الملك بن مروان تشتد صلة الاخطل ببني أمية وينقطع اليهم ويمدحهم المدائح الغر يفضلهم فيها على القبائل كافة ويجعلهم اجدر الناس بالخلافة ، ويعرف عبد الملك للاخطل قدره فيجزل له العطاء ويفضله على الشعراء ويذيع في الناس انه شاعر بني أمية ويغتفر له تطاوله عليه ، فكان ربما استنشده فيطلب إليه أن يسقيه الخمر فيغضب عبد الملك او يتظاهر بالغضب ويحتمل منه هذا التطاول لحاجته اليه في الدعاوة لبني أمية وهجاء خصومها ، ويدلك على ما بلغه الاخطل من المنزلة عند بني أمية ما أجاب به ابو عمرو رجلاً أبدى عجبه من هجاء الاخطل النصراني للمسلمين اذ قال له : « يا لكع ، لقد كان الاخطل يجيء وعليه جبة خز وحرز خز، في عنقه سلسلة ذهب فيها صليب ذهب ، تنفض لحيته خمراً حتى يدخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن » ، وبلغ من تطاوله على عبد الملك انه كان كثيراً مايدخل عليه وقد اخذ منه السكر كل مأخذ فينشده شعراً يعرّض فيه بالاسلام ويجاهر بشرب الخمر ، وهل ثمة تطاول اكثر من اجترائه على مخاطبة عبد الملك بقوله :

اذا ماندیمي علّني ثم علّني ثلاث زجاجات لهنّ هدير
خرجتُ أجرُّ الذيل تيهاً كأنني عليكَ ، أمير المؤمنين ، أمير

ولم ينس الاخطل ، وقد أصبح شاعر الامويين ، عصبيته القبلية وعداونه لقبيلة قيس فاذا رأى تقريب عبد الملك لزفر بن الحارث زعيم قيس دخل عليه وذكره بقول زفر :

فقد ينبتُ المرعى على دِمَنِ الثرى وتبقى حزازات الصدور كما هيا

فما كان من عبد الملك الا ان ضرب صدر زفر برجله ضربة أوقعته عن السرير وقال : « اذهب الله حزازات تلك الصدور . » ، فكان زفر يقول : « ما أيقنت بالموت قط إلا تلك الساعة حين قال الاخطل ماقال . »

ويظهر ان عبد الملك حاول اكثر من مرة ترغيب الاخطل باعتناق الاسلام بزيادة عطائه ألا أن الاخطل كان يعتذر ويتخلص بلباقة زاعماً انه لايستطيع الامتناع عن شرب الخمر ،ولايفهمن من هذا أن الاخطل كان قوي العقيدة ، شديد التمسك بفروضه الدينية،فما كان الاخطل الابدوياً يتقبل الدين تقبلا سطحياً ، شأن أهل البادية ، ويضيق بما عليه عليه هذا الدين من فروض وواجبات فكان كثيراً مايلقى من رجال الدين التعنيف والسجن والضرب لتهاونه في اداء فروضه وهجائه الناس ، روى احدهم انه شاهد الاخطل بالجزيرة ، وقد شكي الى القس وقد أخذ بلحيته وضربه بعصاه وهو يصئي كما يصئي الفرخ ، فقلت له : اين هذا مما كنت فيه بالكوفة ؟ فقال : يا ابن اخي اذا جاء الدين ذللنا . » ، ويدلك على استخفافه بعقيدته ماروي عنه ان اسقفاً مر به ، وكانت امرأته حاملاً ، فقال لها : الحقيه فتمسحي به ، فعدت فلم تلحق الا ذنب حماره فتمسحت به ورجعت.فقال لها : هو وذنب حماره سواء . وقد اشار لامنس في كتابه عن الاخطل الى تهافت عقيدته ورقة دينه.

ظل الاخطل متصلا ببني امية بعد وفاة عبد الملك فاتصل بأخيه الوليد ومدحه . وفي عهده اتصل بعمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك ثم مات في اواخر خلافة الوليد ، قبيل عام ٩٦هـ .

* * *

نماذج من شعره

المدح السياسي

قال يمدح عبد الملك بن مروان :

١ خَفَّ القَطِينُ فراحوا منكَ أو بَكَرُوا ... وأزعجَتْهم نَوىً في صَرْفِها غِيَرُ
٢ كأنّني شاربٌ ، يومَ استُبِدَّ بهم ، ... من قَرْقَفٍ ضُمِّنَتْها حِمصُ أو جَدَرُ
٣ حتّى إذا هنّ وَرَّكْنَ القَصِيمَ ، وقد ... أشْرَفْنَ أو قُلْنَ : هذا الخَنْدَقُ الحَفَرُ
٤ وَقَعْنَ أُصْلاً وعُجْنا من نَجائِبِنا ، ... وقد تُحُيِّنَ من ذي حاجةٍ سَفَرُ
٥ الى امرىءٍ لا تُعَدِّينا نوافِلُهُ ، ... أظْفَرَهُ اللهُ ، فلْيَهْنِئْ له الظَّفَرُ

---

(١) خف القوم : ارتحلوا مسرعين . القاطن : أهل الدار ، القوم القاطنون . راحوا : ذهبوا مساءً . بكروا : ذهبوا بكرة . أزعجتهم : حملتهم على الرحيل . النوى : التحول من مكان الى آخر ، والوجه الذي ينويه المسافر . الصرف : احداث الدهر وتقلباته . غير الدهر : احداثه المغيرة . يخاطب الشاعر نفسه بقوله : لقد ارتحل أهل الحي عنك عشية او غدوة ، وقد حملتهم على النزوح تقلبات الدهر واحداثه التي تنقل الناس من حال الى حال . (٢) استبد بالامر : تفرّد به وغلب عليه . القرقف : الخمر . ضمنتها : احتوت عليها . جدر : قرية بين حمص وسلمية اشتهرت بالخمر . يشبه نفسه يوم رحيل القوم بشارب الخمر القرقف التي تأخذ الجسم منها رعدة . (٣) ورّكن : جاوزن . القصيم : اسم موضع بين اليمامة والبصرة ، او هو الرمال التي تنبت الغضى . الخندق : اراد به خندق سابور ببادية الكوفة . الحفر : كل ما حفر كالخندق والبئر . (٤) وقعن : نزلن . أصلا : عند الاصيل . عجنا : عطفنا وأملنا . النجائب ، ج نجيبة : الناقة الكريمة . تحين : حان وقرب . (٥) لا تعدّينا : لا تغيب عنا . النوافل : العطايا . فليهنئ له : فليسره ، يقال : هنأ الطعام لفلان يهنئه ، بتثليث النون ، اذا صار هنيئاً له وساغ . ←

٦ الخائضُ الغَمْرَةِ ،الميمُونُ طائِرُهُ ، خليفةُ اللهِ ، يُستَسقَى به المطَرُ

٧ والهَمُّ بعدَ نَجِيِّ النفسِ ، يَبعثُه بالحَزمِ ،والأصمعانِ :القلبُ والحَذَرُ

٨ والمُستَمِرُّ به أمرُ الجَميعِ فما يَغترُّه ،بعدَ توكيدٍ له ، غَرَرُ

٩ وما الفُراتُ إذا جاشَت حَوالبُه ، في حافَتَيْهِ وفي أوساطِهِ العُشَرُ

١٠ وذَعذَعَتْه رِياحُ الصيفِ واضطربَتْ فوقَ الجآجِيء من آذيِّه غُدُرُ

١١ مُسْحَنفِرٌ من جبالِ الرُّومِ يَستُرُه منها أكافيفُ ، فيها دُونَه زَوَرُ

١٢ يوماً بأجودَ منه حينَ تَسألُه ، ولا بأجْهَرَ منهُ حينَ يُجْتَهَرُ

انتقل الشاعر في هذا البيت الى مدح عبد الملك بن مروان فوصفه بالكرم ودعاله بالظفر . (٦) الغمرة : الشدة . والخائض خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو . الميمون : المبارك ، وميمون الطائر : مبارك الطلعة يستسقى به المطر : اذا دعا الناس الله به انزل لهم المطر ليمنه وبركته . (٧) الهم : مصدر هم بالشيء هماً اذا اراده وعزم عليه وقصده . النجي : من تساره وتناجيه ، والسر . الاصمع : الذكي المتوقد والاصمعان عند العرب القلب الذكي والرأي الحازم . يريد : اذا هم بأمر حدثته به نفسه فانه يمضي لتحقيقه مؤيداً بالحزم والقلب والحذر . (٨) المستمر : المتصل او القوي من المرة وهي القوة . اغتره : طلب غرته وأتاه على حين غفلة . الغرر : التعريض للهلكة . يريد : ان امر الناس جميعاً قوي به فاذا وكد امراً وأوثقه أصبح في مأمن من أن ينال على غرة . (٩) الحوالب : الأمواج . العشر ج عُشرة : ضرب من الشجر . (١٠) ذعذعته : حركته بقوة . الجآجيء ، ج جؤجؤ : صدر السفينة الآذي : الموج . (١١) المسحنفر : السريع الجريان . اكافيف ، ج كُفة : من كل شيء جانبه وحرفه . الزور : الميل . (١٢) اجتهره : نظر اليه وعظم في عينه وراعه جماله وهيئته ، والجهر : هيئة الرجل وحسن منظره ، والأجهر : الجميل المنظر ، شبه الأخطل في هذه الأبيات الأربعة عبد الملك بالفرات في كرمه وروعة منظره ، فقال : ان الفرات اذا اضطربت أمواجه وانتشرت العشر في حافتيه وفي أوساطه ، وحركته رياح الصيف حتى غمرت امواجه صدور السفن كأنها الغدران ، وأسرع في انحداره من جبال الروم ـ لأن الفرات ينبع في بلاد الروم ـ تحفه جوانبها وأطرافها المائلة عليه ، هذا الفرات ليس بأجود من عبد الملك ولا أروع منه منظراً . وهذا الوصف بذكرنا

١٣ في نَبْعَةٍ من قُرَيشٍ ، يَعصِبُونَ بها، ما إن يُوازَى بأعلى نَبْتِها الشَّجَرُ
١٤ تَعلُو الهِضابَ ،وحلّوا في أرُومَتِها، أهلُ الرِّياءِ وأهلُ الفخرِ إن فَخَرُوا
١٥ حُشْدٌ على الحقِّ،عيّافُو الخَنا،أُنُفٌ إذا ألَمَّتْ بهمْ مَكرُوهَةٌ صَبَروا
١٦ وإن تَدَجَّتْ على الآفاقِ مُظْلِمَةٌ كانَ لهم مَخْرَجٌ منها ومُعتَصَرُ
١٧ أعطاهُمُ اللهُ جَدًّا يُنْصَرُونَ به، لاجَدَّ إلاّ صَغيرٌ ، بَعْدُ ، مُحتَقَرُ
١٨ لم يأشَرُوا فيه،إذ كانوا مَوالِيَهُ، ولو يَكونُ لقومٍ غيرِهم أشِرُوا
١٩ شُمسُ العَداوَةِ حتّى يُستَقادَ لهم، وأعظَمُ النّاسِ أحلاماً إذا قَدَرُوا
٢٠ لا يَستَقِلُّ ذوو الأضغانِ حربَهُمُ، ولا يُبَيَّنُ في عِيدانِهم خَوَرُ

يوصف النابغة للفرات . (١٣) النبع : شجر صلب تتخذ منه القسي . يعصبون بها : يلتفون حولها ويلازمونها . يوازى : يساوى . اراد : ان الخليفة ينتمي الى اشرف حي من قريش لايوازى به حي آخر وكل قريش تلتف حوله ، واستعار النبع العالي لعلو المنزلة وشرف النسبة . (١٤) تعلو : اي النبعة . الأرومة : أصل الشجرة ، استعارها للدلالة على شرفهم ورفعة نسبهم . الرياء : الرفعة والشرف او الخير . (١٥) حشد : مخفف حُشُد ج ، حاشد : من يستفرغ جهده في نصرة الناس وإعانتهم وحشد على الحق : يعين بعضهم بعضاً على نصرة الحق . عاف الشيء : كرهه وأباه . الخنا : الفحش أنف ، ج أنوف : الأبي . ألت : نزلت وأصابت . المكروهة : الملمة ، المصيبة (١٦) تدجت : أظلمت . المظلمة : النائبة والشدة . معتصر : ملجأ وملاذ . (١٧) الجد : الحظ . يريد : ان الله قد جعل لهم حظاً ينصرون به على خصومهم فكل حظ غيره محتقر لاشأن له (١٨) أشر : بطر . الموالي ، ج مولى : المنعم عليه . اراد ان الله حين وهبهم هذا الجد وأنعم عليهم به لم يبطروا به ولو كان لغيرهم لبطروا. (١٩) شمس ، ج شموس : الشديد العداوة على من عانده . حتى يستقاد لهم : حتى يخضع لهم ويطاع أمرهم. الأحلام ، ج حلم : الأناة وسعة الصدر . يصفهم بشدة العداوة لمن عاندهم فإذا ظفروا بأعدائهم وتمكنوا منهم وسعهم حلمهم وعفوا عنهم . (٢٠) استقل الشيء : وجده قليلا واستخف به او نهض به وأطاقه . الأضغان ، ج ضغن : الحقد والعداوة . الخور : الضعف والوني . يريد انهم اقوياء لايقوى ←

٢١ هُمُ الذين يُبارون الرِياحَ إذا قلَّ الطَعامُ على العافِينَ أو قَتَرُوا

٢٢ بني أُمَيَّةَ نُعماكُم مُجلِّلَةٌ ، تَمَّتْ فلا مِنَّةٌ فيها ولا كَدَرُ

٢٣ بني أُمَيَّةَ قد ناضَلتُ دونَكُمُ أَبناءَ قومٍ ، هُمُ آوَوْا وهُمْ نَصَروا

٢٤ أفحمتُ عنكمْ بني النَجّارِ ، قد علِمتْ عُليا مَعدٍّ وكانوا طالما هَدَروا

٢٥ حتى استكانوا ، وهمْ منّي على مَضَضٍ ، والقولُ يَنْفُذُ ما لا تَنْفُذُ الإِبَرُ

* * *

دراسة الأبيات

الأقسام والأفكار العامة هذه الابيات مختارة من قصيدة طويلة للاخطل تجاوز الثمانين بيتاً بدأها بمقدمة غزلية وصف فيها ظعن أحبابه وما اعتراه من فراقهم ، مما أتاح له أن يصف الخمر التي كان كلفاً بشربها مولعاً بوصفها ، ثم انتقل الى مدح عبد الملك ومدح بني أمية ، وهو القسم الذي اوردناه هنا ، ثم أخذ يعدد أياديه على بني أمية وفضائل قبيلته ووقوفها في صف بني أمية ، وتخلص من ذلك الى تحريض بني امية على قبيلة قيس والى هجاء هذه القبيلة المعادية لتغلب ، ولا يغفل بهذا الصدد عن هجاء جرير وكليب قبيلته لدفاعه عن قبيلة قيس .

أعداؤهم على قتالهم ولايظهر فيهم الضعف والفتور . (٢١) العافي : طالب المعروف . قتروا : افتقروا ، والاقتار : الفقر . وصفهم بالكرم فقال انهم ينافسون الرياح كرماً حين يقل الطعام لدى طالبي المعروف ويفتقرون . (٢٢) النعمى : النعماء ، المعروف . مجلله : عامة . (٢٣) يشير الاخطل في هذا البيت والابيات التي تليه الى هجائه الانصار حين طلب اليه يزيد ذلك . (٢٤) بنو النجار : رهط حسان بن ثابت وابنه ، وهم فرع من الخزرج ، وكان هجاء الاخطل الانصار رداً على تشبيب عبد الرحمن بن حسان برملة بنت معاوية . عليا معد : قريش . هدروا : من هدر البعير اذا صوت ، اي اكثروا القول فيكم . (٢٥) استكانوا : ذلوا وخضعوا . المضض : الالم المتصل . نفذ : ثقب وخرق . اراد ان اثر الهجاء في النفس اقوى من اثر الابر .

والأبيات التي اخترناها تدور حول مدح عبد الملك بن مروان وقد اوردنا من مقدمته الغزلية ابياتاً اربعة وبعد البيت الثاني منها ابيات عديدة في وصف الخمر والغزل وفي البيتين الثالث والرابع يمهد للانتقال الى مدح عبد الملك ، ومنذ البيت الخامس يأخذ في مدح عبد الملك فيصفه بالجود والثبات ويمن الطلعة وانه خليفة الله ويصفه بالحزم والشجاعة والقوة ثم يصفه بالكرم وسناء الطلعة مشبهاً إياه بالفرات ، وفي القصيدة بعد ذلك أبيات أخرى في مدحه وتمداد انتصاراته على خصومه من الشيعة والزبيريين ، ثم ينتقل الى مدح بني أمية عامة فيصفهم بعلو المنزلة ورفعة النسب ونصرة الحق والاباء والأنفة والتجلد للخطوب ، ويقول إن ماواتاهم من النصر إنما كان هبة من عند الله ، ثم يستمر في نعتهم بشدة الخصومة وسعة الصدر وبسطة الكف ويعترف لهم بأفضالهم عليه الا انه لاينسى تذكيرهم بخدماته لهم ومن اجلها هجاء الأنصار.

العاطفة: كان الأخطل في قصيدته هذه مدفوعاً بدوافع نفسية متعددة منها عصبيته لقبيلته ونقمته على قيس وسخطه على جرير إلا أنه في مدح بني أمية كان متكسباً متجراً بمديحه شأن الشعراء المتكسبين ، وكان مايلقاه في بلاط الأمويين من التقريب والاكرام وعلو المنزلة يشيع في مدحه هذا رنة صدق وشكران ينم عنها قوله :

بني أميـة ، نعماكم مجللة	تمت فلا منة فيها ولا كدر

ولكنه لايغفل ايضاً عن الادلال على بني أمية بخدماته لهم ويظهر في أبياته هذه اعتداده الشديد بنفسه وشاعريته ومضاء لسانه : « والقول ينفذ مالاتنفذ الابر ».

الاسلوب قال ابو عمرو : «لو ادرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ماقدمت عليه احداً» ، وهذا القول يدلنا على ان النقاد وجدوا شبهاً قوياً بين أسلوب الأخطل وبين أساليب الشعراء الجاهليين وقد روي عن ابي عبيدة قوله : «الأخطل أشبه بالجاهلية وأشدهم أسر شعر وأقلهم سقطاً» ، وهذا الشبه نتبينه بوضوح في دراستنا لأبيات الأخطل هذه ، فألفاظه تذكرنا بألفاظ الجاهليين في متانتها وجزالتها وشدة أسرها ، وتراكيبه لاتختلف في قوة بنائها عن تراكيب زهير والأعشى واضرابهم ، ومعانيه وأخيلته صورة لمعاني الجاهليين وأخيلتهم الا ان معانيه كانت متأثرة ايضاً بطبيعته الخاصة وبيئته وبالثقافة الاسلامية .

ويمتد هذا الأثر الجاهلي الى طريقة العرض فنجد الأخطل يحاكي شعراء الجاهلية في حرصه على الابتداء بالنسيب التقليدي ووصف ارتحال الأحبة والانتقال من ذلك الى الغرض من القصيدة ، وقلما كان الأخطل يخرج عن هذه التقاليد ، وكان ولعه الشديد بالخمرة يدفعه الى وصفها في اكثر

قصائده ونجده في هذه القصيدة يحتال لوصفها بتشبيه اثر فراق الأحبـــة في نفسه بأثر الخمر في نفس شاربها.

بل ان هذا الاثر يظهر ظهوراً قوياً حين نجد الاخطل يحذو حذو عبيد الشعر في حرصه على تهذيب شعره وتنقيحه وتخله، وقد حدثنا الاصمعي ان الاخطل كان يقول تسعين بيتاً ثم يختار منها ثلاثين فيذيعها، وقال عنه يونس انه كان اشد أصحابه تهذيباً للشعر، وروي عن الاخطل انه أقام في قصيدته «خف القطين» هذه سنة ولم يبلغ فيها كل ما أراد. وكان من اثر هذا التهذيب والعناية أن قلت العيوب في شعره وكثرت فيه الصور البيانية. ولم يكتف ابو عمرو بتشبيه الاخطل بشعراء الجاهلية بل انه شبهه بشاعر معيّن منهم هو النابغة الذبياني، والحق ان ابا عمرو كان كثير التوفيق حين شبه الاخطل بالنابغة فإن وجوه التشابه بينها كثيرة تستلفت النظر: كان كلاهما شاعر بلاط وقف اكثر شعره على مديح الملوك ولقي حظوة كبيرة عندهم واشتهر بذلك، وكان كلاهما شديد العناية بشعره، كثير التهذيب له، وكان كلاهما جزل الالفاظ، متين الشعر، صحيحه، ويمعن الاخطل في الاقتداء بالنابغة ومحاكاته فيغير على كثير من معانيـه، ولا ريب ان ابيـاته الاربعة (٩ – ١٢) في وصف الفرات وتشبيه الممدوح به قد ذكرتنا بأبيات النابغة في مدح النعمان وتشبيهه بالفرات (انظر صفحة ١٤٥)، وقد أعجب الاخطل بهذه الصورة فجاء بهـا اكثر من مرة، وللاخطل قصيدة رائية يصف فيها الصراع بين الثور الوحشي وكلاب القانص تشبه في معانيهـــا وأسلوبها ووزنها وقافيتها الى حد بعيد قصيدة النابغة الرائية التي يصف فيها هذا الصراع ايضاً، كل هذا يوقفنا على مدى التشابه بين النابغة الجاهلي والاخطل الاموي.

الا ان شعر الاخطل لم يكن جاهلياً خالصاً فلم يكن بد من ظهور آثار طبيعته الخاصة وبيئته المادية والمعنوية في شعره، اما أثر طبيعته الخاصة فيظهر في اكثاره من وصف الخمر التي كان مولعاً بشربها، واما أثر بيئته المادية فيظهر في اكثاره من وصف الفرات الذي كانت قبيلة تغلب تعيش على ضفافه، وفي اكثاره من الصور البدوية التي تنم عن نشأته الاولى في بادية الجزيرة، واخيراً تظهر آثار بيئته المعنوية في تأثره بالثقافة الاسلامية التي كانت شائعة عصرئذ، وقد استغل الاخطل هذه الثقافة استغلالاً كثيراً في مدحه بني أمية، فنراه في هذه القصيدة يجعل ظفر بني امية هبـة من لدن الله، ويقول ان الله قد فضلهم على سـائر قريش، ولا نكاد نتبين في ابياته هـذه أثر عقيدته النصرانية الا في افتخاره بهجاء القوم الذين آووا الرسول ونصروه، وهذه العقيدة النصرانية لا نجدلها اثراً قوياً في شعره.

نموذج آخر من مدحه وشعره السياسي

قال يمدح الوليد بن عبد الملك :

١ حلفتُ بمن تُساقُ له الهدايا ... ومن حلّت بكعبته النُذورُ
٢ لقد ولدت جذيمةُ من قريشٍ ... فتاها حين تحزُبُها الأُمورُ
٣ به ترمي أعاديها قريشٌ ... اذا ما نابها أمرٌ كبيرُ
٤ له يومان : يومُ قراعِ كبشٍ ... ويومٌ يُستظَلُّ به ، مطيرُ
٥ بكفّيه الأعنّةُ ، لا سؤومٌ ... قتالَ الأعجمينَ ولا ضجورُ
٦ قتلتَ الرُومَ حتى شذّ منها ... عصائبُ ما تُحرِّزُها القُصورُ
٧ فلو كان الحروبُ حروبَ عادٍ ... لقام على مواطنها صبورُ
٨ وقد علمتْ أميّةُ أن ضِغْني ... اليها ، والعُداةُ لها هريرُ
٩ وأنّي ، ما حييتُ ، على هواها ... وأنّي بالمغيبِ لها نصورُ

* * *

المدح في شعر الأخطل

انقطع الأخطل الى بني أمية وأصفاهم المدائح الغرّ فقرّبوه وأغدقوا عليه المطايا والأصفاد

(٢) جذيمة : من اجداد بني عبس واليهم تنسب ام الوليد . تحزبها: تشتد عليها . (٤) الكبش : البطل وسيد القوم . واراد باليوم المطير : يوم القرى والضيافة . (٥) الأعنة ، ج عنان : الزمام ، يريد انه يصرف الأمور بيده . ويشير في هذا البيت ومابعده الى قتال الوليد الروم . (٦) شذ : تفرق وتبدد . عصائب : جماعات . حرّز المكان الرجل : كان له حرزاً وملجأ . (٨) ضغني : ميلي . والعداة لها هرير : الواو حالية ، والهرير : النباح ، شبه أعداء بني أمية بالكلاب النابحة .

حتى جعلوه شاعرهم الخاص وفضلوه على جميع الشعراء على الرغم من نصرانيته ، ونحن نعلم أن سياسة بني أمية كانت عربية اكثر منها اسلامية ، فلا عجب أن يلقى لديها شاعر نصراني هذه المنزلة الرفيعة ولا سيما أن مدائحه فيهم كانت تهيئ لهم دعاوة سياسية بعيدة المدى ، فمدح الاخطل لبني أمية نموذج للشعر السياسي الرفيع وكان الأخطل شاعر الحزب الأموي الاول . وللاخطل مدائح قليلة في غير الأمويين كمدائحه للحجاج وعكرمة الفياض وغيرهما ولكنه لايجيد فيها إجادته في مدح بني أمية .

وهو اذا مدح بني أمية نسب اليهم كل المكارم التي كان الجاهليون يفاخرون بها كالشجاعة والكرم والنجدة والحلم ورفعة النسب ونبل المحتد ونحو ذلك ثم اضاف اليها المعاني الدينية والسياسية فجعلهم يستمدون سلطانهم من الله وجعل حقهم في الخلافة حقاً إلهياً لاينازعهم فيه منازع ورد بذلك على شعراء المذاهب المعارضة الذين كانوا لايرون لبني أمية مايخولهم زعامة المسلمين وتولي شؤونهم ، وهو يحتج لحقهم في الخلافة ايضاً بأن الخلافة ينبغي ان تكون في قريش وبنو أمية هم أشرف قريش وفي الذروة منها فالخلافة حق لهم اذن دون سواهم . ولا بدله في مدحه لهم من تعداد انتصاراتهم على خصومهم من الشيعة والخوارج والزبيرية ومن التنويه بفتوحاتهم وغزواتهم ، واصفاً انتصارهم على أعدائهم بأنه تأييد من الله لم يمنحه احداً سواهم .

هذا المديح السياسي كان بنو أمية في أشد الحاجة اليه ليظهروا به حقهم في الخلافة فقربوا اليهم الشعراء وأفاضوا عليهم الهبات وتنافس الشعراء في مدحهم والدفاع عنهم ولكن لم يبلغ شاعر في مدحهم والاحتجاج لحقهم بالخلافة مابلغه الأخطل فكان بحق الشاعر الأول للحزب الأموي .

* * *

الوصف

قال يصف الخمر وشاربها :

١ صَرِيعُ مُدامٍ يَرفَعُ الشَّربُ رأْسَهُ ليَحْيا ، وقد ماتَتْ عِظامٌ ومَفْصِلُ
٢ نُهادِيهِ أحيانًا وحِينًا نَجُرُّهُ ، وماكادَ إلاّ بالحُشاشَةِ يَعْقِلُ

---

(١) المُدام : الخمرة . الشرب : جمع الشارب . واراد بالموت هنا مايعتري المرء من شدة السكر
(٢) نهاديه : نسوقه . الحشاشة : بقية الروح .

٣ إذا رفعوا عظماً تحامل صدره ، وآخر ، مما نال منها ، مُخبّل
٤ فقلتُ : اصبحوني ، لا أبا لأبيكم ، وما وضعوا الأثقال إلا ليفعلوا
٥ أناخوا فجرّوا شاصياتٍ كأنّها رجالٌ من السودان لم يتسربلوا
٦ تمُرّ بها الأيدي سنيحاً وبارحاً ، وتُرفعُ باللهمّ حيّ ، وتُنزلُ
٧ وتُوقَفُ أحياناً فيفصلُ بيننا غناءُ مغنٍّ ، أو شِواءٌ مُرعبلُ
٨ تدبُّ دبيباً في العظام كأنّه دبيبُ نمالٍ في نقاً يتهيّلُ

وقال يصفها ايضاً :

٩ شربنا فمُتنا ميتةً جاهليةً مضى أهلُها لم يعرفوا ما مُحمّدُ
١٠ ثلاثةَ أيامٍ ، فلمّا تنبّهت حُشاشاتُ أنفاسٍ أتتنا تردّدُ
١١ وقلنا لساقينا : عليكَ فعُدْ بنا إلى مثلِها بالأمسِ ، والعودُ أحمدُ
١٢ فجاء بها قد خُيّلتْ في إنائه بها كوكبُ المرّيخ تصفو وتُزبِدُ

(٣) تحامل تثاقل ، والضمير في صدره عائد على العظم . مخبّل : مشلول . (٤) اصبحوني : اسقوني الصبوح ، والصبوح ما أصبح عند القوم من الشراب . (٥) أناخوا : ابركوا جمالهم . الشاصيات ، ج شاصية : زق الخمر . لم يتسربلوا : عراة لا يرتدون ثياباً . شبه الزقاق السود برجال سود عراة . (٦) تمر بها الايدي : اي تمر الكؤوس بالايدي . سنيحاً وبارحاً : من اليمين الى الشمال ومن الشمال الى اليمين . (٧) المرعبل : المقطع . (٨) تدب : تسري وتتمشى . النقا : الكثيب . يتهيل : يتحدر . شبه دبيب الخمرة في المظام بدبيب النمل فوق كثيب من الرمل ، والصورة الأولى حسية والثانية بصرية .

(٩) متنا : : انتشينا . (١٠) ثلاثة : متعلقة بمتنا في البيت السابق . (١٢) اراد انها كانت تغلي وتتقد في إنائها كأن فيها كوكب المريخ .

١٣ تفوحُ بماءٍ يُشبِهُ الطِّيبَ طيبُهُ إذا ماتماطت كأسُها مِن يدٍ يَدُ

١٤ تُميتُ وتُحيي بعدموتٍ ومَوتُها لذيذٌ ، ومَحياها ألذُّ وأحمدُ

* * *

[ملاحظة : اقرأ ايضاً وصف الفرات في قصيدته الرائية السابقة] .

الوصف في شعر الاخطل

واذا قلنا الوصف في شعر الأخطل فوصف الخمرة نعني لأنه عني بهذا الوصف عناية خاصة ولأن هذا الوصف يستجيب لميل في نفسه عرف به حتى انه كان كثيراً مايدخل على عبد الملك وهو يتمايل سكراً ورائحة الخمر تفوح منه. دخل عليه مرة فكلمه فخلط في كلامه فقال له : ماهذا ؟ فقال :

اذا شرب الفتى منها ثلاثاً بغير الماء حاول أن يَطُولا

مشى قرشيةً لاعيبَ فيها وأرخى من مآزره الفضولا

ولكن الأخطل لم يفرد لوصف الخمر قصائد خاصة فالوصف لم يكن من أغراض القصيد الرئيسية فكان الأخطل يحتال في اقحام وصف الخمر في مطالع قصائده ، يطيل هذا الوصف تارة ويوجز فيه تارة أخرى .

وكما وجدنا الأخطل عالة على النابغة في مديحه فإنا نجده في وصف الخمرة عالة على الأعشى زعيم وصّافي الخمر في الجاهلية ، وما نرى ان الأخطل قد فاق الأعشى في هذا الوصف ، وابو الفرج يحدثنا ان الأخطل فضل نفسه على الشعراء بقوله :

وتظلُّ تنصفُنا بها قرويةٌ إبريقُها برقاعه ملثومُ

فإذا تعاورت الأكفُّ زجاجها نفحتْ فشمَّ رياحها المزكومُ

فقال له الشعبي : اشعر والله منك الأعشى الذي يقول :

من خمر عانةَ قد أتى لختامها حولٌ تسُلُّ غمامةَ المزكومِ

فأقر الأخطل بتفوق الأعشى . وقد اعترف جرير للأخطل بتفوقه في وصف الخمر ، وقد افتن في وصفها فوصف لونها وطعمها ورائحتها ووعاءها والكأس والزق والشارب والشرب ووصف اثرها في النفس ومايناله شاربها من الفتور والارتخاء والدوار : « راحوا وهم يحسبون الأرض في فلك » ،

ولاريب أنه كان خير من وصفها من شعراء العصر الأموي . وأما سائر وصفه فليس فيه مايميزه عن معاصريه من الشعراء .

* * *

مصادر

١ – الأغاني الأصفهاني ج ٨ : ٢٨٠ و ج ١١ : ٦١ .
٢ – الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص ١٨٩ .
٣ – طبقات الشعراء لابن سلام ، ص ١٧٤ .
٤ – ديوان الأخطل ، نشر الأب صالحاني اليسوعي ، بيروت ١٨٩١ .
٥ – نقائض جرير والأخطل لأبي تمام ، نشر صالحاني .
٦ – مقالة عن الأخطل وجرير والفرزدق في المجلة الآسيوية عام ١٨٣٤ بقلم De Perceval
٧ – Lammens : le Chantre des Omayades, Paris. 1895
٨ – الأب لامنس في دائرة المعارف الاسلامية المترجمة : مادة الأخطل ، ج ١ : ٥١٥ .
٩ – تاريخ النقائض : احمد الشايب .

* * *

نماذج من نقائض جرير والفرزدق والأخطل (*)

بلغ الفرزدق ان وكيع بن حسان اليربوعي ، زعيم بني تميم بخراسان ، قتل قتيبة بن مسلم الباهلي ، القائد القيسي المشهور الذي خلع طاعة سليمان بن عبد الملك ، فقال في ذلك قصيدة تعد من أجود نقائضه ومطلعها :

تحنُّ بزوراء المدينة ناقتي حنينَ عجولٍ تبتغي البوَّ ، رائمِ

والقصيدة طويلة تقارب المائة والستين بيتاً بدأها بديباجة غزلية قصيرة ثم انتقل الى مدح سليمان ابن عبد الملك وهجاء الحجاج وتخلص من ذلك الى ذكر مقتل قتيبة والفخر بتميم وهجاء قيس وجرير. وسنكتفي بإيراد ابيات منها في هجاء جرير وقيس والفخر بتميم :

١ كَذَبتَ ، ابنَ دِمْنِ الأرضِ وابنَ مَراغِها لآلُ تميمٍ ، بالسيوفِ الصوارمِ

٢ جَلَوا جُمَماً فوقَ الوُجوهِ وأنزَلُوا بعَيلانَ أيّاماً عِظامَ المَلاحِمِ

٣ تُعَيِّرُنا أيّامَ قيسٍ ولم نَدَعْ لعَيلانَ أنفاً مُستقيمَ الخَياشِمِ

٤ فما أنت من قيسٍ فتَنْبِحَ دُونَها ، ولا من تميمٍ في الرُّؤوسِ الأعاظِمِ

٥ وهل يا ابنَ ثَفْرِ الكلبِ مثلُ سيوفِنا سُيوفٌ ، ولا قَبْصُ العَديدِ القُماقِمِ

٦ فلو كُنتَ مِنهم لم تَعِبْ مِدْحَتي لهم ، ولكنْ حِمارٌ وَشْيُهُ بالقَوائمِ

(*) انظر ما قلناه في النقائض صفحة ٣٠٣ .

(١) الدمن : الزبل . المراغة والمراغ : مُتَمَرَّغ الدابة ، والمراغة ايضاً الاتان التي لا تمنع الفحول ، وقد لقب الفرزدق جريراً بابن المراغة ، اراد ان أمه مراغة للرجال او لأنها ولدت في مراغة الابل . لآل : مبتدأ خبره : جلوا جمماً . (٢) الجمم ، ج الجُمّة : السواد ، اراد به الشعر يجلونه بسيوفهم ، ولا يبعد انه اراد الجُمم ، ج جمة : مجتمع شعر الرأس . عيلان: قبيلة قيس عيلان. الملاحم : الوقائع . (٣) الخياشم ، ج الخيشوم : أقصى الأنف . (٥) الثفر : موضع البول . القبص: العدد الكثير . القماقم : العدد الكثير والسيد العظيم . (٦) منهم : اي من دارم .

٧ أنا ابنُ تميمٍ والمُحامي وراءها إذا أسلمَ الجاني ذِمارَ المَحارمِ
٨ إذا عَجزَ الأحياء أن يَحمِلوا دماً أناخَ الى أجداثِنا كلُّ غارِمِ
٩ تَرى كُلَّ مَظلومٍ الينا فِرارُهُ ويَهرُبُ مِنّا، جَهدَهُ، كلُّ ظالِمِ
١٠ فلا نَقتُلُ الأسرى ولكن نَفُكُّهُمْ إذا أثقلَ الأعناقَ حَملُ المَغارِمِ
١١ فهل ضَربةُ الرُّوميِّ جاعِلَةٌ لكم أباً عن كُلَيبٍ أو أباً مثلَ دارمِ
١٢ كذاكَ سُيوفُ الهِندِ تَنبُو ظُباتُها ويَقطَعنَ أحياناً مَناطَ التَمائِمِ
١٣ عَجِبتُ إلى قَيسٍ وماقد تَكَلَّفَتْ من الشِّقوَةِ الحمقاء ذاتِ النَقائِمِ
١٤ يَلوذونَ منّي بالمَراغَةِ وابنِها، وما مِنهما منّي لقَيسٍ بعاصِمِ
١٥ فيا عَجَبا حتّى كُلَيبٌ تَسُبُّني وكانت كليبٌ مَدْرَجاً للشتائِمِ

* * *

فناقضه جرير بقصيدة مطلعها :

ألا حَيِّ رَبْعَ المَنزِلِ المُتَقادِمِ وماحَلَّ مُذْ حَلَّتْ به أمُّ سالِمِ

---

(٧) الذمار: كل ماينبغي حفظه وحمايته من الأهل والحرمات. (٨) أناخ الرجل بعيره: أبركه، وفلان بالمكان: أقام. الغارم: العاجز عن دفع الدية. يشير الفرزدق بهذا البيت الى استجارة احد بني مجاشع بقبر غالب، ابي الفرزدق، وكان عليه دية فأداها عنه الفرزدق. (١٠) المغارم، هنا: الدية. حج سليمان بن عبد الملك ومعه الشعراء فلما كان بالمدينة تلقوه بجماعة من أسرى الروم فدفعهم سليمان الى أصحابه ليقتلوهم فضرب جرير رأس أسيره بسيف فأبان رأسه وضرب الفرزدق أسيره بسيف كهام فلم يصنع شيئاً فعير بذلك، فإلى هذه الحادثة يشير هنا ويقلبها الى مفخرة (١٢) تنبو: لاتقطع. الظباة، ج ظُبَة: حد السيف. مناط التمائم: مكان إناطتها وتعلقها وهو العنق (١٣) الشقوة: الشدة والأمر العسير. النقائم: النقم. (١٤) يلوذون: يحتمون ويلتجئون. عاصم: ملجئ وحافظ. (١٥) المدرج: الممر والطريق.

بدأها ايضاً بمقدمة غزلية قصيرة ثم أخذ يهجو الفرزدق وقومه ويمدح وكيع بن حسان دون ان يهجو قيساً بل انه اخذ يحرض قيساً على الأخذ بثأرها من رهط قيس بن عاصم ، ثم انتقل الى هجاء الأخطل وتغلب والى الفخر بقيس وتمداد انتصاراتهم وعاد اخيراً الى هجاء الفرزدق وقومه وتمداد مثالبهم . فمنها قوله في هجاء الفرزدق والفخر بقيس :

١ لقد وَلَدَتْ أمُّ الفرزدقِ فاجراً — وجاءت بوَزْوازٍ قصيرِ القوائمِ
٢ يُوصِّلُ حَبليْهِ إذا جَنَّ ليلُه — ليَرقى الى جاراتِه بالسلالمِ
٣ أتيتَ حُدودَ اللهِ مُذْ أنت يافعٌ — وشِبْتَ فما يَنهاكَ شَيبُ اللَّهازمِ
٤ هو الرِّجْسُ يا أهلَ المدينةِ فاحذَروا — مُداخِلَ رِجْسٍ بالخبيثاتِ عالمِ
٥ لقد كان إخراجُ الفرزدقِ عنكمُ — طَهوراً لما بينَ المُصلَّى وواقِمِ
٦ تَدلَّيتَ تَزْني من ثمانينَ قامةً — وقصَّرتَ عن باعِ العُلا والمكارمِ
٧ وإنَّكَ يا ابنَ القَينِ لستَ بنافخٍ — بكيرِكَ إلا قاعداً غيرَ قائمِ
٨ فغيرُكَ أدّى للخليفةِ عهدَه — وغيرُكَ جلّى عن وُجوهِ الأهاتمِ

---

(١) الوزواز : القصير الخطو في مشيه والطياش الخفيف . (٢) جن الليل : أظلم . يصف جرير الفرزدق بالفجور والفسق . (٣) أتيت حدود الله : اي أتيت مايلزمك الحد من الآثام . اللهازم : اصول اللحيين واحدتها لهزمة ، اراد انه تعود الفجور منذ صغره الى ان شاب . (٤) الرجس : المأثم ، والقذر . (٥) الطهور : مايتطهر به والطُهر . المصلى : مسجد الرسول بالمدينة . واقم : حصن بالمدينة . يشير جرير بهذين البيتين الى نفي عمر بن عبد العزيز الفرزدق من المدينة حين كان والياً عليها من قبل الوليد وذلك لفسقه وتعرضه للنساء ومعاشرته القيان ، وقد عيره جرير بهذا النفي اكثر من مرة . (٦) يعير جرير بهذا البيت الفرزدق بقوله يروي احدى مغامراته الغزلية :

هما دلتاني من ثمانين قامةً — كما انقض بازٍ أقتم الريش كاسره

(٧) القين : الحداد ، وكان احد اجداد الفرزدق حدادا فعيره جرير بذلك . الكير : زق الحداد ينفخ فيه النار . (٨) جلّى : كشف وأوضح ، الأهاتم : بطن من سعد بن زيد مناة بن تميم . اشار ←

٩ فإنَّ وكيعاً حين خارتْ مُجاشِعٌ كفى شَعْبَ صَدْعِ الفِتنَةِ المُتَفاقِمِ

١٠ وقبلَكَ ما أخزى الأُخَيْطِلُ قومَهُ وأسلَمَهُمْ للمَأْزِقِ المُتَلاحِمِ

١١ رُوَيْدَكُمُ مَسحَ الصَليبِ إذا دنا هِلالُ الجِزَى واستعجِلوا بالدَراهِمِ

١٢ ومازالَ في قَيْسٍ فوارِسُ مَصْدَقٍ حماةٌ وَحَمّالونَ ثِقْلَ المَغارِمِ

١٣ إذا حَدِبَتْ قَيْسٌ عليَّ وخِنْدِفٌ أخذتُ بفَضلِ الأكثَرِينَ الأكارِمِ

١٤ أكَلَّفتَ قيساً أنْ نَبا سيفُ غالِبٍ وشاعَتْ له أُحْدُوثةٌ في المَواسِمِ

١٥ بِسَيفِ أبي رَغْوانَ سيفِ مُجاشِعٍ ضَرَبْتَ ولَمْ تَضْرِبْ بِسَيفِ ابنِ ظالِمِ

* * *

جرير بهذا البيت الى مقتل قتيبة على يد وكيع بن حسان وارسال رأسه الى سليمان بن عبد الملك . (٩) الشعب : الصدع والشق . يريد جرير ان وكيع بن حسان قد حال دون الفتنة بقتله قتيبة لان هذا كان قد خلع طاعة سليمان وأثار الجند بخراسان عليه ، وكان سليمان ناقماً على قتيبة والحجاج لانهما حرضا الوليد بن عبد الملك على حرمان اخيه سليمان من ولاية العهد وجعلها في ابنه . (١٠) المتلاحم : الضيق . اشار جرير ببيته هذا الى إثارة الاخطل بشعره الجحاف القيسي على تغلب فقتل منهم بسببه جمعاً عظيماً . (١١) الجزى : جمع الجزية . يعير جرير تغلب بدفع الجزية لبني أمية . (١٢) فوارس مصدق : صادقوا الحملة . (١٣) حدبت : تعطفت . قيس وخندف : فرعا مضر . (١٤) غالب : ابو الفرزدق . المواسم : اراد مواسم الحج ، يشير بهذا البيت والذي يليه الى حادثة الاسير الرومي ونبو السيف في يد الفرزدق .

من قصيدة للأخطل يهجو فيها جريراً ويفضل عليه الفرزدق :

١ قَبَحَ الإِلَهُ بني كُلَيْبٍ ، إنَّهم ... لا يَحفَظُونَ محارِمَ الجيرانِ
٢ وإذا تُنودِبَ للمَكارِمِ والعُلا ... لم يُنْدَبوا لتَرادُفِ الأعوانِ
٣ أجَريرُ ، إنّكَ والذي تَسمُو له ... كأسيفَةٍ فَخَرَتْ بحِدْجِ حَصانِ
٤ حَمَلَتْ لِرَبَّتِها فلمّا عُولِيَتْ ... نَسَلَتْ تُعارِضُها مع الأظعانِ
٥ أتَعُدُّ مأثُرَةً ، لغيرِكَ فخرُها ... وسَناؤُها في سالِفِ الأزمانِ ؟
٦ تاجُ المُلوكِ وفَخرُهُم في دارمٍ ... أيامَ يَربُوعٌ مع الرُّعيانِ
٧ سَبَقُوا أباكَ بكُلِّ مَجمَعِ تَلْعَةٍ ... بالمَجدِ عِنْدَ مَواقِفِ الرُّكبانِ
٨ إخسأْ كُلَيبُ ، إليكَ ، إنّ مُجاشِعاً ... وأبا الفوارِسِ ، نَهْشَلاً ، أخَوانِ
٩ قومٌ إذا خَطَرَتْ عليكَ قُرومُهُم ... طَرَحُوكَ بينَ كَلاكِلٍ وجِرانِ

---

(١) قبح الله فلاناً عن الخير : نحاه وابعده ، ومثلها قبّح . بنو كليب : رهط جرير . المحارم، ج محرمة : مالا يحل انتهاكه . (٢) ندبه الى الأمر : دعاه وحثه عليه . الترادف : التعاون ، يريدان رهط جرير لايصلحون للمكارم ولا يقدرون على المعالي وعلى إعانة الأصحاب . (٣) تسمو له : ترتفع إليه من المعالي . الأسيفة : الأمة . الحدج : مركب المرأة على البعير ، الهودج . الحصان : المرأة الحرة الشريفة ، يريد : انك ياجرير في فخرك بما ليس لك كالأمة تفخر بحدج مولاتها . (٤) حملت لربتها : رفعت هودج مولاتها . عوليت : حملت . نسلت : اسرعت . تعارضها: تسير في محاذاتها. الأظعان ، ج ظعينة : المرأة في الهودج . (٥) المأثرة : بضم الثاء وفتحها ، المكرمة والمفخرة. السناء: الشرف . يريد : كيف تفاخر بمكارم تميم ولست انت ورهطك الوضيع بأصحابها (٦) دارم : رهط الفرزدق . يربوع : رهط جرير، يفضل الأخطل رهط الفرزدق على قوم جرير. (٧) التلعة: ماارتفع من الارض . عند مواقف الركبان : عند التفاخر . (٨) خسأ الكلب : زجره وابعده . اليك : ابتعد . مجاشع ونهشل : من اجداد الفرزدق (٩) خطر البعير بذنبه : رفعه وضرب به يميناً وشمالاً. ←

فأجابه جرير بنقيضة يهجوه فيها ويهجو الفرزدق منها قوله :

١٠ يا ذا العَباءَة ، إنّ بِشْراً قد قَضَى ... ألاّ تَجُوزَ حُكومةُ النَشْوانِ

١١ فدَعُوا الحُكومةَ ،لستُم من أهلِها ... إن الحُكُومةَ في بني شَيْبانِ

١٢ بَكْرٌ أحقُّ بأنْ يكونُوا مَقْنَعاً ... أو أن يَفُوا بحَقيقةِ الجِيرانِ

١٣ قَتَلُوا كُلَيبَكُمُ بلَقْحةِ جارِهِمْ ... يا خُزْرَ تَغْلِبَ لستمُ بِهِجانِ

١٤ كذبَ الأُخَيْطِلُ إنّ قومي فيهِمُ ... تاجُ المُلوكِ ورايةُ النُعمانِ

١٥ ليس ابنُ عابِدةِ الصليبِ بمُنْتَهٍ ... حتى يَذُوقَ بكأسِ مَن عاداني

١٦ إنّ القصائدَ يا أُخَيْطِلُ فاعْتَرِفْ ... قَصَدَتْ إليكَ مُجَرَّةَ الأرسانِ

* * *

القروم ، ج قرم : البعير الذي لايحمل عليه ولا يذلل ، ومن الرجال : السيد العظيم . الكلاكل ، ج كلكل : صدر البعير . الجران : مقدم عنق البعير . صور الأخطل هنا رهط الفرزدق بالقروم الفحول الذين يخطرون على جرير ويطرحونه بين كلاكلهم وجرانهم ، يريدانهم اشرف منك وارفع منزلة . (١٠) ذو العباءة : الأخطل ، وكان النصارى يرتدون العباءة . بشر : هو بشر بن مروان الذي كان والياً على العراق وكان مولعاً بالاغراء بين الشعراء . النشوان : السكران . يعيره بلبس العباءة وشرب الخمر . (١١) الحكومة : يشير الى تفضيل الأخطل الفرزدق على جرير حين احتكم اليه . بنو شيبان : فرع من قبيلة بكر ، وكانت بين بكر وتغلب ضغائن ومنافسة . (١٢) المقنع : الذي يقنع بشهادته. بحقيقة الجيران : بحقهم من الاجارة والاكرام . (١٣) كليب : من شعراء تغلب في الجاهلية ومن فرسانها المشهورين ، وقد قتله جماعة من بكر . اللقحة: الناقة . الخزر ، ج الأخزر: الضيق العينين ، اللئيم . الهجان : الكرام الأشراف ، يستوي فيها المذكر والمؤنث والجمع. اشار بهذا البيت الى وقعة البسوس المشهورة التي كانت في الجاهلية بين بكر وتغلب وسببها ان امرأة تميمية تدعى البسوس كانت جارة لجساس بن مرة البكري فدخلت ناقةلها مع إبل لكليب ، سيد بني تغلب ، ←

فن الهجاء في النقائض وأسلوبها

قدمنا في كلامنا على النقائض (ص٣٠٣) ان الهجاء فيها كان يقوم على امور ثلاثة : الاول تجريد المهجو وقبيلته من جميع المكارم والفضائل وإضافتها الى نفسه وقبيلته، وهذا الهجاء كان هو الغالب في العصر الجاهلي . الثاني : قذف المهجو بالشتائم والسباب البذيء الفاحش والتعرض انسائه بالفحش والخنا . الثالث : تصوير المهجو صوراً ساخرة تحمل على الضحك ، وهذا الضرب من الهجاء ازدهر بصورة خاصة في العصر العباسي . فهذه الضروب الثلاثة نجدها مجتمعة في نقائض جرير والفرزدق والاخطل تتبينها فيما اوردناه من النماذج ، الا اننا لم نشأ ايراد نماذج لهجائهم البذيء المكشوف لانا لم نعد نسيغ اليوم مثل هذا الشعر ولا نعتقد ان الادب يجب أن ينحدر الى هذا الدرك فإنه يخرج حينئذ عن كونه ادباً .

ونضيف الى هذه الخصائص ان هذه النقائض لم تكن تتضمن الهجاء فقط بل كان الهجاء فيها مختلطاً بالفخر ، فإذا ذكر احدهم مثالب الآخر ومعايب قبيلته أشاد بمآثر قبيلته هو ومكارمها وعدّد الايام والوقائع التي كانت لقبيلته على قبيلة خصمه ، ولهذا كانت نقائضهم سجلاً لايام العرب ووقائعها في الجاهلية والاسلام وكانت لها قيمة تاريخية كبيرة .

والى جانب هذه الخصائص المشتركة كان لكل من الشعراء الثلاثة طوابعه الهجائية الخاصة ، فجرير ، فضلاً عن كثرة اشارته الى وقائع العرب ، يعنى بتصوير خصومه في صور ضاحكة مشبعة بالتهكم والسخرية اكثر مما يعنى بالمعاني المبتكرة ، انظر الى سخريته المرة في قوله ، حين انتهى اليه ان الفرزدق هدد راويته مربعاً بالقتل :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً ... أبشر بطول سلامة يامربع

وانظر الى هذه الصورة الساخرة لنساء تغلب :

تسوف التغلبية ، وهي سكرى، ... قفا الخنزير ، تحسبه غزالا

ومثل هذا كثير في شعره . ونلاحظ في هجائه كثرة تكراره لافكاره ومعانيه حتى أن النقيضة

فرماها بسهم فغضب جساس وقتل كليباً فقامت الحرب بين الحيين . (١٤) اراد بقوله : راية الملوك ، ان الخلافة في قومه مضر . راية النعمان : يشير بهذا الى اسر قومه قابوس بن المنذر . (١٦) مجرة الارسان : مأخوذة من أجرّ الفرس اذا ترك الزمام على عنقه .

الواحدة تغنيك عن سائر نقائضه ، وهذا الامر أشار اليه البحتري حين فضل الفرزدق على جرير.
فإذا هجا جرير الفرزدق لقبه بابن القين وشبهه بالقرد والوزواز وعيّره بفسقه ومجونه واتهمه في دينه ونسب الى دارم كل المثالب التي تعير بها تميم . واذا هجا الاخطل عيّره بنصرانيته وشربه الخمر وأكله لحم الخنزير وصغّر اسمه تحقيراً ولقبه بدوبل وبالعبد ثم عيّر قومه بالنصرانية وبدفع الجزية وعرّض بالكنيسة والصليب ورمى نساء تغلب بالفواحش وفخر عليه بمضر وقيس .

اما الفرزدق فإنه كان اوسع مخيلة من جرير وا كثر ابتكاراً للمعاني الا ان صعوبة شعره جعلت شعر جرير ا كثر سيرورة ، وهو يجاري جريراً في فحشه وبذاءته وفي صوره الساخرة ويفرقه في الإشارة الى أيام العرب ووقائعها ، واذا هجا كليب نسب اليها كل المثالب التي تعير بها تميم ونسب الى دارم كل المكارم التي عرفت بها تميم ، وكان له من شرف قومه ماجعله يستعلي على جرير في هذا المضمار . فإذا انتقل الى جرير أغدق عليه النعوت المختلفة فهو ابن المراغة وابن الاتان وابن سوق الاعيار ونحو ذلك .

فإذا نظرنا في نقائض الاخطل وجدنا ان حظها من الفحش دون حظ نقائض صاحبيه وكان يقول عن نفسه : « ماهجوت احداً قط بما تستحي العذراء ان تنشده أباها » . ولا نظن ان مردهذه العفة دين الشاعر فان جميع الأديان تنهى عن الفحش ولكن اتصاله بالبلاط هو أهم ما حمله على الاقلال من الفحش ، ولم يخل هجاؤه منه خلواً تاماً . ونلاحظ بعد ذلك ان الاخطل كان شديد العناية بالصور الحسية المضحكة ، انظر مثلاً الى قوله في بني كليب :

قومٌ اذا استنبح الاضيافُ كلبهم ... قالوا لأمهم بولي على النار

ولم يكن المجال واسعاً امام الاخطل في هجائه جريراً لأن كفره قد ضيّق عليه القول فكان لايستطيع مجاراة جرير حين ينال من دينه كما انه لم يكن يستطيع مجاراته حين ينال من قبيلته لأن جريراً كان من مضر ، وبنو امية من مضر ، ولهذا كانت معاني الاخطل في هجاء جرير مكرورة محدودة وكان ا كثر هجائه منصباً على قبيلة جرير فينسب اليها كل ماتعيّر به مضر من المخازي والفواحش.

منزلة الشعراء الثلاثة والموازنة بينهم

اتفق الادباء والنقاد القدامى على ان جريراً والفرزدق والاخطل كانوا المقدمين بين شعراء العصر الاموي ، وقد اضاف اليهم ابن سلام الراعي الشاعر ، الا انهم اختلفوا في تقديم احد الثلاثة، وكانت مسألة المفاضلة بين الشعراء الثلاثة شغل الناس الشاغل اذ ذاك فكانوا يتذاكرون ذلك في

مجالسهم وأنديتهم بل وفي مواقفهم وحروبهم ، وقال يونس : « ماشهدت مجلساً قط ذكر فيه جرير والفرزدق فاجتمع اهل المجلس على احدهما . » فقد انقسم الناس والنقاد بسبب هؤلاء الثلاثة احزاباً وجماعات كل منها ينتصر لشاعر ، ولم يكن التعصب لهذا او ذاك بريئاً من الدوافع القبلية او الدينية او الشخصية ، ونلاحظ بوجه عام ان من كان يميل الى الشعر الجزل المتين فانه يفضل الفرزدق ، وان الذين فضلوا جريراً كانوا ممن يعجبهم الشعر السهل الرقيق ، وأما من كان يؤثر الشعر المهذب المنقح فقد فضل الأخطل ، ولنعرض بعض أقوال النقاد في الشعراء الثلاثة :

قال ابو عبيدة وكان يقدم جريراً : « يحتج من قدم جريراً بأنه كان اكثرهم فنون شعر، وأسهلهم لفظاً ، وأقلهم تكلفاً ، وأرقهم نسيباً ، وكان ديناً عفيفاً . » وقال ابو عمرو بن العلاء ، وكان يقدم الأخطل : « لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من الجاهلية ماقدمت عليه احداً . » وفضل يونس الأخطل لأنه كان « اكثرهم عدد طوال جياد ليس فيها سقط ولا فحش وأشدهم تهذيباً للشعر . » وقال المرزباني : « أكثر أهل العلم يقدمون الفرزدق على جرير . » وقال خالد بن صفوان يبيّن ميزة كل منهم : « أما أعظمهم فخراً ، وأبعدهم ذكراً ، وأحسنهم عذراً ، وأسيرهم مثلاً ، وأقلهم غزلاً ، وأحلاهم عللاً ، الطامي اذا زخر ، والحامي اذا زأر ، والسامي اذا خطر ، الذي إن هدر قال ، وإن خطر صال ، الفصيح اللسان ، الطويل العنان ، فالفرزدق . وأما ما أحسنهم نعتاً ، وأمدحهم بيتاً ، وأقلهم فوتاً ، الذي إن هجا وضع ، وان مدح رفع ، فالأخطل . وأما أغزرهم بحراً ، وأرقهم شعراً ، وأهتكهم لعدوه ستراً ، الأغر الأبلق الذي إن طلب لم يُسبق ، وإن طُلب لم يلحق ، فجرير . وكلهم ذكي الفؤاد ، رفيع العماد ، واري الزناد . » .

ويبدو لنا أن من أدق المفاضلات قول مروان بن أبي حفصة :

ذهب الفرزدق بالفخار وإنما ... حلو الكلام ومرّه لجرير
ولقد هجا فأمضّ أخطلُ تغلبٍ ... وحوى اللُّهى بمديحه المشهور

ويطول بنا القول اذا أردنا استيفاء الأقوال في الشعراء الثلاثة ، ونحب أن ننبه الى وجوب الحذر من الأقوال التي تنسب الى احد الشعراء الثلاثة في تفضيل صاحبيه او احدهما على نفسه ، وخلاصة القول ان جريراً كان يفضل على صاحبيه في الموضوعات التي تلائمها الرقة والسهولة كالنسيب والرثاء ، وان الأخطل كان مقدماً على صاحبيه في وصف الخمر ومدح الملوك ، وان الفرزدق كان المجلي بينهم في باب الفخر . اما في الهجاء فليس بوسعنا تفضيل احد الثلاثة على صاحبيه ، فلكل ميزاته ، وحسبنا أن نقول إنهم كانوا حملة لواء الهجاء والشعر في العصر الأموي .

ليلى الأخيلية

ترجمتها

هي ليلى بنت عبد الله بن الرحّال ، وينتهي نسبها الى بني عُقيل من عامر بن صعصعة ، وبنو عامر من أشرف قبائل قيس عيلان . وليلى من شواعر الإسلام المقدّمات ، اشتهرت بحبها توبة بن الحُميّر العُقَيلي ، وكان توبة من الشعراء المشهورين وفارساً شريراً كثير الغارات ، يكثر من زيارة النساء ، فخطب ليلى الى أبيها فأبى أن يزوجه إياها وزوجها رجلا آخر كان شديد الغيرة عليها ، ولكن زواجها لم يحل دون زيارة توبة لها حتى اشتهر امرهما فأهدر الخليفة دمه إن عاد الى زيارتها . وكانت صلة ليلى بتوبة صلة عفيفة لا إثم فيها ، حدثنا أن الحجاج قال مرة لليلى : « إن شبابك قد ذهب ، واضمحل أمرك وأمر توبة ، فأقسم عليك إلا صدقتني : هل كانت بينكما ريبة قط او خاطبك في ذلك قط ؟ فقالت : لا والله أيها الأمير إلا أنه قال لي ليلة وقد خلونا كلمة ظننت انه قد خضع فيها لبعض الأمر فقلت له :

وذي حاجةٍ قلنا له : لا تَبُحْ بها ... فليس إليها ، ما حييتُ ، سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونَهُ ... وأنت لأخرى فارغٌ وحليلُ

فلا والله ماسمعت منه ريبة بعدها حتى فرّق بيننا الموت . » .

والحادث الذي كان له أثره في حياة ليلى وفي شعرها هو مقتل صاحبها توبة ، والروايات كثيرة في سبب مقتله وخلاصتها ان توبة كان شريراً كثير الغارات فعاد مرة من احدى غاراته مخففاً فمر برجل من بني عوف بن عامر بن عُقيل فقتله واستاق إبله فلحق به بنو عوف وقتلوه . فلما بلغ ليلى خبر مقتله اشتد جزعها عليه واتصل رثاؤها له ، ويعد ماقالته في رثاء توبة خير ماوصلنا من شعرها .

ويظهر ان ليلى كانت تعيش عيشة لا تخلو من شدة وضنك فكانت تضطر الى انتجاع الخلفاء

والولاة ، صنيع الشعراء المتكسبين ، وقد حدثنا ابو الفرج بخبر وفودها على معاوية وسؤاله إياها عن توبة وإجزاله صلتها ، كما حدثنا عن اتصالها بعبد الملك بعد أن أسنت وعجزت وأنه سألها معابثاً: مارأى توبة فيك حين هويك ؟ فقالت : مارآه الناس فيك حين ولوك . فضحك عبد الملك حتى بدت له سن سوداء كان يخفيها . وفي أخبار ليلى ماينبئنا بأنه كان في طباعها جفوة أهل البادية وأنفتهم وصراحتهم وجرأتهم حتى كانت تفضل توبة على الخلفاء بحضورهم بل ربما هجتهم لتعريضهم بتوبة ، صنيعها بعبد الملك الذي هجته بأبيات قالت منها :

أأجعلُ مثلَ توبةَ في نَداهُ ... أبا الذِبّانِ فوهُ ، الدهرَ ، دامي

وقد اتصلت ليلى بالحجاج بن يوسف ، وكلاهما من قيس ، وكان معجباً بشعرها ، كثير الإكرام لها ، ولها فيه مديح جيد . ويحدثنا الاصمعي انها دخلت عليها مرة فأمر لها بعشرة آلاف درهم ، وقال لها : هل لك من حاجة ؟ قالت : نعم أصلح الله الامير ، تحملني الى ابن عمي قتيبة بن مسلم ، وهو على خراسان يومئذ ، فحملها اليه ، فأجازها وأقبلت راجعة تريد البادية ، فلما كانت بالرّيّ ماتت ودفنت هناك .

بيدان خيال الرواة أبى إلا أن يتدخل في وفاة ليلى وأن يؤلف من ذلك أسطورة تليق أن تكون خاتمة لقصة حبها لتوبة ، فزعموا أن ليلى أقبلت من سفر فمرت بقبر توبة ومعها زوجها ، وهي في هودج لها . فقالت : والله لاأبرح حتى أسلم على توبة ، فجعل زوجها يمنعها من ذلك وتأبى إلاّ أن تلمّ به . فلما أكثر ذلك منها تركها ، فصعدت أكمة عليها قبر توبة ، فقالت : السلام عليك ياتوبة. ثم حوّلت وجهها الى القوم فقالت : ماعرفت له كذبة قط قبل هذا ؟ قالوا : وكيف ؟ قالت : أليس القائل :

ولو أن ليلى الأخيلية سلّمت ... عليّ ودوني جندل وصفائحُ
لسلّمتُ تسليمَ البَشاشة اوزقا ... اليها صدىً من جانب القبرِ ،صائحُ
وأُغبَطُ من ليلى بما لا أناله ، ... ألا كلُّ ماقَرّتْ به العين صالحُ

فما باله لم يسلم علي كما قال ! وكانت الى جانب القبر بومة كامنة ، فلما رأت الهودج واضطرابه فزعت وطارت في وجه الجمل ، فنفر فرمى بليلى على رأسها فماتت من وقتها ،فدفنت الى جنبها . هذامايرجحه الرواة من خبر موتها وما نشك في ان هذه القصة من تلفيق بعض الرواة أوحى اليه بها أبيات توبة هذه .

نماذج من شعرها

قالت ترثي توبة بن الحُمَيِّر :

١ وآليتُ أبكي بعدَ توبةَ هالكاً وأحفِلُ مَن دارتْ عليه الدوائرُ
٢ لَعمرُكَ ما بالموتِ عارٌ على الفتى إذا لم تُصِبْهُ في الحياةِ المعايرُ
٣ وما أحَدٌ حيٌّ ، وإن عاشَ سالماً ، بأخلَدَ مِمَّن غَيَّبَتْهُ المقابرُ
٤ ومَن كان ممّا يُحدِثُ الدهرُ جازعاً فلا بُدَّ يوماً أن يُرى وهو صابرُ
٥ وليس لذي عَيشٍ عن الموتِ مَذهبٌ وليس على الأيّامِ والدهرِ غابرُ
٦ ولا الحيُّ ، ممّا يُحدِثُ الدهرُ ، مُعتَبٌ ولا الميْتُ ، إن لم يَصبرِ الحيُّ ، ناشِرُ
٧ وكلُّ شبابٍ أو جديدٍ إلى بِلًى ، وكلُّ امرئٍ يوماً الى اللهِ صائرُ
٨ وكلُّ قرينَيْ أُلفةٍ لتفرُّقٍ شَتاتاً ، وإن ضَنّا وطالَ التعاشُرُ
٩ فلا يُبْعِدَنْكَ اللهُ ، يا توبُ ، هالكاً أخا الحربِ إن ضاقت عليه المصادرُ

---

(١) آليت ابكي : أقسمت لا أبكي ، وحذف (لا) في مثل هذا الموضع كثير . دارت عليه الدوائر : هلك ، ويراد بالدائرة الهزيمة والنائبة . تقسم انها لن تبكي بعد موته هالكا ولن تحفل بمن يهلك في هزيمة او نائبة .(٢) المعاير : المعايب . (٣) تريد انه ليس ثمة حي اكثر خلوداً ممن طوته القبور فالكل الى فناء . (٤) الجزع : اظهار الحزن والاضطراب . (٥) الغابر : الباقي و تريد ان الفناء سبيل كل حي وليس عن الموت معدى . (٦) معتب ، من أعتب فلاناً : أرضاه . نشر الله الموتى : أحياهم ، ونشر الميت : عاد الى الحياة ، فهو متعد لازم ، والثاني هو المراد هنا . (٨)شتات : مصدر شت الامر : فرقه : فشت اي تفرق . (٩) لا أبعدك الله : لا أهلكك ، وكان من عادة العرب ان ←

١٠ فآليتُ لا أنفكُّ أبكيكَ مادعَتْ ... على فَنَنٍ ورقاءُ او طار طائرُ

١١ قتيلُ بني عوفٍ ، فيالهفتا له ، ... وما كنتُ إيّاهُمْ عليه أُحاذرُ

١٢ ولكنّما أخشى عليه قبيلةً ... لها بدُروبِ الرُومِ بادٍ وحاضرُ

وقالت تمدح الحجّاج :

١٣ أحجّاجُ إنّ اللهَ أعطاكَ غايةً ... يُقَصِّرُ عنها مَن أراد مداها

١٤ أحجّاجُ لا يُفْلَلْ سلاحُكَ إنّما الـ ... ـمنايا بكفِّ اللهِ حيثُ تَراها

١٥ إذا هبطَ الحجّاجُ أرضاً مريضةً ... تتبَّعَ أقصى دائها فشفاها

١٦ شفاها من الداء العُضالِ الّذي بها ... غُلامٌ إذا هزَّ القناةَ سقاها

١٧ سقاها دماءَ المارقينَ وعلَّها ... اذا جمحَتْ يوماً وخيفَ أذاها

١٨ إذا سمعَ الحجّاجُ رِزَّ كتيبةٍ ... أعدَّ لها قبلَ النُزولِ قِراها

يخاطبوا المحتضر والميت بهذا اللفظ . توب : مرخّم توبة . المصادر : المذاهب ، سبل النجاة . (١٠) الفنن : الغصن . الورقاء : الحمامة . (١١) احاذر : احذر وأخاف . (١٢) تريد انها ما كانت لتخشى عليه غارة بني عوف لماهم عليه من الضعف والمهانة ، وانما كانت تخشى عليه بطش قبيلة عظيمة لها منازل بدروب الدروب بادية وحاضرة . (١٣) الغاية هنا : المنزلة السامية . المدى : الغاية والمسافة . بلغ الحجاج منزلة لايبلغها احد مهما بلغ من سمو همته . (١٤) لايفلل : لايثلم ، والنهي هنا للدعاء . (١٥) ارادت بالمرض هنا الفتنة والفساد ودواؤهما يكون بالقضاء على من يثيرهما . (١٦) داء عضال : استعصى على الاطباء شفاؤه . القناة : الرمح . سقاها : من الدماء ، وقد انتقد الحجاج على ليلى استعمال لفظ غلام وقال لها : لاتقولي غلام بل همام (١٧) المارقون : الخارجون على الدين . تشير الى قتال الحجاج الخوارج وغيرهم من الخارجين على بني أمية . علّها : سقاها مرة ثانية . الضمير في سقاها عائد على القناة وفي جمحت على المارقين . (١٨) الرز : الصوت يسمع من بعيد . القرى : الضيافة ←

١٩ أعدَّ لها مَصقُولةً فارسيَّةً بأيدي رجالٍ يُحسنون غِذاها
٢٠ أحجّاجُ لاتَمْطِ العُصاةَ مُناهمُ ولا اللهُ يُعطي للعُصاةِ مُناها
٢١ ولا كُلَّ حلّافٍ تَقلَّدَ بيْعةً فأعظمَ عهدَ اللهِ ثمَّ شَراها

* * *

شعرها

ان تاريخ الشعر العربي كان ضنيناً بالشاعرات ، وان كان هنالك شيء من شعر النساء فانه لا يعدو أن يكون نتفاً مبعثرة لاتبين عن شخصية واسعة الخيال او فياضة العبقرية . ولعل لذلك اسباباً كثيرة ، منها أن المرأة لاتملك من الحرية مايملك الرجل ، ولا تعالج من المواضيع العاطفية ما يعالجه الرجل . ولذلك ضاق عليها مجال القول ، وحق له أن يضيق .

من شواعر العرب المتقدمات شاعرتان : هما الخنساء ، وليلى الاخيلية ، فهما تكادان تتشابهان في وحدة الغرض ، وان كان هذا الغرض يدفع كل واحدة في ناحية ، وهما تتفقان أيضاً في كثير من الاغراض التي تناولتاها في شعرها . هذه الاغراض تتجه نحو وجهة واحدة ، وتستمد من عاطفة واحدة . فلذا لم ينطقها الشعر شيء كالموت والفاجعة . أما بقية أغراض الشعر فلم يكن لها يدفيها ، فهما اذن ناقلتان عن شعورها ، وهما متأثرتان بالفاجعة التي طرقتها . ولافرق بين أن ترثي هذه أخاها ، أو تبكي تلك فتاها . لان الغرض واحد ، والعاطفة واحدة .

ثم يذكر الشعر العربي شعراً لليلى تقدمه لتوبة في حياته متغزلة أو معبرة عن وجدها وشوقها . وليس معنى ذلك أن ليلى لم تنظم في هذا الغرض أو نظمت فيه . بل لعلها قالت شعراً فيه ، ولكنه

وقد استعملتها على سبيل التهكم لان المراد بالقرى هنا عدة القتال . (١٩) صقل السيف : جلاه وأزال صدأه . هذه السيوف كانت بأيدي رجال يحسنون اطعامها من لحوم الاعداء . (٢١) البيعة : التولية . شراها هنا : باعها . تشير الى خروج بعض القواد والولاة على الحجاج .

لم يصل الينا . أو لعلها لم تقل فيه شيئاً لأن عفة المرأة العربية تغلب عليها ، فهي تجد من الشوق والحب مايجده صاحبها توبة ، ولكنها لاتعبر عنه كما يعبر توبة .

إذن : ماهو الغرض الذي نظمت فيه ليلى اكثر شعرها ؟

انه نفس الغرض الذي أنطق الخنساء من قبلها . انه الموت ... وجدير بالعاطفة أن اصدق حين تقف أمام الموت . فلذلك تعلن ليلى الآن ما أسرّته من قبل ، وتبوح بالشعور الذي كانت تحبسه قبل اليوم . فهي راثية محبة ، وهي حزينة متجلدة .

ويغلب على رثائها ثلاثة أشياء :

١ : أن تذكر موت توبة وما ترك في نفسها من ألم ووجد وحرقة ، وهي مقلة في هذه الناحية.

٢ : ان تذكر الصفات التي أحبت توبة من أجلها . وهنا ينطلق لسانها ، فتنتقل من معنى الى معنى . فتظهر توبة متحلياً بالرجولة الكاملة والشجاعة والكرم . وهذه هي الصفات التي تجدها ليلى مثلاً أعلى للرجل في حياتها .

٣ : وتنتهي ليلى في كثير من شعرها الى طمأنينة الايمان والصبر على المصيبة لأنها مسلمة تستروح الجلد والصبر من ايمانها واسلامها .

واذا كانت ليلى تشبه الخنساء في بكائها على توبة ، وذكر صفاته الشبيهة بصفات صخر فانها كانت اكثر تجلداً من الخنساء ، وأوفى صبراً وتعزية . لأن الاسلام قد استطاع أن يحملها على الصبر بينما الخنساء لم تجد مايعزيها ويواسيها ، وصفة بارزة ايضا في رثاء ليلى هي أن رثاءها لايعتمد على البكاء والنواح شأن رثاء الخنساء . ولا يدل هذا على إخلال ليلى بوفائها لعهد توبة ، إذ ليست بوادر الحزن تقاس دائما بما يجول في العيون من دموع ، فقد تسكت بوادر العيون ، ولكن لاتسكن لواعج القلوب ، ناهيك بما هنالك من موانع نفسية كانت تمنع ليلى من اللجوء الى البكاء والعويل على رجل لاتربطها به الا رابطة المودة . ولذلك تجد ليلى تميل عن البكاء والرثاء الى ذكر مآثر توبة ، ثم نترك للقارىء ان يتخيل مقدار هذا البكاء على رجل هذه هي صفاته . ومن يتتبع هذه الصفات يجد أنها صفات لاتخرج عن المثل الجاهلي ، لأن العهد بين الإسلام والجاهلية لايزال قريباً . فلذلك بقيت الصفات الجاهلية حية في الأذهان ، وبقي الرجل الجاهلي مثالا رفيعاً عند المرأة . فهي اذا مدحته وصفته بالشجاعة ، وقتل الجوع ، والكرم ، وإغاثة الملهوف . وهذه الصفات كلها دانية من الصفات التي كانت الخنساء تسبغها على اخويها ، على أن عاطفة الخنساء تبقى ألين وأندى من عاطفة ليلى لأنها

حرة في مجـــال القول تبلغ منه ماتريد ، ولأن عاطفة الأخت على أخيها قد تكون أصدق وأشد تأثيراً .

أما أسلوب ليلى فهو لايمثل طبيعة المرأةالتي تميل الى سهولةالكلام .ولعل ذلك يعود الى الطبيعة الجافية البدوية التي نشأت فيها ليلى . فلذلك كانت تستمد أسلوبها من هذه الطبيعة الجافية كما كانت تستمد معانيها وصورها منها ، فهي اذا وصفت جاء وصفها جاهلياً ، يعتمد على جزالة اللفظ ، وفخامة القول ، وبعض صورها بدوية خالصة ، على انها حين تريد ان تتعزى وأن تتجلد يصبح أسلوبها ليناً كأنما يستمد من روح القرآن ، وهنالك بادرة ظهرت في أسلوب ليلى هي انها لاتعنى كثيراً بتهذيب أسلوبها ، ولا تعمل على تهـــذيب ألفاظهـا ، لأن المحزون عادة يلهيه حزنه عن الالتفات الى التهذيب والتنميق .

* * *

مصادر

١ – الأغاني للأصفهاني ، ج ١١ : ٢٠٤ .

٢ – الشعر والشعراء لابن قتيبة ، ص١٦٩ (في الكلام على توبة) .

٣ – فوات الوفيات للصلاح الكتبي ، ج ٢ : ١٤١ .

٤ – تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ، ج ١ : ٢٨٦ .

* * *

الحياة العامة في العصر العباسي

١ – الحياة السياسية

انهارت الدولة الأموية وقامت على أنقاضها الدولة العباسية التي امتد حكمها نيفاً وخمسة قرون [من سنة ١٣٢ هـ حتى سقوط بغداد بيد هولاكو قائد الموغول ٦٥٦ هـ، ٧٥٠ – ١٢٥٨ م]

وكانت المملكة الاسلامية خلال العصر العباسي تشمل المغرب ومصر والشام وجزيرة العرب والعراق وفارس وما وراء النهر والسند، وكان لكل من هذه الأقطار عاداته ومزاياه الخاصة ولكن كان يجمع بينها الدين المشترك، والروح الشرقية، وسيادة اللغة العربية، والخضوع لخليفة بغداد ولو خضوعاً اسمياً.

وفي الواقع منذ العصر العباسي الثاني، أصبح الخليفة رمزاً يحكم باسمه الموالي من الترك والديلم واستقل كثير من اجزاء المملكة العباسية استقلالاً اسمياً او فعلياً، فقامت في شرق المملكة الاسلامية الدويلات الطاهرية (٢٠٥–٢٥٩ هـ) والصفارية (٢٥٣ هـ – ٢٩٠) والسامانية (٢٦١–٣٨٩ هـ) والغزنوية (٣٥٢ – ٥٨٢ هـ) وكلها غير عربية.

وقامت في العراق وسوريا الدولة الحمدانية (٣١٧ – ٤٠٦ هـ) والدولة المرداسية (٤١٤ – ٤٧٢ هـ) والدولة العقيلية (٣٨٦ – ٤٨٩ هـ) والدولة المزيدية في الحلة (٤٠٣ – ٥٤٥ هـ) وكلها دويلات عربية.

وقامت في إفريقية الدولة الادريسية في مراكش (١٧٢–٣٦٤ هـ)، ودولة الاغالبة في تونس (١٨٤ – ٢٩٦ هـ) والدولة الطولونية في مصر (٢٥٤ – ٢٩٢ هـ) ثم الدولة الاخشيدية فيها (٣٢٣–٣٥٨ هـ)، والدولة الفاطمية في القيروان ثم في مصر (٢٩٧ – ٥٦٧هـ)، والدولة الايوبية في مصر

(٥٦٤ - ٦٤٨ هـ) ثم دولة المماليك في مصر (٦٤٨ - ٩٢٣ هـ) .

ثم ان العصر العباسي نفسه يقسم الى اطوار وفترات سياسية بحسب العنصر المتغلب ، فالطور الأول هو طور النفوذ الفارسي ويبتدئ بخلافة السفاح وينتهي بخلافة المتوكل [١٣٢ - ٢٣٢ هـ] وكان هذا الطور طور استقرار سياسي نسبياً لأنه لم تجر فيه فتوح وانما كانت الحرب فيه متصلة بين العباسيين وبين الروم البيزنطيين وكانت تتخذ صبغة غزوات دورية . وكانت السلطة في هذه الفترة للفرس الذين قامت دولة العباسيين على سواعدهم فكادوا يستأثرون بالسلطة،وكان منهم جل الوزراء والقواد والعمال ، وقد بطش بعض الخلفاء بجماعات من الفرس حين خيف اتساع سلطانهم ، فبطش المنصور بأبي مسلم الخراساني والرشيد بالبرامكة .

والطور الثاني هو طور النفوذ التركي [٢٣٢ - ٣٣٤ هـ] وكان حافلاً بالاضطرابات الداخلية، وفيه تضاءلت مكانة الخليفة حتى أصبح ألعوبة بيد القواد والحجاب من الأتراك .

والطور الثالث طور النفوذ البويهي [٣٣٤ - ٤٤٧هـ]وفيه تسلط بنو بويه من الديلم على شؤون الدولة وكثرت المنازعات الداخلية .

والطور الرابع طور النفوذ السلجوقي [٤٤٧ - ٦٥٦] ، وفي هـــذا العهد بدأت الحروب الصليبية وقام السلاجقة بقسط وافر من الدفاع عن المملكة الاسلامية ، وانتهى هذا الطور بسقوط الخلافة العباسية في أيدي المغول .

على أساس هذا التقسيم السياسي للعصر العباسي قسم مؤرخو الأدب هذا العصر الى اطوار ادبية اربعة وجعلوا لكل منهـا ميزات وطوابع ادبية خاصة ، وقد سبق لنا ان بيّنا خطأ هذا التقسيم وقلنا إن هذه الأحداث السياسية لم يكن لها وحدها ان تؤثر في الأدب العربي بل كانت هناك مؤثرات اخرى اجتماعية واقتصادية وفكرية ودينية لايصح إغفالها ، فضلا عن الفروق الإقليمية بين مختلف الأقطار التي أظلتها الخلافة العباسية .

٢ — الحياة الاجتماعية

تعقدت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي بسبب اتساع رقعة المملكة الاسلاميـة , ولتبـاين الشعوب الخاضعة لها في الأخلاق والعادات والمذاهب ، وسنلم بأبرز مظاهر هذه الحياة .

أ — الموالي والشعوبية

وجدنا ان الدولة الأموية كانت عربية في صبغتها وسياستها وانه لم يكن للموالي اي شأن في عهدها بل كان ينظر اليهم نظرة السيد للمسود فكان من الطبيعي ان يعمل هؤلاء الموالي على محاربة بني أمية والانضمام الى اعدائهم من الشيعة والخوارج والهاشميين ، وكان لهم آخر الأمر اليد الطولى في تقويض دعائم الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية .

كانت خراسان مهد الدعوة العباسية ، وكان أهلها من الفرس يلقون أشد العنت والاضطهاد من العناصر العربية طوال الحكم الاموي ، فلا غرو ان تقوم فيها نواة الدعوة العباسية على ايدي سكانها من الفرس . ولاسيما ان هؤلاء كانوا ناقمين على العرب الذين دكوا صرح دولتهم واحتقروهم وأذلوهم فكانوا يرجون من وراء نصرة العباسيين التنكيل بالأمويين خاصة والعرب عامة ، وقد أحس بعض العرب بخطر الفرس قبل اشتداده فقال نصر بن سيّار قائد الأمويين ووالي خراسان في عهدهم ينذر اليمانية والنزارية بخطر الفرس :

أبلغ ربيعة في مرو وإخوتهم	فليغضبوا قبل الا ينفع الغضبُ
ولينصبوا الحرب ان القوم قد نصبوا	حرباً يحرّق في حافاتها الحطبُ
مابالكم تلقحون الحرب بينكم ،	كأن أهل الحجى عن رأيكم عُزُبُ
وتتركون عدواً قد أظلّكمُ	مما تأشّب ، لادينٌ ولا حَسَبُ
قدماً يدينون ديناً ماسمعت به	عن الرسول ولم تنزل به الكتبُ
فمن يكن سائلا عن أصل دينهمُ	فإن دينهم أن تقتل العربُ

ولكن هذه الصيحة جاءت متأخرة وما لبثت جيوش مروان بن محمد ان انهزمت أمام جماعات الفرس والعرب الناقمين على الأمويين ، وقامت الدولة العباسية على سواعد الفرس .

بقيام دولة بني العباس تنفس الموالي الصعداء ونالوا بعض أمنيتهم ، وصار لهم نفوذ كبير في الدولة حتى قال الجاحظ : « دولة بني العباس أعجمية خراسانية ، ودولة بني مروان عربية أعرابية » ، واتخذ خلفاء بني العباس اصطناع الموالي وإبعاد العرب سنة لهم وبطشوا ببني أمية وأنصارهم واستعملوا الفرس واستوزروهم فرجحت كفتهم على كفة العرب . وبعد ان كان العرب ينظرون الى الموالي في العصر الأموي نظرة تعال وترفع ويعتبرون الجنس العربي جنساً ممتازاً فلا ينكحون بناتهم الموالي ولا يقبلون ان يكون حاكمهم او امامهم منهم ، اذا بهم في هذا العصر يضطرون الى الخضوع لنفوذهم ، فخضعوا لنفوذ الفرس اولا ثم الترك ثم الديلم .

ولكن لاينبغي ان نبالغ في رجحان كفة الفرس لأن الخلفاء كانوا عرباً ـ من جهة الاب على

الاول - وكانوا اذا شعروا بازدياد نفوذ الموالي فتكوا بهم ، صنيع الرشيد بالبرامكة والمأمون بالفضل ابن سهل ، وكان كثير من الفرس والموالي يدعون انتماءهم للعرب فأبو مسلم الخراساني يصطنع لنفسه نسباً عربياً ، ووالبة بن الحباب وابو تمام الطائي ينتسبان الى العرب ، وامثلة ذلك كثيرة . وكان الخلفاء يستعملون كثيراً من الولاة والقواد العرب كسعيد بن سلم الباهلي ، ومعن بن زائدة الشيباني، وثمامة بن أشرس، وهرثمة بن أعين . على ان نفوذ الفرس والموالي عامة كان اقوى من نفوذ العرب طوال العصر العباسي ، فأصبح الخلفاء يركنون اليهم ويكثرون من اصطناعهم ؛ يقول المسعودي في المنصور : « انه اول خليفة استعمل مواليه وغلمانه وصرفهم في مهماته وقدمهم على العرب فاتخذت ذلك الخلفاء من بعده ، من ولده ، سنة فسقطت وبادت العرب وزال بأسها وذهبت مراتبها .» وكان من اهم مظاهر هذا النفوذ امتلاء قصور الخلفاء بالموالي وبيوت الحريم بالخصيان وتصرفهم بالمراكز الكبيرة في الدولة كالوزارة وشيوع تقاليدهم وعاداتهم فشاع لبس القلنسوة الفارسية ، وصار يحتفل بيوم النيروز ، وانتشرت الثقافة الاعجمية انتشاراً بعيد الاثر .

كان من الطبيعي اذن أن يرتفع صوت الموالي في هذا العصر بعد ان كان خافتاً مخنوقاً في العصر الاموي ، فصاروا يجاهرون بعصبيتهم القومية ويفخرون بأمجادهم وحضارتهم القديمة ويحطون من قدر العرب ولا يرون لهم اية ميزة ، وقابل العرب عصبية الموالي بعصبية عربية مثلها ، والتحم الصراع بين الجانبين ، يتخذ شكلاً سياسياً تارة في الكيد والدس لدى الخلفاء والبطش حين يتاح البطش ، ويتخذ شكلاً ادبياً تارة اخرى يحمل لواءه الشعراء والكتاب والرواة ، وكان بشار بن برد في طليعة الموالي الناقين على العرب والمتعصبين لفارسيتهم ، فيقول مثلاً في هجاء عربي أهان الموالي:

أحين كُسيتَ بعد العري خزاً	ونادمت الكرام على العُقار
تفاخر يا ابن راعيةٍ وراعٍ	بني الأحرار حسبُك من خسارِ
تُريغ بخُطبة كسرَ الموالي	ويُنسيك المكارمَ صيدُ فارِ
وكنتَ إذا ظَمئتَ الى قراحٍ	شركتَ الكلبَ في ولغ الاطارِ

وقد ظهرت في هذا العصر نزعات ثلاث :

الاولى) نزعة عربية ترمي الى تفضيل العرب على سائر الامم لانهم ماخضعوا في جاهليتهم لامة من الامم ، ولانهم أهل كرم ونجدة وبيان ، ولان الاسلام نشأ بينهم ورسول الله منهم وهم الذين نشروا الدين الاسلامي بين الامم .

والثانية) لاترى فرقاً بين العرب وغيرهم لان الاسلام قد سوّى بينهم استناداً الى قوله تعالى:

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » والى الحديث النبوي : « ليس لعربي فضل على عجمي الا بالتقوى »، وكان من هذا المذهب اكثر المتدينين من العرب والعجم وهم الذين يسمون « اهل التسوية » .

والثالثة) تميل الى الحط من شأن العرب وتفضيل الأمم الأخرى عليهم ، لأنه ليس للعرب ايه ميزة ، فليست لهم حضارة قديمة كحضارات الأمم الأخرى ، وكانوا في جاهليتهم قطان صحراء وخيام يعيشون على السلب والغزو ويأكلون الضب واليربوع ، وانه لافضل للعرب على غيرهم في النبوة لأن اكثر الأنبياء من غير العرب ، ولا فضل لهم في البيان لأن لأكثر الأمم شعراً ونثراً، ولا فضل لهم في الاسلام لانه انما جاء للناس كافة ، وجُل اصحاب هذه النزعة من غير المسلمين او ممن أسلموا رياءً ونفاقاً .

وقد اطلق في بادىء الأمر على ارباب النزعة الثانية اسم الشعوبية لأنها تقول بالمساواة بين الشعوب ولكن هذا اللفظ مالبث ان عرفت به جماعة النزعة الثالثة وكادت تستأثر به ، وصار يفهم من الشعوبي ماجاء في اللسان : « والشعوبي هو الذي يصغر شأن العرب ولايرى لهم فضلا على غيرهم».

وكان هؤلاء الشعوبيون خليطاً من جميع الأمم غير العربية التي ضمتها المملكة الاسلامية بين فرس وروم وترك ونبط وزنج وزط وقبط ، وكان المتورعون يتبرأون من الشعوبية لأنهم كانوا يرون في المس بالعرب مساً بالاسلام وبالرسول العربي . وقد ظهرت حركة الشعوبية على اشدها في القرن الثالث وما بعده حين قوي نفوذ الموالي ، وقد تغاضى الخلفاء عن هذه الحركة لأن دولتهم كانت قائمة على الموالي ولأن أكثرهم كانوا من المولّدين (من اب عربي وام غيرعربية) ، فقام الشعراء يسخّرون الشعر لنيل من العرب والفخر بعجميتهم وعلى رأسهم بشار بن برد ، وديك الجن ، ومهيار الديلمي ، والخُرَيمي ، والمتوكّلي ، وهو القائل من قصيدة :

فقل لبني هاشم اجمعين — هلمّوا الى الخلع قبل الندم
ملكناكمو عنوة بالرما — ح طعناً وضرباً بسيف خَذِم
فعودوا الى ارضكم بالحجاز — وأكل الضباب ورعي الغنم

وألّف علماؤهم كثيراً من الكتب في مثالب العرب ومناقب العجم ، فألف سعيد بن حُميد البختكان كتاب « انتصاف العجم من العرب » ، وألّف الهيثم بن عدي كتباً في ذلك منها كتاب « المثالب الكبير » ، وألف غيلان الشعوبي كتاب « الميدان في المثالب » ، وألف ابو عبيدة معمر بن المثنى، وهو من كبار الرواة والنحويين وأصله من يهود فارس ، كتاب « فضائل الفرس » و « أدعياء العرب » ، وقد ضاع اكثر هذه الكتب .

كذلك عمدوا الى تشويه الأدب العربي بدس القصص الشنيعة ونسبة الشيء الى غير قائله ووضع الشعر ، ووضعوا الأحاديث على لسان الرسول العربي في فضل العجم كقولهم : « سيأتي ملك من ملوك العجم فيظهر على المدائن كلها الا دمشق » .

ومن الانصاف ان نذكر ان جل الأدباء والعلماء في العصر العباسي كانوا من غير العرب ، وعلى الرغم من حركة الشعوبية فقد ادوا للغة العرب وادب العرب وللأمة العربية خدمات جلى لا يمكن نكرانها ، فسيبويه وضع اساس علم النحو ، وابو عبيدة كان حجة في النحو والرواية .

وقد قابل العرب وأنصارهم حركة الشعوبية بحركة عربية مناهضة لها ـ كما تقدم ـ وكان على رأس المناهضين لها الجاحظ الذي ألف كتاب « البيان والتبيين » للرد عليهم ، وابن قتيبة في كتابه « تفضيل العرب » ، والاصمعي الراوية ، وكان في شعر المتنبي نزعة عربية قوية ، وهو القائل :

وانما الناس بالملوك وما ... تفلح عُربٌ ملوكها عجمُ
لا ادبٌ عندهم ولا حسبٌ ... ولا عهودٌ لهم ولا ذمم
بكل ارض وطئتها أممٌ ... تُرعى بعبد كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلمسه ... وكان يُبرى بظفره القلمُ

ب ـ الرقيق

كان الرق معروفاً عند جميع الأمم القديمة ، وكان له مصادر كثيرة أهمها الأسر في الحرب ، وقد عرف العرب الرق في جاهليتهم ولكنه كان ضئيل الانتشار ، فلما جاء الاسلام وقامت الفتوح كثر الرقيق في المملكة الاسلامية لأن كل من وقع من الكافرين في الأسر كان يسترق ، رجالاً كانوا او نساء ، ولا يزول الرق باسلام الرقيق ، وكلما كثرت الفتوحات كثر الرقيق ، حتى انهم احصوا سبي موسى بن نصير قائد الوليد بن عبد الملك بثلاثمائة الف .

وقد احل للمسلمين ان يملكوا ماشاؤوا من الجواري ، قال تعالى : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت ايمانكم » ، فاذا ملك الرجل جارية جاز له أن يتسراها وهي حلٌ له ، فيحل للرجل ان يتزوج الى اربع ، وان يملك من الجواري ويتسرى منهن ماشاء من العدد ، والأمة اذا ولدت من سيدها دعيت « ام ولد » ولا يحق لمالكها ان يبيعها واذا مات صارت حرة ، واما اولادها فهم احرار .

انتشر الرقيق في العصر العباسي انتشاراً عظيماً ، وصارت له اسواق خاصة وتجارة قائمة بذاتها ،

وكان منه الرقيق الأسود المجتلب من افريقية ، والرقيق الأبيض المجتلب من بلاد الروم والترك والصقلب ، وكان منهم الخصيان وهم أغلى من غيرهم ويصطنعون في دور الحريم ، وكافور الاخشيدي نفسه كان خصياً ، وكان الامراء والكبراء يكثرون من الرقيق ويكلفونهم بمختلف المهام ولا سيما تسخيرهم في الدفاع عنهم وحراستهم . وكان متوسط ثمن الرقيق مائتي درهم .

كثر الرقيق في العصر العباسي كثرة هائلة وكثرت الجواري حتى لم يكد يخلو منها بيت وحتى كان كثير من الخلفاء ابناء إماء كالمأمون ، واذ كانت هؤلاء الجواري مجتلبات من شتى البقاع فقد حملن معهن تقاليد بلادهن ونشرنها في المجتمع العباسي فسادت في حياة الاسرة عادات وتقاليد جديدة. وكان لهؤلاء الجواري كبير الاثر في نشر الفنون الجميلة ولا سيما الغناء والموسيقى والرقص ، وكان لهن اثر بين في الأدب ، فقد كان الأدباء ينفقون اوقات لهوهم في مجالس القيان والجواري ، ويتغنون بهن ويتغزلون بمجالهن ، حتى امتلأ الشعر العباسي بذكر القيان . وكان لهن كذلك بعيد الاثر في شيوع حياة الخلاعة وفشو الفسق والاستهتار في المجتمع العباسي ، مما اضطر الناس الى عزل حرائر النساء في الدور والزامهن الحجاب تمييزاً لهن من الجواري ، وصوناً لهن من التعرض المجان . وأدت كثرة الجواري الى اعراض فريق من الناس عن الزواج والاكتفاء بالتسري ، صنيع الجاحظ. وللعرب كلام في بيان ميزة الجارية على الحرة كقولهم : « عجبت لمن لبس القصير كيف يلبس الطويل ، ولمن أحفى شعره كيف أعفاه ، وعجباً لمن عرف الإماء كيف يقدم على الحرائر . » وقد سمي اولاد الجواري بالمولدين .

م — العادات والآداب العامة:

كانت الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي بسيطة في مظاهرها ، بعيدة عن الترف والتعقيد ، لبساطة العرب في ذلك الحين وفقرهم وضيق أفقهم . ثم خطت الحياة الاجتماعية نحو التعقيد منذ الفتوح الاسلامية واتصال العرب بالأمم المفتوحة ولكن المجتمع ظل طوال العصر الأموي محتفظاً بالطابع العربي ملوناً ببعض الألوان الأعجمية .

ولكن هذا المجتمع بلغ غايته من التعقد والبعد عن الطابع العربي إبان العصر العباسي ، لأن هذا المجتمع صارت كثرته من الأمم غير العربية ، وكلها قد حملت الى المجتمع الاسلامي عاداتها وآدابها وعملت على نشرها ، وأخذ الخلفاء منذ عصر المهدي يحيون حياة الترف والتنعم ويأخذون بألوان الرفاهة والحضارة ويحاكون الأمم الأخرى في آدابها وازيائها ، وكانت الفترة الأولى فترة استقرار

نسبي وغنى فتأنق الخلفاء والخاصة في الطعام والملبس والمسكن ، فتنوعت صنوف الأطعمة وفشت الأطعمة الفارسية وغيرها كالسكباج والفالوذج واللوزينج والطباهجة ، وأصبح المائدة آداب وتقاليد خاصة ، فكان المهلبي وزير معز الدولة يستعمل في طعامه اربعين ملعقة ، وكان سيف الدولة اذا جلس الى الطعام جلس معه جمع من الأطباء يشيرون عليه بما يأكل واتقن كذلك في الشراب وانواعه ، وكان اكثر الخلفاء يشربون النبيذ على مذهب ابي حنيفة وفقهاء العراق في تحليله .
وتطورت الملابس كذلك في العصر العباسي وعرفت انواع الأنسجة الحريرية والصوفية كالخز - وهو نسيج ناعم من الحرير ووبر الأرنب - والديباج - وهو الحرير الموشى بالقصب - والابريسم - الحرير الخالص - . واتخذت الدراعات والأقبية والطيلسانات والجبب والعمائم ومنذ عهد المنصور سادت القلنسوة الفارسية الطويلة وفوقها العمامة ، وكان لكل طبقة من الناس زي خاص تعرف به وبعد ان كنا نسمع ان عمر بن الخطاب لم يكن له الا ثوب واحد فاذا اتسخ جلس في داره ريثما يغسل ، اذ بنا نسمع ان الخليفة المكتفي ترك بعد وفاته ثلاثة وستين الفاً من الأثواب الخراسانية المروية والفاً وثمانمائة من الحلل اليمانية الموشاة وغيرها .
وكذلك تطورت المباني واثاثها تطوراً كبيراً في هذا العصر ، وحلت القصور والميادين والحدائق محل بيوت الشعر والخيام ، واتخذت الآنية من الذهب والفضة والعاج والطنافس والبسط المنسوجة من الذهب . وقد ذكر لنا ان المأمون اعطى بوران ليلة زفافها الف حصاة من الياقوت وبسط لها فرشاً كان الحصير منها منسوجاً بالذهب مكللاً بالدر والياقوت .
وأسرف الخلفاء والمترفون في حياة اللهو ينفقون على ملاذهم الاموال الطائلة ، وكثرت مجالس الغناء والشراب واللهو و لعبوا بالنرد والشطرنج وغلوا فيهما ، وعنوا بتربية الحمام وتغالوا في أثمانه، وتهارشوا بالديوك والكلاب . ولعب ابو نواس بالكلاب زماناً حتى عرف منها مالا تعرفه الأعراب ، وانتشر القمار حتى في حانات الفقراء ... (ضحى الاسلام) ج ١ »
وكانت حياة الأمين مثلا لحياة الترف والبذخ واللهو ، فكان مما عمله انه جمع جميع المغنين وأجرى عليهم الأرزاق وغالى في ابتياع فره الدواب والوحوش والسباع والطير ، وصنع حراقات في دجلة كلفته اموالا عظيمة ليلهو فيها .
وقد شاعت في هذا العصر كثير من العادات الفارسية وغير الفارسية، كالاحتفال بعيد النيروز. كما فشت بتأثير الفرس بعض الميول الجنسية المنحرفة التي ظهر أثرها في الشعر فيما دعي بالغزل المذكر.
ولكن هذه الحياة العابثة اللاهية لم تكن لترضي جميع الأمزجة، فقد قوبلت نزعة اللهو بنزعات

مقابلة ترمي الى القضاء على الفساد والفسق . كذلك الحركات التي قام بها الحنابلة وخالد الدريوش وسهل بن سلامة ، وكحركة الزهد التي قام بها امثال ابي العتاهية ولكنها كلها لم تكن تمثل طابع ذلك العصر .

هذا موجز عما اصاب الحياة الاجتماعية من التطور الكبير في العصر العباسي .

ثالثاً — الحياة الاقتصادية

ازدهرت الحياة الاقتصادية بوجه عام في العصر العباسي لأنه كان عهد استقرار نسبي ورخاء مادي ، فانصرف العباسيون الى العناية بالزراعة والصناعة والتجارة ، وتغيرت نظرة العربي الى هذه المهن فبات لايجد من الغضاضة ممارستها ، وقد عني بنو العباس باصلاح الري لتنشيط الزراعة وكان ما بين النهرين : دجلة والفرات يعتبر من اخصب بقاع المملكة واحفلها بالترع والمصارف . وقد ذكر ابن حوقل ان جنوبي العراق كان يحتوي على مائة الف ترعة كبيرة وصغيرة . وأقيمت السدود على الأنهار واستعملت آلات رفع المياه كالغرافة والناعورة والدولاب وبنيت المقاييس لمعرفة ارتفاع الماء ولا سيما في نهر النيل .

وكذلك ازدهرت الصناعة في هذا العصر لان ازدهار الصناعة منوط بزيادة الثروة وشيوع الترف وتعقد اسباب الحياة الحضرية ، فاستخرجت المعادن والأحجار الكريمة من مختلف بقاع الدولة وصنعت منها مختلف الأدوات والأوائل ، وخرجت صناعة النسيج عن بساطتها الأولى فعرف العرب اصنافاً جديدة منه تلائم حياة الترف والرخاء وافتن في صنع الانسجة وتوشيتها وتحليتها بالذهب والفضة . وكذلك ازدهرت صناعة العطور والطيوب التي كثر الاقبال عليها في ذلك العصر .

وازدهرت ايضا التجارة بازدهار الزراعة والصناعة ولاتساع رقعة المملكة ، حتى صارت بغداد والاسكندرية من اهم المراكز التجارية في العالم ، وكانت قوافل التجار وسفنهم تنقل الحاصلات والبضائع الى مختلف اجزاء المملكة الاسلامية والى العالم ، ومن اهم المراكز التجارية في ذلك العصر البصرة وعدن ودمشق وعمان فضلا عن بغداد والاسكندرية . وقد نشأت بسبب ازدهار التجارة طبقة من التجار ذوي الثروات الواسعه كآل الجصاص تجار الجواهر في مصر وبغداد .

ولا ريب ان العرب افادوا كثيراً من النظم الاقتصادية التي كانت سائدة في البلاد المفتوحة واقتبسوها كأنظمة الري والخراج وانشاء طرق المواصلات .

رابعاً — الحياة الفكرية والفنية

لاشك ان العصر العباسي كان ارقى العصور التي مرت على الامة الاسلامية فكرياً وفنياً ، ففيه ازدهرت العلوم ونشطت الفنون ، وفيه نقلت الى العربية اكثر المؤلفات اليونانية والفارسية والهندية وفيه ظهرت اخصب الحركات الفكرية والمذاهب الفلسفية ، وفيه تلاقحت الثقافات المتنوعة وانتجت ثقافة اسلامية متعددة الالوان متشعبة النواحي .

وعلى الرغم مما كان يلقاه بعض المجاهرين بأفكارهم من الاضطهاد والعنت في العصر العباسي فقد كان هذا العصر ، على الجملة ، عصر حرية فكرية أتاحت ظهور مذاهب فكرية وفلسفيه متنوعة ، وكان عصر المأمون من انشط العصور في الناحية الفكرية . ويصف الجاحظ حرية الفكر في عصره بقوله : « وقد أمكن القول ، وصلح الدهر ، وخوى نجم التقيد ، وهبّت ريح العلماء ، وكسد العي والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم .. » وكان من اثر هذه الحرية الفكرية ان نشطت الفرق الدينية المختلفة كالمعتزلة والمرجئة والاشعرية كما ظهرت جماعة الزنادقة والشكاك .

وقد ادى وقوف المسلمين على ثقافات الامم المختلفة في هذا العصر واطلاعهم على الفلسفة والرياضيات بخاصة ، الى تغير نظرتهم الى الحياة والى حدوث انقلاب فكري جليل الخطر ، ظهر اثره واضحاً في الادب شعراً ونثراً ، فضلا عن ان العلوم لم تعد مقتصرة على الصبغة الدينية كما كان عليه الحال من قبل ، وفي هذا العصر وضعت اصول معظم العلوم فترجمت كتب الطب والفلسفة والرياضيات على ايدي التراجمة السريان ، وما لبث المسلمون ان هضموا هذه المترجمات وصاروا يؤلفون فيها ، فظهر فلاسفة كالكندي والفارابي وابن سينا ، وأطباء كأبي بكر الرازي وابن سينا والزهراوي ، وعلماء طبيعيون كجابر بن حيان والرازي والحسن بن الهيثم والبيروني ، وعلماء رياضيون كالخوارزمي وابي معشر البلخي .

وكذلك ازدهرت علوم اللغة والادب والنحو فوضع الخليل بن احمد اول معجم لغوي ووضع علم العروض وأصول الايقاع . وألف سيبويه « الكتاب » في النحو ، ووضع الجاحظ وابن قتيبة أصول الكتب الادبية كالبيان والتبيين والبخلاء والحيوان للاول والشعر والشعراء وعيون الاخبار وأدب الكاتب للثاني وألفت كتب كثيرة في البلاغة والنقد كنقد النثر ونقد الشعر لقدامة بن جعفر والصناعتين لأبي هلال العسكري وأسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني والوساطة للقاضي الجرجاني والموازنة للآمدي .

وكذلك ألفت في هذا العصر اشهر كتب التاريخ والجغرافية كتاريخ الطبري وسيرة ابن هشام ومروج الذهب للمسعودي والكامل لابن الاثير ومسالك الممالك للاصطخري ومثله لابن حوقل واحسن التقاسيم للمقدسي ومعجم البلدان لياقوت الحموي .

وكان من اثر تألف المملكة الاسلامية من امم مختلفة لكل منها حضارتها وثقافتها ان انتشرت ثقافات هذه الامم وتلاقحت وتمازجت وخرجت منها ثقافة اسلامية جديدة ذات طابع خاص ، واشهر ثقافات ذلك العصر : الثقافة الفارسية التي كان من اثرها شيوع الالفاظ الفارسية في اللغة العربية وانتشار آداب الفرس وترجمة كتبهم في الحكمة والادب والتنجيم والهندسة . وكان ابن المقفع من كبار النقلة من اللسان الفارسي الى اللسان العربي .

والثقافة الهندية وهي تتصل بالرياضيات والفلسفة والتصوف .

والثقافة اليونانية وهي تقوم على الفلسفة وعلم النجوم والطب والفلك . اما الادب اليوناني فلم يسغه العرب ولم يعنوا به ؛ كل ذلك الى جانب الثقافة العربية وجلها يدور حول علوم اللغة والادب.

وقد ساير الازدهار الفكري ازدهار فني ولاسيما في فنون العمارة والنقش والموسيقى والغناء وقد حدت تعاليم الاسلام من نشاط فنون الرسم والتصوير والنحت لاسيما ما كان متصلا منها بالاشخاص والحيوان لان فيها مشاكلة لخلق الله تعالى ، فكان يعمد الى اخفاء الرسوم وتمويهها. وحول المسلمون نشاطهم الفني في هذا المضمار الى الزخرفة الهندسية والكتابية ، وكان مجالهم الفني الاول في فن العمارة ولاسيما عمارة المساجد التي ابدعوا فيها أيما ابداع وصارت لفن البناء مدارس خاصة تأثرت بأصول الفرس والرومان وغيرهم . وأدى شيوع الترف واللهو في العصر العباسي وكثرة الجواري والقيان الى ازدهار في الغناء والموسيقى ازدهاراً عظيماً نجد من آثاره تأليف كتاب « الاغاني » لابي الفرج الاصفهاني ، واشتهر من المغنين ابن سريج ومعبد وابراهيم الموصلي وابنه اسحاق وسلامة وحبابة .

خامسا — الفرق والمذاهب الدينية

ذكرنا من قبل انه على اثر موقعة صفين نشأت اصول بعض الفرق الاسلامية وهي الخوارج والشيعة كذلك ظهرت في العصر الاموي اصول القدرية والمعتزلة والمرجئة .

فالقدرية هم القائلون بحرية الاختيار ، وان الانسان خالق لافعاله ، وكان زعماء هذه الفرقة معبد بن خالد الجهني وغيلان الدمشقي .

والمرجئة هم القائلون بأن الايمان هو التصديق بالقلب ولا عبرة للظاهر ، وان العمل ليس ركناً من أركان الاسلام .

والمعتزلة هو المذهب العقلي الذي أقام الاسلام على أساس فلسفي عقلي هو القول بحرية الارادة ، وكانت له أصول خمسة يقوم عليها هي التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

هذه المذاهب كلها استمرت في العصر العباسي ولا سيما الاخير منها . ولكنها اتخذت صبغة فلسفية قوية واستندت الى الفلسفة اليونانية وغيرها واستمدت منها بعض اصولها وحججها، وهاجمت مانيها من معارضة للدين الاسلامي . وقد لقي مذهب المعتزلة معارضة عنيفة قام بها جماعة احمد بن حنبل والاشاعرة ، وكان من مجموع هذه الحركات الدينية ان نشط علم الكلام واذدهر في هذا العصر حتى عده بعض فلاسفة الغرب فلسفة المسلمين الحقة .

اثر الحياة العامة في اللغة والادب

هذه الحياة العامة المعقدة الخصبة ، التي رسمنا خطوطها البارزة ، كان لها اثرها البين في اللغة والادب ، شعره ونثره ، في ذلك العصر . ومن العسير رصد هذا الاثر رصداً مفصلا وحسبنا من ذلك الالمام والاشارة .

فمن هذه الآثار ان الحياة الادبية والفنية كانت تتركز في جملتها في دائرة البلاط وكبار الخاصة لانهم كانوا هم الذين ينفقون على الادب والفن ، فبيدهم ازدهارها او القضاء عليها، فاتجه الادب اتجاهاً ارستقراطياً ، وكان من ذلك ان عد فن المدح الفن الاول في الادب ووجهت اليه اعظم العناية وكثرت فيه الصنعة مع اننا نعد اليوم هذا المدح اقل الشعر شأناً لانه اضعفه عاطفة واكثره تكلفاً . وكان من هذا ايضاً ان قلما تفرغ الشاعر لنفسه ليتغنى عواطفه وميوله الخاصة ، ومن فعل هذا كان في غنى عن عطاء الخلفاء والامراء كابن المعتز وابي فراس ، واضطر ابن الرومي حين ركب هذا المركب ان يعيش في ضائقة شديدة . وكان الحكم الفني بطبيعة الامر هو هذه الطبقة السرية المترفة وكانت حياتهم المترفة الناعمة الحافلة بصنوف التكلف والزخرف والتنميق تملي عليهم

ذوقاً فنياً قائماً على الزخرف والتنميق والصنعة ، فلا غرو أن تسود الأدب العربي الصنعة والتكلف، ولاسيما منذ القرن الرابع ، فامتلأ الشعر والنثر العربيان بالزخرف والصنعة والتكلف والتأنق وكان من اثر ذلك ظهور فن أدبي قائم بجملته على الصنعة هو فن « المقامات » ، وظهرت آثار هذه الصنعة في الإكثار من فنون البديع شعراً ونثراً .

واذ كانت النزعة الغالبة في العصر العباسي هي نزعة اللهو فقد اصطبغ الأدب العربي في هذا العصر بهذه الصبغة ، فكثر فيه المجون والغزل المؤنث والمذكر والخمريات ووصف القيان ومجالس الطرب والغناء كالذي نجده في شعر بشار وابي نواس ومسلم بن الوليد وابن الرومي . ولكن النزعات الأخرى كان لها صداها في الشعر ايضاً فنزعة الزهد نجدها في شعر ابي العتاهية وابي العلاء ونزعة الجد والطموح نجدها في شعر المتنبي وابي فراس .

وكما تعقدت الحياة في العصر العباسي وتعددت الوانها فكذلك تعقدت الحياة الأدبية وتشعبت انواعها ، فظهرت ضروب جديدة من الشعر كالموشح والدوبيت والمزدوجة (فالموشح يزاوج بين قافيتين احداهما لازمة والأخرى متغيرة ، والدوبيت قصيدة لكل بيتين منها قافية ، والمزدوج هو ان يكون لكل بيت قافية واحدة في الشطرين الأول والثاني) وظهرت انواع جديدة من النثر ، فهناك الكتابة العلمية والكتابة الأدبية ، ومن ضروب الكتابة الأدبية « الاخوانيات » التي تكون بين الأصدقاء ، و « الرسائل السلطانية » التي كانت تصدر عن دواوين الرسائل في الدولة ، و« الرسائل الأدبية » التي تدور حول مختلف الموضوعات كرسائل الأدب الصغير والكبير لابن المقفع ورسائل الجاحظ وابي العلاء والقاضي الفاضل وغيرهم . . و « المقامات » وهو فن من النثر يقوم على القصص المسجوع الممزوج بالفكاهة والشعر . وظهرت طرائق كتابية متنوعة تنسب الى اصحابها كطرائق ابن المقفع والجاحظ وابن العميد والقاضي الفاضل .

ولم تلق الخطابة كبير ازدهار في هذا العصر لشيوع اللحن وفساد السلائق اللغوية واقتصرت على خطب الأعياد والجمع والمناسبات ، ولكن فناً آخر ارتقى في هذا العصر هو فن « المناظرات » في المسائل العلمية والأدبية كمناظرة سيبويه والكسائي ، والهمذاني والخوارزمي ، وغيرهما .

وكان للثقافات المختلفة اثرها في الأدب ايضاً فقد ظهر فيه اثر المنطق والفلسفة في التعمق والغوص وراء الفكرة واصطناع مصطلحات المناطقة حتى ضاق بذلك بعض الشعراء فقال البحتري:

كلفتمونا حدود منطقكم   والشعر يغني عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالـ   ـمنطق مانوعه وما سببه

والشعر لمح تكفي اشارته　　　　وليس بالهذر طوّلت خطبه

ويبدو اثر الفلسفة واضحاً في اشعار ابي تمام والمتنبي وابي العلاء المعري ، سواء من ناحية الأفكار او من ناحية الشكل والصياغة . وقد اتسع الأدب لفنون واغراض جديدة كوصف الطبيعة والشعر القصصي والشعر المروي عن ألسنة الحيوان والشعر التعليمي ، ولم يخل الأدب ايضاً من اثر العلوم الطبيعية والرياضية ولاسيما علم النجوم .

اما اللغة العربية فلئن قدر لها الانتشار الواسع حتى صارت لغة الأمم التي اظلتها الراية الاسلامية، ولاسيما في فارس ، فانها من جهة اخرى تأثرت بلغات هذه الأمم ففشت فيها الألفاظ الأعجمية وعرب كثير من الالفاظ كما فشا فيها اللحن وفسدت السلائق اللغويه حتى احوج الأمر الى وضع الكتب الكثيرة في اللغة والنحو .

* * *

النقل والنقلة

في العصر العباسي

كان العصر العباسي العصر الذهبي للفكر الاسلامي ، ففي بوتقة المملكة الاسلامية تمازجت الثقافات المختلفة وولدت حركة فكرية خصبة كل الخصب . وكان لحركة الترجمة التي نشطت في هذا العصر اليد الطولى في ازدهار الحياة الفكرية ، فبفضلها وقف العرب على تراث الامم المجاورة لهم ، وهي امم ذوات حضارات عريقة لاعهد للعرب بها ؛ فسرعان ماوقف العرب على هذه الثقافات اليونانية والفارسية والهندية ، وسرعان ماهضموها وتمثلوها ، ، فظهرت الحركات الفلسفية والعلمية ، وانجبت فلاسفة وعلماء ممتازين .

ولم تكن حركة الترجمة التي ظهرت في العصر العباسي اول حركة نقل عرفها الشرق ، فالحق ان الشرق الذي دان لليونان ولثقافتهم امداً طويلاً لم يلبث بعد انتشار المسيحية في ارجائه ان تمرد على الوثنية اليونانية فصار الشرق يتمثل فلسفة الاغريق بلغته الخاصة ويوجهها توجيهاًمسيحياً ،فنقل طائفة من السريان كتب اليونان الى اللغة السريانية .

فلما قامت المملكة الاسلامية كان لهؤلاء السريان أنفسهم الفضل في نقل آثار اليونان الى العربية ، فنقلت الكتب من السريانية الى العربية .

بدأت حركة الترجمة منذ العصر الاموي وكان بدؤها نقل الدواوين الى العربية ، ثم ذكروا ان عمر بن عبد العزيز سأل بعض الروم ممن كانوا في قصره ان يترجموا له كتاباً في الطب ثم وضعه في المصلى واستخار الله اربعين يوماً ثم اخرجه للناس . وذكر ابن النديم في الفهرست ان اول نقل في الاسلام كان على يد الامير خالد بن يزيد بن معاوية (توفي سنة ٨٥ هـ) ، وكانت عناية هذا الامير منصرفة الى ترجمة كتب الصنعة ـ اي الكيمياء ـ لانه كان يرى امكان تحويل المعادن الى

ذهب ، وتحت تأثير هذه الفكرة كلف بعض اهل مصر بنقل كتب الصنعة من اللسان اليوناني واللسان القبطي الى اللسان العربي .

بيد ان حركة الترجمة لم تنشط الا في العصر العباسي وفي عهد المأمون بخاصة ، فقد ادرك العرب في هذا العصر ان عند العجم علوماً لا عهد للعرب بها ، وانها جديرة بالنقل الى اللسان العربي ، واول هذه العلوم الطب لحاجة الخلفاء والعرب اليه ، ومن هنا كان معظم نقلة القرن الثالث من الاطباء ، ونشطت حركة النقل منذ عهد المنصور الذي امر بنقل كتب في الطب والهندسة والفلك ، وظل طابع الترجمة حتى عصر المأمون علمياً اكثر منه فلسفياً ، لأن المسلمين كانوا ينظرون الى فلسفة اليونان الوثنية نظرة اشفاق وحذر لما فيها من التعاليم المخالفة للاسلام ، ولكن لم يلبث الفكر الاسلامي ان شعر بحاجته الى منطق اليونان وفلسفتهم ليدعم بها هذه المذاهب الفكرية والدينية التي حفل بها العصر العباسي . وكان للمأمون كبير الأثر في نشاط حركة الترجمة اذ أخذ يراسل ملوك الروم في طلب الكتب ويجعل طلبها احياناً من شروط الصلح ، كما انه ارسل بعثة الى بلاد الروم حملت اليه طائفة من الكتب في شتى العلوم ، ونظم دواوين الترجمة وأنفق على النقلة الأموال الوفيرة حتى غص بيت الحكمة بالكتب .

ولم تكن كل هذه الكتب سواء في دقة الترجمة وفي جودة التراكيب وصحة الأسلوب لأن التراجمة لم يكونوا كلهم من المتضلعين في اللغه العربية فضلاً عن جهلهم احياناً بموضوع الكتب ، صنيع ابي بشر متى بن يونس القُنَّائي (سنة ٣٢٨ ه) حين ترجم كتاب الشعر لأرسطو فقد كانت هذه الترجمة على غاية من الضعف والركاكة حتى انه ترجم الكوميديا بالهجاء والتراجيديا بالمدح . ثم ان اللغة العربية لم تستطع النهوض بالمصطلحات الجديدة كلها لأنها لم تكن من قبل لغة علم وفلسفة ، وقد ذكر البهاء العاملي في كتابه الكشكول طريقين للترجمة في ذلك العصر ، قال : « وللتراجمة في النقل طريقان ، احدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن ناعمة الحمصي وغيرهما ، وهو ان ينظر الى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية وما تدل عليه من المعنى ، فيأتي الناقد بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها ، وينتقل الى الأخرى كذلك حتى يأتي على جملة مايريد تعريبه . وهذه الطريقة رديئة لوجهين احدهما انه لايوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع الكلمات اليونانية ، ولهذا وقع في خلال التعريب كثير من الألفاظ اليونانية على حالها . الثاني ان خواص التركيب والنسب الاسنادية لاتطابق نظيرها من لغة اخرى دائماً . وايضاً يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات .

« الطريق الثاني في التعريب طريق حنين بن اسحاق والجوهري وغيرهما ، وهو ان يأتي بالجملة

فيحصل معناها في ذهنه، ويعبر عنها من اللغة الاخرى بجملة تطابقها، سواء ساوت الالفاظ ام خالفتها. وهذا الطريق اجود، ولهذا لم تحتج كتب حنين بن اسحق الى تهذيب الا في العلوم الرياضية لانه لم يكن قيماً بها..»

اشهر التراجم والكتب المترجمة

كان معظم التراجمة من السريان، وكانت اكثر الكتب منقولا عن اليونانية، سواء بصورة مباشرة او بطريق غير مباشرة، بوساطة السريانية او الفارسية، لان الفرس انفسهم كانوا متأثرين الى حد بعيد بالثقافة اليونانية. ولكن كانت هناك ترجمة لكتب غير يونانية ولا تتصل بثقافة اليونان، وانما تتصل بثقافة الفرس الاصيلة والثقافة الهندية.

وقد اشتهر من النقلة عن اللسان الفارسي: عبد الله بن المقفع و آل نوبخت والحسن بن سهل والبلاذري و محمد بن الجهم البرمكي وجبلة بن سالم وغيرهم.

فينسب الى عبد الله بن المقفع ترجمة كتاب «خداي نامه» في تاريخ الفرس، ولعل الطبري قد اعتمد عليه في تاريخه، وترجمة كتاب «آيين نامه» وهو كتاب في وصف نظم الفرس وتقاليدهم، وترجمة كتاب «كليلة ودمنة» وهو مترجم في الاصل عن الهندية؛ وذكر القفطي في اخبار الحكماء ان ابن المقفع هو اول من عني بترجمة الكتب المنطقية ولا سيما كتب ارسطو لابي جعفر المنصور، وهذه الكتب كانت مترجمة من اليونانية الى الفارسية فنقلها ابن المقفع الى العربية غير ان المستشرق باول كراوس يستظهر ان الذي قام بأكثر هذه التراجم هو مترجم آخر غير عبد الله بن المقفع اسمه محمد بن المقفع.

وقد نقلت على يد تراجمة الفرس اكثر آثار فارس الدينية والادبية والعلمية، وما كان منقولا من اليونانية والهندية الى الفارسية، فترجم كتاب زرادشت المسمى «أفستا»، وترجم كتاب «هزار أفسانه» اي الف خرافة، وهو أصل الف ليلة وليلة، وترجم كثير من الكتب الاخرى التي فقد معظمها.

ونقل العرب عن الهند علوم الرياضيات والنجوم والطب وشيئاً من حكمتهم وصناعاتهم، وكان للثقافة الهندية أثر قوي في العقلية العربية، فنلاحظ مثلاً شيوع مذهب التناسخ في بعض الفرق الدينية، غير ان اكثر مانقل عن الهنود كان بوساطة اللغة الفارسية والنقلة الفرس.

واما الثقافة اليونانية فكان نقلها على يد النصارى والصابئة، وكانت اهم مراكز الثقافة اليونانية «الرها» و «نصيبين» و «حران» و «جنديسابور» فنقل المسيحيون اليعاقبة والنساطرة

والملكانيون ثقافة اليونان الى لغتهم السريانية ثم قاموا بدور الوسيط بين اليونان والعرب فنقلوا هذه الثقافة الى العربية . وكذلك نقل الصابئة ، اهل حران ، جملة من الكتب ولاسيما في علم النجوم .

وكانت عناية العرب متجهة في بادىء الامر الى كتب الطب والتنجيم لحاجتهم اليها حتى عرف في العصر العباسي جماعة من الاطباء اختصوا بالخلفاء وترجموا لهم بعض الكتب الطبية ، منهم « جورجيس بن جبريل بن بختيشوع » طبيب المنصور ، ومنهم « بختيشوع بن جرجيس » طبيب الرشيد ، « ويوحنا بن ماسويه » طبيب المأمون .

ثم اتجهت عنايتهم منذ عهد المأمون الى كتب الفلسفة ، ولاسيما منطق ارسطو ، فترجمت جميع كتب ارسطو المنطقية بما فيها كتابا « الخطابة » و « الشعر » له . ولكن العرب لم يعنوا بترجمة الآداب اليونانية مع رقيها ، لانهم كانوا ينظرون الى الادب العربي على أنه ارفع الآداب وأرقاها ، ولانهم لم يستطيعوا ان يسيغوا آداب اليونان وهي تتجه اكثر ماتتجه الى المسرحيات ولم يستطيعوا تذوق فنونهم الادبية وفهمها فانصرفوا عنها ، ومع ذلك فقد كان لكتاب الخطابة ، الذي عدوه من منطق ارسطو ، اثر بعيد في البلاغة العربية .

وقد اشتهر من تراجمة السريان « حجاج بن يوسف بن مطر » و « يحيى بن البطريق » و « عبد المسيح بن ناعمة الحمصي (٢٢٠ هـ) و « قسطا بن لوقا البعلبكي » (حوالي ٢٩٠ هـ) و « حنين بن اسحاق » (٢٦٠ هـ) ، وهو من اوفر المترجمين انتاجاً وابنه « اسحاق بن حنين » (٢٩٨ هـ) وابن اخته « حبيش بن الحسن الاعسم » و « ابو بشر متى بن يونس القنائي » (٣٢٨ هـ) و « ابو زكريا يحيى بن عدي المنطقي » (حوالي ٣٦٤ هـ) و « ابو علي اسحاق بن زرعة » (٤٤٨ هـ) . واشتهر من تراجمة الصابئة « ثابت بن قرة » (٢٨٨ هـ) و « سنان بن ثابت » وابناؤهما .

ومن أشهر الكتب التي ترجمت على ايديهم كتب ارسطو المنطقية المعروفة « بالاورغانون » يضاف اليها كتابا الخطابة والشعر اللذان عدهما العرب من منطق ارسطو ، وكذلك كتب ارسطو في الطبيعيات والالهيات والاخلاق ، وأضافوا اليه بعض الكتب التي هي من وضع فلاسفة الاسكندرية . وكذلك ترجموا اكثر كتب افلاطون ككتاب « الجمهورية » و « القوانين » و « تيماوس » و « السوفسطائي » و « فيدون » وغيرها . هذا فضلا عن مؤلفات اقليدس وجالينوس وبقراط وارخميدس وأبولونيس وفيثاغورث وغيرهم ممن كان لهم الاثر العميق في العقلية العربية .

مصادر

١ — الفهرست لابن النديم .(٢ — اخبار الحكماء للقفطي .(٣ — ضحى الاسلام لاحمد أمين .

النثر في العصر العباسي

الخطابة

ابو جعفر المنصور

خطب المنصور « بالمدائن »، قرب مدينة بغداد، بعد أن قتل ابا مسلم الخراساني، فقال:

أيها الناس!

١ — لا تَخرجوا من أُنس الطاعة الى وَحشة المَعصِية! ولا تُسِرّوا (١) غِشّ الأئمة، فانه لم يُسِرّ أحد مُنكَرَةً الا ظهرت في آثار يده، وفلتات لسانه، وصفحات وجهه. وأبداها الله لامامه باعزاز دينه، واعلاء حقه.

٢ — انّا لم نَبْخَسْكُم (٢) حقوقكم، ولن نَبْخَس الدّيْن حقّه عليكم، انه مَن نازَعنا عُروةَ هذا القميصِ أجزرْناه (٣) خَبِيَّ هذا الغِمْد، وان أبا مسلم بايعنا، وبايع الناسَ لنا، على أنه من نكثَ بنا فقد اباح دَمَه. ثم نكث بنا فحكمنا عليه لأنفُسنا حُكمَه على غيره لنا. ولم تَمنَعْنا رعايةُ الحق له في اقامة الحق عليه.

---

(١) أسر الشيء: كتمه ولم يعلنه. (٢) لم نبخسكم حقكم: لم نهضم لكم حقاً ولم ننقص. (٣) أجزرناه: أعطيناه جزوراً (من النوق او الغنم) بذبحها. ولكن الجزور هنا انما هي السيف الذي كنى عنه « بخبي هذا الغمد »!

تحليل الخطبة

قائل الخطبة

هو ابو جعفر ، عبد الله بن محمد بن علي ، الملقب بالمنصور . تولى الخلافة بعد اخيه ابي العباس السفّاح سنة ١٣٦ هـ . ويعتبر المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ، وقد اقام حكمه على البطش وسفك الدماء وممن بطش بهم عمه عبد الله بن علي الذي ثار عليه بالشام ، وابو مسلم الخراساني سنة ١٣٧هـ، ومحمد النفس الزكية واخوه ابراهيم العلويان . وقد تم في عهده بناء مدينة بغداد على ضفة دجلة الغربية ، وتوفي عام ١٥٨ هـ .

المناسبات التي قيلت فيها :

استطاع العباسيون بما أوتوا من دهاء وقوة ، وبما بذلوا من نشاط أن يقضوا على الدولة الأموية وهي في أوج عزتها . ساعدهم على ذلك مايتمتعون به من نسب هاشمي ، وأعوان مبثوثين في مختلف الأقطار ، وما وقع فيه خصومهم من زلات . ولعل ابرز ما ساعد العباسيين على انتشار أمرهم مالقيته دعوتهم من نصرة عند الموالي والأعاجم كالفرس ، والفرس أهل طموح وانتقام . ولعل زعيمهم أبا مسلم الخراساني كان في طليعة هؤلاء القوم ، يحمل طموح الأكاسرة وحكمتهم وشدتهم. أخلص للعباسيين أولاً ، ثم داعب مخيلته ماداعبها من طمع وطموح . وأول ما كان يذهب اليه انفصال الرقعة الفارسية عن المملكة العربية ، أو نقل الحكم من العرب الى الفرس ـ وللفرس دانت الحكومة ـ ولكنه صادف داهية باقعة دون ما اراد . وكان الدهاء العربي لايزال في عنفوانه ، فنازل الدهاء الفارسي ، واستدرجه الى مافيه هلاكه بعد أن أنذر بالشر . ولم ينثن المنصور عن ان يحكم على أبي مسلم ، وهو رافع لواء العباسيين ، لأن الصداقة شيء ، وصالح الدولة شيء آخر .

وقد كان طبيعياً أن يفشي القلق في الناس ، وأن يكثر الهمس والتساؤل ، وأن تهم الفتنة بين العرب والفرس .. بل لقد تركت أثراً فيها : فالعرب على غبطة بما صار والفرس ومن يواليهم بهتوا وأُخذوا .

ازاء هذه الحالة المضطربة يخطب المنصور قوياً لاضعيفاً ، يعرض حجته بنصاعة بيان .

توصيته للناس - على طريقة الطلب بحزم - بلزوم الطاعة، وتجنب المعصية والابتعاد عن كتمان الغش للأئمة، لأن الغش تظهر بوادره على اللسان ان أخفتها اليد، وعلى أسرة الوجه ان كتمها اللسان. والله معين خليفته، ومعز دينه باعزازه.

ولعل هذه الوصية تبرز لنا وجهاً صحيحاً عن حالة ذلك العصر، وما كان من أهله، وانك لن تجد قلقاً كذلك القلق، ولا اضطراباً كمثله، وهو عصر انقلب على دولة، وأعز دولة بشوكة السلاح، فالناس فيه مختلفون، منهم من يعلن غير مايبطن، ويبطن غير مايعلن، ويمشي حيث لا يريد ... لأن الأهواء مختلفة، والمطامع مستحكمة. والعباسيون أنفسهم لن يفوتهم تقدير هذه الحالة لأنهم أهلها، سلكوا الى غايتهم الطريق نفسه. وكانت دعوتهم سرية قبل ان تكون علنية. وتأمل مدى حذق هذا الخليفة الذي نعتوه بالمنصور بحق في ادراكه كل منكرة، وحسابه على كل دسيسة على أي وجه انطلقت، لأن عيونه وآذانه قد انبثت في كل مكان.

٢ - ونراه يقسم الحقوق التي عليه الى حقين: حق الأمة وحق الدين. فهو مستمسك بهذين الحقين، مُعز لها. فلا يبخس الناس حقهم، ولا يبخس الدين حقه، وان من حقه على الأمة ان تخضع لسلطانه، وتفيء الى خلافته. وهنا يثور غضب المنصور حين يتذكر مايراد بهم من ثورة على خلافتهم. وليس عنده رد على من يثور وينقلب عليهم الا السيف!.. وهو جواب طبيعي لمن يربط الدين بالخلافة ويجعلها من أركان الدين. وهم لم ينسوا بعد ماقاسوه - طيلة قرن كامل - على أيدي الأمويين من قتل وتعذيب وتشريد من أجل الخلافة. فكيف يسكتون الآن عمن ينازعهم عروة قميصها، أو خيط نسيجها؟

٣ - والآن، فليضرب للناس أبلغ مثل فيمن سولت له نفسه الخروج عليهم، والتنكر لهم. والناس منتظرون أن يسمعوا كلمة عن أبي مسلم نصير الدولة العباسية، وأول ضحية لها. وكلمة عنه موجزة بليغة شافية، هي أن أبا مسلم بايع العباسيين، وبايع الناس لهم بأن من ينكث بعهده معهم فقد أباح دمه. وانه كان من الناكثين، فلِمَ لايكون له الجزاء الذي كان ينذر به؟ وقد لقيه، أوليس هذا الجزاء وفاقاً للدين، والبيعة، والأمانة؟ وان رعاية الدين والبيعة والأمانة لأولى.

هذه هي أفكار القطعة تحدرت من عظة ووعد الى وعيد وأمثال، وتذكير بعبرات. وشفّت عن حقد ظاهر على الناكثين.

خصائص الأسلوب

كانت الخطابة لاتزال زاهرة في اوائل العصر العباسي ، لأنها ورثت هذا الازدهار عن العصر السالف الذي كان أظهر مافيه ازدهار الخطابة التي اتخذتها الأحزاب الموزعة سلاحاً لها . وفي العصر الأموي نبغ أعظم الخطباء ، والخطابة فن لايزدهر الا حيث تنطلق حرية القول !

والعباسيون الأوائل هم حزب من تلك الأحزاب ، اتخذوا من الخطابة آلة وحجة ، وهم فرع الدوحة الهاشمية التي اتسمت بالبلاغة واللسن ، وفيهم البلاغة الموروثة بالفطرة . وأبو جعفر المنصور أحد بناة العصر العباسي ، أوتي فصاحة المنطق ، وسطوع الحجة ، وقوة الخيال .

وهو في خطبته هذه ـ على قصرها ـ يبلغ مايريد من القول بقوة ، لأن النثر الأدبي ـ في هذا العصر ـ كان يميل الى الايجاز ، لأن الايجاز البلاغة . وهو يؤثر جزالة الألفاظ ملاءمة لفخامة المعاني وجلالها ، وفي هذا العهد نفسه نشأ أدب خاص يُدعى بأدب التوقيعات ، يكتبه الخلفاء والولاة رداً على طلب ، أو تعليقاً على مسألة بأيسر الألفاظ واكثر المعاني . ومن الجلي أن أغلب التعابير الفنية مما أضفى عليها الاسلام معاني جديدة كالطاعة والمعصية والبيعة والنكث بها ، على أن في القطعة مثلا تعريفاً ينم على نفاذ رأي صاحبه في وصف المنكرة ، اذ لم تعد المنكرة ـ كما يعرفها الاسلام ـ اقتراف ذنب ما عمداً ، وانما المنكرة قد تكون أثر اليد ، وفلتة اللسان ، وانعكاساً على صفحة الوجه. وصاحب هذه المنكرة على اختلافها آثم مأخوذ بإثمه أينما تولى .

ونلاحظ في القطعة عدم التكلف ، من سجع وتنميق ، كشأن الأسلوب الخطابي الأول . ونلاحظ ابتداءه بجملة انشائية ذهاباً منه الى التهديد ، والجملة الانشائية أفعل في النفس لأنها تخاطبها وأدل على حزم صاحبها وقدرته . كما ان جمله الخبرية جاء بها على صورة مؤكدة ، لأن سياق الحادثة يحتاج الى التأكيد طلباً لاقراره في الأذهان . ونرى ضعف الارتباط بين الجمل، وهذا شيء طبيعي في الأسلوب الخطابي الذي أبرز صفاته التقلب وتنوع الجمل والأغراض دفعاً لسآمة السامع ، واستجلاباً لانتباهه .

والأسلوب ـ برغم بعده عن تكلف الصناعة ـ ـ ضم بعض المحسنات الفنية التي زادت صياغته جمالا ، من ذلك هذه المقابلة بين أنس الطاعة ووحشة المعصية . ثم تمثيله الخلافة بالقميص ، ومن ينازعهم عُروة هذا القميص جزروا له مايخبؤه الغمد وهو السيف وقد اختار العروة لأن مدخل القميص ومنزعه انما يكون بها. ولعلك ترى جمال موقع « أجزرناه » في هذه الجملة لتدرك حقارة المنازع وما سيصير اليه .

من خطبة لداود بن علي

« وهو عم العباس والمنصور . كان خطيباً بليغاً ، يبلغ من بيانه حيث يريد . وهو من كبار القائمين بالثورة على بني أمية ، والممهدين لبني العباس. مات في المدينة عام ١٣٣ ﻫ .

خطب بمكة في أول موسم ملكه بنو العباس فقال :

الحمد لله شكراً شكراً ! الذي أهلك عدونا وأصار الينا ميراثنا من نبينا محمد ﷺ .

أيها الناس !

الآن أقشعت حنادس[١] الدنيا ، وأشرقت أرضها وسماؤها ، وأخذ القوسَ باريها [٢] ، وعاد الحق الى نصابه [٣] في أهل بيت نبيكم ، أهلِ الرأفة ، والرحمة بكم ، والعطف عليكم .

أيها الناس !

انا ، والله ، ماخرجنا في طلب هذا الأمر لنُكثر لجيناً ولا عِقياناً [٤] ولا نحفر نهراً ، ولانبني قصراً . وانما أخرجتنا الأنفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبني عمنا ، وما كرَثنا [٥] من أموركم ، وبهظنا [٦] من شئونكم . ولقد كانت أموركم تُرمِضُنا[٧] ، ونحن على فُرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم ، واستذلالهم لكم واستئثارهم [٨] بفَيْئكُم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم . لكم ذمة الله تبارك وتعالى ، وذمة رسول الله ﷺ ، وذمة العباس رحمه الله ، أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير في العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله « ﷺ » .

---

(١) أقشعت الحنادس : انكشفت والحِندس القطعة من الليل الشديد الظلمة . (٢) أخذ القوس ←

ابن المقفع

(١٠٦ — ١٤٢ هـ)

ترجمته

هو في مجوسيته « روزبة بن دازويه » المقفع ، وفي اسلامه عبد الله ، ولقب والده بالمقفع لأنه كان يتولى خراج فارس ، فاختلس من مال الدولة فضربه أمير العراقين على يده حتى تقفعت ، ابوه فارسي الأصل ، نشأ نشأة عربية في الأهواز « قرب البصرة » وكان له ولاء في آل الأهتم ـ وهم أهل فصاحة وبيان ـ ونشأ ابنه في البصرة ، وأخذ وهو في العشرين من سنه لداود بن هبيرة والي مروان على العراقين ، ولما انتقل الملك الى العباسيين اتصل ابن المقفع بسليمان وعيسى واسماعيل أعمام السفاح والمنصور ، فكتب لهم ، وترجم للمنصور أثناء ذلك عدة كتب ، ولكنه لم يتصل به ، بل لبث منقطعاً الى أعمامه حتى مات ، واختلف في سبب موته . فمن قائل : « ان كتاب الأمان الذي اتصل بالمنصور » قد قتله . ومن قائل : سبب قتله اضماره الزندقة بعد دخوله الاسلام فقد مر ببيت نار للمجوس بعد أن أسلم ، فتمثل بقول الأحوص :

باريها : القوس : هي التي ترمى بها السهام ، وباريها : يعود الضمير على السهام لا على القوس . وبرى السهم : سواه ونحته . والمعنى : أن باري السهام هو الذي يأخذ القوس . (٣) الى نصابه : الى أصله ومرجعه . (٤) اللجين : الفضة والعقيان : الذهب (٥) كرثنا من أموركم : اشتد علينا . (٦) بهظنا : ثقل علينا . (٧) ترمضنا : توجعنا . (٨) استئثارهم : استأثر بالشيء : خص به نفسه دون غيره من الناس . والفيء : الخراج او الضرائب .

يابيت عاتكة الذي أتعزل حذر العدا، وبك الفؤاد موكّل
اني لأمنحك الصدود ، وانني قسماً، اليك مع الصدود لأميَل

وكان المهدي يقول : « ماوجدت كتاب زندقة الا وأصله ابن المقفع » . وقد وصفه الجاحظ فقال: « كان جواداً ، فارساً ، جميلا » وعرف بالمروءة ، وكرم الخلق ، والوفاء للأصحاب ، وكان يقول: « أبذل لصديقك دمك ومالك ! » وفي حادثته مع عبد الحميد الكاتب شاهد على وفائه .

عوامل عصره

نريد أن نفهم ابن المقفع وعبقريته على ضوء هذا المنحى من النقد الذي يقول ان الأديب - كما يكون ابن عبقريته - يكون ابن عوامل مختلفة تؤثر فيه ، وتوجهه صوب هذا المتجه الذي سلكه. ومن هذه العوامل عوامل حياة عصره ومنشئه وجنسه .

أما عوامل السياسة فقد شهد ابن المقفع أعظم انقلاب رأته الدولة الاسلامية ، وقد سبق هذا الانقلاب اشتعال الفتن وتنمر الأحزاب ، واضطراب أمر الدولة حتى انتهت بانقراض بني أميـة ، وحلول العباسية محلها. ولكن هذا لم يكن ليحسم الخلاف ، فهناك جراثيم خفية ظلت تنرش في جسد الأمة . وخليق بمثل هذه العوامل أن تلفت مشاهدها الى درس أسبابها واضطرابها ، والعمل على ما يصلح به هذا الداء .

وأما عوامل الدين فقد ضعف ذلك الوازع الديني ، وذلك الايمان النقي ، وحلت محله حرية الرأي ، وكيف لانعم هذه الحرية في عهد انتقلت فية آثار الامم العقلية من أقوال وآراء ! وقد تلاقت النحل المختلفة والعقائد المتباينة ، قديمها وحديثها ، على صعيد واحد . ففارس وحدها كان فيها « الزرادشتية » و (المانوية) و(المزدكية) و (المجوسية) وأصبح الدين عقلا لا قلباً . وكم للعقل من فلتات !

أما الحياة الاجتماعية فقد تبدلت ، وهب عليها ريح الحضارة والترف ، وفشا معها فساد البيئة الخلقية ، والانغماس في الملذات . وفي هذا العهد انتهى العرب من فتوحاتهم ، وراحوا يتمتعون بما جنت أيديهم . والأدب العباسي طافح بما يدل على هذه الحياة .

وأما الحياة العقلية فقد تبدلت ونضجت وآتت أكلها ، لأن خزانة الكتب العربية أصبحت مكتظة بما نقل اليها عن اليونان والهند وأمم أجنبية أخرى من العلوم مما لم يكن للعرب عهد به .

بين هذه العوامل المتشابكة ولد ابن المقفع بالبصرة ، وهي بلد اسلامي عربي أحدث في خلافة عمر بن الخطاب . وكان يقال لها « الفيحاء والرّعناء » وفيها يقول الفرزدق :

لولا أبو مالـــك المرجوّ نائلُه ما كانت البصرة الرّعناء لي وطنا

ولقد عظم شأنها في العصر العباسي ، وأصبحت مدينة العلم والأدب ، ومبعث العبقرية العربية ومجمع النوابغ ، وفصحاء الأعراب ، وصارت تدعى « قبلة الاسـلام » . وكان المربد على مقربة من البصرة ، وهو من أجل أسواقها ، وبه كانت مفاخر الشعراء ومجالس الخطباء ، وهو وريث سوق عكاظ . وقد انبتت هذه التربة الطيبة طائفة من أعلام العلم والأدب كالخليـل ، والأصمعي ، وأبي عبيدة والجاحظ ، وبشار .

ونشأ ابن المقفع في ولاء آل الأهتم المشهورين بالفصاحة والّسن ، وعنهم ورث هذه الفصاحة التي قلما توجد في عرب ذلك العصر . وبرع في العربية والفارسية ، واضطلع من آدابها ، وجمع بين ثقافتي العرب والعجم . وأما معرفته اللغة اليونانية فغير ثابت ، وانما نقل منطق اليونان من الفارسية ولم ينقله من اليونانية . والى ذلك يشير ابن النديم في قوله : « وقد كانت الفرس نقلت في القديم شيئاً من كتب المنطق والطب الى اللغة الفارسية ، فنقل ذلك الى العربية عبد الله بن المقفع وغـيره . » وكان لعوامل الجنس أثر واضح فيه ، اذ جمع اليه الثقافة الفارسية ، والبيان العربي ، فكان له من ذلك طريقته الخاصة في التفكير والكتابة .

وهكذا نجد اذا تأملنا الجو الذي درج فيه ابن المقفع أنه جو يشتـد فيه الاضطراب في كل منحى . وقد خلق هذا الاضطراب حياة أشد منه تعقيداً وابهاماً ، تموج فيها هذه العناصر المختلفة التي قد تتفرق وقد تمازج ، فترى العنصر العربي الخالص في اللغة العربية ، ومايتصل به من الوضوح والبيان ، وعنصراً دينياً اسلامياً ، وعنصراً يونانياً يمثل هذه الفلسفة التي أخذت تغمر البـلاد ، وبخاصة هذا المنطق الذي غزا التفكير العربي كله . وعنصراً فارسياً يلون هذه الحضارة الحديثة التي غمرت الدولة الاسلامية . وخليق بمثل هذا الناشيء خلال هذه العناصر المضطربة أن يكون مضطرباً لايستقر به التفكير على حال .

ب — ثقافته !

يفتتح الاستاذ أحمد أمين فصله عن ابن المقفع بكلمة تكاد تكون جامعة : « ان ابن المقفع من أقوى الشخصيات في عالم الأدب العربي . قوي في خلقه ، قوي في عقله وسعة علمه ، قوي في لسـانه »

ويجدر بنا قبل أن نلم بصحة هذه القوة أن نتلمس مواضع ثقافة هذا الرجل ، فان العبقرية لا تكاد تسطع في صاحبها ان لم تكن هنالك ثقافة تمدها ، وتعمل على انباتها .

اذا عدنا عودة سريعة الى ماترك لنا ابن المقفع من آثاره نجد أن ثقافته في المعاني تعود الى ثقافة فارسية صرفة ، وثقافته في البيان ثقافة عربية بدوية . ومصدر ذلك أنه في نشأته لقن الفارسية وأدبها ، وثقف العربية وفصاحتها ، وتكاد تكون أصول ثقافته مجهولة ، لأننا لا نعلم استاذاً شهيراً من اساتذته ـ الا ما ذكره ابن النديم ـ هو ثور بن زيد . وكان أعرابياً فد البصرة على آل سليمان ابن علي ، وعنه أخذ ابن المقفع الفصاحة . وقد علمنا أن ابن المقفع نشأ في بيئة عربية محضة ، فأوتي لساناً فصيحاً . وأما ثقافته العقلية فقد قبسها من لغته الفارسية التي كانت تضم اذ ذاك شيئاً من ثقافات الأمم المختلفة ـ كاليونانية مثلاً ـ وعنها نقل ما نقل من بدائع العقل وروائع الأدب ومنطق اليونان.

وقد اصطلح الأقدمون على الاقرار لابن المقفع بالثقافة الواسعة ، حتى قال فيه ابن سلام : « لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل ولا أجمع . ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع » .

وأقر له الجاحظ بالتقدم ، فقال : « ومن المعلمين ، ثم البلغاء المتقدمين ابن المقفع ، كان مقدماً في بلاغة اللسان ، والترجمة ، والقلم ، واختراع المعاني ، وابتداع السير . »

وهو ، كما يقول الاستاذ احمد امين : « انه نتاج ثقافة فارسية عميقة واسعة أُتيحت بعد بلقاح عربي ، فكان من هذا وذاك أدب جم ، مدين في اكثر معـــانيه للفرس ، وفي اكثر ألفـاظه وأساليبه للعربية . »

على أن هذه الثقافة لم يتح لها الزمن أن تبدي كل ما عندها ، فقد جاءنا منها ما غلب عليه لون الترجمة والنقل . وهذا اللون يغلب حتى على الآثار التي خلفها ابن المقفع تأليفاً ـ كالأدب الصغير والكبير ـ ولعل هذه الناحية من ثقافته المكتسبة تعللها لنا روايته عن الاغاني . قال : « سمعت يقول : كنتُ ألقى الخليل بن أحمد ... فيقول لي : أحب أن يجمع بيني وبين الخليل بن أحمد ، فجمعتُ بينهما . فمر لنا أحسن مجلس ، وأكثره علماً . ثم افترقنا ، فلقيتُ الخليل ، فقلتُ : يا أبا عبد الرحمان ! كيف رأيتَ صاحبك ؟ قال ماشئتَ من علم وأدب ، الا أني رأيتُ علمه أكثر من عقله . ثم لقيتُ ابن المقفع ، فقلتُ : كيف رأيتَ صاحبك ؟ فقال : ماشئتَ من علم وأدب الا أن عقله أكثر من علمه »

ويظهر أن كلاً من الرجلين رأى في صاحبه رأياً قريباً جداً من الصواب . فابن المقفع فارسي واسع العلم ، يستوعب علوم الفرس ، ويضيف اليها جزءاً غير يسير من ثقافة الهند واليونان . فعلمه إذن أوسع من عقله . أما لون ثقافته فقد غلب عليها ـ كما ذكرنا ـ اللون الفارسي ، والثقافة الفارسية .

واذا اطلعت على آثار ابن المقفع جميعها وجدتهـــا مطبوعة بهذا اللون الفارسي الذي يعنى بالأدب والأخلاق والحكمة والعقل .

أخلاقه ومثله الأعلى

لقد كان لثقافة الرجل تأثير مباشر في أخلاقه ، ولقد كان ابن المقفع يكتب كأنما يستلهم من نفسه وشخصيته ، فهو اذا وصف الصديق استلهم الصديق من نفسه . ولقد قال عنه الجاحظ : « وعُرف بالمروءة ، وكرم الخلق ، والوفاء للأصحاب » . وكان يقول : « أبذل لصديقك دمك ومالك ! » ويبدو أن ماقيل عن الرجل من ناحية مروءته ووفائه يجعل له مقاماً خاصاً يدل على اعتقاد الرجل بالأخلاق الفاضلة ، وهو الذي لم يحجم عن تحقيق وفائه في حادثة عبد الحميد الكاتب . ومها ذهب الاستاذ الجندي في الشك من هـذه الرواية فانها دليل على ما اتصف به هذا الرجل .

لم يكن ابن المقفع لينظر – الى ناحية الأخلاق – نظرة عملية نفعية ، بل ينظر اليهـا نظرة الفيلسوف الذي يريد الأخلاق للأخلاق ، والخير للخير ذاته . وكأنه بذلك يصف المثل الأعلى للخير والأخلاق . فاذا أحب ان يكتب في الصديق فانما يكتب أيضاً في المثل الأعلى لما ينبغي أن يكون عليه الصديق . ولعله كان يحس من نفسه بذلك ، ويرى أنه يكلف الناس مالا يطيقون حين يأخذهم بأن يحتذوا مثال الصديق الذي وصفه لهم . فانظر الى قوله :

« إني مخبرك عن صاحب لي – كان من أعظم النـاس في عيـني – كان خارجاً عن سلطان بطنه ، فلا يشتهي ما لا يجد ، ولا يكثر اذا وجد . وكان خارجاً عن سلطان لسانه ، فلا يقول ما لا يعلم ، ولا يماري فيما يعلم . وكان خارجاً عن سلطان الجهالة ، فلا يقدم أبداً الاعلى ثقة بمنفعة ، وكان أكثر دهره صامتاً ، فاذا نطق بذّ القائلين . وكان يُرى ضعيفاً مستضعفاً ، فاذا جد الجد كان كالليث عادياً ... فعليك بهذه الأخلاق ان أطقت ، ولن تطيق ! . » فتـأمل معي قوله : « ولن تطيق » كيف يُصرح بأنه لا يتوخى الواقع . ولكن أخذ القليل خيرٌ من ترك الجميع ...

هذا الخلق الذي سيتجه ابداً الى المثل الأعلى هو الذي كان يصدر عنه ابن المقفع في كل ما يكتب او يعمل او يقول وقد يعجب الناس بأدبه فيسألونه : « من أدّبك ؟ » فيقول : «نفسي ! اذا رأيت من غيري حسناً أتيتُه ، وان رأيت قبيحاً أبيته » . ونعم المهذب للنفس النفس !

وقد جمع الاستاذ احمد امين هذا الخلق الكريم بقوله : « أما خلقه فنبل وكرم ، وتمهد لذوي الحاجات يواسيهم ، وتقدير دقيق للصداقة ، ورقابة شديدة لنفسه ، يحملها على الأجدر والأنبل ،

ورغبة شديدة في اصلاح الراعي والرعية خلقياً واجتماعياً ، الى ظرف الخاصة والتمسك بآداب اللياقة ومراعاة الدقة فيما يتطلبه الذوق .

د — زندقته

والآن نحب أن نثير مسألة زندقته بمناسبة التحدث عن أخلاقه . وقبل أن نحكم يجدر بنا ذكر الآراء التي وردت فيها :

كتب الاستاذ محمد كرد علي مقالة خاصة لتبرئة ابن المقفع من تهمة الزندقة ، ونسبها الى خبث المعتزلة ، وأرجعها الى الحسد الذي يحمله الناس للشخصيات العظيمة (مجلة المستشرقين ١٣ / ١٩٣٢ ص ١٩٧ – ٢٤٧) ، وقد أيد الاستاذ الجندي هذا المزعم ، بل زاد عليه أن الرجل تبدو عليه تعاليم الاسلام ، ولا تهكم هناك ولا ريح زندقة .

وقد تحاشى الاستاذ احمد امين مسألة اتهامه بالزندقة ، فقال : « خيرٌ ألا نحاول الاجابة ، فنحن لانستطيع الحكم في هذا على من هم تحت سمعنا وبصرنا فكيف بمن باعدت بينه وبيننا القرون، وانغمس في السياسة وأحزابها وحارب وحورب بها ، فلنكله الى الله ، فالله خير الحاكمين . »

وقد جاءنا من الاقدمين تهمتان تدلان على زندقته اذا صحتا . أولاهما : قوله – حين مروره ببيت من بيوت النار بعد اسلامه متمثلا بقول الأحوص :

يابيت عاتكة الذي أتعزّل حذر العدا ، وبه الفؤاد موكّل

ويقول الصفدي – في التهمة الثانية – : « كانت آراء ابن المقفع الالحادية منقولة أو معروضة في كتب الزنادقة الممنوعة » وعن المهدي : « انني ما عرفت كتاب زندقة الا ومصدره ابن المقفع . » ولقد قام الاستاذ « ميخائيل انجلو جويدي » الايطالي عام ١٩٢٧ بنشر كتاب عنوانه « الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع ، عليه لعنة الله آمين » للقاسم بن ابراهيم عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم. ومنذ ذلك الوقت – كما يقول الاستاذ – وضعت مسألة زندقته على قواعد جديدة . وللكتاب مقدمة مسجوعة ندّد فيها القاسم بمذهب (ماني) وأتباعه . وذكر فيها ان ابن المقفع وضع كتاباً أعجمي البيان ، حكم فيه لنفسه بكل زور وبهتان . واذ صح يوماً أصل هذا الكتاب وأصل هذا الرد – لأنه لايزال موضع شك من الناحية الفنية – أصبحت زندقته أمراً مسلماً به .

ولكن ، ماعسانا نقول الآن بعد النظر في حال الرجل ، والتأمل في آثاره التي بين أيدينا ؟ لانذهب بعيداً ، فأمامنا كتاب كليلة ودمنة . وفيه باب « برزويه » الذي يزعم الباحثون أنه من

اضافة ابن المقفع . ومن هذا الباب نستطيع ان نعرف شيئاً غير قليل عن عقيدة الرجل وعن أخلاقه.

أما عقيدته فقد نستطيع أن تلمح لها ظلاواضحاً في ما أثاره الكاتب في هذا الفصل من شكوك دينية كثيرة . وهذا قوله على لسان « برزويه » : « فلما ذهبت ألتمس المذر لنفسي في لزوم دين الآباء والأجداد ، ولم أجد لها على الثبوت على دين الآباء طاقة ، بل وجدتها تريد أن تتفرغ للبحث عن الأديان والمسألة عنها ، والنظر فيها »

وهذه قطعة تمثل لنا شك الرجل وحيرته ودأبه في درس ما صح من الأديان ، والحكم بعقله وبحثه . ولكن هل يمكننا أن نقول انه وجد في الاسلام هذا الدين الذي يُطيقه ؟ ان الرجل لم يشر الى ذلك ، وليس اعتناقه الاسلام جواباً شافياً له .

وخير مايقال في هذا الموضوع : « ان الرجل ـ بعد شك كثير ، وحيرة شديدة ـ وصل الى حالة يقينية في نفسه وعقله ، فهو لايتعلق بدين ،ولكنه لايحارب ديناً . وتعجبني كلة احمد امين اذ يقول : « ان نبله وعلو خلقه أتيا من طريق الفكر والفلسفة لامن طريق الدين ، ورجال الخلق قد يكون خلقهم تديناً ، وقد يكون خلقهم تفلسفاً ، فابن المقفع يصدق لأن في الصدق شرفاً ورفعة ولو لم يأمر به دين لكان في نفسه حسناً ، فهو رجل مدني ،وعالم مدني ، لارجل دين ، ولاعالم دين. يتجلى في أقواله ايمان بالله وايمان بالدين ، لكن لا يتجلى فيها ايمان بتفاصيل الدين ..»

واسمعه يقول عن لسان برزويه : « فلما خفتُ من التردد والتحول رأيت ألا أتعرض لما أتخوف منه المكروه ، وأن أقتصر على عمل تشهد النفس أنه يوافق كل الأديان ، فكففت يدي عن القتل والضرب وطرحت نفسي عن المكروه والغضب والسرقة والخيانة والكذب والبهتان والغيبة . »

واذن فخلاصة القول في امر ابن المقفع من حيث زندقته هي انه مرت عليه تلك الفترة العصيبة من فترات حياته ، وهي الفترة التي كان عقله فيها موزعاً بين كل هذه الأديان ، ثم عاد الى حكم العقل. وما الذي كنت تنتظره من عقل متحضر كعقل ابن المقفع مشحون بكل هذه الملل والآراء ؟

٥ – التعريف بآثاره

١ – **الأدب الصغير والأدب الكبير** الصغير والكبير وصفان للأدب ، وكلمة الأدب ـ هنا ـ هي الى معنى التهذيب الخلقي أقرب منها الى المعنى الذي نفهمه من كلمة الأدب في الوقت الحاضر. والكتابان يتناولان أموراً كثيرة خلقية في جوهرها . وابن المقفع يظهر فيها كأنه معلم اخلاق ،

يشرح هذه الأخلاق في كتبه شرحاً يعتمد على العقل ، والأثر الفارسي واضح في الكتابين ولكن هل كان ابن المقفع في الأدبين ناقلا ومترجماً ، او كان واضعاً مؤلفاً ؟

يقول في مقدمة الأدب الصغير : « وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حروفاً ، فيها عون على عمارة القلوب وصقالها ، وتجلية أبصارها » ويقول في الأدب الكبير : « انه لم يجد الأولين غادروا شيئاً ... وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور . ومن ذلك بعض ما أنا كاتب في كتابي هذا .. »

والأصح انه كان ناقلا ومؤلفاً معاً . ناقل لأنه كان حريصاً على أن يكثر من حكم الفرس وأمثالهم . يقول مرة : « احفظ قول الحكيم الذي قال » ومرة ، « سمعت العلماء قالوا : » وهو مؤلف لأنه يعمل عقله فيما ينقله .

أما الأدب الصغير وحده فقسمان : مقدمة ، وموضوع .

فأما المقدمة فيذكر الكاتب فيها حاجة العقل الى الأدب ، وتأثير هذا الأدب في انماء العقل وفي مثال له : « يحل الأدب للانسان كالماء للحبة . » ثم ذكر الكاتب أن العقل لا يمكنه أن يستفيد من الأدب الذي يتغذى به إلا بستة أشياء :

١ : ايثارك الأدب بالمحبة على كل شيء سواه .

٢ : مبالغتك في طلب الأدب .

٣ : تثبتك في تخير الأدب .

٤ : ثقتك بأن الذي استقر عليه رأيك سيعود عليك بالخير والنفع .

٥ : حفظك لهذا الذي وقع عليه اختيارك .

٦ : وضعك هذا كله موضعه اللائق به .

وهو يرى أننا الى الأدب في حاجة شديدة كحاجتنا الى ما يمسك أرماقنا من مطعم ومشرب . ثم يأخذ الكاتب في سرد الحكم والأمثال دون أن يراعي أحكام الصلة بينها . فمن حكم تتعلق بالصديق ومن حكم تتعلق بالسلطان ، وأخرى بالأخلاق ومحاسبة النفس . وهو بين هذا كله ينتقل بك من حكمة فارسية الى أخرى توشك أن تكون يونانية ، الى ثالثة عليها مسحة اسلامية ، الى رابعة فيها خلاصة لتجربة نفسه ، أو دينية ، أو سياسية ، او اجتماعية ، او اقتصادية ، وهكذا ..

أما الأدب الكبير أو ما سماه الكاتب بالدرة اليتيمة فكلمات كذلك ، ولكنها في مجموعها أطول وهي مرتبة غالباً ، يدور أغلبها على موضوعين استوفى الكلام فيها استيفاءً حسنا . فأولهما الكلام على

السلطان والولاة ، وهو موضوع كان يشغل نفسه كثيراً لأن حياته كانت متصلة به ، فلا عجب اذا أكثر الكتابة فيه ، ولا عجب اذا أجاد ، وقد جمع فيه مأثور الأولين وتجارب الآخرين الى مامنحه الله من دقة نظر وحسن أداء . والموضوع الثاني : الصداقة والصديق . وقد كان ابن المقفع يقدرهذا تقديراً دقيقاً ، ويرى في الأصدقاء عماد الحياة ومرآة النفس ، يفضي اليهم وحدهم بنيات صدره ، ودخائل نفسه ، ومن أجل هذا أثقل في شروط الطريق ، ونصح بالثقة التامة في اختياره ، وقد اشار فيما كتب الى العيوب الاجتماعية ، والى ظلم الولاة في عصره ، والى مايلحق العامة ، والى النزاع بين الدين والرأي .

٢ – رسالة الصحابة

ولابن المقفع رسالة اجتماعية ، سماها رسالة الصحابة ، يريد بها صحابة الولاة والخلفاء ، وهي تقرير في نقد نظام الحكم ووجوه اصلاحه ، رفعه الى أمير المؤمنين ولم يسمه ، والظاهر أنه أبو جعفر المنصور [بدأها بمدح أمير المؤمنين بأنه جمع الى ماعنده من علم الرغبة في السؤال ، والاستماع لنصيحة الناصح ... ثم ذكر موضع الشكوى قبل أن يستولي الخليفة . فوال لايهتم بالاصلاح ، وأعوان ليسوا على الخير بأعوان ، وأمة ان أخذت بالشدة حميت ، وان أخذت باللين طغت ...]

وأول مابدأ به شرح حال الجند ، فمدحهم لأنهم يمتازون بالطاعة والعفاف والكف عن الفساد ، وطلب أن يكون لهم دستور وقانون . ونصح لأمير المؤمنين في شأن الجند أن يحول بين الجنود وبين ادارة الشئون المالية لأن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة ، ووجوب مراعاة الكفاءة في القيادة ، وتثقيف الجند ثقافة علمية وخلقية ، وتعيين مرتبات قانونية لهم ، وأن يتقصى بنفسه احوال الجند ، ويعرف أخبارهم وحالاتهم وباطن أمرهم .

ثم عرض ابن المقفع الى « فوضى القضاء » لصدور الأحكام المتناقضة نتيجة للاجتهاد الشخصي ثم اقترح لها علاجاً وذلك أن يرفع الى أمير المؤمنين كل الأقضية والمسائل التي يحدث فيها الخلاف ، ويختار مايراه صوابا ، فيخرج به قانوناً . وانتقل بعد هذا الى الكلام في الخراج ، وشكا من الفوضى فيه ، واقترح للاصلاح أن تمسح الأرض ، ويفرض عليها المال المناسب ، ويدون ذلك في سجلات تحفظ أصولها في دواوين الدولة . « وفي هذا اصلاح الرعية ، وعمارة للأرض ، وحسم لأبواب الخيانة وغش العمال » ، وختم مطالبه في اصلاح الخراج بتخير الذين يتولون هذا العمل وشدة الرقابة عليهم .
هذه خلاصة رسالة هذا الرجل المصلح الاجتماعي ، وهو – بهذا كله – متأثر بالثقافة الفارسية .

٣ – كليلة ودمنة

ولعل هذا الكتاب هو أشهر ماذاع عن ابن المقفع ، وذاع ابن المقفع به ، وفي أصله يقول ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان : « ويقال – ان ابن المقفع هو الذي وضع كتاب كليلة ودمنة ، وقيل انه لم يضعه ، وانما كان بالفارسية فنقله الى العربية ، وان الكلام الذي في اول هذا الكتاب من كلامه . »

ويقول ابن المقفع : انه نقل الكتاب من اللغة الفهلوية « الفارسية القديمة » وقد نقل في ايام كسرى انو شروان من الهندية الى الفهلوية . وكان الباحثون في شك من ذلك حتى عثر الاستاذ هرتل على بعض الأصول الهندية الأولى كتبت باللغة السنسكريتية القديمة ، كما عثر – غيره – على بعض ابواب من الكتاب مفرقة . ولكنهم لم يعثروا الى الآن على كتاب جمعت فيه هذه القصص كلها يسمى « كليلة ودمنة » فهل كان هناك كتاب هندي حوى كل هذه القصص ، ألفه مؤلف واحد ، ونقله الفرس الى لغتهم ، ووحدوها في كتاب ، وأسندوها الى مؤلف واحد ؟

على انهم يرجحون أن باب « برزويه » وباب ملك الجرذان من زيادة الفرس أنفسهم ، كما يرجحون ان هناك فصولاً برمتها من زيادات ابن المقفع نفسه . وهي باب « عرض الكتاب » وباب « الفحص عن أمر دمنة » وباب « الناسك والضيف » وباب « الحمامة ومالك الحزين » ولهم أدلة على هذا كثيرة. وهذا الكتاب هو من باب تسمية الكل باسم الجزء . لأن خبر كليلة ودمنة لا يتداول غير بابين من ابوابه . وكليلة ودمنة أخوان من بنات آوى جعلت قصتهما مثلاً على المتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال . ومدارها أن دمنة سعى بالفتنة بين الأسد ملك الوحوش والثور جليسه وصديقه ، فأفسد فيما بينهما ، ولم يصغ لنصائح أخيه كليلة .

وترى في دمنة مثال الداهية المحتال ، والحسود الطامع الذي يستهين كل كبيرة لبلوغ ما يشتهيه من الرفعة والمال ، وترى في أخيه كليلة مثال المخلص الوفي للأصحاب ، والقنوع الرضي الأخلاق ، والحكيم البصير بالأمور ، الذي يحب السلامة ، ويخشى مصاحبة السلطان ، ويحاذر بطشه وصولته.

وأما بقية الأبواب فكل باب منها قائم بنفسه ، ولكنها ترمي لغاية واحدة وهي : تهذيب النفس ، والارشاد الى حسن السياسة ، وحسن اختيار الأصحاب . وفي باب عرض الكتاب نرى ابن المقفع يشتد في تنبيه قارئ كتابه على أن : « يديم النظر فيه من غير ضجر ، ويلتمس جواهر معانيه . » وفي هذا الباب يقسم الكتاب الى أربعة أغراض : أحدها ماقصد فيه الى وضعه على ألسنة البهائم غير

الناطقة من مسارعة أهل الهزل من الشباب الى قراءته ، فتُستمال به قلوبهم ، لأن هذا هو الغرض بالنوادر من حيل الحيوانات . والثاني اظهار خيالات الحيوانات بصنوف الاصباغ والألوان ليكون أنساً لقلوب الملوك ، ويكون حرصهم عليه اشد للنزهة في تلك الصور . والثالث ان يكون على هذه الصفة ، فيتخذه الملوك والسوقة فيكثر بذلك انتساخه ولا يبطل فيُخلِق على مرور الأيام . والغرض الرابع – وهو الأقصى – مخصوص بالفيلسوف نفسه .

وقد كان الباعث على ترجمته – على مايظهر – ميل الكاتب الى الاصلاح الاجتماعي . وكتاب كليلة ودمنة يشرح بعض هذه النواحي شرحاً وافياً . ويظهر أن تعمق ابن المقفع في دراسة الحياة الاجتماعية أداه الى استنكار كثير من الأمور ، ورأى أن معظمها يرجع الى حكام عصره ، ورأى أن الحرية السياسية غير موفرة في زمنه ، فهو لايستطيع أن ينتقد الخليفة وبطانته نقداً صريحاً . وقد عاش ابن المقفع في زمن أبي جعفر المنصور ، الخليفة البطاش الذي كان يرى ألا يمكن تثبيت قواعد الخلافة الا باخماد كل حركة تضعف من شأن الدولة . وكان من ضحايا المنصور كثيرون قتلوا بالظنة ، وتذرع في قتلهم بالاتهام بالزندقة ونحوها . وكان ابن المقفع نفسه احدى هذه الضحايا . وقد رأينا كثيرين من الأدباء والمصلحين يعمدون الى هذا النوع من الكتابة في تمثيل الناس بالبهائم ليكونوا اكثر انطلاقاً في تصوير الحياة الاجتماعية ، ووضع مايريدون من نقد ورأي على ألسنتها دون ان يخشوا معارضة او انتقاماً ، لأنهم ينطقون بألسنة الحيوان لا الانسان !

وأول ترجمة للكتاب هي الترجمة السريانية التي نقلت عن اللغة الفهلوية نحو ٥٧٠ سنة قبل الميلاد . على ان ابن المقفع لم يترجم الكتاب ترجمة حرفية ، بل حوّر كثيراً من جمله ومعانيه وترتيبه حتى يتفق والذوق العربي الاسلامي ، فهو كتاب بين المنقول والموضوع . بل اضاف فصولاً من عنده – كباب الفحص عن أمر دمنة – ففيه نفحة اسلامية ظاهرة . ولعل هذا هو السبب فيما حكاه ابن خلكان : « من ان الكتاب مختلفٌ فيه » وترجمة ابن المقفع نفسها قد دخل عليها كثير من التغيير على توالي العصور بدليل اختلاف النسخ التي بين ايدينا اختلافاً كبيراً ، كما ان ابن قتيبة في كتابه « عيون الأخبار » ينقل بعض قطع من كليلة ودمنة وهي تخالف في عباراتها عبارات الكتاب .

اسلوب ابن المقفع حق لنا ان نتوسع في دراسة خصائص اسلوب هذا الرجل ، لأننا نعتبره – كما قدمنا – اول من كتب النثر الفني في الأدب العربي . وان اجمع علماء الأدب على القول : « بدئت الكتابة بعبد الحميد » لأنه كان اول من مهد لها السبيل ، وكان من بعده عيالاً عليه . ولكن ابن المقفع الذي طرق أغراضاً مستحدثة لم يطرقها عبد الحميد كان استاذاً في هذه المدرسة ، ولهذه

المدرسة خصائص تمتاز بها . فمن خصائص هذه المدرسة ، أو قل ، من خصائص الاسلوب الفني لابن المقفع : الميل الى الايجاز ، واستخدام الأسلوب المنطقي . فالعبارات قليلة المؤونة ، والألفاظ مساوية للمعاني . والاسلوب منطقي قبل كل شيء ، فموضوع ينقسم الى فقرات ، وفقرات تنقسم الى جمل ذات فواصل تستطيع الوقوف فيها عند كل فاصلة . وهذا كله او اكثره من خصائص الخطابة التي كانت رائجـــة في العصر الأموي . وكان ابن المقفع يقول : « شربتُ من الخطب ريًّا ، ولم أضبط لها رويًا . »

ومن خصائص هذه المدرسة المبالغة في ايراد الحكم والأمثال ، ـ وهي نزعة فارسية ـ وقلة الاستعارات والمجازات ، والتشابيه الا ماجاء منها للتوضيح .

ومن خصائصها ـ وهي ما أتت بسبب الترجمة ـ الابهام والغموض في بعض الأحيان ، لأن طبيعة الترجمة نفسها تكلف الكاتب مشقة كبرى في الأسلوب ؛ لأن لكل لغة أسلوبها . أضف الى ذلك ما كان يتكلفه من أسلوب منطقي ثقيـل ! على أن أسلوبه في الأدب الكبير كان خطابياً محضاً واضحاً . وفي الأدب الصغير كان اسلوبه منطقياً لايخلو من التعقيد ، تزيده المعاني الفلسفية الدقيقة صعوبة .

وابن المقفع كغيره من الأقدمين لايحفل بتسجيع الألفاظ وتزويقها ، شأن الفرس في ميلهم الى الزخرفة والتزيين وسبب ذلك أنه نشأ في بيئة عربية خالصة ، بعيدة عن التصنع والتكلف ، نازعة الى البداوة والفطرة ، فانطبع انشاؤه على بلاغـة العرب وفطرتهم ، على أنه لايعني ذلك انه لم يكن يتخير ألفاظه وينتقيها . فلقد كان كالصائغ الماهر كثرت جواهره فأحسن اختيار فرائدها ، وفيـه يقول الراغب الاصفهاني : « كان ابن المقفع كثيراً مايقف اذا كتب ، فقيل له في ذلك . فقال : ان الكلام يزدحم في صدري ، فأقف لتخيره . »

وامتاز بحلاوة ألفاظه ورصانتها ، وبطول نفسه ، وبعده من الغلو وباتساق أفكاره ، وقوة المنطق والغوص على المعنى الفلسفي الدقيق . وقال فيه أبو الميناء : « كلامه صريح ، ولسانه فصيح ، وطبعـه صحيح ، كأن بيانه لؤلؤ منثور ، وروض ممطور » . ومن أجل ذلك أثر عن ابن المقفع انه قال لبعض الكتاب : « إياك والتتبع لحوشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة فان ذلك هو العي الأكبر » وقال لآخر : « عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة . » وقيل له : « ما البلاغة ؟ » فقال : « هي التي اذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلهـا » وكأن ابن المقفع انما كان يصف أسلوبه هـذا بمثـل هـذا التعريف .

وان من الحق أن نعترف بما لأدب ابن المقفع من أثر كبير في عصره ، وهو هذا الرجل الذي كان أعجمي التفكير في جميع مؤلفاته ، ليس له من العرب الا لغتهم الناصعة . أدخل اليها الحكمة الفارسية الهندية ، ومنطق اليونان ، وعلم الأخلاق ، وسياسة الاجتماع ، وذلّل تعابيرها لأبحاث عقلية شاقة حتى أطاعت . وهو أول كاتب عمد الى الترجمة والتأليف وكان من حظه الخلود ، وأول فيلسوف تناول الابحاث العقلية بانشاء رفع به ائمة الأدباء . وقد كان أثره في الأدب العربي والأدباء عظيماً ، لاسيما كتابه « كليلة ودمنة » فقد عني الناس به عناية كبرى ، وحذوا حذوه . من ذلك أن كثيرين نظموه شعراً . وكذلك حذا حذوه كتاب كثيرون ، وألفوا على منواله . ويذكر كتاب « كشف الظنون » ، أن أبا العلاء المعري ألف كتاباً اسمه « القائف » على مثال كليلة ودمنة ، ولكنه لم يتم . وعلى كل حال فقد أدخل هذا الكتاب على الأدب العربي « القصص على ألسنة الحيوانات » حتى كان « لافونتين » العرب يضع الحكمة والأمثال والعظة على ألسنتها .

واني لأرى أن الطريق التي عبدها ابن المقفع بعقله وأدبه وبيانه كانت أوعر طريق .

* * *

نماذج من كتاباته

نص من كليلة ودمنة

باب السائح والصائغ

قال دَبشليم الملك لبيدبا الفيلسوف : قد سمعتُ هذا المثل ، فاضرب لي مثلاً في شأن الذي يضعُ المعروف في غير موضعه ، ويرجو الشكر عليه .

قال الفيلسوف :

— ايها الملك ! ان طبائعَ الخلق مختلفة ، وليس مما خلقه اللهُ في الدنيا مما يمشي

على أربعٍ او على رجلين ، ويطير بجناحين شيءٌ هو أفضلُ من الانسان . ولكنْ من الناس البَرُّ والفاجرُ (١) . وقد يكون في بعض البهائم والسباع والطيرِ ماهو أوفى منه ذِمَّةً (٢) ، وأشدُّ محاماةً على حَرَمِه (٣) ، وأشكرُ للمعروف ، وأقوَمُ به (٤) . وحينئذ يجب على ذوي العقول من الملوك وغيرِهم أن يضعوا معروفَهم مواضِعَه ، ولا يضعوه عند من لا يَحتملُه (٥) ، ولا يقومُ بشكره ، ولا يصطنعوا (٦) أحداً الا بعد الخِبرةِ بطرائقِه (٧) ، والمعرفةِ بوَفائه ومودتِه وشكره . ولا ينبغي أن يختصّوا بذلك قريباً لقرابته اذا كان غيرَ مُحتمِلٍ للصنيعةِ (٨) ، ولا أن يَمنعوا معروفَهم ورفدَهم للبعيد (٩) اذا كان يَقيهم بنفسه (١٠) وما يَقدِرُ عليه ، لأنه يكونُ حينئذٍ عارفاً بحقِ ما اصْطُنع اليه ، مؤدياً لشكر ما أُنعِمَ عليه ، محموداً بالنصح ، معروفاً بالخير ، صدوقاً عارفاً ، مُؤْثِراً لحميد الفِعالِ والقول ، وكذلك كلُّ من عُرِف بالخِصالِ المحمودة ، ووُثق منه بها كان للمعروف موضِعاً ، ولتقريبه واصطناعه أهلاً ، فان الطبيبَ الرفيقَ العاقل لا يقدرُ على مداواةِ المريض الا بعدَ النظرِ اليه والجَسِّ لعُروقه ومعرفةِ طبيعته وسببِ عِلّته ، فاذا عَرَف ذلك كُلَّه حقَّ معرفته أقدم على مداواته . فكذلك العاقلُ لاينبغي له أن يصطفيَ أحداً

---

(١) البرّ : الصالح من الناس ، المحسن ومثله البار . (٢) أوفى منه ذمة : أماناً وعهداً وضماناً . (٣) حرَمه : الحرم مايحميه الرجل ويدافع عنه . (٤) أقومُ به : أحق من غيره . (٥) لايحتمله : لايطيق احتماله . (٦) لايصطنعوا أحداً : لايختاروه لعملهم . (٧) الطرائق : الطريقة : السيرة والحالة والمذهب . (٨) الصنيعة : اصطنع عنده صنيعة : أحسن اليه والصنيعة الاحسان . (٩) الرفد : المعونة . ومنه : متى يسترفدني قومي أرفِدهم . (١٠) يقيهم بنفسه : يصونهم بنفسه .

ولا يستخلصه الا بعد الخبرة ، فإنّ من أقدم على مشهورِ العدالة من غيرِ اختيارٍ كان مخاطراً في ذلك ومُشرِفاً منه على هلاكٍ وفساد .

ومع ذلك، ربما صنع الانسانُ المعروفَ مع الضعيفِ الذي لم يُجرِّب شُكرَه، ولم يعرف حالَه في طبائعه ، فيقومُ بشكر ذلك ، ويكافىء عليه أحسنَ المكافأة ، وربما حَذِرَ العاقلُ الناس ولم يأمَنْ على نفسه أحداً منهم وقد قيل لاينبغي لذي العقل أن يحتقرَ صغيراً ولا كبيراً من الناس ولا من البهائمِ . ولكنَّهُ جديرٌ بأن يَبلوَهم ، ويكونَ ما يَصنع اليهم على قدر ما يَرى منهم .

كليلة ودمنة — ابن المقفع

دراسة النص

تقسيم الأفكار ودراستها ١ — ذكر لنا ابن المقفع أن طبائع الناس مختلفة ، وأقر بأفضلية الانسان على كل شيء ، ولكن من الناس البر والفاجر ، ومن الناس من هو أحط من الحيوان .

وليس بعجيب أن يذهب ابن المقفع هذا المذهب من الانسان بعد أن اعترف بأفضليته على كل شيء . ولكن لعل هذه الفكرة تعبر عن تشاؤم ابن المقفع ، وتصور مدى ماذهب اليه تألمه من الناس من ناحية الوفاء . لأنه طالما وفى فلم يفوا ، وطالما أحسن فلم يحسنوا .

٢ — ثم انتقل الى انه يجب على الملوك وغيرهم ان يضعوا معروفهم مواضعه ، ولا يصطنعوا احداً الا بعد الخبرة . وفي هذه الفكرة أساس متين صالح للملكة الخالدة اذا رُوعي فيها العدل وتوزيع واجباتها على من هم أكفاء لها . وكأن بهذه الفكرة تعريضاً بملوك عهده ورؤسائه ممن ذهلوا عن واجبهم عن الرعية وهم رعاة، ولا شيء كهذا التحيز يهدم الممالك ، ويخلع الملوك .

٣ — ثم انتقل الى بسط هذه الفكرة ، لأنها محط تفكيره ، فذكر وأكد ضرورة تقديم الكفاءة لأعمال الدولة دون ان يقرب الحاكم قريبه لقرابته ، ويبعد البعيد ـ وان كان كفؤاً ـ

لمجرد بعده . وفي هذه الفكرة ما يشف عن نفسه لأنه كان بعيداً عن أمور الدولة مع انـه لوقربوه لكان عارفاً بحق ما اصطنع اليه ، مؤدياً لشكر ما أنعم عليه ، وربما أراد ان يشير الى بعض الذين قربوا بطاناتهم الخاصة ، وفيهم من لايحتمل الصنيعة ولا يمحض النصح خالصاً .

٤ — ثم ينتقل الى تشبيه رجل الدولة العاقل بالطبيب الرفيق الذي لايداوي المريض الا بعـد النظر اليه ، ولا يصف له الشيء الا تبعاً لحاجة جسده . وما أجدر المصلحين ان يكونوا في وضع العلاج للأمة كذلك الطبيب الذي لايصف قبل ان يعرف، والطب في النفوس اشق مطلبا من الطب في الأجساد !

٥ — ثم يذكر بعض حالات للرجل العاقل الذي قد يصنع المعروف مع الضعيف فيحسن صنعه، وربمـا يئس العاقل من الاحسان الى الناس كلهم ، وحذرهم ، ولم يأمن على نفسه احداً منهم .

اني لأجد في هذا اليأس الألم العميق الذي يحز في نفس ابن المقفع ، كأنما يدل على ان هنالك رجالا عقلاء كانوا يحذرون الناس ، ويثنون ايديهم عن كل امر خشية ان يُتهموا بشيء .

٦ — ولكن عقل ابن المقفع عقل اجتماعي ، لاعقل اعتزالي . فهـو لايفهم مذهب القـائلين باجتناب الناس لأن في الناس أسواء، وانما هو يخالط الناس ويجربهم ويبلوهم ، ويكون مايصنع اليهم على قدر مايرى منهم . وهذا على خلاف من يرى ان عمل الخير ينبغي ان يكون مطلقاً ، مجـرداً من اي غرض ، لأن الخير فضيلة قائمة بنفسها ، وهذه نظرية المفكرين « المثاليين » الذين يقولون بالخير المحض ، وعمل الخير للانسانية كلها ، ولكن مثل هذه النظرية تعد صحيحة من الناحيـة النظرية ، لا من الناحية الواقعية .

الأسلوب ١ — المعهود عن العرب انهم توارثوا عن الفرس الألقاب الفخمة ، ولكنا لانجد في هذا النص لها اثراً ، لأن الفيلسوف يبدو كالآمر العظيم حين ينادي : « ايهـا الملك » ، او حين يقول : « يجب على ذوي العقل من الملوك . »

٢ — تأثر هذا الأسلوب بالقرآن الكريم : من حيث التركيب كقول ابن المقفع : « وليس مما خلقه الله ... » أو من حيث الفكر باعطاء الأفضلية للانسان على كل شيء . كأن الانسان هو خليفة الله في ارضه .

٣ — تطويل الجملة مع تقسيمها الى فقرات جلها قصيرة . ولكن هذا التقسيم يساعد على حلها، وينقذ المعنى من سوء التطويل ، ويُظهر لنا في الوقت نفسه مازال عالقـاً بالأسلوب الكتابي لهـذا العصر من الأسلوب الخطابي الأموي . وقد علمت ان الأسلوب الخطـابي يؤثر الجمـل القصيرة

المواتية للنفس . واذا استخدم الجمل الطويلة عمد الى تقسيمها الى فقرات متساوية حيناً ، ومختلفة حيناً .

٤ ـ على أن هـذا التقسيم ليس من قبيل الترادف حباً بالترادف ، لأن لكل قسم مزية خاصة من المعنى . كقوله : « لأنه يكون حينئذ عارفاً بحق ما اصطُنع اليه ، مؤدياً لشكر ما أنعم عليه ، محموداً بالنصح ، معروفاً بالخير ، صدوقاً عارفاً ، مؤثراً لجميد الفعال والقول . »

٥ ـ وهناك التنسيق والتدرج في المعاني على طريقة المزاوجة أو المطابقة . كقوله : « ولا ينبغي ان يختصوا ... ولا ان يعنموا ... »

٦ ـ والاستعانة بالأمثال على اظهار المعنى . كقوله : « وكذلك كل من عُرف بالخصال المحمودة ووُثق منه بها »

٧ ـ الاستعانة بالتشبيه ـ لامن حيث البيان ـ لأن كتابته العلمية يقل فيها نصيب المجاز والاستعارة . ولكن ـ رغبة في التوضيح ـ وتراه يقدم المشبه به على المشبه لزيادة التوضيح . كقوله: « فان الطبيب الرفيق العادل لايقدر على .... » وكان من حقه ان يقول : « والعاقل لاينبغي له ان يصطفي ... كذلك الطبيب . » ولكنه قدم ما قدم لأهمية المتقدم .

٨ ـ الروح المنطقية التي تجلت في العصر العباسي واضحة ظاهرة . والألفاظ منتقاة ، والسهولة متوخاة . لايتبع الكاتب الحوشي من اللفظ ولا الغريب ، الغنى في مفرداته ، والمزاوجة الموروثة على العموم في الأدب العربي تغلب على الجمل والألفاظ . واللهجة الخطابية تاركة أثرها في التركيب لأن هذا النثر الفني قريب الاتصال والانتقال عن النثر الخطابي ، والزهد في السجع والمجاز ملحوظ .

الحمامة والثعلب ومالك الحزين

زعموا أن حمامةً كانت تُفرِّخُ في أصل نخلة طويلةٍ ذاهبة في السماء، فكانت الحمامةُ تشرعُ في نقل العش الى رأس تلك النخلة ؛ فلا يُمكنُ أن تنقلَ ماتنقلُ من العُشِّ، وتجعلَه تحت البيض الا بعد شدةٍ وتعب ومشقة، لطول النخلة وسُحقِها (١). فاذا فرغت من النقل باضت، ثم حضنت بيضَها ؛ فاذا فقست وأدرك فراخُها جاءها ثعلبٌ قد تعاهد ذلك منها لوقت قد علمه بقدر ماتنهضُ فراخُها، فيقفُ بأصلِ الشجرة، فيصيحُ بها ويتوعَّدُها (٢) أن يرقى اليها ؛ فتُلقي اليه فراخَها.

فبينما هي ذاتَ يوم قد أدرك لها فرخان اذ أقبل مالكٌ الحزينُ ؛ فوقع على النخلة. فلما رأى الحمامةَ كئيبةً حزينةً شديدةَ الهم، قال لها مالك الحزين : « ياحمامة ! مالي أراك كاسفةَ اللون (٣) سيئةَ الحال ؟ » فقالت له : « يامالكُ الحزينُ ! ان ثعلباً دُهيتُ به (٤)، كلما كان لي فرخان جاءني يُهدِّدني ويَصيحُ في أصل النخلة، فأفرَقُ منه (٥)، فأطرحُ اليه فرخيَّ . » قال لها مالك الحزين : « اذا أتاكِ ليفعل

شرح الألفاظ : (١) النخلة السحوق : النخلة الطويلة . (٢) توعّد : وعد بالشر . (٣) كاسف اللون : متغير اللون . (٤) دهاه الأمر يدهاه : اذا نزل به ، ومنه الداهية . (٥) أفرق منه : أخاف .

مانقولين فقولي له : « لا أُلقي اليك فرخيّ ! فارقَ اليّ وغرِّر بنفسك (١) ! فاذا فعلتَ ذلك ، وأكلتَ فرخيّ طِرت ونجوتُ بنفسي . »

فلمّا علّمها مالكُ الحزين هذه الحيلةَ ، طار فوقع على شاطئ نهر ، فأقبل الثعلبُ في الوقت الذي عرَف ، فوقَف تحتَها ، ثم صاح كما كان يفعلُ ، فأجابته الحمامة بما علمها مالك الحزين فقال لها الثعلب : « أخبريني : من علمّك هذا ؟ » فقالت : « علمني مالكُ الحزين » . فتوجه الثعلب حتى أتى مالكاً الحزين على شاطئ النهر ، فوجده واقفاً ، فقال له الثعلب : يا مالك الحزين ! اذا أتتك الريحُ عن يمينك فأين تجعلُ رأسك ؟ » قال : « عن شمالي » قال : « فاذا أتتك عن شمالك فأين تجعل رأسك ؟ » قال : « أجعله عن يميني أو خلفي . » قال : « فاذا أتتك الريح من كل مكان وكل ناحية فأين تجعله ؟ » قال : « أجعلُه تحت جناحي . » قال : « وكيف تستطيعُ أن تجعلَه تحت جناحك ؟ ما أُراه يتهيأُ لك ! » قال : « بلى ! » قال : « فأرني كيف تصنعُ ! فلعمري يامعشرَ الطيرِ لقد فضّلكُنّ اللهُ علينا : انكنّ تدرين في ساعةٍ واحدة مثلَ ماندري في سنة ، وتبلُغنَ ما لانبلغُ ، وتُدخلن رؤوسكن تحت أجنحتكُنّ من البردِ والريح ، فهنيئاً لكُنّ ! فأرني كيف تصنع ! » فأدخل الطائرُ رأسَه تحت جناحه ، فوثب عليه الثعلب مكانَه ، فأخذه ، فهمزه همزةً (٢) دقّت عُنُقَه . ثم قال : « ياعدوّ نفسِه ؟ ترى الرأيَ للحمامة ، وتعلّمُها الحيلةَ لنفسِها ، وتعجِزُ عن ذلك لنفسِك حتى يستمكِنَ منك عدوُّك ؟ » ثم أجهز عليه (٣) فأكله .

كليلة ودمنة — ابن المقفع

---

(١) غرّر بنفسه : عرّضها للهلاك . (٢) همزت الشيء همزا : تحاملت عليه كالعاصر . (٣) . أجهز عليه : شد عليه ، وأتم قتله .

ALEPPO COLLEGE

ABSENCE REPORT

Class ______________________ Date ______________________

Lesson ______________________ Period ______________________

ABSENTEES :

Signature ______________________

دراسة النص

هذا نص لقصة منفردة ـ من كتاب كليلة ودمنة ـ يمثل العنصر القصصي ذا المغزى فيه . ونرى كاتبه مهد للقصة جواً مناسباً ، ثم ادخل فيه اشخاصه ، كل شخص يمثل دوره الذي خُصص به . حتى اذا اختلطت الحوادث بما يثير الدهشة في نفس القارىء حل القاص عقدة القصة ، ورتب عليها مغزاه الاجتماعي الذي استنتجه منها .

أخلاق الأشخاص

الأشخاص الذين مثلوا ادوار الحياة في القصة :

أ ـ الحمامة : وهي التي تمثل البساطة ، والسذاجة والغباوة ، تريد ان تكون الأم الرؤوم ، وهي لاتصون الأمومة لجهلها وخوفها ، وانما تكتفي باظهار اللوعة والجزع دون اعمال العقل والتفكير ، يتجلى ذلك كله في موقفين من مواقفها : موقفها مع الثعلب الذي لايزال يتوعدها حتى تقذف اليه بفراخها خشية ان يرقى اليها الشجرة . وموقفها معه حين سألها عمن نصحها ، فأجابته كأنما تسهل له سبيل الانتقام ممن نصحها وأخلص لها النصح ، تفعل ذلك كله لاخبثاً ولا مكراً ، وانما تفعله جهلاً وقصر نظر .

ب ـ مالك الحزين : يمثل الشعور النبيل حين أحس بألم اصحابه وسعى الى تخفيف هذا الألم فراعه مارأى في الحمامة من كسوف البال ، وشرود الذهن ، وحس الخوف ، فسألها ، وبكى لها ، ولم يكتف باظهار اللوعة والأسى ، بل عمل على انقاذها من ورطتها ، فأشار عليها بما أشار ؛ ولكنه ما كان أغباه حين خادعه الثعلب عن نفسه ، واخذ يستهويه بما يضرب له من الأسئلة والأمثلة تمهيداً لافتراسه على غرة ؛ وهو مستسلم الى عدوه دون ان يلتفت الى الغاية من هــذه الزورة الأولى ، والأسئلة المتتالية .

حـ ـ الثعلب : وهنا المكر كله ! فهو مخادع للحمامة ، منتصب لأولادها بطريقة التوعّد . ومنتقم من خصمه بطريقة غير شريفة ، يستخدم الأساليب الماكرة التي لايشعر بها الخصم ، فيتخذ مثلا طريقته له الثناء العام على معشر الطير ، حتى لايلتفت الطائر الى الثناء الخاص لو افضى به اليه . (ولاعجب ان يخدع الثعلب مالكاً الحزين البسيط القلب ، وهو الذي خدع من قبل الغراب الذي يضرب به المثل في الحذر ـ الغراب والجُبنة ـ .

المغزى : يراد من هذه القطعة اننا نرى كثيرين من الناس يعيشون في مثل ذلك المجتمع : منهم من يعيش كالحمامة سذاجة وغفلة ، ومنهم كمالك الحزين نصحاً وسلامة، ومنهم كالثعلب مكراً وذكاءً - والثعلب في جميع الآداب العالمية مثل للمكر والدهاء - .

نحن نأسف لمصرع مالك الحزين الذي نصح للحمامة لأنه ذهب ضحية انتصاره للحق ولكنه كان عليه - وهو المفكر - ألا يكون بليداً يجوز عليه الخداع ، يرى الرأي لغيره ،ولايحسنه لنفسه.

ونحن نحزن لما ارتكب الثعلب لأنه ينال نصيبه من الحياة بالمكر والخديعة لا بالشرف والقوة ويأكله حراماً لاحلالا . ولكن الخديعة في الحياة أليست كالقوة من حيث النتيجة ؟ لأن الخديعة والقوة كلتيهما سلاحان من أسلحة الحياة ، فكثير من الحشرات التي لاقوة لها سلحتها الحياة بتغيير الوانها وملاءمتها للطبيعة التي تحيا فيها كما سلحت غيرها بالقوة والذكاء والعقل والحيلة . ويبدو لنا ان الانسان جمع في نفسه اكثر هذه الاسلحة .

والآن ، هل يناصر هذا المغزى الفضيلة والأخلاق؟

ان ابن المقفع قد اشتهر بمناصرته المثل الاعلى ، وترجيحه الفضيلة على كل حالة - كما جاء في وصفه للصديق ، وكما جاءت حياته كلها اذا صح ما كان بينه وبين عبد الحميد من أخوة ذهبت الى بذل الحياة، لكنه الآن في « كليلة ودمنة » ناقل لاواضع . واذا وضع شيئاً فانما يتبع في نهجه نهج المنقول . ومن نهج المنقول ان يمثل الحياة بوجهها الصحيح . ومتى كانت الحياة مثلا أعلى ؟ انه الآن يعطينا حقيقة الحياة ، ويهيئنا لها ، ويزودنا بالفطنة والعقل والدهاء . فالأخلاق اذاً من هذة الناحية واقعية لامثالية تخضع للواقع قبل كل شيء .

فمالك الحزين لقي مصرعه لأنه أظهر غباوة من ناحيته . واذا كان الغراب فقد قوته حين خدعه الثعلب فمالك الحزين بذل حياته ثمناً لهذه الغباوة وربما كان الغراب أذكى من مالك الحزين.

خصائص الأسلوب أسلوب القصة ينقصه الوصف الطبيعي الذي يضفي على حوادثها لوناً خاصاً ، ويمنحها حياة نابضة ، ولكن الكتاب الأقدمين الذين عالجوا القصة عالجوها مجردة ، ولم يعنوا بالزينة والزمان والمكان . وانما همهم ان يتبعوا الفكرة حتى يصلوا اليها ، ولذلك كانت الطبيعة الحقيقية والطبيعة الفنية بعيدتين عن ادبنا السابق . فالنخلة - مثلا - لولا الغرض من طولها لما كانت ذاهبة في السماء !

على ان حوادث القصة بتركيبها وترتيب اجزائها وما انتهت اليه من عقدة تدل على براعة فنية وبخاصة ذلك الحوار الدقيق المبني على تفهم نفسيات مختلفة .

توخى الكاتب الألفاظ السهلة ، البعيدة عن الحوشي والغريب والمبتذل ، لأنه يريد أن يقرأها خاصة الناس وعامتهم ، ولا يريد أن يعمي فيها او يذهب فيها مذهب الحكماء المتزاين . والسهولة كانت طريقة ابن المقفع مع انتقاء الألفاظ ، وهو الذي كان يقول : ان الألفاظ لتزدحم في صدري، حتى احتار في أيها آخذ !

ويميل الى أسلوب المساواة في تعبيره ، ولكنه إذا أطنب قليلا فلكي يدل مثلا على ماتلاقي الحمامة من عنت ومشقة كوصفه الطويل للحمامة حين تبيض ويفقس بيضها وحين تفرخ وترفع أفراخها إلى أعلى الشجرة .

وهذا الأسلوب بسيط بعيد عن اللف والدوران والتنميق . يمتاز بأنه أسلوب مرسل خلا من الترادف والأسجاع والمبالغة ، والزينة وقد عمد ذهن الكاتب الحاذق الى وضع كل شيء في محله ، والتلطف بعرض الأفكار ووضع الحوار دون ما تكلف . كحوار الثعلب لمالك الحزين ؛ولا أجد كهذا الحوار أبلغ في التدليل على شخصية الثعلب .

وخاصة أخرى تظهر على النص ، وعلى الكتاب عامة،قوة حذق الكاتب للغة التي يكتب بها ،واللغة التي ينقل عنها . حتى بات الأثر كأنه عربي ، وليس بفارسي . ولا يعلم الأدب العربي كتاباً منقولا قبل كليلة ودمنة ، بل لايعلم أسلوباً فنياً صرف النثر العربي عن كتابة الدواوين الى الكتابة في شئون الحياة قبله .

نماذج اخرى من آثار ابن المقفع

من الأدب الصغير

١ — رجل الدولة :

لا يستطاع السلطان الا بالوزراء والاعوان ، ولا تنفع الوزراء الا بالمودة والنصيحة ، ولا المودة الا مع الرأي والعفاف . واعمال السلطان كثيرة ، وقلما تستجمع الخصال المحمودة عند احد ، وانما الوجه في ذلك والسبيل اليه الذي يستقيم به العمل ان يكون صاحب السلطان عالماً بأمور من يريد الاستعانة به ، وما عند كل رجل من الرأي والغناء وما فيه من العيوب . فاذا استقر ذلك عنده عن علمه وعلم من يأمن ، وجه لكل عمل من قد عرف ان عنده من الرأي والنجدة والامانة ما يحتاج اليه فيه ، وأن ما فيه من العيوب لا يضر بذاك ، ويتحفظ من أن يوجه أحداً وجهاً لا يحتاج فيه الى مروءة ، ان كانت عنده ، ولا يأمن عيوبه وما يكره منه .

ثم على الملوك ، بعد ذلك ، تعهد عمالهم وتفقد أمورهم ، حتى لا يخفى عليهم احسان محسن ، ولا اساءة مسيء .

ثم عليهم ، بعد ذلك ، ان لا يتركوا محسناً بغير جزاء ، ولا يقروا مسيئاً ولا عاجزاً على الاساءة والعجز ، فانهم ان تركوا ذلك تهاون المحسن ، واجترأ المسيء ، وفسد الامر ، وضاع العمل .

٢ — الجاهل :

لا يؤمننك شر الجاهل قرابةٌ ولا جوار ولا إلفٌ ؛ فان اخوف ما يكون لحريق النار اقرب ما يكون منها . وكذلك الجاهل ، ان جاورك أنصبك ، وان ناسبك جنى عليك . وان ألفك حمل عليك ما لا تطيق . وان عاشرك آذاك وأخافك ، مع انه عند الجوع سبعٌ ضارٍ ، وعند الشبع ملكٌ فظ ، وعند الموافقة في الدين قائد الى جهنم . فأنت بالهرب منه احق منك بالهرب من سم الاساود ، والحريق المخوف ، والدين الفادح ، والداء العياء :

١ — الدولة الجديدة :

اذا كان سلطانك عند جدة دولة ، فرأيت أمراً استقام بغير رأي ، وأعواناً جزَوا بغير نَيلَ ، وعملا أنجحَ بغير حزم . فلا يغرنك ذلك ، فلا تستنم اليه ! فان الامر الجديد مما تكون له مهابة في أنفس أقوام ، وحلاوة في أنفس آخرين ، فيعين قومٌ بأنفسهم ، ويعين قوم بما قِبَلَهُمْ . ويستتب بذلك الامر غير طويل . ثم تصير الشئون الى حقائقها وأصولها ، فما كان من الامر بني على غير اركان وثيقة ، ولا عمادٍ محكم اوشك ان يتداعى ويتصدع .

٢ — الصبر

ذلل نفسك بالصبر على جار السوء ، وعشير السوء ، وجليس السوء ، فان ذلك مما لا يكاد يخطئك ، فان الصبر صبران : صبر الرجل على مايكره ، وصبره على مايحب . فالصبر على المكروه اكثرهما واشبهما ان يكون صاحبه مضطراً . واعلم ان اللئام أصبر أجساداً ، والكرام أصبر نفوساً . وليس الصبر الممدوح بأن يكون جلد الرجل وقاحا ، او رجله قوية على المشي ، أو يده قوية على العمل ، فانما هذا من صفات الحمير . ولكن أن يكون للنفس غلوباً ، وللأمور محتملاً ، وفي الضر متجملا ، ولنفسه عند الرأي والحفاظ مرتبطاً ، وللحزم مؤثراً ، وللهوى تاركاً ، وللمشقة التي يرجو عاقبتها مستخفاً ، وعلى مجاهدة الأهواء والشهوات مواظباً ، ولبصره بعزمه مُنفِذاً .

٣ — الادعاء

لا تكثرن ادعاء العلم في كل مايعرض ، فانك من ذلك بين فضيحتين : إما أن ينازعوك فيما ادَّعيت ، فيُهجم منك على الجهالة والصَّلَف ، واما ألا يُنازعوك ، ويُخَلّوا الأمور في يديك ، فينكشف منك التصنع والمعجزة .

استحي الحياء كله من ان تخبر صاحبك أنك عالم وانه جاهل ، مُصرِّحا أو معرِّضاً ، وان استطلت على الأكفاء ، فلا تثقن منهم بالصفاء .

إن أحببت أن تلبس ثوب الوقار والجمال ، وتتحلى بحلية المودة عند العامة، وتسلك الجدد الذي لا خبار فيه ولا عثار ، فكن عالماً كجاهل ، وناطقاً كعيي فأما العلم فيرشدك ، وأما قلة ادعائه فينفي عنك الحسد . وأما المنطق ، اذا احتجت اليه ، فسيبلغ حاجتك. وأما الصمت فيكسبك المحبة والوقار.

* * *

مصادر

١ — ضحى الاسلام : احمد امين ، ج ١ : ١٩٥
٢ — ابن المقفع : عبد اللطيف حمزة
٣ — ابن المقفع : خليل مردم بك
٤ — ابن المقفع : سليم الجندي
٥ — من حديث الشعر والنثر : طه حسين ، ص : ٤٧
٦ — الأمالي الأدبية : الشيخ بدر الدين النعساني (غير مطبوعة)
٧ — امراء البيان : محمد كرد علي ، ج ١ : ٩٩ .
٨ — الفن ومذاهبه في النثر العربي : شوقي ضيف ، ص ٤٦ .

* * *

الكتابة

الجاحظ

(١٥٩ — ٢٥٥ هـ)

ترجمته

هو عمرو بن بحر الكناني بالولاء . لقب بالجاحظ لجحوظ عينيه ، وربما قيل له « الحدقي » لكبر حدقتيه ، وكني بأبي عثمان . ولد في البصرة ، وخالط المسجديين من أهل العلم والأدب ، فأخذ عنهم . وكان يكتري حوانيت الوراقين ، ويبيت فيها للمطالعة ، على أن ضيق ذات يده لم يتح له أن ينقطع الى العلم في أول أمره ، فقد شوهد يبيع الخبز والسمك . وانصرف يجلس الى علماء البصرة ، ويسمع من العرب الخلّص في المربد .

تصدر ديوان الرسائل في خلافة المأمون ، فما لبث أن استعفى بعد ثلاثة أيام ، وقد اتصل الجاحظ بمحمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم ، وقدم له كتاب الحيوان ، وأقام معه ، ورحل معه ، وكانت أيامه معه أهنأ الأيام . حتى اذا استخلف المتوكل وظهر القاضي ابن أبي دؤاد على ابن الزيات هرب الجاحظ وخاف على نفسه . ولكن القاضي عفا عنه لعلمه وأدبه . وانقطع الجاحظ اليه سنة كاملة ، وقدم له كتاب « البيان والتبيين » حتى فلج القاضي ، وخلفه في القضاء ابنه .

واتصل الجاحظ بالفتح بن خاقان وزير المتوكل ، وكانت بينهما مودة ومراسلة . وقد أصيب الجاحظ بالفالج والنقرس في أواخر حياته ، فانتقل الى البصرة في خلافة المتوكل ، وربما في السنة التي قتل فيها ، ولبث حتى اتى أجله في السنة التي قتل فيها المعتز .

ثقافة الجاحظ !

رغب الجاحظ في العلم وهو حدث . لم يقع في يده كتاب الا استوفى قراءته . ثم اتصل بشيوخ العلم وأئمة الأدب ، فسمع من أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري ، وأخذ النحو عن الأخفش ، وأخذ علم الكلام من النظام ، وتلقف الفصاحة من العرب شفاها في المربد . واذا بحثنا عن خصائص الرجال الذين روّضوا عقل الجاحظ استنبطنا أن للجاحظ أربع ثقافات : في اللغة ، والأدب ، والدين والعلم . أما اللغة فقد أخذها عن أهلها الذين لم يفسد بيانهم شيء من العجمة . فاذا ملك الجاحظ من زمام الفصاحة مالم يملك غيره من الكتاب ، فإن لمخالطة عرب المربد اثراً في هذه الفصاحة . وأما الأدب فقد خرّجه فيه رجال كانوا مضرب الأمثال فيه . وكان الأدب يتضمن اذ ذاك أخبار العرب وأشعارهم وملحهم ونوادرهم وما شابه ذلك . وكذلك الدين والعلم والفلسفة فقد استضاء في هذا كله بضياء رجل كان مضرب المثل في مذهبه هو النظام الذي كان له أبلغ أثر في تثقيف عقله من جهة الدين والعلم ، وهو الذي يقول عنه الجاحظ : « الأوائل يقولون : في كل مئة سنة يظهر رجل لانظير له . فان كان ذلك صحيحاً فهو أبو اسحاق النظام » والنظام رئيس من رؤساء المعتزلة ، وقد انفرد عن اصحابه بمسائل تبعه فيها جماعة سموا بالنظامية . وقد سمع الجاحظ من الفلاسفة ، وقرأ كتب المتكلمين فضلاً عن كتب الأدب التي تبحث عن اللغة والنحو والنوادر والأخبار والأشعار والغرائب وما شابهها ، بحيث أصبح له اطلاع عام على الأفكار والمعاني . وبهذا تنوعت أفكاره ومعانيه حتى أصبح خصيب العقل ، لاتشكو منه خطأ في فكر ، أو جدباً في معنى . ولم تخل ثقافته من عناصر يونانية وفارسية .

وهذه هي عوامل ثقافته : تراه فقيهاً متكلماً ، يتفلسف ويتمنطق ، ومحدثاً بارعاً في الأدب واللغة ، راوية للأخبار والأشعار ، بحاثة في الحيوان والنبات ، نقّادة للأخلاق والعلوم ، عالماً بالفلك والموسيقى والغناء ، محباً للمطالعة وله وصف في الكتاب يدل على تعلقه به . وكان الجاحظ قد أمرّ على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه ماقدر عليه من أصناف الموضوعات ، فلم يكن غفلاً عن كل مايجري فيه الناس . والصحيح أن الجاحظ قد « لخص معارف عصره » او كما قال أحمد أمين : « إنه عقل امتزجت فيه الثقافات المتفاعلة » ومنه يتبين لنا أن الجاحظ لم يقتصر على الثقافة الأدبية الفنية وحدها ، بل تناول كل ثقافة وهضمها ، حتى كان بثقافته نسيج وحده .

ولعل العصر الذي جاء فيه ساعد على خلق هذه الشخصية العجيبة بتفكيرها وخصـ ـا ، وهو

عصر أحسن وصفه الجاحظ حين قال عنه : « وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا ، على أنا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا . . . وصلح الدهر ، وهبت ريح العلماء ، وكسد العي والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم . »

وفي هذا العصر انطلقت الحرية الفكرية التي كانت محجوزة قبل عصر المأمون ، هذه الحرية التي حققها المأمون نفسه ، وكان منها احتدام الفتنة بين اصحاب الفقه والحديث من جانب ، وبين المعتزلة واصحاب الفكر الحر من جانب . وكل يؤدي مذهبه ، ويجهر برأيه دون أن يخشى بأساً أو رهقاً . على حين أن الخلفاء من قبل المأمون كانوا يعاقبون على الزندقة . وقد رأينا نصيب ابن المقفع. فلما جاء المأمون أطلق القول والجدل في الدين ، وفسّح في المناظرات . وقد كان المأمون نفسه يحاجّ الفقهاء في كثير من الأمور ، ولولا فتنة القرآن لكان عصره مضرب الأمثال في الحرية الدينية والفكرية . وناهيك بعصر أول صفاته الحرية الفكرية . وقد مثّل الجاحظ هذه الحرية أحسن تمثيل ، سواء في علمه ،او في دينه ، أو في أدبه أو في شكه ويقينه . وظهرت آثار هذه الحرية على طريقته . وكذلك أمره في الدين ، فانه معتزلي . والاعتزال في الاسلام انما جوهره حرية التفكير ، لأن « الاعتزال » يعتمد على العقل ، ويتخذه إماماً في تفسير الشرع وتأويله ، ولا يطمئن الى الحديث الكثرة مافيه من الموضوع . فرد كثيراً من الأحاديث ، وحمل على علماء التفسير ،وسخر منهم ، وأنكر عليهم أقوالهم المخالفة للعقل . وفي كتاب الحيوان مقالات متعددة يناظرهم بها في غير رفق ولا هوادة . فكان من ذلك أن نقموا عليه ، وتتبعوا هفواته ، وألصقوا به التهم ، وقالوا انه زنديق ، شأنهم مع كل نابغة يتقدم أهل عصره ، على أن الرجل لاترى في كتبه ما يدل على كفره، وانما هو مشبع بالعاطفة الدينية ؛ تحدث كتبه بقدرة الله وحكمته ، ويذكر فصاحة الرسول ويطنب فيها . وانما ما أوّلوه بالزندقة هو تفكيره الحر الذي أبى أن يخضع لما يخضع له الناس على غير هدى وبصيرة . والجاحظ مفكر حر التفكير ، يشك في موضع الشك ، ويؤمن في موضع الايمان . وكان له من روح عصره وأحوال بيئته مايفسح له مجال الشك والسخرية ، فشك وسخر ، ولكنه لم يسقط في الكفر والجحود .

وقد جره فكره الحر الى أن يكون مذهباً خاصاً في الاعتزال ، انفرد به دون من أخذ عنهم . ولم يبلغ الينا من آرائه في مذهبه الا ما أورده الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » والبغدادي، ومنه نعلم أن الجاحظ جاري المعتزلة في أشياء ، وانفرد عنهم بمسائل . ومما جاراهم فيه قولهم : بنفي الصفات عن الله ، واتيان القدر خيره وشره ، وخلق القرآن . ومما انفرد عنهم اعتقاده : « بأن

المعارف ضرورية مركبة في طباع العباد وليست من أفعالهم ، وليس للعبـاد كسب سوى الارادة لأنها جنس من الأعراض ، وأما الافعال فجبرية تحصل من العباد طباعاً » .

ومنها : « أن أهل النار لايخلدون فيها عذاباً ، بل يصيرون الى طبيعتها ، فهم خالدون فيها من جهة الاقامة ، غير خالدين من جهة العذاب . »

ومنها : « ان الجواهر وحدها خالدة لايجوز أن تفنى ، أما الأعراض فتتبدل » .

ومنها : « أن الله لايدخل أحداً في النار ، بل ان النار تجذب أهلها » .

ومذهب الجاحظ ـ كما يقول الشهرستاني ـ هو بعينه مذهب الفلاسفة .

وقد كان لهذه المدرسة مناوئون اشداء من أهل عصره وغير عصره ، فاتهموه وقـذفوه . ولكن نفوذه البياني ساعده على نفوذه العقلي ، فكان نفوذه عظيماً ، وتأثيره بليغاً في تفكير زمانه ، وهو مذهب ، اقل ما يقال فيه ، أنه دلّ على استقلال في التفكير وحرية الرأي ، وذهـاب الى الابتداع لا الاتباع . وهذه الصفات التي ميزت الرجل في تفكيره ميزته أيضاً في أدبه .

آثاره الأدبية

خلّف الجاحظ مؤلفات عدة تدل على خصبه ، عالج فيها شتى الأغراض والمواضيع ، فكتب في الأدب والشعر والعقائد الدينية والنبوة والمذاهب الفلسفية ، وبحث في السياسة وطبائع الاشياء ، وتكلم عن العصبية وتأثير البيئة ، فكتب في القحطانية والعدنانية ، والصُّرحاء والهُجنـاء ، وبحث في العلوم التاريخية والجغرافية والطبيعية والرياضية ، فكتب في المدن والأمصار والمعادن وجواهر الأرض والكيمياء والنبات والحيوان والطب والغناء والقيان والمغنين وغير ذلك مما يتناول الحيـاة الاجتماعية والأدبية والعلمية في عصره وقبل عصره . وقد صدق من قال في هذه الناحية : « ان الجاحظ كان معلمة كبرى متنقلة ، كتب في المعارف البشرية ، وخاض شتى المواضيع ، ولم يتراجع أمام أي موضوع . ومثل هذه المعلمة تعجبك باتساعها ، وترامي آفاقها ، ولكن لاتعجبك باتقانها وبعد تعمقها ، لأن الذي ربحته سعةً خسرته عمقاً . ومن الطبيعي أن هذا التنقل يجعل كتبه فاقدة روح الانسجام والوحدة » ولكن على رغم مافيها من الانحراف تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ووصفها أحسن وصف ، وكساها من كلامـه أسلوباً جزلاً ، خلط فيها الجد بالهزل دفعاً لسآمة القارىء ، فتجد الحكمة البليغة الى جانب النادرة الظريفة . وقـد غلبت على كتبه النزعة الأدبية ، بل نستطيع القول ، انه مزج العلم بالأدب ، ولم يقتصر على ذكر

البراهين النظرية ، بل استعان بالتاريخ ، وبما يعرف من أحداث ، وما جرب هو نفسه من تجاريب، ومزج ماتعلم بما قرأ ، وبما سمع ، وبما شاهد ، وبما جرب . كما مزج الشعر بهذا كله ، بعلم اوسطو ، بطب جالينوس ، كما مزج آيات القرآن باحاديث النبي ، برأي الطبيعيين والدهريين ، ببقية لا ديان ..

وكان في أول أمره ينحل كتبه البلغاء المشهورين كابن المقفع ، وسهل بن هارون ليقبل عليها الناس ، لانه ربما كتب أفضل منها ، ونسبه الى نفسه ، فلم يجد عليه اقبالا . ومازال هذا دأبه حتى بعد صيته ، فأصبح لايضع رسالة الا تلقفها الناس .

والآن نتناول بعض كتبه التي تمثل نواحي مختلفة من خصب هذا العقل المجيب .

كتاب البيان والتبيين هو كتاب في الادب من آخر ما ألفه الجاحظ. مختارات من الادب من آية قرآنية ، أو حديث ، أو شعر ، أو حكمة ، أو خطبة ممزوجة بماله من آراء في مسائل عدة. بدأه بالتعوذ من العي ، وساق الأشعار في ذمه ، وحكاية موسى في طلبه الى ربه أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله . وانتقل الى فصاحة اللسان ونعمتها ، والعي ورداءته. وانتقل منه الى اختلاف لغات العرب في استعمال الالفاظ ، ثم ذكر الخطبة والخطباء ، وبعد ذلك يعقد باباً ثانياً للبيان ، وثالثاً في ذكر اناس من البلغاء والخطباء والانبياء والفقهاء ... وباباً في البلاغة ، وأبواباً أخرى في الشعر والخطب والوصايا ونوادر بعض الاعراب ، وفي الرد على الشعوبية ، وباباً في الزهد .

وفي كل فصل من فصول الكتاب فوضى لاتضبط ، واستطراد لايحمد .

كتاب الحيوان ظاهر هذا الكتاب أنه موضوع لمعالجة علم الحيوان ، وهو أول كتاب من نوعه والكتاب مقسم كما يلي :

١ ـ الجزء الاول : يبدؤه بمقدمة طويلة يردفي أولها على من انتقد كتبه السابقة ، ثم ينتقل الى ذكر منفعة الكتب على الجملة ـ وفيه وصفه الرائع للكتاب ـ وينتهي الى المناظرة بين الديك والكلب.

٢ ـ الجزء الثاني : يحتوي على أحاديث وحكايات غريبة عن كثير من الحيوانات والطيور .

وهذا الكتاب مؤلف من سبعة اجزاء ينتقل فيها صاحبها كعادته من موضوع الى آخر ، ومن حكمة الى شعر ، ومن آية قرآنية الى نادرة مضحكة . وقد ذكر الجاحظ نفسه في كتابه طريقة تأليفه فهو يقول : « متى خرج القارئ من آي القرآن صار الى الاثر ، ومتى خرج من أثر صار الى خبر، ثم يخرج من الخبر الى الشعر ، ومن الشعر الى نوادر ، ومن النوادر الى الحكم . . » ويعلل ذلك

بقوله : « فاني رأيتُ الاسماع تمل الأصوات المطربة والأغاني الحسنة ، والأوتار الفصيحة اذا طال عليها ذلك ، وما غايتنا من ذلك كله إلا ان يستفيدوا خيراً ».

والجاحظ لايصبر على موضوع واحد ، فاذا تكلم في شيء خرج منه الى اشياء ، كما لايصبر على جد ، فسرعان مايخرج منه الى الهزل . ويعترف هو بأنه عانى في هذه الكتب اكثر مما يعاني لو كتب كتاباً في موضوع واحد من غير استطراد .

ومصادر الكتاب كثيرة : من شعر كثير ، وأمثال مضروبة او كتب مقروءة ، ومحادثة لمن يثق ٢٤٣ من أهل المعرفة ، وتجارب يجربها بنفسه في الحيوان والنبات ، وأسفار يقوم بها ، وسماع لمن قد مارس الأسفار . ومن أهم العناصر التي اعتمد عليها في كتابه هذا كتب « ارسطو » في عالم الحيوان.

وكتب صاحب « مفكري الاسلام » عن كتاب الحيوان مايلي : « اذا شرع القارئ في قراءة هذا الكتاب ، وفي نيته ان يجد فيه مبحثاً علمياً عن الحيوان فقد خادعته نفسه » وقالت المعلمة الاسلامية : « ان تآليف الجاحظ مطبوعة بطابع أدبي لابطابع علمي . وان كتاب الحيوان انما هو أول نتيجة من نتائج دراسة الطبيعة في علم العرب » . وقال الجاحظ نفسه عن كتابه : « انه كتاب تستوي فيه رغبة الأمم ، قد أخذ من طرف الفلسفة ، وجمع معرفة السماع ، وعلم التجربة .» على أن في هذه الأحكام نصيباً من الصحة ، ونصيباً من الاجحاف بحق الجاحظ . فان الكتاب - وان لم يقرر مذاهب ثابتة علمية - فإن الطريقة العلمية التي توكأ عليها الجاحظ كانت طريقة صحيحة ، عملية ، امتزجت بها الصبغة الأدبية .

فهو تارة يستعين بالحواس لادراك الحقيقة ، فليس يشفيه الا معاينته الشيء بحواسه . وتارةً يجد الحواس قد تخادع في بعض الأحيان ، فيحترس في أحكامها « ولعمري ان العيون لتخطئ ، وان الحواس لتكذب » فيرجع الى العقل الذي هو قائد للحواس ، فيجمع الى الحواس معونة العقل. والعقل هو الحجة . والحق أن عقله كان قوياً قلّ أن يقبل خرافة . ثم هو في كثير من الأحيان يقف عن الاعتقاد حتى يجرب ويشك ويدعو الى الشك حتى تثبت صحة النظرية كقوله : « اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها موضع اليقين » وقد يعتمد على السماع ، ويجعله وسيلة من وسائل التحقيق ، وكان وراء ذلك كله يرد التجربة والعيان والسماع الى العقل . فما كان يصدق الا ماتثبته الأدلة ، ويحققه الامتحان . وكأنه الجاحظ الأول عرض الأمور على التصحيح والتمييز فقد كان مولعاً بالرد على الخرافات سواء كانت هذه الخرافات في ابواب العلم ام كانت في أبواب الدين ، وأظهر مثل على ذلك موقفه من « أرسطو » فقد عاب عليه أموراً كثيرة ، ووقف منه موقفاً

بديعاً ، ولم يصب أمامه بشلل الفكر - كما أصيب سواه - فهو يمتحن قوله ، ويجربه ، ويقبله، أو يرده.

وكتاب الحيوان - وان غلبت عليه الصبغة الادبية - فمن الغبن أن نبخسه حقه من العلم ، فان فيه من الميزات العلمية ، مالا ينطبق الا على الطريقة العلمية في استقراءاتها واختباراتها . من ذلك ميزة التطلع الشخصي كملاحظته لتلون الحيوان بألوان بيئته ، وقوله بتأثير البيئة في تكوين الكائن وشخصيته ، وميزة التجربة ، كعمده الى ذبح الحيوان ليتبين ما في جوفه وقانصته أو جمعه اضداد الحيوان في اناء واحد ليعرف تقاتلها . وميزة السماع وفحص مايسمعه . وميزة المحاكمة العقلية حين تتعذر التجربة ، كل هذه خصائص لاتتوفر الا عند عالم جعل الحقيقة غايته الاولى.

كتاب البخلاء وهذا الكتاب جعله الجاحظ في جزء واحد ، يمثل ثقافة الجاحظ الاجتماعية، التي لاتلتفت الى معرفة الناس وخلائقهم وعاداتهم في بطون الكتب ، وانما تخرج الى الحياة ، وتعاشر الناس ، وتتصل بهم من قريب وبعيد ، وتفهم طرق معايشهم ، وتقع على فضائلهم ورذائلهم . وقد وفق الجاحظ في هذا الكتاب توفيقاً كبيراً ؛ لانه استطاع أن يعكس لك صورة أمينة واضحة للحياة الاجتماعية في عصره ، وقلما وفق كاتب في نقل هذه الصورة بعمق ودقة ، كما فعل الجاحظ . فهو في - هذا الكتاب - اقرب الى الكتاب الواقعيين الذين يتخذون الواقع مادة موضوعهم ، فلا يبتعدون عن الحياة ، لان غايتهم صورة الحياة نفسها ، ولا يكتبون عن الناس - وهم بعيدون عن الناس - وانما يعاشرونهم ، ويخالطونهم ليقدروا على دراسة اخلاقهم . ومن تلك الغرائز غريزة البخل التي جعلها الكاتب موضوع كتابه . فتحدث عن البخل ، وصوّر أخلاق البخلاء وطرقهم في الحرص والاقتصاد وأوله رسالة من سهل بن هارون الى بني عمه ، وقد ذموا مذهبه في البخل ، فدافع عنه ، واحتج له، وذكر منافعه ، وما قيل في تحسين الحرص وذم السرف ، حتى اذا انتهت الرسالة اخذ الجاحظ في سرد قصص البخلاء ، واكثرهم من اهل البصرة ، وفيهم من اهل خراسان . ويتخللها حيل البخلاء في الحرص والاقتصاد وجمع المال ودفع الضيوف . ولا يتورع الكاتب من فضح اصدقائه ، وذكر نوادرهم ، وفيهم طبقة من الادباء والعلماء . ورأيه - كعادته - ان يستطرد في الكلام ، فيروي نوادر عن بخل الاصمعي ، وينتقل الى ذكر اسماء المآدب عند العرب ، ويقوده الكلام الى الاخبار عن جوع العرب وعطشهم وشظفهم وفقرهم . ثم يستطرد الى شبعهم وخصبهم وضيافاتهم ويعدد طعام الاعراب من طيب ورديء ، ويذكر الكلاب ونبحها في الليل لاستجلاب الضيوف ونبحها في وجه الضيف لدفعه ، ويروي ماقيل من الشعر في هذا او ذاك . ويختم الكتاب بالكلام على النيران التي كان يوقدها

العرب في الأماكن المرتفعة ليهتدي بها الضيوف ويروي ماقيل في ذلك من شعر. والكتاب - كما يتبين - لايقتصر على اخبار البخلاء ، وانما هو كسائر كتب الجاحظ حافل بشتى الأغراض ، مصطبغ بالأدب من جميع نواحيه .

على أن الكتاب لم يخل من فوائد اجتماعية وتاريخية ، مما يعود بعضها الى تدبير المنزل وعلم الاقتصاد « كحديثه عن مريم الصناع يوم موتها » . ويعود بعضها الى معرفة احوال ذلك العصر في أطعمته وملابسه . ويطلعنا على كثير من عاداتهم في الضيافة . ويبين لنا منزلة الأعاجم في عصره - ولا سيما الأطباء - فإن الناس كانوا لايرون خيراً في الطب الا ماجاءهم عن نصراني أعجمي .

ويمتاز البخلاء - هذا - في ان اشخاصهم على شحهم وخساستهم لايطبعون في النفس صوراً كريهة تنفر منها ، لأن الكاتب أضفى عليهم من خفة روحه وظرفه ظلا خفيفاً فجاءوا محببين الى القلب وان كانوا بخلاء .

آفاق تفكير الجاحظ

عرفت أن الجاحظ كان من جهة العلوم والمعرفة جامعة كبيرة او معلمة كبرى يجمع معارف غير مؤتلفة ... وكان الجاحظ من هذه الناحية جبار فكره في عصره ، ولا أعني بعبقرية فكره انه يجمع ويحفظ اشياء لايجمعها او يحققها غيره . ولكن لأن له من فكره القوي مايأخذ ويعطي ، ويجمع ويفرق ، ويكتسب ويستنبط . وهو - وان فاته الاختصاص في شعبة من شعب العلوم - فلم يفته من كل شعبة أن يلم بدقيق امورها ، ويحيط بأكثر اخبارها . ولقد ظهرت لك براعته مثلاً في كتاب الحيوان ، وكيف كان يتناول غرضه ، ويجهد في ان يستكمل كل شاردة في بحثه ، وهكذا شأنه في كل ناحية طرقها ، وفي كل علم ولجه ، فكانت له آراء في الحيوان كما كانت له آراء في النبات وآراء في الأدب والشعر والنقد كما كانت له آراء في حالات مختلفة .

وقد ينطبق عليه قول صاحب « مفكري الاسلام » ان في هذا كله مجموعاً قد يكون في بعض الأحيان غير منسجم . ولكنه ملآن بالحوادث والأفكار . وقد تلاقي في فصوله عامة مايدل على روح التطلع في عصره ، ينتقل من فكر الى فكر ، ويظل في هذه التنقلات صاحب نكتة ، خفيف الروح محبوب النفس .

ومن الحق ان نقول ان الجاحظ كان امة وحده في تفكيره وأسلوبه . ولقد وجد النقاد - في اسلوبه - الذروة العليا التي بلغها النثر الفني من حيث الاشراق والمرونة والوضوح. واذا كانت هنالك

مزايا خاصة ظهرت على اسلوبه وطريقته فان مثل هذه المزايا يتصف بها تفكير الجاحظ ، منها :

١ — انه تفكير واسع المدى. يتناول كل شيء يهمه تناوله . وقلما رأينا في العرب من قبل تفكيراً واسعاً كتفكير الجاحظ . ومرد ذلك الى الثقافة الشاملة التي احاط بها . وربما كان يجمع ابن المقفع ما يجمعه الجاحظ . ولكن تفكيره لاتتسع دائرته لكل هذه الاطراف . ولذلك نراه — مثلا — نجح في المسائل الادبية والاخلاقية .

٢ — انه تفكير يستمد من الحياة ، ويغترف من المجتمع . فهو لايتناول مسائل الحياة ليطبقها على الاقوال والامثال ، وانما يستشهد بالاقوال والامثال ويجعل منها ملاءق للحياة التي رآها بعينه ، وتذوقها بعقله ... ومرجع ذلك الى ان الجاحظ تغلب عليه ألوان كثيرة من العيش في رخاء وشظف وبؤس ونعيم . وهو خلال ذلك تذوق الحياة ، وعرف ألوانها . وقد أفادته رحلاته كثيراً في دراسة احوال مجتمع كل مدينة ، وعاشر دهماء الناس كما عاشر خاصتهم . فمازاده ذلك الا تثقيفاً للفكر ، وتعمقاً في التأمل ، ولامر ما قال عنه الاستاذ احمد امين : « كل هذا أورثه نوعاً من الثقافة مما ليس من نوع مما يؤخذ به من الكتب والدفاتر ، وأورثه معرفة بطبائع الناس وأخلاقهم وطرق معايشهم وفضائلهم ورذائلهم ، ومن اكبر مايمتاز به الجاحظ انه يأخذ بيدك ليطلعك على الحياة الاجتماعية ، ويجعلك تلمسها وتذوقها » وهذا ، لعمري هو الادب الواقعي بحسب المصطلح ، الذي يتناول الحياة من الحياة ويصفها كما هي ، لايمسخ مشاهدها ، ولا يحور فصولها ، وفي مثل هذا الادب يستجلي الدارس احوال المجتمع والعصر بوضوح وجلاء . ولن تجد في العربية غير الجاحظ يمتاز بهذه الخاصة !

٣ — انه تفكير شخصي : وأريد بالتفكير الشخصي الذي يأخذ الحادثة او الفكرة ولايخرجها الا مطبوعة بطابعه الخاص . والجاحظ في هذا من المفكرين الشخصيين الذين لايتنازلون عن لون شخصيتهم في كل مايفكرون فيه ، او يكتبون عنه ، سواء عليك أزرته مع حيوانه ، او طرقته في اعتزاله ، او جئته وهو يدرس احوال مجتمعه ، فهو عندما يبحث عن الدين والتفسير والتأويل لا يصدر الا عن شخصيته ، وعندما يجرب او يحكم لايستند الا على ما آمن به عقله . فكم رأي لم يقبله الا بعد ان قلبه على وجوهه ، وكم خرافة ردها على اصحابها في دين او علم . ومرد ذلك قبل كل شيء الى المدرسة المدينية التي انتمى اليها ، وأفاد من اصحابها استقلال الرأي وحرية التفكير . .

٤ — انه تفكير ناضج : لاتكاد تجد فيه العالي من الافكار والسافل ، لان مطالعته الشاملة جعلته لايغفل عن شيء . وهب أن فكرة تحاول أن تنفذ الى قلبه فان تنفذ الابعد أن تلاقي عقلا وسع كل شيء ... وجرب كل شيء .

٥ – انه تفكير لايهم بأن يستقر حتى ينتقل ... وربما اعتبر الدارس ذلك لأول وهلة ضعفاً في أحد جوانبه . لأن الفكر المستقيم لايقصد الى الشيء بطريق ملتوية أو منحرفة . وانما يذهب قدماً ، فلا يزال يعالج في صميم الفكرة وفؤادها حتى يقتلها بحثاً وتفكيراً . ولكن هذا الانتقال عاله لنا صاحبه ، ورده الى ظواهر فنية لاظواهر تفكيرية ، وزاد قائلاً « انه كان يقصد هذا التنقل ليكون أروع للقارىء واذهب لسأمه ... » وهذا شيء يتعلق بالأسلوب الفني . ومرد ذلك الى أن الجاحظ كان يدرك جفاف بعض مواضيعه ، فكان لابد أن يخلطها بشيء يخفف من جفافها ، وكانت رسالته رسالة أدبية – حتى في المسائل الدلهية .

٦ – انه تفكير يصطبغ بصبغة الهزل والتهكم ، وهذه صفة لايمكن أن يتكلفها الطبع . ولا بد أن تكون سجية من سجايا الجاحظ النفسية . ولعل هذه الصبغة هي أظهر ألوان تفكيره ...

* * *

نماذج من كتابة الجاحظ

١ – من كتاب البخلاء : (البركة في المؤاكلة)

« حدثني مويس بن عمران ، قال :

قال رجل لصاحبه – وكانا إمّا متزاملين وإما مترافقَين – : لِمَ لاتتطاعمُ ؛ فإنّ يدَ الله مع الجماعة ، وفي الاجتماع البركةُ ، ومازالوا يقولون : طعامُ الاثنين يكفي الثلاثةَ ، وطعامُ الثلاثة يكفي الأربعة . فقال له صاحبه : لولا أعلمُ أنك آكَلُ مني لأدخلتُ لك هذا الكلامَ في باب النصيحة . فلمّا كان الغدُ وأعاد عليه القولَ قال له : ياعبدَ الله ! معك رغيفٌ ومعي رغيفٌ ، ولولا أنك تريدُ أكثر ما كان

حِرصُكَ على مؤاكلتي . تريدُ الحديثَ والمؤانسة ؟ إجعل الطبَقَ واحداً ، ويكونُ رغيفُ كلٍّ منّا قُدّامَ صاحبِهِ ، وما أشكُّ أنّك اذا أكلتَ رغيفكَ ونصفَ رغيفي ستجدُهُ مباركاً ، انّما كان ينبغي أن أكونَ أجدُهُ أنا لا أنت » .

تحليل النص (*)

١ — موضوع القصة :

البخل ، أو على الاصح ، لون من ألوان البخل ، وهو الطمع في الاكل من طعام الناس . وقد ساق الكاتب القصة على طريقة الحوار بين رجلين كانا في سفر .

تبتدئ القصة مباشرة من غير تمهيد ، فيخبرنا الكاتب أن الرجلين كانا مترافقين في سفر ، ثم يسوق الحديث بينهما :

الاول — يغري رفيقه ويحسن له المؤاكلة ، فيقدم القضية : (لم لاتطاعم ؟) ثم يورد الحجة بعد الحجة ظاهراً بمظهر النصح والوعظ والارشاد .

الثاني — يعرّض بما وراء هذه النصيحة من طمع .

الاول — يعيد الكرة لاقناعه ، ولا يقطع الامل منه .

الثاني — يكشف الستار بوضوح عن هذا الطمع المادي الذي ألبس لباس النصيحة ، ويسد على صاحبه أبواب حجته .

ب — خصائصها : اولا — من حيث الموضوع :

١ — ان هذه الحادثة التي قصها كثيرة الوقوع يتفق مثلها الكثير من الناس . فهي واقعية الموضوع .

٢ — لم يهمل الكاتب فيها التعبير عن الناحية الحسية المادية ، فقد حدد علاقة الرجلين أحدهما بالآخر ، واستعمل مثل قوله : معك رغيف ومعي رغيف ، ويكون رغيف كل منا قدام صاحبه .

٣ — ينكشف في ثنايا الحديث الذي دار بين الرجلين ما جال في ذهن كل منها ، وما جاش في

(*) « عن فن القصص في كتاب البخلاء ، للاستاذ محمد المبارك »

نفسيها . فالأول طامع في لباس واعظ ، ومحتال في زي ناصح . والآخر ماهر لاتخدعه الحيلة ،شديد الاحتفاظ بماله ، فالقصة قائمة على تحليل نفسي .

٤ ــ ان هذا التضاد الواقع في القصة بين النصيحة العالية ، والجشع المادي في كلام الرجل الطامع ، وتلك المهاجمة والمدافعة في الحوار بين رجلين لايقل أحدهما عن الآخر مهارة ودهاء ، ولا حرصاً وبخلاً ، تجعلها فكاهية هزلية .

● ــ وهي أخيراً مجردة عن مغزى خلقي ، او تحليل فلسفي ، فقد ظهر الكاتب فيها بمظهر المصور ولم يجعل القصة وسيلة لنصح أو تهذيب خلافاً لما صنعه ابن المقفع في كليلة ودمنة .

ثانياً ــ من حيث التعبير والأسلوب

١ ــ الألفاظ دقيقة في تعبيرها مع ايجازها : متزاملين ، متشاركين في العمل على دوابها . يتطاعم ، رغيف ، طبق ، مؤاكلة ، مؤانسة .

٢ ــ لغة القصة لغة حية بسيطة من حيث ألفاظها وتراكيبها ، والتراكيب على الخصوص أشبه بكلام المخاطبة والمحادثة بين الناس منها بالتراكيب المصنوعة وفقاً لقواعد النحو والتراكيب التقليدية من غير إخلال بفصاحة الكلام ، كقوله : (قدام ــ لولا أعلم ــ لولا أنك تريد أكثر ــ تريد الحديث والمؤانسة ..)

من كتاب الحيوان :

حكمة الحية

« حدَّثنا أبو جعفر المكفوفُ (١) النَّحْويُّ العَنبريُّ ، وأخوه رَوْحُ الكاتب ، ورجالٌ من بني العنبر : أنَّ عندَهم ، في رمال بَلْعنبر (٢) ، حيةً تصيدُ العصافيرَ

(١) المكفوف : الأعمى . (٢) بَلْعنبر : أي بني العنبر .

وصغارَ الطير بأعجبِ صيد. زعموا أنها اذا انتصف النهارُ واشتدّ الحرْ في رمال بلعنبر، وامتنعت الأرض على الحافي والمنتعِل، ورمِض (١) الجُنْدُب، غمست هذه الحية ذَنَبَها في الرّمل، ثم انتصبت كأنها رُمْحٌ مركوزٌ أو عُودٌ ثابت. فيجيء الطائرُ الصغير أو الجرادةُ، فاذا رأى عوداً قائماً، وكرِه الوقوعَ على الرمل لشدة حرّه، وقع على رأس الحيةِ، على أنها عود، فاذا وقع على رأسها قبضَتْ عليه. فإن كان جرادةً، أو جُعَلاً (٢)، أو بعضَ مالا يُشبِعها مِثلُه، ابتلعته وبقيت على انتصابها، وان كان الواقعُ على رأسها طائراً يشبعها مِثله، أكلَتْه وانصرفت. وأنْ (٣) ذلك دأبُها مامنعَ الرملُ جانبَه في الصيف والقيظ (٤) في انتصاف النهار والهاجِرة (٥). وذلك أن الطائر لايشكْ أن الحيةَ عودٌ، وأنه سيقوم له مقامَ الجِذْل (٦) للحِرباء، الى أن يسكنَ الحرْ ويهجَ الرمل.

وفي هذا الحديث من العجبِ أن تكونَ هذه الحيةُ تهتدي لمثلِ هذه الحيلة، وفيه جهلُ الطائرِ بفرق مابينَ الحيوانِ والعود، وفيه قلةُ اكتراث الحيةِ للرمل الذي عاد كالجمر، وصلَحَ أن يكونَ مَلَّةً (٧) وموضعاً للخُبزة. ثم أن يشتملَ ذلك الرمل على ثُلُثِ الحية ساعاتٍ من النهار، والرملُ على هذه الصفة.

فهذه أُعجوبةٌ من أعاجيب ما في الحيّات.»

* * *

(١) رمض: آلمه الرمض وأحرقه والرمض: شدة وقع الشمس على الرمل ونحوه. (٢) الجُعَل: دويبة سوداء. (٣) وأنّ بفتح همزة ان: معطوفة على قوله حدثنا ابو جعفر. (٤) القيظ: صميمُ الصيف حيث يشتد الحر. (٥) الهاجرة: انتصاف النهار وشدة الحر. (٦) الجذل: أصل الشجرة بعد ذهاب الفرع. (٧) الملة: الرماد الحار الذي أوقد فيه النار.

دراسة النص

الأفكار العامة

هذه حادثة سمع بها الجاحظ ، فنقلها كما سمعها ، في باب الحيات. وقد احتاط للسماع كما احتاط لرواية القصة ، وكما احتاط أخيراً للتعليق الذي أنهى به الحادثة :

فالمحدث أبو جعفر - وهو رجل مكفوف نحوي عنبري - ومتى كان الرجل - على فطنته - مكفوفاً فان الثقة في كلامه ضعيفة لأنه لن يتاح له أن يرى الحادثة ، وانما هو يرويها عن غيره . فليسأل اذاً أخاه عنها ، وليزدد ثقة في سؤال رجال من قريته ليعلم أين موضع الحادثة !

والحديث عن حية تصيد بأعجب صيد ، فهي اذا انتصف النهار ، وامتنعت الأرض على الواطىء غمست هذه الحية ذنبها في الرمل ، ثم انتصبت ، فيجيء الطائر الصغير او الجرادة ، فيقع على رأس الحية فراراً من حرارة الرمل ، فتقبض عليه . وهذه الحية لم تصل الى غرضها مصادفة ، لأنها كانت تعيد الكرة في الصيف ، كأنما عقلها الذي هداها لهذه الحيلة ، هداها أيضاً الى انتخاب الفرص المماثلة في كل فصل قيظ . وفي هذا الحديث مدعاة الى العجب ، لأن الحيات كلها لا تصنع هذا الصنع وهو صنع يكاد يشك العاقل فيه لأسباب عدة .. وهنا يتجلى عقل الجاحظ العلمي الذي يأذن له بنقل الحادثة كما رواها ، ولكن لا يأذن له بتصديقها قبل محاكمتها من جميع الوجوه . ومآتي الحادثة عند الجاحظ متعددة . فمن العجيب عنده أن تهتدي الحية لمثل هذه الحيلة ، وفيه ايضاً صبر الحية على رمل حاد كالجمر ، كأنها ترى في صبرها رزقاً لها ، وأعجب منه عنده أن يشتمل ذلك الرمل على ثلث الحية ساعات من النهار . وفي هذا الشك كله ، والاستنتاج الدقيق ما يدل على روح الكاتب العلمية ، التي تسلط العقل والمنطق على المسموعات ، فلا تقبل الا بما يقره العقل ثم تعمل على ما يحيط بالحادثة من ملابسات . وان بقاء ثلث الحية في الرمل الحار ساعات من النهار أمر يدعو الى العجب الشديد.. ولكن الجاحظ شك في ذلك ، فسأل واحداً ، وأكثر من واحد ، فأكدوا له الحادثة ... ولكنه، مع ذلك يرويها ويبدي ما يدعوه الى الريب فيها ..

والى ذلك ، جهل الطائر الذي لا يقدر أن يفرق ما بين الحيوان والعود ، فيهوي على رأس الحية

على أنها عود ، فتقبض عليه . على أن الطائر على عذر بهذا الجهل لأن الحية قد أتقنت التشبه بالعود حتى انعدم الفرق كله .

الأسلوب

يتّسم الأسلوب العلمي بأنه أسلوب واضح هادئ ، بسيط بعيد عن التكرار ، والزخارف اللفظية ، والتشابيه والاستعارات التزيينية ، لأنه أسلوب يُقصَدمنه الافادة المجردة ، ونقل الأفكار بأيسر الطرق . ولكن الأسلوب العلمي ـ عند الكاتب ـ لم يتجرد من الصبغة الأدبية ؛ لأن كاتبه أديب قبل أن يكون عالماً ولهذا ـ لالغيره ـ تعصب عليه بعضهم بأنه أراد اخراج كتاباتهمن حوزة العلم ، لأنها الى الأدب أدنى .

وفي الحق أن هذه القطعة ، بما فيها من حقيقة علمية ، وأسلوب خاص يعبر عن هـذه الحقيقة . يجتمع فيها خصائص مختلفة ، كأنها تعبر عن ثقافة الجاحظ المختلفة ، وشخصيته المركبة !

من خصائص هذه القطعة :

١ ــ أن اسلوبها ، بصورة عامة ، تغلب عليه السهولة والبعد من التكلف ، لأن صاحبه لايتكلف في تفكيره ولا في تعبيره . عمد الى الألفاظ الواضحة دلالتها دون أن يتعمد المجازات او الاستعارات . يركب الاسلوب المرسل ، لاتكلف فيه ، ويخاطب العقل دون أن يجهد العقل .

٢ ــ أراد الكاتب ايراد حادثة يشك فيها ، برغم توارد التواتر عليها ، لأن العقل يشك في حصولها . فلم يترك وسيلة الى الشك الا طرقها ، من سؤال وتكرار للسؤال ، وتعليل للسؤال ، حتى اذا ما اعترف بها أوردها بأسلوب خلا من الجفاف ، لأنه ساقها بخفـة نفس ، ووصف معلل ، له مقدمته ، وعرضه ، ونهايته ، واثارة للمشاكل التي نتجت عنه . فجاء « العلم بكساء الأدب » !

٣ ــ ومن خصائص هذه القطعة « المرونة الانشائية » التي تدل على حذق صاحبها في اللغة والانشاء ، بحيث انه يتصرف في التعبير كما يشاء . وما ذلك الا لأن النثر العربي لم يعرف المرونـة والسهولة الا على يد الجاحظ !

٤ ــ روح الاسلوب العالية تظهر في عرض النص ، كما سمعه ، وأيده بالسماع ، دون أن يبدل فيه شيئاً ، ثم أبدى وجوه العجب في الرواية من جميع الجوانب . أما روح الأسلوب الأدبيـة فلم تغب عن صاحبها بغزارة الألوان في الجمل ، على ان تكون ضرورية . « فالنهاريتنصف ، والأرض

تمتنع على الحافي والمنتعل ، وهو طباق غير مقصود ، والجندب يرمض . » أما الحية ، فانهـا تنتصب كالرمح المركوز ، والعود الثابت» وما أجمل لغته ، والمجازه فيها حين يجمل ذلك دأب الحية « مامنع الرمل جانبه في الصيف والقيظ ، والتكرار هنا للمبالغة ، وفي انتصاف النهار والهاجرة» وذكر الهاجرة لتخصيص الوقت الذي يكون الحر فيه على أشده .

٥ — جمل الجاحظ تختلف باختلاف الغرض ، فهي رشيقة ، واضحة المعنى ، مفصلة تفصيلاً ، يقطعها مرة ، ويرسلها أخرى . قصيرة على الغالب . وقد تطول اذا تخللها جمل يتطلبها سياق الكلام « كوقوع الطائر على الحية » فتمتد ، وتموج ، وتنبسط ، ثم تمتد ، ولكن دون أن يعتورها غموض مها امتدت . ودون ان ينقطع حسن ائتلافها مع الجمل المتداخلة فيها ! يدل تأليفه الكلام على احاطته بخصائص اللغة ، ووقف على مجاريهـا ، فينتقي لاشيء الكلمة التي لايظهر الا بهـا . وينزل اللفظ في منازله ، ويصبه في قوالبه ، بحيث لو فتشنا عن لفظ آخر المعنى الذي يمثله لنا لما وجدنا لفظاً غيره يقوم مقامه ، أو يسد مسده .

* * *

مصادر

١ — وفيات الأعيان لابن خلكان ، ج ١ : ٤٩٠ .

٢ — معجم الأدباء لياقوت الحموي ، ج ٦ : ٥٦ (مرغوليوث) .

٣ — الجاحظ : شفيق جبري — دمشق .

٤ — ضحى الاسلام لأحمد أمين ، ج ١ : ٣٨٦ .

٥ — ادب الجاحظ : السندوبي .

٦ — الجاحظ : خليل مردم بك .

٧ — الجاحظ : فؤاد افرام البستاني (الروائع ١٨ — ٢٠) .

٨ — Carra de Vaux : Djâhéz (Les Penseurs de l'Islam)T. 1 : 293

* * *

التوقيعات

هي ما يعلقه الخليفة او الامير او الوزير او الرئيس على مايقدم اليه من الكتب في شكوى حال أو طلب نوال . وميزتها الجمع بين الايجاز والجمال والقوة. وقد تكون آية أو مثلاً أو بيت شعر .

امثلة منها :

وقّع أبو جعفر المنصور في كتاب عبد الحميد صاحب خراسان :

شكوتَ فأشكيناك . وعتبتَ فأعتبناك . ثم خرجتَ على العامّة ، فتأهّبْ لِفراق السلامة .

ووقّع الى صاحب مصر حين كتب يذكر نقصان النيل :

طَهِّرْ عسكرَك من الفساد ، يُعطِكَ النيلُ القِيادَ .

ووقّع في كتاب أتاه من صاحب الهند يخبره أن جنداً شغبوا عليه وكسروا أقفال بيت المال :

لو عَدلتَ لم يَشغَبُوا ، ولو وفيتَ لم يَنهبوا .

وقّع هارون الرشيد الى صاحب خراسان :

داوِ جُرحَكَ لايَتَّسِعْ .

ووقّع في نكبة جعفر بن يحيى :

أنبتَتْه الطاعةُ ، وحَصَدَتْه المعصيةُ .

وقع المأمون الى الرستمي في قصة من تظلم منه :

ليس من المُروءةِ أن تكون آنِيَتُكَ من ذَهبٍ وفِضّةٍ، وغريمُك خاوٍ، وجارُك طاوٍ.

ووقّع في قصة متظلّم من أبي عيسى أخيه:

« فإذا نُفِخَ في الصُورِ فلا أنسابَ بينهم يومئذٍ ولا يتَساءلون . »

وكتب اليه ابراهيم بن المهدي:

إن غفرتَ فبفضلِك، وإن أخذت فبعَدْلِك.

فوقّع في جوابه:

القُدرة تُذهبُ الحَفيظةَ. والندمُ جزءٌ من التَوبة. وبينَهما عفوُ الله.

ووقّع في رُقعة مولى طلب كِسوة:

لو أردتَ الكِسوةَ للزمتَ الخدمة، ولكنك آثرتَ الرُقادَ فخطَتْك الرُؤيا.

وقّع جعفر بن يحيى في قصة محبوس.

العَدلُ أوقَعَهُ، والتوبة تُطلِقُهُ.

ووقّع في كتاب رجل شكا اليه بعض عماله:

قد كَثُر شاكوك، وقلّ شاكِروك، فإمّا اعتدلتَ، وإما اعتزلتَ.

ووقّع في قصة مستمنح قد أعطاه مراراً:

دَع الضَرعَ يَدِرّ لغيرِك كما درّ لك.

* * *

أبو حيان التوحيدي

[نماذج من كتاب الإمتاع والمؤانسة]

الليلة السابعة

﴿ في الرد على من فضل كتابة الحساب على كتابة الانشاء ﴾

قلت : أيها الرجل ! قولك هذا كان يُسلَّم لو كان الانشاء والتحرير والبلاغة بائنةً من صناعة الحساب والتحصيل والاستدراك . فأما وهي متصلة بها ، وداخلة في جملتها ، ومشتملة عليها ، وحاوية لها ، فكيف يطَّرد حكمك ، وتسلم دعواك ؟ ألا تعلم أن أعمال الدواوين التي ينفرد أصحابها فيها بعمل الحساب فقيرة الى انشاء الكتب في فنون ما يصفونه ويتعاطونه ؛ بل لا سبيل لهم إلى العمل إلا بعد تقدمة هذه الكتب التي مدارها على الإفهام البليغ والبيان المكشوف والاحتجاج الواضح ، وذلك يوجد من الكاتب المنشىء الذي عبتَه وعضضتَه [1] ، وهذه الدواوين معروفة ، والأعمال فيها موصوفة .

فان قلت : «هذا كله مستغنىً عنه» كابرتَ وبَهَتَّ ، لأن مدار المال ودُروره ، وزيادَتَه ووفورَه على هذه الدواوين التي إمّا أن يكون حظ البلاغة فيها أكثر ، وإما أن يكون أثر الحساب فيها أظهر ، وإما أن يتكافآ . فعلى جميع الأحوال لا يكون الكاتب كاملاً ، ولا لاسمه مستحقاً ، إلا بعد أن ينهض بهذه الأثقال ، ويجمع إليها

(١) عضه بلسانه : تناوله بمكروه الكلام .

أصولاً من الفقه مخلوطة بفروعها، وآيات من القرآن مضمومة الى سمته فيها، وأخباراً كثيرة مختلفة في فنون شتى لتكون عُدّةً عند الحاجة اليها، مع الأمثال السائرة، والأبيات النادرة، والفِقَر البديعة، والتجارب المعهودة، والمجالس المشهودة، مع خط كتبر مسبوك، ولفظٍ كوشيٍ محُوك. ولهذا عزَّ الكامل في هذه الصناعة.

وأما قولك: «الإنشاء صناعة مجهولة المبدأ، والحساب معروف المبدأ» فقد خرِقْتَ، لأن مبدأها من العقل، وممرَّها على اللفظ، وقرارها في الخط.

وأما قولك: «ان أصحابها يُسترقَعون» فهذا شنَعٌ من القول، ولو عرفتَ الصدق فيه لم تتبس به ولم تنطِق بحرف منه، فان فيه زرايةً على السَّلف الصالح والصدر الأول. ولو وجب أن يُسترقَع البليغ إذا كان عاقلاً، لوجبَ أن يُستعقَل العِيِيُّ اذا كان أحمق، وهذا خُلف.

وأما قولك «المنشيء والمعلِّم والنحوي إخوةٌ في الركاكة» فما يتعلَّم الناس إلا من المعلم والعالم والنحوي، وأن ندر منهم واحد قليل البضاعة من الحق.

وأما قولك: «ان المملكة تكتفي بمنشيء واحد» فقد صدقتَ. وذلك أن هذا الواحد في قوته يفي بآحادٍ كثيرة. وهؤلاء الآحاد ليس في جميعهم وفاء بهذا الواحد. وهذا عليك لا لك. لكن بقي أن تفهم أنك محتاج الى الأساكفة أكثر مما تحتاج إلى العطارين، ولا يدل هذا على أن الإسكاف أشرفُ من العطار، والعطار دون الإسكاف؛ والأطباء أقل من الخياطين، ونحن إليهم أحوج، ولا يدل على أن الطبيب دون الخيّاط.

وأما قولك: «ما زال الناس يحثون أولادهم على تعلم الحساب ويقولون: «هو

سلةُ الخبز» فهو كما قلتَ، لأن الحاجة إليه عامة للكبار والصغار؛ وأشرف الصناعات يحتاج اليها أشرف الناس، وأشرف الناس الملِك، فهو محتاج الى البليغ والمنشئ والمحرّر، لأنه لسانه الذي به ينطق، وعينه التي بها يُبصر، وعيبتُه التي منها يستخرج الرأي، ويستبصر في الأمر.

وأما قولك: «من عبّر عما في نفسه بلفظ ملحون، أو محرَّف، وأفهم غيرَه فقد كفى» فكيف يصح هذا الحُكم ويُقبَل هذا الرأي؟ والكلام يتغير المراد فيه باختلاف الإعراب، كما يتغير الحكم فيه باختلاف الأسماء، وكما يتغير المفهوم باختلاف الأفعال؛ وكما ينقلب المعنى باختلاف الحروف. وكفى بالبلاغة شرفاً أنكَ لم تستطع تهجينها الا بالبلاغة. ولم تهتدِ الى الكلام عليها إلا بقوتها. فانظر كيفَ وجدتَ في استقلالها بنفسها ما يُقلِّها ويُقلِ غيرَها. وهذا أمر بديع وشأن عجيب.

دراسة النص

التعريف بالمؤلف:

«هو علي بن محمد أبو حيان التوحيدي الفيلسوف الأديب، ولد في شيراز، وأقام مدة في بغداد. أصيب في حياته بالبؤس والشقاء، وظل حياته يجاهد ويكافح في التأليف واحتراف الوراقة، والنسخ، وجوب الأقطار. يقصد الأمراء والوزراء لعلهم يكافئون علمه وأدبه، فلم يحظ من كل ذلك بطائل. ولم يكن حظه بعد وفاته بأحسن من حظه في حياته، فقد عجب ياقوت من أن مؤرخي الرجال لم يترجموا له، مع أنه فيلسوف الأدباء، وأديب الفلاسفة. ولذلك لم يأت عن حياته الانتف قصيرة، وأخبار ضئيلة. وكان من شؤمه أنه لم يبق من كتبه التي ألفها إلا القليل. ولم يطبع منها إلا «المقابسات» و«الصداقة والصديق» و«الامتاع والمؤانسة». مات نحو سنة ٤٠٠ هـ.»

التعريف بالكتاب :

« كتاب الامتاع والمؤانسة مجموع مسامرات في فنون شتى ، حاضر بها المؤلف الوزير أبا عبد الله العارض في سبع وثلاثين ليلة . وقال القفطي في وصفه : « وهو كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة في فنون العلم ، فانه خاض كل بحر ، وغاص كل لجة ». وموضوعات الكتاب متنوعة تنوعاً ظريفاً لاتخضع لترتيب ولا لتبويب ، إنما تخضع لخطرات العقل ، وطيران الخيال ، وشجون الحديث . حتى لنجد في الكتاب مسائل من كل علم وفن ؛ فأدب وفلسفة وحيوان ومجون وأخلاق وطبيعة وبلاغة وتفسير وحديث وغناء ولغة وسياسة وتحليل شخصيات لفلاسفة العصر وأدبائه وعلمائه . وتصوير للعادات وأحاديث المجالس . وغير ذلك مما يطول شرحه .

وقد قسم المؤلف كتابه إلى ليال ، فكان يدون في كل ليلة ما دار فيها بينه وبين الوزير على طريقة : [قال لي . وسألني . وقلت له . وأجبته] وكان الذي يقترح الموضوع دائماً هو الوزير . وأبو حيان يجيب عما اقترح . وكثيراً ما يجيب أبو حيان ، فتثير اجابته أفكاراً ومسائل عند الوزير ، فيستطرد اليها ويسأله عنها . وهكذا يستطرد من باب لباب . حتي إذا انتهى المجلس كان الوزير يسأله غالباً أن يأتيه بطرفة من الطرائف يسميها غالباً « ملحة الوداع » . وعلى هذا النمط يجري يجري تأليف الكتاب . »

« عن أحمد أمين بتصرف »

مناسبة النص :

موضوع النص مجادلة لطيفة بين المؤلف وابن عبيد الذي جاء يفاضل بين علم الحساب وفن البلاغة ، ويدعي أن كتابة الحساب أنفع وأفضل ، لأن كتابته جد ، والأخرى هزل . وأن التشادق والتفيهق والكذب والخداع في البلاغة أكثر . وقد احتد الجدال بينهما ، وانتقل إلى المفاضلة بين متعلم الحساب ومتعلم البلاغة . ومن العجب أن ينتصر المؤلف للبلاغة وهو ممن شغف بالفلسفة وموضوعاتها . وهو يعلم منزلة العلوم الرياضية في الفلسفة اليونانية التي ينقل عنها ويستمد منها . ولكن المؤلف لا يحارب هذا النوع من الحساب العالي أو الهندسة العالية . لكنه يحارب الحساب « المصنوع للمعيشة » حين يعارض البلاغة ، ويحاول الغض من شأنها . ولعل هذه المفاضلة ونعت ابن عبيد البلاغة بأنها مجال « للتشادق والتفيهق والكذب والخداع » يدلنا على ما انحدرت إليه البلاغة ، في قيمتها المعنوية والمادية ؛ حتى انصرف الناس عنها إلى علوم أخرى تفيدهم في معايشهم وكسب حياتهم .

الأفكار العامة وطريقة الجدل فيها :

وضع المؤلف في رأس الموضوع كلام خصمه كله ، وماذهب إليه من تفضيله كتابة الحساب على كتابة البلاغة . ثم قسم المؤلف أقوال خصمه إلى فقرات ، تضم كل فقرة فكرة معينة . وهو يُعقّب على كل فكرة بالحجة المقنعة والرد المفحم . لايعتمد في ذلك إلا على منطق سديد ، وفكر نافذ . ولذلك عدّ عمل المنطق في هذه القطعة أمضى الآلات في توجيهها .

فهو يدخل في خصمه بجمل الانشاء والتحرير والبلاغة متصلة بعلم الحساب ، مشتملة عليها ، كما أن الدواوين التي ينفرد أصحابها فيها بعمل الحساب فقيرة إلى إنشاء الكتب « التي مدارها على الافهام البليغ ، والبيان المكشوف » . ومن يقوم بهذا غير الكاتب المنشىء ؟ وفي هـذا استدراج للخصم . وكأنه أدرك أن خصمه سيجمل هذا كله « مستغنى عنه » فسد عليه مسالك الرد ، واعتبر الرد منه بهتاناً ومكابرة . لأن الكاتب — وهو كاتب الدواوين — لا يستطيع أن يستغني عن الحساب ، كما أنه لا يستطيع أن يستغني عن البلاغة . وهنا يحدد لنا أبو حيان « كيف يفهم الكاتب » « والكاتب عنده من ينهض بهذه الأثقال ، ويجمع اليها أصولاً من الفقه مخلوطـة بفروعها ، وآيات من القرآن مضمومةً إلى سعته فيها ، وأخباراً كثيرة مختلفة في فنون شتى ، مع الأمثال السائرة ، والأبيات النادرة مع خط حسن ، ولفظ بديع النسج . » على أن هذا التعريف لكاتب الدواوين ليس بجديد عندي . لأن عبد الحميد الكاتب قد تصدى ، من قبله ، الى تعريف الكاتب في وصيته المشهورة لكتاب عصره ، ولا نرى أبا حيان زاد شيئاً كثيراً على ذلك التعريف . والكاتب — عند عبد الحميد — « قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه ... يتنافس في صنوف الآداب ، ويتفهم في الدين ، ويبدأ بعلم كتاب الله والفرائض ، ثم العربية ، ثم إجادة الخط ، ورواية الاشعار ، ومعرفة غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها » . ويضيف الى وصيته هذه بألا « يضيع الكاتب نظره في الحساب ، لانه قوام كُتاب الخراج » بينما نجد أبا حيان يجمل الحساب غير بعيد عن صناعة الكاتب .

ثم ينتقل إلى مقارعة كل حجة بحجة أقوى منها . فهو لا يسلم بجمل الإنشاء صناعة مجهولة المبدأ . ولا بالحط من قيمة البلاغة لأن أصحابها يُسترقعون . « ولو وجب أن يُسترقع البليغ إذا كان عاقلاً لوجب أن يُستمقل العي إذا كان أحمق . »

وهو — أحياناً — يوافق خصمه على حجته ، لا ليأخذ بنتيجته ، بل ليتخلص منها بنتيجة معاكسة . كما فعل حين ادعى خصمه « أن المملكة تكتفي بمنشىء واحد » ليدل على فضل الكاتب .

وترى الخصم يغفل في أحد ردوده ، حين يجعل البلاغة نافلة لأن الانسان يكفيه أن يعبر عما في نفسه - مهما كان لفظه ، فيرد عليه مشجباً رأيه . لأن الكلام يتغير المراد فيه باختلاف الاعراب ، فكيف يجوز التهاون في شأنه ، وها هو الخصم نفسه لم يستطع تهجين البلاغه إلا بالبلاغة نفسها . فكيف يستخدم سلاحها ضدها . وكانت حجة أبي حيان في هذا الموقف قاطعة لم تترك للمهاجم سبيلاً غير التسليم والاستسلام .

خصائص الاسلوب :

ما أشبه تسمية « هذه الليالي » بليالي ألف ليلة وليلة . لكنها كانت للسمر واللهو والخيال بينما كانت هذه الليالي للعقل والأدب والفلسفة . قد ألف تأليفاً حديثاً يذكر بمحاورات الفلاسفة اليونان الذين كانوا يضعون أفكارهم وينسقونها على محاورات . وأسلوب هذه المحاورات يغلب عليه « الإفهام البليغ ، والبيان المكشوف ، والاحتجاج الواضح » ولا يتصف أسلوب ما عادة ، بهذه الصفات الواضحة الا الأسلوب العلمي الذي يتجافى الغموض خشية الابهام والتعقيد . وقد اتبع الكاتب هذا الأسلوب في نصه ، فكان بيانه مكشوفاً ، واحتجاجه واضحاً .

يعمد إلى أسلوب مرسل رصين ، بعيد عن التكلف البياني . ويكثر من استخدام الألفاظ الفلسفيه آناً - كمجهولة المبدأ ، ومعلومة المبدأ - والألفاظ الاصطلاحية العلمية - كالتحصيل والإدراك - ولكنه كثيراً ما يردد الجمل طلباً للإفهام والتقرير ، لا للزخرفة اللفظية ، كقوله : « وهي متصلة بها ، وداخلة في جملتها . ومشتملة عليها ، وحاوية لها » على أن بعض هذا التكرار قد يأتي تقليدياً طلباً للمزاوجة في الجمل - هذه المزاوجة التي تأصلت في الكتابة العربية ، حتى عدت من خصائصها - كقوله : « فكيف يطرد حكمك ، وتسلم دعواك ؟ » . وقد يستخدم التشابيه - كأمثلة للتوضيح - لا كأمثلة للتزيين . فتزيد الفكرة وضوحاً ، والمعنى المعنوي تمثيلاً ، وكلها أمثلة منطقية لا نصيب فيها للخيال .

أما الطريق الذي يسلكه في امساك خصمه فهو طوراً يصادق على دعواه بمبدئها ، وينقض له ما فهمه منها . وهذا النوع من الرد أبلغ الردود وأقوى صفعة . لأنه يسول للخصم أن خصمه قد استسلم اليه ، فاذا به يرد عليه . وطوراً يجبهه في البدء ، ويستخدم في جبهه ألفاظاً شديدة كقوله : « كابرت ، وبهت ، وهذا شنع من القول . وقد خرقت . » ومرة يأخذ القضية بمعكوسها فيجعل منه حكماً يبهت ادعاء الخصم - وفي هذا أبعد ما يصل اليه المنطق من مدى - كقول الخصم : « ان أصحاب البلاغة يسترقعون ، فيجيب الكاتب : ولو وجب

أن يسترقع البليغ إذا كان عاقلاً لوجب أن يستمقل العي إذا كان أحمق . وهـذا خلف . » .

ونراه بالرغم من هذه الكتابة البليغة الرصينة لايجد غضاضـة في نقل التراكيب التي ابتذلت لتكرارها ، أو العبارات التي أصبحت سوقية ، لأن ترديدها بنفسها أبلغ للقول ـ وهذه طريقة سار عليها الجاحظ حين كان ينقل كلام كل فئة من الناس ـ كقول الـكاتب عن صناعة الحساب أنها « سلة الخبز » .

ومهما قيل في هذه الأنواع فان القطعة محافظة على انسجام غريب في طريقـة السؤال والجواب ، وترتيب الأفكار ، والتعبير عن الغرض . وهي ـ من حيث العموم ـ تهدف الى طريقة صحيحة في مناصرة التعبير عن الأغراض العلمية والفلسفية بلغة صحيحة واضحة منسجمة.

على أن هذا الاسلوب العلمي لم يكن بالاسلوب الجاف الذي خلا من المسحة الادبية . لأن الـكاتب ـ وان غلب عليه اللون العلمي ـ فإن قلمه قلم أديب له لفتات بديعة في تراكيب خاصة . وليس هذا بعجيب عليه ، وهو الذي يغلب فن البلاغة على علم الحساب . فانظر الى هذه اللفتة البليغة حين خاطب خصمه بقوله : « وذلك يوجد من الكاتب المنشىء الذي عبثه وعضضته . » فكم في الكلمة الاخيرة من معان ! وقوله حين يشبه خط الكاتب ولفظه « وخط كتبر مسبوك ، ولفظ كوشي محوك . »

ولعل تعريفه للكاتب ، وتعيينه للأشياء التي يجب أن يلم بها يدلنا على مقدار تفهمه للكتابة ، وتقديره للبلاغة .

المسعودي

من مقدمة كتاب : « مروج الذهب ومعادن الجواهر » .

« المسعودي : هو علي بن الحسين المؤرخ الرحالة البحاثة . طوف في البلاد شرقاً وغرباً . فزار الصين والهند ومدغسكر والشام ومصر ونزل الفسطاط . ومات سنة ٣٤٦ هـ . وله تصانيف كثيرة مشهورة أغلبها في التاريخ . وأشهرها كتاب « مروج الذهب . »

« وقد وسمت كتابي هذا بكتاب « مروج الذهب ومعادن الجواهر » لنفاسة ما حواه ، وعظم خطر ما استولى عليه : من طوالع بوارع ما تضمنته كتبنا السالفة في معناه ، وغُرر مؤلفاتنا في مغزاه . وجعلته تحفة للاشراف من الملوك وأهل الدرايات ، لما قد ضمنته من جَمْل ما تدعو الحاجة اليه ، وتُنازع النفوس إلى علمه من دراية ما سلف وغبر في الزمان ، وجعلته مُنبهاً على أغراض ما سلف من كتبنا ، ومشتملاً على جوامع يحسن بالأديب العاقل معرفتها ، ولا يعذر في التغافل عنها . ولم نترك نوعاً من العلوم ، ولا فناً من الأخبار ، ولا طريقة من الآثار ، إلا أوردناه في هذا الكتاب مفصلاً ، أو ذكرناه مجملاً ، أو أشرنا اليه بضرب من الاشارات ، أو لوحنا إليه بفحوى من العبارات .

فمن حرّف شيئاً من معناه ، أو أزال ركناً من مبناه ، أو طمس واضحة من معالمه ، أو لبّس شاهدة من تراجمه ، أو غيره أو بدّله أو شانه (أفسده) أو اختصره ،

أو نسبه إلى غيرنا ، أو أضافه إلى سوانا . فوافاه من غضب الله ووقوع نقمه ، وفوادح بلاياه ما يعجز عنه صبره ، ويحار له فكره ، وجعله الله مُثلة للعالمين ، وآية للمتوسمين . وسلبه الله ما أعطاه ، وحال بينه وبين ما أنعم عليه من قوة ونعمة مبتدعُ السماوات والأرض ، من أي الملل كان والآراء ، إنه على كل شيء قدير .

وقد جعلت هذا التخويف في أول كتابي هذا وآخره ليكون رادعاً لمن ميّله هوىً ، أو غلبه شقاء ، فليراقب أمر ربه ، وليحاذر منقلبه . فالمدة يسيرة ، والمسافة قصيرة ، والى الله المصير .

المقدسي

من مقدمة كتاب « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم »

« هو محمد بن أحمد المقدسي . ولد في القدس سنة ٣٣٦ هـ . وتعاطى التجارة . فطوف في البلاد ، ثم انقطع الى الرحلة ، فزار أكثر البلاد الاسلامية . وهو من أشهر الجغرافيين العرب . له كتاب « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » . مات المقدسي نحو سنة ٣٨٠ هـ .

اعلم أني أسستُ هذا الكتاب على قواعد محكمة ، وأسندته بدعائم قوية . وتحريتُ – جهدي – الصواب . واستعنتُ بفهم أولي الألباب . وسألت الله – عز اسمه – أن يجنبني الخطأ والزلل ، ويبلغني الرجاء والأمل . فأعلى قواعده ، وأرصف بنيانه ما شاهدتُه ، وعقلته ، وعرفته . وعلّقتُه . وعليه رفعتُ البنيان ، وعملت الدعائم والأركان . ومن قواعده أيضاً وأركانه ، وما استعنتُ به على بنيانه ،

سؤال ذوي العقول من الناس، ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس ، عن الكُوَر والأعمال في الأطراف التي بعدتُ عنها، ولم يتقدّر لي الوصول اليها . فما وقع عليه اتفاقهم أثبتُّه، وما اختلفوا فيه نبذتُه، وما لم يكن لي بد من الوصول اليه والوقوف عليه قصدته، وما لم يقر في قلبي، ولم يقبله عقلي أسندته إلى الذي ذكره، أو قلت: «زعموا» وشحنته بفصول وجدتها في خزائن الملوك.

وكل من سبقنا إلى هذا العلم لم يسلك الطريق التي قصدتها، ولا طلب الفوائد التي أردتها. أما «أبو عبد الله الجيهاني» فإنه كان وزير أمير خراسان، وكان صاحب فلسفة ونجوم، فجمع الغرباء، وسألهم عن الممالك ودخلها، وكيف المسالك اليها ليتوصل بذلك الى فتوح البلدان، ويعرف دخلها، ويستقيم له علم النجوم ودوران الفلك. وأما الجاحظ وابن خرداذبه فان كتابيهما مختصران جداً، لا يحصل منهما كثير فائدة. فهذا ما وقع الينا من المصنفات في هذا الباب بعد البحث والطلب وتقليب الخزائن والكتب. وقد اجتهدنا في ألا نذكر شيئاً قد سطروه، ولا نشرح أمراً قد أوردوه إلا عند الضرورة، لئلا نبخس حقوقهم، ولا نسرق من تصانيفهم مع أنه لا يعرف فضل كتابنا هذا إلا من نظر في كتبهم أو دوّخ البلدان، وكان من أهل العلم والفطنة. ثم إني لا أبرئ نفسي من الزلل، ولا كتابي من الخلل. ولا أسلمه من الزيادة والنقصان، ولا أفلته من الطعن على كل حال.

دراسة النصين - على طريقة المقارنة -!

الموضوع والأنظار:

١ - إنما جعلنا دراسة هذين النصين واحدة، لتشابه الغرض، واتحاد الموضوع،

ولأن الكتابين قد خرجا في زمن متقارب . ومثل هـذه المشابهات تساعد على الموازنة بين النصين ، والطريقتين .

أما النص الاول فهو ينقسم الى قسمين : أراد بالأول صاحبه المباهاة بالكتاب لما فيه من نفاسة الموضوع ، وعظم خطره . وهو موضوع لم يأت جديداً كل الجدة بالنسبة الى مؤلفه . لأنه شحن فيه بعض ما تضمنته كتبه السالفة وغرر مؤلفاته ـ وكلها طوالع بوارع ـ !

ثم يذكر الغرض من تأليفه فيبين أنه جمله للملوك وأهل الدرايات للتعريف بما سلف وغبر في الزمان . وهـذا مذهب يدلنا على أن التاريخ كان من العلوم الخاصة التي تهم فئة خاصة كالملوك . ولم يكن علماً اجتماعياً عاماً يشترك في دراسته الناس على السواء ، لأنه تاريخ الناس . ولذلك جاء التاريخ القديم تاريخ ملوك وفئة معينة من الناس .

ثم يذكر أنه قسم مؤلفه على نموذج مؤلفاته السابقة ، في اشتماله على جوامع « لايعذر في التغافل عنها » . كما أنه جعل هذه الجوامع مزيجاً من العلوم والأخبار والآثار ـ وهذه محمدة في المؤرخ الذي لا يستطيع أن ينقطع عن كثير من العلوم لها اثرها المحمود في دراسة التاريخ وتوجيه طرائقها . أما طريقته فهي التفصيل حيناً ، والاجمـال حيناً ، والاشارة حيناً ، بحسب ما تدعو اليه الحاجة .

وأما القسم الثاني في النص فهو شيء غريب سماه المؤلف « أمانة التأليف » ونحن نسميه « حفظ حقوق التأليف » . فهو لا يستفزه شيء كتحريف شيء من معناه ، أو ازالة ركن من مبناه ، أو تغيير أو تبديل ، أو نسبة إلى الغير . ومن يفعل ذلك فليوافه من الله غضب وبلاء ولعنة ! وما أشبه هذه اللعنـة بلعنات الأقدمين الذين كانوا يصونون سكينة رقادهم الأبدي بها ! ونرى المؤلف يسترسل طويلاً في هذا الدعاء على من يشوه أثره ، أو يسرق بعضه . ـ ويبدو أن المؤلف لم يغضب كثيراً الا لما رآه من كثير من علماء عصره الذين يسطون على آثار غيرهم وينتحلونها في حياة صاحبها وبعد موته . وهو داء سار في كل عصر . فكيف به لا يسري في عصر ضاق النشر فيه ، وتعذرت معرفة الواضع والناقل ؟ ـ وليس بعجيب أن يشتط المؤلف كثيراً في هذا الوضع . لأن كتب التاريخ وتقويم البـلدان كانت تكلف أصحابها المشقات الكثيرة من دراسـة وتنقل ومجـازفة بالمـال والنفس ولذلك كان أقل جزاء لمثل هؤلاء أن تكون حقوق أعمالهم مصونة .

٢ ـ أما أسلوب النص فهو أسلوب يغلب عليه الأسلوب الادبي وإن كان علمي الغرض ، لأن التأليف كان يمارسه أدباء ، لا يعبرون عن أي غرض إلا بأسلوب أدبي رصين . لكن أسلوب

المسعودي في نصه يذهب إلى مدى بعيد في التأدب . فنحن نلاحظ تسمية الكتاب بهذا الاسم المجازي « مروج الذهب » نزوعا من المؤلف إلى هذا المنزع الأدبي . وهو يستخدم لمقدمته أسلوبا يقيّده بالسجع غالبا طلبا للزينة اللفظية ، واتباعا للمذهب النثري الشائع في ذلك العصر . وهو مذهب إذا لقي قبولا في بعض الأغراض الأدبية فانه مذهب لا يمكن الأخذ به في الأغراض العلمية والتاريخية . ويميل إلى الأطناب كثيراً من بين الاغراض التي جملها بين تفصيل واجمال أو اشارة . وأكثر ما يبعث على هـذا الاطناب الجنوح إلى التزيينات اللفظية ، لا الرغبة في الوضوح . والوضوح لا يحتاج إلا إلى أسلوب تقدر فيه المباني على المعاني . وهناك الازدواج في الجمل ، لا تكاد جملة تأتي بدون أختها . على أن خصائص الأسلوب عامة تنم عن قوة ومتانة وروح أدبية .

النص الثاني :

ويكاد النص الثاني ينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

١ ــ في القسم الأول يعرض الطريقة التي سار عليها في تأليفه . ولا بد للمؤلف من هذا العرض ، لأنه أشبه شيء بمدرسة تاريخية لها طرائقها الشخصية . والغرض الأول أن يتحرى الصواب جهده . وأن يستعين عند الحاجة بأولي الألباب . وهو في هـذا غير مدل معجب بنفسه ، كما شاهدنا في المسعودي ، وإنما هدفه الحقيقة أنى كانت .

أما ذرائعه إلى هذه الحقيقة فهي ذرائع علمية خالصة ، يتبناها كل علم واقعي . وتشبه هذه الطريقة طريقة الجاحظ التي اتبعها في كتابه « الحيوان » لكنها هنا أكثر استقراراً وانتظاماً ، وأبعد عن الفوضى . فمن هذه الذرائع : المشاهدة ، فالعقل ، فالمعرفة ، فالتعليق الشخصي منه . ومن قواعده أيضاً : الاستعانة بذوي العقول من الناس بسؤالهم عن الاطراف البعيدة التي لم يتقدر له الوصول اليها بشروط يراها فيهم . منها حسن وعيهم وبعدهم عن الخبط والالتباس . وهو لا يقر إلا ما اتفقوا عليه . وهو يفعل ذلك في الأطراف البعيدة ، أما الاطراف التي لا بد من الوصول اليها فقد حمل نفسه اليها لتكون معرفته صحيحة موثوقاً بها . والشيء الذي يضطر إلى نقله ولا يجد له في نفسه ارتياحاً ، أو في عقله ثقة ، يسنده إلى الذي يذكره ، أويقول فيه « زعموا » كما أنه يمتاز كتابه بناحية دقيقة قلما وجدت عند سواه ، وهي قيمة الوثائق التاريخية في كتابة التاريخ والجغرافية . وذلك في قوله : « وشحنته بفصول وجدتها في خزائن الملوك » . هذه الذرائع كلها تدل على أننا أمام عقلية علمية تحاول أن تقف أزاء الأشياء وقفة علمية .

٢ ــ وفي القسم الثاني : يلتفت إلى الأقدمين ، فينقد آثارهم ، ويبخس مقدارها لبعدها

عن الحقيقة العلمية . ويضرب لذلك مثلاً بأبي عبد الله الجيهاني الوزير – المختص بالفلسفة والنجوم – كتب في تقويم البلدان دون أن يكون له روح المؤرخ . وإنما جمع الغرباء وسألهم عن عن الممالك والمسالك اليها ليتوصل بها إلى فتوح البلدان . فكان غرضه غرضاً حربياً لا علمياً ، ومثله الجاحظ وابن خرداذبه فقد كتبا واقتطفا معلومات موجزة لا يحصل منها كثير فائدة . بينما هو انصرف إلى البحث والطلب ، وتقليب الخزائن والكتب . دون أن يستشهد بما أورده الأقدمون إلا عند الضرورة مع الاشارة الى مآخذه عنهم – لئلا يبخس حقوقهم ، ولا يسرق من تصانيفهم – .

٣ – وفي القسم الثالث ادلاؤه بكلمة تبين فضل كتابه ، ولا يتبينه إلا من نظر في كتبهم ، فيعرف ما زاده عليهم . أو دوّخ البلدان ، فيرى ما جمع فيه من معارف . وهو لا يذهب بهذا الفضل مذهب المباهاة – شأن رفيقه المسعودي – بل نراه ، بالرغم من جهده العلمي ، يعترف بأنه كتاب لا يخلو من نقص أو خلل ، ولا يسلم من زيادة أو نقصان . ولعمري هذا هو الروح العلمي الناضج الذي يقدم أقصى ما عنده ، ويبذل جهده ، ثم يعترف بأن العمل شيء ، والكمال شيء . وفي هذا اعتذار العالم المتواضع الجدير وصفه بالروح العلمية .

أما خصائص أسلوبه ، فمنها خصائص لم يستطع الافلات منها ، لأنها – كما قدمنا – علة ذلك العصر نفسه . فهو يتبع السجع ولكن بمقدار ، وفي القسم الأول . ثم يرسل نفسه على سجيتها ، وقلمه على انطلاقه فيأتي بالنثر المرسل . والكتابة تدنو من الاسلوب العلمي كثيراً . لأن صاحبها وفر على نفسه هذه المحسنات البراقة ، ولكنه صان لها الصحة ، والاتقان ، والدقة في التعبير ، والوضوح . والأسلوب يظهر عليه الأثر المنطقي بحسن تقسيمه وانسجام أفكاره . قد استطاع أن يدل على مزايا الطريقة العلمية الواقعية بعبارات قليلة ، وأن يسلك فيها مسلكا صحيحاً عقلياً . بين لنفسه مزاياها في عملها ، ثم ضرب الأمثال بمن تقدم ، وأخذ عليهم ما أخذ .
وكلها خصائص علمية تدل على فضل صاحبها في هذا المجال .

المقامات

المقامات جمع مقامة ، وهي اسم للمجلس أو الجماعة من الناس . وسميت الأحدوثة من الكلام مقامة كأنها تذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة لسماعها . ويعزو الحريري فضل السبق في ابتداعها لبديع الزمان الهمذاني . ويتابع الحريري في ذلك كثيرون ، منهم القلقشندي صاحب صبح الأعشى . فمن قوله : « إن أول من فتح باب عمل المقامات علامة الدهر وامام الأدب البديع الهمذاني » ،ويرى جورجي زيدان من المحدثين أن فضل التقدم في وضع المقامات هو للإمام اللغوي ابي الحسين أحمد بن فارس . على أن صاحب العقد الفريد يذكر المقامات قبل عهد بديع الزمان . وابن قتيبة نفسه المتوفى سنة ٢٧٦ هـ يذكر مايؤيد وجودها إذ يقول : « وكذلك الكلام المنثور في الرسائل والمقامات . . . »

والمقامات نوع من القصص الادبية القصيرة التي تعتمد على الخيال في تأليف حوادثها . ولعلها كانت أقرب الأنواع الأدبية إلى القصة وان لم تكن منها . لأن للقصة أجواءً خاصة وأشياء لم تتصف بها المقامات . فالمقامات فيها الحكاية ، والحوار ، والوصف ، والمغزى النقدي أو الوعظي لكنها تنقصها أشياء أخرى تبعدها عن طبيعة القصة ، من ذلك عدم التنويع فيها : فالأشخاص لا يتغيرون ، والحادثة واحدة ، والمغزى واحد . ومن ذلك اهمال التحليل النفسي ، وتعقيد الحوادث ثم تفريجها . وبعثِ المشاكل واثارة العواطف . أما أسلوبها المقيّد فهو أبعد الأساليب عن الأسلوب الروائي ، لأنه مثقل بالزخرف اللفظي ، والفوائد اللغوية ، لأنها تريد تعليم اللغة ، وسرد الموعظة ، ونقد الأدب .

من مميزات المقامات أنها تدور في الغالب على حادث عادي واحد يتكرر فيها . فالبطل — كأبي الفتح الاسكندري في مقامات البديع ، أو أبي زيد السروجي في مقامات الحريري — يبدو للراوي متنكراً ، ثم يكون بينهما حوار في موضوع ما . وأخيراً يعرفه الراوي ، وتنتهي القصة بمعرفته اياه . ويريد بتنكره أن يُحكم التحيّل ، ويقصر همه على الدهاء ليحسن الاستجداء . وقد وصفها ابن الطِّقطقي بقوله : « ان المقامات لايستفاد منها سوى التمرن على الانشاء والوقوف على مذاهب النظم والنثر ، وفيها حكم وتجارب إلا أن ذلك مما يُصَغِّرُ الهمة إذ هو مبني على السؤال والاستجداء . فان نفعت من جانب ضرّت من جانب » .

وهي تتناول – موضوعيا – مسائل منوعة من النقد الأدبي ، والاجتماعي ، والديني ، والخلقي ، ثم العظات ، والفكاهات ، والأوصاف ، والحكايات التي تصور كثيراً من خواص البيئة التي أنشئت فيها .

أما عبارتها فتقوم على هذا التكلف الذي يستهدف الصنعة البديعية من سجع وجناس وازدواج وطباق ومبالغة واستعارات ، على اختلاف بعد ذلك في الإغراب اللغوي ، ودرجة التكلف . وأكثر ما يبدو هذا الإغراب في الموضوع والاسلوب عند الحريري الذي اتبع بديع الزمان ، فخانه الطبع ، واسترقه التكلف .

وغدت المقامات بعد البديع والحريري باباً من أبواب الأدب ، قلما مر به أديب من الادباء المعروفين دون أن يطرقه . وقد رأينا كثيرين من الكتاب المحدثين نسجوا على منوالها كاليازجي والمويلحي في كتابه « حديث عيسى بن هشام » ، وحافظ ابراهيم في « ليالي سطيح » . حتى اذا تفتحت بواكير النهضة الأدبية الحديثة ، واحتاجت العقول الى أساليب مطلقة بعيدة عن التكلف والزخرف ، أهملت تلك الأساليب وعادت الى الأسلوب الأصيل – كأسلوب الجاحظ – لأنه أسلوب العقل والتعبير الصحيح .

نماذج من المقامات

١ – المقامة المَضِيرية «لبديع الزمان الهمذاني»

حدَّثنا عيسى بنُ هِشامٍ قال: كُنتُ بالبَصْرةِ ومعي أبو الفَتحِ الإسكندَريُّ، رَجلُ الفَصاحةِ يَدْعوها فتُجيبُه، والبلاغةِ يَأمُرُها فتُطيعُه، وحضَرْنا معه دَعْوةَ بَعضِ التُّجار، فقُدِّمت إلينا مَضِيرةٌ (١) تُثني على الحَضارةِ (٢)، وتَترَجْرَجُ في الغَضَارةِ (٣)، وتُؤْذِنُ بالسَّلامةِ، وتَشهَدُ لمعاويةَ - رحِمهُ اللهُ - بالإمامةِ (٤)، في قَصْعةٍ يَزِلُّ عنها الطَّرْفُ (٥)، ويَموجُ فيها الظَّرْفُ (٦). فلما أخَذَتْ من الخُوانِ مكانَها (٧)، ومن القُلوبِ أوْطانَها، قام أبو الفتحِ الاسكندريُّ يَلعَنُها وصاحبَها، ويَمقُتُها وآكلَها (٨)، ويَثْلِبُها وطابخَها (٩)، وظَنَنَّاه يَمزَحُ

---

(١) المضيرة: لحم يطبخ باللبن المضير أي الحامض ثم تضاف إليه الابزار. (٢) تثني على الحضارة: لأنها بجودة طبخها تشير إلى أن أهل الحضر أحذق في صنعها من البدو. (٣) تترجرج: تتحرك بشدة لكثرتها. الغضارة: القصعة الكبيرة. (٤) تؤذن بالسلامة: لا يخشى آكلها ضرراً في التهامها. تشهد لمعاوية بالامامة: قال الامام محمد عبده في شرح هذه العبارة إن «معاوية ادعى الخلافة بعد بيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه فلم يكن من يشهد له بها في حياة علي إلا طلاب اللذائذ وبغاة الشهوات، فلو كانت هذه المضيرة من طعام معاوية لحملت آكليها على الشهادة له بالخلافة وان كان صاحب البيعة الشرعية حياً.»، وربما أراد صاحب المقامة أن يشير إلى عناية معاوية باختراع ألوان الطعام والمآكل. (٥) يزل عنها الطرف: يزلق البصر لشدة نقاوتها. (٦) يموج: يضطرب. الظرف: حسن الهيئة. (٧) الخوان: مايوضع عليه الطعام. (٨) يمقتها: يشتمها بكلام يدل على شدة مقته له، والمقت: شدة البغض. (٩) الثلب: الشتم والسب.

فإذا الأمرُ بالضدِّ ، وإذا المزاحُ عَيْنُ الجدِّ . وتنحّى عن الخُوانِ[1] ، وترك مُساعدة الإخوانِ ، ورفعناها فارتفعت معها القلوبُ ، وسافرتْ خلفَها العيونُ ، وتحلّبت لها الأفواهُ[2] ، وتلمّظَتْ لها الشفاهُ[3] ، واتّقدت لها الأكبادُ ، ومضى في إثرِها الفؤادُ ، ولكنّا ساعدناه على هجرِها ، وسألناهُ عن أمرِها ، فقال : قصّتي معها أطولُ من مُصيبتي فيها ، ولو حدّثتُكم بها لم آمنِ المَقتَ ، وإضاعةَ الوقتِ . قلنا : هاتِ ! قال : دعاني بعضُ التُّجّارِ إلى مضيرةٍ ، وأنا ببغداذ ، ولزمني مُلازمةَ الغريمِ[4] ، والكلبِ لأصحابِ الرَّقيمِ[5] . إلى أن أجبتُه إليها . وقمنا ، فجعل طولَ الطريقِ يثني على زوجته ، ويفدّيها بِمُهجته[6] ، ويصفُ حذقَها في صنعتِها ، وتأنّقَها في طبخِها ، ويقولُ : يامولاي ! لو رأيتَها ، والخِرقةُ في وسطِها ، وهي تدورُ في الدُّورِ ، من التنّورِ إلى القُدورِ[7] ، ومن القدور إلى التنّور ، تنفُثُ بِفيها النّارَ[8] ، وتدقُّ بيديها الأبزارَ[9] ، ولو رأيتَ الدخانَ وقد غبّر في ذلك الوجهِ الجميلِ ، وأثّر في ذلك الخدِّ الصقيلِ[10] ، لرأيتَ منظراً تحارُ فيه العيونُ ، وأنا أعشقُها لأنها تَعشَقُني . ومِنْ سعادةِ المرءِ أن يُرزقَ المُساعدةَ من حليلته[11] ، وأن يُسعدَ

---

(١) تنحّى : ابتعد وانصرف . (٢) تحلّبت : سال لعابها . (٣) التلمّظ : إخراج اللسان ، او مسح اللعاب المتحلّب . (٤) الغريم : صاحب الدين . (٥) أصحاب الرقيم : أهل الكهف وقصتهم وكلبهم معروفة في القرآن الكريم . (٦) فدّاه : قال له جعلت فداك . المهجة : دم القلب ، والروح . (٧) القدور ، ج قدر : الاناء يطبخ فيه . (٨) تنفث : تنفخ . (٩) الابزار والأبازير ما يوضع في الطعام لتطييبه كالفلفل . (١٠) الصقيل : المجلو كالسيف . (١١) الحليلة : الزوجة .

بظَعِينته [1] ، ولا سيما إذا كانتْ من طينته ، وهي ابنةُ عمي لحاً [2] ، طينتُها طينتي ، ومدينتُها مدينتي ، وعمومتُها عمومتي ، وأرومتُها أرومتي [3] ، ولكنها أوسعُ مني خُلُقاً ، وأحسنُ خَلْقاً . وصدّعني بصفاتِ زوجتِه [4] ، حتى انتهينا إلى محلّته ثم قال : يا مولاي ! ترى هذه المحلّة ؟ هي أشرفُ محالِّ بغداذ ، يتنافسُ الأخيارُ في نزولِها ، ويتغايرُ الكبارُ في حلولِها [5] . ثم لا يسكنُها غيرُ التجّارِ ، وإنما المرءُ بالجارِ ، وداري في السِّطَةِ من قِلادتِها [6] ، والنقطةِ من دائرتِها ، كم تُقدِّرُ يا مولاي أنفِقَ على كلِّ دارٍ منها ؟ قُلْهُ تخميناً ، إن لم تعرفه يقيناً ! قلتُ : الكثيرُ . فقال : يا سبحانَ اللهِ ! ما أكبرَ هذا الغلطَ ، تقولُ الكثيرَ فقط ! وتنفّسَ الصُّعَداء [7] ، وقال : سبحانَ مَنْ يعلمُ الأشياء . وانتهينا إلى بابِ دارِه فقال : هذه داري . كم تُقدِّرُ يا مولاي أنفقتُ على هذه الطاقةِ [8] ؟ أنفقتُ ، واللهِ ، عليها فوقَ الطاقةِ [9] ، ووراء الفاقةِ [10] . كيف ترى صنعتَها وشكلَها ؟ أرأيتَ باللهِ مِثلَها ؟ أنظرْ إلى دقائقِ الصنعةِ فيها ، وتأمّلْ حُسنَ تعريجِها ، فكأنما خُطَّ بالبِركارِ ، وانظرْ إلى حِذقِ

---

(١) الظعينة : المرأة مادامت في الهودج وقصد بها زوجته . (٢) لحاً : مصدر لحّت القرابة بيننا لحّاً إذا التصقت والتحمت . (٣) الأرومة : بفتح الهمزة وضمها ، الأصل .
(٤) صدعه أصابه بالصُّداع لكثرة حديثه . (٥) يتغايرون : يغار كل واحد منهم عليها أن يسكنها غيره . (٦) جعل بيوت المحلة كجواهر القلادة وبيته في مكان الوسط من تلك القلادة
(٧) الصعداء : إطلاق النفس من حزن أو أسف أو ارتياح . (٨) الطاقة : مايكون فوق الباب أو هي الشباك . (٩) الطاقة ، هنا : الاستطاعة والمقدرة . (١٠) الفاقة : الفقر ، ووراء الفاقة : ما يقترب به من الفقر .

النجار، في صنعة هذا الباب، اتّخذه من كم؟ قل: ومن أين أعلمُ؟ هو ساجٌ من قطعةٍ واحدةٍ لا مأروضٌ ولا عفِنٌ[1]، إذا حُرّك أنّ، وإذا نُقر طنّ[2]. مَنِ اتّخذه يا سيّدي؟ اتّخذه أبو إسحق بن محمّدٍ البصريُّ، وهو واللهِ رجلٌ نظيفُ الأثوابِ، بصيرٌ بصنعةِ الأبواب، خفيفُ اليدِ في العملِ، للهِ درُّ ذلك الرّجلِ، بحياتي لا استعنتَ إلاّ به على مثلِه[3]. وهذه الحلقةُ تراها، اشتريتُها في سوق الطّرائفِ من عمرانَ الطرائفي بثلاثةِ دنانيرَ معزّيّةٍ[4]. وكم فيها يا سيدي من الشّبه[5]؟ فيها ستّةُ أرطالٍ، وهي تدورُ بلولبٍ في الباب. باللهِ دوّرْها، ثم انقرْها وابصرْها! وبحياتي عليكَ لا اشتريتَ الحلقَ إلاّ منه فليس يبيعُ إلاّ الأعلاقَ[6]. ثم قرَع البابَ ودخلنا الدّهليزَ وقال: عمّركِ اللهُ يا دارُ، ولا خرّبكِ يا جدارُ. فما أمتنَ حيطانكِ، وأوثقَ بنيانكِ، وأقوى أساسكِ. تأمّلْ باللهِ معارجها[7]، وتبيّنْ دواخلَها وخوارجَها، وسلني: كيف حصّلتُها، وكم من حيلةٍ احتلتُها حتى عقدتُها[8]. كان لي جارٌ يُكنى أبا سليمانَ يسكنُ هذه المحلّةَ، وله من المال ما لا يسعُه الخزْنُ، ومن الصامتِ[9]

---

(١) الساج: شجر عظيم ينبت في الهند تتخذ منه الأبواب الكريمة. المأروض: الذي أكلته الأرضة. (٢) نقر: قرع. طنّ: صوّت. (٣) بحياتي: قسماً بحياتي. يقسم عليه ألاّ يستعين بغير هذا النجار لصنع مثل هذا الباب. (٤) سوق الطرائف: سوق في بغداد كانت تباع فيه النفائس. المعزّيّة: نسبة الى المعز لدين الله الفاطمي. (٥) الشبه: النحاس الأصفر. (٦) الأعلاق، ج علق: النفيس من كل شيء. (٧) المعارج: السلالم. (٨) عقدها: ملكها وعقد بيعها. (٩) الصامت: المال من الذهب والفضة ونحوهما من المعادن والجواهر، ضد الناطق وهو ما يمتلك من الحيوان.

مالا يحصره الوزن . مات - رحمه الله - وخلّف خلفاً أتلفه بين الخمر والزمر[1] ، ومزّقه بين النرد والقمر[2] ، وأشفقتُ أن يسوقه قائد الاضطرار[3] ، إلى بيع الدار ، فيبيعها في أثناء الضجر ، أو يجعلها عرضة للخطر ، ثم أراها ، وقد فاتني شراها ، فأتقطع عليها حسرات ، إلى يوم الممات . فعمدتُ إلى أثواب لا تنض تجارتها[4] ، فحملتها إليه ، وعرضتها عليه ، وساومته على أن يشتريها نسيئة[5] ، والمدبر يحسب النسيئة عطية[6] ، والمتخلف يعتدها هدية[7] . وسألته وثيقة بأصل المال ففعل وعقدها لي[8] . ثم تغافلت عن اقتضائه حتى كادت حاشية حاله ترق فأتيته فاقتضيته[9] ، واستمهلني فأنظرته[10] ، والتمس غيرها من الثياب فأحضرته ، وسألته أن يجعل داره رهينة لدي ، ووثيقة في يدي ، ففعل . ثم درّجته بالمعاملات إلى بيعها حتى حصلت لي بجد صاعد[11] ، وبخت مساعد ، وقوة ساعد ، ورب ساع لقاعد[12] وأنا بحمد الله مجدود[13] ، في هذه الأحوال محمود . وحسبك يا مولاي أني كنت منذ ليال نائماً

---

(١) الخمر والزمر : أراد بها حضور مجالس الشراب والغناء واللهو . (٢) النرد : اللعبة المعروفة بـ « الطاولة » . القمر : القمار . (٣) قائد الاضطرار : دافع الحاجة . (٤) لا تنض تجارتها : كسدت تجارتها فلا يحصل منها أي ربح . (٥) النسيئة : أصلها النسيئة : تأجيل دفع الثمن . (٦) المدبر الذي أدبر عنه الرخاء ، أي الذي انتقل من حالة الغنى إلى الفقر والشقاء . (٧) المتخلّف : المتأخر عن الناس في حسن الحال ، الفقير . يعتدّها : يعتبرها ويعدّها . (٨) الوثيقة : الصك يكتبه الدائن على المدين . (٩) اقتضاء الدين : طلب الدائن من المدين أن يقضيه دينه . رقة الحاشية : أراد بها شدة الفقر . (١٠) أنظرته : أخّرته وأمهلته . (١١) بجد صاعد : بحظ قوي . (١٢) رب ساع لقاعد : من كلام علي بن أبي طالب ، أراد به ان المرء قد يسعى في كسب فينتفع به من لم يسع اليه . (١٣) مجدود : عظيم الحظ .

في ٱلبيتِ مع مَن فيه إذ قُرِع علينا ٱلباب ، فقلتُ مَنِ ٱلطارقُ المُنتاب[1] ؟ فإذا امرأةٌ معها عقدُ لآلٍ ، في جِلدَةِ ماءٍ ورِقَّةِ آلٍ[2] ، تَعرِضُه للبيع ، فأخذته منها إخذةَ خَلْسٍ[3] ، واشتريته بثمنٍ بَخْسٍ ، وسيكونُ له نفعٌ ظاهرٌ ، وربحٌ وافرٌ ، بعونِ الله تعالى ودولَتِك[4] ، وإنما حدَّثتُك بهذا الحديثِ لتعلمَ سعادةَ جدِّي في ٱلتِّجارةِ ، والسعادةُ تُنْبِطُ الماءَ من الحِجارة[5] . الله أكبرُ ! لا يُنبئُك أصدقُ من نفسِك ، وأقرب من أمسِك . اشتريتُ هذا الحصيرَ في المُناداةِ[6] ، وقد أُخرِجَ من دُورِ آلِ ٱلفُراتِ[7] ، وقتَ المصادَراتِ ، وزَمنَ ٱلغاراتِ[8] . وكنتُ أطلبُ مثله منذُ ٱلزمنِ الأطولِ فلا أجِدُ ، والدهرُ حُبلى ليس يدرى مايَلِدُ[9] . ثم اتفقَ أني حضرتُ بابَ ٱلطاقِ[10] ، وهذا يُعرضُ في الأسواقِ . فوزَنتُ فيه كذا وكذا ديناراً . تأمَّلْ بالله دِقَّته ولِينَه ، وصنعتَه ولونَه ، فهو عظيمُ ٱلقدْرِ ، لايقعُ مثلُه إلاَّ في ٱلنَّدْرِ . وإن كنتَ سمعتَ بأبي عِمرانَ ٱلحَصيريِّ فهو عَمَلُه . وله ابنٌ يَخلُفُه الآن في حانوتِه لايُوجَدُ أعلاقُ ٱلحصُرِ إلاَّ عنده ، فبحياتي لا اشتريتَ ٱلحصُرَ إلاَّ من دُكانِه ، فالمؤمنُ ناصحٌ لإخوانه ، لاسيما من تَحَرَّمَ بخُوانِه[11] . ونعودُ إلى حديثِ المَضيرةِ ، فقد حان

---

(١) المنتاب : الذي يأتي القوم مرة بعد أخرى . (٢) في جلدة ماء : هذه اللآلىء في صفائها كأنها في جلدة من الماء . الآل : السراب . (٣) الخلس : الاختلاس والمخاتلة . (٤) أراد من الدولة المعونة والنفوذ . (٥) تنبط : تستخرج . (٦) المناداة : المزاد . (٧) آل الفرات : أسرة مشهورة كان أحد أفرادها وزيراً للمقتدر العباسي ثم نكبه وصادر أمواله في سنة ٣١٢ هـ . (٨) الغارات ، هنا : المصادرات . (٩) شبه الدهر بالحبلى لأنه لا يمكن معرفة ما يخبئه من الحوادث وكذلك الحبلى لايعرف جنينها أهو ذكر أم أنثى . (١٠) باب الطاق : من أبواب بغداد . (١١) تحرّم بخوانه : صار في حمايته وجواره بمؤاكلته فوجب عليه نصحه .

وقتُ الظَّهيرة . يا غُلامُ ، الطَّستَ والماءَ ! فقلتُ : الله أكبر ، رُبَّما قَرُبَ الفَرَجُ ، وسَهُلَ المخرجُ . وتقدّمَ الغلامُ ، فقالَ : ترى هذا الغلامَ ؟ إنه رُوميُّ الأصلِ ، عراقيُّ النشْءِ . تقدَّمْ يا غلامُ ! واحسِرْ عن رأسِك ، وشمِّرْ عن ساقِك ، وانضُ عن ذراعِك [1] ، وافترَّ عن أسنانِك [2] ، وأقبِلْ وأدبِرْ ! ففعلَ الغلامُ ذلك . وقال التاجرُ : باللهِ من اشتراه ؟ اشتراه واللهِ أبو العبّاسِ ، من النخّاسِ [3] . ضَعِ الطَّستَ ، وهاتِ الإبريقَ ! فوضعهُ الغلامُ وأخذه التاجرُ وقلّبه ، وأدار فيه النظرَ ثمَّ نقرَه ، فقال : انظرْ إلى هذا الشَّبهِ كأنّهُ جُذْوَةُ اللهبِ [4] ، أو قِطعةٌ من الذهبِ . شَبهُ الشامِ ، وصَنعةُ العراقِ ، ليس من خُلقانِ الأعلاقِ [5] . قد عرَفَ دورَ الملوكِ ودارَها [6] ، تأمّلْ حُسنَهُ وسلْني : متى اشتريتَهُ ؟ اشتريتُه واللهِ عامَ المجاعةِ ، وادّخرته لهذه الساعة . يا غلامُ الإبريقَ ، فقدّمه ، وأخذه التاجرُ فقلّبه ، ثم قال : وأنبوبُه منه ، لا يَصلُحُ هذا الإبريقُ إلاّ لهذا الطَّستِ ، ولا يَصلح هذا الطَّستُ الا مع هذا الدَّستِ [7] ، ولا يحسنُ هذا الدستُ إلا في هذا البيتِ ، ولا يَجمُلُ هذا البيتُ إلاّ مع هذا الضيفِ . أرسلِ الماءَ يا غلامُ ، فقد حانَ وقتُ الطعامِ . باللهِ ترى هذا الماءَ ما أصفاهُ ؟ أزرقُ كعينِ السِّنَّوْرِ [8] ، وصافٍ كقَضيبِ البِلَّوْرِ ، استُقيَ من الفُراتِ ، واستُعمِلَ بعدَ البياتِ [9] ، فجاءَ كلسانِ الشَّمعةِ ، في صَفاءِ الدَّمعة . وليس الشأنُ في السَّقّاءِ ، الشأنُ

---

(١) نضا الثوب : نزعه . (٢) افترّ : تبسّم لتكشف عن أسنانك . (٣) النخاس : تجار العبيد .
(٤) الجذوة ، بتثليث الجيم : القطعة من الجمر والقبس من النار . (٥) الخلقان ، ج خلق : البالي الرث . (٦) دارها : طاف بها . (٧) الدست : أشرف مجلس في البيت . (٨) السنور : الهر .
(٩) بعد البيات : بعدما بات عنده ليلة ليصفو .

في الإناء . لا يدُلُّك على نظافةِ أسبابه [1] ، أصدقُ من نظافة شرابه . وهذا المنديلُ سَلني عن قِصته ! فهو نَسجُ جُرجانَ وعَملُ أرَّجانَ [2] . وقَع إليَّ فاشتريتُه ، فاتخذتْ امرأتي بعضه سَراويلاً ، واتخذتُ بعضه منديلاً ، دخل في سَراويلها عشرونَ ذِراعاً ، وانتزعتُ من يدِها هذا القَدْرَ انتزاعاً . وأسلمتُهُ إلى المُطرِّزِ حتى صنعه كما تراه وطرَّزه . ثم رَدَدْتُه من السوقِ ، وخزنتُه في الصندوقِ ، وادَّخرتُه للظِّرافِ من الأضيافِ . لم تُذِلّه عربُ العامةِ بأيديها [3] ، ولا النساء لمآقيها . فلكلِّ عِلقٍ يومٌ ، ولكلِّ آلةٍ قومٌ . يا غلامُ ! الخُوانَ ، فقد طال الزمانُ ، والقِصاعَ ، فقد طال المِصاعُ [4] ، والطعامَ ، فقد كثُر الكلامُ . فأتى الغلامُ بالخوانِ وقلَّبه التاجرُ على المكانِ ، ونَقَرَهُ بالبنانِ ، وعجَمَه بالأسنانِ [5] ، وقال : عَمَّرَ اللهُ بغدادَ فما أجودَ متاعَها ، واظرفَ صنّاعها ، تأملْ باللهِ هذا الخُوانَ . وانظر الى عَرْضِ مَتْنِه [6] ، وخفَّةِ وزنه ، وصلابةِ عُودِه ، وحُسنِ شكلِه . فقلتُ : هذا الشَّكلُ ، فمتى الأكلُ ؟ فقال : الآنَ ! عجِلْ يا غلامُ الطعامَ ! لكنَّ الخُوان قوائمه منه ، قال أبو الفتح : فجاشت [7] نفسي . وقلتُ : قد بقي الخبزُ وآلاتُه ، والخُبزُ وصِفاتُه ، والحِنطةُ من أين اشتُريت أصلاً [8] ، وكيف اكتَرَى لها حَملاً . وفي أيِّ رَحىً طُحن ، وإجّانةٍ عُجن [9] ، وأيّ تنّورٍ سجر [10] ، وخبّازٍ استأجرَ . وبقي الحطبُ من أينَ احتُطِبَ ، ومتى جُلب ،

---

(١) أسبابه : أدواته . (٢) جرجان وأرّجان : بلدان في بلاد العجم . (٣) لم تمتهنه أيدي العرب من العامة . (٤) المصاع : من ماصع القوم مماصعة اذا تجالدوا وتقاتلوا . (٥) عجمه بالأسنان : اختبر متانته بأسنانه . (٦) المتن : السطح وأصله للظهر . (٧) جاشت : هاجت وغلت . (٨) اشتريت أصلاً : أشتري أصلها وهو الحب . (٩) الاجانة : أناء يعجن فيه . (١٠) سجر التنور : ملأه وقوداً وأحماه .

وكيف صُفِّق، حتى جَفَّ، وحُبس، حتى يبس. وبقي الخبّازُ ووصفُه، والتلميذُ ونعته[1]، والدقيقُ ومدحه، والخميرُ وشرحه، والملحُ وملاحته. وبقيت السُّكُرَّجات من اتخذها[2]، وكيف انتقدها[3]، ومن استعملها، ومن عملها. والخلّ كيف انتُقي عِنَبُه، أو اشتُري رُطَبُه[4]، وكيف صُهرِجت معصرته[5]، واستخلص لُبُّه، وكيف قُيِّر حَبُّه[6]، وكم يساوي دَنُّه[7]. وبقي البَقلُ كيف احتِيل له حتى قُطِف، وفي أيّ مَبقلةٍ رُصِف، وكيف تُوُنِّق حتى نُظِّف. وبقيت المضيرةُ، كيف اشتُري لحمُها، ووُفِّي شحمُها[8]، ونُصِبت قِدرُها، وأُجِّجت نارُها[9]، ودُقَّت أبزارُها، حتى أُجيد طبخُها، وعُقِد مرقُها. وهذا خطبٌ يَطِمُّ[10]، وأمرٌ لا يتِمّ. فقمتُ، فقال: أين تُريدُ؟ فقلت: حاجةً أقضيها. فقال: يا مولاي! تُريد كَنيفاً يُزري بربيعيِّ الأمير[11]، وخريفيِّ الوزير، قد جُصِّص أعلاه، وصُهرِج أسفلُه، وسُطِّح سقفُه، وفُرِشت بالمرمر أرضُه، يزِلُّ عن حائطه الذرُّ فلا يَعلَق[12]، ويمشي على أرضه الذبابُ فيزلَق، عليه بابٌ غيرانُه من خليطَي ساجٍ وعاجٍ[13]، مزدوجين أحسن

---

(١) أراد بالتلميذ صانع الخباز. (٢) السكرّجات: الصحاف التي توضع فيها ألوان الطعام. اتخذها: صنعها. (٣) انتقدها: استخلصها من يد صاحبها بالشراء. (٤) الرطب: البسر الناضج. (٥) صهرجت: طليت بالصاروج وهو النورة وأخلاطها. (٦) قيّر: طلي بالقار وهو القطران. الحب: الخابية والجرة الكبيرة. (٧) الدن: الخابية. (٨) وفي، كان وافياً تاماً. (٩) أججت: أشعلت وأضرمت. (١٠) الخطب: الأمر الجلل. يطم: يعظم ويتفاقم. (١١) يزري: يتنقص. ربيعي الأمير: ما يتخذه من المساكن في الخلوات أيام الربيع. (١٢) يزل: يزلق. الذر: صغير النمل. (١٣) الغيران، ج غار: أراد بها الفواصل بين ألواح الباب. العاج: عظم سن الفيل.

أزدواجٍ ، يتمنّى الضيفُ أن يأكُلَ فيه . فقات : كُلْ انت من هذا الجراب[1] لم يكن الكنيفُ في الحساب . وخرجتُ نحو الباب ، وأسرعتُ في الذهابِ . وجعلتُ أعدُو وهو يتبعُني ويصيحُ : يا أبا الفتحِ ، المضيرةَ ! وظنَّ الصبيانُ أن المضيرةَ لقبٌ لي فصاحوا صياحَه . فرميتُ أحدَهم بحجرٍ ، من فرْط الضجَرِ ، فلقيَ رجلٌ الحجرَ بعمامتِه ، فغاص في هامتِه[2] . فأُخذتُ من النعال بما قدُم وحَدُث ، ومن الصفْع بما طاب وخَبُث ، وحُشرتُ إلى الحَبْس ، فأقمتُ عامين في ذلك النَّحسِ ، فنَذَرْتُ أن لا آكُلَ مضيرةً ما عِشتُ ، فهل أنا في ذا يا لَهمذانَ ظالمُ[3] ؟ قال عيسى بنُ هشام : فقبلنا عُذرَه ، و نَذَرنا نذْرَه ، وقُلنا : قديماً جنتِ المضيرةُ على الأحرارِ ، وقدّمتِ الأراذلَ على الأخيار .

دراسة المقامة المضيرية

التعريف بالمؤلف : هو أحمد بن الحسين ، المعروف ببديع الزمان ، وكنيته أبو الفضل . ولد بهمذان ، وبها نشأ ، واليها انتسب ، وتعلم العلم باللغتين الفارسية والعربية ، اتصل بالصاحب ابن عباد واقتبس من معارفه . وفي سنة ٣٨٢ هـ أمّ نيسابور فتجلت فيها عبقريته ، وأملى بها أربعمائة مقامة . ثم تصدى لمناظرة أبي بكر الخوارزمي الكاتب ، وجرت بينهما مكاتبات أفضت الى مناظرات ، فظهر على الخوارزمي ظهوراً أطار ذكره . واستقر أخيراً في هرات ، وعاش بها رخيّ البال . مات سنة ٣٩٨ هـ . اشتهر بقوة الحافظة وذكاء القلب وحضور البديهة ، نثره خفيف ، لم يفسده تكلف على رغم الصناعة فيه . وله شعر رقيق لم يبلغ مبلغ نثره ، له مقاماته المعروفة التي لم يبق منها إلا ثلاث وخمسون مقامة شرحها الأستاذ الشيخ محمد عبده . ورسائله أيضاً .

موضوع المقامة : موضوعها وصف وتصوير لنفسية رجل تاجر لقي الغنى بعد عدم ، والعز

(١) الجراب : المزود أو الوعاء ، أراد به الكنيف . (٢) الهامة : الرأس . (٣) قوله : فهل أنا في ذا يالهمذان ظالم : شطر بيت معروف .

بعد ذل . فكأنه لايثق فيما ينعم فيه . أو أنه يثق به ولكنه لايفتأ يصف لزواره ولمن يعرفه بيته وما في بيته من أثاث ، وما لأثاثه من روعة . كأنه يجد في هذا الوصف نعيماً ثانياً لروحه. ويطيب له أن يتحدث عما نفعه نزول النكبات في غيره من جيرانه . فهو لايدعو زائره إلا ليريه أطراف هذه النعمة . ولا يلبث زائره أن ينفر منه ومن إسهابه . ومثل هذا الرجل كثير في الحياة . وإذاً ، فهذا الوصف وهذا الرجل ، وكل ما أحاط بجو القصة مستمد من الحياة الواقعية ، أضيف اليه البراعة في حسن التصوير ، والخفة في السخر والنقد .

وقائع المقامة: يستهل البديع هذه المقامة كما يستهل غيرها بإسناد الحديث الى راويته : « حدثنا عيسى بن هشام ، قال : كنت بالبصرة ، ومعي أبو الفتح الاسكندري رجل الفصاحة.. » وقد دعي الاثنان الى دعوة بعض التجار ، فقدمت اليهم مضيرة . والمضيرة أكلة طيبة ، لكن أبا الفتح أخذ يلعنها وصاحبها وآكلها ... فرفعت ، ولكن ارتفعت معها القلوب . ولم يلعنها إلا لأن له حادثة مشؤومة معها . بدأ بقصّها على القوم . ذلك أنه دعاه أحد التجار في بغداد الى المضيرة ، فسار معه الى بيته . وطفق التاجر ، وهو في الطريق ، يسرد عليه أحواله بادئاً بوصف زوجته ، وإذا بالزوجة تبدو أدنى الى الخدم ، كأن التاجر – لبخله – يضن عليها بعد غناه وسعادته أن يأتيها بمن يساعدها . فهي التي تدور في الدور ، من التنور الى القدور ، ومن القدور الى التنور ، والدخان قد غبّر في ذلك الوجه الجميل ، ولو كان هذا التاجر على شيء من الأدب والذوق لما اختص زوجته بهذا الوصف . واذا بأبي الفتح يتصدع رأسه لهذا الوصف الذي ملأ طريقهما ، حتى انتهيا الى المحلة . فشرع التاجر يصف المحلة ، وخطرها ، وموقع داره منها . وحين لاحت له الدار هلّل وكبّر كأنه لايؤمن بأن له داراً ، أو كأني به أشرف على مكان مقدس ، فجأر بالدعاء « عزك الله يادار ؛ ولا خربك ياجدار » وليت الامر يقف عند هذه العاطفة وهذا الحنين لداره . وإنما هذا الدعاء مقدمة ليسأل نفسه بلسان الزائر : كيف حصّلها ؟ وكيف امتلكها ، وممن اشتراها ؟ ثم استطرد الى ذكر حظه الحسن ، فذكر خبر عقد من اللؤلؤ اشتراه بثمن بخس وهو هنا يقرّ بأنه ملكها احتيالاً ، وما أكثر أمثال هؤلاء الذين يستغلون ضعف الضعيف ، أو جهالة المضطر ! حتى اذا انتهى عاد الى داره ، فروى حادثة حصير اشتراه بالمناداة . ونعت صانعه ، ونصح لزائره أن يشتري الحُصر من عنده ، وكيف ينصح له أن يفعل ذلك وهو الذي لم يشتره إلا بالمناداة ضناً منه بالانفاق . وعاد الى حديث المضيرة ، فطلب من الغلام الطست والماء ، فظن الزائر أن قرُب الفرج ... وما إن أقبل الغلام حتى شرع التاجر يعرض أوصاف الغلام . وليس في ذلك عجب بعد أن جعل استهلال الحديث وصف زوجته . ثم تناول الطست ، فالابريق ، فالماء ، فالمنديل ، وهو يصف كل شيء . وليس أدل على ثرثرة الرجل من وصفه الماء ،

والماء شيء مبذول لا يُعدّ من الأعلاق النفيسة . وعند ذلك أدرك أبو الفتح أن الرجل مصاب بغرور فاتن يحمله على وصف كل شيء . وأنه وصف له أشياء . ولا يزال في جعبة الأوصاف أشياء ربما كانت أكثر عدداً . فأبدى ضجره وحاول الانصراف تخلصاً من المضيرة وصاحبها. فظنه التاجر يريد الخروج في حاجة نفسه ، فانبرى يصف له الكنيف وحسنه وصفاً يجعل « الضيف يتمنى أن يأكل فيه » فيحتد أبو الفتح وتصل القصة الى الذروة في النكتة فيقول : كل شيء حسبته ، إلا الكنيف لم يكن في الحساب . فيخرج ، فيصيبه في الطريق ما يصيبه بسبب المضيرة .

الأسلوب : قد عرفت في باب المقامات أن للمقامات اسلوباً لفظياً خاصاً ، هو أثر من رواج فن البديع وسيطرته على النثر . فهو أسلوب يقوم على السجع الغالب ، والازدواج بين الجمل تقصياً للنغمة الموسيقية ، والتوازن . وخلال ذلك يكثر الجناس – تاماً أو غير تام – وربما عارض الطباق ، ولكنه في الشعر أغزر منه في النثر . والأسلوب المقامي ينبغي له أن يطلب الألفاظ الجزلة ، وان ذهبت الى الغرابة . وربما جاءت المقامة معرضاً من معارض الألفاظ ، واذ ذاك يضعف الجو القصصي فيها ، وتموت الروح ، وتنعدم الحركة منها .

انك لواجد في هذه المقامة سهولة المأخذ ، لأن بديع الزمان لم يسلك بها طريقاً وعراً ولم يشأ أن يجعلها غريبة عن المألوف ، وبخاصة في موضوع اجتماعي يُراد منه النقد . وهو لا يتقيد بالسجع والازدواج دائماً ، واذا طلب السجع فلا تكلف ولا اكراه . لا لأنه انطلق وراء الطبع . وانما لأنه ذلل الصناعة حتى جعلها دانيةً من الطبيعة . وهو يحسن التنقل من غرض الى غرض حتى لترى الصور والافكار تتداعى تداعياً طبيعياً فنياً . يجمع البراعة في الحوار والسؤال والجواب جمعاً ليس أدق منه في التعبير عن أهواء النفوس . كما أن بديع الزمان أضفى على المقامة روح الدعابة والخفة والظرف ، حتى جعلك لا تملك نفسك من الضحك وان كان صاحب الأمر يجد في حديثه ، وكم من أناس يعرضون بلههم على الناس وهم يجدون ! ولقد رأيت أن التعبير لا تفوته أية رشاقة في وضع النكتة ، وقد يختار للنكتة الأخيرة تعبيراً شيقاً تتركز فيه غاية النكتة كلها كقوله : « لم يكن الكنيف في الحساب . »

والمقامة ذات نغمة موسيقية حلوة ، وهذه النغمة قد أتت من هذا السجع الذي جاء عفو الخاطر ، أولاً ، ومن بعض الجمل المزدوجة ، ثانياً ، هذه النغمة تذكرنا بالجو الشعري في القصيدة . ولعل هذا مما يجعل المقامة في نظرنا ، لا الى النثر المطلق ، ولا الى الشعر المقيد . وان كان أصحابها يريدون أن يرفعوها الى الجو الشعري بما يشيعون فيها من هذه النغمة ، والألوان في الألفاظ ، والتشابيه الكثيرة . وهذا كثير في هذه المقامة ، ومرده عندي الى أن بديع الزمان مفطور على الشاعرية ، فهو يحمل نثره الى جو شعري خفيف برصف عبارات موزونة حيناً ، أو خلق تشابيه

واستعارات وأخيلة حيناً آخر . ومن ذلك قوله مثلاً : « سافرت خلفها العيون – يموج فيها الطرف – ولو رأيت الدخان وقد غبّر في ذلك الوجه الجميل ، وأثر في ذلك الخد الصقيل – وانضُ عن ذراعك ! وافترّ عن أسنانك ! – أزرق كعين السنور . وصافٍ كقضيب البلور – فجاء كلسان الشمعة في صفاء الدمعة . »

ومن جمله الموزونة قوله : « والدهر حبلى ليس يُدرى ما يلد » [من بحر الرجز] . وأكثر وزنه للجمل ناشيء عن السجع القصير والازدواج .

وهنالك الأمثال – وهي كثيرة في القطعة – وأكثرها أمثال عامة سائرة في الحياة لا تعكس بيئة خاصة ، ولا تعبر عن لون خاص لأنها أشبه شيء بالحكم . من ذلك قوله وهو في حديث زوجته : « ومن سعادة المرء ان يرزق المساعدة من حليلته ! – وانما المرء بالجار – ورُبّ ساعٍ لقاعد – (وهما مثلان معروفان) . لا ينبئك أصدق من نفسك ، وأقرب من أمسك – والدهر حبلى ليس يُدري ما يلد ... وهنالك المثل الأخير الذي تدور عليه المقامة : قديماً جنت المضيرة على الأحرار ، وقدّمت الاراذل على الأخيار . وهو مثلٌ لا يُدركمنه إلا أن أهل الغنى هم القادرون على تقديم المضيرة لضيوفهم . وهنالك مثل عميق يدل على معرفة خبايا النفوس لبعد ملاحظته حين عرض على جاره الغني المسرف بدون حساب أمتعة وأثواباً بالية على أن يرد له الثمن مؤجلاً ويصف كيف أقبل الغني المسرف على الشراء بغبن – لأن الثمن مؤجل – فيقول : « وساومته على أن يشتريها زيه . والمدبر يحسب النسية عطية ، والمتخاف يعتدها هدية .. » فانظر الى هذا التحليل لنفس المبذر المدبر ما أدقه ! ثم انظر الى لؤم هذا الفاعل وخبث طويته حين تغافل عن اقتضائه الى اليوم الذي رأى فيه حاشية حاله ترق .

وهكذا تجد نفسك في هذه المقامة التي عدّها النقاد أصفى مقامات البديع ، وأحلاها قصصاً ، وأروعها سبكاً وفناً . وأدقّها وصفاً وتصويراً لأنها جمعت فنوناً مختلفة أريناك شيئاً منها . ولك أن تسأل عن غاية المقامة . لأن بعض المقامات كان ينتهي الى مغزى خلقي أو نصيحة ، أو موعظة . لكن اكثر هذه المواعظ كانت توافق الواقع الذي نحياه ، وتخالف المثل الأعلى الذي ننشده . فالاحتيال على المعاش – مثلاً – أمر واقعي ، ولكن الاحتيال نفسه ليس بمحمود خلقياً . أما هذه المقامة فليس لها مغزى خلقي ، لكنها بمجموعها تعطي نقداً اجتماعياً لفئة من النـــاس همها استثمار نكبات المنكوبين ، وسلوك طرائق الحيلة والخديعة للغنى والمباهاة بما نالوا . أما النهاية الثانية لصاحبنا أبي الفتح فقد كانت غير واقعية ، لكنها ، مع ذلك تممت القطعة بأحسن ماتتم به . وهل أجمل من اندفاع الصبية وراءه يتصايحون : « المضيرة ... المضيرة ! » . ولعل المغزى الأخير ينسكب في الجملة الأخيرة : « وقديما جنت المضيرة على الاحرار ، وقدمت الأراذل على الأخيار » .

٢ - المقامة الدينارية للحريري

روى الحارثُ بنُ همّام قال: نَظَمني وأخداناً لي نادٍ[١]، لم يخِبْ فيه منادٍ[٢]، ولا كبا قَدْحُ زِنادٍ[٣]، ولا ذَكَتْ نارُ عِنادٍ[٤]. فبينا نحن نتجاذبُ أطرافَ الأناشيدِ، ونتواردُ طُرَفَ الأسانيدِ[٥]، إذ وقفَ بنا شخصٌ عليه سَمَلٌ[٦]، وفي مِشيتِه قَزَلٌ[٧]، فقال: يا أخايرَ الذخائرِ، وبشائرَ العشائرِ، عِمُوا صباحاً[٨]، وأنعِمُوا اصطباحاً، وانظُروا إلى مَن كان ذا نَديٍّ ونَدىً[٩]، وجِدةٍ وجَدا[١٠]، وعقارٍ وقُرى[١١]، ومقارٍ وقِرى[١٢]. فما زال به قُطوبُ الخُطوبِ[١٣]، وحُروبُ الكُروبِ، وشَررُ شرِّ الحَسودِ، وانتيابُ النُّوَبِ السُّودِ[١٤]، حتى صَفِرت الرّاحةُ[١٥]، وقَرِعت السّاحةُ[١٦]، وغار المنبعُ[١٧]، ونبا المَربعُ[١٨]، وأقوى المَجمَعُ[١٩]، وأقَضَّ المَضجعُ[٢٠]، واستحالت الحالُ، وأعوَلَ العِيالُ[٢١]، وخلَت المرابِطُ،

---

(١) نظمني: ضمّني وجمعني. الأخدان: الخلان. النادي: المجلس. (٢) لم يرجع من ناداهم بغير فائدة. (٣) كبا الزند: لم يور ناراً إذا قدح به، وهذه الجملة بمعنى التي قبلها. (٤) ذكت النار: اتقدت، أراد أن هؤلاء القوم لا يقوم بينهم خلاف ولا شر. (٥) طرف الاسانيد: أراد بها الأحاديث المستملحة. (٦) السمل: الثوب الخلق والجمع أسمال. (٧) القزل: العرج. (٨) عموا: أنعموا، من وعم الدار: قال لها أنعمي. (٩) الندي: النادي، المجلس. (١٠) الجدة: الغنى. الجدا: العطاء. (١١) العقار: الارض لا عمران فيها. (١٢) المقاري، جمع مقراة: الجفنة العظيمة. القرى: الضيافة. (١٣) القطوب: العبوس. الخطوب: المصائب. (١٤) النوب: النائبات. (١٥) صفرت الراحة: أي خلت اليد. (١٦) قرعت الساحة: تجردت مما كان فيها. (١٧) غار المنبع، أراد به: نفد الرزق. (١٨) نبا: تجافى وتباعد. المربع: المنزل. (١٩) أقوى: خلا من القوم. (٢٠) أقض المضجع: خشن. (٢١) أعول: صاح بالبكاء.

ورَحِمَ الغابطُ[1] ، وأودى الناطقُ والصامتُ[2] ، ورَثى لنا الحاسدُ والشامتُ ، وآلَ بنا الدهرُ الموقِعُ[3] ، والفقرُ المُدْقِعُ[4] ، إلى أن احتذَينا الوَجى[5] ، واغتذَينا الشَّجا[6] ، واستبطَنّا الجوى[7] ، وطوَينا الأحشاء على الطوى[8] ؛ واكتحلنا السُّهادَ ، واستوطَنّا الوِهادَ[9] ، واستوطأنا القَتادَ[10] ، وتناسَينا الأقتادَ[11] ، واستطَبْنا الحَيْنَ المُجتاحَ[12] ، واستبطأنا اليومَ المُتاحَ[13] ، فهلْ مِن حُرٍّ آسٍ[14] ، أو سَمْحٍ مؤاسٍ ، فوالذي استخرجَني من قَيْلةَ[15] ، لقدْ أمسيتُ أخا عَيْلةٍ[16] ، لا أملكُ بيتَ ليلةٍ[17] . قال الحارثُ بنُ همّام : فأوَيتُ لمَفاقِرِهِ[18] ، ولوَيتُ الى استنباطِ فِقَرِه[19] ، فأبرزتُ ديناراً ، وقلتُ لهُ اختباراً : إن مدَحتَهُ نظماً ، فهو لكَ حتماً . فانبرى يُنشِدُ في الحالِ ، مِن غيرِ انتحالٍ[20] :

---

(١) الغابط : الذي يغبط الناس على ما أفاءه الله عليهم من النعم ، وفي الحديث : « المؤمن يغبط ولايحسد » . (٢) أودى : هلك . الصامت والناطق : المال والحيوان . (٣) آل : رجع . الموقع : المهلك . (٤) المدقع : الشديد المذل ، من الدقعاء وهي الأرض . (٥) احتذينا : انتعلنا . الوجى : رقة القدم من كثرة المشي والحفا . (٦) الشجا : كل ما يعترض في الحلق من عظم او شوك . (٧) اي جعلنا شدة الوجد في بطننا . (٨) الطوى : الجوع . (٩) الوهاد ، ج وهدة : ما انخفض من الأرض . (١٠) القتاد : شجر شائك . (١١) الأقتاد ، ج قتد : خشب الرحل ، أي نسينا ركوب النوق . (١٢) استطاب الشيء : وجده طيّباً . الحين : الهلاك . اجتاحه : أهلكه واستأصله . (١٣) اليوم المتاح : يوم المنية ، كان لشدة مابه يتمنى قرب منيته . (١٤) الآسي : المداوي ، المسعف . (١٥) قيلة هي بنت الأرقم الغسانية أم الأوس والخزرج . (١٦) العيلة : الفقر ، والحاجة . (١٧) بيت ليلة : قوت ليلة . (١٨) أويت لمفاقره : رثيت لفقره . (١٩) لويت : ملت . استنباط مفاقره : استخلاص جيد أقواله (٢٠) الانتحال : نسبة الشيء الى غير صاحبه .

أَكْرِمْ بِهِ أَصفَرَ راقَتْ صُفْرَتُهْ ... جوّابَ آفاقٍ ترامَتْ سَفْرَتُهْ (١)
مأثُورَةٌ سُمْعَتُهُ وشُهْرَتُهْ ... قد أُودِعَتْ سِرَّ الغِنى أَسِرَّتُهْ (٢)
وقارَنَتْ نُجْحَ المَساعي خَطْرَتُهْ ... وحُبِّبَتْ إلى الأنامِ غُرَّتُهْ (٣)
كأنَّما من القُلوبِ نُقْرَتُهْ ... به يَصولُ مَنْ حوَتْه صُرَّتُهْ (٤)
وإنْ تفانَتْ أوْ توانَتْ عِتْرَتُهْ ... يا حبَّذا نُضارُهُ ونَضْرَتُهْ (٥)
وحبّذا مَغْناتُه ونُصرَتُه ... كمْ آمِرٍ بهِ استَتَبَّتْ إمْرَتُهْ (٦)
ومُتْرَفٍ لولاه دامَتْ حسْرَتُهْ ... وجَيْشِ هَمٍّ هزَمَتْهُ كَرَّتُهْ (٧)
وبَدْرِ تِمٍّ أنزَلَتْهُ بَدْرَتُهْ ... ومُسْتَشيطٍ تتلظّى جَمْرَتُهْ (٨)
أسَرَّ نَجواهُ فلانَتْ شِرَّتُهْ ... وكمْ أسيرٍ أسلَمَتْهُ أُسْرَتُهْ (٩)
أنقَذَهُ حتى صفَتْ مَسرَّتُهْ ... وحَقِّ مَوْلىً أبدَعَتْهُ فِطْرَتُهْ (١٠)
لولا التُّقَى لقُلْتُ جَلَّتْ قُدْرَتُهْ

ثمّ بسَطَ يدَهُ، بعدما أنشدَهُ، وقال: أنجزَ حُرٌّ ما وعَدَ (١١)، وسحّ الخالُ

---

(١) جوّاب آفاق: كثير السفر والانتقال (٢) مأثورة: مرويّة. الأسرّة، ج سرار: خطوط الكف والجبهة، وأراد بها هنا نقوشه (٣) خطرته: حركته. أراد أنه بحركته تقترن المساعي بالنجاح. الغرة: الوجه (٤) النقرة: ما سبك من الذهب أو الفضة. يصول: يثب وينجح (٥) تفانت: هلكت. توانت: قصّرت وتأخرت. عترة الرجل: أقاربه وعشيرته. النضار: الذهب والخالص من كل شيء. النضرة: البهجة والحسن (٦) مغناته: غناه وكفايته. امرته: إمارته وسلطته (٧) أراد بالشطر الثاني أن هذا الدينار حملته تهزم جيوش الهم. (٨) بدر تم: بدر تمام. البدرة: عشرة آلاف درهم المستشيط: المحتد من كثرة الغضب. تتلظّى: تتوقّد (٩) أسر نجواه: أخفى مناجاته. الشرّة: الحدّة (١٠) أنقذه: أي أنقذ الأسير من الأسر (١١) هذا مثل يضرب لاستنجاز الوعد.

إذ رَعَد[1]، فنبذتُ الدينارَ إليه، وقلتُ: خُذْهُ غيرَ مأسوفٍ عليه، فوضعه في فيهِ، وقال: باركِ اللهمّ فيه، ثمّ شمّرَ للانثناء، بعدَ توفيةِ الثّناء[2]، فنشأتْ لي من فكاهتهِ نشوةُ غرامٍ، سهّلتْ عليّ ائتنافَ اغترامٍ[3]، فجرّدتُ ديناراً آخرَ وقلتُ له: هل لكَ في أن تذمّهُ، ثم تضمّهُ، فأنشدَ مُرتجلاً، وشدا عجلاً[4]:

تبّاً لهُ من خادعٍ مُماذقِ ... أصفرَ ذي وجهينِ كالمُنافقِ[5]
يبدو بوصفينِ لعينِ الرّامقِ ... زينةِ معشوقٍ ولونِ عاشقِ[6]
وحبُّهُ عندَ ذوي الحقائقِ ... يدعو إلى ارتكابِ سُخطِ الخالقِ[7]
لولاهُ لم تُقطَعْ يمينُ سارقِ ... ولا بدتْ مظلمةٌ من فاسقِ[8]
ولا اشمأزّ باخلٌ من طارقِ ... ولا شكا المَمطولُ مَطْلَ العائقِ[9]
ولا استُعيذَ من حسودٍ راشقِ ... وشرُّ ما فيهِ من الخلائقِ[10]
أنْ ليس يُغني عنكَ في المضايقِ ... إلاّ إذا فرّ فرارَ الآبقِ[11]
واهاً لمن يقذفُهُ من حالقِ ... ومَن إذا ناجاه نجوى الوامقِ[12]
قال له قولَ المُحقِّ الصادقِ: ... لا رأيَ في وصلكَ لي ففارقِ

---

(١) السح: شدة الانصباب. الخال: السحاب الذي تخال فيه مطراً (٢) بعد اتمام المدح والشكر (٣) ائتناف اغترام: استئناف غرم (٤) شدا: أنشد (٥) تبا: خسراً وهلاكاً. الماذق: من لا يصافي الود (٦) الرامق: الناظر. زينة معشوق ولون عاشق: هو في زينته وزخرفه يذكر بزينة المشوق وفي لونه الأصفر يذكر بلون العاشق (٧) أراد أن كثيراً من الجرائم التي لا يرضى عنها الله ترتكب من أجله وحباً به (٨) المظلمة: الظلم والظلامة. (٩) الباخل: البخيل. الطارق: الضيف. العائق: الممتنع عن أداء الدين (١٠) الراشق: الذي يرمي الناس بعينيه حسداً. الخلائق: السجايا والطبائع. (١١) المضايق: الشدائد. الآبق: العبد الهارب (١٢) الحالق: المكان المرتفع. الوامق: المحب.

فقلتُ له: ما أغزرَ وبلَكَ (١)، فقال: والشرطُ أملَكُ (٢)، فنفحته بالدينارِ الثاني، وقلتُ له: عوِّذهما بالمثاني (٣)، فألقاه في فمه، وقرنه بتوأمه (٤)، وانكفأ يحمدُ مغداه (٥)، ويمدحُ النادي ونداه. قال الحارث ابن همام: فناجاني قلبي بأنه أبو زيد، وأنَّ تعارُجَهُ لكيد، فاستعدتُه وقلت له: قد عُرِفتَ بوشيِكَ (٦) فاستقِمْ في مشيِكَ، فقال: إنْ كنتَ ابنَ همامٍ، فحُيِّيتَ بإكرامٍ، وحييتَ بين كرامٍ. فقلتُ: أنا الحارثُ، فكيفَ حالُكَ والحوادثُ، فقال: أتقلَّبُ في الحالَيْنِ بؤسٍ ورخاءٍ، وأنقلبُ مع الريحَيْنِ زعزعٍ ورُخاء (٧)، فقلتُ: كيفَ ادعيتَ العَرَجَ، وما مثلُكَ من هزل، فاستسرَّ بِشرُهُ الذي كانَ تجلَّى (٨)، ثم أنشدَ حين ولَّى:

تعارجتُ لا رغبةً في العَرَجْ ... ولكنْ لأقرعَ بابَ الفَرَجْ

وألقي حبلي على غاربي ... وأسلكَ مسلكَ من قد مرجْ (٩)

فإنْ لامني القومُ قلتُ اعذروا ... فليسَ على أعرجٍ من حرجْ

التعريف بالمؤلف: هو أبو محمد القاسم بن علي الحريري، ولد في مشان قرب البصرة، عام ٤٤٦ هـ، ونشأ بالبصرة، وأخذ اللغة والعلم عن جلة من علمائها، ثم تولى عملاً في ديوان الخلافة توارثه بعده أولاده. وكان، فيما روي لنا، دميم الخلقة، بخيلاً، حاد الذكاء، بليغاً، فصيحاً، ميالاً الى الدعابة والفكاهة. توفي عام ٥١٦ هـ.

(١) الوبل: المطر الشديد وإراد به هنا المعرفة والفصاحة (٢) هذا مثل يضرب في القيام بالشرط (٣) عوذه: دعا له بالحفظ بقوله: أعيذك بالله. المثاني: آيات القرآن. وتطلق أيضاً على السور التي آيها دون المائتين (٤) بتوأمه: بالدينار الآخر (٥) انكفأ: عاد وانعطف. مغداه: غدوه (٦) استعدته: طلبت عودته. الوشي: أراد به هنا الكلام الجيد (٧) هذا مثل معناه: اداري أمري مع الشدة واليسر. والريح الزعزع: الشديدة الهبوب والرخاء: اللينة (٨) استسر: اختفى. تجلى: ظهر (٩) ألقى حبله على غاربه: مثل يضرب لاطلاق الأمر على هواه. مرج: خلط ولم يستقم على حالة واحدة.

آثاره وأسلوبه : للحريري آثار نثرية وشعرية عديدة نذكر منها كتابة « درّة الغوّاص في أوهام الخواص » وهو كتاب لغوي ينطق بثقافة الحريري اللغوية الواسعة ، ومنها : « المقامات » وجملة من الرسائل والاشعار . واشهر آثاره مقاماته التي حذا بها حذو بديع الزمان الهمذاني وقد اعترف له بفضل السبق فقال في المقدمة : « هذا مع اعترافي بأن البديع ، رحمه الله ، سبّاق غايات ، وصاحب آيات ، وأن المتصدّي بعده لانشاء مقامة ، ولو أوتي بلاغة قدامة ، لايغترف إلا من فضالته ، ولا يسري ذلك المسرى إلا بدلالته .. » ، وقد بدأ بها سنة ٤٩٥ وهو في الحادية والثلاثين من سنه . وعدة مقاماته خمسون مقامة ، وقد ذكر لنا الحريري في مقدمتها طريقته في نظمها فقال : « ... وأنشأت ، على ما أعانيه من قريحة جامدة ، وفطنة خامدة ، وروية ناضبة ، وهموم ناصبة ، خمسين مقامة تحتوي على جد القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر البيان ودره ، وملح الادب ونوادره ، إلى ماوشحتها به من الآيات ، ومحاسن الكنايات ، ورصّعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية ، والأحاجي النحوية ، والفتاوي اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المحبّرة ، والمواعظ المبكية ، والأضاحيك الملهية ، مما أمليت جميعه على لسان أبي زيد السروجي ، وأسندت روايته إلى الحارث بن همام البصري ، وما قصدت بالاحماض فيه ، إلا تنشيط قارئيه ، وتكثير سواد طالبيه ، ولم أودعه من الاشعار الأجنبيّة إلا بيتين فذّين ، أسست عليها بنية المقامة الحلوانية ، وآخرين توأمين ضمنتها خواتم المقامة الكرَجيّة ، وما عدا ذلك فخاطري أبو عذره ، ومقتضب حلوه ومره .. » . وقد استطارت للمقامات شهرة واسعة ، واستأثرت باعجاب اللغويين والادباء ، وشرحها الكثيرون كالشّريشي والرازي والعكبري ثم ترجمت الى عدة لغات أوربية .

وبطل هذه المقامات كما تقدم رجل اسمه أبو زيد السروجي ، يقابل أبا الفتح الاسكندري في مقامات الهمذاني ، ويروى عن الحريري أن أبا زيد هذا كان شحاذاً هرماً فصيح اللسان ، رآه الحريري في مسجد البصرة وأعجب بفصاحته . والمقامات مروية عن لسان الحارث بن همام البصري الذي يقابل عيسى بن هشام في مقامات أبي الهمذاني ويرى بعض الشراح أنه عنى بالحارث ابن همام نفسه ، أخذاً من الحديث : « كلكم حارث وكلكم همّام » .

وأسلوبه في مقاماته يشبه أسلوب البديع في تكلّف السجع والاغراب إلاّ أن أسلوب البديع أرشق لفظاً وأجمل وقعاً وأقل تكلفاً ، وبديع الزمان أخصب خيالاً وأقدر على ابتكار الوقائع وايراد الملح ، ويمتاز الحريري بكثرة عنايته بالشعر ، وشعره أجود من شعر الهمذاني ، ولغته أوسع ، وتعابيره أدق ، وقد عنى كثيراً بالنكت اللغوية والطرائف النحوية ، إظهاراً لبراعته ومقدرته في اللغة والنحو .

الغزالي

نموذج من كتاب « إحياء علوم الدين »

فصل المجاهدة في تزكية النفس

اعلم أن بعض من غلبت عليه البطالة استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دَخْلته، فزعم أن الأخلاق لا يُتَصوَّر تغييرُها. فنقول: لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حسّنوا أخلاقكم» وكيف يُنكَر هذا في حق الآدمي، وتغييرُ خُلُق البهيمة ممكن إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد، وكل ذلك تغيير للأخلاق. والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول: الموجودات منقسمة: إلى ما لا مدخل للآدمي واختياره في أصله وتفصيله كالسماء والكواكب، بل أعضاء البدن داخلاً وخارجاً وسائر أجزاء الحيوانات وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله. وإلى ما وجد وجوداً ناقصاً وجعل فيه قوةٌ لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه. وشرطه قد يرتبط باختيار العبد. فإن النواة ليست بتفاح ولا نخل، إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضاف التربية إليها، ولا تصير تفاحاً أصلاً ولا بالتربية. فإذا صارت النواة متأثرة بالاختيار، حتى

تقبل بعض الأحوال دون بعض ، فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعهما وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لهما أثر لم نقدر عليه أصلاً ولو أردنا سلاستهما وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه . وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا ووصولنا الى الله تعالى.

التعريف بالمؤلف : الغزالي هو أبو حامد محمد بن محمد . ولد بطوس (من أعمال خراسان) سنة ٤٥٠ هـ . درس في المدرسة النظامية ببغداد ، وأخذ نفسه بدرس الفلسفة فاشتغل بها وهو يُعلِّم ، ثم انقطع عن التدريس سنة ٤٨٨ ليتخصص لها ويتعمق فيها . فتبين له أن الفلسفة والدين ضدان ، فناصب الفلاسفة العداء ، وحمل عليهم بأسلحتهم ، فلقب بذلك حجة الاسلام . ثم سلك طريق التزهد ، ونهج سبيل التصوف ، فوطده على أساس الحكمة ، وأيده بحقائق العلم . ثم غادر بغداد وطاف في بلدان كثيرة ، ولكنه رجع الى وطنه أخيراً ، وعكف على العبادة والتصوف . من آثاره كتاب احياء الدين في التصوف . وقد قيل في فضله : « لو ذهبت كتب الاسلام وبقي الاحياء لأغنى عما ذهب » . وهو مرتب على أربعة أقسام : العبادات والعادات والمهلكات والمنجيات . وله كتاب « تهافت الفلاسفة في الرد على فلاسفة اليونان وأتباعهم » ، وكتاب « مقاصد الفلاسفة في » الموضوع عينه .

تحليل النص : موضوع النص موضوع فلسفي اجتماعي يتناول قضية كانت شغل الفلاسفة وعلماء الاخلاق : وهي أن الاخلاق هل يستطاع تغييرها ؟ فمن زاعم أن الاخلاق صفات ثابتة لا تتحول ولا تتبدل ، وأن الاشتغال بتزكية النفس عبث فارغ ، ومن معتقد بأن الاخلاق صفات قابلة للتغيير وأن المجاهدة فيها تبدلها وترفع من شأنها . وكاتب النص أحد هؤلاء الذين يعتقدون باستحالة الاخلاق وتهذيبها وجلائها بالمجاهدة والرياضة .

فهو يعرض المشكلة ، أولا ، كما هي ، ولكنه يهاجمها ـ خلال ذلك ـ قبل أن يدلي بحججه . فإن الزاعم أن الاخلاق لا تتغير انما يدفعه الى ذلك قصوره ونقصه وخبث دخلته ، ليجد من ذلك شفيعا على انحطاطه . ثم يبدأ بالحجة بعد الحجة . وهي حجج منطقية دامغة . تستهدف العقل والنقل حينا ، والتمثيل حينا . فاذا كانت الاخلاق غير قابلة للتغيير فلماذا الوصايا والمواعظ والتأديبات إذاً ؟ ولماذا وصية الرسول : حسنوا أخلاقكم ! إذا كان التحسين لا يجدي ؟ ثم ينتقل ليقارن بين قبول التغيير في أخلاق الآدمي والبهيمة ، فيراه مقبولا معقولا في البهائم التي تنقل من حالة الاستيحاش الى الأنس ، كالبازي والفرس وسواهما ، هذا في البهيمة ، فكيف الأمر في الآدمي ؟ وبعد أن يمثل هذا التمثيل ، يستخرج من ذلك كله دستوراً يقيم عليه فكرته . ويسمي

هذا الدستور « القول الكاشف للغطاء عن ذلك » . فيجعل الموجودات قسمين : ١) منها ما انتهى خلقه وتكوينه ، فلا سبيل الى أي تغيير فيه كالسماء والكواكب وأعضاء البدن بحسب مواقعها من الجسد . هذا القسم قد انتهى القول من وجوده وكماله . ٢) والقسم الثاني ما لا يزال في حالة النقص ، على أنه ينطوي على القوة التي تجعله قابلا للكمال إذا جمع شرط ذلك . وما الشرط الا الاختيار . على ان هذا التغيير ليس يفرض المستحيل . وانما هو تغيير خلائق قابلة التغيير . ويضرب مثلا على ذلك بالنواة (نواة التمرة) التي خلقت لتصير نخلة بواسطة تربيتها . أما ان تزيدها تفاحة فذلك لا . وهناك حالات في الاخلاق لا تقاوم عادة بالقهر والقسر ، لأن هذا لا يزيدها الا عناداً ، ولكن أخذها بالمجاهدة والتربية قد يفيد حتما في تغييرها وتزكيتها . ثم يجعل هذا الواجب واجبا دينيا لانه طريق النفس الى سلامتها ونجاتها ووصولها الى الله .

خصائص الأسلوب : لقد رأيت خصائص الأسلوب العلمي والأسلوب الجدلي في قطعة « الليلة السابعة : لأبي حيان التوحيدي » وما يعتمد عليه من أسلوب مجرّد ، كأنما صيغ للإفادة ، غير عابئ بالزخارف والمحسنات .

في هذه القطعة يغلب العقل على كل شيء . ويقتصد الكاتب في جمله كثيراً الا ما اضطر إليه من زيادة في الإيضاح والتمثيل . ويظهر على القطعة العناية بتقسيم الموضوع الى أطراف متواصلة ، كأن يذكر المشكلة ، ثم يرد عليها بحجج متناسبة ، حتى اذا أبطلها وأفسد غرضها وهدّمها بنى بناءه الصالح الذي يراه ، ويدعم بناءه بالأمثال التي تسعفه على تحقيق فكرته ، والتشابيه التي يستخدمها للتوضيح .

يميل الى الإطناب حيناً في الكلمات كقوله : المجاهدة والرياضة . أو قوله : لقصوره ونقصه وخبثه ، أو قوله : بطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات . على أن كل كلمة من هذه الكلم تؤدي غرضاً مستقلاً . ألا ترى أن الوصية غير الموعظة ، والموعظة غير التأديب ؟ وتراه حينا يثقل الجملة بالمعنى الذي يريده ، شأن الفلاسفة الذين تضيق جملهم بأغراضهم فيحملك ذلك على اضاعة المعنى ، أو أخذه على حالة من الايهام ، الا اذا أعملت العقل فيه . كقوله : والى ما وجد وجوداً ناقصا وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه ، وشرطه قد يرتبط باختيار العبد ، وفي مثل هذا التركيب تعقيد يحمل على الغموض ؟ وقد يخرج الى بعض عبارات ركيكة بتركيبها كقوله : « ولا تصير تفاحا أصلا ولا بالتربية » . على أن أسلوب النص يكاد يكون سهلا واضحاً ينم عن صاحبه الذي كان يتجافى المماطلة في أسلوبه الفلسفي شأن قرنائه في ذلك العصر .

عبد العزيز الكناني

نموذج من كتاب «الحَيْدَة»

خلق القرآن

قال عبد العزيز بن يحيي : فأقبلت على بشر ، فقلت : يا بشر ما حُجّتك أن القرآن مخلوق ؟ وانظر أحدّ سهم من كنانتك ، فارمني به ، ولا تحتج إلى معاودتي لغيرك ! قال بشر : تقول ياعبدالعزيز ، القرآن شيء أم غير شيء ؟ فإن قلت « شيء » فقد أقررت أنه مخلوق إذ كانت الاشياء كلها مخلوقة بنص التنزيل. وإن قلت « إنه ليس بشيء » فقد كفرت . لأنك تزعم ان حجة الله على خلقه ليست بشيء . قال عبدالعزيز : فقلت لبشر : ما رأيتُ اعجب من هذا . تسألني وتجيب عن نفسك ؟ فإن تسألني لأجيبك ، فاسمع الجواب مني فاني أحسنُ أن أجيبكَ واعبّر عن نفسي ، وإن تُردْ أن تخطب وتتكلم لتبهتني وتُنسيني حجتي ، فان أزداد بتوفيق الله إياي الا بصيرةً وفهماً ، وما أحسبك يا بشر الا وقد تعلمت شيئاً أو سمعتَ هذه المقالة والتي قبلها ، أو قرأتها في كتاب ، فأنت تكره أن تقطعها حتى تأتي على آخرها. فأقبل عليه المأمون وقال : صدق عبدالعزيز . اسمع منه جواب ما سألته ثم رُدَّ عليه بعد ذلك ما شئت ! ثم قال لي : تكلّم ، فأجبه ياعبدالعزيز لما سألك ! فقلت لبشر : سألتَ عن القرآن ، هو شيء أو غير شيء فإن كنتَ تريد أنه شيء إثباتاً الموجود ، ونفياً للعدم فنعم هو شيء . وإن كنت تريد أن الشيء اسم له ، وأنه كالأشياء فلا . فقال بشر : ما أدري ما تقول ولا أفهمه ولا أعقله ولا أسمعه .

لفتات الى النص :

١ — القول بخلق القرآن محنة اختلف فيها أهل السنة والمعتزلة . وقد شجع المأمون المعتزلة على الجهر بأن القرآن مخلوق ، وكان المأمون يجالس العلماء ويناقشهم . وقد جرى بعيداً في حرية الرأي وهوالذي يقول في وضع قاعدة للجدل : « الشتم عيّ ، والبذاءة لؤم . انا قد أبحنا الكلام واظهار المقالات . فمن قال الحق حمدناه ، ومن جهل ذلك دفعناه ، ومن جهل الأمرين حكمنا فيه » . وكان من آثار هذه الحرية التي سنها المأمون أن أنشأ القول بخلق القرآن . ومسألة القول بخلق القرآن مبنية على اثبات صفات الله أو نفيها ، فالمعتزلة لا يثبتون لله صفات قائمة بذاتها لئلا يتعدد القديم ، وأهل السنة يثبتونها . فتفرع عن ذلك أن قال المعتزلة : إن القرآن مخلوق ، لأنه لو كان قديماً لتعدد القديم ، وهم يعنون ذلك ويقولون : إنه ليس بصفة لله ، بل ان الله يخلق هذه الحروف في جسم مُحدَث يسمعه النبي ، وهذا هو الوحي عندهم .

أظهر المأمون رأيه في خلق القرآن سنة ٢١٢ هـ . ولكن أنكر عليه الفقهاء المتورعون ذلك واتهموه بالابتداع ، بل قال بعضهم بكفره . فلما خشي هذا الحال على نفسه أراد أن يحمل الناس على رأيه بقوة سلطانه . فكم عالم أوثق في الحديد ، أو آخر قضى نحبه في سجنه . وقد سار على مذهبه ابنه المعتصم بعده . وممن أوذوا في ذلك الامام أحمد بن حنبل الذي لم يثنه عن رأيه ما لقي من الضرب والتعذيب في مجلس المعتصم نفسه .

والحق أن هذه المسألة كانت محنة أنتجها توغل العلماء في الفلسفة وعلم الكلام : هذه الفلسفة التي شاءت أن تخضع كل شيء من أصول الدين للجدل والعقل . وقد يكون المأمون على حق في اعتقاده ولكن الذي أخطأ فيه وناقض نفسه به أن يدعو الى حرية القول من جهة ، ثم يفرض على الناس رأياً معيناً يمثل عقيدة خاصة لفئة خاصة بالقوة والسيف . ولذلك لم يزد خصومه إلا إباءً وعناداً ، وما انتهت المحنة إلا زمان المتوكل الذي أعاد حرية المعتقد الى أهله .

٢ — وهذا النص يمثل لنا جلسة جدلية بين واحد يقول بخلق القرآن وهو بشر المريسي شيخ المعتزلة في عصره ، وآخر قدم من الحجاز الى بغداد ناذراً نفسه وحياته للرد على القائلين بخلق القرآن ، ولو أغضب الأمر الخليفة . فجمع له المأمون العلماء وعلى رأسهم بشر . وجرت بين الرجلين مناظرة طريفة جداً جمعها عبد العزيز في رسالة صغيرة سماها « الحيدة » — على أن منهم من يشك في نسبتها اليه — ومات عبد العزيز سنة ٢٤٠ هـ .

٣ — يلاحظ — بصورة عامة — في كل جدل حول مسألة خلق القرآن ، أن القائلين بخلق القرآن يتخذون علم الكلام أساساً لجدلهم ، وبه يحاولون استدراج خصومهم للايقاع بهم ، يساعدهم على ذلك تأييد السلطان لهم بينما الآخرون الذين يخشون ، من ناحية بأس السلطان ، ويريدون من ناحية ثانية ، التشبث بعقيدتهم ، يعمدون الى أجوبة فيها مغالطة ولف ودوران ، كأنهم

يجابهون سلاح خصمهم بالسلاح نفسه . واليك هذا المثل من هذا الجدل :

« قال والي المأمون على بغداد لبشر بن الوليد : ما تقول في القرآن ؟ قال : أقول : إنه كلام الله . قال: لم أسألك عن هذا . أمخلوق هو ؟ قال: الله خالق كل شيء ؟ قال : أما القرآن شيء ؟ قال : هو شيء . قال: فمخلوق هو؟ قال : ليس بخالق. ثم أعاد عليه السؤال ، فقال : ما أحسن غير ما قلت ! »

وفي نصنا المذكور جدل قريب من هـذا الجدل الذي رأيته . فعبد العزيز رجل من أهل السنة ، قوي العقيدة ، شديد الاعتداد بنفسه ، يُشلي خصمه أن يرميه بأحد سهم من كنانته . فيبدأ بشر بالسؤال ، ولكنه بدلاً من أن ينتظر جواب خصمه ، يأخذ هو بالجواب عنه – على عكس ما رأيتَ في الجدل السابق – ومن آداب الجدل أن تترك لخصمك حرية الجواب وإلا فما معنى مناظرتك إذا كنت أنت السائل والمجيب معاً ؟. وليست دعوى بشر بجديدة ، لأنها دعوى المعتزلة كلهم ، حين يحاولون قبل كل شيء أن يجعلوا من القرآن « شيئاً » كبقية الأشياء ، حتى اذا اعترف الخصم بهذه « الشيئية » أجروا عليه قانون كل مخلوق ، لأن الأشياء كلها مخلوقة . وكأن عبد العزيز الذي أظهره مطلع الجدل رجلاً حاد المزاج ، مستوفز الشعور استطاع أن يقبض على خصمه قبضة جامعة ، فأخذ عليه أن يسأل ويجيب ، وقال إنه لا يفهم سلوكه هذا إلا أن صاحبه « قد تعلم هذا الشيء او سمع هذه المقالة ، أو قرأها في كتاب ، فهو يكره أن يقطع ما أملي عليه حتى ينتهي منه » وليس بعد هـذا سخر ألذع !... فاضطر المأمون إلى أن يحكم بينهما ، فيترك للسائل أن يسأل ، وللمجيب أن يجيب . فيرد عبد العزيز مفسراً معنى الشيء من ناحيتين : فالشيء قد يراد منه وجوده . واذا كان كذلك فالقرآن هو شيء لأنه موجود فقط ! وأما أن يكون هذا الشيء – أي القرآن – كبقية الأشياء ، يطرأ عليه ما يطرأ عليها فهو ليس بشيء . ولا نكران في أن هذا الجواب غير شاف من الناحية الفلسفية . لأن الفلسفة العامة حين تضع دستوراً كلياً لا تحاول نقضه . ولذلك كان استثناء القرآن من الأشياء استثناء عقيدة كان يؤمن بها عبد العزيز . ولذلك نجد بشراً يضيق بهذا الجواب ضيقاً شديداً عبَّر عنه بهذه الجمل المترادفة التي تحمل الغيظ والرد : « ما أدري ما تقول ، ولا أفهمه ، ولا أعقله ، ولا أسمعه » .

ولعلك لاحظت في هـــذا النوع الأدبي الجدلي أن المناظر مرتبط بخصمه ، مقيد بأفكاره ، فهو يستمع اليها ثم يناقشها . ولذلك يردد كثيراً من ألفاظ نظيره وعباراته . ورأيتَ أن الموضوع كان مقسما الى نقط يدور عليها الحوار والسؤال والجواب . والترديد واستعمال الأقيسة المنطقية من عناصر المناظرة . ولعلك لاحظت أيضاً أن في المناظرة ألفاظاً اصطلاحية خاصة لتسهيل التفاهم ، وتحديد الأفكار ، كما أن العبارة جاءت دقيقة واضحة ليس فيها أسهاب مخل ، ولا تكرار غير مفيد .

ابن الجوزي

نموذج من كتاب « المدهش »

كم أخرج الموت نفساً من دارها ، لم يدارها ، وكم نقل ذاتاً ذات خطأٍ بأوزارها ، وكم أجرى عيوناً كالعيون ، بَعْدَ بُعْدِ مزارها !

يا مُغرماً بوصال عيشٍ ناعمٍ ستُصدُّ عنه طائعاً أو كارها
إن المنية تزعج الأحرارَ عن أوطانهم والطيرَ عن أوكارها

إخواني ! قد حام الحِمام حول حِماكم ، وصاح بكم إذ خلا النادي وناداكم ، وأولاكم من النُصح حقكم ، فما أحقكم بالتدبير وأولاكم ؛ وهو عازم على اقتناصكم ، وما المقصود سواكم . كم أخلى الموت داراً فدارا ، أما استلب كسرى بن دارا ؟ أما ترك العامرَ قِفاراً ؟ أما أذاق الغُصَصَ المُرَّةَ مراراً ؟ لقد جال يميناً ويساراً ، فما حابى فقراً ولا يَساراً . يا هذا ، مطايا العُمر قد أعنقت ، وأنت في مسامرة الأمل . مَعاولُ الساعات تُهدّم حائط الأجَل أسنّةُ القنا مُشْرَعةٌ ولا درعَ ، عقاربُ الخَدَعِ داغةُ اللَّسع ، غيرأن خَدَرانَ الغفلة يَمنع الإحساسَ بسَريان السمِ . الناسُ في الدنيا ككيزان الدولاب ، فالشباب مثلُ الممتلئ ، والكهلُ قد فرغ بعضُه ، والشيخ لم يبقَ فيه شيءٌ . يامَنْ قد انطوى بُردُ شبابِه ، وبلغت سفينتُه ساحلَ سفرَه ، قِفْ على ثَنيةِ الوَداع « فلم تبقَ إلا ساعة تُتغنّم » . لو فتحتَ عينَ اليقظة لرأيت حِيطانَ العُمرُ قد

تهدّمت . فبكَيْت على خراب دار الأجل، صاح ديكُ الإيقاظ، في سَحَر ليل العِبَر، فما تيقّظتَ ، فستنتبه :

ومُشتّتَ العزَمات يُنفق عُمرَه حيرانَ لا ظَفرٌ ولا إخفاقُ

يامبذّرًا في بضاعة العمر، متى يُؤنَس منك رَشَدٌ؟ يا طويلَ الرُّقاد ، الدنيا مضمارُ سباحة، وليلُ سُرىً ، وطلبُ الراحة تَحنُّثٌ .

فلا تحسبوا أن المعالي رخيصةٌ ولا أنَّ إدراكَ العُلا هيِّنٌ سَهْلُ

فما كلُّ من يسعى إلى المجد ناله ولا كلُّ من يَهوَى العلا نفسُهُ تعلو

تفسير الألفاظ : ذاتاً ذات خطأ : نفساً صاحبة خطأ . حام الحمام : حام الموت . فما حابي فقراً ولا يساراً : لم يراع فقراً ولا غنى . قد أعنقت المطايا : مدت أعناقها وأسرعت . أسنة مُشرَعة : رماح مسدّدة . خدَران الغفلة : هدوء الغفلة من خدرت الرجل : لم تقدر على الحركة لتشنّج فيها . كيزان الدولاب: أوعية الناعورة. طلب الراحة تحنث : ميل الى الباطل .

١ـ التعريف بالمؤلف : هو عبد الرحمن بن علي الجوزي ، علامة في التاريخ والحديث ، ولد في بغداد سنة ٥٠٨ هـ ومات فيها سنة ٥٩٧ هـ . له تصانيف كثيرة . منها كتاب « المدهش » . وهو كثير المواعظ . نهج فيه صاحبه نهج أصحاب المقامات من حيث الأسلوب .

٢ـ اعمل على تحليل النص بعد الاستعانة بهذه الأسئلة .

١ - حول أية غاية يدور الموضوع .
٢ - هل يميل الى ناحية المعاني والفكر أم الى الزخرفة والتلاعب بالألفاظ ؟
٣ - بماذا يوافق أسلوبه أسلوب المقامات ؟ وماذا نستنتج من رواج أسلوب المقامات وسيطرته على الفنون الأدبية ؟
٤ - هل تجد هذا الأسلوب مؤثراً في الأسماع ؟ وهل هو من توابع الأسلوب الكتابي أو الأسلوب الخطابي ؟ ولماذا ؟
٥ - هل يذكرك هذا الأسلوب بالعودة الى أسلوب قس بن ساعدة الإيادي .. وهل لك بمقارنة بين القطعتين من ناحية المعاني والأسلوب اللفظي ؟

أبو بكر الرازي

نموذج من كتاب « السيرة الفلسفية »

قال محمد بن زكريا الرازي : إنّا نحتاج أن نبني أمرنا ، فيما هو غرضنا المقصود في هذه المقالة ، على اصول قد تقدم بياننا لها في كتب اخرى لا بُدّ من الاستعانه بها لتخفيف ما في هذه المقالة .

فمنها كتابنا في « العلم الإلهي » وكتابنا في « الطِب الروحاني » فإنه لا غنى عنه في استتمام غرض هذه المقالة . والأصول التي نبني عليها فروع السيرة الفلسفية ونأخذها ههنا ، ونقتضبها اقتضاباً وهي : أ ـ أن لنا حالة بعد الموت حميدة أو ذميمة بحسب سيرتنا كانت مدة كون أنفسنا في أجسادنا . ب ـ وأن الأمر الأفضل الذي خلقنا له ، وإليه أُجري بنا (١) ، ليس هو إصابة اللذات الجسدانية بل اقتناء العلم واستعمال العدل اللذين بهما يكون خلاصنا من عالمنا هذا إلى العالَم الذي لا موت فيه ولا ألم . ج ـ وأن الطبيعة والهوى يدعواننا إلى إيثار اللذة الحاضرة ، وأما العقل فكثيراً ما يدعونا إلى ترك اللذات الحاضرة لأمور يُؤثرها عليها . د ـ وأن المالك لنا ، الذي منه نرجو الثوابَ ونخاف العقاب ناظرٌ لنا رحيم بنا ، لا يريد إيلامنا ويكره لنا الجور والجهل ، ويُحب منا العلم والعدل ، فإن هذا المالك يعاقب المؤلم منا ومن استحق الإيلام بقدر استحقاقه . هـ ـ وأنه لا ينبغي أن نحتمل ألماً في جنب لذة يفضل عليها ذلك الألم في كميته وكيفيته . و ـ وأن الباري جل وعزّ قد وكل الأشياء الجزئية من حوائجنا إلينا كالحراثة والنسج وما أشبه ذلك ، مما به قوام العالم ، وقوام المعيشة .

(١) سُخِّرنا وهُيئنا .

١ - **التعريف بالمؤلف** : هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، ولد بالري . وهو « طبيب المسلمين غيرَ مدافَع » كما يقول صاعد في كتابه « طبقات الأمم » . وكانت كتبه الطبية أكبر كتب الطب في العصور الوسطى ، وقد ترجمت الى اللاتينية ، وظل الرازي في أوروبا حجة في الطب لا ينازع حتى القرن السابع عشر . ويظن أنه توفي عام ٣٢٠ هـ درس الرياضيات ، وأقبل على تعلم الطب والفلسفة بشغف عظيم . ولكنه كان ينفر من علم الكلام ، ودرس المنطق . وهو يذهب الى أن النفس هي التي لها الشأن الأول فيما بينها وبين البدن من صلة ، ولما كان ما يجري في نفس الانسان من خواطر وآلام يمكن أن يُستشفّ من خلال الملامح الظاهرة ، فقد أوجب الرازي على طبيب الجسم أن يكون طبيباً للروح .

لفتات الى النص : ١ — يريد المؤلف في هذه المقدمة أن يبين الغرض ، والأصول التي يبني عليها فروع السيرة الفلسفية كما يفهمها . وهو يعمد من أجل ذلك الى الاقتضاب . وقيمة هذه المقدمة في أنها توضح غرض الكتاب وتفسره ، كأنها مفتاح له .

٢ — ثم يذكر المؤلف هذه الفروع التي أنشأ عليها فلسفته ، فاذا بها فلسفة روحية بعيدة عن النزعة المادية . فيقرر أولاً أن للناس حالة بعد الموت ، حميدة أو ذميمة ، بحسب سيرتهم السابقة . وإذا يرى أن الأمر الأفضل الذي خلقنا له ليس هو إصابة اللذات الجسدانية ، بل اقتناء العلم والعدل اللذين بهما يكون الخلاص من هذا العالم الزائل . ثم يضع ، ثانيا ، الفرق بين مجاذبة الهوى والعقل . الأول يدعو الى لذة عاجلة ، والعقل يدعو لأمور أفضل منها . ثم يبين عمل الله ، ثالثا ، وموقفه من كائناته « فالله — عنده — ناظر لنا ، رحيم بنا ، لا يريد إيلامنا . ولكنه يكره لنا الجور والجهل ، ويحب منا العدل والعلم . ولذلك لا يعاقب الا من استحق بقدر استحقاقه . » وما دام الأمر كذلك فلماذا نحتمل العذاب في سبيل لذة خاطفة سريعة ؟ وأخيراً يبين كيف هدى الله الخلائق لتعمل الى ما به قوام العالم وقوام المعيشة .

وهذه سيرة فلسفية يريد مؤلفها أن يضعها دستوراً للحياة تستمد أصولها حيناً من الفلسفة ذاتها ، وتقتبس حيناً من الدين نفسه . والحق أن هذه المقدمة تمثل عقلية مؤمنة إيماناً روحياً . وكلها أصول مطروقة قبل المؤلف ، لكن غرابتها أن تبدو منسقة هذا التنسيق من رجل يجمع لأول مرة بين طب الأرواح وطب الأجساد .

٣ — يمكنك الآن أن تدرس القيمة العملية لهذه السيرة الفلسفية ، وتدرس عمل العقل والتنسيق العقلي والأسلوب اللفظي .

استعطاف أم جعفر

« كما يرويه سهل بن هارون »

كانت أم جعفر بن يحي أرضعت الرشيد مع جعفر ، وربّته في حِجرها ، وغذّته بِرِسلها[1]. وكان الرشيد يشاورها مُظهراً لإكرامها ، والتبرك برأيها وكان آلى[2] ، وهو في كفالتها ، أن لا يحجبها[3] ، ولا استشفعته لأحد إلا شفّعها . وآلت أم جعفر أن لا دخلت عليه إلا مأذوناً لها ، ولا شفعت لأحد مقترف ذنباً . فكم أسيرٍ فكّت ! ومُبهم عنده فتحت ! ومُستغلق منه فرّجت ! .

فلما قتل ابنها جعفراً وحبس يحي زوجها وسائر أهل بيته طلبت الاذن عليه ، ومتّت بوسائلها[4] اليه . فلم يأذن لها ، ولا أمر بشيء فيها . فلما طال ذلك بها خرجت كاشفةً وجهها ، واضعةً لثامها ، محتفيةً في مشيتها حتى صارت بباب قصر الرشيد ، فدخل عبد الملك الحاجب ، فقال :

ظِئر[5] أمير المؤمنين بالباب في حالة تقلب شماتة الحاسد إلى شفقة أم الواحد .

فقال الرشيد : ويحك ياعبدَ الملك ! أوساعية ؟ . قال : نعم ، يا امير المؤمنين !

شرح الألفاظ : ١) غذته برسلها : بلبنها . ٢) آلى على نفسه : أخذ عهداً عليها . ٣) أن لا يحجبها : لا يمنعها من الدخول عليه متى شاءت . ٤) متّت بوسائلها اليه : مدّت بحبال المعرفة والمودة . ٥) الظئر : المرضع . وتستعمل للرجل والمرأة .

وحافية ! . قال : أدخلها يا عبد الملك ! فرُبَّ كَبِدٍ غذتها ، وكُربة فرجتها ، وعورة سترتها . فدخلت ، فلما نظر الرشيد اليها داخلة محتفية قام محتفياً حتى تلقاها بين عَمَد المجلس ، وأكبَّ على تقبيل رأسها ومواضع ثديها ، ثم أجلسها معه ، فقالت : يا أمير المؤمنين ! أيعدو علينا الزمان ؟ ويجفونا خوفاً لك الأعوان ، ويُحردك علينا البُهتان (١) . وقد ربّيتُك في حِجري ، وأخذت برضاعك الأمان من عدوّي ودهري.
فقال لها : وما ذلك يا أمّ الرشيد ؟ . قالت : ظِئرُك يحيى ، وأبوك بعد أبيك . ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته وإشفاقه عليه ، وتعرّضه للحتف في شأن موسى أخيه (٢) . فقال لها : يا أم الرشيد ! أمرٌ سبق ، وقضاء حُمّ (٣) ، وغضب من الله نفَذ . قالت : يا أمير المؤمنين ! « يمحو الله ما يشاء ، ويُثبت ، وعنده أم الكتاب » . قال : صدقتِ ، فهذا مما لم يمحُه الله . قالت : الغيب محجوب عن النبيين ، فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟ فأطرق الرشيد ملياً (٤) ثم قال :

وإذا المنيةُ أنشبت أظفارها ... ألفيتَ كلَّ تميمةٍ (٥) لا تنفع

فقالت بغير روّية : ما أنا ليحيِ بتميمة يا أمير المؤمنين ! وقد قال الأول :

وإذا افتقرتَ إلى الذخائر لم تجد ... ذُخراً يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله عزّ وجل : « والكاظمين (٦) الغيظَ ، والعافين عن الناس ،

---

١) يُحردك عليها البهتان : يغضبك علينا الكذب والافتراء . ٢) شأن موسى أخيه : إشارة الى نزع ولاية العهد عن موسى ووضعها في هارون بمعونة يحيى . ٣) قضاء حُمّ : اقترب ، ولا يستعمل الفعل إلا في المجهول . ٤) ملياً : طويلاً . وتنصب على الظرفية أو المفعول المطلق ٥) التميمة : خرزة تعلق على الانسان للوقاية . ٦) الكاظمين الغيظ : الذين يكتمونه ، ويقهرونه .

والله يحب المحسنين » . فأطرق ملياً ثم قال : يا أم الرشيد أقول :

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تَكَدْ اليه بوجهٍ آخرَ الدهر تُقبل

فقالت : يا أمير المؤمنين وأقول :

ستقطع في الدنيا إذا ما قطعتَني يمينك، فانظر أيَّ كفٍّ تبدَّلُ!

قال هارون : رضيت . قالت : فهَبه لي يا أمير المؤمنين ، فلقد قال رسول الله (ﷺ) : « من ترك شيئاً لله لم يُوجِدْه (1) اللهُ لفقده » . فأكبَّ هارون ملياً ، ثم رفع رأسه يقول : « لله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ » قالت : يا أمير المؤمنين! « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم » واذكر يا أمير المؤمنين أليّتَك (2) : ما استشفعتُ إلا شفّعتَني . قال : واذكري يا أم الرشيد أليّتك أنْ لا شفعت لمقترفٍ ذنباً . فتحكّمي في تمنية بغيره ! قالت : كلا ، قد وهبتُكه ، وجعلتُك في حلٍّ منه . وقامت عنه ، وبقي مبهوتاً ما يحير لفظة ... وخرجت فلم تعُد ، ولا ، والله ، ما رأيتُ لها عَبرة ، ولا سمعتُ لها أنّة .

* * *

١) لم يُوجده : لم يحزنه . ٢) أليتك : حلفتك .

ابن قتيبة

من مقدّمة كتاب « الشعر والشعراء »

« هذا الكتاب ألّفته في الشعر ، أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم ، وأحوالهم في أشعارهم وقبائلهم وأسماء آبائهم ، ومن كان يعرف باللقب او الكنية منهم ، وعمّا يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره ، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم ، وما سبق إليه المتقدمون، فأخذه عنهم المتأخرون. وأخبرت فيه عن أقسام الشعر وطبقاته ، وعن الوجوه التي يُختار الشعر عليها ، ويستحسن لها ، الى غير ذلك ، ممّا قدّمته في هذا الجزء الأول .

وكان قصدي للمشهور من الشعراء الذين يعرفهم جُلّ اهل الأدب ، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب ، وفي النحو ، وفي كتاب الله عز وجل ، وحديث رسول الله ﷺ ... ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له سبيلَ من قلّد أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدّمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخّره ، بل نظرت بعين العدل الى الفريقين ، وأعطيت كلاً حقه ووفرت عليه حظه . فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في مُتخيّره . ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه ، أو أنه رأى قائله . ولم يُقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خصّ به قوماً دون قوم . بل جعل ذلك مُشتركاً مقسوماً

بين عباده . وجعل كل قديم منهم حديثاً في عصره ، وكل شريف خارجياً في أوّله . وقد كان جرير والفرزدق والأخطل يُعَدُّون محدثين ، وكان ابو عمرو بن العلاء يقول : « لقد نبغ هذا المحدث وحسُن ، حتى لقد هممتُ بروايته » ، ثم صار هؤلاء قدماء عندنا لبعد العهد منهم ، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا كالخريمي ، والعتّابي ، والحسن بن هانيء . فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ، ولا حداثة سنه ، كما ان الرديء إذا ورد علينا للمتقدّم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه . »

تحليل النص

ترجمة المؤلف : هو أبو محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة ولد سنة ٢١٣ هـ في بغداد ، وتوفي سنة ٢٧٦ هـ وكان من أكابر رجال التأليف وأئمة الادب في القرن الثالث . ويُعد بعد الجاحظ . ومن أشهر مؤلفاته كتاب « عيون الاخبار » وكتاب « الشعر والشعراء » ، وقد جعل الغاية منه تصنيف الشعراء ، وكتاب « المعارف » ، وكتاب « أدب الكاتب » .

التعريف بالنص : هذا النص قطعة من مقدمة الكتاب تهيء عادة قارئها - بما جاء من أحكامها ونظراتها - لكتاب يبحث حياة الشعراء ومذاهبهم الفنية ، كما وعد صاحب المقدمة ، لكن هذا الكتاب لم يجيء وفقا لهذه المقدمة . وما كان أشبه هذه المقدمة بمقدمة ابن خلدون في التاريخ امتلاءً ونضجاً وصدق أحكام ، وما أشبه هذا الكتاب بعدها بتاريخ ابن خلدون الذي لم يحقق ماجاء في مقدمته . والكتاب نفسه لا يحمل نقداً للشعر القديم والحديث ، كما وعد صاحبه ، لكنه يعتبر كمجموعة شعرية ممتازة . على أنه يجب القول إن مجموعة ابن قتيبة لم تكن بأول مجموعة في القرن الثالث ، فقد سبقتها محاولات لجمع الشعر القديم . أبرزها مجموعة طبقات ابن سلام الجمحي والمعلقات ، والمفضليات ، وحماسة أبي تمام .

أقسام النص وأفكاره العامة : أ - بين الكاتب في الجزء الاول غرضه من تأليف الكتاب ، وهو يخبر فيه عن الشعراء وأحوالهم وأزمانهم ، ثم يختار نبذاً من أخبار كل رجل وما يستجيده من شعره ، وما استقبحه العلماء من ألفاظه ومعانيه ، وما سبق إليه المتقدمون ، وما استحدثه المتأخرون .

ب - ثم يبين أنه قصد من الشعراء أكثرهم شهرة ممن يقع الاحتجاج بشعرهم في الغريب وفي النحو ، وفي كتاب الله وحديث رسوله (ص) . ولا نعلم أن غرض الشعر الحقيقي يتسامى الى مثل هذه الاستشهادات . فالغريب شيء والشعر شيء ، وكذلك النحو والالفاظ الدينية شيء ، والشعر شيء آخر . ولكن ابن قتيبة اتبع ذوق عصره في هذا الجيل ، وهو يتأثر بمذاهب أهل اللغة مرة ، وبمذاهب أهل الدين مرة أخرى .

ج - ثم يبين ابن قتيبة انفراده بما يعتمد فيه على رأيه الشخصي وذوقه الشخصي في اختياره للشعر ووصفه لأحكامه ، إذ لا يقصد سبيل المقلدين ولا يستحسن شيئا بمجرد ان استحسنه غيره ، وانما يعود في ذلك الى عقله وذوقه وأحكامه . ومثل هذا الرأي له قيمته في المسائل الادبية والفنية .

د - ثم ينتقل الكاتب الى مسألة القديم والحديث غير آخذ بنظرية الذين يقدسون القديم لقدمه ، ويحتقرون المتأخر لتأخره . وهذه نظرية طالما عولجت حتى أصبحت لا تحتاج الى مناقشة ومجادلة لانها من الامور البدهية التي لا يغالط فيها الا مكابر منكر للحق والطبيعة . اذ ان الاجادة الفنية شيء لا يتعلق بقديم ولا حديث . فقد يجيد المتقدم وقد لا يجيد ، وقد يُحسن المتأخر وقد لا يحسن ، تبعا للقريحة والتجويد لا تبعا للتقدم والتأخر . إذ أن الله لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم . وقد يشتد الكاتب في الانتصار لهذا الرأي حتى يهاجم أساتذته من العلماء الذين كانوا يستجيدون الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويرذلون الشعر الجيد لتأخر قائله ، وانما مقياس الكاتب في هذا ان يعترف بالاحسان لمن أحسن ، وبالاساءة لمن أساء . ولعمري هذا هو المقياس الحق .

تصويب الأخطاء

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥	٢٠	أبي ذوايب	أبي ذؤيب
١٦	١٣	الكتابة	الكناية
١٧	٢٠	أم معادية	أم معاوية
١٨	١٩	الفاصلة	الفاضلة
٢٠	١١	أبو قتيبة	ابن قتيبة
٢٣	١٤	مع الواقع	من الواقع
٢٦	٤	احضاره لى	احضاره الى
٢٩	١٤	حمرٌ	حُمْر
٣٥	٤	ارمنية	إرمينية
٣٧	٧	الهمذاني	الهمداني
٤٢	١	قبيلِ	قبيلِ
٤٣	١٠	الفرردق	الفرزدق
٤٣	١١	وجدي ... تُوأدِ	وجدي ... يُوأدِ
٤٧	٢٠	بذلك قصصاً	بذلك قصصٌ
٤٨	١٨	ماكانت تمد	ماكانت تعدو
٤٩	٦	لاتذرُنْ وُدّاً	لاتذرُنَّ وَدّاً
٦٦	١٠	حمار الوحش	الثور الوحشي
٧٢	ح ١٠	موصولة	شرطية
٨٤	٥	يعلمَ	يَعلمِ
١٣٣	٢	طبر	طير
١٣٨	٢٣	تكلف	تكلف .»
١٤١	١٥	ناقعُ	ناقِعُ
١٤٣	ح ٨	شدة نعومته	لشدة نعومته
١٤٦	٥	قاذا	فإذا

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٤٩	٩	وآفة : أفسده	وآفهُ : أفسده
١٥١	٩	تَشدَّ بَه	تَشدَّ بَهُ
١٥٢	ح ٦	الخطب	الحطب
١٦٦	٧	موردًا	مواردًا
١٧٩	١٦	الأباضيّة	الإباضيّة
١٧٩	١٨	أباض	إباض
١٨٦	٩	لَقَبَّث	لِقِمَّبَت
٢٠٦	١٠	ولعلكم تشكرون (١) .	ولعلكم تشكرون (١) . وألقى في الأرض رواسيَ أن تَميدَ بكم وأنهاراً وسبُلاً لعلّكم تَهتَدُون (٢) .
٢١٧	١	الاسلامي	الإسلامي
٢١٨	٨	اللّذين	الّذين
٢٢٣	١٦	ملي٠ه	مليء
٢٧٠	٥	الكِتابَ	الكِتابِ
٢٧٢	١٢	يخلُقَ	تخلُقَ
٢٩١	١٣	زتجي	ترتجي
٣٠٧	١٠	يهجوه فيه	يهجوه فيها
٣٣٣	٦	بنَ	بينَ
٣٥٥	٢٠	Encyclopédée	Encyclopédie
٣٥٧	١٠	نقنع	تقنع
٣٨٩	٢	وحانت	وحالت
٤٣١	١١	وقفو	وقفوا
٤٤٨	٢	نُميتُ	تُميتُ
٤٥١	٨	وحافظ	وحافظ
٤٨٨	١٦	بفِئتكم	بقَيْئتكم
٤٨٩	٥	روزبة	روزبة
٥١١	٨	يأمن	يأمن

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع

الصفحة	الموضوع